خوان باندو
Juan Pando

التاريخ السري لحرب الريف

(المغرب.. الحلم الممزق)

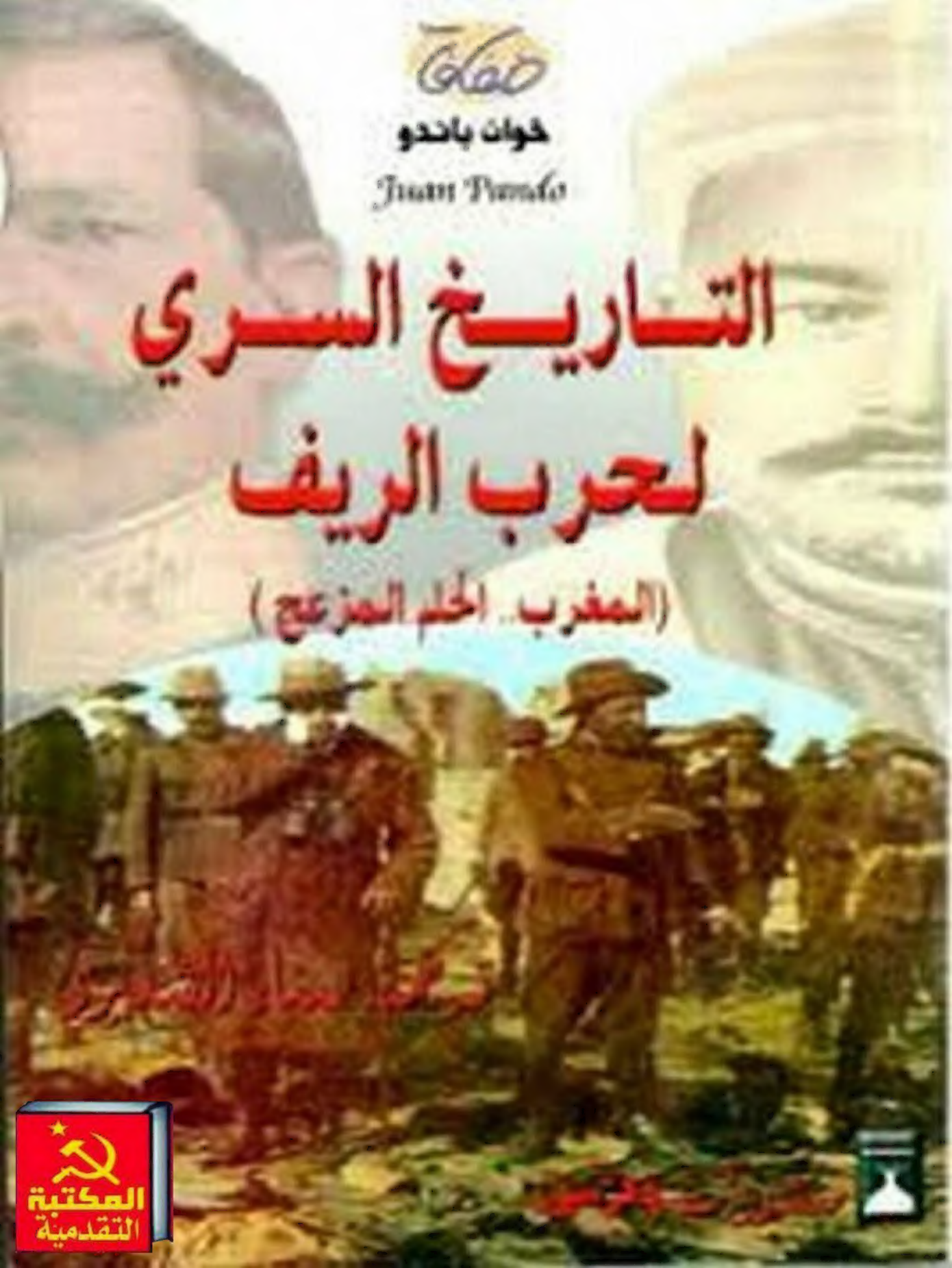

المكتبة التقدمية

الكتاب الثاني عشر

الإيداع القانوني ، 2008/0621
الترقيم الدولي (ردمك) ، 9954-408-80-0
طبع 2008 / الطبعة الأولى
النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء
التوزيع، سبريس
ضفاف، سلسلة تعريبات، يشرف عليها الدكتور محمد سبيلا، أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس، الرباط
المدير، عبد الكبير العلوي الإسماعيلي
الإخراج التقني، خديجة فارس
العنوان ، 153، شارع سيدي محمد بن عبد الله رقم 7 -العكاري- الرباط
الهاتف + الفاكس ، 44 98 29 37 212 00 - الهاتف ، 96 34 64 37 212 00
البريد الإلكتروني، e-mail: mazzaman@menara.ma / az_zaman@hotmail.com

خوان باندو

Juan Pando

التاريخ السري لحرب الريف

(المغرب . . الحلم المزعج)

HISTORIA SECRETA DE ANNUAL

ترجمة: سناء الشعيري*

- أستاذة باحثة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

نشر هذا الكتاب بدعم من المديرية العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات،
التابعة لوزارة الثقافة الإسبانية

Esta obra ha sido publicada con la ayuda de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio español de Educación, Cultura y Deportes

خوان باندو

- من مواليد سنة 1943 بمدريد.
- حاصل على الدكتوراه في التاريخ والجغرافية.
- خبير في العلاقات الدولية والتاريخ العسكري.
- ألقى العديد من المحاضرات على طلبة الماجستير في كلية علوم الإعلام وجامعة كومبلوتينسي والأكاديمية العامة بسرقسطة.
- سنة 1998 تم تكليفه بمعرض "حلم ما وراء البحر" الذي احتضنته المكتبة الوطنية بمدريد.
- يعدّ واحدا من أبرز الأفريقانيين، وعضو شرفي داخل مؤسسة نويسترا سينيورا دي أفريكا.
- من كبار المهتمين بقضايا المغرب، خاصة منطقة الريف وجبالة. جاءت زيارته الأولى لمنطقة أنوال سنة 1969. فيما بعد تكررت الزيارات، عام 1971، 1972، 1985، 1990 و1998، وذلك للاطلاع على أدق تفاصيل تراجيديا جيش الإسبان بقيادة الجنرال سيلفستري. بموازاة مع ذلك عزز مجهوداته العلمية ببحث وتنقيب دقيقين استغرقا منه ثماني سنوات في الأرشيف العدلي الإسباني.

مقدمة

كانت المنحدرات الوعرة لجبال إيزومار، ومعها كل ساحات القتال في انوال واعرويت، وشيفت ودار الكبداني وسوق الثلاثاء ببوبكر، تثير بحق دهشة كبيرة، وتخلّف في النفوس وقعا ليس هيّنا، فبالإضافة إلى تضاريسها الموحشة، تتسم المنطقة بقساوة المناخ الذي لا يرحم إلى يومنا هذا. فكسر شوكة العدو الدخيل، لم تكن لتتأتّى سوى لأناس ولدوا واستطاعوا العيش في تلك البقعة النائية، إذ لا أحد كان يستطيع أن يهزمهم. لكن إسبانيا، في عهد ملكها **الفونصو** -ودون سابق معرفة ولا إمكانيات تذكر- هاجمت الريفيين بطريقة مرتجلة، دون ان يكون لها مخطط عسكري ولا سياسي محكم يهدف على الأقل إلى التقرب من شيوخ القبائل المحلية.

وبعد أن تمكن القائد **سيلفستري** من بسط سيطرته على انوال دون مقاومة، ظنت إسبانيا في شخص ملكها **الفونصو الثالث عشر**، ان الريف قد هُزم وانها كسبت رهان القوة الذي اعاد إليها الشعور بالثقة، خاصة بعد نكبة 1898 (اي ضياع كوبا من يد المستعمر الإسباني)، وهكذا اصبح المغرب بديلا مؤسسيا واستراتيجيا عوضا عن كوبا، وكذا البديل الشرعي الذي قد يزوّد البلاد بالخيرات المعدنية، من حديد ورصاص، يُستخرجان من المناجم الريفية، مما ساعد على رفع معنويات الجيش الذي اعتقد انه سيخوض *قتالا عادلا*.

دخلت إسبانيا إلى المغرب اول الأمر بمبادرة شخصية، لتضطلع فيما بعد بوظيفة الوسيط بين مصالح القوى الاستعمارية (الفرنسية منها والبريطانية). وقد اهّلها إلى ذلك، طبيعتها الوديعة بوصفها شريكا في الاستعمار الذي لم يعرف بصلابته، ولكن بقوة

عزيمته. فبعد فشل حملة "فاشودا" (بالسودان عام 1898)، توقف زحف المستعمر الفرنسي -بقيادة الوزير (**ديلكاسي**)- على الحدود الغربية لإفريقيا عند المغرب، حيث كانت القوات البريطانية تعارض وبشدة، منذ استيلائها على مضيق جبل طارق، وجود اي معمر آخر (فرنسا او إسبانيا) يعرقل اتصالاتها مع قناة السويس ومصر. لكن الإسبان والفرنسيين دافعوا عن مصالحهم متكبدين في ذلك خسائر معنوية جسيمة.

وفي شهر يوليوز 1921، وبعد اندحار جيوش **سيلفستري**، كان التجاهل الفرنسي للحدث قاطعا وممتعظا، بيد أن هذا السلوك ما فتئ أن تغير جذريا، خصوصا بعد انهزام فرنسا سنة 1925 امام العدو الريفي نفسه.

رغم كل الخلافات الاستعمارية الفرنسية-الإسبانية انبثقت نتيجة إيجابية، إذ استطاعت فرنسا سنة 1904 توقيع معاهدة ضد المانيا عرفت بـ (الاتفاق الودي Entente Cordiale) شكلت حجر الزاوية لسياستها الخارجية، بينما ظلت إسبانيا يتيمة في المغرب. لكنها واظبت على دخول غمار الحروب وحدها (حرب **برنكو دي لوبو** Barranco de Lobo عام 1909 وحرب كرت سنة 1912)، الشيء الذي جعل فرنسا -التي كانت تتخوف من اي تحالف إسباني-الماني تقيم لهذا الجار الجنوبي وزنا، فارشدته نحو اولوية تمثلت في استرجاع الأراضي المقدسة (الألزاس واللورين).

جنت إسبانيا من حيادها المثالي، الذي كان التزاما شخصيا من الملك الفونصو الثالث عشر في الحرب العالمية فوائد معنوية دون تحقيق اية مكاسب استعمارية او استراتيجية. إذ استمرت في عزلتها مع اوروبا وانغمست اكثر في المغرب -الذي تحول إلى فلانديس إسباني (الأراضي المنخفضة في اوروبا التي كانت مستعمرة إسبانية) جديد ومخيف-، وهناك (اي في المغرب) كانت إسبانيا تدفن اموالها ورجالها، وافضل تطلعاتها المعاصرة إلى تحقيق الوئام الوطني.

في الوقت الذي غنمت فيه فرنسا ما اصطلح عليه بـ"المغرب النافع" مستحوذة على اهم خيرات البلاد الفلاحية والمنجمية والجيوستراتيجية (الإطلال على جزر الكناري والجزء الشمالي من الصحراء الغربية)، جاءت مساعي الملك الفونصو لتثير دهشة تاريخية وتنصب -بلا فائدة- على منطقة صخرية تعج بالعصابات، إنها منطقة جبالة والريف التي لا تتعدى مساحتها واحدا وعشرين الف كيلو متر مربع، والتي حصلت عليها إسبانيا بمقتضى اتفاقية الحماية لسنة 1912.

كان خبر اندحار قوات سلفيستري والانهيار السياسي للقيادة العامة بمليلية مفاجأة ثقيلة للنظام، وواقعا مُرّا للبلاد. اما النظام، فقد فَقَدَ هيبته إلى الأبد، وأما البلاد فلم تخسر فقط ثمانية او عشرة آلاف من أبنائها، بل فقدت كذلك ثقتها المطلقة في الملكية، وحتى آمالها في وقف نزيف المآسي الأسرية على أرض المغرب. لم يكن للنظام رد فعل يذكر، لكن الشارع كان له راي آخر. فقد جرت الأحداث على غرار نكبة 1898، إذ وقفت الحكومة امام المأساة مكتوفة الأيدي. لكن الشارع انتفض لجرحاه وموتاه، ولكل المختفين من الجيش.

لم تخسر إسبانيا قط في تاريخها الحديث، وحتى ذلك الحين، جيشا برمته -جيش لقي حتفه بعد استسلامه في مواقعه بوحشية كبيرة- كما هو الحال بالنسبة لجيش الجنرال سلفيستري الذي انتحر على جبهة القتال. وحتى وإن حدثت هزائم عسكرية مفاجئة وشنيعة، تكبّدها المستعمر الأوروبي في مواجهة مع الجيش الإيطالي مثلا تحت إمرة **براطيو** Baratiou في عدوة (**إيريطريا** Eritrea في الواحد من مارس 1896)، وقس على ذلك الاندحارات الواسعة النطاق والمتكررة في صفوف البريطانيين ضد **بورس** Boers في جنوب إفريقيا ما بين 1902 و1899، فإن طبيعة المأساة الإسبانية في الريف تبقى الأكثر فظاعة من سابقاتها.

وكرد فعل موالٍ ذهبت الحكومة في اتجاه، والجيش في اتجاه آخر، أما البرلمان، فقد عكس وجهات نظر مختلفة تأرجحت بين غالبية اعربت عن هوسها وإصرارها على البقاء في المغرب حتى النصر، واقلية مثل **كامبو** Cambo، و**بسطيرو** Besteiro و**بريطو** Prieto، أصرت على انسحاب يحفظ للدولة كرامتها وماء وجهها. ولو أصغى الفونصوالثالث عشر لتوقعات بعض مستشاريه- ومن بينهم **ماورا** Maura، وأعطى أوامره بانسحاب المستعمر فور إطلاق سراح الرهائن واسترجاع السلاح، لنجت الملكية ونجت البلاد من ذلك الانشقاق العسكري الذي أفرز حربا أهلية مدمرة.

وفي مقابل الأحداث التي كانت تدور رحاها بإفريقيا، اتُخذ قرار بفتح تحقيق حول ما حدث في تلك المنطقة. وظهرت بذلك مواقف مشابهة تبناها أولئك الساسة والعسكريون الذين حاولوا تجديد هياكل مؤسساتهم. وكان كل من الجنرال **بيكاسو** Picasso و**اغليرا** Aguilera ممن تحمّسوا لهذا القرار. أما عن **البا** Alba و**غارسيا بيرطو**، فقد شكلا ثنائيا

توحدت مواقفه الحكومية. وهكذا تمت عملية إنقاذ الأسرى الإسبان عام 1923، وقبلها طالب مجلس الشيوخ بإعطائه الحق في محاكمة الجنرال **برنكر** Berenguer.

وفي السياق نفسه، ضم البرلمان بمختلف لجانه ونوابه المعروفين باسم "التسعة عشر" و"الواحد والعشرين" صوته إلى هذه المواقف الهادفة إلى إماطة اللثام عن الحقيقة، بيد ان الانقلاب الذي تزعمه **بريمو دي ريفيرا** Primo de Rivera، في العمق وإن لم يقض على كل هذه المخططات إلا انه عرقل مسيرة البحث والتحقيق. إذ أعرب هذا الزعيم عن انشغاله غير المتوقع بالمحاكمة التاريخية، فحاول بذلك كشف النقاب عن كل المسؤوليات منذ عام 1909، فأخفق في محاولاته تلك، لكنه حقق مكسبا آخر تجلى في إعطائه معنى جديدا للمناورات العسكرية، التي توجت بإنهاء الحرب في المغرب عام 1927.

لم تكن نهاية الحرب لتعني بتاتا نهاية الحماس الشعبي، حتى وإن سنّ النظام عفوا شاملا سنة 1924، أدى إلى فتح باب التسيب، فإن الشرخ اتسعت هوته اكثر بين صفوف الجيش الذي اعتبر فاجعة أنوال عارا جماعيا وذنبا تاريخيا لا يغتفر، فعمّ بذلك الإحساس بالظلم والخجل.

وفي خضم الأحداث الاستعمارية، كانت أحداث إفريقيا الألفونصوية مهمة، بالنظر إلى كل التغييرات التي حدثت، سواء على مستوى النظام او على مستوى المؤسسات العسكرية، شأنها في ذلك شأن ما عاشته فرنسا في كل من الهند الصينية ما بين 1949-1954، والجزائر خلال الفترة الممتدة من 1958 إلى 1954، وجمهورية سالاثار في البرتغال الافريقي سنوات (1968-1974). ومثال آخر للانحلال والتفسخ الاجتماعي والسياسي، يتجلى في الحديث عن الولايات المتحدة الأمريكية وجنودها بالفيتنام (1967-1973). اما إسبانيا، فقد انتهى بها الأمر إلى تجاهل ونكران كل شيء، وذلك لحرمانها من شرعيتها في تصفح الوثائق الرسمية وكذلك السرية. اعتبرت سنة 1921 فظيعة، إذ اجبرت المؤسسات على التزام صمت رهيب، جعل كل أولئك الذين عاشوا أحداث الدراما يفضلون التحلي بالصبر. بيد أن البلاد ظلت تحتفظ بشعور رهيب نحو الأمس المفجع، شعور كانت تهيج أواصره كلما ذوى اسم "انوال".

وفي ظل غياب اقتراحات، انضافت الذاكرة الشعبية إلى اللاشعور المهني للجيش، الذي ظل يعد كل ما له علاقة بانوال بمثابة وصمة عار في مسيرته الحديثة. هنا ندخل عالم المفارقات، إذ حدثت كارثة في تدبير شؤون البلاد وتسيير جيشها، وبموازاة

مع ذلك، ظهرت مثالية مدهشة في إدراك معنى الكرامة البرلمانية والمحافظة على الروح الحية للمليشيا، وهكذا قام برلمانيون مثل **الكلا ثامورا** Alcala Zamora، **روديس او سلانو** Rodés O Solano، وآخرون متميزون بمهارتهم العسكرية مثل **كرسبو دي لارا** Crespo de Lara، **فانخول** Fanjul، **لثاغا** Lazaga و**مرتينيث دي كمبوس** Martinez de Campos، بإبراز مكانة البرلمان الإسباني.

الشيء نفسه قامت به المقاومة الباسلة التي خاض غمارها اشخاص مثل **امادور** Amador، **ارناس** Arenas، **بنيطيث** Benitez، **برنال** Bernal، **كاباباﻻنكا** Capablanca **دوينياس** Duenas، **إسكريبانو** Escribano، **مانيا** Manella، **مورالس** Morales، **باس اوردونيا** Paz Orduia، **بيريت غارسيا** Pérez Garcia، و**بريمو دي ريفيرا فرناندو** Fernando Primo de Rivera، الذين قضوا نحبهم بجوار عساكرهم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقاومة برهنت على انه بالرغم من هزيمة الجيش، فإن مدلول المليشيا لم يندثر قطّ من الجيش الإسباني. فالكثير منهم عانى من عقوبات تاريخية جائرة، إذ أن فضيحة انوال التي طالت ردحا من الزمن، فضيحة مؤسساتية بكل تفرّعاتها (التي سنتناول تفاصيلها في هذا الكتاب) حرمتهم من اعتراف وطني لائق.

في مجال البحث، اصبحت المشاكل اكثر تعقيدا حينما بدات سنة 1990، عملية تنقيب مكثفة عن الوثائق. بيد ان الاختفاء او الإتلاف -الذي كان مفاجئا أو إن صح التعبير، مثيرا للاهتمام- للعديد من النصوص التي تتناول النكبة الإسبانية، مهّد الطريق لكارثة اخرى موازية، تتلخص في حرمان هذا المجهود العلمي من ربط اتصال رصين ومعقلن بين الذاكرة الشخصية وبين البيانات الرسمية. وفي هذا الصدد كان للكاتب حظ كبير، إذ عثر في أرشيفات **ماورا** Maura، على نسخ كاملة من المحادثات التليغرافية التي كانت تجري بين **برنكر** Berenguer و**الفيكونت *إيزا***، الذي كان وزيرا للحرب في وزارة **انديسلاثار** Allende Salazar. وكان ماورا عند توليه الحكم في غشت 1921، شديد الحرص على ان تسلم إليه المحادثات شخصيا. وإلى جانب هذه الأخيرة، تمت صيانة محادثات اخرى ربطت **برنكر** بـ **ثيرفا**. وهكذا صارت كل هذه المستندات التي لم تنشر بعد، بمثابة راسمال قوي وفعّال بمقدوره ان يكشف عن مجموعة من الحقائق. وانضاف إلى هذا الرصيد، ارشيف آخر لا يقل اهمية عن الأول، وهو بدوره لم ينشر بعد إلى يومنا هذا، يتعلق الأمر بالأرشيف الشخصي للجنرال **بيكاسو** Picasso،

الذي ساعد على إعادة بناء طبيعة الأحداث وتسهيل فهمها. ونضيف إلى كل هذا، مخزون الوثائق لعائلة مانيا Manella، والأرشيف الشخصي الجديد بالذكر لـ دومينكيز يوسا Dominiguez llosa.

مع كل هذه الاكتشافات، توضّحت الرؤيا جيدا، وظهر قصور الدراسات التي أجريت حول معركة انوال ونتائجها. وتعد دراسة جيرمان عياش، من أدق الدراسات التي انصبت على عائلة عبد الكريم وحرب الريف. بيد أن تسلسل أحداث هذه المعركة توقف عند ابران، عند ابواب الكارثة. أما ولمان Woolman، فقد انجز بدوره عملا جيدا حول الأزمة الإسبانية الريفية، لكنه كذلك لم يثابر كثيرا في معرفة ما جرى بأنوال. فظل عمله -الذي باتت تعوزه مصادر البحث- محدودا بالنظر إلى ضخامة أهدافه.

الأبحاث التي اجريت إلى حد الساعة، سلطت الأضواء على مجموعة من التغييرات التي لحقت بملف بيكاسو، الذي كرّس كل جهوده للبحث عن المسؤولين، خصوصا ما يتعلق بطلب محاكمة برنكر، وهو حدث لم يثر إلى يومنا هذا اهتمام المؤرخين. وبموازاة مع ذلك، فقد اقيمت محاولات للوصول إلى تعريف ببليوغرافي جيد لكل من برنكر، وبيكاسو، وسيلفستري كعسكريين، وكامبو Cambo وماورا بصفتهما مدنيين. وقد فتحت هذه المحاولات آفاقا وسبلا جديدة للبحث، يتخللها حديث عن العلاقات بين إخوان عبد الكريم والمقيمين العامين الإسبان (إيثبورو Aizpuru، وخوردانا Jordana، ومورالس Morales).

إن الحديث عن تَبِعَات سياسة النهب الاستعمارية في الريف، والتي انتهت بمذبحة أعرويت، والحديث عن السياسة التي انتهجتها فرنسا في عهد اليوطي إزاء الكارثة الإسبانية، وذكر العلاقات بين إسبانيا الألفونصية والمانيا في عهد جمهورية فايمر Weimar، والتي بُنيت بغرض صناعة غازات الحرب من الفوسجين والإيبريت (Iperita-Fosgeno) في مليلية، والحديث عن ضراوة هذه الحرب الجوية الكيماوية التي امتدت من سنة 1923 إلى سنة 1926، والحديث عن النزاعات الواقعة بين الأحزاب المتعاقبة على الحكم (من ليبراليين ومحافظين) اثناء حرب المغرب، وكذا الحديث عن تاريخ البرلمان ورجالاته، هو حديث محدود لم ينل حقه من البحث والتنقيب، وزد على ذلك الحديث عن الانشقاقات التي حدثت بين صفوف قيادات جيش إفريقيا، يليها الانفصال عن الدولة المستعمرة ابتداء من سنة 1927.

الفصـــل الأول:

في موطن العرب

عند منتصف شهر يناير 1921، قامت الوحدات الإسبانية المنتشرة غرب مليلية بتحركات واسعة، استهدفت مدينة الحسيمة التي تعد قلب الريف، بغية تقويض المقاومة الريفية والقضاء على المقاومة المغربية التي كانت شرارتها منذ سنة 1909 تتوهج أحيانا، وتخمد أحيانا أخرى . كانت الجيوش التي تغطي جبهات واسعة من المنطقة سلسلة من الفرق العسكرية التي لا يمكن عدّها جيشا بالمعنى الأوروبي الحديث للكلمة، حيث إن معداتهم الحربية الفرنسية الصنع كانت قليلة وقديمة، وكانت رشاشاتهم آلات حربية أمريكية متآكلة من نوع كولت "Colt"، أما جنودهم المبتدؤون، فقد كانوا مسلحين ببنادق المانية من نوع ماوسر Mauser، بنادق عرفت بجودتها، لكن أغلبها كان غير صالح لكونها من مخلفات حرب كوبا والفلبين لعامي 1895-1898. كان الأمر إذن يتعلق بكتيبة مؤلفة من شرذمة من المدافعين وليس بوحدة عسكرية منظمة بالمعنى الكلاسيكي. كانت طليعة الجيش هي المسؤولة عن هذه الصورة، إذ كانت صفوفها الأمامية مكونة من أهالي المنطقة وحرس مدني ونظاميين، وكان مظهرهم يبدو متوحشا.

في الساعات الأولى من منتصف يناير وصلت الدوريات إلى أعالي جبال "إيزومار"، وهي مرتفعات وعرة يصل طولها إلى سبعمائة وخمسين مترا، تشرف على سهل استراتيجي يعرف بأنوال وهو واد من الحجارة، والحصى والرمل، تحفّه من الجهة اليسارية ربوة عريضة مكسوة بالأشجار، ونهر صغير بات قاب قوسين أو أدنى من الجفاف، وهو يجري في اتجاه المنخفض. كان المنظر العام يوحي بأن هذا المكان

عانى -ومنذ سنوات عديدة- من الجفاف. وكانت الجبال المحيطة تسد الأفق من جهاته الأربع إلى ان تعانق إيزومار. اما البحر فكان آخر ما يمتد إليه البصر.

وعلى المشارف الاستراتيجية لأنوال، توغلت القوات العسكرية، لم يكن هناك عدو في الواجهة، فاعطيت الأوامر بالتقدم في اتجاه المنخفض. كان حرس المارشال قادما من الخلف، اما الكتائب والمشاة فقد توغلوا داخل المنحدرات الجبلية تتعقبهم بعض المدافع المدوية، إلى جانب الحرس العسكري الذي كانت تليه قوافل التموين.

دون ارتباك وصل الجنرال إلى قمة الجبل بإصرار ونبوغ، كان يراس فرقة كثادوريس، ويرتدي سترة جلدية زرقاء في لون البحر، وحذاء يصل إلى حد الركبتين، وحزاما احمر اللون عليه شارات توحي بأن ذلك الشخص هو قائد الفرقة العسكرية، اما الرباط المذهب، فكان رمزا لقربه من الملك. لم تكن عليه اوسمة شرفية، وكان اعزل من السلاح. كان ذا رباطة جاش وحزم وثقة بالنفس غير معتادين. إنه **مانويل فرنانديث سيلفستري** M.F. Silvestre، اثنتان وخمسون سنة، كان عازما في تلك السنة على القضاء على مقاومة الريف بالقوة العسكرية.

اخذت هيأة الأركان الحربية والمساعدون اماكنهم بجوار الجنرال، وبدا الحديث عن المكان الذي من المحتمل ان تحط عنده الجيوش رحالها. فوقع الاختيار مبدئيا على تلك التلال الثلاثة في وسط الساحة. وفيما بعد، تلقى الجنرال اقتراحا آخر. إنه إيزومار القاحل والخالي من السكان، والمتاخم لجبال تمسمان من جهة اليسار، ومرتفعات بني سعيد النائية من جهة اليمين. وفي الخلف كانت هناك الأودية والتلال التابعة لقبيلة بني أوليشك المشرفة على تلك الأراضي، والتي كانت تضم بين دفتيها دوار انوال المهجور. لم يكن هذا المكان ينبئ بالخطر. واصلت الطوابير زحفها نحو الساحة فتوغلت بكاملها صحبة القوافل داخل الفجاج الجبلية.

في يوم السبت الخامس عشر من يناير، وصل جيش سيلفستري إلى مكانه المتفق عليه، وكانت تفصله عن مليلية مائة وستة كيلومترات، اما خليج الحسيمة الذي كان يسيل له لعاب المستعمر فكان يبعد عنهم بما يزيد عن ثلاثين كيلومتر. كان خيالهم يوحي إليهم بأن الريف بات في قبضة يدهم، وأن حرب إسبانيا مع المغرب ستنتهي في اقرب الآجال.

مع اول إشراقة للصباح، توجهت طوابير سلفيستري نحو انوال، انطلاقا من سوق إنوناتن من الجهة الجنوبية لجبال إيزومار[1] الصامتة، مخلفة وراءها عند جبهة كرط Kert، ثكنة ابن طيب Ben Tieb، وابعد من ذلك دار الدريوش، وهما معسكران تم إعدادهما قاعدتين لتكونا مساندتين للهجوم المتميز بصبغته السياسية لا العسكرية، حيث تمكن المستعمر -ما بين الخامس والسادس من دجنبر 1920- من إخضاع قبيلة بني أوليشك Beni Ulixek، وبعدها بخمسة أيام، خضعت قبيلة بني سعيد. وعندما استولى الجنرال الإسباني في الحادي عشر من دجنبر على جبل مورو الأسطوري Monte Mauro، والذي لم تطأه من قبل ارجل غريبة، استسلم عمروش وقدور نعمار، اهم شيوخ هذه القبائل امام جسارة سيلفستري. اما القبائل الأخرى كبقيوة وتمسمان اللتين كانتا آخر معقل قبلي في اتجاه الحسيمة، فقد باتت ترسل مفاوضين من اجل السلام. لقد كان الريف، إذن. يسقط قطعة قطعة ويستسلم دون مقاومة.

كانت مناورات الزحف الإسباني قد وصلت إلى الشاطئ، ففي الثاني عشر من يناير تم الاستيلاء على سيدي حسين وراس أفراو، الذي كان عبارة عن كتل صخرية متوغلة داخل البحر. يوم واحد بعد ذلك، سقطت محايست Mehayast وازرو، وهي مواقع كانت ماتزال في طور التحصين. اما جبل أزرو الشامخ، الذي كان علوه يصل إلى الف وتسعة واربعين مترا، ذلك العش المهجور للصقور، والواقع على بعد تسع كيلومترات من انوال، فقد تم استغلاله عاجلا كمرصد للمراقبة أثناء الهجوم الواسع النطاق. وقد شاركت في هذه العملية كتيبة يقدر عددها بازيد من ثلاثة آلاف رجل.

خرج سيلفستري وزمرة من قواده من مليلية في اتجاه سوق انوناتن على متن سيارات كثيرة، وذلك على الساعة السادسة والنصف من تلك الصبيحة المشرقة والباردة من شهر يناير. كانت القوات العسكرية تتقدم بخطى ثابتة نحو إيزومار، الذي كان يفصل بين القواعد الإسبانية في ابن طيب ودار الدريوش[2]، وجهة تمسمان المجاورة لراس كيلاطي Cabo quilates، عند المنحدرات الوعرة للحسيمة. كان تخطي جبال الحسيمة عبر الممر العالي لترغيست يعني النزول عند مصب النكور، اكبر دلتا في شمال المغرب. ومن هناك لم تبق سوى مسافة قصيرة، مسيرة يومين فقط من الحسيمة، ويسقط الريف.

عند مشارف إنوناتن، استبدل القائد وضباطه السيارات بالأحصنة، وصعدوا بعد ذلك إلى أعلى إيزومار. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا، بعدها نزلوا وببطء في اتجاه أنوال، حيث أصبحت الخيام الأولى بادية للعيان. وفي الوقت الذي كانت فيه فرق المهندسين والجنود المكلفين بالحفر منهمكة في بناء التحصينات الدفاعية، والمتمثلة في ثلاثة معسكرات وزعت على التلال الثلاثة. اقترب التنينتي كولونيل فيدل **دافيلا أروندو**، بصلعته المشعة نحو الضباط، وهو يتخيل عتاب الجنرال له. كان رجل حرب متعقل ومحنك، عارض كل أساليب القتال الهجومية التي كانت تُنتهج آنذاك. ولد دافيلا في برشلونة في أبريل 1878، وترعرع في مدن عرفت بطابعها العسكري بين بورغوس Burgos، وسانطونا Santona، ولوغرونيو Logroño وفيطوريا Vitoria ، لم تكن حياته حياة ترف ورخاء، بل كانت حياة مملة. كان والده شخصية عسكرية بارزة في الحزب الليبرالي الذي سطع نجمه أثناء الحرب الكارلوسية guerra Carlista، أما والدته **إرنيي أروندو** Irene Arrondo، فكانت تشجعه دائما على احترام مهنة أبيه، مع إضافة نصيحة كانت ترددها باستمرار لأبنائها الكثر، إذ كانت دائما تقول: «أبنائي، عليكم بالدراسة فإن الكتب بمثابة الخبز»[3].

دخل دافيلا الشاب غمار الحروب في كوبا وهو في ربيعه الثامن عشر، وبولوجه المدرسة الحربية العليا، عاد إلى وطنه سنة 1897 برتبة ملازم ثاني. وقد استغل دافيلا دراسته تلك فتمت ترقيته إلى درجة تلينتي كولونيل في ماي 1919. وفي يونيو الموالي تم تعيينه بمليلية مع النائب العام **أيثبورو** Aizpuru، الذي انسجم معه انسجاما تاما. وحينما عُوض أيثبورو بفرناندو سيلفستري، كان دافيلا حاضرا بمليلية وقال بعدها عن رئيسه الجديد إنه كان مندفعا ومشهورا بـ «قراراته المتسرعة»[4]. أما سيلفستري فقد لمس في دافيلا صراحته التي لم يكن يخشى فيها لومة لائم، وتميزه عن غيره، وإعداده الدقيق للمناورات والتخطيطات العسكرية. وقد حافظ دافيلا على كل مقومات شخصيته إلى أن تلقى أوامره بغزو أنوال، التي شكلت الخطوة الأولى في الهجوم على الحسيمة. كان دافيلا حذرا ومحتارا إن صح التعبير، تدفعه مجريات الأمور إلى التبصر لا إلى الاندفاع في القتال، فعبّر عن تشاؤمه الذي شهدت عليه أنوال. وما إن رآه سيلفستري حسن المزاج حتى بادره بسؤال ينم عن مكر ودهاء: «ما بك لا تتكلم الآن؟»

ورغم إصراره المتواصل، لم ينزعج دافيلا الذي عقّب بقوله، «سيدي، لن اقول إن شعري قد انتصب، بل أقول إن الشعر قد خرج من ثنايا صلعتي»[5]، وواصل حديثه مستغلا هذه الساعة التي كان فيها سيلفستري، مبتهجا فاشار عليه بالإسراع في .الاحتلال الفوري لسيدي إدريس، وإقامة كتائب منيعة هناك. وإذا أمكن، فمن الأفضل أن يكون الهجوم غدا لا بعد غد». كان دافيلا يريد أن يؤمن الحماية للجيش من جهة البحر، وأمام هذا الاقتراح وقف سيلفستري، يفكر مليا، لكن تخمينه لم يدم طويلا، إذ تدخل الكولونيل مورالس Morales في الحديث، وصرح قائلا، «هذا شيء علينا تدارسه»[6]. وهكذا استمع كل من الجنرال والتنينتي كولونيل لما كان يريد قوله مدير الأمن.

كان الكولونيل **غابرييل مورالس إي منديغوديا** Gabriel Morales y Mendigutia مثل سيلفستري، كوبي الأصل. ازداد في الثاني عشر من دجنبر عام 1866 بسنتي سبريتوس Santi Spritus بولاية سانتا كلارا، وكان ابن أحد العسكريين على غرار سيلفستري [7]. كان مورالس عضوا في هيئة أركان الحرب، واشتهر في حرب إسبانيا مع أمريكا الشمالية، حيث برز بقتاله المستميت والهادف إلى إحكام القبضة على خط كاوطو Cauto حيث النهر الذي كان يفصل بين الجهة الشرقية ووسط الجزيرة، وقد كانت المنطقة بؤرة توتر بين الإسبان والممبيسس mambises (حركة المقاومة).

في سنة 1899، عاد مورالس من كوبا بترقية عسكرية جديدة، حيث تم توشيحه بثلاث نياشين حمراء، علاوة على شهرته كضابط حازم وثابت. هذا وقد قضى ما تبقى له من مسيرته المهنية بإفريقيا، إذ كان واحدا من أبرز القواد الذين نبغوا في العمليات الحربية التي دارت رحاها في الكوروكو Gurugo. وفي السابع والعشرين من يوليوز 1909، كانت الحادثة الحاسمة، إنها موقعة إلبرانكو دي لوبو El Branco de Lobo التي أصيب حصانه فيها بجراح، ونجا هو بأعجوبة وسط عاصفة هَوْجَاء من الطلقات النارية الريفية التي استهدفت القوات الإسبانية. ومن هناك كانت ترقيته إلى تلينتي كولونيل بفضل إنجازاته الحربية، ومنذ ذلك الحين وهو مولع بإفريقيا وكل ما له علاقة بالمغرب. كان مورالس شغوفا بالبحث التاريخي، فارخ لمدينة مليلية، والف كتابه **"معلومات عن تاريخ مليلية"**. ومنذ اكتوبر 1918، عمل عضوا في الأكاديمية الملكية للتاريخ[8].

كان مورالس رجلا بشوشا، رصينا ومثقفا. كان يتكلم ويترجم من الفرنسية والإنجليزية، ويتقن العربية والأمازيغية، فهذه اللغات كان يتحدث بها بكل طلاقة وسلاسة، علاوة على نفوذه وسيطرته التامة على الرؤساء المحليين للمنطقة.

كان مورالس يكبر سيلفستري بخمس سنوات، إذ كان عمره خمسة وخمسين ربيعا، لكنه كان يبدو اكبر من ذلك بعشرة او خمسة عشر سنة. كانت تبدو عليه علامات التعب، كما كان دائم الشك والارتياب. عيناه فقط هما اللتان كانتا تضفيان على جسده المترهل طابع الحيوية. كان بقامته القصيرة وجسده الهزيل لا يتجاوز كتف سيلفستري، فيبدو وكانه نجله. كان مورالس رجل حرب بامتياز، تشع صفحة خدماته بالصفاء، الشيء الذي اهله لتقلد منصب قائد عام يتباهى ببذلته الرسمية المطرزة الأكمام، غير ان طبعه اللطيف الميال إلى الخجل والارتباك، والشديد التهكم، والخالي من الطموح، حال دون منحه تلك الدرجة التي كان يستحقها عن جدارة. لكن مورالس كان يفتخر دائما بميزة اخرى تتلخص في الولاء الذي كان يقدمه له كل من الضباط والجنود المنضوين تحت لواء الشرطة المركزية التي كان يراسها، اضف إلى ذلك الاحترام الصادق الذي كان يكنه له شيوخ الريف الذين اعتبروه دائما شخصية قديرة تستحق الطاعة، وقد كانت عائلة عبد الكريم من اشد العائلات توددا له، وقد استطاع مورالس تحقيق تقارب مثمر مع سكان المنطقة بفضل موقعه كرئيس للأمن. ومن إنجازاته، مد جسور الحوار مع قبائل بني اوليشك، وتمسمان وبقيوة، وخاصة بني ورياغل، الحامية الكبيرة للحسيمة. كانت إسبانيا قد استوطنت مليلية منذ اربعمائة واربع وعشرين سنة، لكنها لم تستطع قط التقرب من الريف، فجاء مورالس وارسى دعائم الصداقة. وذلك ما عجز عن فعله جنراله سيلفستري.

وفاء وإخلاص متشابهين ووجهات نظر مختلفة

كان مورالس يحس بخطر توغل طابور عسكري تعوزه كل مقومات الجيش في حفرة انوال. كما كانت تؤرقه فكرة التخبط في هذه الهوة الشاسعة، دون ربط اية علاقة مسبقة مع من يستطيعون تحويل هذه الحفرة إلى فخ قاتل. كان مورالس يفكر مليا في

هذه الأمور، في الوقت الذي كان فيه كل من دافيلا وسيلفستري يراقبانه في تلك الصبيحة الشتوية في أنوال. كان يبدو أكثر رجالات الحرب شيخوخة في إسبانيا، لأنه كان يحمل على كاهله كل تعب وإحباطات الجيش.

وبعد الاستماع إلى شكوك مورالس فيما يتعلق بالهجوم وتوسعاته، تدخل دافيلا واوضح أنه مادام القتال قد وصل إلى مشارف أنوال «بالرغم من معارضتي الشديدة»، فالأولى بنا أن نسيطر «وبعجالة على سيدي ادريس». أما مورالس، فكانت فكرة الوصول إلى أنوال تزعجه كثيرا[9]. وانتهى الحوار بتدخل سيلفستري الذي علق على تحفظ مساعديه بانتقادات قاسية وفكاهية في الوقت نفسه، وأكد عزمه على المضي قدما نحو الحسيمة.

قام كارلوس لاثرو مونيوث Carlos Lazaro Muaez، قائد المشاة والمصور الكبير، بالتقاط صور كثيرة لتخليد تلك اللحظة[10]. كان الوقت زوالا والفصل شتاء، وقف كارلوس على إحدى تلك التلال الثلاثة بأنوال، فالتقط صورة للأبطال[11]. ظهر سيلفستري بجسده الضخم وهو يشير بيده إلى جهة الغرب، إلى نقطة غير محددة. كان بجواره نفارو Navarro، القيادي الثاني، بينما كان خلفه القائد سباطي Sabaté، رئيس هيئة الأركان الحربية، وكان طويل القامة مثل سيلفستري. أما في الجهة الأمامية، فكان هناك دافيلا الذي كانت تظهر عليه علامات الانكسار، وإلى جانبه مورالس في مقدمة هذا الخط من الجنرالات، وهو يوجه نظراته إلى أعلى نقطة في جبل إيزومار. كان يبدو غارقا في أفكاره، وقد اختلطت الأمور في رأسه بين توقعات ممكنة وتحديات محتملة.

بعد تناول وجبة خفيفة (صعبة البلوغ والاجتياز والتخطي) كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا حيث انتشرت الفرق العسكرية، وبعد مضي ساعة من الزمن، خرج من أنوال فيلق مهم من الجيش، وبقيت هناك كتيبة صغيرة. وبعد هنيهة، عادت كل الفرق العسكرية إلى ابن طيب، الذي كان يعد المعسكر الرئيسي. لم يكن دافيلا ومورالس ممن يصرحون بنواياهم إلى الآخرين، لكن مجريات الأمور في أنوال جعلتهم يعانون من تأنيب الضمير. إذ لم تكن ضراوة العمليات العسكرية التي انطلقت، لتنسيهم أنهم هم المسؤولون عن كل ما يقع هناك. وهكذا كتم دافيلا همومه، بينما أبى مورالس إلا أن يكتب هواجسه لاحقا.

كان مورالس يحب ويحترم الجنرال سيلفستري، حيث إن سنّه وتجربته جعلته يفصح عن عاطفة ابوية خالصة. أما دافيلا، فلم يكن يحترم الجنرال إلا لرتبته العسكرية، كان في وفائه للكومندان يخلص للرتبة لا للشخص في حد ذاته. وهكذا، وبعد مرور عدة سنوات، وبعد مثوله أمام لجنة تقصي الحقائق، أدلى بتصريحات تفيد أن «القدرات العسكرية للجنرال سيلفستري بنيت على أسس هشة». وتأتي حينئذ أحداث (السادس عشر من شتنبر 1923)، لتؤكد أن سيلفستري كان ذلك البطل الذي عُجنت قدماه بالرمل لا بالوحل كما كان متداولا، وثبت أن الحظ كان حليفه دائما[12].

أما سيلفستري فكانت معاييره مختلفة، حيث نجده -وإبان الاستيلاء على أنوال بأيام قليلة- يدعو إلى عقد مجلس زعماء مليلية، الذي حضره وفد من قواد الجيش ورؤساء الفرق العسكرية، فضلا عن هيئة أركان الحرب برمتها، ويعلن رفضه ترقية التنيتي كولونيل دافيلا، الذي اندهش لهذا الاقتراح[13]، حسب شهادات البعض. وهكذا، وقّع سيلفستري في الفاتح من فبراير الموالي، على ترقية دافيلا إلى رتبة كولونيل، كما أنه وفي المجلس نفسه، وبقرار كله امتنان وود، اقترح ترقية مورالس إلى مساعد عام. الترقية والاعتراف تأخرا في الوصول كثيرا إلى صاحبهما. كان مورالس الرجل الوحيد، من بين الرجال الثلاثة، الذي يعرف الريف وأصحابه حق المعرفة، نظرا لتاريخه واحتكاكه اليومي معهم. ونظرا لخبرته تلك، كانت له المشورة والنصيحة وليس إصدار القرارات. لقد كان يحب المغرب من قلبه.

جغرافيا ، إصرار أرض متمردة على البقاء حية

"مارويكوس Marruecos"، عبارة إسبانية اشتُقت من اسم مدينة مراكش، وهي كلمة بربرية تعني المرور بسرعة وبحذر[14]. وتأتي دلالات العزلة والصمت لتتفق مع عبارة المغرب، وهي كلمة تنحدر من الأصل العربي الذي يعني الغرب، ويرمز لفكرة البعد والغربة والغموض.

كانت كلمة المغرب توحي بالانزواء أو العزلة تقريبا. من هنا، عبارة المغرب الأقصى (في أقصى الغرب). أما الشمال الجغرافي للمغرب، فكان ينقسم إلى خمسة مناطق رئيسية لها مميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بها:

- منطقة جبالة في الغرب، وتضم (مثلث طنجة - تطوان والشاون).

• منطقة اللوكوس جنوب سابقاتها، وتضم (جهة اصيلا - العرائش والقصر الكبير) كما كان يصطلح على هذه الجهة بالغرب.

• منطقة غمارة، المتاخمة لجبالة والممتدة شرقا.

• منطقة الريف (عند الحدود) الواقعة وسط كل ما ذكرناه، وهي مساحة تضم اعلى القمم الجبلية -"تدغين"، الذي يصل علوه الفين وثلاثمائة متر، والتي سمحت بتكوين منخفض شبه قاحل يعرف (بانوال) في جهتها الشرقية.

• بلاد صنهاجة، وتشمل المناطق التي كانت تكثر بها جبال الريف المتوسط والريف الغربي، دون أن تلامس الجنوب الأقصى حيث ورغة. هذا وقد كانت جبالة اكثر المناطق خصوبة، في حين كان الريف اكثر المناطق جفافا. وبخصوص المناطق التي كانت تقع ما بين ملوية واللوكوس، فإنها كانت شرق وغرب المناطق الخاضعة للحماية الإسبانية، وقد كانت إحدى وسبعون قبيلة[15] تقطن تلك المناطق[16]، وكانوا إلى جانب الإيريتيريين اجود مقاتلي إفريقيا بلا نقاش، هذا وقد استطاعت بلاد جبالة والريف ان تفرض هيبتها على باقي المناطق، وذلك لجملة من العوامل اهمها: استفادتها من الانتساب إلى عائلات الأولياء الصالحين، ذلك النسب الذي اضفى عليها شرعية دينية، فضلا عن ثرواتها الفلاحية، ومداخيلها الجبائية المفروضة على العشائر المتمردة، علاوة على قدراتها العسكرية والقتالية في دحر الغزاة بكل تفوق ونجاح. كانت منطقة جبالة تغطي الجهة الغربية، في حين كان الريف يغطي الجهة الشرقية، وكلتا المنطقتين شكلتا قوة انثروبولوجية، ثقافية وسياسية. ومن هناك جاءت عبارة (ريفي-جبلي) للدلالة على مجمل القبائل المكونة لشمال المغرب.

من عبارة ماوروس Maurus اللاتينية القديمة، اخذ الإسبان العبارة الشعبية مورو Moro، التي استعملت نعتا وصفة نسب. في حين احتفظ علم الطوبونيميا بعبارة موريطانيا. بالنسبة للإسبان، استعملوا لفظة موروس moros. أما الفرنسيون فاستعملوا لفظة مور maure، بينما استعملوا البريطانيون موور او موورش moor O moorish. هذا وقد كان على كل من الريفيين وجبالة ان يعدوا العدة لغزو اوروبي مزدوج، لكن رغم كل هذه التقلبات الهائلة، فإن نمط حياتهم لم يتغير.

كانت الأقاليم الشمالية للمغرب مناطق يطوقها البحر، فتشكل ذلك الفضاء الذي احكمت الطبيعة إغلاقه، وحصنته مقاومة شعبه. وكانت عوامل التعرية والتآكل قد

شوهت معالم تلك الأرض، باستثناء ما خفي من المسالك الجبلية، التي بقيت في مامن من عوامل التعرية، علاوة على الهزات الأرضية المتواصلة، كل هذه العوامل، جعلت هذه الأرض تبدي وعورة واستحالة في ولوج منطقتها الوسطى عبر الساحل، حيث منطقة الريف. وكما يختلف بستان عن أرض جرداء، كانت معالم مدن المحيط الأطلسي (من طنجة واصيلا والعرائش) وامتداداتها الداخلية حتى تطوان وشفشاون تختلف عن معالم مدن وتضاريس الريف من (ترغيست، دار الدريوش والناظور) في فصلي الشتاء والربيع. اما في الصيف الحار، فكانت الأمور تتساوى.

كان الانتقال من فصل إلى آخر في بلاد جبالة، يخفف من حدة "العدوان" الذي تشنه طبيعة تلك الأرض القاسية على الإسبان، بخلاف الريف، الذي كان دائما يعاني من هذه القساوة طيلة السنة. اللهم إذا استثنينا الشهور الممتدة من دجنبر إلى فبراير، والتي كانت تجود بغطاء نباتي بسيط يسر الناظرين.

كانت هذه الأرض تفتقر إلى مصادر مائية، فاختلال الطبقات الأرضية وسنوات الجفاف الطويلة، اتت على كل الأراضي. وإذا حصل ووجدت قناة مائية في تلك البقاع، فإن هذا الحدث كان يعادل العثور على كنز عظيم. وقد تميزت هذه المنطقة المتمردة جغرافيا بعدم خضوعها السياسي لأي قوة اجنبية، سواء كانت إفريقية او غير إفريقية (اوروبية). وكانت تقطن تلك الربوع ساكنة يفوق عددها نصف مليون نسمة[17].

كانت هذه البقعة الشمالية تُعرف ببلاد السيبة، (منطقة بلا قانون ولا نظام) في الاصطلاح الكلاسيكي، وذلك نسبة إلى الفوضى التي كانت تعم المنطقة. اما فيما يخص باقي اقاليم الساكنة البربرية من الأطلس الكبير والمتوسط، والتي كانت تمتاز بكونها مسرحا للنزاعات، فكان يطلق عليها اسم بلاد المخزن، فقد كانت تخضع خضوعا تاما لنفوذ السلطان -الحاكم في فاس. وإذا اخذنا بعين الاعتبار هذا التقسيم الذي كان في حقيقة الأمر استبداديا وغير عادل، فإن المغرب برمته كان بلاد السيبة. غير ان هذه الفوضى لم تطل العشائر ولم تمس حرياتهم، فظل المفهوم منحصرا على الفوضى في نظام الحكم، الذي طبع الريف وعاداته منذ الأزل.

منذ قرون عدة، ورجال الشمال يعيشون بفضل غنائم الحرب. كانت الشجاعة والدهاء والمهارة في القتال اسلحتهم في الحياة، وكانت حقولهم الجافة تمدهم فقط بما يحتاجونه

من القوت الضروري. وكان هؤلاء الرجال يتناوبون على الري وعلى زراعة البساتين التي يجنون منها البصل والحمص والفول والفلفل والطماطم والجزر.

وكانوا يهتمون كذلك بالبحر وخيراته، لكن رغم مهاراتهم في الصيد، إلا أن طرقهم كانت بدائية وضئيلة الإنتاج. وبديلا لذلك، وجهوا اهتمامهم نحو القنص، واستعملوا فيه عصا طويلة مهيبة الشكل، كانت تُربط بسلك نحاسي وتصوب بقوة كبيرة ودقة مذهلة نحو الفريسة، التي تعددت أصنافها بين طيور وأرانب برية[18].

كان باستطاعة هؤلاء الرجال أن يمكثوا في المكان الواحد مدة يومين أو ثلاثة، لا يأكلون سوى بعض الفواكه الجافة أو القديد (وهو اللحم المجفف)، ينتظرون مرور العدو الدخيل تحت زناد بنادقهم ليجهزوا عليه، وهكذا، وبواسطة بنادقهم الثقيلة من نوع ريمينغطون -وهو صنف أتت به إسبانيا لاستعماله في حرب مليلية عام 1893، كانوا يستطيعون (وعلى بعد مائتي متر) النيل من رأس شخص معين، كما كان بمقدورهم الفتك بأحد أعضاء جسده على مسافة قد تصل إلى ثمانمائة متر. والعجيب في الأمر، أنهم كانوا يحسبون وبمهارة عالية وقت سقوط القذيفة وانسيابها مع الهواء.

كان صدى الطلقات النارية الصادرة من البنادق الكبيرة يشبه هذا الصوت، ب-كوم، والمصدر كان هو الريمينغطون، وهو سلاح اشتهر به الريفيون، وكان عبارة عن بندقية من عيار أحد عشر مليمترا، وذخيرته قد تتسبب في جروح بالغة الخطورة. ومن هذا الصوت كذلك (ب-كوم)، وجاءت عبارة باكو Paco، نسبة إلى رجال المقاومة غير العسكريين. وعبارة بكاثو Pacazo، التي تعني صدمة الضحية. أما عن استعمال البنادق في القنص، فهذا الأمر لم يكن مطروحا بتاتا، وذلك لأن الخراطيش كانت مكلفة جدا.

كان الريفيون يزرعون الحبوب (القمح والشعير)، وخاصة الشعير الذي كانوا يعجنون منه خبزا شهيا ومتعدد الأصناف، وبما أن الحروب كانت تستقطب كل اهتماماتهم، فإن زراعة الحقول لم تكن تأخذ من وقتهم سوى ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة، مما يسفر عنه ضآلة الإنتاج. أما الأشجار، فكانت تحظى باهتمامهم الكبير، كانت في نظرهم نبتة مباركة، لأنها تتحمل قساوة ذلك الطقس، كما أنهم كانوا خبراء بارعين في شذب وتطعيم وتسميد تلك المساحات الضيقة المخصصة للأشجار. وكانوا يجنون الزيتون بإتقان ومهارة فائقتين -في المنحدرات الجبلية- وذلك لاستخراج الزيت الذي كان غذاء أساسيا في كل وجباتهم اليومية.

كانت شجرة الزيتون واللوز والتين اشجارهم المباركة. ومن اعالي الجبال باعتبار كفاءتهم في تربية النحل، كانوا يستخرجون عسلا خالصا. كما انهم كانوا يهتمون بزراعة الكروم (داليات). ولكن فقط للاستفادة من العنب لا لعصره واستخراج الخمر الذي حرمته الشريعة الإسلامية. كتحريمها القاطع لأكل لحم الخنزير. ومن الكروم كانوا يصنعون كذلك الزبيب، الذي كان يعد واحدا من أهم مدخراتهم الشتوية المعروفة باسم الفواكه الجافة[19].

كان الجفاف والجوع يهددان الريف دائما. وهكذا عانت المنطقة ومدة ست سنوات متتابعة -من 1915 إلى 1920- من ندرة الأمطار، الشيء الذي تسبب في إتلاف المحصول الزراعي. وقد تفاقم هذا المشكل ليبلغ ذروته سنة 1917، إذ لم يكن من الممكن جمع حصة ولو هزيلة من الحبوب[20]. كانت منابع الماء قد جفت، وتحولت الأرض إلى صحراء قاحلة. وكان منظر الغابة بنباتاتها الصحراوية الطويلة والكثيفة هو الوحيد المهيمن، إضافة إلى بعض المخلوقات السامة كالعقارب والجراد والأفاعي. كان لجفاف ربيع 1920. اثر سيئ على المحصول الزراعي الذي ضاع بالكامل، فارتفعت بذلك اثمان المواد الغذائية وتزايدت خيبة امل القبائل[21]. وبوصول سيلفستري إلى انوال، كانت المجاعة قد سبقته إلى هناك.

في الخريف الماضي، كان الإسبان قد احتلوا مدينة شفشاون، تلك المدينة ذات الإشعاع الديني لشمال المغرب، وذلك في الرابع عشر من اكتوبر 1920. وتعويضا عن هذه الخسارة، جادت السماء على الريف بغيث وفير، لكن الإسبان كانوا قد وطدوا اقدامهم في انوال، كان يكفي هجوم آخر من الجنرال ذو الشوارب الكثيفة لإحكام القبضة على الريف. جرت الأحداث في الشهر الخامس من السنة الهجرية، وبالضبط في الخامس عشر من جمادى الأولى لعام 1339 هجرية (هجرة الرسول إلى المدينة في السادس عشر من يوليوز 622). حيث كان الريف يتضور جوعا ويترقب العدو اللذوذ.

رجال الشمال:
رجال لا يعرفون الخضوع والاستسلام

في الذهنية الإسبانية، كان سكان جنوب مضيق جبل طارق موروس قبل كل شيء. كانت الواجهة التي تطل على المحيط الأطلسي في زمن الفنيقيين تعرف باسم **مَاوور**

Mahur، والتي اشتقت منها كلمة **ماوروس** Maurus اللاتينية، وحينما دشنت روما موريطانيا باسم **طنجيتانا** Mauretania tingitana (المغرب)، جعلت من **نوميديا** Numidia (الجزائر) نقطة لأهم مخازنها الاستراتيجية للحبوب. وبمرور الأيام ودخول **وندال جينسيركو** Genserico، تم القضاء على تلك الأمم عام 427، وبفقدانها لمخازنها انهارت روما في 476. وهكذا، اعتبر **برينى** Pirenne، الحدث بمثابة الضربة القاضية[22]. ومنذ ذلك الحين، أصبح المغرب أرضا معادية لأوروبا.

كان يسود بين العشائر الريفية نظام تحالف معقد، هدفه المحافظة على وحدة القبائل، وإعدادها لمواجهة جماعات أخرى[23]، كانت العائلات في تجمعها تشكل بطونا، والبطون كانت تنضوي تحت لواء القبائل التي كان يدير شؤونها قائد يمثل السلطة السياسية والعسكرية. كانت تعليمات استغلال الأراضي والمياه، تخضع لما يعرف بالحق (القانون) الذي يتماشى مع احتياجاتهم وتقاليدهم[24]، وكان العُرف يتحكم في كل شيء. وانطلاقا من شواطئ مدينة طنجة، ووصولا إلى شواطئ الجزر الجعفرية في شمال المغرب، كان الناس يعيشون كما لو كانوا داخل ثكنة عسكرية يحتمون فيها، ويعتزون بحريتهم القبلية، وتلك كانت أسلحتهم ضد العدو.

وأمام أي غزو أجنبي، كانت القوات الدفاعية لمجمل القبائل تتحرك لمواجهة العدو، فتتم دعوة الجماعات، وتُؤطر الفرق التي كانت مقسمة إلى أفخاذ، تعرف باسم "الخُمس - الربع - أو الفرقة"، وكل كان يهرع لحمل السلاح في شكل وحدة عائلية حربية[25]. كان العراك ينتهي بسقوط الخصم، وكان الريفيون لا يفرقون بين الخصم المهزوم أو الخصم الميت.

كان الريفيون مسلمين، متعصبين لدينهم. وكانت زواياهم أي رابطاتهم الدينية تحظى باحترامهم الكبير وولائهم الدائم. كما كانوا يظهرون توقيرهم الشديد لأوليائهم الصالحين (بالأمازيغية **إمرابدين** Imrabdhen)، المعروفون عند الإسبان باسم **مورابيطوس** Morabitos، وهو اسم اشتق من العربية (المرابطين جمع مرابط). كما أنهم كانوا يحترمون الجن المقيم في الأشجار الكبيرة والصخور النائية وعيون الماء الدفينة. وكانوا يحبون الحيوان حبا جما ويعتنون به، وخاصة القطط التي كانوا يفضلونها على باقي الفصائل الحيوانية.

كانت عقيدتهم الدينية مستوحاة من أركان الإسلام الخمسة، التي تنص على أداء خمس صلوات في اليوم -مع الوضوء- بالإضافة إلى صوم شهر رمضان، وأداء الزكاة للفقراء، والحج إلى مكة ولو مرة في العمر، وقبلها جميعا، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا نبيه ورسوله. وعلى مستوى آخر، كان الجهاد هدفا نبيلا لديهم، وركنا تكميليا والتزاما مطلقا بشقيه: الجهاد الأكبر، وهو مجاهدة النفس وتغلبها على نقائصها، والجهاد الأصغر، وهو الحرب المقدسة ضد العدو الكافر[26].

كان الريفيون يُعزون شيوخهم كثيرا ويعتنون بهم إلى آخر يوم في حياتهم. والشيخ عندهم، كان منبع تجارب قيمة يستفيد منها كل أفراد العائلة، الذين يدينون لهم بشرف الانتساب إلى ترفيقت (جمع ترفيقن)، وهو شرف يُختزل في الاسم العائلي للقبيلة، بني (أي أولاد فلان) أو آيت (قبيلة...).

كان شمل عائلاتهم يرتبط بعقدة النكاح، وكانت طقوس الخطبة والمهر تخضع لحسابات صارمة وبرغماتية.

مثلا، إذا كانت العروس عذراء، كان الزوج يَجُوب البلدة بطلقات نارية من بندقيته المظفرة، وإذا حدث ولم يصل صدى العيار الناري في غضون الليلة الأولى، فإن بوادر النزاع بين كلتا العائلتين كانت تلوح في الأفق. وبالزواج كانت المرأة تلتحق بعائلة الزوج للعيش معهم، وبتعدد أفراد هذه العائلة، كانت الروابط الأسرية تتوسع وتتقوى معها شوكة الأسرة، التي تصبح سامة في حالة الإساءة إليها. كان الرجل منهم إذا تزوج بأكثر من امرأة يسهم في تشكيل فروع أسرية متعددة ومختلفة، يكون هو جذعها وأصلها الوحيد الذي لا يتجزأ.

كان الأمازيغي بطبيعته لا يتزوج بأكثر من امرأة واحدة، قليلون من كانوا يستفيدون من ترخيص القرآن بالزواج من أربع. ذلك أن بلاد جبالة والريف كانت فقيرة جدا، وقلة هم الرجال الذين يسمحون لأنفسهم بالتمتع بهذا النعيم الاجتماعي. كان الرجل الريفي-الجبلي يستغل تعاليم القرآن ليثقل كاهل المرأة بالأعمال الشاقة: حمل الحطب، والاعتناء بالحيوانات الأليفة، والبستنة، وجني المحصول، والبيت وتربية الأطفال. لم تكن المرأة تعني شيئا خارج البيت، ولم يكن أحد يستطيع النظر إليها، وإلا كانت إهانة خطيرة. أما داخل البيت، فكانت الأنثى هي كل شيء، وليس لأحد الحق في اللجوء إليها أو التحدث معها دون إذن من زوجها. وجرت العادة أن يرفض الزوج دائما هذه العروض.

كان فتيل النزاعات يشتعل لأتفه الأسباب، وتذهب ضحيته عائلات بكاملها. فبسبب مقتل كلب دخلت عائلتان من قبيلة آيت عبد الله في حرب إبادة، وكانت الحصيلة وفاة اثنين وأربعين شخصا من جهة، واثنين وستين آخرين من جهة أخرى. واستمر الصراع الدامي حتى لم يبق على قيد الحياة سوى الشيوخ والنساء والأطفال، ومن بقي حيا من تاريفيت المهزومة، وجب أن يغادر الريف[27]. وكثيرون هم الريفيون الذين استوطنوا مناطق عدة من المغرب نتيجة هروبهم من نزاعات مماثلة، ونادرا ما كانوا يرجعون إلى أرضهم، لكنهم لم يضمروا أي حقد للريف.

كان الريفيون أناسا كرماء لا يترددون في إعطاء زوارهم أفضل ما عندهم من طعام، حتى وإن كان الزائر عدوا. فهذا ما تقتضيه أعراف المنطقة. لكن الحال -إذا كان الضيف عدوا- يتغير بحلول اليوم الموالي، أو حتى في ليلة الوليمة نفسها، حيث لا يبقى العدو صديقا، ولا تُغتفر أخطاؤه أبدا، ولا غرابة في ذلك، فتلك هي قوانين الريف، رد الصفعة بالصفعة والكيل بمكيالين. فكل من تسول له نفسه الاعتداء على أحد من الريفيين، كان يعرف أن مصيره سيحل عاجلا أم آجلا[28]. وللأخذ بالثار، لم يكن الوقت يعني لهم شيئا، فكلما سمحت الفرصة بذلك، يتم الانقضاض على العدو.

كان سكان الشمال يعتبرون أنفسهم إمازغيين Imazigen، "شعب"، وكانت اللغة البربرية المتداولة في الشمال الغربي، قواسم صوتية مشتركة مع إمازيغن، جمع تامازيغن بمعنى الناس الأحرار. وكانت هذه اللغة هي سمتهم المميزة، وحصنهم المعنوي الذي يحتمون به أمام الأعداء في عملية دفاع تشبه تلك التي انتهجها إخوانهم في الثقافة نفسها في (الجزائر)[29]. كانوا يعتزون أيما اعتزاز بجذورهم الثقافية، وكانوا لا يطيقون عقوبة السجن -إذ إن فكرة الحرمان من الحرية كانت تثير غضبهم- على الجرائم الفظيعة. كانت الحسابات تصفى بقوة السلاح، ولم يكن في الريف مكان للسجون[30].

ومن أصل ساكنة تُناهز أربعة ملايين نسمة سنة 1921 كان البرابرة الأصليون يقدر عددهم بمليون وسبعمائة وخمسين ألف نسمة، في حين البرابرة المستعربون بلغوا مليون نسمة، وما تبقى كان من "العرب الأصليين"[31].

وباختصار، كان الريف أرض التمرد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، والدخول إليه كان محظورا سواء على السلطة المركزية أو المستعمر الإسباني-الفرنسي[32]. ففي الشمال الإفريقي، لم يكن الريف وجبالة سوى بؤر للتوتر، إذ كان العصيان كبيرا ومستديما.

عائلة من أجدير: عبد الكريم

كانت عائلة آيت ورياغل المعروفة كذلك باسم بني ورياغل، من اشهر العائلات الريفية المقيمة بمنطقة الحسيمة. وبالتوغل اكثر داخل المنطقة، كانت قبيلة اجدير تظهر جليا للعيان، ولم يكن ممكنا اعتبار هذه القبيلة مدينة صغيرة، لأنها كانت تفتقر إلى الكل مقومات المدينة، من قلة السكان الذين لم يكن عددهم يتعدى الف نسمة، ومن جهة اخرى لغياب الحصون كذلك. اما فيما يخص ما تبقى من ساكنة بني ورياغل، وعددهم يناهز اربعين الف نسمة، فكانوا موزعين على الوديان والتلال والجبال المجاورة. كان وادي النكور الشهير، (وبغض النظر عن جريانه غير المنتظم)، يعاني من خراب كبير في فصل الربيع، وجفاف طيلة الصيف والخريف، وكان يصب في خليج الحسيمة. ولم يستطع احد على مر ثلاثة عشر قرنا ان يغير منه شيئا.

اعتنقت قبيلة بني ورياغل الإسلام على يد عقبة بن نافع، الذي مر بمناطقها الجنوبية اثناء انسحابه نحو الشرق المغربي سنة 683م، وذلك بعد أن وصل في السنة الماضية إلى شواطئ طنجة[33]، فهزم عند مشارف طاهودا Tahuda (قرب بيسكرا Biskra) في الشمال الغربي للجزائر، فسقط هذا البطل المسلم الذي كان يشبه في ملاحمه البطولية رولاند مع كل اتباعه. لم يكن لتاسيس مدينة فاس سنة 789م على يد المولى إدريس الأول -الذي كان اول عاهل مغربي مستقل- اثرفي نفوس الريفيين، وكذلك كان الحال مع إحداث إمارة النكور سنة 726هـ على يد مغامر من أصل يمني يدعى صالح بن منصور الحمياني -الذي ابيدت إمارته على يد يوسف بن تاشفين[34]، مؤسس دولة المرابطين- . كل القوى العظيمة من مرابطين وموحدين، ومرينيين وامويين، وسعديين وعلويين، مروا بجهاتهم مرور الكرام. كما لم تستطع كل تلك الإيديولوجات المتتالية ان تغيرهم. فاندثرت كلها امام التفوق الحربي للريف.

كانت عائلة عبد الكريم، واصلها من اجدير، من اهم اسر بني ورياغل. كان الأب -المزداد سنة 1860- شيخا وقورا. ورغم معاداته للأوروبيين، فقد قرر ان يعلم ابناءه، "محمد" الابن الأكبر، والثاني "امحمد" في مدارس المستعمر الإسباني، الذي كان في نظره اقل فظاعة من غيره من المستعمرين. درس محمد في فاس، بعدها انتقل إلى مليلية، وفي كلتا المدينتين كان متفوقا، وكان مثل اخيه امحمد متمكنا إلى حد كبير من اللغة الإسبانية، وكلا الأخوين كان لهما خط جميل، وكانا يتكلمان الإسبانية بلكنة متميزة.

كان الكولونيل مورالس يعرف جيدا الأب والابن الأكبر، وكان يتراسل معهما باستمرار. كان السي أو السيد عبد الكريم الخطابي، المنحدر من فخذة آيت خطاب، قبالة الحسيمة (رئيس القبيلة) وكان تكوينه في الدراسات الإسلامية. اشتغل فقيها (مختصا بالقضاء الإسلامي برتبة قاض)، وكان ينظر في النزاعات القبلية. وباعتباره واحدا من القادة المتمرسين، فقد وقع عليه الاختيار لتمثيل القبيلة في التجمعات، وذلك لمكانته وتفقهه في أمور الشريعة الإسلامية واحترامه لها[35]. وعند انقضاء مدة حكم الملك العلوي التاسع مولاي الحسن الأول حوالي عام 1894، تم تعيينه قائدا، وهو منصب يعادل الرئيس، ولكن بمفهوم «القاضي السياسي» الذي يمثل الحكومة. ومع مرور الأيام منح رجال الخطابي الأوفياء، محمد الابن الكبير، لقب الخطابي لهدف سياسي محض. إذ إن ذلك الاسم كانت له دلالات بعيدة لها علاقة بصلة القرابة مع واحد من الخلفاء الراشدين (عمر، من أصحاب الرسول) فجعلوا من محمد بن عبد الكريم المرشح السياسي والديني المثالي لنيل درجة سلطان أو أمير الريف[36].

كان محمد بن عبد الكريم الخطابي رجلا خشن الطباع، متوسط القامة، قوي البنية، بيضاوي الوجه، لا يهتم كثيرا بمظهره، عذب الحديث، مثقفا وحادا، وكانت له نظرة ثاقبة مباشرة. ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1882 في اجدير، أمام العَلَم الإسباني الذي كان يرفرف خفاقا فوق الجبل الذي احتله اندريس دافلوس Andrés Davalos سنة 1673.

لم يكن والده بخيلا ولا مبذرا، بل كان الهدف من ذلك توفير المصاريف لولديه، حيث تمكن من إرسال محمد إلى مدرسة فاس لتلقي العلم، وامحمد إلى مدريد لدراسة الهندسة المعدنية، لكن وبفشل الاتفاقيات المبرمة بين كل من عائلة عبد الكريم والجنرالات الإسبان سنة 1919، خابت كل آمال الأب.

وهكذا عاد امحمد من مدريد -قبل احتلال انوال بسنتين- دون أن يكمل دراسته، مخلفا وراءه شهادات صريحة على اجتهاده ومثابرته. اما فيما يخص محمد، فإلى جانب عمله في المدرسة مدرسا للأمازيغية في مدينة مليلية (ابتداء من 1908)، فقد تم تعيينه سنة 1904، قاضيا للقضاة، مما خول له كل الصلاحيات للنظر في الشؤون المحلية. وبالإضافة إلى كل هذا، عينه كانديدو لوبيرا Candido Lobera (مؤسس ومدير يومية تلغراف الريف)، رئيسا لتحرير الصفحات التي تصدرها جريدته بالعربية. وفي يوليوز 1911. وتزامنا مع الأزمة التي اندلعت في أوروبا، قبل الحرب، بسبب التحدي الصارخ

الذي شكله وصول بارجة المدافع الألمانية بانثير Panther إلى أغادير، كتب محمد مقالات لاذعة ضد سياسة باريس[37]. اطمأن سيدي عبد الكريم الذي كان دائما يطمح لأن تكون لولديه هيبته نفسها ومكانته بين أهالي أجدير، إلا أن هذا النفوذ وهذه المكانة ما لبثت أن تقلصت عام 1921، بسبب مجموعة من التراكمات لها علاقة بسلسلة قديمة من الاعتداءات والإحباطات والتهديدات والانتقامات. فأحست عائلة عبد الكريم التي كانت صديقة لإسبانيا بالمرارة والاضطهاد. وفي أجدير معقلها، احتقرها البعض وتجاهلها البعض الآخر بسبب تقربها الشديد من الإسبان. إذ دون احترام الأفخاذ والرباع لا تستطيع اية شخصية وجيهة أن تعيش في الريف. وباستيلاء سيلفستري على أنوال، تراجعت قدرة عبد الكريم على المناورات، وتراجع نفوذه على القبيلة وانتهى. ولم يكن الريفيون ليباركوا قيادته السياسية ولا العسكرية إذا لم يقدم عملا مميزا. إذن هي الحرب او السلام العادل الذي يضمن لهم استقلالهم وحفاظهم على ممتلكاتهم. هذه هي الرسالة التي مررها القائد السياسي لسيلفستري والقيادة العامة للحرس المدني.

أيتبورو ومورالس،
اثنان من رموز الذكاء الإسباني

كان الكولونيل مورالس يدرك تماما أن الريفيين الموالين له، هم من يستطيعون خدمة مصالح إسبانيا في المغرب. كيف لا، وهو يرى أن الجيوش الإسبانية قد أصبحت في حالة يرثى لها في ظل غياب تداريب ممنهجة، وسيادة طبيعة قاسية. كانت كل الوحدات العسكرية مريضة ومنهوكة القوى من جراء المشي لمسافات طويلة، أما معنوياتهم فكانت تحت الصفر، وكانت كل مجهوداتهم تذهب سدى. وأمام كل هذه الأوضاع، كان الكولونيل مورالس يعي أن جيشه المؤلف من وحدات الحرس المدني، والفرق النظامية، هو الوحيد الذي سيقتحم الريف. وهكذا دخلت إسبانيا غمار الحرب سنة 1921.

ودائما كان الحديث يجري عن المؤهلات الشخصية للجيش، وعن قوة العدو التي كانت تقاس دائما بكمية البنادق. فكل بندقية كانت تعني مقاتلا، وكانت قبيلة بني ورياغل وحدها تمتلك ستة آلاف بندقية. مما كان يعني ستة آلاف رجل مسلح ومستعد كل الاستعداد للهجوم. كان الريفيون يجيدون القتال سواء بالسلاح الأبيض أو بالبنادق. ولم

تكن في المغرب كله قبيلة من هذا النوع، بل حتى إسبانيا نفسها لم تكن تمتلك هذه القوة.

كانت شخصية لويس ايثبورو موندخار تمتاز بالحذر وقوة الحدس، وكان شديد الاحترام لكل ما له علاقة بالريف. كيف لا، وهو المطلع على تحصيناتهم الطبيعية والعسكرية. كان يتكلم الأمازيغية، الشيء الذي ساعده على استيعاب أبعاد المشكلة، وكان في تسييره لقيادة مليلية منذ ربيع 1915 وحتى 1920، ينهج سياسة الشدة واللين في نفس الوقت. وكان **فرانثيسكو غوميث خوردانا** Francisco Gamez Jordana، هو من عينه في هذا المنصب لينتقل بعدها إلى تطوان مندوبا ساميا بدل الجنرال مارينا Marina، وذلك في ظروف غامضة ودرامية تتعلق بملف سيدي اقلعي.

وفي مدة لا تتجاوز خمس سنوات، حقق ايثبورو إنجازات عظيمة ذهبت مع الريح فور تقلد برنكر السلطة في تطوان وانصراف سيلفستري إلى الريف. وبالاستيلاء على انوال، كان ايثبورو متواجدا بمدريد. كان هزيل الجسم يمشي في حزم وثبات، ويفكر بسرعة. وبحلول عام 1921، استطاع هذا الشرس، وهو ابن الرابعة والستين من عمره أن يُخضع القيادة العامة بمليلية لعملية تأطير مستمرة. كان شهما وذا حس تحليلي، وكان يدقق في كل الأمور، كما كانت له القدرة على التخطيط الحربي واقتراح الحلول الناجعة للمشاكل المعتادة. وكان كذلك سياسيا محنكا، حتى إنه يجوز القول انه كان افضل الإسبان بإفريقيا، وإن كان غير محظوظ دائما في إيجاد فرص العمل. كان يصف زحف الجيوش الإسبانية نحو الحسيمة -عبر طريق انوال- بالعمل الجنوني، لقد كان بحق تلميذا لخوردانا.

وحينما كان ايثبورو يطلب النصيحة والمشورة من مورالس ويعطي كل تعليماته وتوصياته، كان سيلفستري يفعل عكس ذلك ويدير ظهره لكل التوصيات. كان بإمكان سيلفستري ان يكون حكيما متبصرا لو كان ياخذ براي مورالس.

أنوال: إسبانيا تدخل أرض العدو

كان مورالس يدرك جيدا كيف ان محمداً، الإبن الأكبر لعبد الكريم، كان مستاءً من إسبانيا وسياستها. ومرد ذلك حبسه في سجن قلعة "كبيريريثاس Cabrerizas" بمليلية، بتهمة تدبير مؤامرات مع عملاء اتراك قدموا إلى اجدير في نونبر 1914، وذلك إلى جانب والده سيدي عبد الكريم. ولم يكن هذا الاتهام ليثير العجب، إذ إنه اثناء الحرب

العالمية الأولى، كان غالبية الوجهاء المسلمين من مصر حتى المغرب يعلنون عن تعاطفهم الكبير مع الأتراك والمانيا، ويعلنون عن إيمانهم بأن المانيا قادرة على تفكيك دعائم فرنسا، ومنه لن تستطيع إسبانيا الصمود لوحدها.

كان ايثبورو على علم بتفاصيل هذه المؤامرة المحتملة بفضل بلاغ مفصل، سلمه إياه النقيب فيسنتي سيستي Vicente Siste، رئيس مكتب الشرطة الأهلية في الحسيمة. لكن المؤامرة الريفية لم تكن في واقع الأمر سوى انبهار وإعجاب بالشباب الأتراك، خاصة حزب إنفر باشا Enver Pacha، الذي كان يامل في توحيد صفوف المسلمين ضد الحلفاء، وهو الشيء الذي طرح إمكانية إيقاف زحف المستعمر الإسباني في المغرب. لم يستطع الريف قطّ ان يتحاور مع فرنسا نظرا لقوتها، لكن إسبانيا، نظرا لقلة مؤهلاتها العسكرية، وعزلتها الجيوسياسية، فقد كانت دائما تمنح فرصة عقد المعاهدات والاتفاقيات.

في منتصف غشت 1915 أجرى النقيب سيستي Siste، مقابلة مع محمد بن عبد الكريم. صرح له فيها ودون تحفظ عن نقمته على الفرنسيين، وهو شعور يتقاسمه مع الإسبان كذلك. هذا وقد أعرب الريف دائما عن رغبته الحثيثة في الحفاظ على علاقات جيدة مع إسبانيا. لم تكن فكرة تواجد الإسبان بمليلية وتوسيعهم لرقعة ممتلكاتهم حتى حدود جبهة كرت، بالقرب من إمعروفن وإشافن، وهي مناطق شهدت قديما معارك يعود تاريخها لـ1911-1912، لتزعج الريف. كما كان بإمكان إسبانيا الحفاظ على اعرويت، والباطل وتويزن بلا مشاكل. لكن هذه الثغور، إلى جانب أخرى في اتجاه الغرب، كانت ارضا محرمة على إسبانيا، وعلى اية قوة اخرى، حتى وإن كانت قوة السلطان. وذلك لأنهم كانوا يتمنون بلهفة تحقيق استقلال الريف الذي لم تطأه بعد قدم المستعمر[38].

كان دهاء عبد الكريم يثير العجب، يريد التعامل مع إسبانيا باعتبارها قوة سهلة، وبهذا يجمع بين الحسنيين: الإسبان من جهة، وإيالة فاس التي كان يحكمها مولاي الحسن (العاهل العلوي الثاني عشر) من جهة اخرى. والاثنان معا كانا صديقين لابد من اللعب معهما بصفتهما أعداء بالتناوب، فيوقع على تحالف مع طرف ضد الآخر.

كان بمقدور إسبانيا ان تبسط سيطرتها إلى حدود نقطة اتصال إغان باغان بالقرب من الباطل. فكل الثغور الواقعة عن يمين هذه النقطة كانت في ملكية إسبانيا، وكل ما هو عن الشمال كان للريف، كما تقدمت إسبانيا بالاستيلاء على مناطق أولاد

ستوت. واعرويت، وسلوان والناظور، زيادة على ضم جبال زايو الوعرة وراس الماء، الذي كان علم آخر احمر واصفر اللون، يرفرف امامه. يتعلق الأمر بعلَم الجزر الجعفرية التي استولت عليها إسبانيا منذ سنة 1848. كان على إسبانيا أن تكتفي بهذا القدر من الأراضي الريفية، لكن مدريد كانت تريد المزيد.

حدث ان تخطّت إسبانيا ومنذ عام ونصف جبهة الكرط، التي تعد نقطة استراتيجية هامة في اتجاه غرب شمال المغرب. وبعد هذه الخطوة سقطت تحت سيطرتها الاستعمارية سنة 1920، مواقع جد هامة مثل دار الحاج بزان (القصبة الحمراء)، ودار الكبداني، والقندوسي، ودار أزوكاج، ودار الدريوش، وابن طيب، وميضر، وازرو، وشيف وتفريست في عملية تطويق لكل من قبيلة تمسمان وبني ورياغل. لكن انوال كانت بحق أرض عداء لإسبانيا، فلم يتم الإعلان عنها مسبقا.

صديق تجرع المرارة ويطالب بالتعويض

كانت فرنسا تَعُدّ الاتصال بالأتراك خطرا بالغا، والحسبان نفسه كانت تتبناه إسبانيا، وفي خضم هذه الأجواء المتوترة، كان خوردانا قلقا ومنشغل البال، فأصدر بذلك اوامره الدقيقة لأيثبورو ليلقي القبض على رئيس القبيلة. كانت الفرصة ملائمة عند ذهاب أيثبورو إلى الحسيمة، في زيارة روتينية تعوّد خلالها أهل اجدير المحترمين ان يقدموا رغم انوفهم فروض الطاعة والولاء. وجاءت هذه الزيارة للحسيمة في الرابع والعشرين من غشت عام 1915. لكن سيدي عبد الكريم اشتمّ من هذه الزيارة رائحة المكيدة، فامتنع عن الذهاب والحضور لمراسيم الولاء، فأصبح الابن بعده هو الراس المطالب به. وفي السادس من شتنبر، زُجّ بمحمد بن عبد الكريم في سجن مليلية، وكان المسؤول عن الحادث هو ريكلمي Riquelme الضابط الصديق، فكان الأمر عسيرا عليهما معا. كان أيثبورو يريد الإفراج عن سجين كبريريثاس الشهير، معتبرا اعتقاله خطأ وتعسفا كبيرين، لكن خوردانا من تطوان ابى إلا أن يحتفظ به سجينا.

لم يتقبل محمد سجنه الذي اعتبره شنيعا وغير عادل، فعزم على الهروب مستعملا حبلا معقودا. كان الوقت ليلا، وكان اتباعه الأوفياء ينتظرونه في الخارج مدة اربعة أيام في أجدير.

في الثالث والعشرين من دجنبر عام 1915، وبعد ان تمكن من كسر شباك نافذة زنزانته، استطاع محمد بن عبد الكريم التسلل إلى الخارج عبر حائط البرج، لكن الحبل

تمزق من الوسط فسقط عبد الكريم مغمى عليه داخل حفرة مليئة بالحصى، وهو ينزف دما. وامام هول الكارثة، تبين ان الهروب بات مستحيلا فارتأى رفاق المنكوب ان يغادروا المكان. وبعد هنيهة جاءت الدوريات الإسبانية، وحملت الجريح لتسهر على علاجه، لكن العناية كانت سيئة، وكانت النتيجة ان بقي عبد الكريم أعرج طول حياته.

وفي غشت 1916، أُخلي سبيل محمد بن عبد الكريم الذي استطاع ان يقضي مع عائلته في اجدير الأيام الأخيرة من رمضان. ومرت تسعة اشهر (حتى مايو 1917)، حتى التحق محمد من جديد بعمله[39].

وبالرغم من الرقابة الشديدة، إلا أن محمد بن عبد الكريم كان يثق في فهم ايثبورو. كانت التجربة قاسية، لكن ليس بالقدر الذي يجعله يثور ضد إسبانيا. آنذاك، قررت عائلة عبد الكريم ان تجتمع وتنضم إلى عائلة بورجيلة التي كان يتزعمها احمد المعروف بـ"الشريف" (القائد السياسي والروحي)، وكان يساعده في مهامه ولده عبد السلام، ساعده الأيمن. وإذا كانت عائلة عبد الكريم تراوغ في إخلاصها لإسبانيا، فإن آل بورجيلة كانوا من مؤيديها وانصارها.

والنتيجة كانت سيئة لكلا الطرفين، فعبد السلام بورجيله نجل احمد، لقي حتفه في كمين نصب له، بالرغم من حرّاسه الأقوياء الذين كانوا يرافقونه، كما احرقت محاصيل والده الزراعية. ولم تسلم كذلك عائلة عبد الكريم من التهديدات القوية اللهجة، كان يُحرق منزلها وكذا محاصيلها الزراعية. فاشعلت النار في المنتوجات الفلاحية، لكن البيت نجا، وكان ذلك في مارس 1917[40]. لكن مهارة الشيخ الفقيه وتدخله السريع، ساعدا على تفادي وقوع مآسي كبيرة لعائلته.

ويمر الوقت. وتخسر المانيا الحرب. في حين تواصل فرنسا كفاحها المسلح (في هجوم لودينودورف Ludendorff في ربيع 1918)، ويعود عبد الكريم الأب إلى محاولاته للتعاون مع ايثبورو فيما يخص الإنزال العسكري عند خليج الحسيمة. إنها عملية ستتم بعيدا عن الأراضي الخاضعة لبني ورياغل، وقريبا من الأراضي التابعة لتمسمان ومقاطعتها تزوغوت Tugrut المحاذية للشاطئ. فمن هناك كانت تكفي قفزة واحدة للوصول إلى الخليج. التمسمانيون تعهدوا بتقديم مساعدة قوامها تسعمائة رجل مسلح، لم يكن العدد كثيرا، لكن العرض كان مشجعا ومغريا، تفتحت له الحواس الخمس

لأيثبورو. وجاء خوردانا لينعت هذا الاقتراح بـالمهم جدا». وبما أن محمد بن عبد الكريم كان يتواجد في أجدير، فقد عهد إليه أيثبورو بدور المراقب السامي على هذا النزول العسكري[41]، ودعمه بتلينتي كولونيل كفء يعرف بـ خوسي ريكلمي José Riquelme، يبلغ عمره 38 سنة، وكذا لوبيث باغو Lopez Bago حارسه القديم[42]. كان الرهان خطيرا سواء على إسبانيا أم على الريف.

لم يتأخر عبد الكريم في الوفاء بالتزاماته وإخلاصه لأيثبورو، فقدم لريكلمي استنتاجاته التي تفي بأن النزول في الحسيمة مستحيل أن يتم إلا بعد ضمان ثقة القايد علال، رئيس تزوغوت؛ وحسب عبد الكريم، كان شهر يونيو هو الوقت المثالي للهجوم. لكن ريكلمي وهو الأكثر ذكاء، كان يفضل تأجيل الأمر إلى حدود يوليوز 1918، وذلك لأن غالبية فلاحي الريف المتوسط يكونون وقتها منهمكين في أشغالهم الموسمية بالجزائر؛ وهكذا، لن تكون هناك بنادق على شواطئ أجدير. أبدت عائلة عبد الكريم موافقتها على هذا المخطط، وفجأة تم إيقاف كل العمليات بأمر إلزامي أصدره خوردانا، الذي وافته المنية فيما بعد بأشهر قليلة في تطوان يوم الثامن عشر من نونبر 1918.

وقتها فقد سكان الشمال آمالهم الكبيرة في ألمانيا، التي استمرت مساعداتها إلى حدود 1918 (لنذكر على سبيل المثال الاستقبال الحافل الذي أقيم لغيوم الثاني في طنجة 1905، بعد انهزام القوى الغربية في ساحات الحرب الأوروبية) لكن البرغماتية الريفية، التي كانت دائما تطالب المعمر بالتعويضات والمحافظة على الاستقلال وإن كان صوريا، أصرت دائما على مواقفها.

راهن كل من أيثبورو وموراليس على عائلة عبد الكريم، كان مخططهم بسيطا، حيث كان ينص على توزيع المال، وتوطيد الثقة بواسطة عمليات عسكرية برمائية، فذهب أيثبورو ليحاول مرة سادسة، لكنه كل مرة كان يردد الأفكار النيرة لغومس خوردانا.

مخطط خوردانا، وثقة موراليس

لم يُحدد التاريخ بالضبط، لكن كل المؤشرات كانت تدل على أن الحدث وقع في صيف 1913، حيث قام المندوب العام بمليلية آنذاك، فرانثيسكو غومس خوردانا -الذي تولى هذا المنصب منذ إحداثه في دجنبر 1912- باتخاذ قرار غير مسبوق له، إذ إنه تقدم للجنرال

لوكي Luque، وزير الحربية في الحكومة الأولى لرومانونيس Romanones، بمخطط جريء يقضي بصرف التعويضات المالية للشرفاء الريفيين بأجدير، مع إنزال القوات بالحسيمة. وقد عَرض هذا المشروع على الوزير دون أن تكون للمقيم العام مارينا Marina، دراية بالأمر[43]. كان خوردانا يعي تماما ماهية تصرفاته، كما أن الجنرال لوكي وضع خطة هجوم جريئة على الحسيمة، محددا التاريخ الدقيق لإنزال وانتشار القوات (الثامن عشر من دجنبر 1911). لكن لم يكتب لخطته النجاح، لقد جوبهت بالرفض في الوقت الذي كانت فيه كل الفرق العسكرية على أهبة الاستعداد للقيام بواجبها. وبعد مرور سنتين، وبأفول نجم الثورة الريفية التي قضت نحبها بموت زعيمها الصالح أمزيان في ساحة القتال، عاد الجنرال خوردانا إلى هذه المبادرة الحاسمة ليصقلها سياسيا ويبث فيها من جديد روح التطور العسكري.

في رسالة "جد سرية" توجد نسخة منها في الأكاديمية الملكية للتاريخ، تم تأكيد فكرة تقديم رشوة لمحمد بن عبد الكريم قدرها أربعة وأربعون ألفا وتسعمائة وخمسة وثلاثين بسيطة تعويضا عن حجم الخسائر التي لحقت بممتلكاته، بالإضافة إلى مائتين أو ثلاثمائة ألف بسيطة وزّعت على قياد بني ورياغل لاستمالتهم للعملية البرمائية المزمع تنفيذها. ولم يتوان الجنرال خوردانا في التوجه إلى لوكي بهذه العبارات: «إنني لم أذكر شيئا من هذا القبيل للمقيم العام (مارينا)، وإذا حدث وقبلت الحكومة مخططاتي، فسوف أشير عليك بنوعية السياسة التي يجب تطبيقها في هذه المنطقة. أما إذا وجدتم أنتم طريقة أخرى أفضل، فما علينا إلا الطاعة. لكن يجدر بنا أن نعجل بهذا الهجوم الذي يشغل بالنا قبل انقضاء الشهر المقبل»[44].

كان السيل قد وصل الزبى، وقد عبّر خوردانا عن الخطر الذي كان يحدق بالإسبان والريفيين على حد سواء بهذه العبارات: «إن حياة أصدقائنا باتت في الخطر، فالمتعصبون يترصدون لهم من كل جانب، فإذا لم نقدم لهم يد المساعدة بالاستيلاء على أرضهم، فإنهم سينقلبون علينا للحفاظ على كرامتهم ومصالحهم».

وكان هؤلاء الأصدقاء هم محمد الشدّي، ومحند أبقوي، وسيدي مساند وولده، والكوبيس الذي قال عنه الجنرال: «إنه أصبح قائدا منذ عهد قريب، وإن أباه سيدي مساند كان طريح الفراش في الحسيمة بسبب ورم سرطاني ظهر في وجهه». وأضاف الجنرال: «إن بقاءه على قيد الحياة، يضمن لنا ولاء عائلته، التي تعد واحدة من العائلات التي لها ثقلها في الريف».

وتنضاف إلى ما ذكر آنفا، عائلات اخرى مثل بوبكر بلحاج حاشن، وبوسلمان، وعائلة بورجيلة وعائلة عبد الكريم[45]، التي تسلمت نجمة من درجة ثانية معاشا يُصرف للأب، ونجمة اخرى للابن الذي كان يجب الاحتياط منه، فهو قادر على إلحاق الضرر بنا. نجمتان إذن من الدرجة الثانية أعطتا استحقاقا عسكريا. مُنحت النجمتان، وحُدد معاش لعبد الكريم الوالد مقداره خمسمائة بسيطة. اما ولده محمد، فلن تعوزه ابدا أوسمة إسبانية، إذ لن يوشح بواحدة فقط، بل ستكون له نجمتان تمنحان استحقاقا عسكريا، زيادة على تكريمه بوسام الملكة إزبيلا الكاثوليكية وميدالية إفريقيا.

سنة 1913، تقدم خوردانا إلى الحكومة بطلب نهج سياسة التبصر والاحترام مع الأصدقاء الريفيين... وإمدادهم بعشرين فرقة عسكرية. كانت العدالة والقوة في الريف عنصرين تاريخيين لا ينفصلان. وهكذا، عهد الجنرال خوردانا بالقتال لجيش قوامه ثمانية الف رجل، عززه بـ"عشرة من البواخر البخارية" و"استاجر ما يلزم من زوارق النقل". فإذا ما رست على الشواطئ، "قفز الرجال إلى الماء". وامتازت هذه العملية بالمساعدة التي منحها إياه اهالي اجدير، الذين تعهدوا له بإحكام القبضة على المواقع، والذود عنها عند نزولهم بها[46]. كان خوردانا يدرك تماما خطورة استعمال القوة مع رجال بني ورياغل الذين لا يهابون الموت، فتصرف معهم بالحكمة، فمد للعدو يدين، الأولى كانت مغطاة بقفاز، والثانية كانت من الفولاذ.

كانت إسبانيا سخية في التعويضات، وفقيرة في الإمدادات

وبعد سنة، وفي جلسة متميزة للمؤتمر الذي عقد لتباحث قضية المغرب، ذكر ميلغيادس آلفرث Melquiádes Alvarez، الجمهوري القديم وزعيم الإصلاح آنذاك، للجنرال رامون إشاكوي Ramón Echagüe، الذي كان عضوا في الوزارة الحربية اثناء حكومة داتو Dato، ما نصه: «ليس من المعقول، سيدي الوزير، أن تضحوا بكل هذه الخسارات، في حرب اعتبرتموها سهلة، اعتمادا على ان القتال سيكون بين جملة من القبائل التي لا تتوفر على نظام عسكري محكم. وبغض النظر عن أن الريفيين هم عناصر لا يُستهان بهم، فليس من المنطق سيدي، وخصوصا بعد النتائج التي حصلنا عليها، أن نصرف أزيد من مائة الف من التعويضات»[47].

لكن الأمر لم يكن يتعلق بـ"مائة الف" من التعويضات، بل كان اكثر من ذلك بكثير. وبالضبط طُرحت قضية إعطاء مائة واثنين وثلاثين الفا وتسعمائة وخمسة وعشرين وساما، إضافة إلى خمسمائة وسبع وثمانين ترقية "بمثابة استحقاقات حربية". وقد نوقشت هذه الأمور في ربيع 1914. حيث تم التنديد بهذه الهلوسة المبالغ فيها في إعطاء التعويضات عن الحروب الإفريقية، التي امتدت منذ 1909 إلى حدود 1913. وقد كانت هذه التعويضات في واقع الأمر محاولة للتخفيف من حدة الهزيمة. والخلاصة ان هذه الهبات كانت نصرا مشؤوما.

وكل هذه الأرقام غير المشكوك فيها، كانت بمثابة سر ثمين حرص انطونيو ماورا على معرفة ادق تفاصيله وفيما بعد تكتم على الأمر. وقد ساعده في ذلك الجنرال خوان دي امبوديا J. de Ampudia، الحاكم العسكري لكورونيا Corunia والشاهد على كل الخروقات[48].

وكان آلفارث Álvarez مُحقا حينما عبّر عن استيائه من هذه الهلوسة، إذ رآها «مفسدة لمعنويات الجيش»، إذ إنها لم تكن حافزا يشجع الجيش على التفاني في اداء المهام المنوطة به، بل كانت تحريضا عن الطمع والتسيب»[49] لم يخطئ خوردانا حينما طلب تلك الأوسمة لعائلة عبد الكريم، وخيرا فعل رومانونس Romanones حينما بارك ذلك التتويج. ولم يخفق ايثبورو -الذي كان آنذاك قائدا عاما بمليلية- في وقوفه إلى جانب عائلة عبد الكريم المتهمة بمناصرتها للألمان. لكن عهد القرارات الحكيمة والمتبصرة انتهى هنا[50]، لتاتي حكومة داتو Dato وايندیسلثار Allendesalzar من جهة، وسفراء برنكر وسيلفستري من جهة اخرى، ليراهنوا على خيار الحرب عوض المباحثات. اصبحت نظريات مورالس وايثبورو في مهب الريح.

رسائل من قلب الريف

في اواخر سنة 1918، طالب محمد بن عبد الكريم بترخيص جديد، يسمح له بالذهاب إلى زيارة عائلته، فحصل عليه، لكنه لم يرجع بعدها إلى مكتبه بمليلية. وفي الوقت نفسه، تلقى امحمد بمدريد اوامر الوالد الصارمة بالعودة إلى الريف. تاخر محمد كثيرا في الالتحاق بمكان عمله بمليلية، الشيء الذي اقلق الجنرال ايثبورو، الذي كلف قائد جهة الحسيمة السيد ثيفانتوس بوينانيو Civantos Buenaño، بإنجاز تقرير مفصل عن غياب محمد. فكتب إليه هذا الأخير يوم العشرين من فبراير عام 1919، رسالة يخبره فيها بأن

السي عبد الكريم بعث إليه مع ابن اخيه برقية عاجلة ينبهه فيها بأنه عازم على عدم إرسال ولديه إلى مناصبهما القديمة. كان السبب بسيطا وحاملا في طياته تهديدا، وذلك أن مجموعة من العائلات من بينها عائلة آيت علي، والمرابطين، وآيت يوسف، حذرت الوالد من ان تقتص إسبانيا من ولديه، وتجعلهما رهائن عندها»[51].

مرت سنة، وايثبورو مازال على يأسه، إذ تقاعست سلطات مدريد في الإجابة عليه، واصبحت نار الريفيين يُسمع لها شهيق وزفير، وانتهى الأمر بخلع الجنرال من منصبه ليحل محله سيلفستري.

في فبراير 1920، كانت عائلة عبد الكريم ماتزال على ولائها لإسبانيا. وهكذا كانت تخادع قبيلتها تارة، وسلطات مليلية تارة اخرى. لم يكن هناك من خيار آخر أمام هذا الكم الهائل من المشاكل. وقد حلت الكارثة بوفاة الأب مسموما، حسب بعض الروايات[52]. ولم تناول خبر اختفاء السي عبد الكريم -المتوفى في السابع من غشت 1920- سوى يومية *تلغراف الريف*، لدرجة ان كانديدو لوبيرا Càndido Lobera، قال في شأن المرحوم إنه: «الريفي الوحيد الذي كان نيرا في عقله»[53].

وفي الخامس عشر من غشت 1920، بعث ابناء عبد الكريم إلى *لوبيرا* برسالة تضمنت آراء الوالد فيما يخص الإسبان والريفيين على حد سواء، فذكروا عبارات الوالد: «كنت أدرك جيدا انه للعيش في وطن آمن، ومتآخ ومستمر، لابد للشعبين الإسباني والريفي أن يتحابّا وتجمع بينهما روابط الثقة»[54].

وفي خاتمة الرسالة اكدوا قائلين: «نحن ابناء عبد الكريم، لن ننسى فضل إسبانيا على والدنا، وإننا نمنح أصواتنا من أجل إسبانيا مزدهرة، وكذلك نتمنى ان تتوسع منطقتها المحمية، ونحن في ذلك نؤكد على مباركتنا ومساعدتنا لإنجاز هذا العمل». لم يتلق محمد وامحمد جوابا، كان سيلفستري يحكم في مليلية، ولم يكن الجنرال يقرأ الرسائل التي ترد من أجدير، حتى تلك التي تنشر في الجريدة.

وبانقضاء سنة 1920، تلقى محمد بن عبد الكريم بلاغا بريديا من ممثل المناجم في الريف، السيد فرانثيسكو كبايرو Francisco Caballero، (يجب عدم خلط هذا الشخص بخوان بيريث كابيرو J. Pérez C. السياسي). وللإجابة عليه، ضمن الريفي رسالته بتصريح عسكري - سياسي جاء فيه: «ما سوف اقوله لك هو الراي الصحيح والسديد،

إننا ننتظر فقط الفرصة المناسبة لنعبر عن رغبتنا في سلام آمن وشامل تضمنه السلطات الإسبانية للمنطقة، وقد عبرنا دائما عن رغبتنا هذه، وما زلنا مصرين على ذلك. وما عدا هذا فهو حديث أناس يتشدقون بالحديث في المقاهي.

وفي رسالة أخرى إلى كبايرو بتاريخ التاسع عشر من مارس 1921، ذكر عبد الكريم ما يلي: «سيادتكم تعرفون جيدا ان قواتكم توجد بالقرب من كرن Karn، فيستحسن أن ياتي واحد منكم إلى سيدي إدريس أو إلى موقع آخر ليعاين عن قرب الطبقات المنجمية. ويرى هل من الممكن استغلالها في هذه الجهة»[55].

لم تكن عائلة عبد الكريم ترغب في قطيعة عسكرية، بل كانت تريد الحفاظ على علاقة اقتصادية مع إسبانيا. لكن زحف سيلفستري، جاء ليجهض كل هذه المحاولات ويقضي على كل هذه الآمال.

اجتماعات مناهضة للحرب وحرب كرّ وفرّ يومية

كانت إسبانيا متورطة في حرب استعمارية واسعة النطاق، ولم تكن معنوياتها تسمح لها بحرب جديدة، خاصة وانها تفتقر لجيش قوي. وقد تسبب الشعور بضآلة الإمكانيات العسكرية بإفريقيا، زيادة على الحاجة الملحة في انتهاج إصلاح جذري، تقدم بملفه كل من كسولا Cassola لوبيث دومنيكث López Dominguez، ولينارس Linares لوكي Luque، في أزمة خانقة للمؤسسة العسكرية.

حدث أن تزامنت هذه الأزمة مع موجات إضراب صيف 1917، وتُدُورِست تداعياتها في اجتماعات وزارة الدفاع، التي كان يراسها الكولونيل بنيطو ماركيث مارتينيث Benito Márquez Martinez، هذا الضابط الذي أعرب عن امتعاضه الشديد في إشبيلية، مدينته الأم (ولد في 1858)، بعد اتهامه بالغش لعدم تسديده ديونا لضباط آخرين في الفلبين 1896-1897[56]، (والتي قد تكون ديون قمار). وقد سولت له نفسه تهديد النظام الليبرالي وإهانة الفونصو الثالث عشر، بكلمات جارحة وقاسية، كما هدد بإسقاط العاهل كما لو كان كرمويل Cromwell، ولكن ليس على شاكلة النموذج البريطاني. وفي فاتح يونيو 1917، وبقبول حكومة غارسيا بريتو García Prieto لنظرية ماركيث

Márquez واتباعه، جاءت هذه النظريات رد فعل قوي لضباط الدرجة الثانية، الذين ثاروا على جنرالات الجيش والقواد أصدقاء الملك، الذي عاش أسعد لحظات حياته، وإن كانت الخطوة الموالية هي طلبه اللجوء من كوبا، فخلف وراءه جيشا ممزقا وضعيفا.

افزعت مجالس الدفاع التي عُقدت تحت إمرة الجنرال مارينا، كل الحكام والجنرالات والبرلمان والحكومة وكذا العائلة الملكية. عدا شخصا واحدا حافظ على ثباته واتزانه، إنه الجنرال فرانثيسكو اغيليرا إغيا، الذي كان وقتها وزيرا للحربية. وقد اعتبر اغليرا، -هذا الشخص الذي كان يبلغ من العمر ستين عاما (في 1917)- تيار بونابارت بمثابة حماقة وإهانة للجيش الدستوري. كان اغليرا الشخص الوحيد الذي تصدى لهذه الحركة، لكن سرعان ما وجد نفسه مجبرا على التأقلم مع الأوضاع، خاصة بعد ان تمكنت الحكومة وكذا رومانونس -مستشار الملك فيما يخص هذا الفصل الأسود- من إقناعه. لكن الغموض الذي كان يكتنف الأمور جعله يعاود العصيان والتمرد اثناء محاكمة برنكر.

كانت الحكومة لا تقبل علنا بوجود هذه التيارات، لكنها كانت تتعامل معها كما لو كانت موجودة في الحقيقة.

اعربت هذه المجالس عن نيتها في إقامة جيش جديد، مستعد للقتال ضد عدو مجهول. والخلاصة ان هذه التيارات المناهضة للحرب والجيش، كان لها تاثير كبير في سائر اوروبا.

وفي عام أنوال، بلغت هذه المواقف ذروتها زمن الحماية، فتكونت الميلشيا الزائفة، وفي المغرب خرج قادة الجيش ليلتحقوا بأماكن عملهم، دون ان يتعرفوا على وحدات جيشهم، أما هيئة الضباط، فكانت في حالة يرثى لها. ولم يكن الجنود يعرفون شيئاً آخر سوى إنقاذ حياتهم، كلما دخلوا في قتال ميؤوس منه. لم تكن هناك مخططات، ولا حتى سلطة، ولا دواع عسكرية معقولة. وبالتالي، لم يكن هناك جيش بالطبع.

وبينما كان الجيش يعاني من ويلات حروب طويلة، كانت قيادته العامة -في الشهر الموالي- تعد عدتها لحرب الخمسة عشر يوما. أما في الجهة الأخرى من إفريقيا، فقد كان القواد والملازمون يقضون شهورا عدة في ميادين القتال غير عابئين بالقيادة، وهم يجابهون مسؤوليات جساما، ويشهدون بأعينهم تضحيات رجالاتهم، وهم يعرضون حياتهم للخطر.

لم يتقاعس سيلفستري قط في القيام بمسؤولياته، فكان اول من خرج للقتال بمزاج صاف. وهو يتقدم الصفوف الأولى. كان لا يعرف غير النار، فتلك كانت طريقته

الوحيدة في التعامل. اما جيشه، فلم يطالبه بالعمل والحركة، بقدر ما كان يطالبه بالالتحام والانسجام.

وفي الخامس عشر من يناير 1921، وبعد تجهيز حصن دفاعي في انوال -كان يتخذ صفوفا لرصد العدو، وثكنات عسكرية منعزلة، ومنابع ماء تبعد عن خط السياج بأربعمائة متر- خرج سيلفستري في غزوته الأخيرة. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا، وكان الجو باردا. وفي إنوناتن، كانت سيارته وحرسه في انتظاره، استغرقت الرحلة أربع ساعات، وقبل الثامنة ليلا، حل بمليلية مجددا. كان سيلفستري شديد الثقة بنفسه.

الشيء نفسه فعله في الحادي والعشرين من يناير، باستيلائه على جبل أزرو. حيث خرج من مليلية على الساعة السابعة صباحا، فوصل إلى الجبل في الثانية مساء، وبعدها بساعة واحدة رجع إلى مليلية[57]. كانت عمليات الريف حرب ذهاب وإياب في اليوم الواحد.

كان سيلفستري لا يكلّ، لكنه بتكتيكاته تلك، كان يستنزف قوى قيادته العامة. لم يكن يَمْعن النظر في الأمور الريفية، حيث كان يفرض تنقلات واسعة النطاق دون حسبان الشساعة غير المعقولة بين الصفوف، والتي كانت تصل إلى سبعة وستين كلم بين الجبهات. علاوة على أن مؤخرة الجيش، كانت متشابكة وغير واضحة المعالم. وفي هذا التشابك الذي كان يناقض كل حكمة استراتيجية، كان سيلفستري يحتفظ بما لا يقل عن مائة وخمسة وثلاثين موقعا، يحتمي بجدرانه ما يناهز خمسة عشر الف إسباني -اصبحوا حرسا على انفسهم- يترقبون عدوا مجهولا.

كانت مليلية تبعد عن انوال بنصف يوم من المسير على متن السيارة السريعة التي كان يركبها سيلفستري، لكنها كانت تعني بالنسبة للجيش، ثلاثة ايام مشيا على الأقدام. وهناك كان قبر الإسبان قد بدات هوته تتسع.

هوامش الفصل الأول:

1) يوجد الكثير من الأسماء التي تنطبق على هذا المكان الجغرافي، "إزمر" "إزامر" "إزومارت" "إزومر" و"إيسومار"، وقد وقع اختيارنا على اللفظ الأخير لتشابهه الكبير مع الخط الأصلي. ونفس الشيء حدث مع الموقع الشهير الذي بسطت قوات سيلفستري هيمنتها عليه، يتعلق الأمر بالعبارة التي ظهرت كـ"انوال" و"انال" و"انال مع وضع الشدة على النون" في العديد من النصوص المكتوبة باللغة الإسبانية، لكن الكلمة المتداولة دائما هي "انوال".

2) دار الدريوش الواقعة بمحاذاة وادي كرط، وابن طيب آخر معقل قبل انوال، تم احتلالهما يوم 15 مايو ويوم 6 دجنبر 1920.

3) دافيلا خلون Davilá Jalon، *حياة في خدمة إسبانيا، الجنرال دون فيدل دافيلا ارونـدو (1962-1978)* الصحافة الإسبانية، مدريد 1978. صفحة 17.

4) المصدر نفسه، ص. 200.

5) المصدر نفسه، ص. 396.

6) المصدر نفسه، ص. 397.

7) كان ابواه هم: السيد خوصي مورالس مونطيرو دي إسبينوسا José Morales y montero de Espinosa الكولونيل في صفوف المشاة. والسيدة انا مندغوتيا نفارو Ana Mendigutia Navvaro . الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية المخطوط. M-4.104.

8) الأرشيف نفسه، المجموعة الأولى. المخطوط M-4.104.

9) دافيلا خلون، المصدر نفسه، ص. 397.

10) ارشيف شيقوبية، المجموعة الأولى. الملف رقم L-440.

11) المصادر الأصلية لـ "لاثرو Lazáro" جاءت من فيض المعلومات المخطوطة التي تمخضت عن غارات المغرب، كانت مصادر تقريرية، شمولية وهادفة في تطرقها لكل ما هو عسكري، وفي صورها التي كتبت في ظهر المستندات ظهرت عبارات لا يمكن ان يستعملها سوى عسكري مدرب. وسنة 1996 وجدت في إحدى مقالات صحيفة (الصول) إشارة إلى "الكومندان لاثرو" الذي كان حاضرا في عمليات احتلال شفشاون سنة (1926)، فظننت أنه هو، لكن جهلي باسمه العائلي الثاني جعلني اظن انه من المستحيل العثور عليه في أرشيف شيقوبية. وكان خوان ديث Juan Díez هو من اعرب عن إصرار قوي في البحث عنه، وإليه يعود الفضل في هذا النسب الكامل لكارلوس لاثرو إلى مونيوث Carlos Lázaro Muñoz الذي وصل إلى رتبة جنرال.

12) دافيلا خلون، المصدر نفسه، ص. 201.

13) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

14) سانتيث دياث رامون Sánchez Díaz Ramín "*المغرب*" في مجلة التاريخ العسكري، سنة 27، مدريد 1982. رقم 53، الصفحات: 151-173.

15) بونماتي، خوصي فرمين Bonmati, José Fermín *الإسبان في المغرب، خلال القرنين 19 و20*، مطبعة مابفري، مدريد 1992، ص. 244، تجدر الإشارة إلى ان عبارة قبيلة (عشيرة) تطرح بعض الإشكاليات، وذلك لأن كل قبيلة كبيرة تضم قبائل او بطونا اخرى. وفي نصنا ارتأينا ان نستعمل عبارة "قبيلة" في هذا المعنى، وإن لم يكن صحيحا، وذلك تفاديا للبس.

16) اعتمدنا كثيرا على اعمال طوماس غارسيا فيغيراس في تقسيمه للقبائل وذلك من خلال مؤلفه، *المغرب، العمليات الإسبانية في شمال المغرب*. دار النشر إف-إيي، برشلونة 1939.

17) جرمان عياش في كتابه *اصول حرب الريف*، الرباط، 1981، ص. 80. يتحدث عن "600.000 نسمة" في حين يتحدث نستور غامبيطا Nestor Gambeta في كتابه، *-إسبانيا في المغرب*، ورشات الصحافة، ليما 1928، صفحة 37- عن الإحصاء الذي نظم سنة 1917مدليا بالنتائج التالية، في المنطقة الفرنسية كان هناك 3.500.000 نسمة، اما المنطقة الإسبانية فكان عدد سكانها يناهز 404.000 ساكن، 60.000 كانت في المنطقة الدولية لطنجة، والمجموع هو 3.964.000 نسمة في مجمل ربوع المغرب.

18) بلانكو إساغا. إميليو Blanco Izaga, Emilio: كولونيل في الريف، تاليف وتحقيق دافيد هارت، سير، David M.Hart, Seyer. مالقة 1995. الصفحات، 237-238.

19) هذه العبارات مأخوذة من العامية المغربية، وفي ذلك اعتمدنا على مؤلف الفرنسيسكاني، والعالم خوصي لرشوندي José Lerchundi المعنون بـ"اللفظ الإسباني - العربي في العامية المغربية". المطبعة الإسبانية العربية للمبشرين الكاثوليك. طنجة 1932، 856 صفحة. أما فيما يخص اللغة الأمازيغية، فقد اعتمدنا على دراسات بلانكو إساغا، وغابريل ديل برل وبالضبط، *الجغرافية العامة لإقليم الريف*، كتب مقدمته الجنرال فرانثيسكو غومس خوردانا. مطبعة تلغراف الريف. مليلية 1911، 178 صفحة.

20) جرمان عياش، نفس المصدر، الصفحات، 243-291.

21) كان سيلفستري بنفس المصدر يحذر في تقاريره الشهرية التي كان يبعث بها إلى برنكر من استياء الشعب الريفي فجاء خطابه كالتالي، «إن السكان الأصليين يعانون بشكل مهول من المجاعة، المصلحة التاريخية العسكرية، المعسكر العام للإقامة العامة بمليلية 1920. ملف 28.

22) بريني هنري Pirenne, Henri: محمد وكارلو مانغو، الترجمة بالإسبانية لإستر بنيتيث. دار النشر اليانسا إديطوريال مدريد 1979، ص. 26.

23) حول هذه القضايا العرقية - الاجتماعية انظر مؤلف هارت مونطغومري دافيد Hart Mongomery, David المعنون *"اتنوغرافية الريفيين، قبيلة بني ورياغل"* والمصنف ضمن مجلة الدراسات المغربية، السنة الثانية، تطوان 1954. الصفحات 51-86. ايت ورياغل هي قبيلة بني ورياغل الواقعة في منطقة اجدير (الحسيمة).

24) بالنكو إساغا، نفس المصدر، الصفحات، 275-421.

25) "تخماست" (اي الجزء الخامس) تعني بالنسبة لبلانكو إساغا فرقة سياسية ريفية، مقابلها بالعربية الخمس، وهو المتداول عند هارت (ص. 163)، وهكذا يتماشى تماما مع التقسيم الذي نهجته قبيلة بني ورياغل ومن تم عبارتها (تخماسين) وهي قبائل اخرى لا علاقة لها بهذا المفهوم، ولا بهذه التعقيدات الاجتماعية وفي المقابل يستحسن استعمال فكرة الأربع (الجزء الرابع) المعروفة في باقي أرجاء الريف (ص. 165).

26) حوار مع سهى عبود هاجر، غشت 1998.

27) بلانكو إساغا، نفس المصدر، الصفحات، 72-77.

28) جاموس، ريموند Jamous, Raymound: *الشرف والبركة. البنية الاجتماعية التقليدية للريف*. مطبعة دار العلوم، باريس 1989 الصفحات 65-97.

29) غرون غيوم، جيلبر Grand Guillaume, Gilbert: *التعريب وسياسة اللسانيات بالمغرب*، مطبعة الدار الجديدة، باريس 1983، ص. 13.

اللغات الأمازيغية الأخرى كانت بدورها غنية، الشلوح في جنوب المغرب (الأطلس الكبير) الشاوية في ناحية الجزائر، المزابي (نسبة إلى مزاب وهي منطقة في الغرب الجزائري معروفة بسلوكياتها الديموقراطية) والطوارق في بطن الصحراء، وما تبقى من اللهجة الأمازيغية في تونس كان يظهر بمنطقة مدنين.

30) بلانكو إساغا، إميليو وهوامش مونتغومري هارت، دافيد، المصدر نفسه، الصفحات، 217-237.

31) معلومات قدمها هاريس، والتر Harris Walter في، فرنسا إسبانيا والريف، إدوارد ارنولد، لندن 1927 صفحة 21. وجاءت كتوجيهات أثارت العديد من الجدل. وفي الوقت الراهن نصف الساكنة البربرية المقدر عددها بعشرين مليون توجد في المغرب.

32) ولمان، دافيد، عبد الكريم وحرب *الريف*، قامت بترجمة النص إلى الإسبانية مارغريتا غراتكوس، دار النشر، اويكوس-طاو. برشلونة 1971. ص. 45.

33) العروي احمد، *تاريخ المغرب، محاولة للتلخيص*، ماسبرو، باريس 1970. عدد الصفحات، 76-78.

34) ملاحظات مونتغومري هارت على كتاب بلانكو إساغا. نفس المصدر، ص. 225.

35) بلانكو إساغا، نفس المصدر، ص. 137.

36) عياش جرمان، *اصول حرب الريف*، نفس المصدر، ص. 169.

37) المصدر نفسه، ص. 182.

38) المصدر نفسه، ص.217-219.

39) المصدر نفسه، ص. 221-236-242.

40) المصدر نفسه، ص. 240-241.

41) نفس المصدر، ص. 246.

42) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة الأولى، الملف R-1.319.

43) منذ سنوات ونحن نعتقد أن صاحب هذا التخطيط الجريء هو ايثبورو، لكن الوثائق التي عثرنا عليها في ارشيف مجلس النواب - في الملف رقم 643 اقنعتنا بأن المؤسس الحقيقي هو خوردانا.

44) ارشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، مضامين رومانونيس، الملف 6.

45) جرمان عياش، المصدر نفسه (الصفحات 154-155) ذكر هذه الأماكن الأربعة الأخيرة، وحدد موقعها في قبيلة ايت خطاب التي تنحدر منها عائلة عبد الكريم.

46) الملف رقم 6. رسالة محتملة من خوردانا إلى لوكي صفحة 3.

47) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة الثلاثاء 19 مايو 1914 صفحة 743.

48) في خضم ذلك الفيض من الجوائز -54 نجمة سان فرناندو، 878 نجمة ماريا كرستينا، 28.771 نجمة حمراء كاستحقاق عسكري، منحت مع صرف المعاش و100.605 نجمات أخرى دون معاشات، كل هذا دون احتساب 1587 ترقية (42 منها اعطيت لرتبة جنرال)- لم يتم ذكر جوائز أخرى وصلت إلى 2618 نجمات حمراء وبيضاء منحت كاستحقاقات حربية، علاوة على نجمة سان فرناندو. أثناء التوزيع الأول منحت 169 نجمة حمراء "للمغربي الذي ينتمي إلى عدة قبائل" 368 نجمة حمراء "للمورو من وحدات الشرطة الأهلية" و495 نجمة أخرى منحت دون صرف المعاش والمجموع هو 1032 نجمة وبقي 1586 وسام شرفي، استفاد منه العديدون، إذ بغض النظر عن 1.252 نجمة حمراء منحت لـ"قواد، وضباط القوات المسلحة" اعطيت 4 نجمات أخرى و54 نجمة من الدرجة الثانية دون أن يعرف أصحابها. ورغم كل هذا بقيت 276 نجمة كاستحقاق حربي وزعت على الشكل

التالي: 109 لأهالي البلد، 31 للممرضات 31 للمكلفين بالبرقيات والتقنيين، 31 اخرى وزّعت على الأطباء، والمتمرنين. وحاملي النقالات ومساعدي الصحة، 28 منحت لمستخدمي البريد، 17 لراهبات الإحسان، 16 لمستخدمي وكالة الأسفار البحرية، 13 للمفتشين، والآليين والمكلفون بالآلات البخارية، ورؤساء القطارات، 9 لعمال الأشغال العمومية، 5 لطلبة العلم، 4 لمترجمين إلى العربية، 3 لأصحاب المطاعم داخل المعسكرات، 3 لمهندس صناعي و"محام" و"قائد حربي متقاعد" وفي الدفعات الأخيرة ورد اسم "الجنرال رئيس هيئة اركان الحرب" و"قبطان المنطقة السادسة" وهكذا يكون العدد الإجمالي للميزات هو 132.925. ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا الملف رقم 9/359.

49) وثائق المجالس التشريعية لسنة 1914، صفحة 743.

50) الأرشيف العام. الملف رقم 9/497.

51) جرمان عياش. المصدر نفسه، الصفحات، 248-250.

52) إنها اطروحة ونظرية مؤلف كتاب عبد الكريم وحرب الريف، لكن يبدو ان ولمان Woolman في الصفحة 94، اخطأ في تاريخ الوفاة "شتنبر 1920" إذ قال، "في حين كان كل شيء يشير إلى ان الوفاة كانت في غشت، حسب لوبرا Lobera المتحدث باسم *تلغراف الريف*.

53) *تلغراف الريف*، نشرة 11 من غشت 1920.

54) الرسالة التي نحن بصددها، تم التطرق إليها، بعد مرور سنوات، وقد تحدث عنها النائب لاساغا Lazaga داخل البرلمان. في إطار المحادثات الأولى بصدد تقصي الحقائق حول احداث المغرب. مذكرة الجلسات البرلمانية. دورة 20 أكتوبر 1921 الصفحات 3.676 و3677.

55) كانت رسالة عبد الكريم إلى كبايرو تحمل تاريخ 27 دجنبر 1920. ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، عدد 278.

56) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. عدد م-813.

57) دافيلا خلون، المصدر نفسه الصفحات 392-394.

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني:

عيون المدن على المغرب

رجل حرب اشتد عوده،
وازدادت صلابته فيما وراء البحار

كان الجنرال مانويل فيرنانديث سيلفستري -قائد الجيش الذي احتل انوال- رجلا شجاعا ومنضبطا في تعامله مع الآخرين، دون أن يستهدف من وراء ذلك كسب استلطاف احد. لم يكن اصدقاؤه ابدا من نظرائه من الجنرالات، بل كانوا دائما من مرؤوسيه. لم يتردد قط في تأنيب رؤسائه إذا اقتضى الأمر ذلك، وكان يعامل ضباطه وقادته ببساطة دون الوقوع في السوقية. وبطبيعة الحال، كان هناك من يهابه وكان هناك ايضا من يبجله. كان ذلك هو سيلفستري، رجل الحرب حتى النخاع، من مواليد كاني Caney. كان يبدو عليه انه متشبع بالطابع البطولي "للشرق الكوبي"[1] الشهير، حيث ولد في ضواحيه في السادس عشر من دجنبر سنة 1871، وقتئذ كان اماديو دي سابويا Amadeo De Saboya الأول، قد اتم السنة الأولى من حكمه.

كان ارتباط عائلة سيلفستري بالجيش تقليدا متواصلا، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من مشاهير الضباط من اصل كوبي مثله في إفريقيا. برنكر، كاباث Capaz كبليكانتي Cavalcante، ومولا Mola، وموراس Morales، وتيمبرانو Temprano.

كان والد سيلفستري، الكولونيل بيكتور فرنانديث إي بنتيغا Vict F y Pantiga، المزداد في ايونييغو Olloniego (أستورياس)، قد انسحب من الخدمة العسكرية برتبة كومندان[2].

اما والدته إيليوتيريا سيلفستري إي كيسادا Eleutoria Sil. y quesada، -ارملة فرانسيسكو دراغو إي آبيلا F Drago. y Ávila- فقد تزوجت للمرة الثانية في السادس عشر من يناير من نفس السنة (1871) بوالد الجنرال الذي كان آنذاك ملازما في المدفعية، عن سن الثالثة والثلاثين[3]. عند بلوغه السابعة عشر من عمره، رحل فرناندو سيلفستري إلى إسبانيا. وفي الثلاثين من غشت عام 1889، انخرط في الأكاديمية الحربية بطليطلة، حيث كان تلميذا مثاليا بمؤهلات عالية - كانت معدلاته تتراوح بين 8/6 في (الجبر، الهندسة واللغة الفرنسية)، و9 في (الآداب، والبروتوكولات العسكرية والتخطيط الحربي)، و10 في (الفروسية، والنظافة الذاتية، ورياضة الجمباز والميكانياك). كان ذلك خلال مدة إقامته في الأكاديمية الحربية العامة بطليطلة مرورا بعد ذلك إلى الأكاديمية التطبيقية للفرسان (في بلد الوليد)، حيث تخرج من هذه الأخيرة في مارس 1893 برتبة ملازم ثانٍ.

إلى جانب فرنانديث سيلفستري، كان هناك زميل القسم وزميل الفوج، الذي يبدو انه كان يواجه صعوبات في الدراسة، يتعلق الأمر بـ دامسو برنكر فوسطي، الذي كان يصغره بعامين. كان اقل منه قوة واقصر قامة واقل صراحة وجراة، لكنه كان كذلك من اصل كوبي، إذ ولد في ريمديوس Remedios، وهي بلدة قريبة من هافانا Habana.

وفي الخامس عشر من يونيو 1895، وبعد ان رست سفينته "ببوينوس ايريس Aires Buenos" بنويبيتاس Nuevitas "شمال كوبا" قادما من قادس، لفت فرنانديث سيلفستري الأنظار بسبب قامته التي تجاوزت المعدلات المتداولة آنذاك (1,72 متر) وبنيته القوية. وقد خرج في حملات عسكرية استغرقت سنتين، حقق خلالها عدة انتصارات أهمها، *لابيكتوريا*، إذ استطاع على راس فرقته ان ينال من العدو مخلفا وراءه ثمانية وعشرين قتيلا بالسلاح الأبيض، في عملية عرفت بـ"ارانغو" Arango (في الثامن من يناير 1896). ثم عملية لسانغري، حيث اصيب فيها بجرح في جبينه بسبب طلقة نارية من بندقية.كادت ان تقضي عليه في منطقة "سابانا دي مايث" Sabana De maiz، في الثاني من دجنبر. وعملية *لابوينا إستريبا* La buena estrella، حيث إن الاصطدام كان عند لادلوروسا La Dolorosa في بينار دي ريو Pinar De Rio، يومي الثالث عشر والرابع عشر من دجنبر 1896، وهناك فقد ثلاثة من الأحصنة في قتال عنيف، لكنه استطاع ان يعثر على مطية رابعة ليعود بإصرار إلى المعركة[4].

وكما هو الشان بالنسبة لكل الجنود الإسبان في تلك الفترة العصيبة، قضى فرنانديث سيلفستري بعض الوقت بالمستشفيات المرعبة، إذ وصل عدد المصابين بمستشفيات كوبا ما بين مارس ودجنبر 1895، إلى تسعة واربعين الفا. وقد ارتفع هذا العدد في سنة 1896[5]، ليصل إلى حدود مائتين واثنين وثلاثين الفا، لم يغادرها سوى القليلين. وقد كتبت الصحافة المحلية منددة بالوضع، وفي مقالة افتتاحية لها نشرت جريدة الإمبرثيال El Imparcial بوضوح في عددها ليوم ثاني دجنبر سنة 1897، «انه من جملة مائتي الف رجل رحلوا إلى كوبا في غضون سنة واحدة، لم يبق اليوم سوى مائة واربعة عشر الف وتسعمائة»[6].

كان فرنانديث سيلفستري واحدا من المرضى (المحظوظين)، ففي العاشر من يوليوز 1897، دخل إلى مستشفى بلاثيتاس Placetas، تنتابه حمى قوية (كانت نوبة قوية من المالاريا)، تحملها دون عناء بفضل بنيته القوية. في هذه الظروف، تمكنا نحن من معرفة لون عينيه البُنّيتَيْن وتكوينه الجسماني الجيد، اما فيما يخص طبعه، فقد قيل انه كان "لطيفا" بالرغم من أن "مزاجه" "وميولاته" لم يكن احد يعرفهما[7]. كانت صورة شخصية سيلفستري الرجل العسكري، على وشك الاكتمال، كان اجتماعيا وودودا، شجاعا وصبورا، وجريئا وحازما وغامضا كذلك.

حينما حاولت فرقة القائد ثيرفيرا Cervera، التخلص من الحصار المفروض عليها في سانتياغو دي كوبا (في الثالث من يوليوز 1898)، جاء اجلها على يد فرقة شلي Shley آنذاك. فكر الجنرال تورال كابيلا Toral cavila، في كيفية الاستسلام امام قوات شافتر shafter -وهو ما حدث في الأربعة عشر يوما الموالية-. وقتها كان فيرناندث سيلفستري، مايزال في فترة النقاهة، إذ خرج لتوه من مستشفى المرون Morron. لكنه وفي الشهور السالفة، كان قد اصبح قائدا ذا سيطرة وشهرة كبيرتين رغم كل الجروح التي كانت تكسوه. كان كل جسده مثخما بالجروح، التي وصل عددها إلى اثنين وعشرين جرحا. واحد وعشرون منها كانت بسبب طلقات نارية اصيب بها في قتاله الشهير بمزرعة "لاكريداد" (في مكان مخصص لتربية الخيول تحيط به البحيرات. هنالك هاجم سيلفستري المامبيس Los Mambies، مرتين على راس ثلة من الفرسان المحبطين، والذين كانوا من فرقة "الأمير" الثانية للفرسان.

أثناء الهجوم الأول في الحادي عشر من يناير 1898، اصيب القائد سيلفستري بعيارين ناريين، كما اصيب بثلاثة عيارات اخرى في هجوم ثان حدث وسط وابل من

الخناجر التي جرحته ثلاث عشرة مرة في راسه وجسده واطرافه[8]، فسقط مغمى عليه. كان يبدو كانه ميت كحصانه الذي بجانبه، الشيء الذي حال دون الإجهاز عليه. وقد خرج من هذا الحادث بعدة جروح وبإعاقة في ذراعه الأيسر، كان يخفيها بمهارة.

طلب سيلفستري وبنصيحة من لجنة طبية ،رخصة مرضية مدتها اربعة اشهر، وذلك للذهاب إلى إسبانيا حتى يتماثل للشفاء، كان بإمكانه ان يذكر في طلبه -الذي وقعه في الثامن من غشت 1898 بخط مذبذب- كل جروحه، خاصة الجروح الاثنين والعشرين[9]، التي افزعت لجنة الطب العسكري، التي كان يراسها خواكين مورينو دي لاتخيتا Joqauín Moreno De La Tejeta، والتي اجرت على جسمه المليء بالجروح، فحوصات في هابانا Habana، وليس بمستشفى المرون الذي هرب منه قبل ان يستعيد عافيته.

عاد سيلفستري من كوبا على متن باخرة مونتسيراط Montserrat، برفقة مساعده الجندي إدواردو خوردان ميرايس Eduardo Jordan Miralles. وفي التاسع والعشرين من غشت 1898، وصلت إلى لاكورونيا الجيوش الإسبانية التي قاتلت في ما وراء البحار. كان الحزن والأسى والسخط باديا على محياها، كيف لا وقد رجعت بخفي حنين. كان الاحتقار المؤسسي للجيش شنيعا، بخلاف الشارع والمؤسسة الرائدة للصليب الأحمر، التي بادرت إلى مساعدة اولئك الآلاف من المنبوذين (الجيش). استمرت سلسلة المآسي إلى ربيع 1900، وذلك بعودة آخر فوج من الذين بقوا على قيد الحياة، وهو ما يقارب ستة آلاف من الأسرى القادمين من لوثون Luzon.

وفي شتنبر 1898، تم الاعتراف لسيلفستري برتبة كومندان. كان ذلك اعترافا ببطولته في "لاكاريداد". وإلى حدود شهر أبريل 1899، كان مايزال غير قادر على القيام بأي مهمة. وفي غشت الموالي، طلب الترخيص القانوني ليعقد قرانه على إلفيرا دوارتي إي أوتيثا Elvira Duarte y Oteiza، التي رزق منها بولدين هما، إلفيرا ومانويل.

جولات عسكرية بمليلية المنجمية

ضيعت إسبانيا ممتلكاتها واصبحت دون إمبراطورية، رغم احتفاظها ببعض الثغور في غينيا، وإفني -التي لم تحتل بعد-، والصحراء والحصانين الإفريقيين. كما أن منافستها الأوروبية فرنسا، كانت تمر كذلك بلحظات عصيبة. فعلاوة على قضية دريفوس Dreyfus،

التي تورط فيها الجيش الغالي، انضافت أزمة أخرى غير متوقعة، تمثلت في انسحاب قوات مارشند Marchand، أمام جيوش كتشنر Kitchener بفشودا Fachoda (بالسودان في شتنبر 1898). ونتيجة لذلك قرر وزير الخارجية الجديد تيوفيل ديلكاسي Théophile Delcassé، ان يأخذ العبرة من هذه الهزيمة، فوضع مخططا استراتيجيا جريئا ومعقدا، يقضي بالتصدي لبريطانيا في حالة معارضتها لاستيلاء فرنسا على بلدان حوض النيل. في هذه الحالة، ستوجه هذه الأخيرة قواتها الاستعمارية نحو شمال إفريقيا، وبذلك ستستعيد هيبتها الاستعمارية. حيث ستؤسس حلفا مع منافستها (إسبانيا)، ومعا سيتصديان للعدو اللذوذ: المانيا. وهكذا وقعت معاهدة "الاتفاق الودي" Entente Cordiale سنة 1904، لترسيخ هذه السياسة الاحترازية. ولكي تبسط سيطرتها على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، كانت فرنسا تحتاج لصديق ليس بالقوي ولا بالضعيف، هذا الصديق هو إسبانيا. البلد الذي تجرع المرارة بسبب أحداث 1898.

عرضت فرنسا، في شخص وزيرها دلكاسي، على سيلفيلا Silvela، مشروع المشاركة في تقسيم المغرب، غير أن سيلفيلا ساورته المخاوف، بعد ان عرف أن المحادثات جرت تشاورا مع بريطانيا العظمى، وفيما بعد حضر ماورا ليزيح بعض الغموض، فوقع معاهدة سرية في سنة 1904، والتي بموجبها أصبحت منطقة الريف من نصيب إسبانيا. أرض قاحلة ذات تضاريس وعرة، يفترض انها غنية بالثروات المعدنية. لكن مقاتليها كانوا ذوي شجاعة معروفة.

وجد سيلفستري نفسه في إفريقيا وبالضبط في مليلية، التي وصل إليها في يناير 1904، بعد رحلة شاقة مر خلالها عبر مناطق عسكرية في شبه الجزيرة، متوقفا بقلعة هنارس بوادي الحجارة، مدريد، وسرقسطة، وفي أول مدينة ساحلية بالريف، تراس سيلفستري كتيبة كاثادورس، التي ترك فيها بصماته واضحة. وفي مليلية شرع في دراسة اللغات الإسلامية لمدة ثلاث سنوات، وقد أحرز في سنة 1908 على دبلوم "إتقان اللغة العربية"، بالإضافة إلى جائزة تقدر بـ ألفي بسيطة ،تقديرا للنجاح الباهر الذي حققه في الامتحانات،[10]. كما حصل سيلفستري على ميزة "جيد جدا" وهو تقدير تَفَوق به على زملائه الأربعة عشر. ثلاثة عشر منهم كانوا عسكريين. وفي تلك السنة الدراسية لعام 1908، وبعد اجتياز الامتحانات، أحرز على لقب "مترجم اللغة العربية"، والذي ينص على ترجمة العديد من المخطوطات وإجراء محادثة مع أحد الأساتذة المساعدين بمدرسة

سي علال الورطي، كانت الشخصية المختارة، تاجرا مثقفا ومعروفا بمليلية[11]، واستاذا للغة العربية. يتعلق الأمر برجل ريفي محافظ ذي نظرة ثاقبة للأمور، ينحدر نسبه من عائلة من اجدير لها وزنها الاجتماعي؛ إنه محمد عبد الكريم، الذي كان يبلغ من العمر ستة وعشرين سنة، وهو من أعطى ميزة جيد جدا للقائد سيلفستري على إنجازاته[12].

اصبح النجاح الذي أحرزه سيلفستري في امتحانات اللغة العربية، وفي قيادته اليومية لفرقته العسكرية، بلسما خفف عنه احزانه. كيف لا، وهو الذي أصبح وحيدا ومنزويا بعد وفاة زوجته إلفيرا دوارطي اوتيسا بمليلية منذ عام واحد بطريقة مفاجئة. وهكذا، وبعد ثمان سنوات من الزواج، اصبح ارملاً.

كانت زوجته إلفيرا امراة جميلة، وجاءت وفاتها بطريقة مفاجئة؛ إذ لا شيء كان ينبئ بدنو اجلها. ففي صبيحة يوم السبت التاسع عشر من يناير 1907، وبعد استيقاظها من النوم بقليل، تعرّضت لنزيف في الدماغ فقدت على إثره الوعي. وفارقت الحياة في الخامسة مساء من نفس اليوم[13].

في مارس 1908، ازدادت أهمية مليلية من الناحية المنجمية والجيوسياسية، وذلك على إثر عملية مشتركة بين السلطات الإسبانية والقيادة الريفية المحلية. إذ قرّر المقيم العام بمليلية خوصي مرينا فيغاJosé Marina vegal، النزول بجبهة رستينغا Restinga، وهي جبهة ساحلية طبيعية تُوفر الحماية للريف الداخلي الذي شهد بدء عمليات استغلال مناجم الحديد بـ (بني بوإفرور)، والرصاص بمنطقة (عفرة Afra). لكن إسبانيا لم تكن هي الوحيدة المستفيدة، بل كذلك مجموع المقاولات الأوروبية المتمثلة في تكتلات اقتصادية مثل: دلبرل، وكين، ووليامس نسمان، بالإضافة إلى كُبريات شركات صناعة الأسلحة: كرويسط، وكراب، وشنيدر، وفيكر. وقد اظهر اهتماما بالغا بهذه الثروات المعدنية التي تزخر بها منطقة شمال المغرب. كل هذه الأطماع اختزلت في اسم تجاري، كانت له فيما بعد نتائج سياسية جد معقدة، ويتعلق الأمر، بالشركة الإسبانية لمناجم الريف.

هذا وقد قامت عائلات إسبانية ذات وزن اقتصادي، كعائلة كومياس Comillas، وفيغيرو Figueroa، وغارسيا اليكس Garcia Alex، وغويل Güell ولإيغليسيا Laiglesia، بالتدخل في مراقبة الريف. وكانت عائلة فيغيرو من ابرز العائلات في القائمة، وذلك بالنظر للوزن السياسي الذي كان يحظى به واحد من أفرادها، وهو ألفارو فيغيرو إي

طوريس Álvaro Figueroa y torres، عمدة مدريد (ما بين 1894-1895 و1897-1899). كما تقلد هذا الأخير أربع مرات، منصب الوزير في عدة حكومات ليبرالية. وفي سنة 1921، وعن سن تناهز الثامنة والخمسين عاما، كان السياسي الأكثر معرفة بواقع المغرب وصعوبة المحافظة عليه، وقبل ذلك بسنة واحدة، لقي ولده الملازم خوصي فيغيرو إي ألونسو مارتينث José Figueoa y Alonso Martinez حتفه، بسبب طلقة نارية أصابته في رأسه في تفريست (أمام شفشاون).

كان الفرنسيون هم السباقين إلى عمليات التنقيب الهستيري التي انتهجتها أوروبا في التراب المغربي، وذلك عن طريق الشركة المغربية، ثم الشركة العامة للمغرب الشهيرة سنة 1903 . فبدأت بذلك عمليات استنزاف خيرات الإمبراطورية الريفية، كانت إسبانيا بطيئة جدا في تنقيباتها[14]، مع العلم أن ما جنته لم يكن بالشيء اليسير. وفي يوليوز 1907، وبعد سنة من بدء السباق الاستعماري الذي انطلق من الجزيرة الخضراء، والذي كان يهدف إلى القضاء على المغرب بصفته دولة، تم الحصول على ترخيص من قواد ريفيين يسمح باستغلال منطقة ويكسان Uixán -المجاورة لبني بويفرور-. ارتبط هذا الترخيص ببناء سكة حديدية لنقل المعادن المستخرجة إلى مدينة مليلية. كان احتلال المغرب يهدف في العمق إلى أمور تفوق بكثير استخراج حديد الريف ونقله في اتجاه أوروبا الجشعة.

لم يكن مارينا يهتم بالشكليات، وكذلك الشأن بالنسبة للجيلالي بن ادريس عبد السلام اليوسف. خلاصة القول، إن هذا الأخير لقب نفسه بـ"الروكي" وطالب بأحقيته في عرش فاس. كان محتالا كلاسيكيا، ذا شخصية جذابة، تفتقر إلى كل الخصال الحميدة.

هزم الروكي مقدمة جيش السلطان مولاي عبد العزيز، وحكم سيدا على الريف انطلاقا من مزرعته بسلوان (تبعد عن جنوب مليلية بثلاثين كلم)، دون أن تكون له سلطة على أجدير، حيث كان بنو ورياغل يتمتعون باستقلالية تامة.

كان الروكي بحاجة إلى المساعدة الإسبانية، خاصة بعد مطالبة مولاي حفيظ، -الذي أعلن انفصاله في شتنبر من سنة 1907 عن السلطان عبد العزيز، الذي كان يهوى اقتناء السيارات الفاخرة والحيوانات النادرة الغريبة- بحقه في العرش، لكن الروكي ورغم حاجته الماسة إلى تلك المساعدة، فقد حافظ على هدوئه خوفا على هيبته. لأجل ذلك اتفق مع مارينا على القيام بعملية عسكرية وهمية في ريستينغا،

تتلخص في مجيء قوات إسبانية ضخمة يتراجع امامها الروكي دون اي مساس بسلطته. وفيما بعد، يوقع الطرفان اتفاقية السلام التي تتماشى ومصالح المتعاقدين.

وبعد مرور ايام على هذه التمثيلية الهزلية، جاء مارينا ليتفقد بنفسه قواته في الثامن من مارس 1908، وبما أن الأمر كان يتعلق بمحاولة لاستعراض العضلات ليس إلا، فإن الجنرال طلب إرسال حرس شخصي متميز، فالتحق به سيلفستري على راس اربعين من فرسان كاثادورس بمليلية، كان منظر هؤلاء الفرسان وقائدهم يثير الهيبة في النفوس[15]. ومن المؤكد أن الروكي انبهر بذلك القائد صاحب الشارب الكثيف، والزي الأنيق والتعامل السلس. كان هذا النوع من التخطيط يسمى (التكتيك) بالجولات العسكرية.

لم يخدم هذا التمويه مصالح الروكي، فمارينا نفسه ساعد على إعطاء الضربة القاضية للروكي على ارض الريف. والقصة أن اهالي اجدير رفضوا اداء ما عليهم من خراج، فتضايق الروكي وارسل ضد المتمردين فرقة عسكرية ضخمة يقودها الجنرال الذي كان يلقب بـ"الأسود" (الجيلالي مول الأودو). وعند وصول الجيلالي إلى منحدرات إمزورن بالقرب من النكور[16] في السابع من شتنبر 1908، سقط في كمين نصب له. وبالرغم من ان الجنود الإسبان المتمركزين بالحسيمة شاهدوا المأساة من بعيد، إلا انهم لم يطلقوا ولو رصاصة إنذار واحدة، انتقيادا لأوامر مارينا.

وهكذا اشتد لهيب التمرد ضد الروكي، الذي اضطر إلى إضرام النيران في سلوان الغالية عليه في اكتوبر 1908. وبعد شهور من المقاومة، تمكن بنو ورياغل من محاصرته وتقديمه للسلطان (من جهة المؤرخين المغاربة فإن قبائل بني مستارة "نواحي وزان" هي التي القت القبض على الروكي [المترجم]). وفي الرابع والعشرين من غشت 1909، دخل إلى فاس بشموخه المعتاد مكبلا بسلاسل واغلال في قفصه الحديدي. وقد صاحبه الناس بصراخهم وسخطهم، وهناك اعدّوا له حفرة مليئة بالأسود وأُطلقت النيران على جثّته، التي احرقت فيما بعد لكي لا يبقى في شمال المغرب[17] اي اثر للتمردات الانفصالية. في تلك الفترة، كانت إسبانيا تستعد لعدو اكبر، إنه الكوروكو وحاميته القوية.

كان سيلفستري -اثناء موقعة وادي الذئاب (يوليوز 1909)- منشغلا بتفتيش طوابير الشرطة الأهلية بطنجة وتطوان والعرائش. وفي الوقت الذي كانت فيه القيادات الإسبانية تتلظى تحت لهيب النيران الشديدة التي احدثها الريفيون، وتتعرض لخطر

الأمراض، كان سيلفستري يجوب الأراضي الغربية لشمال المغرب في غارة شاسعة تقدر مساحتها بثمانمائة كلم، قطعها ابتداء من سبتة وأصيلا، ووصولا إلى القصر الكبير ووزان[18]. وقد كلّلت هذه الحرب بالانتصار. عُرف سيلفستري بتحمسه للحرب، وعشقه للموت، الذي لم يصادفه في منخفضات الكوروكو Gurugo.

سيلفستري يتعلم دهاليز الحماية

بعد تجربته في مليلية، رحل سيلفستري إلى مدينة الدار البيضاء ليتولى منصب قيادة الفيلق الرابع لشرطة المدنية. هناك انيطت به مهمة صعبة تمثلت في مراقبة هذه المدينة الأطلسية التي مازالت رائحة الدمار تفوح منها، كيف لا، وهي التي شهدت قصفا مكثفا شنته فرنسا منذ الثلاثين من يوليوز وحتى السابع من غشت 1907، وفيما بعد، نهبتها الجيوش السينغالية والفرق الأجنبية في عمليات سطو وحشية. كل هذا العنف جاء انتقاما وردّ فعل لمقتل تسعة من العمال الأوروبيين (ثلاثة منهم إسبان)، فسقط الكثير من الضحايا، حيث وصلت الحصيلة إلى الفي قتيل[19].

وفي الدار البيضاء، لم يتردد سيلفستري في اتباع نصائح النقيب إنريكي أوبيلو Enrique Ovelo، الذي اقنعه بالتخلي عن هذه المهام. فتنازل سيلفستري عن طواعية عن متابعة الفرنسيين وقمعهم.

كانت تصرفات سيلفستري بالدار البيضاء -والتي تزامنت مع حكومة كناليخاس Canalejas- سببا في تاهله في الثالث والعشرين من يوليوز 1910، للارتقاء إلى منصب "شريف"[20]. وبالرغم من ان علاقته بالفونصو الثالث عشر كانت علاقة شكلية فقط، إلا انها كانت كافية لزرع بذور الثقة في نفسية سيلفستري، الذي بات يطرح افكاره في حضرة الملك بكل صراحة.

وباستيلاء قوات الجنرال موانيي Moinier على مدينة فاس في الواحد والعشرين من مايو 1911، أطلقت فرنسا العنان من جديد لتحركاتها العسكرية. وهكذا فقدت سلطة مولاي عبد الحفيظ هيبتها، واندلعت الثورة الشعبية التي امتد وهيجها إلى مدينة القصر الكبير والعرائش، حيث تعرض المعمرون الإسبان من تجار، وقساوسة، ومربين إلى جملة من الاعتداءات. وأمام هذه الأحداث، استاء خوصي كناليخاس ميندیث زعيم الليبراليين، الذي لم تتحقق احلامه الرامية إلى تطبيق استعمار ليبرالي.

كما اندهش كناليخاس للسرعة الفائقة التي انهى بها الفونصو الثالث عشر الأزمة، إذ عهد إلى الجنرال سيلفستري قيادة العرائش.

لم يكن الاستيلاء على ذلك الميناء في السواحل الأطلسية المغربية عند خط اللوكوس. بالعمل الدفاعي للمعمر، لقد كان عملية توسعية إسبانية خالصة.

وبعد توقيع المعاهدات مع فرنسا، صرح خواكين سانشيث دي طوكا Joaquin Sanchez de Toca -داخل مجلس الشيوخ سنة 1913- بما يلي، «إننا مدينون كثيرا لفراسة الملك وحسن تبصره»، وحسب عمدة مدريد سابقا، كان الملك الفونصو الثالث عشر، يمتلك فراسة قلما تخطئ، واكد انه لضمان المجهود الاستعماري، يجب، «الا نتنازل عن الأراضي التي احتلها الإسبان». وكرر الزعيم المحافظ بان، «الانتصار على العرائش، يرجع الفضل فيه إلى تبصر وحدس الملك»[21].

لم تكن فراسة الملك الفونصو الثالث عشر وحدها تكفي لحل الأمور، فظهر في هذه اللحظة شخص غريب الأطوار، إنه الريسوني.

إسبانيا، في عهد سيلفستري ومغرب الريسوني

ولد مولاي احمد بن محمد بن عبد الله الريسوني، اليونسي او (الإدريسي)، بقرية الزينات بقصبة طنجة، بمنطقة الفحص عام 1873[22]. وكان سليل الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش، الولي الصالح بجبل العلم، وهو جبل مقدس عند اهالي جبالة وجهة بني عروس، التي سيتزعمها لاحقا. قضى الريسوني اربع سنوات كابوسية (1897-1900) في السجون العلوية المظلمة بالصويرة[23]، (هذه المدينة التي كانت تُعرف قديما بـ موكادور عند البرتغاليين)، وذلك بتحريض من با احمد، وزير عبد العزيز الفاسق. شُدّ وثاق الريسوني إلى الحائط، وكُبّل بأغلال وسلاسل حديدية، وبجواره كانت تقبع جثث الأسرى الآخرين، تنخرها الفئران حتى العظام. لم يخرج الريسوني من موكادور ثائرا، بل رجلا قاسيا لا يرحم. فبادر إلى خطف الصحفي البريطاني والتر هاريس Walter Harris (في يونيو 1903)، والمليونير الأمريكي -ذي الأصل الإغريقي- جون هانفورد بردكاريس John Hanford Perdcaris لكن الرئيس تيودور روزفلت، تدخل وقتها، وهمّ بإرسال سرب من البواخر (في ماي ويونيو 1904)، وذلك لإرغام الريسوني على إرسال الرهائن إلى طنجة.

كان الريسوني سليل عائلة الأولياء، الشيء الذي يفسر تمتعه بسلطة روحية وسياسية مطلقة فرضها على ابناء بلدته. وكانت له كذلك شرعية عسكرية نالها بفضل جهاده ضد الخونة. وشعبية كبيرة حظي بها لوقوفه موقف المعارضة في وجه نظام الحكم الفاسد. ولم تكن هذه المواقف لتحرمه من تقلد منصب حاكم مدينة طنجة واصيلا -هذه الأخيرة ستصبح فيما بعد حصنه المنيع- بأمر من السلطان مولاي حفيظ.

كان الريسوني رجلا ضخم البنية، بالرغم من بعض عاهاته التي شوهت جسمه، وكان يرغب في أن يصبح خليفة، والخليفة هنا بمعنى خليفة الله في أرضه، والتابع لسنّة نبيه وامير المؤمنين، وهي أشياء أضفت عليه صفة النبل والشرف. وكان كذلك رجل تقوى وورع، وصاحب تفنن في القساوة، لا تعوزه الصراحة ولا الصرامة ابدا، كانت له روح وانماط الشعراء، يكتب رسائل رقيقة مزخرفة تتضمن نوايا حادة، ومازالت هذه البرقيات محفوظة تذكارا رسائليا لسياسة إفريقيا الشمالية. كان مولاي احمد يحرك جسمه بصعوبة واضحة (إذ كان وزنه يصل إلى مائة وخمسة عشر كلغ)، ولم يكن هذا الأمر وحده مصدر سخرية وتهكم الناس منه، بل كذلك منظر راسه الكبير ووجهه المكسو بلحية سوداء كثيفة، ونظراته الثاقبة والمتفحصة. كل هذه العناصر، كانت تقلق وتضايق مخاطبيه. كان الريسوني قد استنزف كل قوته الجسمانية بالأمس القريب، حينما كان مقاتلا بارعا.

وفي سنة 1911، كان الريسوني يعيش بأصيلا، باشا، له حرية التصرف في كل الأمور. وكانت العرائش والقصر الكبير تخضعان لسلطة قضائه المطلقة، كما كان بيده الحل والعقد. ولو شاء لكان دخول الاستعمار الإسباني قد توج بكارثة عظمى.

وفي السابع من يوليوز 1911، اذيع خبر مقتل عائلة ابن مالك الموالية لإسبانيا، بعد أن اختطفت في الثلاثين من مايو الماضي من طرف البكار (مولاي احمد التازية)، المعروف بإثارة الفتن. وهكذا، تمزّقت كل روابط السلم مع غرب المغرب، وتسببت هذه الجريمة في فوضى، حرّضت الشعب ضد الأجانب[24]. فكانت رؤوس أحمد بن مالك ونجليه الاثنين يتجول بهما في الأسواق. وكردّ فعل مباشر، تكتلت مجموعة من القوى التي توحدّت قراراتها، فأعلن التازية عن عدائه للريسوني، وابتعد الزعيم الجبلي عن الصخب الشعبي المتاجج، بعدما تحركت إسبانيا لتثار من هذه الجريمة. وهكذا، وجد كاناليخاس Canalejas نفسه مضطرا إلى التدخل في الأمر. خصوصا بعد أن عبأ الفونصو الثالث عشر، الجيوش اللازمة للقيام بهذه العملية.

وفي العرائش، قرر أوفيلو Ovilo، شن هجوم بجيش قوامه مائة وستة وستين رجلا. كانت الوحدات العسكرية مكونة من فرق بحرية، ومشاة مستقطبين من كاطالونيا، علاوة على بعض العناصر التي أُخذت من الطابور العسكري الخاص[25]. كانت الخطة تقضي بالزحف نحو داخل منطقة العدو بكل شجاعة ورباطة جأش. وبعد عشرين ساعة متتالية من المشي على الأقدام، مرورا بنهر اللوكوس الممتلئ بالماء ووصولا إلى مدينة القصر الكبير. سقطت المدينة. لكن الجنود مكثوا بعيدا، واحتمت زمرة من الإسبان بأسوار المنطقة خوفا من أي هجوم قبائلي شامل. ورغم كل هذه الصعوبات، كان هناك أمل واحد يدغدغهم، وهو وصول قوة عظمى، إذ ظهرت باخرة إسبانيا España، التي رست في وسط حشد كبير اندهش كثيرا لمنظر البارجة، التي نزل من أدراجها الجنرال سيلفستري، القادم من الدار البيضاء حيث توصل هذا الأخير، بقرار التوجه إلى العرائش في الثالث عشر من يونيو، فصعد في أول مركب، دون أن يعد حقائبه أو يستعد للرحلة. لم يشأ سيلفستري أن يتغيب عن أكبر وأول مغامرة له بصفته زعيما إفريقيا، فلم يُخفق بل انتصر. حطّ سيلفستري رحاله دون مساعدين، كانت الغطرسة تتملكه وعلامات التهديد تبدو على وجهه جلية للعيان. أما الريسوني، فقد انبهر لجرأة هذا الجنرال. ولكي يرضي رغبته في الانتقام من التازية، أصدر أوامره بفتح الأبواب على مصراعيها للإسبان.

انسجم كل من الريسوني وسيلفستري، فكلاهما كانا يتصرفان وفقا لما يمليه الضمير المتبصر. فإلى جانب سيلفستري المقاتل الكبير في مانيغوا Manigua ومحارب المامبيس، كان الريسوني المفاوض والمقاتل الذي ذاع صيته في المغرب.

احتجت حكومة غايو Gaillaux، التي اعتبرت هذا التواجد بالعرائش عملا غير مبرر[26]، ومنافيا لروح ميثاق الجزيرة الخضراء. لكن إسبانيا لم تلطخ يدها كثيرا بدماء ضحايا العرائش، مقارنة مع ما خلفته فرنسا من قتلى بالدار البيضاء. وهكذا وبتدشينها لمركز القيادة بالعرائش، ضربت المدينة في مؤهلاتها اللوجستيكية، فكان هذا خطأ فادحا وأد موارد إسبانيا الاستعمارية.

وفي مدريد، وأثناء اجتماع سياسي أقيم في منتجع جاي-ألاي Jai-Alai، ذكر ميلكياديس الفريث Melquiádes Álvarez، «أننا ذهبنا إلى المغرب بدافع الغزو، مدفوعين بحماسة بعض العسكريين الذين لا يحبون وطنهم»[27].

وتفاقمت الأزمة بوصول باخرة بانثير Panther الألمانية إلى اكادير في الواحد من يوليوز 1911، إذ لم تشأ المانيا ان تكون اقل من إسبانيا. ولم ينته هذا المشكل سوى في الرابع من نونبر، وذلك بانتصار البرغماتية الاستعمارية، فربحت المانيا ما مقداره مائتين وخمسة وسبعين الف كيلو متر مربع من الأراضي في الكونغو، في حين استعدت فرنسا لبسط سيطرتها على المغرب، واكتفت إسبانيا بأن تكون حليفا سعيدا بحظه.

عنصر ثالث في الخلاف:
مغرب اليوطي

اكتسى وجود القوى الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، طابعا يوحي بحرية التصرف، إذ كان على السلطان مولاي حفيظ ان يوقع أولا المعاهدة الفرنسية-الألمانية، التي قدمها له الخائن رونو Regnault -قنصل فرنسا في مدينة فاس- ليقبل فيما بعد، وبالضبط في الثلاثين من مارس 1912، بنظام الحماية. فاختفت بذلك صورة المغرب بصفته دولة، وتحولت العائلة الملكية إلى مجرد قطعة ديكور بسيطة.

ثارت ساكنة مدينة فاس ومعها الجنود الأهليون، فلقي الضباط الفرنسيون التابعون للجيش الشريفي مصرعهم، وبات المغرب يغرق في بحر من الفوضى (17-18 من ابريل). وغير بعيد عن نوايا فرنسا، عاد موانيMoinier بفرق عسكرية اكبر من المرة الأولى. وصل عددها إلى اربعين الف رجل. كانت هممهم عالية، لكن حصيلة القتلى لم تكن كبيرة مقارنة مع أحداث الدار البيضاء، ولكن كادت ان تعادلها، إذ إنه وفي الواحد والعشرين من مايو، كان على المواطنين المغاربة ان يتوحدوا في صف واحد، ويولوا وجوههم شطر قبورهم، ليقتلوا رميا بالرصاص على ظهورهم.

عُرض خيار النفي على مولاي عبد الحفيظ، فقبله هذا العلوي بنفس راضية مرضية. كان يخاف ان يقذف به إلى الأسود، مثلما فعلوا مع الروكي، فرحل إلى خارج الوطن، واستوطن فرنسا وإسبانيا لمدة طويلة. عاش خلالها على حساب نفقات كثيرة لا تنتهي، كان مولاي حفيظ يحس بنعيم كبير، وبعد انصرافه إلى الخارج، خَلفه في الحكم أخوه مولاي يوسف، هذه الشخصية الهشة، التي نالت إعجاب قياديي الحماية. كانت فرنسا تستعد لبسط سيطرتها المطلقة على المغرب، فجاءت بصحبة أحد

زعمائها البارعين، اومبرت ليوطي، الذي انتهج سياسة الصرامة واللين في الآن نفسه. فلم تسجل خلال هذه الحقبة حماقات عسكرية، بل كان الاتفاق والإجماع سيد الموقف، حيث إن أعيان البلاد، كان لهم كذلك حق التدخل، اما فيما يخص الانفصاليين، فقد اعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ليرهبوهم.

اما فيما يخص الجانب العسكري والاستعماري، فقد كان ليوطي ينتهج السياسة المطبقة في الجزائر. فانتهج في المغرب سياسة استعمارية ذكية، الهدف منها تقديم المغرب إكليلا من الزهور للإمبراطورية الفرنسية. كان ليوطي صارما ومتسامحا، وكان ضميره هو اعز أصدقائه الذي يتفانى في خدمته، كان لا يقبل باية سياسة تخالف وطريقته الدقيقة في التعامل. حقا، لقد كان هذا التعايش مع ضميره أخويا.

كان ليوطي رجلا شارد الفكر، عنيدا، مستهترا، فطنا، قليل الكلام، ومجتهدا في عمله، وكان افضل ممثل للاستعمار، وبطبيعته الفخمة، سحر اليوطي جمهور المغاربة الذين قبلوا به سلطانا عليهم، وهو صاحب الثمانية والخمسين من عمره، فاخلص لهم ولم يخذلهم.

سيلفستري وترشيحه للريسوني خليفة

كان سيلفستري يدرس بهدوء الأحداث الفرنسية-المغربية في مقره بالعرائش، وفي رسالة "سرية" بعث بها إلى فليب الفاو Felipe Alfau، الكاتب العام بسبتة جاء فيها، «إن الأخبار التي تتعلق بأحداث فاس تؤكد اهمية الانقلاب، وتلقي بظلالها على فشل رونو ومونيي، وهما نموذجان غير متبصرين»، ويضيف قائلا، «إنني احسب انه من الخطأ ان تكون بهذه البلاد سلطات متعددة الاختصاصات، في حين ان الحل الوحيد هو الحرب. الحرب فقط هي التي ستعيد الأمور إلى نصابها»[28]. وهنا اشار سيلفستري إلى الصعوبات التي واجهته في زمن رئاسة برنكر للإقامة العامة، وهو منصب سياسي تزامن مع إشرافه هو على الجيش بإفريقيا.

لم يشأ سيلفستري ان يتنازل عن شروطه (الحرب)، وهو في هذا يشبه كلاوسويت Clausewitz تماما، ومن ناحية اخرى، كان شخصا لا يقبل بالحلول الوسطى. وفي الرسالة نفسها الموجهة إلى الفاو، المكتوبة بتاريخ الرابع من مايو 1912، عدّ سيلفستري تعيين الخليفة (نائب السلطان)، واحدا من الأهداف المهمة جدا، واضاف

قائلا: «إن وضع رجل من البلاط الملكي في ذلك المنصب، سيكون خطأ فادحا». لم يخطئ سيلفستري حينما سلط الضوء على من يفضل في هذا المنصب، حيث قال: «رجل حرب يستطيع بمركزه ونفوذه، أن يضع رهن إشارتنا دون سفك دماء أو تبذير أموال، محافظة نستطيع أن ننهج فيها سياسة مناسبة تمكننا من توسيع نفوذنا...».

لم يكن المرشح لهذا المنصب شخصا آخر سوى الريسوني، ولم يتوانَ سيلفستري في أن يبرز لألفاو Alfau أوجه التشابه التي تجمع الريسوني بالروكي، أملا في تجنب الخطأ نفسه الذي اقترف مع الريفي. وتمر الأيام، ويكتب سيلفستري لألفونصو الثالث عشر، مدافعا أمام جلالته عن طلب ترشيح الريسوني، بوصفه رجلا ذا موهبة، وكذلك لأنه يمتلك في المنطقة التي نحتلها الآن عدة مصالح تهمنا[29].

كان سيلفستري ديبلوماسيا كبيرا، وكان موضوع الجيش يثير اهتمامه كثيرا، فحشد في العرائش جيشا قوامه أربعة آلاف رجل، وذلك في صيف 1912. ولم يعارض الريسوني هذه التحركات، فكلما كانت القوة الإسبانية أكبر، كلما قل الخطر القادم من فرنسا وحلفائها. وهكذا، حانت فرصة تحالف إسبانيا مع هذا الجبلي في إحدى العمليات عند أصيلا، هذه المدينة التي كانت شبه محتلة من طرف فيلق عسكري فرنسي، مد خطوطه التلغرافية مع طنجة. وصل سيلفستري في السابع عشر من غشت 1912، مع حاميته إلى عين المكان، وقذف الرعب في نفوس الفرنسيين الذين اندهشوا لهذا الموقف.

ذعرت مدريد ونددت بهذا السلوك، في حين غضبت فرنسا وبقي الريسوني قلقا، كان الإسبان عدوانيين عدوانا كبير، واكتفى سيلفستري بالتبسم. لقد رد الصاع صاعين انتقاما للهجومات التي نالتهم في العرائش فيما مضى بسنتين، أمام كل من القنصل بواست Boisset والملازم ثريت Thieriet [30]. اعتبر كناليخاس Canalejas، سيلفستري رجل حرب تجاوز حدوده، ورغم ذلك تركه هذا القائد الليبرالي وشأنه. كانت ساعة توقيع المعاهدة مع فرنسا تقترب، وكان رجال آخرون يستعدون لتسيير نظام الحماية.

إسبانيا - فرنسا: رقعة شطرنج معقدة

في الثاني عشر من نونبر 1912، أطلق مانويل بارديناس سيراطو (وباحترافية كبيرة) رصاصتين اخترقتا ظهر رجل كان منحنيا على واجهة مكتبة سان مارتين. كان الرجل

يبحث عمّا جد في سوق النشر. كان قريبا من السمنة، يرتدي بذلة سوداء طويلة. وباغتياله فقدت إسبانيا احسن ممثل لها في نظام الملكية. لقد قضى الرصاص، الذي خرب رأس كنالخاس على التيار الإصلاحي الذي دشنه الفونصو، والذي حظي بثقة كبيرة، ومثل افضل تطلعات واحلام الشعب.

لزمت إسبانيا الصمت إزاء هذه الجريمة، وفضلت الملكية ان تختبئ في شخصية رومانونيس Romanones، فاستسلمت للقدر. وبموازاة مع ذلك، كانت آلية الاستعمار تسرع خطاها.

اصدر راموند بوان كري Ramond Poin caré، تعليماته لقنصله في مدريد السيد جيوفراي Geoffray، وبتوقيع ما أسمّوه بـ إبسو فكطو Ipso facto، وهي اتفاقية لم يتم التصويت عليها بالإجماع. لكن الإسبان، قبلوا بها عن تراض. نصت البنود على عدم التنازل عن الشريط الأيمن لملوية، ولا الأيسر للوكوس. وأجهضت كل محاولة للحديث عن وهران او وزان. ورضي رومانونيس بذلك التقسيم، واكتفى بما اعطوه من الأراضي (واحدا وعشرين الف كيلو متر مربع)، مقابل اربعمائة وخمسة عشر الف كيلو متر مربع، وهي مساحة كانت من نصيب فرنسا. تلك إذن كانت هدية مسمومة قُدمت لإسبانيا، واستعمارا بالمقايضة[31]. فضاعت طنجة -المنطقة الدولية- وشريط ورغة. وبقيت مليلية منكمشة داخل حدودها، بالرغم من ان إسبانيا استولت على راس الماء والجزر الجعفرية، التي كانت قاب قوسين او ادنى من الضياع.

وعلى سبيل المكافاة الهزلية، توصلت إسبانيا بمصادقة على ممتلكات كانت في حوزتها سابقا، كإفني والصحراء الغربية الشاسعة، التي تبلغ مساحتها (282.820 كيلو متر مربع). وكانت هذه المنطقة الصحراوية خالية من احواض الملح ومناجم الحديد الموريطانية، التي كانت تُسوق منتوجاتها إلى فرنسا. وبقي رومانونيس مسرورا بمناجم الريف... ويوم الثلاثين من نونبر 1912، وبعد انتهاء مراسيم دفن كناليخاس، تم التوقيع على كل المعاهدات التي اهدت إسبانيا مساحات ترابية، فكانت حصتها لا تتجاوز 5٪ من مجمل الأراضي المغربية. وهكذا، وبعد مرور أربع عشرة سنة من فقدان ممتلكاتها فيما وراء البحار، ربحت إسبانيا إمبراطورية او على الأقل هذا ما توهمته.

وفي الفاتح من يونيو 1898، وبعد مرور شهر على غرق اسطول مونتوخو في منطقة كافيتي، اقترح بونومر (السيد فرانثيسكو ميري إي كولوم)، استبدال كوبا بالمغرب، في

محاولة لاستعادة الثقة وتعويض كل الخسائر. وقد قدم اقتراحه بتوصية من القوى العظمى وكان بونومر هذا، سفيرا بروما، وكان يحث كثيرا على العنصر الاقتصادي، .فالأولى بالإسبان بيع كوبا للأمريكان بأربع مائة مليون دولار،. وتمت هذه المحاولة -بعد تكرارها سبع مرات- وفي النهاية، جاءت محاولة بريم لسنة 1869، والتي فشلت بسبب مواقف الوزراء المحافظين، الذين تبنوا هذه العملية. ولم يول سغاسطا، ولا الملكة الوصية على العرش، أي اهتمام لتقارير بونومر، التي كانت سرية جدا، والتي كانت تضم سبع عشرة صفحة مليئة بالاقتراحات[32]، فالاثنان معا، كانا لا يميلان للمغامرات في إفريقيا.

سيلفستري الإفريقي:
من رجل ديبلوماسي، إلى رجل يرفع لواء الحرب الصليبية

في يناير 1913، وافق مجلس النواب على ترقية سيلفستري إلى درجة كولونيل. آنذاك، كان المعني بالأمر في مدريد، يتحاور مع رومانونيس ووزراء حكومته ووزراء الدفاع والبحرية، بشأن ترشيح الريسوني خليفة. وفيما بعد، عاد إلى المغرب منتشيا بالسلطة والمشاريع. وفي أصيلا، كانت المشاكل تنتظر سيلفستري، إذ كان عليه أن يتقصى حقائق المعاملة اللاإنسانية، التي ينتهجها الريسوني مع أسراه. وبحذر كبير، اتخذ تدابيره، فعهد بهذه المهمة إلى واحد من ضباطه الذين يثق بهم، وهو القائد غيديا Guedea، رئيس مكتب الشؤون الأهلية. فحدث أن اكتست هذه المهام طابعا روائيا، بفضل أعمال لوبيث ريبندا، الذي تحدث عن بطولات قروسطية، بطلها سيلفستري حامي الأبرياء وقاهر المعتدين.

وفجأة تأزمت الأوضاع، وبدت المبالغة في الأمور جلية، وتفجرت طاقات رومانسية كانت لا تتناسب والأحداث، الشيء الذي أفرز شرخا عميقا في طبيعة العلاقة بين إسبانيا والمغرب. كان المبرر هو الدفاع عن حقوق الإنسان، وكان السبب تافها لدى الواقع المغربي المر. يتعلق الأمر بإنقاذ لصوص نهبوا ماشية من دوار الرملة Ramla، فاعتقلهم الريسوني في حصنه بأصيلا. وتدخل الجنرال الفاو Alfau لحل المشكل، وطلب من سيلفستري التوسط للإفراج عن أولئك الأسرى، مشددا على طلبه بخبر آخر، .اثنان من جبالة اعتُقلوا لسبب تافه جدا، وهو أنهم تودّدوا للقبطان غيديا،.

ويتحفنا لوبيث ريندا بتصوير تاريخي لهذا الحدث، الذي كتب عنه في الثالث والعشرين من يناير 1913، فيروي ان كتيبة إسبانية بزعامة الجنرال ذي الشوارب الكثيفة، وصلت يوما إلى حدود اسوار أصيلة. فسأل الجنرال عن الريسوني، فأطل هذا الأخير براسه من الباب والسرور يلفّه للقاء الضيف. واحتراما لطقوس الزيارات، قُدم الشاي الذي رفضه الجنرال، كان سيلفستري قد ضاق ذرعا بالانتظار، فطلب رؤية الأسرى فورا، فلم يمانع الريسوني. فكانت الفاجعة، مئات من المعتقلين مُعلقين وكأنهم خفافيش إنسانية. كان الجوع يكاد يقتلهم، وانهكت الأمراض قواهم، وعميت ابصارهم من جراء الظلام الحالك، وكان الغائط والحشرات تلفهم من كل جانب. فطلب الجنرال تفسيرات لما رأى، فعلت في المكان صيحات الأسرى، الذين احسوا بدنو ساعة الإفراج، وشرع سيلفستري يحسب الأسرى واحدا تلو الآخر، فوصل إلى ثمانية وتسعين معتقلا، (وهو رقم صحيح). لم يكن لصوص الماشية وحدهم هناك، بل كان إلى جانبهم تجار، وبدويون وملاكون صغار، وهاربون من الجندية. عاملهم الريسوني معاملة الكلاب، وقد علّل فعلته بكدر: «إن عدالتي سديدة»، واستفسر الجنرال فيما بعد: «اتصدقهم وتكذبني انا؟». فأصدر سيلفستري اوامره لرجاله قائلا وآمرا: «أطلقوا سراح كل المعتقلين فورا»[33]. هذه الحكاية، إذا أُخذت مأخذ الأسطورة فهي رائعة، أما إذا أُخذت مأخذ الواقع فهي محزنة.

وبالطبع لم تكن مداخلات غيديا بهذه الحدة، وإن كان قد انتهج سياسة سيلفستري. فتحررت رقاب كل الأسرى، وتمت مصادرة السلاح وجل الذخائر الحربية. فجاء هذا الحدث بمثابة صفعة للريسوني، الذي احس بإهانة كبيرة. إذ لو ان الأمر صدر من سيلفستري شخصيا، لما تعدت الشتيمة كونها مجرد خصومة بسيطة. لكن ان يكون مصدر هذا الفعل مجرد قبطان، فهذه جريمة لا تغتفر.

وبحديث لوبيث ريندا عن بطولات سيلفستري، التي لم تكن من صنيعه وإن كانت بموافقته، يكون قد فتح بابا لشهرته، وفخّا هوت فيه مكانته السياسية. وفي هذا الخضم، غابت إسبانيا الفونصو الاستعمارية. تلك إذن كانت الأسطورة التي تمخضت عنها اسطورات أخرى، بدءاً من رواية طوماس غرسيا فيغيراس Tomas Garcia Figuras، غير ان كتاب طسينير Tessainer حول الريسوني، يبقى هو المؤلف المحقق والجدير بالتصديق[34].

والواقع أن الريسوني لم يَفر، بل ذهب إلى مدينة طنجة ليبث شكواه لإسبانيين آخرين، كخوان ثوغاستي Juan Zugasti، ولويس فليرا Luis Valera (مركيز فيا سيندا). واخفق سيلفستري هذه المرة بتنصيبه حراسا راقبوا تحركات زوجة الريسوني وابنه الأكبر، وفيما بعد، كتب سيلفستري إلى لوكي Luque (وزير الدفاع). وحينما طلب منه هذا الأخير التزام الهدوء، رمى له الجنرال -عبر التلغراف- استقالته التي جوبهت بالرفض. فمكث بالعرائش يعض أصابع وانامل يديه غيظا. اما الريسوني، فقد اقسم على رد الصاع صاعين، فرحل إلى الجبال ليجدد العهد مع الحروب.

وبعد مشكل أصيلا، ومن أجل ضمانات وقائية لسلامة المؤسسات، كان من المفروض عزل سيلفستري عن القيادة، لكن ما جرى هو ترقيته إلى درجة بريغادير في العاشر من يوليوز 1913. وفيما بعد، بثلاثة اسابيع، تلقى زميله القديم ومنافسه في المستقبل دامسو برنكر الترقية نفسها[35].

برنكر: التلميذ بالمدرسة الحربية الذي أصبح وزيرا

كان برنكر ابنا للسيد دامسو برنكر إي بونيميتي Domaso Berengue y bonimeti، الذي كان ملازم عقيد للمشاة، والسيدة دولورس فوسطى إي بيسطروس Dolores Fusté y ballesteros. ولد بمنطقة رمديوس remedios -وهي بلدة قريبة من لاهابانا- في الرابع من اكتوبر 1873. كان يصغر سيلفستري بسنتين، واثناء دراسته بطليطلة ولج الكلية الحربية العامة في شتنبر 1889 الكلية الحربية العامة- وكان عليه أن يحضر لتسع مواد: الجبر والهندسة، الفيزياء والتداريب العسكرية، الأدب والميكانيك، المراسيم والتكتيك والإبراق. وفي سنة 1892 نجح فيه، وتخرج في السنة نفسها، مع سيلفستري في دُفعة واحدة من بلد الوليد برتبة ملازم ثان. وفيما بعد، عاد برنكر إلى كوبا، فقاوم بشدة مناخ المنطقة وتصدى لنيران العدو. وبعد نيله للنجمات الحمراء الأربعة استحقاقا عسكريا، ونجمة ماريا كريستينا التي يتمناها كل عسكري، ترقى إلى رتبة قائد -وذلك لشجاعته في الأحداث الدموية العنيفة التي دارت رحاها في أوراس Auras في غشت 1898، وهو المكان نفسه الذي استسلم عنده الإسبان في ما وراء البحار، حيث استسلم مانيلا Manila لـ مريت Merrit في تلك الأيام، التي خمدت فيها الهمم الوطنية خمودا كبيرا.

وفي شهر اكتوبر الموالي، عاد برنكر إلى شبه الجزيرة، والتقى من جديد مع سيلفستري، إذ تم تعيينه في نفس الفرقة العسكرية، المشاة الاحتياطيين لمدريد رقم 39. وبعد شهور، دخل مرحلة جديدة في مسيرته العسكرية، إذ صار مساعد ميدان للقائد العام باندلوسيا (من 1899 إلى 1902)، كما تلقى مناصب متتالية في بلديات المنسا Almansa، واوسريا دي لارينا Hosarea de la reina إلى حدود سنة 1905. كما اشتغل مدرسا بمدرسة الفروسية العسكرية، فقام بجولات كثيرة باوربا عضوا في لجنة المباريات، التي تقام بشأن الفروسية الدولية (1906). إضافة إلى تحريره لجملة من القوانين التنظيمية لفرق المشاة (من 1907 إلى 1908). اما ترقيته إلى منصب تيلينتي كولونيل فقد تمت في يوليوز 1909. وفيما بعد، اصبح مساعد ميدان لوزير الدفاع لوكي Luque. لاحقا، كان الموعد حاسما مع منصب ترك بصماته واضحة في مسيرته المهنية، يتعلق الأمر برئاسة مقر القيادة لأرانخويث، المنتجع الملكي. وهناك، ربط علاقات طيبة مع العائلة الملكية. وبعد مدة، رحل إلى مليلية حيث منحوه قيادة فرقة كاثادورس، ثم قيادة كتائب حديثة التكوين (1910).

وبعد غياب سببه الذهاب للمشاركة بصفته فارسا في المباريات الدولية، عاد برنكر إلى مليلية لينضم في يوليوز 1911 إلى الفرق النظامية الأهلية، ومعها خاض غمار الحروب. وهكذا. شارك في الثامن عشر من يناير 1912 في الاستيلاء على جبل أعرويت. وبعد مرور شهر، هاجم بني بويحيى (وهم أصحاب اعرويت)، حيث قضى عليهم في هجوم غنم فيه مكاسب مهمة. وإثر هذا الحدث، ترقى إلى رتبة كولونيل. لم يكن برنكر يتصور أن الأماكن التي شهدت انتصاراته بالأمس، ستشهد ثانية على تدهور مسيرته المهنية. ورغم ذلك، لم تنطفئ شعلة شهرته، بل توهجت من جديد. خاصة، بعد أن تمكنت فرقة من العساكر النظاميين، من قتل سيدي محمد امزيان، الزعيم الروحي للحركة الريفية، وذلك بجوار الخنادق الدامية لبني سيدل، في الثاني عشر من مايو 1912. وكانت النتيجة، أن تلقى برنكر نجمة ماريا كريستينا، وهي الثالثة من نوعها. وبعد سنة، ترقى إلى درجة بريغادير. وفي غضون ستة أعوام، أصبح وزيرا، وفي العام الثامن، كان مسؤولا عاما عن الأمن وقائدا بإفريقيا.

ورويدا رويدا، ابتعد برنكر عن المعارك في إفريقيا. في حين رفع سيلفستري، شعار الحرب في المغرب.

رومانونيس، يقترح
إرسال جيوش المرتزقة إلى المغرب

بعد مرور شهر على خصومة سيلفستري والريسوني، عرفت البلاد موجة من المشاكل، قضت على ما تبقى من سياسة الاستعمار المعتدلة، التي كان ينهجها كناليخاس. فالجنرال الفاو، الذي كان يواصل مهامه في سبتة، كانت تربطه علاقات طيبة مع الشيوخ التطوانيين، لكن فجاة، خدعهم ودخل إلى المدينة بجيش قوامه الفي رجل، وذلك في التاسع عشر من فبراير 1913. فاندهشت تطوان، التي لم تر جيوشا إسبانية منذ عهد اودونيل والروس دي اولانو، فلم تجد من خيار آخر سوى الاستسلام. وكان ذلك مبررا آخر لكي تدوم الحرب طويلا.

الجنرال الفاو الذي كان ينفذ اوامر مدريد، كوفئ على ولائه بتعيينه في الثالث عشر من ابريل مقيما عاما. وفيما بعد، حلت الكارثة التي كانت بمثابة الضربة القاضية. وبدافع من رغبة حربية صرفة، عين رومانونيس مولاي المهدي، الذي كان شخصية سوقية وجبانة وفاجرة، في منصب الخليفة، وصرفت له إسبانيا ميزانية مماثلة لتلك التي يتقاضاها الفونصو الثالث عشر، والتي تقدر بعشرة ملايين بسيطة.

كان المهدي بمثابة دمية، صورة هزلية لزعيم ليس له من هذا المنصب سوى الاسم، وكارثة اخلاقية لا توصف. كل هذه الأوصاف والنعوت، شكّلت إهانة ثانية للريسوني، الذي اغتاض كثيرا عند اطلاعه على مراسيم الاستقبال المهيب، التي اقامها الإسبان في تطوان وسط تعزيزات امنية مشددة، على شرف الخليفة الجديد، الذي اغتصب منصبه في السابع والعشرين من ابريل. كان الإسبان يطلقون عليه اسم "السّليطين" (تصغير سلطان)، وفيما بعد بثلاث سنوات أصبح محط سخريتهم، فنعتوه بـ"الحلوف" اي الخنزير. كل هذه الأحداث، تطرق إليها باهتمام كبير، قائد عسكري إسباني مجهول الاسم. كانت له خبرة كبيرة بمنطقة جبالة، كما كان شخصية قريبة من سانشيث دي طوكا Sánchez de Toca، الزعيم المحافظ الذي سلم بدوره ذلك التقرير إلى انطونيو ماورا[36]، في الثالث عشر من يوليوز 1916. كان سيلفستري قد ارتكب اخطاء فادحة في اصيلا، وإن كانت الدوافع نبيلة، لكن قرارات رومانونيس بغزو تطوان، وتعيين أرجوز

غريب خليفة، (إذ إن المهدي لم يكن من جبالة) زاد من تفاقم الوضع. كما انه بهذا الإجراء، لم يسئ فقط إلى سكان جبالة، بل أجبر إسبانيا على تعبئة جيش لا تتوفر عليه، ولن تمتلكه مهما طال الزمان. وبما أن إسبانيا كانت فقيرة عسكريا، بالرغم من توفرها على خبراء جيدين، فإن رومانونيس اقترح تعديلا مميزا، يتجلى في إعداد جيش من نوع خاص. وهكذا، فكر هذا السياسي الليبرالي في حشد مئات الآلاف من المقاتلين الماجورين، (الذين يتقاضون أجورا)، وتكليفهم بمسؤولية تقديم المغرب في سلاسل واغلال إلى إسبانيا. وجرت نفقات هذا الجيش على حساب شركة تُمَول من قبل الدولة.

كان السيناتور توماس مايستري إي بيريث واحدا من مساعدي رومانونيس الأوفياء، حدث ان بعث به هذا الأخير إلى مدينة طنجة وتطوان لتدارس الأوضاع هناك. وما إن علم مايستري بطبيعة الاقتراح، حتى فقد ثقته الكاملة في الحاكم، الذي كان صديقا بالأمس القريب. وبعد ان نفد صبره، وفي إحدى اللقاءات التي حضرها بصحبة الفاو، الطبيب الشهير والسيناتور الذي كان عمره يناهز ستة وخمسين عاما، ثارت ثائرته واتهم رومانونيس بالتحيز لخيار الحرب، فتذمر رومانونيس من هذا الموقف، ولم يجد مايستري من حل آخر سوى إرسال رسالة كتبها في الفاتح من غشت 1913 من سان خافيير (بمورسيا) بعد عودته من منطقة جبالة، التي كانت نيران الحرب قد التهمتها، وهذا نصها، «إن أقوالك منافية لتصرفاتك، فهل انت من مناصري السلام؟ كيف ذلك، وانت الذي اذنت بإعطاء اثنا عشر مليون بسيطة هدية لشركة في القطاع الخاص، تُعنى بجمع اربعين الف متطوع لغزو المغرب. إنك تهدم كل المحاولات السلمية التي يسعى إليها الفاو»[37].

كان مايستري يحاول أن يجنب سيلفستري -الذي كان يصول ويجول في البلاد قارعا طبول الحرب- خطر الكتائب العسكرية التابعة لجبالة، والتي كان يقدر عددها بثمانية آلاف رجل. وهو تأكده من أن كل مساعيه السلمية لم تؤت أكلها، وبعد شهرين من الاتصالات المكثفة مع أعيان المنطقة، خاصة مع سيدي محمد ولد سيدي بركة، شريف منطقة انجرة، والعدو اللدود للريسوني أكد لرومانونيس قائلا: «يجب علينا أم نتوخى السلام في المغرب مع المورو دون تكاليف باهضة، فإسبانيا اليوم فقيرة ولها التزامات أخرى»[38].

كان السيناتور الأليكنتي، قد ضاق ذرعا بالأحداث. إذ منذ سنة 1909، وهو يندد بالأوضاع المتردية في المغرب، نتيجة سوء التسيير وضعف الخبرات العسكرية. وحدث

أن استدعاه الجنرال مارينا للدخول معه في تحد عبّر عنه في مقالاته، التي نشرت في صحيفة *الموندو*، والتي اشارت كذلك لماورا بالدخول في هذه الزوبعة، فرفض هذا الزعيم المحافظ المشاركة، الشيء الذي ترتب عنه استقالة المقيم العام في مليلية. وبعد مرور أربع سنوات، أدرك مايستري أن إسبانيا باتت تتوغل في مستنقع عميق. ففي المغرب، كانت توجد ما نسبته ستون الف جندي إسباني ربما يرتفع العدد إلى ثمانين الف. كان مايستري لا يريد المزيد من إراقة الدماء، وكان يصبو إلى تحقيق النزاهة والشرف. وفي الرسالة نفسها التي كتبها في الفاتح من غشت 1913، صب جام غضبه ليس فقط على رومانونيس، بل انتقد كذلك سياسة الملك الفونصو. وبعد أن اوضح لرومانونيس انه قادر على التصرف كما يشاء برسالته، ذكر له قائلا: «لقد اخفقت، لأنني لا اعرف من يجلس على كرسي الحكم، وإنني استثني من هذه القاعدة السيد انطونيو ماورا». وأضاف: «لم يعرف الوطن الحزين، وحتى في السنوات المفجعة والأخيرة من حكم عائلة استورياس، تدهورا وفوضى مثل هاته».

وعند استقالته، لم يتخلّ مايستري قطّ عن الإدلاء بانتقاداته: «الإسراف، والفوضى والارتجال، والجهل والخمول والأنانية وسوء التصرف وإراقة دماء جنودنا. كل هذه الأمور، هي من صنيع ساساتنا، فعوض أن يكون المغرب نقطة انفراج لهمومنا، أصبح قبرا لأحلام امتنا»[39].

وفاة الأبرياء وموت ضمير الحكومة

بعد إقالة الفاو بالقوة، تم تعويضه في الخامس عشر من غشت 1913 بخصمه الذي كان يتحداه، إنه الجنرال مارينا. وفضّل رومانونيس، الذي كان يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يخبر ماورا بوجهة نظره حول الأحداث. ورغم الحيف الذي تلقاه هذا السياسي الميوركي المحنك، إلا انه حافظ عل مكانته وخبرته الواسعة بالمغرب. وبدهشة كبيرة، قرأ له ما جاء على لسان واحد من الأرستقراطيين المناصرين لألفونصو: «لقد تمت إقالة الفاو من منصبه، لعجزه عن التأويل الصحيح وفهم نظام الحماية»[40]. وهنا كانت سياسة رومانونيس في أوج عظمتها وهي التي اقرت بأن المساعدين والأتباع، لا يفهمون جيدا لغة الرؤساء.

حشد مارينا ثمانين الفا من الجنود الإسبان، وهو رقم كان يهابه مايستري، لأنه تعلم الكثير من معركة برانكو دي اللوبو Barranco del Lobo. ففكر في أن السلام هو الخيار الأفضل، سواء بالنسبة لجيشه او بالنسبة لحكومة داتو، التي تشكلت على انقاض حكومة رومانونيس. لكن التحالف القذر بين الإسبان وجبالة المتعطشين للدماء، نحّى هذا المشروع النبيل جانبا.

ويوم الثاني عشر من مايو 1915، كان الموعد حاسما مع ابشع صور الوحشية، والحدث جاء إثر إلقاء القبض على الطالب سيدي علي بن احمد اقلعي، المبعوث الشخصي لمارينا، الذي كان يحمل معه إذنا بالمرور مُوقعا من طرف المقيم العام بنفسه. والحادثة وقعت بـ كوستا كولورادا (شمال شرق العرائش)، حيث اعترضت سبيله مجموعة من اللصوص، سرقوا منه كل ما بحوزته ثم اخلوا سبيله. وبعد لحظات قصيرة، سقط في كمين نُصب له، فلقي حتفه وسط الجبال، وسقط إلى جانب خادمه الوفي محمد الكرفطي، الذي فقئت عيناه في اشتباك دافع فيه بشجاعة عن سيده.

كان اقلعي يحاول الوصول إلى تازروت، معقل الريسوني في الجنوب الغربي لتطوان، وذلك لعقد هدنة بين الإسبان وجبالة. فرُميت جثته وجثة الكرفطي في وادي طيمبلاديرا Tembladera ,مكبلة بالحجارة والحبال[41]. كان النهر ممتلئا من جراء تساقطات فصل الربيع الأخيرة، فجرف مع جريانه السريع تلك الجثث التي طفت على سطح الماء. وبعد ثلاثة أيام، اكتشفها صيادون فذعروا لهول المنظر، فعمّت الفضيحة في كل مكان.

مسؤولية هذه الجريمة الشنيعة، وقعت على ضباط ثلاثة ينتمون إلى مكتب الشرطة الأهلية بالعرائش، دبّروا هذه المؤامرة بتنسيق مع باشا أصيلا السيد إدريس الريفي، وهو شخصية خبيثة تعوّدت خيانة الإسبان تارة وجبالة تارة أخرى. كان الريفي عوض الريسوني، مراقبا سياسيا في أصيلا. وكان عدوا لدودا للشريف، فاراد ان يقضي على خيار السلام الذي كان ساريا، ليامن مكر الشريف. فعهد إلى اولئك الجزارين، مقدم ابن دحاس وعساكر المتوغي وكورسان، بمهمة تنفيذ نواياه الإجرامية.

اندهش سيلفستري كثيرا للحدث، بصفته رئيسا للقيادة العامة بالعرائش، وشعر بمسؤولياته. ورغم أنه لم يتأخر في إشعار مارينا بالكارثة، إلا ان هذا الأخير، وجه إليه انتقادات لاذعة تذكره بحجم مسؤولياته بصفته قائدا. فكبح سيلفستري جماح نفسه، وقام بتعيين لجنة لتقصي الحقائق يترأسها القائد لويس اورغاس يولدي Luis Orgaz Yoldi، الذي

أصبح فيما بعد مقيما عاما مع الجنرال فرانكو. كان أورغاس رجلا مدققا وحازما، شأنه في ذلك شأن الكولونيل ماريانو غومس نفارو Mariano Gomez Navarro قاضي التحقيق، الذي تكلف بالقضية. وقد تفوق الاثنان في مهامهما، وتوصلا إلى أن القائد لويس رويداسLuis Ruedas، والملازم مانويل غرسيا دي لا سوطا M.García de la Sota، ورمون مورالس R. Morales، كانوا بدورهم متورطين في الجريمة، وأن هذين الأخيرين كانا شاهدي عيان على تلك الجريمة المزدوجة. ولم يستطع رويداس Ruedas، وهو الضابط الأكثر تورطا في هذه الجريمة الجنائية، وبعد تأكيده لسيلفستري أنه وقتها كان بأصيلا لأجل مهام تخص العمل[42]، أن يصمد طويلا أمام ضراوة التحقيق الذي قام به غومس نفارو، والذي حضر بنفسه إلى كوستا كولورادا لمعاينة ملابسات الأحداث. كان رويداس، هو من انتزع الإذن بالمرور الذي كان بحوزة اقلعي، وكذا رسائل أخرى ذات أهمية، قام بحرقها[43].

أما الجيش، فقد تعامل مع القضية بحزم وثبات منفذا كل الأوامر التي تدخل في دائرة اختصاصه. لكن حكومة داتو Dato، كانت خائفة، فجاءت النتيجة سلبية تماما.

لم يكن ممكنا التستر على الجريمة، لكن مقترفيها غير المباشرين تم اعتقالهم في تكتم مُهيب، وبقي مارينا وسيلفستري مكتوفي الأيدي. وفيما بعد، تم توشيحهم بأوسمة سامية كنجمة ماريا كريستينا، التي كانت من نصيب سيلفستري، ونجمة سان فرناندو التي كانت من نصيب مارينا. وهي ميزات غير معتادة وخارقة للعادة، وكان حريا تم الانتصار فيها. ولم يكن الأمر كذلك، فالحرب خسرها متهورون تم العفو عنهم لاحقا في سرية بالغة.

طلب فيليب رويداس -البرلماني الكتلاني- الذي كان وزيرا للتعليم العمومي في حكومة غارسيا بريطو عام 1917- من رامون إشاغوي أن يُحضر إلى القاعة الملف الخاص بمنح النجمات، ليتأكد من صحة ما كان رائجا من أخبار تفي بصدور مرسوم ملكي لم يسجل في الجريدة الرسمية لوزارة الحرب، يقضي بترقية مارينا. وبما أن الوزير نفى نفيا قطعيا هذا الادعاء، بادره رويداس بالحديث قائلا: «أحضر الملف أولا ولنرى هل تتوفر الشروط اللازمة في الجنرال مارينا حتى يكون أهلا للنجمة الكبرى لسان فرناندو»[44]، فأجاب الجنرال إشاغوي: «هذا شيء آخر». عندها علت الضجة وسط القاعة.

ومع مرور الوقت، أصبح سيلفستري مساعد الملك الفونصو الثالث عشر، الذي أجبره فيما بعد على مغادرة المغرب. وما أن علم رويداس بالخبر، حتى هم بالكتابة من

معتقله في المستشفى العسكري بالعرائش، فبعث برسالة إلى سيلفستري يوم الحادي عشر من يوليوز 1915، جاء فيها: «عزيزي الجنرال، عندما تلقيت البارحة نبأ رحيلك إلى إسبانيا، اسودت الدنيا في وجهي. فهذا أسوأ خبر سمعته منذ مجيئي إلى هذا السجن، ليس لأنني أخاف عليك أو أخاف أن تهجرني كلا، بل لأن رحيلك سيسبب خسارة لإسبانيا، فأنت الوحيد الذي استطاع أن ينشر حضارتنا، دون الحاجة إلى شراء ضمائر المورو بالرشوة أو الصدقات. أنت الوحيد الذي كشف لنا عن نقاط القوة في حضارتنا، فكان تعاملنا مع المورو، على أنه شعب دوني يجب تعليمه وإرشاده إلى أن يصل إلى مستوانا، تعاملا صائبا...»[45]. ومن خلال إيديولوجيته، أقر رويداس بذنبه وذكر لسيلفستري ما يلي: «سيدي الجنرال، لقد كنت أنت معلمي في جهة الغرب التي شهدت انتصاراتي ومثلي الأعلى، فاسمح بارك الله فيك، لهذا التلميذ الذي زاغ عن الطريق الذي رسمه له معلمه، بأن يُقبّل يد مرشده قبل رحيله، ويُسلم على قدوته، الجنرال صاحب الروح والقلب الكبير. بكل تأثر يَطلب منك هذا مُساعدك الوفي لويس رويداس ليدسما»[46].

احتفظ سيلفستري بهذه الرسالة بين وثائقه، لكنه لم يجب عليها مدة أربع سنوات، كرس كل وقته لمهام روتينية تتعلق بعمله حارسا للعائلة الملكية. لكنه أحيانا، كان يُفر لدراسة أساليب فرنسا المستعملة في الحرب الكبيرة. وفي دجنبر 1916، زار الموقع القيادي للجنرال كسطلنو Casteinau في لاشمبانيا، وفي الخامس من يوليوز 1918، تمت ترقيته إلى رئيس قسم، وفي التاريخ نفسه تلقى برنكر نفس التعيين. ترقية الاثنين جاءت عن طريق الأقدمية للتاسع والعشرين من يونيو[47]، والتي الغيت فور انتقالهم للعمل رؤساء أقسام. وقد ربط الفونصو الثالث عشر، مع الاثنين صداقة متينة، طيلة ثلاث سنوات متعاقبة (من 1919 إلى 1921)، كان كل من سيلفستري وبرنكر عيون الملك على المغرب.

مقيم عام يقدم شكواه للحكومة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة

بعد انصراف مارينا، خلفه في الحكم فرانثيسكو غوميس خوردانا، الذي أعرب عن وفائه المنقطع النظير للدولة، كما كان صديقا لأيثبورو[48]. طيلة أربع سنوات، شهد

خوردانا تعاقب أربع حكومات، داتو، رومانونيس، غارسيا بريطو، داتو مرة أخرى، غارسيا بريطو من جديد، وماورا فيما بعد، وغارسيا بريطو مرة ثالثة، وأخيرا رومانونيس. وكانت هذه المجموعة تضم عشرة أعضاء من وزارة الدفاع، تسعة من وزارة البحرية، وتسعة آخرين من وزارة الداخلية، وعشرة من وزارة الدعم، وتسعة وزراء الحكومة، وعشرة من وزارة المالية. لكل فرد من هؤلاء الوزراء، البالغ عددهم سبعة وخمسين رجلا، حق التدخل في شؤون الإقامة العامة، فكان كل يصدر أوامره، وكل يشترط ويطالب. والخلاصة، أن المقيم العام تذمر كثيرا من هذا الوضع.

توفي خوردانا فوق مائدة مكتبه بتطوان، في الساعات الأولى من مساء الثامن عشر من نونبر 1918، وهو يراجع مذكرة إهانات وسبّ طويلة انتهى لتوه من كتابتها، والتي كان ينوي إرسالها إلى رومانونيس -رئيس المجلس ووزير الحكومة-. كان خوردانا يطالب بالتلاحم والصرامة، وهي مطالب كان من المستحسن التماسها من النظام؛ والأمر في كلتا الحالتين كان وهما. وبوفاته، بقي ملف التفاهم مع الريسوني عالقا وحده. ففي العشرين من مايو 1916، تم التعاقد على السلم في فندق عين الجديدة بطريق تطوان - طنجة، في احتفال كانت له صبغة خاصة، حيث تصالحت حركة الريسوني مع جيوش خوردانا. كان الجيشان قد تشابكا في قتال من أجل موقع "البيّوت" التابع لأنجرة في التاسع والعشرين من يونيو، وعجز خوردانا فيما بعد عن مطالبة الحكومة بإقالة مولاي المهدي التعس، لتعود الخلافة إلى من يستحقها، الريسوني.

وحدث الصلح والعناق بين الإسبان وجبالة في الفندق، في مكان ليس ببعيد عن تلك الشجرة الكبيرة التي وقّع عندها في 1860، كل من أدونيل ومولاي العباس نهاية الحرب، لقد كان شجر البلوط بظلاله الوفيرة شاهدا على تلك المعاهدات النبيلة، التي قضى عليها الثنائي برنكر-سيلفستري بلا هوادة.

سيلفستري يعود إلى المغرب، وبيكاسو يتنازل عن منصب الوزير

وبعد أربعة أعوام من ذلك الحادث المشؤوم لأقلعي، عاد سيلفستري إلى المغرب. ففي الثاني عشر من غشت 1919، تقلد منصب "رائد" في سبتة. وفي تطوان، كان في انتظاره برنكر الذي لم يكن فقط مسؤولا عاما عن الأمن بالمنطقة، بل كان كذلك واحدا من قواعد النظام.

وفي سنة 1916، تم تعيين برنكر حاكما عسكريا على مالقة، وهو منصب أهله للارتقاء إلى رئاسة قسم في الخامس من يوليوز 1918. بعدها دخل إلى عالم السياسة الذي يستهويه. وفي الثلاثين من يوليوز الموالي، رحل إلى مدريد ليعمل وكيلا للوزارة الحربية تحت امرة الجنرال مارينا، صاحب كرسي في الحكومة الثالثة لماورا.

وبصحبة الليبراليين، رفاق غارسيا بريطو في الحكم، مُنحت لبرنكر حقيبة الوزارة الحربية، التي لم يرفضها. وفي التاسع من نونبر 1918، عُين وزيرا.

وتقريبا في الشهر نفسه الذي توفي فيه خوردانا، أي في الحادي عشر من دجنبر 1918، حصل برنكر من الفونصو الثالث عشر -بدافع من تجربتنا مع نظام الحماية في المغرب- على توقيع مرسوم ملكي يقضي بإلغاء منصب القائد العام للجيش الإسباني بإفريقيا، وفصله عن وظائف الإقامة العامة. وقد صادق كل من البرلمان والصحافة على هذه المبادرة التي راوها طيبة.

لم يُكتب لحكومة **غارسيا بريطو** الثالثة أن تدوم طويلا، ففي الخامس من دجنبر 1918، عاد إلى القصر الكونت **رومانونيس**، ودخل برنكر في تركيبة وزارية جديدة، ما فتئ أن تخلى عنها، مقررا تكريس كل جهوده وطاقاته للمغرب. وهكذا، تم تعيينه مقيما عاما في السادس والعشرين من يناير 1919، فاتخذ منصبه في تطوان في اليوم الثاني من فبراير الموالي. وقد جاء هذا التعيين بعد جدال حاد دار بين الفونصو الثالث عشر، وبرنكر نفسه ورومانونيس. كما حاول الأرستقراطي إقناع مرشحه السيد مانويل غونثالث انطوريا Manuel González Hontoria، بالتنازل عن هذا المنصب، وهو شيء وضحه في مؤتمر 1921 بقوله: «... بموت الجنرال خوردانا، وبقاء منصب الإقامة العامة شاغراً مدة شهرين، كان علي أن أتصدى لإغراءات الطمع في المنصب الذي كان يدفعني إليه السيد الكونت رومانونيس، صديقي العزيز (وتعالت الضجة في المكان)»[49].

وبذهاب برنكر إلى المغرب، شغل شخص غريب الأطوار منصب وكيل وزارة الدفاع بريغادير، كان رجلا كتوما، لم يعهد الناس رؤيته كثيرا في ممرات قصر بوينابيستا. وكان كذلك ضابطا في هيئة الأركان الحربية، وله نجمة شرفية نالها عام 1893. كان اسمه خوان بيكاسو، اثنان وستون سنة، وشخصية شبه مجهولة في الميليشيا. وفي فبراير 1919، اقترحوا عليه منصب الوزير.

كانت دهشة بيكاسو كبيرة، لكن جوابه اثار العجب. لقد رَد بلطف على من اقترح عليه المنصب (ربما كان رومانونيس) قائلا: «لكنني لا ارغب في تغيير عملي، وافضل ان ابقى عسكريا بشرفي»[50].

مقيم عام يتراجع عن مواقفه، وكومندان يطالب بمراجعة الحسابات

في ربيع 1919، تقلد برنكر منصب إدارة الإقامة العامة، بعدما كان وزيرا في حكومة غارسيا بريطو ورومانونيس. وفي نظر الكثير من المتتبعين، لم يكن برنكر مؤهلا لهذا المنصب الجديد لا سياسيا ولا عسكريا. ولملء هذا الفراغ، ارتأى المقيم العام الجديد ان يجمع حوله كفاءات عالية، وان يعين في المناصب الحساسة أصدقاء يثق بهم. فوقع الاختيار على سيلفستري، وانصرف ايثبورو الذي كان وقتها كومندان عام بمليلية لحال سبيله.

توصل كل من برنكر وسيلفستري إلى توقيع اتفاقية عسكرية مشتركة حول المغرب، فتكلف برنكر بالجانب التشريعي، في حين اختص سيلفستري بالجانب التنفيذي. وما قيل عن خصوماتهم القديمة، لم يظهر لها اثر في صيف 1919.

وبما ان منصب تلينتي جنرال بقي شاغرا، فقد تقدم لملئه مترشحان وهما: ميغيل بريمو دي ريفيرا Miguel Primo de Rivera، وايثبورو نفسه، فكان المستفيد هو بريمو، وكان سيلفستري الذي لايزال بجوار الملك، اول من اطلع على النتائج، فبادر إلى إخبار برنكر بهذا الاختيار فرد عليه هذا الأخير من تطوان في التاسع عشر من يوليوز 1919 قائلا: «عزيزي منولو، لقد تلقيت رسالتك التي اخبرتني فيها بفوز ميغيل بريمو دي ريفيرا. إن مشاريعنا ستتغير حتما، وعلينا تأجيلها. لقد سررت لفوز بريمو. نعم، ولكنني آسف لعدم إمكانية تطبيق خططنا في الوقت الراهن. ورغم انني سعيد جدا بتواجدي مع ايثبورو الذي احسن في واقع الأمر إدارة الريف، وها هو الآن يحصد بكل سهولة ثمار السياسة التي زرعها هناك، إلا انني كنت سأسر أكثر إذا ما كنت انت هناك. فمَعاً سنحل كل القضايا العالقة، وافكارنا نحن الاثنين ستساعد على الإحاطة بكل الإنجازات التي لم ترَ النور بعد...»[51]. وبعدها اشار برنكر إلى تعويض آخر محتمل: «اما فيما يخص سبتة، فإنني اظن رحيل ارَايِس Arraiz، إشاعة عارضة لم اعرها اهتماما،

واحتراسا من وقوع هذا الحادث، كتبت إلى الوزير (لويس دي سنطياغو) لينظر في وضعيتي في هذه المنطقة (المحمية)، مستغلا هذا الظرف، وقد كانت هذه التوقعات محتملة، لأن فاجعة كدية الروضة كانت عند منعطف الطريق[52].

وقبل أن يكتب برنكر لسيلفستري بخمسة أيام، وفي الثاني عشر من يوليوز 1919، داهمت حركة الريسوني أفضل المواقع الإسبانية بكدية الروضة الواقعة عند واد الراس، حيث دارت آخر المعارك الدموية لسنة 1860. وبعد اشتباك قوي وقتال عنيف، تمكنت الحركة من تشتيت وحدات الكولونيل رودريغيث ديل باريو Rodriguez del barrio، وانتهت المعركة بانتصار جبالة لحزمها واستعمالها آلات عصرية حديثة، حيث استعملت قنابل يدوية، حصلت عليها من عمليات تهريب السلاح، الشيء الذي أضعف الجبهة الدفاعية الإسبانية. وقد تكبد الطرفان خسائر فادحة، فهذه العملية التي عدّها أرايس كوندرينا Arraiz Conderena، القائد العام بسبتة، مجرد "دورية عادية للشرطة، انتهت بضربات مميتة، خلفت انطباعات سلبية. فالمغرب، هذه المستعمرة الوديعة والمطيعة تمرّدت من جديد، وذبحت مُحتليها. ففي صفحات الصول، تم الحديث عن ثلاثمائة أو أربع مائة قتيل إسباني، وبعدها، أُعطي رقم مائة وأربع وعشرين ضحية، منهم ثمانية وثلاثون لقوا حتفهم، من بينهم أربعة ضباط. وتدخلت الصحافة لتهدئ من روع الفوران الشعبي، ونشرت أنباء بأن أربعة وثلاثين قتيلا كلهم من الأهالي (عنصر واحد من النظاميين)، فارتاحت إسبانيا[53]. لكن حجم الخسائر البشرية كان كبيرا، مائة وثلاثة وثمانون، وحصيلة القتلى وصلت إلى تسعة وسبعين، منهم سبعة ضباط وتسعة وثلاثون من العساكر الأوربيين[54].

تمت ترقية رودريغث ديل باريو إلى درجة بريغادير. وتم عزل أرايس بسرعة من منصبه. وتعويضه بسيلفستري وذلك بعد حادث كدية الروضة بثلاثين يوما، وقتها كانت نية العمل مع برنكر قد أصبحت جاهزة.

وقد خلّف هذا التعيين ارتياحا كبيرا لدى برنكر، الذي رأى أن الوقت قد حان لإحكام القبضة على المغرب. وفي الخامس والعشرين من غشت، صدر مرسوم ملكي أضفى صورة الشرعية على هذه السلطة الشمولية. اكتفى أنطونيو طوفار Antonio Tovar، الذي كان وقتها عضوا في وزارة الدفاع، بالمصادقة على بعض التغييرات الوزارية المقترحة عليه والتي وافق عليها الملك.

لم تكن هذه التغييرات الوزارية تافهة، بل بالعكس، فمن اختصاصات المقيم العام المبادرة بالعمليات العسكرية وتهييء الخطط لها، وتحمل مسؤولية السياسة المتبعة في منطقة الحماية. وإضافة إلى «التسيير المباشر لوكالات وخدمات الإعلام والشرطة. ومن مهامه كذلك، التدخل المباشر في استخدام الأموال المخصصة للحملات العسكرية، والتي لا يمكن أن تصرف إلا بترخيص مسبق منه. وأخيرا، توضع رهن إشارته جميع المراسلات اللاسلكية والهاتفية بأحقية تفوق كل السلط التابعة له، وكذلك الاستفادة من جميع وسائل النقل»[55].

وإن لم يكن كل هذا كافيا، فالمقيم العام كان يقوم بمهام مفتش الجيش بإفريقيا. كان برنكر يريد أن يرتب كل شيء بنفسه، ويعرف كل شيء عن المغرب. وقد تأتى له ذلك، ولكن تسييره أغرقه في متاهات من المسؤوليات. ولم ينسَ كل من بيكاسو وأغيليرا أن يذكروا في تقاريرهم كل هذه التفاصيل الدقيقة وكل هذه الاختصاصات.

وبعد أسبوع، عاد الشعور بعدم الارتياح ليخامر برنكر، الذي لم يعد راضيا عن موقفه من الإشكالية الاستعمارية. لكن في الفاتح من شتنبر 1919، صدر مرسوم ملكي آخر ليوضح هذه الالتباسات.

هذا وقد حصل برنكر من الملك على جواب تقدم به إليه بعشرة أشهر مضت، حينما كان وزيرا. يتعلق الأمر بفصل المديرية العامة للأمن عن منصب القائد العام للجيش بإفريقيا، فاحتفظ هو بالمنصبين. وحدث أن تراجع الجنرال عن مواقفه، وتراجعت معه الحكومة. لكن بقيت كل السلط والمسؤوليات من اختصاصاته. كان برنكر يريد أن يكون أول قنصل في إفريقيا، وقد تأتى له ذلك. ورغم كل النتائج، كان لا يريد أن يترك هامشا للأخطاء في صيف 1919، غير أنه شرع في ارتكابها. وفي تصريحات له أدلى بها ليومية الصول، قال: «على الشعب الإسباني أن يثق تماما بأن الأمور في المغرب تسير على ما يرام وبنجاح ودون قتال». كان برنكر يأمل في تحقيق واجباته على أحسن وجه دون خسائر في الأرواح، بغض النظر عن الحوادث الطارئة، معتقدا أنه من الخطأ طلب المزيد من الجيوش[56].

لكن الأخطاء كانت هناك، منها ما يتعلق بعدم إدراك -أو عدم التنبه- لمؤشرات الخطر التي كانت تلوح على مقربة من مدينة تطوان، وبالضبط عند مرتفعات بني صالح التي تبعد بكيلومترين عن المدينة. فبمنظار جيد، كان بالإمكان تمييز جثث ثلاثة وثلاثين رجلا، أربعة منهم إسبان (ثلاثة ضباط ونقيب)، وتسعة وعشرين من المورو النظاميين، اثنان منهم

ضباط. لقد لقي الكل حتفه على يد إسبانيا، ولم يبق منهم سوى هياكلهم العظمية، التي لبثت بالمكان منذ الخامس من ابريل إلى ان عثر عليها رجال الريسوني في هجوم آخر[57].

وقد بقيت جثث بني صالح بأماكنها حتى يناير 1920، إلى حين خروج واحد من العسكريين الكبار، وهو الملازم العقيد كاسترو خيرونا Castro Girona، مع رجاله من مدينة تطوان. وفي تقدم سريع، وصل إلى ذلك المُرتفع الذي انشأ فيه حصنا خشبيا دون إطلاق اي عيار ناري، فبنى قبورا لتلك الأشلاء التي أصبحت مع عامل الزمن ونبش الصقور، في حالة يصعب معها تحديد هوية الموتى[58].

وتقدم سيلفستري إلى داخل الروضة، وهو ما فعله كاسترو خيرونا في بني صالح بعد شهور. وكانت زيارة سيلفستري في غشت 1919، مهمة للرفع من معنويات الجيش. وفي الثامن من اكتوبر، صعد في حزم إلى كدية الروضة، ومن هناك أصدر أوامره بتفكيك المعسكر، وكذلك بدفن كل الجثث العارية الجاثمة هناك في ساحة المعركة منذ شهر يوليوز[59]. كانت كل الأجساد مشوهة، ثمانية وعشرون منها محروقة، وكثيرون هم الذين عُذبوا قبل وفاتهم، كان هذا إنذار بأبران.

وبسبب ما اصطلح عليه بأحداث الروضة، عاشت إسبانيا أياما معدودة من التيه. وبعد فتور الغضب الشعبي، عاد الروتين وعادت معه السياسة والجيش مشلولين دون حركة.

وإذا ما نحينا جانبا أحد البرلمانيين، الذي كان قائدا في هيئة الأركان الحربية، كانت كل الأصوات تدوي عاليا داخل قبة البرلمان في التاسع عشر من غشت 1919، وتحذر من وقوع كارثة بالمغرب. لذا، يجب فتح تحقيق لمعرفة من المسؤول، لأنه إذا ما حلت الكارثة فإن كل اللوم سيقع حتما على الجيش، الذي يفتقد لكل المقومات اللازمة للعمل هناك. فإذن، انتم يا رجال الحكومة، يا أيها المسؤولون الحقيقيون عن السياسة المغربية، ما تفعلونه هو اللامبالاة، وإلقاء كل المسؤولية على عاتق رجال يرتدون الزي العسكري. وفي أيام مضت، وجه البرلماني نفسه انتقادات جاء فيها: «هذا هو المشهد الذي يعطيه البرلمان بانشغاله بأمور صغيرة، متناسيا الأمور المهمة للحياة الوطنية»، فإذا كان هذا الموقف يولد عند الكثيرين "الاشمئزاز" فهو عنده يولد "الاحتقار" الذي يفرز هيجانا وفورانا متواصلا[60]. كان هذا البرلماني يُدعى خواكين فانجول غوني Joaquín Fanjul Goñi، من فيتوريا، وكان عمره يناهز التاسعة والثلاثين ربيعا. أما كتابه الذي اهتم بإجراء حسابات حول الشؤون المغربية، فلم يفتح ولم تقرأ صفحاته أبدا داخل البرلمان.

هوامش الفصل الثاني

1) نعني بحديثنا بلدة "كاني" وهي مقاطعة تبعد بـ 795 كلم عن سنتياغو Santiago وهو المكان الذي شهد ملاحم وبطولات فارا دي ريي واتباعه يوم الواحد من يوليوز 1898 إزاء التقسيم الأمريكي لـ لاوطون Lawton. كما نعرف "كاني" اخرى باسم "ديل ستيو" وهناك "سان لويس دي اورينطي" و"سان لويس دي كاني" الشيء الذي يصعب معه تحديد مكان وفاة سيلفستري بدقة.

2) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، العدد ف-1025، في بعض الوثائق المدرجة داخل ملفه، يظهر اسم والد سيلفستري كـ "بانتيغا" Pantiga عوض اسم "فرنانديث" الأكثر شيوعا.

3) المصدر نفسه والصفحة مفسها. وقد اكد ذلك مانويل ماريانو إسبينو بريطو Manuel Mariano Espino Prieto، قس دير سان لويس دي كاني، حيث اكد أن المتعاقدين "اقروا بذنوبهم، واعترفوا وتم التعامل معهم على أساس انهم من الديانة المسيحية" فتم ضم اسمهم "إلى كتاب الزواج" كانت إلوطريا Eleuteria تنحدر من نفس المكان، "كاني" الذي كانت تنحدر منه أمها، السيدة فرانثيسكا، في حين كان والدها السيد خوان سيلفستري من "باغور" Bagur (بخيرونا)، انظر إلى نسخة من عقد الازدياد لوالدي مانويل فرنانديس سيلفستري، فيكتور وإلوطريا الموقعة في سانتياغو دي كوبا يوم الثاني من يونيو 1887، والتي تم تجديدها يوم الثاني من غشت 1889 من لدن الموثق سغوندو الونصو ثيان Segundo Alonso Cillan وإولوخيو باربرو كينطرو Elogio Barbero Quintero، وقد تمت مطالبة فيكتور فرنانديث، والد سيلفستري بهذه الوثيقة العدلية -التي وضع خاتمه عليها- ليسجل نجله في الأكاديمية العسكرية بطليطلة.

4) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

5) باين ستانلي. خ. Payne stanely G: القوات *العسكرية والسياسية في إسبانيا الحديثة* ترجمة خوان طوماس سالاس Juan Tomas Salas مطبعة ساربي، مدريد 1986، صفحة 85.

6) دار النشر "لارثون إيس نويسترا" طبعة يوم الجمعة 2 دجنبر 1897.

7) الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية، العدد ف-1.205 المستشفى العسكري، 18 يونيو 1897. بعد ثمانية ايام من عودة سيلفستري.

8) الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية، العدد ف-205.1، كانت حصيلة الجروح، بالإضافة إلى عدد ثقوب القذائف تصل إلى 21. اما العدد 22 فكان يرمز لتلك العلامة المحفورة في جبينه من جراء عيار ناري، والتي لازمته طول حياته.

9) المصدر نفسه والصفحة نفسها، حينما يتم الحديث عن الجروح التي أصابت سيلفستري خلال الحرب، فإن غالبية الكتاب يتحدثون عن "ستة عشر جرحا".

10) الأرشيف العسكري العام. العدد ف-1.025، نفس الجائزة التي تقدر قيمتها بالفي بسيطة احرز عليها القبطان لاثرو Lázaro عام 1920 لدروسه بالعربية.

11) غارسيا فرنانديث، خيرونيمو *"الأكاديميات الأولى للعربية بسبتة ومليلية"* مجلة الجيش صفحة 19.

12) محادثات مع خوان ديث وخوصي ماركيث لوبيث بشأن جمعية الدراسات بمليلية، في يونيو 1997.

13) *تلغراف الريف*، يوم الأحد 20 يناير 1907.

14) أهم مؤلف كتب بهذا الصدد هو للكاتب إيندي سلاسار، خوصي مانويل والمعنون بـ"*الديبلوماسية الإسبانية والمغرب 1907-1909*"، المكتبة الديبلوماسية الإسبانية. مدريد 1990. صفحات 136-138، انظر كذلك في كتاب لمورالس لسانكو فيكتور، *الاستعمار الإسباني-الفرنسي بالمغرب (1927-1989) القرن الواحد والعشرين*. مدريد 1976 الصفحات، 72-78.

15) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية العدد 1، الملف رقم ف-1.025.

16) بلانكو إساغا، المصدر نفسه، ص. 264.

17) بيكر غونثاليث، خيرونيمو، *تاريخ المغرب*، المؤسسة الطوبغرافية لجيمس راطيس، مدريد 1915، ص. 505.

18) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. الملف رقم ف-1025.

19) جوليان، شارل أندري، *المغرب إبزاء الإمبريالية*، دار النشر خ.أ باريس 1978. الصفحات، 73-75. لم تشارك إسبانيا في تلك المجازر، إذ أن القبطان آلفارو دي بثان الذي كان على رأس المدفعية، والذي أرسله ماورا للميناء المغربي لم يشارك في هذه العملية الحقيرة، رقم إرساله فيلقا من البحرية للدفاع عن القنصل الإسباني. وفيما بعد أبحر الكمندان "فوستينو سانطا اولايا على رأس 420 رجلا وذلك للقيام بمهام المحافظة على الأمن، مأخوذ عن مؤلف إيندي سلاسار. نفس المصدر صفحة 66-69.

20) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة رقم ف-1025.

21) مذكرة جلسات مجلس الشيوخ، دورة 25 أكتوبر 1913.

22) سنوات أخرى محتملة لتاريخ الازدياد هي 1868-1871.

23) عياش جرمان، نفس المصدر السالف، ص. 259.

24) *تاريخ الحملات العسكرية بالمغرب*، المصلحة التاريخية العسكرية. مدريد 1951، الجزء II، ص. 658.

25) غارسيا فيغيراس، طوماس وإرنانديث دي غريرا كارلوس، *عمليات التدخل الإسباني في المغرب (1492-1927)*، مطبعة البلدية، مدريد 1929، الصفحات، 118-119.

26) جاء هذا في بيان غير رسمي تسرب إلى صحافة باريس وليس كما أشيع على أنها تنديد للدولة.

27) **صحيفة لاليبرطاد**، نشرة 25 يونيو 1911.

28) لوبس ريندا، رفائيل، *الريسوني. من سيلفستري إلى بورغوطي*، الشركة العامة للمكتبات، مدريد، 1923. ص. 65.

29) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

30) حول هذه الأحداث، انظر *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب*، نفس المصدر، الجزء II، الصفحات، 662-664.

31) جوليان، شارل أندري، نفس المصدر، ص. 87.

32) الأرشيف العام للقصر الملكي، الخزانة 5/28.

33) لوبس ريندا، في *مواجهة الفشل*... الصفحات، 85-108.

34) غارسيا فيغيراس، طوماس، *بيوغرافية الجنرال فرنانديث سيلفستري وما انجزه في منطقة العرائش*، مطبعة الجيوش الاستعمارية سبتة 1929. صفحة 16. ولنفس الكاتب مؤلف، من *الأسطورة إلى التاريخ، الكولونيل سيلفستري ومعتقل الشريف الريسوني باصيلا* -وهو عمل نشر سنة 1947 بصحيفة *الإسبنيول*- بعدها نشر في دراسات تاريخية مختارة حول المغرب، دار النشر المغربية، العرائش. 1949، الصفحات، 424-429. طسينر وطوماسين كارلوس فيديريكو، *الريسوني، حليف وعدو إسبانيا*، الكزاره، مالقة 1998. ص. 118.

35) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، قسم "المشاهير"، ملف ب-6.

36) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، الملف 344/14.
37) أرشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، خزانة رومانونيس، الملف 17.
38) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
39) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
40) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا. المجموعة 351/6.
41) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة ر 3328.
42) لويس ريندا. نفس المصدر، ص. 154.
43) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة ر 3328.
44) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة فيليب رودس بالدريش Felipe Rodés y Baldrich في دورة الاربعاء 17 نونبر 1915، ص. 251.
45) المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، الدفتر 6.
46) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
47) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. مجموعة ف-1.025 وب-6 .
48) محادثات مع حفيدات الجنرال أيثبورو، امبارو، بيلار وصوفيا بمنزلهما في مدريد. مايو 1997.
49) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة الجمعة 4 نونبر 1921، صفحة 3973 آنذاك كان غونثاليث أنطوريا وزير الدولة في حكومة ماورا الذي عوض أيندي سلاسار.
50) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث. في مايو 1997. وما تزال الشكوك قائمة حول ما إذا كان رومانونيس أو ماورا الذي لم يتأخر كثيرا في تشكيل حكومته الرابعة هو من تقدم بالاقتراح إلى الجنرال.
51) المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" الدفتر 3.
52) صحيفة *الصول*، نشرة الأربعاء 16 يونيو 1919.
53) *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب*. الجزء الثالث، ص. 45.
55) القرار الملكي الصادر يوم 25 غشت 1919، في فقراته المخصصة لـ "الحملات العسكرية"، "الشؤون والسلطات المحلية" و"القروض".
56) صحيفة *الصول*، في عددها الصادر يوم 19 يوليوز 1919.
57) *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث، ص. 21.
58) غوميث إدالغو، فرانثيسكو، *التراجيديا المتوقعة*، مطبعة خوان بويو Juan Pueyo، مدريد 1921. الصفحات: 126-128.
59) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة، ف-1025.
60) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة 9 غشت 1919، الصفحتان: 954-955.

◆ ◆ ◆

الفصل الثالث:
طريق أنوال

الجيش والمال والمغرب،
كلها معضلات ذات أمد بعيد

كان الجيش الذي ورثه الملك الفونصو الثالث عشر سنة 1902، كتيبة هزيلة رغم عددها الكبير. ففي بيانات الأقدمية للموظفين لسنة 1900، كان يوجد خمسمائة وتسعة وعشرون جنرالا (مائتان وثلاثة منهم في الاحتياط)، وليس بأقل من ثلاثة وعشرين ألفا وسبعمائة وسبعة وستين ضابطا (منهم سبعة آلاف وتسعمائة وعشرة في الاحتياط)، وكانوا يراسون الجيش على مختلف درجاته. علاوة على وجود جنود مكونين من مائة وعشرة آلاف وتسعمائة وستة وعشرين رجلا. وهو ما معناه، انه على راس كل أربعة عساكر كان يوجد ضابط واحد[1] وما يماثله هو وجود جنرال واحد على راس كل مائتين واربع وثلاثين فرقة عسكرية.

من الممكن إيجاد ستة جنرالات على راس كل فرقة عسكرية، وتلك كانت حماقة كبيرة، فهذا يعني، انه من المحتمل ان يُسير الكولونيلات طوابير الجيش. وقد يراس القبطانات الفصائل العسكرية، كما ان الملازمين كانوا اقل عددا ممن لهم درجة نقيب. والخلاصة أن هذا الجيش، كان جيش ضباط لا جيش عساكر ميدان. وكانت التمارين والتداريب العسكرية غائبة تماما.

وفي السنة الأولى لمأساة الكوروكو (1909)، كان عدد الجنرالات التابعين للجيوش الإسبانية يُضاعف كثيرا عدد الجنرالات في الصفوف الإنجليزية، والعدد هو ستون من

الإسبان مقابل اربعة وثلاثين من الإنجليز. وبموازاة مع ذلك، سجلت إسبانيا انخفاضا ملحوظا في عدد الجنود المتواجدين في نقطة الهجوم، إذ لم يتجاوز عدد الجيوش مائة واحد عشر الفا واربعمائة وخمسة وثلاثين (111.435)، مقابل ثلاثمائة واربعة وسبعين (374.000) من العناصر البريطانية، لكن التساوي سُجل في عدد البريغاديرات (مائة وعشرون من الإسبان مقابل مائة وتسعة عشر (119) من الإنجليز). كما ان إسبانيا تجاوزت بريطانيا تجاوزا كبيرا فيما يخص عدد الكولونيلات وتلينتي كولونيل، والأرقام هي: اربعمائة وتسعة عشر (419) وثمانمائة وسبعة وخمسون (857) مقابل ثلاثمائة وسبعة وسبعون(377) واربعمائة واربعون(440) من الإنجليز. وكانت تلك الجيوش الإسبانية تتوفر على ثلاثين عنصرا من التنينتي جنرال -لا احد منهم قاتل في المغرب سنة 1909- في حين كان عدد تلينتي جنرال عند فرنسا والبرتغال، لا يتجاوز الثلاثة، وعند إيطاليا كان العدد هو خمسة. اما بريطانيا العظمى فكانت حصتها هي عشرون من تلينتي جنرال[2].

هذا وقد تم تدارك خطأ الإعفاء من الجندية -الذي كان يتم بطريقة عشوائية عبر دفع المال- وذلك بسن قانون التجنيد لعام 1912، على يد الجنرال لوكي Luque. بيد أن هذا الإصلاح لم يكن في جوهره إلا وَهما، إذ كان ينص على إمكانية التخلص من مدة التجنيد المتبقية (واحد وثلاثين شهرا)، وذلك بعد قضاء الأشهر الخمسة الأولى (وهي المدة التي من المفروض اجتيازها للتدريب). كان الإعفاء كذلك يجري بدفع اثني عشر الف بسيطة، تُسلم مع تقرير مسبق يُعده الضباط عن صاحب الطلب[3]. وقد انتهى هذا النظام بإفراز سلسلة من التعسفات، التي لا يمكن وصفها. ناهيك عن المخلفات والخدع المتعددة الأوصاف والألوان.

إذا كانت النسب في المانيا وإيطاليا تُحسب على النحو التالي: ضابط واحد على راس كل عشرين جنديا -وهو معدل يرتفع إلى ضابط واحد على راس ثلاثة وعشرين جنديا في حالة الجيش الفرنسي- فإن الحال مع إسبانيا يبقى غامضا، إذ إن العدد هو ضابط واحد لكل اربعة جنود. وهو معدل تغير بعد احداث انوال، محققا نسبا معقولة تلخصت في هذا الترتيب: ضابط واحد على راس كل سبعة عشر جنديا.

وكان من نتائج هذه السياسة الارتجالية، ان ضاعت تقريبا نصف ميزانية الدولة في المدة المتراوحة ما بين 1900-1906، في عملية صرف الأجور، التي حالت دون اي إصلاح جدي للجانب المادي، وعكس ذلك وقع مع إيطاليا، التي كانت تصرف فقط سدس

ميزانياتها على أجور الجيش، بينما يرتفع العدد مع فرنسا، التي كانت تخصص سُبع ميزانياتها لذلك الغرض، في الوقت الذي كانت ألمانيا تفوقهم في حصصها. وبعد كارثة ما وراء البحار، خرج للوجود جيش هزيل، قوامه ضباط كثيرون، كانوا دائما في صراع مع القدر. كان هذا الجيش يرتدي أزياء رسمية، لكنه كان لا يعرف وجهته ولا حتى مطالبه. كان عبارة عن ميليشيا تعتز بكرامتها، لكنها كانت محبطة وفقيرة. ميليشيا اتُهمت بكل هزيمة، في حين أن هذه الهزيمة كانت من صنيع سياسة الدولة الفاشلة.

هذا وقد استطاع بسطيرو Besteiro، أن يُحلل هذه الأزمة وتداعياتها عام 1921، بعد العودة من وراء البحار إذ قال: «لقد شن رواد التيار المحافظ حملة على الجيش، فكسروا دعائمه لكي لا يزرع بذور الثورة في البلاد. وبانهياره، جاء الوطنيون الغيورون على الهوية الإسبانية، فصنعوا جيشا آخر. وبطرحه للسؤال، هل سيكون هذا الجيش "وطنيا"، أوضح البرلماني الاشتراكي قائلا: «كلا، بل ستكون هيئة كبيرة من الضباط لا فائدة منها، وهكذا شرعت الأكاديميات العسكرية في تكوين أطر، لا أحد يعرف ما الفائدة منها»[4].

وسنة 1895، وهو تاريخ كانت تواجه فيه كوبا آخر ثوراتها، كانت إسبانيا تتوفر على خمسمائة واثنين وستين جنرالا (مائتين وواحد وخمسين منهم في الاحتياط)، إلى جانب ألف وسبعمائة وتسعة وستين كولونيلا وتلينتي كولونيل. وعام أنوال 1921، ارتفع عدد الجنرالات وتلينتي جنرال ليصل إلى ألفين وستمائة وستة وخمسين، أي بنسبة تفوق 50٪ عما كانت عليه سنة 1895. لكن الجنرالات وصل عددهم إلى ثمانمائة واثنين وثلاثين، وهو معدل يقدر بأزيد من 48٪. وكان جيش الاحتياط من الجنرالات يثير الاشمئزاز، إذ ارتفع عددهم في غضون ستة وعشرين سنة، من مائتين وواحد وخمسين إلى ستمائة وواحد وستين، أي بنسبة 163٪.

وظهرت سنة 1918، إرادة جديدة للحد من هذه الاختلالات، وذلك بوضع مشروع يهدف إلى تقليص هذه النسب بمعدل 25٪ من المناصب الشاغرة. بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وانتهت بمهزلة. وقد أوضح البرلماني المستقل السيد أوغسطو برثيا طرييس Augusto Barcía y trelles، داخل البرلمان، وهو يلوّح بأرقام رسمية، أنه إذا كانت رخص توقف عن العمل بالنسبة لسبعمائة وواحد وخمسين كولونيلا في الفترة الممتدة ما بين يناير 1918 ويوليوز 1922، فإن عدد من استأنف العمل هو سبعمائة وسبعة وثلاثين. وبالتالي، لم تتم الاستفادة سوى من أربعة عشر منصبا. وتلك نسبة

بعيدة عن رقم مائة وتسعين منصبا التي كانت متوقعة. والأسوء من ذلك، ما حصل في صفوف تلينتي كولونيل، إذ سجلت حالات التوقف عن العمل نسبا تصل إلى الف وأربعمائة وواحدة وأربعين. وحالات الالتحاق بالعمل، سجلت نسبة الف وستمائة وأربعين، وهذه زيادة بقيمة مائة وتسعة وتسعين منصبا. في خضم هذا النظام الجديد[5]، ذكر هذا برثيا ساخطا. وفي حالة الكومندانات، سُجلت الفين ومائة وثلاثة حالة انقطاع عن العمل، تحولت بعدها إلى الفين وأربعمائة وست عشرة حالة التحاق بالعمل.

وفي سنوات مضت، أعد كامبو Cambó، تقريرا يكشف فيه عن أزمة الجيش. ففي حوار جمعه سنة 1919، مع السيد لاثيربا La Cierva، الذي كان وزيرا للمالية في حكومة ماورا الرابعة. ذكر انه، «إذا كانت أجور الكولونيلات وقواد الجيش، غير كافية في إسبانيا، فالمشكلة لن تُحل بترقية الكولونيل إلى الجنرال، ولا قائد الجيش إلى تلينتي كولونيل، الحل هو الزيادة في الأجور، مع محافظة كل إطار على درجته»[6] فتمت المصادقة على الأقوال التي لم تطبق قط.

كان المال متوفرا، لكن استخدامه كان سيئا. فإذا كانت ميزانية وزارة الدفاع قد ارتفعت لمائتين وثمانية عشر مليون بسيطة سنة 1909، فإنها سنة 1915، ارتفعت ارتفاعا ملحوظا لتصل إلى ثلاثمائة وأربعة وستين مليون بسيطة، وسنة 1918، كان الرقم قد سجل ارتفاعا كبيرا، أربعمائة وتسعة وعشرين مليونا -كان لإسبانيا بصفتها إمبراطورية استعمارية، ثلاثمائة وسبعة عشر مليونا، والميزانية التي خصصتها للمغرب، وصلت إلى مائة واثني عشر مليونا-[7] واستقر المبلغ ما بين 1920-1921، عند ستمائة وسبعة وعشرين مليون بسيطة، بصفتها إمبراطوية استعمارية، أربعمائة وثمانين مليونا، وللمغرب مائة وسبعة وأربعين مليونا[8]. الأمر الذي أثار الاستغراب والتعجب، فالحرب كانت في المغرب لا في إسبانيا، في حين كانت نسبة 76,55٪ من ميزانية الجيش تصرف في إسبانيا، ناهيك عن مصاريف وزارة البحرية التي لم تكن باليسيرة (الفين ومائتين واثنين وثمانين مليونا ما بين 1908 و1921)[9].

ومع وفاة سيلفستري وجنوده كافة، تغيرت الأوضاع. ففي ميزانية 1921-1922 ارتفعت مصاريف وزارة الدفاع إلى 1036 مليونا، خصصت خمسمائة وأربعة وثلاثين منها لإسبانيا، وخمسمائة واثنين للمغرب[10]. اما عن عجز الميزانية الإسبانية، فالرقم حقق نسبة 1410 مليون. وقد كانت ميزانية سنة 1909، تقدر بخمسة وثلاثين مليونا. ففي ظرف اثنتي عشرة سنة تضاعف هذا العدد أربعين مرة.

كل هذه الخروقات في ميزانية الدولة والنظام العسكري، لم تزد الوضع إلا تأزما. لكن وبحلول 1918، أُصدر قانون يقضي بإعداد جيش مكون من ست عشرة فرقة قال بريمو دي ريفرا بشأنها: «اثنتا عشر فرقة كافية لسد حاجات بلادنا»[11]. ولم تكن في إسبانيا برمتها فرقة عسكرية واحدة، حينما طالب بها سيلفستري في ذلك المساء المشؤوم للواحد والعشرين من يوليوز 1921. ولا فرقة واحدة مكتملة وجاهزة، فرقة كان عليها أن تكون مستعدة للإبحار من الموانئ الجنوبية لشبه الجزيرة في اتجاه مليلية لتصل إلى مكانها في غضون اثنتي عشرة ساعة، كما ذكر بذلك البرلماني بريطو Préito، داخل البرلمان[12]. لكن هذه الفرقة لم تخرج إلى الوجود قط، ولا حتى فصيلة منها. ونتيجة لذلك، مات سيلفستري ومن معه.

ومنذ سنة 1913، وبعد تثبيت نظام الحماية، وإلى حدود سنة 1921، ارتفعت وتيرة مصاريف وزارة الدفاع إلى الفين وثلاثمائة وخمسة وثلاثين مليونا. وإذا ما أضفنا إلى هذه القيمة، ثمانمائة وواحد وتسعين مليونا، التي أُنفقت في المغرب في الفترة نفسها، يصبح العدد ثلاثة آلاف ومائتين وواحدا وأربعين مليونا. بالإضافة إلى الف وثمانمائة وسبعة وتسعين مليونا المستثمرة في البحرية في نفس السنة (1913). إذن فالمجموع يصل إلى خمسة آلاف ومائة وواحد وأربعين مليون بسيطة، وهو رقم خيالي[13].

وقد حدثت خروقات أخرى، فبمقتضى قانون 1918، كان الحرس المسلح، الذي كان في معظمه يتألف من ضباط الصف، يتقاضى راتبا سنويا مقداره الفا بسيطة. لكنه وفي السابع عشر من أكتوبر 1919، وبمقتضى مرسوم ملكي، أصبح يتقاضى رواتب من فئة ستة آلاف بسيطة. وتسمح له بالترقية إلى رتبة قائد، بيد أنهم اكتفوا بدرجة نائب[14]. في حين أن نواب الجيش، الذين كانت أجورهم السنوية لا تزيد عن ألف وخمسمائة بسيطة سنويا، أصبحوا يتقاضون بعدها بسنوات، الفين ومائتين وإحدى وأربعين بسيطة[15]. والحصيلة كانت مرتفعة بنسبة 200٪، لفائدة الحرس الملكي، و49,40٪ لفائدة ضباط الصف.

كان الظلم والتعسف بمثابة معول انهال على معنويات الجند، فإذا كانت نسبة الهاربين من الجندية قد وصلت إلى 4,62٪، في خضم الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فإن هذه النسبة ارتفعت إلى أرقام هائلة: 22,09٪[16].

أصبحت إسبانيا بلا جيش، وهي في غفلة من أمرها. فمفهوم الجيش لم يعد يخطر على بال الميليشيات، ولا على بال السلطة كذلك. كما ان الحكومة، وإلى جانبها الأطر العليا في الجيش، نسيت أهم التدابير في الأمور العسكرية: كتكوين الجيش تكوينا جيدا، ومعاملته معاملة تليق به، وتسليمه أجود العتاد الحربي، وتعيين كفاءات عليا بعد عمليات انتقاء صارمة. لكن التدابير الثلاثة لم تكن حاضرة. ونتيجة لذلك، تفككت أواصر الجيش وحلّ شبح الفوضى.

الملكية والجيش، رهائن الغزو

شكلت الأراضي المغربية عند إسبانيا التي كانت بلدا منهوكا عسكريا عند مستهل القرن، بديلا ساعد الجند على إرضاء ضميرهم أمام التاريخ. فالكفاح المسلح في المغرب ضد أراضيه ومناخه ورجاله، جاء ليرد الاعتبار للنفس، بعد الهزيمة النكراء أمام الولايات المتحدة. هذه الهزيمة التي لاحقت الذاكرة الجماعية. وباتت تؤرقها كثيرا. فمعظم الضباط الذين تم تعيينهم في إفريقيا، كانوا مقاتلين في كوبا والفلبين، فحانت الفرصة لمحو العار بالقتال، أمام عدو شرس. وهكذا وقع الاختيار على المغرب بصفته أفضل مجال، يمكنه أن يستجيب لكل هذه التحديات: مجال أسطوري -نزلت ذكرى موقعة (1859-60) بثقلها الكبير- يلائم هذا الحماس نحو شؤون إفريقيا، وفضاء شجع الكثير على التفكير في التبشير، فاستهل نظام الحماية مشروعه مشهرا أهدافه، وكأنه غزو نبيل له شعاراته، كالدفاع عن الوحدة الترابية لإسبانيا، انطلاقا من السواحل الإفريقية الغنية بالخيرات الباطنية، والأراضي الخصبة. وتلك كانت خدعة كبيرة، شعار آخر ركز اهتمامه على إنقاذ الأرواح من الظلال، وتلقين حضارة أوروبية ومسيحية لأناس أميين ودون المستوى. ونفس الأفكار تبناها الفرنسيون في عهد بوانكاريي Poincaré. نقطة الاختلاف، كانت أنهم أخذوا معهم أجود ما عندهم من الجنرالات.

وهكذا أصبح عبور مضيق جبل طارق عنوان الغزو، فوضع الآلاف من العسكريين، ومئات العائلات من المعمرين، ثقتهم في سياسة غير مسؤولة -روادها رومانونيس وداتو-، خرجت للوجود بعد إنهاء اتفاقيات الحماية، التي تمت في نونبر 1912، والتي بمقتضاها فُرضت التبعية للقوى الفرنسية-البريطانية. لكن الإسبان كانوا هم الوحيدين الذين غامروا ليس فقط بمجهوداتهم في المجال الاجتماعي، بل حتى بحياة جنودهم وسياستهم الداخلية ووحدة النظام الملكي.

كان الجندي الإسباني رجل المستحيلات، وبهذه الروح الجريئة والعنيدة المشابهة لروح كورطيس وبيثارو Cortés y Pizarro، دخل عالم المغامرات الإفريقية من بابه الواسع، فتحول الريف وجبالة بالنسبة إليه إلى ساحات المبارزة.

تحمل الفونصو الثالث عشر بصفته ممثلا للملكية مسؤولية استعمار المغرب، لكن التناقضات كانت حاضرة بثقلها فإذا ما توفرت الإمكانيات الاقتصادية غاب المسيرون، وبالتالي لم تكن النتائج مقنعة ولم تكن بوادر الأمل موجودة، وقد تحدث كامبو Cambó عن فكرة الاستعمار هاته داخل البرلمان فقال «أي مشروع المغرب هذا الذي تتحدثون عنه، إذا كانت كل المؤشرات تدل وبوضوح على أن إسبانيا تعوزها كل المقومات لتكون بلدا مستعمرا»[17]. فعهد الملك بحماية هذا المجهود الجبار للأمة، والجيش والنظام، وفي الحقيقة لم يكن للجيش وجود، ولم تكن الرغبة في إيجاد جيش يخلص لمهامه، فبقيت سياسة الدولة مكتوفة الأيدي. ووُضعت البلاد برمتها على محك تجربة قاسية.

هذا وقد حذر فرانثيسك كامبو Francesc Cambó، في خطاب آخر ألقاه أمام البرلمان، من عواقب هذا التدخل قائلا: «يوما بعد يوم، أصبح بصيص الأمل في أن يكون تدخلنا في المغرب إيجابيا يتلاشى، خصوصا بعد التجربة المخجلة في استعمار مناطق ما وراء البحار. هذه التجربة أعطت لإسبانيا، التي ما يزال دمها ينزف بسبب نزاعات أبنائها، درسا ألّف بيننا وولّد عندنا شعورا جديدا بالوطنية...».

وفي الرابع من نونبر 1913، حذر كامبو من مغبة انتهاج نفس السياسة التي طبقت في كوبا، حيث قال: «إننا نستعد لكارثة مماثلة لتلك التي عشناها في ما وراء البحار، ولنا معها موعد عند بوابة أوروبا. وهناك سنكشف للرأي العام العالمي عن العار، الذي جنيناه، عن عوراتنا، وعن كل مؤشرات انحطاطنا». وقد أشار هذا الزعيم للعائلة الملكية، بضرورة اتخاذ تدابير حاسمة قائلا: «من الواجب أن نضع حدا لمسألة المغرب وبعُجالة، وذلك بتدخل الملكية. فالمغرب قد يكون فصلا أسود في مستقبل إسبانيا».

وكأنه كان يتوقع ترقية الفونصو الثالث عشر، إلى الدرجات العليا. وفي تدخله لفائدة أسرى الحرب لسنة 1914 /1918، أضاف كامبو ما يلي: «تذكّروا جيدا أيها المهتمون بالتاريخ، أن اللحظات الأكثر شعبية عند الأمراء، تكون في غالب الأحيان إنذارا بتغيير الأنظمة»[18]. وهكذا، وفي غضون سنتين، تلقى نظام الفونصو الشديد الحياد، تشريفات

عالمية[19]. لكن وبعد ثمان سنوات، حلّت أنوال، وبعدها بعشر سنوات، تم الإعلان عن الجمهورية الثانية. ولا أحد كان بجوار الملك الشهم، حتى الجيش.

طرق متعددة لإعلان الحرب واحتلال الريف

بعد العروض العسكرية الهائلة التي قام بها سيلفستري إلى جانب مرينا سنة 1808، بمناسبة اختتام وانتهاء الاحتلال الإسباني بمنطقة ريستينغا زمن الروكي. لم يكن يعلم انه يدشن طريقة جديدة في الاحتلال، تتلخص في التفاوض مع الأعيان الريفيين بواسطة المال، على أساس تكوين حلف عسكري مشترك يقضي، بانسحاب الريفيين فور تقدم قوات الاحتلال الإسبانية. وهذا ما اقترحه كل من خوردانا وايثبورو على عائلة عبد الكريم.

وهكذا، ظل موضوع احتلال المغرب مختزلا في أمرين، فإما احتلال البلاد بموت العباد، وإما الاحتلال دون إراقة دماء. فكان الاختيار الثاني، وهذه فصول اجراته، كان الضابط الإسباني يبعث ببرقية إلى زعيم القبيلة المستهدفة، موضحا له أن إسبانيا ستدفع له مبلغا يقدر بنحو خمسمائة بسيطة إذا ما أعرب عن استعداده لمساعدة إسبانيا. وتقديم يد العون لها. فكان من واجب زعيم القبيلة، الذي أسال المال لعابه، أن يشرع في تكوين حشد من الأتباع، ويدفع لهم مرتبا يوميا يصل إلى بسيطتين. وبهذا تشكلت حركة هزلية، ليس لها من الاسم سوى معنى فلكوري. وقد لخص بيتا Pita، كل هذه الأمور فقال، «على إسبانيا أن لا تنسى أن أي عملية توغل داخل التراب الإفريقي، تتوقف على أمور ثلاثة، الدين والسياسة والمال. فهذا أفضل من السلاح، وإن كان أحيانا لابد من استعمال المال والقوة إذا اقتضت الضرورة ذلك»[20].

وفيما بعد، كان زعيم القبيلة يتلقى من الضابط إشعارا آخرا، يحثّه فيه على ضرورة إقامة مركز إسباني داخل أراضيه، وينبّهه إلى أنه قد حان الوقت لخدمة إسبانيا. وكانت الخدمة تتلخص في الاستيلاء على المركز الواقع على الخط الذي ستزحف بمحاذاته القوات الإسبانية. فإذا ما وصلت هذه الأخيرة إلى هناك، كان على القائد المرتشي أن يلعب لعبته، ويتظاهر وكأنه عدو لإسبانيا. فيدخل في تمثيلية الاشتباك والقتال. وبعد أن يصل إلى المكان المنشود، يترك حرية التصرف للقوات المحتلة»[21].

وبهذه الوسيلة، تراضى الطرفان فيما بينهما، فالإسبان حققوا انتصارات عسكرية باهرة، وتلقى الريفيون المال والفرحة تملأهم، كيف لا، وقد جنوا الكثير مقابل خدمة بسيطة. وعقب الرفاهية حلت الأزمات، فبعد أن اطلع الشيوخ على هذه اللعبة، خرجوا من اجتماعاتهم بفكرة إجبار زميلهم المرتشي على إشراكهم في العملية، وإعطائهم حقهم من الوزيعة، فشيخ القبيلة ونظرا لمكانته، كان لابد من مشاركته في الأحداث. وهكذا وفي العملية الموالية، وأثناء العرض العسكري للقوات الإسبانية، قام الزعيم الريفي بمعية الفرقة التي شكلها، والمال الذي أعطوه إياه بفتح النار فجاة، عوض شن غارة بسيطة ثم الانسحاب. وقد لخص رودريغيث بيغوري Rodríguez de Viguri هذه الوضعية فقال: «هذا ما كان يُعرف بالسياسة الأهلية الذكية»[22].

كان ايثبيطيا Azpeitia، شخصا على اطلاع بالأكاذيب الاستعمارية، وقد أعطى وجهة نظره وهذا نصها: «إن المورو يعرف حق المعرفة، أننا ننتفخ فخرا بالانتصارات التي نشتريها بالرشاوى، وأننا نعد أنفسنا منتصرين في حروب هي نتاج الرشوة»[23].

وعليه سنستدل بحادثة القائد خوان ريدوندو Juan Redondo، الذي كان يعمل بقسم الشرطة الأهلية. فهذا الجندي، عند وصوله إلى قبيلة بني بويحيى رفقة فيلقه العسكري، قطع أراضي أعرويت التي كانت تحت دائرة اختصاصه بكل شجاعة. فاندهش الـمير El Mir، الذي كان واحدا من أعيان المنطقة، لجراة هذا القائد فبعث له برقاص (رسول) يحمل معه تحديا شخصيا يدعوه للمواجهة. إنها المبارزة إذن ما بين الرؤساء. فكان أن تقررت نتيجة الحملة إثر الاشتباك -الفظيع- الذي جمع الشخصين، إذ قَبِل الإسباني هذا التحدي، فباغث عدوه بوصوله إلى المعسكر الريفي، فتقدم لوحده مجردا من السلاح، وتعجب قائد القبيلة لهذه الشجاعة التي لم يملك إزاءها سوى التعبير عن إعجابه قائلا: «لأجل هذا، ولأنك بطل شجاع، فإن كل قبيلتي هي منذ الآن ملك لإسبانيا، ولك فيها إن شئت الحكم». وقد قال الماركيس فالدري Marqués Valderrey، بشأن هذه الحادثة: «لقد حرك هذا الحادث مشاعري بطريقة هائلة»[24]. ومن المحتمل أن يكون ريدوندو، هو صاحب النهاية المفجعة في شفشاون (في العاشر من نونبر 1920)، بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة بقليل. وشيء مماثل لبطولة ريدوندو، قام به لاريا في معركة برانكو دي لوبو آنذاك سنة 1909. كان فرانثيسكو لاريا ليسو Francesco Larrea Liso، واحدا من

الكولونيلات الموجودين بإفريقيا، وقليل من كان يعرف أن هذا الجندي النفاري، الذي يبلغ من العمر اربعة وثلاثين سنة، والملتحي بلحية بيضاء، والحامل لنظارات يضعها دائما على ارنبة انفه، كان رجل إصلاح منذ نشاته، وصاحب مقالة حول التنظيم العسكري لإسبانيا سنة 1893، كشف فيها النقاب عن مواهبه. وسنة 1906، تعامل لاريا بسجيته الصارمة والصريحة، والحساسة والعنيدة، مع الروكي. وقد ساعده على ذلك، تمكنه من اللغة المحلية، ومعرفته بالعادات والتقاليد الريفية. كما كانت له القدرة على تحمل مهام اخرى انيطت به كالمحافظة على مليلية، عن طريق الهجوم المضاد على السواحل. وكُتب له النجاح حينما كلفه مارينا بعملية هجوم على القبيلة المتمردة "كبدانة". وفي الثالث من شتنبر، خرج "لاريا" يتعقب هدفه برفقة ثمانمائة رجل وحركة مساعده[25]. وكان سكان مليلية يشكون في عودتهم، وظنوا ان لاريا ورجاله مهزومون لا محالة.

وصل لاريا إلى كبدانة، وتفاوض مع شيوخ القبائل، فعمل على استمالتهم. لقد ادهشهم بطريقته الحسنة في التفاوض. وفي النهاية تمكن من إقناعهم بالتعاون مع إسبانيا. وهكذا، وفي غضون ستة أيام، حقق انتصارا باهرا وتمكن من إخضاع القبيلة.

وبتدابيره المتبصرة، عرف لاريا كيف يتغلب على مشكل آخر مخيف، كان يشبه الكوروكو، يتعلق الأمر بمرتفعات كبدانة، التي يصل طولها إلى الف وثمانمائة متر، وكذا الجهة المعنية بإجراء الاتصالات مع قوات الزحف الإسباني، التي كانت تبعد بمائة خندق وواحد. وسنة 1921، تحدث شاهد عيان، وهو الصحافي ليو بولدو روميو سانث Leo Poldo Romeo Sanz، الذي التحق بعدها بالبرلمان على يد بلشيطي Belchite، عن شجاعة ووضوح لاريا، وعن الأرض التي سيطر عليها قائلا: «إنها منطقة تحتاج فقط إلى اربعمائة رجل لشل حركة ثلاثين او اربعين الف نَفَرٍ. وانهى كلامه قائلا: «حسنا، لقد استسلمت كبدانة دون إطلاق عيار ناري واحد»[26].

وبعد هذه الإنجازات، تم تعيين لاريا -الذي كان سنة 1909 بريغادير، وسنة 1911 رئيس قسم، قائدا عاما بسبتة، فتقلد زمام الأمر في منصبه الجديد في الثامن من مايو 1914، وفي اليوم الموالي وافته المنية، فراح ضحية التهاب رئوي عنيف وغير مألوف. وبرحيله خسرت إسبانيا واحدا من افضل رجالاتها في إفريقيا، كان مثل مورالس.

أعرويت، نهب الأراضي وقتل ثلاثة آلاف من الأرواح

في يونيو 1914، استولى الإسبان على سهل غاريت Garet[27] المنهار، هناك، قامت الوكالة الاستعمارية التي كان -الماركس فالدري شريكا فيها- بشراء ثلاثين الف هكتار. كان الدافع هو استغلال الثروات المنجمية وتحويل المنطقة إلى ساحات صالحة للزراعة.

وشرع المعمرون في الوصول، كان غالبيتهم من أصل إسباني. قدموا من أورَانيسادُو Oranesado بنية الهرب من الجندية الفرنسية، وفرارا من الموت المحقق عند جبهات القتال، اثناء الحرب العالمية الأولى. لكن الملاكين الجدد للأراضي لم يمنحوهم الأرض المدعوة والهناء، وهو شيء متوقع من شركة تعتمد نشاطاتها على اقتناء الأراضي بأربع بسيطات لتعيد بيعها بعشرين، فغادر الكثيرون المنطقة، إذ إن الوكالة الاستعمارية عاملتهم بشح وابتزار، وجعلتهم يتنازلون عن اهدافهم، للعودة إلى الجزائر.[28] وهذا شيء يحفظ لهم ماء وجههم ويحفظ لهم حياتهم.

وهكذا أصبح الملاكون الحقيقيون لتلك الأراضي، وهم سكان بني بويحيى بلا ممتلكات، لأن آلاف الريالات التي قبل بها -شيوخهم- كطُعم للدخول في صفقة مشؤومة، لم تكن لتسمن او تغني من جوع. فتجسدت المعاناة، إذ لم يكن لهم الحق في العمل في حقولهم، ولم يعاملوا معاملة حسنة داخل المناجم، حيث الأفضلية للعمال الإسبان. كما ان الأجانب يمنعونهم من اخذ تلك البسيطات الثلاث او الأربع إلى منازلهم، والتي كانت تعني الفرق بين عيش كريم، او المعاناة من شظف عيش، كان يُترجم في حمل ما مقداره ثلاثون كيلو غراما من الحطب على الظهر، والسير به عشرين كيلومترا مشيا على الأقدام لبيعه في مليلية بريالين حسنيين.

كان الرجل الريفي يقدر تماما قيمة ما انتزع منه، سواء تعلق الأمر بكثير من الأراضي او قليل من المناجم ذات الثروات المبالغ فيها، فبالنسبة إليه تم نهب كل شيء. ولم يكن هذا الرجل حيوانا كما كان رائجا، او بهيمة للأثقال. وهذا امر ذكره روميو، الذي اعتبر أحداث يونيو 1922 سببا في الفاجعة[29]. انتُزعت الملكيات إذن، وانتشرت السرقة وعمَّ الجوع واليأس والكراهية والانتظار، وبقى سكان بني بويحيى بلا زاد ولا مشاريع ولا صواب. ضاع منهم كل شيء، فاللعنة على "غاريت". وهكذا، وبعد سنوات قام هؤلاء البدويون بقتل

المعمرين، واغتصاب نسائهم وحرق مزارعهم ومخازنهم، وتوحدوا في صفين وصوبوا ووجهوا بنادقهم تجاه مخرج المعسكر الذي استسلمت حاميته من جراء العطش، وتفشي الأوبئة واليأس، وذلك بعد تأخر ذويهم في المجيء لإنقاذهم، فبقوا تحت رحمة قوانين الحرب. وما دامت القوانين غير موجودة، فالعفو كذلك غير موجود. فأجهزوا عليهم كلهم، والحصيلة كانت الفين وخمسمائة وثمانية وتسعين قتيلا في خمسة عشر دقيقة. والتهمة هي السطو على أراض لم تكن من حقهم، ولم يتعرفوا أبدا على أصحابها. حدث هذا في جبل اعرويت يوم الثلاثاء، التاسع من غشت 1921.

وزير متميز: سعادة الدوق إيزا

وقع خبر وصول جيش سيلفستري إلى أنوال، باردا في أوساط مدريد، إذ لم يعر داتو Dato رئيس الحكومة للأمر اهتماما كبيرا.

كان إدواردو داتو إرادير Eduardo Dato Iradier، يخوض غمار السياسة عن قناعة وحاجة حيوية. كان محاميا بارزا، تخلى عن مناصرته لـ كانوفاس، قبل أن يلقى هذا الأخير مصرعه سنة 1897، وبمباركة سيلفيلا Silvela، ترقى إلى مناصب عديدة، إلى أن وصل إلى عمدة مدريد. وولج بعدها رئاسة البرلمان. اصطدم هناك مع ماورا، وذلك لأن هذا السياسي الميوركي كان أكثر ليبرالية من غيره، وكانت مواقفه الصارمة تجاه الحكومة مختلفة كثيرا. وبعد أن رفض ماورا أن يخلف رومانونيس في الحكم، استغل داتو الفرصة ليشكل حكومته الأولى، التي جاءت للمرة الثالثة، فتشكلت في الخامس من مايو 1920. كان ينوي الاستفادة لوقت أطول من هذه الثقة الكبيرة. كان داتو قصير القامة، متوقد الذهن، تنط على جبهته المشرقة خصلات شعر بيضاء، كما كان نحيفا ورشيقا، يحترمه الكل من داخل بلاط الملك. وكان كبار رجال الأعمال يطلبون مشورته دائما، وكانت الذكريات والغربة تجتذبه إلى مسقط رأسه لاكورونيا. وعن سن تناهز الخامسة والستين عاما، شعر بالراحة في مدريد وهو يحكم البلاد بنظام. كما أن المغرب لم يكن يشكل له أية مشكلة، خصوصا بعد أن أعرب وزير الدفاع عن استعداده للنظر في أي حالة مستعصية ومعقدة.

كان لويس مريشالار إي مونريال Luis de Marichalar y Monreal الفيكونت إيزا، عضوا غير عاد داخل وزارة الدفاع، ففي مكتبه ببويناييستا Buena Vista، والذي كان مقرا

اعتادت الهيئات العليا للجيش المرور به في صخب، كان يبدو بقبعاته الأنيقة، وازيائه المتقنة التفصيل، وابتسامته الخجولة، وحديثه اللطيف وكأنه رجل مرهف الحس، يتحمس للأمور العسكرية، كان أصله من مدريد وعمره تسعة وأربعين سنة، كما كان يعمل في مختلف القطاعات، وفي مختلف أجهزة الدولة، إذ كانت له دراية كبيرة بمختلف الوزارات بحكم المناصب التي شغلها سابقا. فمنذ 1899 إلى 1914، انتخب في "صوريا" داخل هيئة البرلمان، وبعدها دخل مجلس الشيوخ، كان ينتمي إلى أكاديمية العلوم النفسية والسياسية.

كان إيزا خبيرا بالأمور الاقتصادية والفلاحية، وحينما كان مديرا عاما للفلاحة في حكومة ماورا سنة (1907)، أو وزيرا للدعم في حكومة داتو أثناء ولايته الثانية سنة 1917. اعترف أنه يعمل في قطاعات تدخل تحت دائرة اختصاصاته. كانت البلاد قد أعلنت الحرب، وكان هو المؤتمن الوحيد، لأن من سبقوه، مونيوث كوبوس Muñoz Cobos وسنتياغو Santiago، وطوفار بيلبا Tovar Villalba، لم يكونوا موضع ثقة بالنسبة للرئيس. وقد سبق أن اختبره داتو أثناء المحنة العالمية فنال إعجابه، وكان الشعور متبادلا. كان إيزا مخلصا للملكية، ومخلصا لعمله. كما كان يتفاهم جيدا مع داتو، الذي احتفظ به ساعدا أيمن. فقط كانت تعوزه الخبرة في أمرين اثنين، كانا في غاية الخطورة بالنسبة لمنصبه، يجري الحديث هنا عن جهله بالمسائل الاستراتيجية، وأميته فيما يخص معدات السلاح العصرية. ومن خصاله، سَعْيه في استقطاب المتطوعين داخل الجيش، وهو أمر زاد من شعبيته بين الجنرالات.

هذا وقد عرف كيف يبرهن عن قدراته التحليلية، إزاء وضعية عسكرية معقدة، ارتبطت بتكوين جيش من الأجانب. فالمبادرة كانت من صديقه الوفي خوصي ميان أسطراي José Millán Astray، فتشكل بذلك جيش للدفاع، يتقاضى راتبه من الحكومة، وليس المعنى هنا، جيوش المرتزقة كما كان الحال مع رومانونيس سنة 1913. كان الجيش الأجنبي نسخة من جيش المتطوعين الفرنسي، الذي تشكل عقب ذهاب مؤسسه في جولة استطلاعية للجزائر، فتشكل وكان اللبنة الأساسية لجيش استعماري، تسعى إسبانيا لبنائه. جيش محترف في القتال، وله مردودية في السياسة. وهكذا، وبالأجر الجديد والمتمثل في سبعمائة بسيطة مكافأة لمن تطوع للجندية خمس سنوات أو ثلاثمائة بسيطة لمن تطوع مرة واحدة فقط، كان بالإمكان الموت في المغرب على حساب الدولة دون لوم

البرلمان. كانت نية إيزا تهدئة التوتر الاجتماعي الذي تأجج كثيرا بسبب العدد الكبير من ضحايا المغرب. الأمر الذي هيج المعارضة، واضعف روح التجنيد السنوي.

لقي مشروع تكوين الجيش انتقادات لاذعة، فحتى سيلفستري نفسه، كان من المعارضين. وهذا ما اوضحه لبرنكر في رسالة بعث بها إليه في السادس من فبراير 1921 قائلا: «لست من مؤيدي فكرة تكوين جيش من الأجانب، وتوزيعه في هذه الربوع، وذلك لأسباب عدة سوف اشرحها لك عند مجيئك»[30]. وحجة سيلفستري، هي أن رواتب هذا الجيش الجديد اغرت العديد من المحترفين في جيشه (الف وخمسمائة، والفي جندي طلبوا منصبا)، الشيء الذي يعني الانتقال إلى مسرح آخر للحرب. فالجيش الجديد كان في جبالة، وليس في الريف.

بغض النظر عن كل التقارير المضادة، أخذ إيزا الملف الذي كان بحوزة الوزارة، واتجه نحو مجلس الوزراء الذي كان يرأسه داتو. كان يعي ضرورة الإسراع بالمشروع، فالقانون الذي أصدر سنة 1918، رخص للتجنيد التطوعي سواء كان من قلب إسبانيا او من الأهليين. كان إيزا شديد التبصر في تصرفاته، لا تخونه الشجاعة ابدا خصوصا في المواقف المستجدة. وبعد مرور سنوات، استساغ الأفكار التي كانت تراوده سنة 1920، مواطنا مدنيا، لا يهمه ان يدفع الملايين الأربعة المخصصة لتداريب الجيش الأجنبي، إذ بإمكان هذه الملايين أن توفر اربعمائة مليون. وخصوصا، إذا كانت النتيجة هي فتح الطريق للحصول على جيش استعماري»[31].

لقد وصلت تكلفة إسبانيا في المغرب منذ 1913 إلى 1921، إلى الف وخمسة وعشرين مليون بسيطة، صُرفت في الأمور العسكرية، وفي دوريات 1921-22 /1922-23. صرفت ميزانية اخرى، مبلغها ثمانمائة وثمانية وستون مليونا. اما نفقات إسبانيا في منطقة الكاريبي، في الفترة المتراوحة ما بين 1895-1899، فقد وصلت إلى الفين ومائتين وتسعة وعشرين مليونا، وكانت مخصصة لشراء السلاح والعتاد، ولاستعمار المغرب. لقد خصصت اعتمادات مالية مشابهة لتلك التي صرفت في كوبا والفلبين وبورتوريكو[32].

فالامتناع عن دفع المال لمساندة حرب دامت اثني عشر عاما، واغرقت البلاد في بحر من الدم، كان قرارا حكوميا بليدا لم يعارضه إيزا. فالصواب هو، منح قروض محددة

للحصول على جيش قوي، وتفادي هذه الحرب، أو الانسحاب من المغرب بلا مماطلة. لكن داتو لم يفكر في هذه الحلول، ولا حتى إيزا.

كانت الحكومة تُنفق وتُنفق في المغرب، لكنها كانت تعجز عن وضع خطة استعمارية متناسقة. اما الجيش فقد كان يعيش بالمصروف الذي يُصرف له، وفي المقابل كان يمتنع عن الاستثمار في العتاد واقتراح الأفكار الاستعمارية. وبهذا، كان يبدو وكأنه حريص على أن يعيش فقط. وفي الواقع، كان يموت شنقا.

ترقيعات في الميزانية وجيش باحذية رياضية

كان المغرب بمثابة كيس ممزق تتسرب منه اموال إسبانيا، واحيانا كانت الحكومة تخصص ميزانية محددة، لكنها في النهاية لا تستخدم، ولنا ان نستدل بالدفاع المستميت الذي كان بشفشاون، بعد غزو هذه المدينة الشريفة. فمدينة شفشاون لم تسقط بالقوة الوحشية، ولكن بتضافر الذكاء والجراة المتمثلين في شخصية البيرطو كاسترو خيرونا Alberto Castro Girona التنينتي كولونيل، الذي كان يبلغ من العمر خمسة واربعين سنة. والحادث وقع كالتالي: تسلل البيرطو بزيّ بائع الفحم من جهة الأخماس إلى داخل شفشاون بوجه مغبر، وثياب رثة. فكشف عن هويته الحقيقية امام مجلس الوجهاء الذي فغر فاه، فنصحهم بلغة امازيغية سَلِسَة، بالاستسلام أو الموت امام اربعة من الكتائب الإسبانية القوية، كتيبة نفارو، وكتيبة ساليكيط Saliquet بابيخو Vallejo وكتيبته هو كذلك. فربما بسبب هذا التهديد، او بسبب تقديم المال الذي من شانه أن يهدئ من روع الحروب[33]، سقطت هذه الحاضرة الشريفة لشمال المغرب. وبسقوطها، استوجب الدفاع عنها. وهكذا، سيطر الغماريون على المرتفعات، وفتحوا النار على الإسبان من مخابئهم.

وهكذا تحولت شفشاون، هذا المعسكر العملاق إلى مجزرة. سُجلت خسائر جسيمة في الواحد والعشرين من اكتوبر، إذ وصلت الحصيلة إلى مائة وواحد وثلاثين قتيلا حسب البعض[34]، أو مائة وثمانية قتلى حسب مصادر موثوقة[35]. فوقع خصاص كبير في الذخيرة والأكل والدواء والأكياس الأرضية، التي كانت تستخدم روعا. لكن ميزانية 1919-1920، سجلت ارقاما مبالغا فيها، سبعمائة واربعون الف بسيطة خصصت لكل المستلزمات.

وبعد مضي سنة على انتهاء الكارثة بإفريقيا، تحدث كومبني Companys، إلى إيزا عن تداعيات شفشاون، واشار إلى ان الأكياس الأرضية لم يَطلبها الجنرال برنكر. فقاطعه الوزير السابق ليؤكد ذلك قائلا: «بالضبط». وأمام دهشة الحاضرين بالغرفة اضاف إيزا قائلا: «الصراحة مع البرلمان»[36]. واعتبر حدث استيلاؤهم على شفشاون في عهد برنكر، انتصارا باهرا في حد ذاته، عمّ انطباع يوحي بأن الحرب قد انتهت. خصوصا، وأن المدينة كانت ماتزال محاصرة. وقد بقيت على حصارها إلى أن حان وقت الانسحاب المفجع لسنة 1924. لكن إشعاع الانتصار خدم مصالح برنكر الذي اصبح كونت شفشاون، وهي نعمة أنعم بها الملك عليه.

كان إيزا يتحكم في جيش حافي القدمين، جيش تائه يرتجف من البرد. وقد جاء في رسالة بعث بها إلى برنكر في الرابع من فبراير 1921، ما يلي: «إن الجيش لا يتوفر على مكان يحتمي فيه، ويقيه من البرد ساعة الأكل. ومرارا رقدوا تحت رحمة السماء بسبب نقص الخيام، (...) ولن نتحدث عن الأحذية التي كانت من النوع الرياضي، الذي لا يفي بالغرض في فصل الشتاء، ساعة الأمطار والأوحال».

هذا وقد، ندد برنكر بالحالة المزرية للسلاح، فكتب: «كم من بندقية خفيفة وثقيلة غير صالحة، دون نسيان المدافع الرشاشة من نوع كولط Colt، التي كانت غالبيتها تتوقف عن العمل فور إطلاق الرصاصة الأولى»، واضاف إلى حديثه، النقص في الذخيرة الحربية من مدفعية. واشار إلى حالة الطيران، التي كانت وحداتها غير متناسقة بالنظر إلى تعدد وحداتها، والنقص الحاصل في قطع الغيار الجيد[37]. وبعد الانتهاء من قراءة يوميات الألم هاته، وجد إيزا نفسه وجها لوجه امام خيارين اثنين: إما البحث عن المال لتسوية هذا الوضع، وإما الاستقالة. كان بإمكانه اتخاذ قرار آخر، وهو العودة إلى المغرب لتدارس أسباب الأوضاع المتردية، لكنه لم يشأ أن يعاود التجربة، فاكتفى بالبقاء مع جيش شبه أعزل من السلاح، وجاهل بالتكتكات الحربية. كانت الكارثة تشرف على الأبواب.

وزير في سفر: معاينة، كتمان وانتظار

صرح إيزا في بيان له قائلا: «إن امور المغرب دائما تشغلني»[38]، لكن المشكل، كان في ترجمة هذا الانشغال على أرض الواقع.

رحل إيزا إلى المغرب ما بين التاسع والعشرين من يوليوز 1920، فزار الثكنات العسكرية، وتراس العروض العسكرية، وحضر الولائم وتجول بداخل الأحصنة الخشبية والمعسكرات. وتيقن ان مضيفيه يريدونه ان يعود إلى مدريد مرتاح البال. فعاد إيزا قلقا، بيد انه لم يخبر الملك بشيء، وفي رسالة بعث بها إلى "ليما"من مدريد في الثالث عشر من غشت، ذكر له ان المقيم العام يفتقر لشيء من الصعب تحديده، فهو يحتاج إلى روح تمكنه من اتخاذ التدابير اللازمة.

وتوصل "إيزا" إلى ان برنكر كان يدير المغرب ولا يحكم قبضته عليه، والدليل على ذلك هو تردد المقيم العام وعدم جراته على اتخاذ القرارات الحاسمة، وعدم استخدام سلطته[39]. والحقيقة، ان تصورات إيزا كانت في محلها، لكنه لم يبثها لبرنكر. فقط "ليما" كان على علم بها. لم يكن إيزا يتصرف بصفته وزير دفاع حقيقي، ففاقد الشيء لا يعطيه. فهو بدوره لم يكن يختلف عن برنكر، والأمر عنده كان يقتصر على المعاينة والكتمان والانتظار.

واثناء السفر وصل إيزا إلى شيفت، وهي مقدمة الخط الإسباني الواقع في قلب الريف المتوسط، وبرفقة الحاشية، صعد إلى حدود الأسوار. كان برنكر على يمينه والجنرال سيلفستري على يساره. وبعد سنتين، تذكر هذا المشهد داخل البرلمان[40]. وفي الأمام، كانت تفريست تطل براسها.

استغل سيلفستري الوضع واوضح لإيزا انه بالوصول إلى شيفت يمكن اللحاق بتفريست «بطفرة واحدة»، فتدخل برنكر موضحا «انه بإمكانه فعل ذلك، فأنا الذي يرخص للعمليات، واعين الحد الأقصى الذي يجب الوقوف عنده، لكنني لا احدد امتار الأرض، فهذا امر لا يدخل في دائرة اختصاصي».

كانت ضربة مدفع واحدة تفصل تفريست عن شيفت، سبعة آلاف متر كانت في متناول اجود مدفعية إسبانية في الحملة كلها. لكن سيلفستري ابى ان يبتلع الخديعة، فاجاب برنكر بصراحة ادهشت إيزا: «هذا لا يا سيدي الوزير، لأنه بغض النظر عن الشهرة التي اذيعت عني بكوني احمق، فلا يمكنني فعل شيء لا يامرني به المقيم العام»، وعقب برنكر على هذا الحديث بتعابير ديبلوماسية حسب قول إيزا: «تلك اشياء تتعلق بتطوير خطة تقع مسؤوليتها على من يختص بتنفيذها، فحينما ترى ان الوقت قد

حان، فلك رخصة فعل ذلك». عاد إيزا إلى مدريد، وبقي سيلفستري أمام تفريست يمعن النظر في الهجوم، فقرر المضي قُدما، لكنه هذه المرة أخبر برنكر، الذي حول بدوره الخبر إلى إيزا في اليوم الثاني من غشت. لم يكن جنرالا عاصيا، فقد كان يتصرف وفق إمكانياته ووفق ما يمليه عليه ضميره.

جندي إنجليزي مندهش، وصاحب مدفعية إسباني متعنت

في السابع من غشت 1920، انقض سيلفستري على تفريسيت واحتلها. وقد حضر هذه العملية الخطيرة شاهد عيان يدعى الجنرال ويليام رودكين Wiliam Rudkin، الذي كان مساعد الملك خورخي رودكين Jorge Rudkin، فعاش هذا الجنرال الهجوم الإسباني الجسور، وبقي مندهشا أمام نهاية الحدث المفاجئ. كانت وحدات سيلفستري قد انتشرت في الواجهة، فتحول هذا القتال الذي جرت فصوله دون استعمال مدفعية واقية، إلى هجوم انتحاري. أما عن الجناح المكلف بالتصدي للضربات الريفية، فقد تمكن من الفرار في لحظة بلبلة عرفها العدو.

بعد إحساسه العميق بالكارثة، طلب رودكين من الجنرال مونتيبيردي Monteverde، الرئيس الثاني بمليلية، الذي كان عضوا في لجان إسبانية متعددة خلال الحرب العالمية، والذي كان يجيد التحدث باللغة الإنجليزية، طلب الحضور إلى عين المكان. وبوصول مونتيبيردي، طلب منه رودكين أن يترجم إلى الإسبانية ما يلي: «إذا طلبوا من جنرال إنجليزي أن يفعل هذا سيجيب: ايتها الحكومة هذا شيء لن افعله أنا. اصنعيه انت، حقا إن منصبي تحت إمرتكم، وإنني لا اخاف من أن تمرغ كرامتي، التي لا تساوي شيئا، في التراب. ولكن تهمني سمعة البلاد ومستقبلها»، وقد اقتنع رودكين بما قاله، فتوجه نحو سيلفستري قائلا: «قمت بمعجزة حقيقية رغم ضآلة الوسائل المتاحة»[41]. وماهي إلا خمسة أشهر حتى كان الإسبان في أنوال.

آنذاك، دُشنت حملة واسعة لجمع التبرعات في مليلية، كان الهدف منها هو بناء كنيسة لرجال الدين المرافقين. وقد صدرت هذه الفكرة عن السيدة إلوطوريا Eleutoria، والدة سيلفستري، وهكذا وُزعت رسائل على ضباط مليلية[42]. وفي السادس والعشرين

من ابريل 1920، تلقى واحد من الضباط هذا النداء، فطلبوا منه خمس بسيطات، وبعد مُضي يومين، اجابهم بقوله: «لست ممن يوافقون على بناء كنيسة عسكرية». ولتفادي الشكوك انهى خطابه بقوله: «لا يمكنني أن أساهم بأي شيء لهذا الغرض، دائما في خدمتكم السيد دييغو فلوميستا مويا Diego Flomesta Moya»[43].

وحدث رد فعل عنيف بمليلية، حينما قامت والدة القائد العام بطلب المال من الجميع، للمساهمة في هذا العمل الخيري. فوصل الحد بأحد الملازمين إلى التعبير عن رفضه كتابة.

وحتى الريفيون حاملو الأحجار، لم يوافقوا على هذا العرض ساعة شروعهم في العمل بضواحي ساحة إسبانيا. اما العمال الإسبان المرافقون، فقد اغاظهم منظر الأهالي الريفيين الماكرين، الذين لم يتوقفوا عن الهمس بكلمات، لا تخلو من السخرية: «احملوا، احملوا الأحجار، لبناء كنيسة للمسيحيين، فغدا سيصبحون "مورو" بداخلها»[44]. ومثل هذه التنبؤات، حدثت أيام أبران.

هوامش الفصل الثالث

1) السجل العسكري السنوي لإسبانيا 1900.

2) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا. المجموعة 15 /401.

3) أولئك الجنود الذين قدموا خدماتهم لمدة عشرة شهور، ولم يتم اعتبارهم من المجندين، كان بالإمكان إعفاؤهم من 3 سنوات من الخدمة مع دفع 1500 بسيطة.

4) مذكرات الجلسات البرلمانية، مداخلة السيد بسطيرو Besteiro في جلسة الخميس 3 نونبر 1921، ص. 3947.

5) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 28 يونيو 1922، ص. 101.3

6) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 8 غشت 1919، ص. 900

7) مذكرات الجلسات البرلمانية، صفحة، 3025، مداخلة النائب بسيطرو في جلسة الثلاثاء 27 يونيو 1922.

8) رومانونيس كونت، *المسؤوليات السياسية للنظام السابق من 1879 إلى 1923*، النهضة، مدريد، الصفحات، 126-127.

9) معلومات ماخوذة من حسابات الدولة الإسبانية منذ 1908 إلى 1923-1924. نشرة معهد الدراسات المالية. مدريد. 1979. كانت الكميات المالية التي تصرفها الوزارة البحرية معروفة، وتمت تصفيتها على فترات سنوية.

10) أعطى رومانونيس حسب كتابه السالف الذكر ما قدره 495 مليون لمصاريف المغرب، وذلك لإنجاز هذا العمل لسنة 1921-1922. وصرفت 534 مليون بسيطة انفقت على وزارة الدفاع. الحصيلة كانت 169 و439 مليون.

11) خوليان بسطيرو أمام هيئة البرلمان، في جلسة 27 يونيو 1922. مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 3951.

12) مذكرات الجلسات البرلمانية. دورة 27 أكتوبر 1922، ص. 3.832.

13) أوضح رومانونيس في كتابه السالف الذكر ما يلي، «إن المصاريف العسكرية التي ابتلعها المغرب منذ 1903 إلى 1913 لا يمكن تحديدها، وذلك لأنها تشكل جزءا وتندمج مع المصاريف العامة للوزارة الحربية. ولم تظهر بشكل مستقل سوى في العقود الأخيرة لهذه السنوات».

14) مداخلة النائب سالفادور كناليس في جلسة 27 يونيو 1922، مذكرات الجلسات البرلمانية. صفحة 3060.

15) مداخلة النائب رودريغس دي فيغوري في نفس الجلسة (لـ 27 يونيو 1922) مذكرات الجلسات البرلمانية. الصفحات 3508 و3509.

16) بايني، المصدر نفسه، الصفحات، 114-116.

17) ذكر بذلك خوليان بسطيرو في الجلسة البرلمانية ليوم الخميس 3 نونبر 1921، مذكرات الجلسات البرلمانية ص. 3965.

18) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

19) باندو، دسبيرطو خوان «*المساعدات الإسبانية لفائدة الأسرى في الحرب الكبرى*» في السيرة 16، رقم 227، مارس 1995. الصفحات،27-38؛ هذا وقد وصف دايلي مايل Daly Mail الملك الفونصو الثالث عشر بالفارس، وهذه الفروسية أثرت بشكل عام في المليون ونصف مليون من الأسرى المرابطين في الميادين القتالية.

20) بيتا، فرديركو، *المغرب. ما فعلناه وما كان يجب أن نفعله في الحماية الإسبانية*. دار النشر الفنون إكسبرس. مليلية، ص. 80.

21) مذكرات الجلسات البرلمانية. مداخلة رودريغس دي فيغوري في جلسة الأربعاء 2 نونبر 1921، ص. 3.908. فيغوري كانت له تجربة مدتها سبع سنوات، تقلد فيها مناصب استعمارية عديدة.

22) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

23) اثبيطيا انطونيو Azpeitia, Antonio: *المغرب البذرة الخبيثة*، المطبعة الإسبانية الكلاسيكية، مدريد 1921، ص. 20.

24) مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 4150 مداخلة النائب المحافظ مانويل بيدال Manuel Pidal وبرنالدو دي كيروس Bernaldo de Quiros، ماركيز فال دري (المنتخب من لدن مقاطعة المندرلخو، بيبادخوس) في جلسة الثلاثاء 15 نونبر 1921.

25) *ابطال إسبانيا*، تنسيق خوصي ماريا غراطي، قرطبة، دار النشر اورنيغراف، مدريد، 1969، ص. 245.

26) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 29 يونيو 1922، ص. 3182.

27) *تاريخ الحملات*... المصدر نفسه، الجزء الثاني، الصفحات، 512-595.

28) اثبيطيا، انطونيو، المصدر نفسه، ص. 21.

29) مذكرات الجلسات البرلمانية. مداخلة النائب بلشيطي ليوبولدو روميو Belchite, Leopoldo Romeo في جلسة الجمعة 30 يونيو 1922، ص. 3209.

30) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث ميلفستري"، الدفتر 41.

31) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922،ص. 4412.

32) رومانونيس. المصدر نفسه، الصفحات، 126-127.

33) أطروحة ولمان (المصدر السابق، ص. 86).

34) الأرقام التي أعطاها "ولمان"(نفس المصدر السابق، ص. 87).

35) *تاريخ الحملات*... الجزء III، ص. 150-152.

36) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 11 نونبر 1921، ص. 4113

37) تعد رسالة برنكر إلى إيزا من أكثر الرسائل شيوعا للتاريخ لتلك الفترة، بيد أن "إيزا" لم يعلن عنها في خطاباته امام البرلمان لسنة 1921، في حين قام النائب الاشتراكي إندالثيو بريطو Indalecio Prieto بالتحدث عنها في جلسة الثلاثاء الثامن من نونبر 1921، مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 3831.

38) رسالة إلى برنكر في الرابع من شتنبر 1920، تم الكشف عنها داخل البرلمان، مذكرات الجلسات البرلمانية، 29 نونبر 1922، ص. 4417.

39) إيزا، فيكونت (لويس دي ماريشال ومونريل)، مسؤوليتي في كارثة مليلية، مدريد، كرافيكس رونيداس 1923. الصفحات، 141-148.

40) مداخلة إيزا أمام هيئة مجلس النواب. مذكرات الجلسات البرلمانية. جلسة 29 من نونبر 1922، ص. 4404.

41) دافيلا خالون، المصدر السابق، الصفحات، 270-271.

42) على هذا النحو ظهرت في لائحة مفصلة أسماء المساعدين المجندين لهذا المشروع في، *المصلحة التاريخية العسكرية*، مجموعة "مانويل فرنانديث ميلفستري".

43) رسالة حصل عليها الكاتب بمعية جنرال المدفعية دون أنطونيو نوغيراس Don Antonio Nogueras. مايو 1996.

44) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 23 غشت 1921.

الفصل الرابع:
أبراه عند نهاية فصل الربيع

صورة سيلفستري: الأب الطيب والعاهل العسكري

في سنة 1921 كان **مانويل فرنانديث سيلفستري إي بانطيغا** يُعرف باسم "سيلفستري" فقط. وكان يتمتع بشهرة كبيرة توحي بأنه رجل حرب يجيد التحليل، وكان معروفا بقدرته على تخطي كل المواقف الصعبة، كما كانت له القدرة على تعقيد الأمور إن هو أراد ذلك، كان سيلفستري قد أخذ العبرة من أخطائه في زمن العرائش. فكان حذرا في الريف، بخلاف ما كان عليه في جبالة. ولم يكن مبذرا، فقد كان يبعث براتبه الشهري كاملا إلى أمه السيدة **إلوطريا** التي كانت تعيش في مليلية مع إخوته. وكانت العائلة تحتفظ بشقة في مدريد تقع في شارع الماكرو، رقم 11، انتقلوا إليها من بيت سابق كان بشارع سان برناردينو رقم 7 [1]. ومن باب المبالغة، لم يكن سيلفستري وفيا إلا لشهرته. فراج عنه أنه كان يمتلك نجمة متألقة هي الوحيدة التي يتباهى بها.

كان الجنرال الذي فَقَدَ ابنته الوحيدة **إلفيرا** عن عمر قصير -والظاهر أنه وارى جثمانها في قلعة هنارس- مسرورا بولده مانويل الذي ولج الأكاديمية سنة 1917 ليتخرج منها عام 1920 برتبة ملازم ثان. وعن سن تناهز العشرين ربيعا أصبح مانويل شابا أطول من أبيه، أنيقا، شديد النحافة، وبسيطا في حركاته. ومن الأشياء القليلة والعظيمة التي عُرفت عن سيلفستري، هي تربيته لولده؛ فقد درس مانويل في أحسن المدارس، وكان يجيد التحدث باللغة الإنجليزية والفرنسية. وقد عُين مع فرقة **كثادورس دي الكانطر** Cazadores de Alcántara ليلتحق بعدها بصفوف الجيوش النظامية الأهلية رقم 2 [2]. كان مانويل شديد الإعجاب بأبيه، وكانت نهايته كذلك مفجعة.

وداخل الميليشيا كان الإعجاب بسيلفستري واضحا، لكن لا أحد كان يحبه. كان طبعه التلقائي وغير المنافق يثير حنق العديدين، باستثناء مناصريه مثل **كابابلانكا** Capablanca، **فرنانديث طماريت** Fernández Tamarit، **لوبيث رويث** López Ruiz، **مانيرا** Manera، كما كان يُنظر إليه من داخل الجيش والمجتمع وكأنه واحد من الغزاة. وقد حجبت هذه الصورة الأخيرة -التي كان يشار إليها بالأصبع في الأسطورة الشعبية- حقيقة ان الجنرال كان أرملا منذ سنة 1907. وفي الفترة ما قبل انوال كان سيلفستري يعيش مع امه وإخوته، كارمن وميرثيديس وولده مانويل في مليلية. وكان يقوم بزيارات متفرقة إلى مدريد.

وداخل قصر الملك كان مناصرو سيلفستري هم **لاثيريا** La Cierva، **إيزا** Eza، **إمليو ماريا دي طوريس** Emilio María de Torres سكرتير الملك، **والفونصو** الثالث عشر الذي كان يكن له تقديرا كبيرا.

كان الناس يخشون سيلفستري، اما هو فكان لا يعرف الخوف، كان رجل قتال لا يشق له غبار، يقبل كل الرهانات بلا تردد، وكان كذلك العاهل العسكري بمليلية، فترك سياسة إسبانيا جانبا، واهتم بجيشه الذي لم يكن له وجود بالمعنى الحقيقي، ولم يعترف ابدا بضعف هذا الجيش. كان يخدع نفسه بالثقة في احلامه. كان سيلفستري يشن حربين، حرب فاشلة ضد الفساد المؤسساتي والخمول الذي أصاب هيئة الجيش، وحرب كان يأمل الانتصار فيها ضد عدو حسبه ضعيفا وبلا مؤهلات. وقُدر أن يكون هذا العدو الثاني عبارة عن جماعات من العصابات فريدة من نوعها. لا تملك مدافع ولا رشاشات، لا طائرات ولا مدرعات، ولكنها كانت تملك الشجاعة، وقوة الإيمان. وقد اختارت هذه الجماعات لاحقا زعيما لها انضوت تحت لوائه، كان يعرف باسم عبد الكريم. لم يكن سلفستري يتوفر على جيش ولا على افكار، بالرغم من توفره على سندين قويين وهما دافيلا وموراس. لكن كل هذه الأمور لم تجد نفعا في الريف.

جنرال شجاع إزاء مجاعة تلتهم الريف

حلّت أواخر فصل الشتاء لسنة 1921 المجاعة التي التهمت الريف في وقت كان سيلفستري يتخبط في مجموعة من الأزمات، منها ما يتعلق بالاتصالات، ومنها ما يتعلق بولاء

القبائل المشكوك في صدقها أو ولائها، بالإضافة إلى النقص الحاد في العتاد والدخيرة. وقس على ذلك الأزمة الخطيرة والسريعة الانتشار التي أتت لتلقي بظلالها المأساوية على المنطقة. وكانت المفارقة، ان حلت هذه الأزمة والأمطار تنهمر بغزارة[3].

كان سيلفستري شاهد عيان، ففي الثامن والعشرين من فبراير 1921 كتب لبرنكر، «إن هذه السنة الفلاحية جيدة. والأمطار لا تنقطع وإذا استمر الحال على ما هو عليه فإن المحصول سيكون وفيرا»[4]، وبعد هذه الرسالة انكشف الوجه الثاني للعملة «إن إشراقة الأمل التي يتطلع بها الفلاحون إلى غد أفضل، تتعارض وبفظاظة مع حالة البؤس التي تعمّ سائر البلاد في الوقت الراهن»، فقد تفشت ظاهرة الفقر في كل من قبيلة متالزة Metalza، بني بويحيى، كبدانة، اولاد ستوت حيث كان الألم والعجز سيدا الموقف، فلا ماء بالأرض، ولا شيء ينهمر من السماء لأن السحاب كان يتكاثف بعيدا، فيسقي الريف من جهته الغربية (كتامة) فحسب.

كان شرق الريف بمثابة صحراء جرداء. ويروي سيلفستري لبرنكر تفاصيل الوضع قائلا: «كل ما أستطيع قوله لك، لا يمت للواقع بصلة، ولهذا لن أصف لك لوحة المجاعة والفظاعة التي تتجلى في أعين كل الناس، ليس فقط في البادية، بل حتى هنا في مليلية». هذا وقد أصدر الجنرال أوامره للشرطة الأهلية «بالبحث عن ملاجئ تتسع قدرتها الاستيعابية لأزيد من مائتي امراة وطفل وعجوز كانوا يتسكّعون في الشوارع في حالة يرثى لها»، وبواقعية وشفافية يضيف لبرنكر: «وبسبب قلة الطعام، كان الكثيرون يدخلون إلى المستشفى ليموتوا في اليوم الموالي»، فتدخلت حكومة داتو «لتَهَب مجانا ما مقداره نصف قنطار من الشعير يوميا لكل من الناظور، زيو، سوق الأربعاء، حَسي بركان، أفسو، ثلاتزا، دار الدريوش وجبل أعرويت والباطل»، نصف قنطار إذن، أي خمسون كيلوغراما لكل بلدة. كان المجموع تسع مدن،ست منها رئيسية وثلاث ثانوية. وقد كانت هذه المراكز التسعة تموّل القبائل التالية: مَزوزة عند مشارف مليلية، والبالغ عدد سكانها اثني عشر الف ساكن، ثم قبيلة بني شيكار في الغرب، ومجموع سكانها ثمانية آلاف ساكن، ثم قبيلة بني إفرور التي كانت تعد مركزا منجميا بامتياز، وعدد سكانها عشرة آلاف نسمة، ثم قبيلة بني بو غفار من الجهة الأخرى لجبل تريس فوركاس Tres forcas بنحو خمسة آلاف[5] نسمة، وبني سيدل عند جبهة كرط بساكنة

تبلغ عشرة آلاف ساكن، وكبدانة بأربعة عشر الف شخص، وقبيلة بني بويحيى وهم اصحاب اعرويت المقدر عددهم بخمسة عشر الف نسمة، ومتالزا اصحاب دار الدريوش بساكنة وصلت إلى سبعة آلاف نسمة. المجموع هو ثمانية قبائل، كانت بمثابة خيوط النسيج الاجتماعي للريف، وقد وصل المجموع إلى واحد وثمانين الف نسمة دون احتساب قبائل بني سعيد، بني اوريشك (اصحاب انوال) تفريست، تمسمان، بني توزين وبني ورياغل، وكلها قبائل محاذية لخط الزحف الاستعماري.

كان على الريفيين -الذين وصل عددهم إلى واحد وثمانين الف ساكن- ان يقتاتوا من القناطر التسعة الهزيلة التي خصصتها لهم حكومة داتو. تسعة قناطر، اربعمائة وخمسين كيلوغراما. اي ما مقداره 5,5 غرام للفرد، ولا غرابة، والحالة هاته، ان يطلب سيلفستري مساعدات اكبر «لأن الناس تموت جوعا».

وفي شتاء 1921، ظهر سيلفستري بشجاعته المعهودة. لكنه هذه المرة انتقد الجمود الرسمي بشدة، وانتقد كل من يشك في نظام الحماية، إنه إذن سيلفستري البارع، العسكري الفظ الذي تجاوب مع الأزمة اكثر من النظام الحاكم فقال: «إنه لمن دواعي العار ان ندع ارضا جئنا نحن لحمايتها وعصرنتها تموت جوعا، ولن تتاتى لنا فرصة افضل من هذه ليرى السكان الأصليون إيجابية تدخلنا، فيحسون بالحنان والامتنان لأمة انقذتهم من براثن الفقر والموت، وإنها لمناسبة لترى بلدان اخرى أننا قادرون على التصدي لهذه المعضلة بنجاح، باتخاذنا تدابير مناسبة عوض ان نبقى مكتوفي الأيدي، ننظر إلى كل أولئك الذين يموتون بسبب الحرمان والمعاناة، ونرى كيف أن عددا كبيرا منهم اصبح فريسة لفقر الدم والهزال الشديد حتى صاروا جثثا متجولة لا امل لهم في النجاة من الموت»[6].

هذا إذن هو سيلفستري. الرجل الذي قاوم الظلم باصيلا، فاخفق هناك، والسبب كان سياسيا، لكنه حقق في الريف نجاحا كبيرا، فتجاوز المأساة التي كانت السماء مصدرها (قلة الأمطار). كانت الأوضاع متردية نتيجة فساد الدولة والحكومة، غير أن سيلفستري، المقاتل، وصاحب القلب الطيب في سياسته، عرض على برنكر جملة افكاره التي تتعلق بالمساعدات الإنسانية: «إن الكمية التي يتلقاها كل شيخ عن قبيلته: خمسة قناطر او مائتان وخمسون كيلوغراما غير كافية ولا تسد الحاجة، لكن الكمية

الأخيرة، افضل بكثير مما كان يوزع في السابق. كان سيلفستري لا يكتفي بذلك القدر، وكان يقترح المزيد من المساعدات ويرفعها إلى «الفين أو ثلاثة آلاف قنطار»، ويضيف قائلا: «وبإمكاني ان أؤكد لكم استعادة هذه الحصص عن طريق فرض ضريبة تقدر بـ3٪ حسب الطوارئ المتوقعة»، كما يجب توفير فرص للعمل، وهو ما حرص عليه الجنرال بالدفع بالأشغال العمومية إلى الأمام. فجاء هذا الاستنتاج من سيلفستري: «إذا ما وفرنا العمل للأشخاص، فإنهم سيوفرون الخبز لعائلاتهم، فينضاف الإحسان إلى العمل، ونكون بذلك قد تجاوزنا الأزمة الخطيرة التي نمر بها». جرت موجة من الاتصالات بين الإسبان، فاتخذوا تدابير أمنية مكثفة، وهي نفس السياسة التي كان اليوطي ينتهجها كذلك في منطقته».

وبما أنه لم يكن بوسع سيلفستري تشغيل عمال من المُورو، وذكر لبرنكر في السادس والعشرين من يناير 1921 «إنني افكر في تشغيل مجموعة من المهندسين والمشاة»، كما اقترح تشغيل «مائة واثني عشر الف بسيطة جُمعت من الأسواق (الجمارك)، والتي كانت مودعة في بنك إسبانيا»، لكن لم يجبه احد. وبعد مضي شهر، كانت إمكانيات سيلفستري محدودة بالريف، وفي رسالة كتبها في الثامن والعشرين من فبراير، سرد تفاصيل المعضلة، إذ لم يكن يملك سوى «مائتين من المورو، يشتغلون بين دار الدريوش وابن طيب، في الوقت الذي كانت الحاجة فيه ماسة إلى أضعاف ذلك العدد بخمس مرات. ففي الطريق المؤدية إلى افصو Afso -حيث عيّن إرميلا التي كانت مورد الماء الأساسي لكل المناطق الجنوبية بمواقعها الأربعة والعشرون، بما فيها المعسكرات الحيوية للباطل Batel وتيزطوطين وسوق الثلاثاء[7]- لم يكن بحوزته مال يصرف به اجر اجير.

وبفضل إصراره، طلب من برنكر ان يوافيه بـ «ثلاثمائة رجل (الدريوش - ابن طيب) ومائتين اخرى (لأفصو)». هي خمسمائة راتب يومي من فئة اربع بسيطات كانت تصرف، وتؤدى لكل واحد من الجيش. أي ستون الف بسيطة لحفظ السلام وإنقاذ الجيش. لا ندري ماذا كان جواب برنكر، هذا إن كان قد اجابه. لكننا عرفنا ما حدث، إذ لم تعبد الطرق آنذاك، وتلاشى السلام نهائيا وضاع الجيش برمته.

خصاص في المراكب والطرق وغياب قطار الحرب

إلى جانب العزلة الاجتماعية والبرية والسياسية، انضافت العزلة البحرية. ففي رسالة بعث بها برنكر بتاريخ الواحد والعشرين من يناير 1921 جاء فيها، «كما تعرف جيدا، تنقصنا الوحدات البحرية». كان سيلفستري يعي تماما هذا المشكل، إذ كانت على مشارف مليلية بارجة لايا Laya -وهي حاملة للمدافع- وكل آلاتها كانت في حراك دائم ليل نهار، الشيء الذي كلف ميزانية اقتصادية «وصلت إلى مبلغ كبير، وكان القاطرة كانت تبحر يوميا، على حسب عبارات برنكر نفسه. كما كان هناك إلى جانب حاملة المدافع يخت يعرف باسم "الخيرالدا" كان يرسو في سبتة، وكلاهما كانا يرقبان أربعمائة كلم من الشواطئ الحافلة بالأحداث، ويترصدان لعمليات تهريب الأسلحة، فكانت مهمتهم تتلخص في حراسة النشاط البحري، والقيام بمهمة المساعدة المدفعية لقوات البر. وهنا يتبادر السؤال الذي يطرح نفسه، ما هو دور باقي الفرق العسكرية؟ ويأتي الاستفسار عن تخمينات وزير البحرية الذي كان آنذاك إدواردو داتو وكذلك رئيس المجلس.

كانت لإسبانيا فرقة سانتا باربرا التي كانت تغط في نوم عميق عند الموانئ الإسبانية بأمر من الحكومة. فالأولى كان بها ربط الاتصالات مع الريف، لكن هذا لم يحدث. ففي رسالة "شخصية وسرية" بعث بها سيلفستري إلى برنكر في السادس والعشرين من يناير 1921 ذكر له، «إن أنوال الواقعة عند حدود تمسمان، هي اليوم في تقديري معزولة، إذ لا يفصلنا عنها سوى طريق وعرة تحتاج إلى أربع ساعات فقط، لقطع الكيلومترات الستة عشر التي تفصلها عن ابن طيب»، ساعات أربع تكفي إذن لستة عشر كيلومترا، بمعنى 4,5 كلم في الساعة.

وفي رسالة أخرى بعث بها سيلفستري في السادس من فبراير 1921 إلى برنكر يشرح له فيها كيف تمت مسألة إنزال المدفعية بأنوال، «لكي تكون لديك فكرة إجمالية عن المنطقة، ومسالكها الوعرة أحيطك علما بأن نقل بعض القطع (بطاريتين) للمدفعية من ابن طيب إلى أنوال، استغرق أياما عدة وتتطلب جهدا كبيرا»[17]. خمسة أيام شاقة لقطع ثمانية عشر كيلومترا، وهو ما معدله 3,5 كيلومتر في اليوم. أو مائة وسبعة وأربعون مترا في الساعة. هكذا إذن كانت تتقدم المدفعية الإسبانية على الأرض المغربية.

كل هذا الجهد الكبير، بالرغم من أن انوال كانت تتموقع في المنخفض وليس في قمة الجبل، كبقية المواقع المرتفعة التي كانت تحتاج إلى حمل المدافع باليد، وحمل الماء في سطول أو صفائح بترولية -البترولينات الشهيرة Las petrolinas- الشيء الذي كان يكلف جهدا جنونيا واستنزافا للذكاء العسكري. وبعد وصول كل تلك القطع الحربية إلى اماكنها، كانت الحصيلة هي الآلاف من الجرحى ومن البغال المنهوكة، وخرقت بذلك كل القوانين المنظمة للمدفعية.

كان سيلفستري يركز كثيرا على اهمية الاتصالات التي كانت تعني بالنسبة إليه الحبل السري الذي يربط بين رجاله -وواجباته الشخصية- والبقاء على قيد الحياة. فإذا ما تمزق هذا الرابط فالكل سيموت حتما.

وفي ختام رسالته المبعوث بها في السادس والعشرين من يناير 1921 إلى المقيم العام. وخشية أن يبدو مساعدا عنيدا ومثيرا للمتاعب قال لبرنكر، «اتوسل إليك أن تمعن النظر في ضرورة تعبيد هذه الطرق بعجالة لأنها هي المسالك الوحيدة التي ستساعدنا على التوغل داخل الحسيمة، وعلينا ان نأخذ وقتنا للاستعداد. فلا حاجة لأن اذكرك بالأهمية القصوى التي تحظى بها الاتصالات في زمن الحروب، ولن أصر على شيء أنت سيد العارفين به»، كان سيلفستري يصر ويصر، ولا حياة لمن تنادي، ولا قرار من برنكر، ولا حتى من الحكومة.

ويأتي جواب برنكر في رسالة السادس عشر من يناير 1921 وهي نسخة مما كتبه بصفته مقيما عاما إلى إيزا «لقد لونت الموضوع بألوان الواقع التي هي في حقيقة الأمر سوداء، وآمل أن تعطي الحكومة -كما وعدت بذلك- حلولا سريعة لوضعيتنا المزرية»[9]. بدا برنكر هنا واضحا، أمام زميله في القوات العسكرية، بيد انه أدار ظهره للمجلس التنفيذي المحافظ فلم يواجهه البتة. كان برنكر وسيلفستري يمدّان أيديهما، ويتوسلان طالبين أبسط متطلبات الحرب، المال، فكلاهما طالب ولمدة سنة كاملة بقرض يصل إلى أربعة ملايين بسيطة -التي وعد بها إيزا في يوليوز 1920- وكلاهما تلقى نفس الجواب، مجرد كلمات. كان سيلفستري شديد الامتعاض، ولم يتوان في إصدار تحذيرات صادقة للحكومة الألفونصية، وذلك في وثيقته "الشخصية والسرية جدا" التي ورد فيها «لو فكّر ساساتنا في الأمر مليا لرأوا انه من القسوة والشؤم مساومتنا في حفنة من البسيطات قد

تُصرف إذا استمر الوضع على ما هو عليه، في دفع مصاريف الإقامة بالمستشفيات، والتطبيب، وصرف معاشات للجرحى أو المعطوبين، في تمرد اجتماعي نابع من كره طبيعي لبلدنا تجاه القرار الدموي الذي اتخذناه بشأن هذا المشكل. وهو ما من شأنه، أخيرا، التقليل من قيمة بلدنا»[10].

كان سيلفستري يكتب، ولمرات عديدة، إلى برنكر فهل كان يكتب إلى الملك؟ ربما، نحن نتوفر فقط على أخبار، وردت من مساعده لوبيث رويث López Ruiz، تفيد بمراسلاته إلى إيزا «في شهر يناير، فبراير، وأبريل، وحتى مايو (1921)، إذ كان يبعث إليه برسائل يوضح فيها تفاصيل التدهور العام الذي آلت إليه هيئة المهندسين بمليلية، والتي باتت تفتقر إلى القروض اللازمة لسد الحاجيات الضرورية»، وقد تكفل بحمل تلك الرسائل «رؤساء المهندسين: **كامبوس** Campos، و**سوسانا** Susana والقائد **ريكسا** Reixa». وساهمت هذه الوثائق في عزل كبير المفاوضين بالمغرب -التنينتي كولونيل **كارلوس لوبيث لاميلا** Carlos López de Lamela- عن عمله داخل الوزارة «كان الجنرال فرنانديث سيلفستري يراسل هذا الأخير مرارا ويطلب منه مساعدته في تسيير الأمور، فكانت تصله بسرعة كل المواد التي كان يحتاج إليها»[11].

لم يكن التوجه إلى الحسيمة مطروحا في تلك الآونة، غير انه، وللمكوث بأنوال بدون مشاكل لوجيستيكية، كان لابد من التفكير في قاعدة دار الدريوش المناسبة لمؤخرة الجيش. فهذا الموقع المتوغل جدا داخل مقاطعة كرط، كان يتوفر على ميادين تصلح للمناورات المدفعية، كما أن الماء الصالح للشرب كان ينساب على بعد ثلاثين مترا من أسوار المنطقة. وللوصول إلى الدريوش انطلاقا من أنوال كان لابد من الصعود والنزول بإيزومار، والمرور بابن طيب والنزول إلى السهل. وبعد هنيهة تظهر أبراج الدريوش الحمراء التي تشبه حصنا صغيرا منزويا في الصحراء الريفية. كانت المسافة تقدر بخمسة وثلاثين كيلومترا، وتفصلها عن مليلية واحد وستون كلم أخرى. ساعة ونصف في القطار، لكن الدريوش كانت لا تتوفر على قطار.

كان قطار مليلية يصل فقط إلى تيزطوطن، وهي نقطة ينقطع عندها التيار. لكن السكك الحديدية كانت تمتد أكثر في اتجاه الباطل Batel، وهناك كانت نهايتها. لأنها كانت تتشقق بفعل الثلوج وموجات الحر الشديد التي تضرب الريف منذ سنة 1917. وكان

الذي بنى حصنا فوق أرض ضريح سيدي أورياش. كان سيلفستري لا يريد المزيد من الحروب لأسباب دينية، ففرح الريفيون ومعهم مورالس.

تم احتلال سيدي ادريس في الثاني عشر من مارس، وتسبب هذا التأخير في (إثارة غضب) دافيلا، ومن جهة أخرى اقلقت هذه الجراة مورالس. آنذاك كان الكولونيل الشيخ (مورالس) رجلا متقاعدا بمليلية، انتقل إليها في شهر فبراير رفقة سيلفستري ،الذي رتب كل الأمور ليعود إلى منصبه،[17]. لم يكن الأمر يتعلق بعقوبة، ولكن لتخفيف الأجواء المتوترة بين الرجلين، وفقط لأن مورالس كان يجنح إلى الهدوء وحسن تدبير الوقت، في حين كان سيلفستري يفسر هذا الانتظار وكانه احتياط غير منطقي، وكان ينظر إليه بتشاؤم غير مرغوب فيه، وليس بصحيح ما قيل عن مورالس انه ضاق ذرعا بالأوضاع، لكن الحقيقة هي أن سيلفستري لم يعد يطيق الانتظار.

وقد اعترف بذلك مورالس في رسالة بعث بها إلى انطونيو غوط الذي كان محل ثقة لأورانيو إشيفريطا Horacio Echevarrieta الذي كان يعمل بالبنك، -وكانت لغوط علاقة بالوكالة الإسبانية لمناجم الريف- وبعد نزوله بشواطئ الحسيمة في السادس من ابريل، للتباحث من جديد مع بني ورياغل حول المناجم، الشيء الذي كان يتطلب إلغاء كل معاملة عنف مع الورياغليين، لكن هؤلاء واصلوا نهجهم التعسفي والعنيف، فخاطب مورالس غوط بقوله في الرابع عشر من ابريل 1921 ،من الضروري جدا أن يسارع عبد الكريم إلى تعجيل عمليات (السلام)، فالجنرال رجل غير صبور،[19].

تم تعويض مورالس في مهامه ومعاملاته مع زعماء القبائل، بالقائد خسوس بيار Jesús Villar الذي كان شخصية حيوية ووقحة تماشت كثيرا مع روح وطموحات سيلفستري. فبيار كان متهورا، فيما يتعلق بالأمور السياسية وغير متضلع في الأمور العسكرية -كما بدا لاحقا- فرمى بكل ما صنعه سيلفستري إلى التهلكة. كان سيلفستري يريد أن يجعل من انوال ابن طيب ثانية، فكانت خطته هي الانقضاض على جبهة تمسمان، وقطع خط امكران Amekran إلى اثنين، وبخطى سريعة يصل إلى مصب النكور، ومن هناك يقبض في راحة يده على مدينة الحسيمة الشامخة، التي باتت بالنسبة إليه حلما صعب المنال.

ولم يكن ايثبورو ولاخوردانا من مناصري هذه الخطط فعارضا وبشدة أي هجوم وأي تصعيد في المواقف قبل التأكد من صدق التحالف مع عائلة عبد الكريم، ومع أصدقاء آخرين من الإسبان، وكذلك الاطمئنان على الهجوم البحري والبري من ناحية الائتلاف.

كان ميناء خليج الحسيمة الهلالي الشكل، والذي تبلغ مساحته سبعة وعشرين كلم، يعد من اكبر موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت سيادته تخضع لسيطرة ثلاثة قبائل مهمة، منها قبيلة بني ورياغل في الوسط، قبالة الصخرة، وهي تضم شاطئ السواني كذراع وقائي، وعلى اليمين قبيلة تمسمان التي تستند إلى مرتفعات تنتهي عند رأس كيلاطس Cabo Quilates وتضم شاطئ الحراش، بواجهته الرملية والمطلة على الجهة الغربية، وعلى اليسار قبيلة بقيوة المتموقعة وسط كتل من الصخر -مورو نويبو ومورو فييخو- ثم تبقى الجهة المطلة على البحر التي تحفها مناطق إيجدين وحقول الشعير.

كان سيلفستري يريد التوغل في الجبال الريفية ليصل إلى بحر الريف، فيقطع صدر اجدير. وكان ايثبورو يريد أن يمد يده لمن يحبونه في اجدير، وباتحاد القوتين يهدم الجبل الريفي. وامام هذه الاقتراحات ظهر حل شبه سحري وغير متوقع، النزول والمرور من وراء ظهر الورياغليين.

كان صاحب هذه الفكرة رجلا ريفيا، اعتبره المغرب واحدا من الخونة للقضية المغربية، واعتبرته "بقيوة"، بطلا مغوارا لا يشق له غبار. كان هذا الشخص يُعرف باسم ثيفيرا، وقديما كان قرصانا. لكنه في شتاء 1921، اصبح ملاكا ثريا وشخصا ذا حظوة كبيرة بين عشيرته. كان ثيفيرا يُضمر حقدا ابديا، وعداوة كبيرة لجيرانه في بني ورياغل، فاقترح على سيلفستري التعاون معه، والسماح له بإنزال قواته في قبيلته (بمورو نويبو) ومن هناك انقض برفقة الحامية الإسبانية على الورياغليين، ظنا منه انهم سيستسلمون بعد محاصرتهم، وبهذا يتأتى له الانتقام من ثار قديم.

تلقت قبيلة "بقيوة" سنة 1898 زيارة مفاجأة للوفد العسكري التابع للسلطان، الذي حضر استجابة للاحتجاجات الكثيرة التي صرحت بها مختلف القوى الأوروبية التي نددت بتعسفات القبيلة. فانضم الورياغليون البرغماتيون إلى العلويين. ولإخماد ثورات البقيويين كان لابد من إخضاع الحدود الغربية، وإرسال إشعار جدي للشرق حيث تمسمان. فلم ينس البقيويون هذه المطاردة الثنائية، فظلوا يتحينون الفرصة للانتقام، واعتقدوا أن سيلفستري هو من سيساعدهم على الأخذ بالثار.

قصد ثيفيرا مليلية للتحاور مع سيلفستري، فاقترح عليه إحكام القبضة على الحسيمة. كان ثيفيرا خبيرا بالأمور الاستراتيجية، كيف لا، وهو الذي كان في الماضي قرصانا، فسحرت هذه الفكرة الجنرال والكولونيل مورالس، وكلاهما كانا شاهدين على هذا اللقاء. احس سيلفستري بأهمية هذا العرض فسارع بتبليغه إلى برنكر بقوله، «خلال المباحثات اخبرني انه من وجهة نظره يستحسن النزول بمورو نويبو، وهو ما ستفعله كتيبة عسكرية مؤلفة من الفي رجل دون ان تطلق رصاصة واحدة».

كان سيلفستري يطالب بمعطيات عملية، وكان ثيفيرا يتعهد، «وذكر لي بانهم يستطيعون الهجوم على بني ورياغل فور صدور الإشارة عني، وذلك لتصفية حسابات قديمة تعود إلى اكثر من عشرين عاما، زمن مساعدتهم لمولاي بوبكر سنة 1898»[20]. وهكذا تم تحريض السكان ونزلت القوات الإسبانية بمنطقتهم[21]. ائتلفت بقيوة مع الإسبان، وكلاهما كانا يريدان نفس الشيء، كسر شوكة بني ورياغل.

طالب سيلفستري ثيفيرا بمساعدات اكبر بالرغم من تواجد فرقة إزمورن بشقيها، ازكار وتاغيديس «وهذا معناه كل القبيلة»، فوافق ثيفيرا، ووعد بالاتفاق مع مانويل ثيفانطوس بونانيو الذي كان وقتها كومندان الحسيمة. وفجاة تخلى سيلفستري عن كل المخططات. بالرغم من اعتبار ثيفيرا «رجلا يعمل بكل وفاء»[22] فيا ترى اي طيف خطير مرّ بمخيلة الجنرال؟.

اختلى سيلفستري بنفسه. ورسم أمام عينيه كل الخطط التي قد تسمح له بغزو الحسيمة، وها هو قد اضاع من يده الآن الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه ان يضمن له الانتصار.

سيلفستري يطلب المساعدة والمشورة من مورالس

قبل ان يكون بطلا لأنوال، كان سيلفستري محط إطراءات الإقامة العامة. فمن تطوان بعث له برنكر برسالة جاء فيها: «عزيزي مانولو، بوصولي إلى تطوان وجدت رسالتك التي بعثت بها إليّ يومه الثامن عشر، والتي تخبرني فيها بمراحل التقدم الهائل الذي انجزته ببني سعيد، فلك ان تعتبر هذا العمل فصلا مشرقا في مسيرتك العسكرية، فليس بالإمكان ان نفعل احسن او افضل مما صنعت انت، فلتطمئن ولتقر عينا»[23].

وقد استغل المقيم العام هذه الفرصة وطلب من سيلفستري تقريرا عن الاحتلال المستقبلي لمدينة الحسيمة باعتباره «النقطة الأساسية التي تجب دراستها».

كانت افكار سيلفستري تتناسب كثيرا مع افكار برنكر، ففي حديثه جاء ما يلي: «بالنظر إلى المواقع التي نحتلها اليوم، سوف يكون من السهل المضي قدما عبر الشاطئ، وليس عبر الجبال بحثا عن منابع النكور»، لكنه في نفس الوقت حذر سيلفستري قائلا: «كما تعلم جيدا، علينا ان نحتاط من جملة الصعوبات التي قد تحدق بنا، فقد لا تصلنا الجيوش التي نحتاجها لنامن مكر اعدائنا على طول هذا الخط».

إلى هنا كان برنكر واضحا مع نفسه، لكنه في الأخير، طرح على سيلفستري إشكالية اربكته «ايستحسن ان نواصل الطريق عبر هذا الخط (الساحلي) دون توغلنا (في الجبال)، ام من الأفضل المضي نحو نقط اخرى من جهة اليسار قبل التقدم في هذا الاتجاه؟»[24].

زعزعت هذه الطروحات كل ترتيبات سيلفستري، فالمخطط الموالي لا يدخل في دائرة اختصاصه، كانت هذه تكتيكات برنكر المضنية، وما عليه الآن إلا ان يجيب عن كل تلك الطروحات. لأجل هذا الغرض التجأ إلى مورالس لطلب المشورة والمساعدة، فأجاب هذا الأخير باحتراسه المعهود، معطيا نظرة موضوعية عن الأمور الحربية، وقدم تقريره الذي وجهه إلى سيلفستري في السادس عشر من فبراير، وقت انتهاء عمليات بناء تل بوجماجن.

تحدث مورالس عن «صفوف الجيوش التي امتدت على طول الخط» وذكر ان الزحف نحو الأمام لن يتم إلا «بانتهاء تداريب التجنيد في أواخر ابريل». كان مورالس يأخذ بعين الاعتبار ظرفا آخرا «يتجلى في تعاطفه مع ما حدث لحمو بولجريف، النجل الكبير لصديقنا الشيخ محمد بولجريف الذي قُتل في اكتوبر، فافضل اصدقاء إسبانيا لقوا حتفهم ونصبت لهم كمائن.

أصدر سيلفستري تعليماته الصارمة للبحث في الحادث، كان يخشى ان تكون «الجريمة من صنيع رؤساء متميزين في منطقتنا، تورطوا في الحادث بسبب مشاكل مع وكالة المناجم، وإن كان الأمر كذلك، فالمشكلة ستكون مقلقة وخطيرة للغاية»، لكن تداعيات الجريمة كانت مشؤومة «إذ تربصت مجموعة من اللصوص منتظرة خروج المدعوين من

إحدى حفلات الزفاف، فترصدوا لبولجريف الذي ذهب ضحية، لقد عرف ابناؤه قاتل ابيهم، فاستأجروا رجلا تولى مهمة تنحية القاتل، فكان الأمر كذلك، لكن اخ القتيل الثاني، لم يهدأ له بال إلى ان انتقم من قدور بولجريف، وهو واحد من ابناء الضحية»[25].

كان مورالس يهتم كثيرا بهذه التفاصيل، وفجاة وجد نفسه امام قيادة منهارة لقبيلة بولجريف، وامام شكوك ولاء عائلة عبد الكريم، قرر تاجيل كل عملية عنف، وتكريس الوقت في توطيد دعائم تمسمان «ولن تنتهي هذه العمليات حتى يوليوز او غشت»، وبالوصول إلى هذه النقطة طرح على نفسه السؤال التالي: «ايمكن لنا ان نفكر في مواصلة الزحف تجاه النكور؟ الجواب كان لا».

لقد تذكر مورالس «العلاقة الطيبة التي تجمع، ومنذ عهود طويلة، اعيان اجدير بسلطاتنا»، فالقبيلة «كانت توزع فيما بينها بالكامل العشرة آلاف بسيطة التي كانت تصرف كمعاشات»، وفي خلاصته، لم يترك مورالس مجالا آخر للاختيار «هذا هو راي الرئيس الذي من واجبه التحذير من المرور بالنكور قبل الخريف المقبل، هذا إذا اردنا ان يكون النجاح ثمرة الحيطة والتبصر، لا ثمرة التسرع والتهور».

في اتجاه الحسيمة: مخطط لغزو العالم

مرت اسابيع وسيلفستري ما يزال غارقا في تخميناته، وبعد مدة زمنية قرر الهجوم بطريقة شمولية. وبما ان تكتيكاته الحربية كانت تحث على تقويض اجدير من الداخل، فإن رسمه التخطيطي جعله في مواجهة اربع قبائل في نفس الوقت: تمسمان، وبني توزين، وتفريست وبني ورياغل، ومن الوراء كانت قبيلة بني أوليشك المنضوية تحت لوائها كل من انوال وإيزومار، وقبيلة بني سعيد التي كانت تهيمن على جبل ماورو، ومن جهة اليمين كانت هناك دار الكبداني ومطالسة التي كانت تسيطر عليها دار الدريوش، وسوق الثلاثاء في جهة اليسار، واخيرا قبيلة بني بويحيى التي ضاعت منها أعرويت وغدت بؤرة للتوتر الريفي.

وفي العاشر من مارس 1921 اخبر سيلفستري برنكر بمخططه وظل ينتظر الموافقة او المعارضة.

وبعد سنوات عديدة من وفاته، وإلى حد الآن، مازالت أصابع الاتهام تتجه نحو سيلفستري بسبب إصراره على الوصول إلى الحسيمة. وبعد وفاته ووفاة كل جيشه بسبب اعتماده لسياسة مشؤومة -تنص على غزو المغرب بالقوة-، وبسبب الجراة التي منعته من البوح لرؤسائه -برنكر والملك نفسه- بخبر الانتحار الذي اقدم عليه برفقة الجيش، يئس الشعب برمته من هذه السياسة.

ورغم محاولات سيلفستري تفادي شكوك برنكر المنصبة على تقديم اليمين وتأخير اليسار، فقد وجد نفسه في النهاية حبيس هذه الشكوك. ورغم ثقته الكاملة في تخطيطاته التي ترمي إلى الهجوم (عبر الشاطئ)، إلا أن الأمور اختلطت عليه، وتشتتت قواته، والغيت كل إمكانيات الانتصار بسبب خطته التي تقضي بالانطلاق من ثلاثة محاور، من اليمين ومن جهة البحر توجه الضربات لسيدي ادريس وسوق الثلاثاء، وسوق السبت، من الوسط في اتجاه الداخل لأنوال، وسوق الخميس، وسوق الأربعاء، واخيرا، ومن جهة اليسار، المنطقة الصخرية العليا انطلاقا من خط الهجوم تزي عزة، وإجرموس وسوق الأحد.

في البداية صُوبت أولى الهجمات نحو جبل أبران في ضربة وُجهت إلى الأعلى، وفيما بعد انحرفت في اتجاه البحر مرورا بقبيلة بني بويدر، ووصولا إلى خليج الحسيمة. وشُنّت عمليات أخرى في اتجاه الجبل، واتخذت طريقها في اتجاه توغروت Tugrut -التي ساندت أيثبورو سابقا- وقبيلة بني اسكي، وكلتا القبيلتين كانتا من فخذ التمسمانيين، فيما حققت عمليات أخرى بالهجمات الأولى، وكان الهدف منها هو السيطرة على المجرى السفلي للنكور، والتأكد من التحكم من الحسيمة. كان هجوما كلاسيكيا ثلاثيا، وفي حد ذاته كان حماقة.

لم يكن هدف سيلفستري في البداية إحكام القبضة على النكور ثم التقدم فيما بعد نحو الحسيمة، بل كان يريد غزو العالم. ففي إعلانه الحرب على أربع قبائل قوية، تاركا وراءه أربع قبائل أخرى في الخلف لا تقل أهمية عن الأولى -ظنا منه أنها مطيعة مذعنة- كان يتخيل إليه أنه الخاندرو Alejandro في طريقه إلى الهند الوسطى. فَقَدَ سيلفستري هيبته، وأصبح رجلا آخر، رجلا لم يعط مهلة لبطولته المستقبلية، وعن أي بطولة نتحدث في غياب الجيش ووسائل هذا الهجوم؟ ليست القضية قضية مرونة بل قضية تبصر، كان

ينص عليها مورالس منذ البداية، لم يكن هناك جيش للقيام ولو بهجوم واحد، فكيف التحمس لهجوم ثلاثي يُشن عند جبهة عريضة لا حد لها ولا حصر. كانت مسافة عشرين كيلومترا التي تفصل شواطئ سيدي ادريس عن المرتفعات الوعرة لتيزي عزة، مسافة قد تصبح تقريبا أربعين كلم إذا ما توهجت نيران المدافع عند بدء الهجوم.

كان سيلفستري تطبيق لإنجاز كل ما ذكره لبرنكر. ستين الف رجل (خمس فرق) وثلاثمائة مدفع رشاش، وطائرات ودبابات واسطول بحري، هي الكمية التي وُضعت سنة 1926 على طول الخط لإعادة احتلال انوال. لكن سيلفستري لم يتمكن سنة 1921 من حشد سوى اثني عشر الف شخص، وذلك بعد إدماج جيوش الصف الأول والثاني والثالث في جبهة واحدة. كان الأمر يتعلق بجيوش نظامية وليس بأناس مبتدئين، كانت الصفوف حبلى بعساكر مؤهلين وليس بأشخاص تلقوا تدريبات رديئة غير كافية ومعنوياتهم تحت الصفر، كما تم إدماج ضباط جيش وليس فرقا مزيفة تجنح للخمول والركون للراحة كما كان حال البعض..

ظن سيلفستري ان النجمة التي تتلألأ فوق كتفه تكفيه لإحكام القبضة على الريف، ففي تفريست، أعرب عن جراة لا تخلو من الحيطة، لكنه في ليالي شهر مارس 1921، ضاعت منه كل الفرص في مليلية. وبقيت جراته هي الرفيق الوحيد له. كان سيلفستري يستوعب فكرة هجومه، وكانها نسخة طبق الأصل للمقاومة البطولية التي ابداها زميله إدوارد دي كاستلونو Edouard de Castelnau بفلاندس flandes، حينما شاهده في دجنبر 1916 في قلب الميدان، يقاوم الألمان بفرقة عسكرية يصل عددها إلى مائة جندي وستة، مقابل مائة جندي وواحد وعشرين في عملية دفاع مستميتة عن سبعمائة كلم[27]، وهو ما يعني عشر فرق، ونصف فرقة على راس كل سبعين كلم. أي بمعدل فرقة لكل سبعة كيلومترات. لم يكن الريفيون كالألمان طبعا، لكن عداوتهم كانت اسوا، حقا لا يتوفرون على قوات جوية، ولا على مدفعية او رشاشات او قاذفات هاون، ولم تكن في حوزتهم دبابات ولا قذائف غازية، وكانوا يفتقرون إلى هيئة ضباط جيش عليا، إلا انهم كانوا مهرة في تصويب السلاح، مهارة شيطانية، وكانت لهم شراسة ومقاومة خيالية اثارت دهشة الجندي الأوربي اثناء القتال، حيث كان كل واحد منهم رئيسا، خنجرا او حجرا. لم يكونوا عساكر بل كانوا عصابات ومقاومين.

لم تكن لسيلفستري فرقة عسكرية بالمعنى الصحيح، لكنه ورغم ذلك فكر في الهجوم على مقربة ثلاثين او اربعين كلم، كان لا يعرف متى، وكيف ولا باية وسيلة سيتم الهجوم. وقبل الموت المحقق بساعات قليلة، وفي مكان يقع ما بين انوال والدريوش احصى سيلفستري رجاله الأوفياء الموزعين على نقط معينة في الجبال، والمقدر عددهم باكثر بقليل من ستة آلاف او سبعة آلاف رجل. اما الرقم: خمسة وعشرين الفا وسبعمائة وثمانية وتسعين رجلا فقد كان مكتوبا على الورق فقط.

وفي المقابل كان عدد الورياغليين يقدر بستة آلاف رجل مسلح بالبنادق، وعدد التمسمانيين هو الفين وثمانمائة رجل، والتوزنيين الفين وخمسمائة رجل، والتفريسيين ستة آلاف رجل، كان الواحد منهم يواجه اثنين من جند العدو بمنطقة انوال - الدريوش، كل هذا دون احتساب مؤخرة الجيش التي حافظت على هدوئها، هكذا إذن كان رهان الإسبان. تلقى برنكر الخطة فاعجبته اشياء، واغاظته اشياء اخرى، وكان ينظر بعين الريب إلى ما جاء في هذا المخطط من الأمور السياسية، خاصة تلك التي تتعلق -بالعلاقة مع القبائل التي كان يعتقد انها موالية لهم- لكنه لم يجرؤ على تغيير اي شيء، واكتفى باعتبار المخطط وثيقة قابلة للإصلاح، وان اقتراح مخطط آخر لن يفي بالغرض، لأن إصلاحه سيغير معالمه بالمرة. فقرر برنكر الذهاب إلى الريف للتحدث مع صاحب المخطط.

برنكر بانوال: هوس بالغزو

في الثامن والعشرين من مارس خرج برنكر قاصدا مليلية على متن يخت حربي يعرف "بالخيرالدا"، فالتقى في "ترغة" بشيوخ غمارة وعرض عليهم «التقدم بجيوشهم في اقرب الآجال» رفقة جيوش سيلفستري، فقبل الغماريون لتيقنهم من صدق حديث الجنرال. بعدها واصل هذا الأخير رحلته، وتفقد في طريقه مدينة الحسيمة، وهناك كان سيلفستري في انتظاره على متن بارجة صغيرة تعرف باسم لايا Laya. كان برنكر يصر كثيرا على تمركز السفن الحربية على الساحل، وهو عرض قبل به سيلفستري، واذهل كثيرا الكولونيل مورالس الذي فكر في الوضع السلبي الذي قد يخلفه هذا الاستعراض الحربي الهائل في نفسية سكان اجدير.

لم يعر برنكر اهتماما كبيرا لهذه التحذيرات، ومرت الشهور، فبعث نجل الكولونيل مورالس -المسمى كذلك بغابريل- بوثيقة فريدة من نوعها إلى بيكاسو، يتحدث فيها باسم المقيم العام «وحتى يتبين للناس اجتهاده، وصل في صبيحة يوم مشرق إلى ساحة الحسيمة في موكب فاخر تحفه عدة بواخر حربية». وحسب غابريل مورالس «فإن مكتب الشؤون الأهلية (بالحسيمة) وصف هذه الزيارة بالغير المناسبة، نظرا للوقت الذي جاءت فيه، كما نعتها كذلك بالمشؤومة نظرا لنتائجها»[28].

وقع إذن الحدث المشؤوم، ولم يبق من حل آخر سوى متابعة الحفل إلى النهاية، نزل سيلفستري بالحسيمة، ولم يستطع برنكر اللحاق به لاضطراب أمواج البحر وهيجانه، فعوضه الكولونيل غوميس سوثا Gómez Souza، نجل خوردانا. فيما بعد استقبل سيلفستري وغوميس سوثا بعثة من وجهاء أجدير، ولم تسفر المحادثات عن أي اتفاق، وتروي بعض الروايات أن الغضب كان سيد الموقف «لأن سيلفستري استقبل الوافدين ببرودة تامة»[29].

وثمة تغيير حدث في هذه المواقف فور نزول برنكر في (الفاتح من ابريل) بعين المكان، واستقبل نفس الوجهاء «الواصل عددهم إلى نحو ثمانية عشر أو عشرين نفرا»، بيد أن أولئك الزعماء وبعد إهانة سيلفستري، لم تعد لهم رغبة في الاجتماع مع الإسبان، وبما أن اللقاء هذه المرة عقد مع جنرال جديد لا تربطهم به أي مودة أو احترام، فإن الشكوك المتداولة لن تتغير، والمتمثلة في أن سكان الشواطئ بإمكانهم التعاون مع الإسبان، بينما كان جواب البنووريغليين سكان الجبال معقدا.

ودع برنكر شيوخ القبائل، وفي رسالة بعث بها في السابع عشر من أبريل إلى "إيزا" ذكر له في عجرفة كبيرة، «ليس هناك من صعوبات تُذكر في العملية العسكرية التي نتوخى من ورائها احتلال خليج الحسيمة»[30]، وهكذا بارك برنكر مخطط سيلفستري. بعدها رحل إلى مليلية للذهاب من هناك إلى أنوال. وليته أخذ العبرة من هذه السفرية الطويلة، لأنه لم يكن من قراء خوردانا.

الحسيمة هي من دفعت ثمن الفاتورة باهضا، وهذا ما عبر عنه غابريل مورالس قائلا: «وبعد ساعات قليلة من (رحيل برنكر) قام الموروس بإشعال فتيل العداوة في المنطقة التي كانت تنعم دائما بالسلام»[31].

استقر برنكر بدار الدريوش التي جعل منها مقامه، ومن هناك كان يتفقد المواقع والصفوف الأمامية، وكانت تتراءى امام عينيه صورة جيش هزيل، بكسوة رثة، جيش يؤدي التحية في تثاقل، ويكشف عن تداريب عسكرية دون المستوى. اما شيوخ المنطقة فلم يتوانوا في تقديم فروض الطاعة والولاء المتمثلة في ذبح كبش للاحتفال بنهاية الخلاف، وكان برنكر مبتهلا مسرورا، وفيما بعد رحل إلى ابن طيب ومنها إلى إيزومار إلى ان وصل إلى الحفرة الكبيرة (انوال).

لم تلفت طبيعة المنطقة انتباه برنكر الذي وصل لتوه إلى (انوال)، وفي ود ومحبة كانت القبائل الموالية، من بني اوليشك وتمسمان تتفاوض امام ناظري المقيم العام. كان برنكر لا يميز بين هذه التمثيلية وما سيحل لاحقا، «اما فيما يخص هذه الأرض المنبسطة، فاظنها سهلة الاحتلال، إن انوال هي جنة الاستعمار.

كان برنكر يظن انه من السهل احتلال «كل ثنايا هذه الأرض البطحاء، بمعنى السيطرة على نهر "امكران" بكل تفرعاته التي تصب في سيدي ادريس»[32]، ومن هناك، كانت تتراءى في المقدمة وعلى مسافة 35-40 كلم كل مرتفعات تيزي عزة الهشة، التي كانت تقطع الطريق على الحلم التوسعي الكبير. كان برنكر مهووسا بهذا الغزو الذي بدات تتضح معالمه، فاضحى يتخيل العديد من الصور، ثم توجه إلى إيزا بقوله «من الناحية العسكرية، اظن ان مشكل الحسيمة يمكن اعتباره في متناول أيدينا»[33]، كان هذا تفاؤلا كبيرا ومستحيلا. وفي السادس من ابريل زادت حماسة برنكر فاصدر اوامر عامة دُونت في مليلية، وارسلت إلى الجيش بطائق التهنئة على الإنجازات العظيمة، «إنجازات سياسة مقتدرة ومتبصرة، استندت في تطورها على كفاءات عليا، حتى انتهت إلى ضرورة استعمال السلاح» وعن سيلفستري قال «إنه شرف القيادة الإسبانية، وربما يمنعني الحنان الأخوي الذي اكنه له من مدحه بإسهاب كبير» وانهى كلامه بقوله «لكم مني احر التهاني، التي آمل ان اعيدها عليكم قريبا عند الحسيمة ونحن نواظب على مهامنا...»[34]، كان برنكر هو سيلفستري الحقيقي. فلم تكن لديه شكوك ولا تخوفات، كان الإيمان بالنصر هو المعول الأول وليس المخطط.

وفجاة كان الموعد مع مفاجاة تاريخية، ابران والتي راج عنها ان سيلفيستري اخفى احداثها عن برنكر، وهذا خطأ كبير، ففي رسالة سياسية بعث بها برنكر إلى إيزا

-في السابع عشر من ابريل- جاء فيها «بينما كنت انا بانوال كان الجنرال سيلفستري يستعد للقيام بعمليات صغيرة، الهدف منها هو العبور إلى الضفة الأخرى لنهر امكران والسيطرة على جملة من المواقع، وذلك بعد إحكام قبضته على منبع النهر ومؤخرة السهل المحاذي لبني تويزين. فلا ادري إن كان مايزال مصرا على فكرته فارخص له بذلك»، والحقيقة ان سيلفستري كان قد حصل على ترخيص للذهاب إلى ابران، ونفس الشيء بالنسبة لتفريست. كانت الظروف والوسائل والوقت والمخاطر تنصاع كلها لمعاييره كما جرت العادة.

وبعد مضي فترة من الزمن، وبالضبط في الثلاثين من مايو، عاود برنكر مكاتبة إيزا مخاطبا إياه، «فيما يخص مليلية فليس لدي شيء اضيفه، كل الأمور ما تزال على حالها، وبخصوص سيلفستري اوضح، «انه في الأخير لم يحتل واد امكران بغية الحصول على ترخيص»، لكن وبإعطائه هذا الضوء الأخضر خرج سيلفستري في اتجاه المكان المنشود، فاحتله في الفجر الموالي للواحد من يونيو 1921، وهو بذلك لم يخبر المقيم العام بقوله، "إنني ذاهب" لأن رخصة الذهاب كانت بحوزته.

قصف سوق، وسفرية إلى بلد الوليد

بعد صدور اوامر برنكر (في السابع من ابريل) تغيرت الأوضاع بالحسيمة. فكل شيوخ القبائل -بمن فيهم القرصان ثيفرا- الذين تفاوضوا مع برنكر وسيلفستري تلقوا تحذيرات وتهديدات «بإحراق كل منازلهم باعتبارهم اصدقاء مواليين للإسبان»[36]، فقام محمد بن عبد الكريم، الذي نصبته قبيلته زعيما على الحركة بتعقب البقيويين، فقرر ثيفيرا وزملاؤه المقاومة، آنذاك شعر سيلفستري بأن الفرصة قد حانت للنزول بمورو نويبو، لكن برنكر لم يجرؤ على ذلك، فجاء قرار المقيم العام هذه المرة صائبا[37]. لكن وبتوالي اخطاء الجنرالان، تم التوصل في الثالث عشر من ابريل إلى قرار جنوني يقضي بقصف ميادين الريفيين بحجة تخويف المتمردين وضمان وفاء الموالين لإسبانيا.

كان اليوم يوم اربعاء، وهو مناسبة اسبوعية لسوق أجدير، وبينما كان الناس منهمكين في التسوق، إذ سمع دوي الطلقات النارية التي اصابت الناس والسلع. فسقط الموتى والجرحى،

وواصلت المدافع قصفها في اتجاه البيوت الرئيسية، وكانت النتيجة هي توحيد الصفوف، فلم يكن هناك فقط ورياغليون وبقيويون، بل الكل كان ريفيا وعدوا لإسبانيا.

وبعد اسبوع -وفي الواحد والعشرين من ابريل- ابحر سيلفستري من مليلية في اتجاه مالقة، مخلفا وراءه ريفا قد تحالفت قبائله ضده، وفي شبه الجزيرة الإيبيرية كان على موعد مع حدث عسكري مهم، يتمثل في «حضوره الحفل المقام ببلد الوليد بمناسبة تسليم مقاليد رئاسة فرقة كاثادورس إلى سمو الملكة فيكتوريا اوخينيا، وكان سيلفستري هو الكولونيل الشرفي»، تزامن هذا الحدث الاحتفالي مع وضع حجر الأساس "لمبنى الأكاديمية". وهناك ببلد الوليد حيى سيلفستري الأسرة الملكية التي اعربت له مجددا عن إعجابها به، متمنية له المزيد من الانتصارات في إفريقيا، كما كان بانتظاره هناك الوزير إيزا.

وفي بلد الوليد، وبتاريخ الثالث والعشرين من ابريل 1921، التقى سيلفستري بأشهر بطل عرفه تاريخ الفروسية الإسبانية، يتعلق الأمر بالتنينتي كولونيل فرناندو بريمو دي ريفيرا اوربانيخا Fenando Primo de Rivera Orbanija، الذي كان يبلغ من العمر اثنين واربعين سنة، وكان سليل عائلة عسكرية ذات باع طويل، وكان خاله فرناندو بريمو دي ريفيرا إي سوبريمونطي F. P. de Rivera y sobremonte (بعد اثكاراغا Azcárraga) احسن قائد عام بالفلبين، بعد إثكاراغا Azcarraga. اما اخوه، السيد ميغيل بريمو، فقد كان جنرال قسم، تم توشيحه في حرب مليلية لعام 1893 إثر استعادته لمدفع سَطَا عليه الريفيون، وقد اشتهر منذ سنة 1917 بمحادثاته التي تصب في صالح مغادرة المغرب، فكانت فكرته جريئة في حد ذاتها، ورغم ذلك لم يتنازل عنها. لم يكن فرناندو قوي البنية كسيلفستري، ولكنه برز بقامته الطويلة جدا، فكانت له هيئة متميزة، حيث ترعرع في مهد الفروسية الفرنسية بسومير Saumur، وكان بطل مسايفة، كما برهن على شجاعته في الريف حيث كان الرئيس الثاني لفرقة الكانطرا Alcantara، والحقيقة انه كان ضابطا مثقفا ومحبوبا عند الناس، لم يكن بطلا مغوارا أمام العدو فقط، بل حتى مع اصحاب الكمائن. حدث ان تجرا في الحفل الاختتامي في بلد الوليد على ذكر اشياء معروفة لكنها كانت سرية للغاية، وذلك امام «جمهرة من الناس» فذكر «انه إذا استمر الوضع على ما هو عليه في إفريقيا من روتين وانغماس العديد من الضباط

والرؤساء في اللعب والقمار، فإن الوضع لن يتأخر كثيرا في إفراز كارثة حقيقية،[39]، وقبل وفاته صب فرناندو بريمو دي ريفيرا، هذا الرجل الذي دخل تاريخ الفروسية الإسبانية كواحد من أبطالها، جام غضبه على بعض المسؤولين فيما يخص الموت المحقق الذي ينتظر الجيوش الإسبانية بإفريقيا.

هذا وقد ألقى البرلماني كريسبو دي لارا على مسامع البرلمان بعد مضي سنة كاملة على الأرقام الرسمية لهذه المهزلة البيانات التالية: فقد سجل ما بين سنة 1920و1921 ،سبعة وأربعين انتحارا في صفوف الرؤساء والضباط، ،وخسر واحد وأربعون منهم منصبه بعد إصدار قرار لجنة المتابعة، وكان أغلب الضحايا من لاعبي القمار، ناهيك عن الفصل الأسود لقضية الاختلاسات والفساد المالي، والتي كان ،أقطابها كثيرين، حوالي تسعة وخمسين رئيسا وضابطا، ثلاثون منهم كانوا في إفريقيا،[40]. كان فرناندو بريمو دي ريفيرا يحذر من وقوع الكارثة، ويحذر من قبر يخشى الوقوع فيه العديد من الضحايا.

عاد كل من سيلفستري وإيزا إلى مدريد، وتناولا معا وجبة الغذاء مرتين في العاصمة، والتقيا مرة أخرى للاجتماع -كما جاء على لسان الوزير-[41] في قصر بونافيستا، وهناك طالب سيلفستري بما يلزمه من مال ورجال وعتاد وسرعة في التنفيذ، فأمده إيزا بما في وسعه: فلا سرعة في الأداء ولا في المال.

لم يكن الوزير وفيا (لجنراله العزيز)، وذلك لأن اللجنة المكلفة ببيع الأسلحة، والمؤلفة من غارسيا مورينو ومونيوث كوبوس إي فيالبا García Moreno, Muñoz Cobos y villalba، كانت منهمكة في تقييم الكم الهائل من العتاد الحربي العصري الذي تم اقتناؤه مجددا، وبعد فترة زمنية محددة، تلقى إيزا في مكتبه بيانا توضيحيا وتقريرا مفصلا عن حجم المشتريات الوافدة من مخازن حرب الحلفاء، وفي الثاني والعشرين من مايو الموالي[42] تمت مناقشة ذلك الملف بمجلس الدفاع. كان الأمر يتعلق بلائحة عريضة تضم المئات من قذائف الهاون، ومئات المدافع الرشاشة، وبنادق رشاشة، ودبابات، وبطاريات مضادة للطائرات، وقذائف ومدافع من عيار 240 و350 وذخائر حربية. كان ثمن هذه الكميات يقدر بثمانية ملايين بسيطة، قد تصل إلى اثني عشر مليونا، أي ما يعادل ثمن إنشاء السكة الحديدية إلى مدينة شفشاون. سكت الوزير خوفاً

على الميزانية العامة. أما سيلفستري فقد غادر المكان تاركا وراءه هذا الأمل الكبير في التسلح، أمل اخفاه كذلك عن برنكر.

وبعد اللقاء الأخير الذي كان هذه المرة بروتوكوليا، ودع الوزير سيلفستري موشحا إياه بالنجمة الكبيرة كاستحقاق حربي، فكانت الرحلة إلى مليلية، و«على ظهر السفينة، حيتى سيلفيستري الجموع التي اتت لاستقباله في الميناء بكل هدوء وثقة، إنه ذاهب إلى الحسيمة وبترخيص من "الملك"»[43]، وبعد النكبة لم يكن لبريطو Prieto من خيار آخر سوى كشف الأوراق داخل البرلمان، فقد جاء في تصريحه الذي صادق عليه إيزا بنفسه سنة 1922 ما يلي: «لقد اتضح الآن ان سيلفستري -وبوصوله إلى مليلية- كان يتنمق في عباراته، ولا شان لي بذلك، فكما تعلمون نحن جميعا وبصريح العبارة، من هواة التشدق بالكلام...»[45].

وفي السابع عشر من مايو عقد سيلفستري اجتماعا مع ضباطه، ومن بينهم الملازم كولونيل فرنانديث طماريت Fernández Tamarit وكبابلانكا capablanca، كانت معنويات الجنرال خليطا من التشاؤم المكتوم والسخط الظاهر. فتوجه نحو طماريت وهو يشتعل غضبا، محذرا إياه قائلا: «لم يكن لدي من خيار آخر سوى الذهاب إلى الحسيمة، فقد افسدت زيارة برنكر إلى الجزيرة كل شيء، كان علي الذهاب بسرعة، ولم تكن الظروف ملائمة، فكانت الحاجة ماسة إلى ابسط الإمكانيات الموجودة وبوفرة في جبالة...». كان سيلفستري محقا، وكان يتذمر بشدة، فغالبية العتاد الذي كان «مودعا في مليلية كان يخرج في اتجاه آخر (نحو سبتة والعرائش)، ولم يستقبل هو اي شيء»[45]، ولم يكن بمقدور فرنانديث طماريت وكبابلانكا فعل شيء سوى الإعلان عن تاييدهم للجنرال الذي بدا عاجزا وهو يتخبط في ازمة ضمير مشؤومة تملي عليه إما الهجوم بلا عتاد ولا حلفاء او التخلي عن القيادة، ولا شيء من هذا القبيل حدث.

كان فصل الربيع يودع الريف، والحسيمة تنتظر سيلفستري، وكانت ترخيصات الدولة بحوزة الجنرال. كان برنكر وإيزا على علم بهذه الأمور، اما الملك فقد اعطى الضوء الأخضر، إذن فلتكن الانطلاقة ، فانطلق سيلفستري بدون ثقة. وبعد مضي سنة، ذكر الكلاثامورا Álcala zamora، ان القائد العام بمليلية توجه نحو الحسيمة بدون قوات كافية، وبدون مخطط متناسق، ولا حتى مشروع للانسحاب قائلا: «إن الجنرال

سيلفستري تحالف مع النصر وإلا، فإن التحالف سيكون مع الموت،[46] ولم يكن هذا الأمر صحيحا لأن سيلفستري كان وفيا لكلمته.

انتهى الأمر بجيش إفريقيا إلى جسد تنخره الديدان

في الوقت الذي كان يسافر فيه سيلفستري يذهب فيه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ويعود منها عازما على غزو الحسيمة، كان الكسل والانحلال يتعقبان مشاريعه. لكن هذه المرة عاد بكل رباطة جاش للانتصار في حرب خاض غمارها بلا جيش، بل بفرق عسكرية هزيلة.

لم يكن هناك من وجه تشابه بين جيوش 1921 وجيوش 1909 إذ لا يمكن الحديث عن نفس مستوى الأخلاقيات التي كانت لجيوش عام 1859. باختصار شديد، لم يكن هذا الجيش إفريقيا، ولم يكن لديه إحساس بأنه يحتل أرضا، فغالبيتهم توهموا أن الخطر بسيط، وأن هناك مكافآت في الطريق. وقد استبدل البعض هذه التطلعات، بعدم احترام الأوامر، واستبزاز مالية الدولة، حيث قررت هذه المجموعة الثانية القليلة العدد والجريئة من حيث استهتارها، وقلة حيادها أن تتاجر بالمغرب. وقد كشف الصحفي الغرناطي رفائيل لوبيث ريندا R. López Reinda الستار عن مؤامرتهم القذرة والمتعلقة بمخزن العرائش، حيث الأمور كانت تجري بسرية تامة، لكن العدالة العسكرية قامت بمهامها، كما أن الأرقام كانت مهولة، فإذا كان المخزن يدير ما يقدر بخمسة عشر مليون بسيطة سنويا، فإن الاختلاسات الشهرية كانت تصل إلى ثلاثمائة الف بسيطة، وهذا مبلغ هائل، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الراتب الشهري للقائد العسكري هو ستمائة بسيطة شهريا. وقد ظلت هذه الاختلاسات على حالها منذ سنة 1918 اي منذ تولى مانويل خوردانا بيريث مهمة صرف الرواتب الشهرية بإدارة الإمدادات والتموين بالمخزن، وكان عمره آنذاك أربعة وثلاثين سنة، وكان معروفا بحياته «التي لا تخلو من تعليقات»[47].

هكذا إذن، مهدت هذه التشكيلة العسكرية الإسبانية المعتوهة في المغرب السبيل لعمليات غش واحتيال إجرامية، في وقت كانت فيه العشرات من المواقع النائية تحتاج إلى الكثير من المواد الغذائية لكي تقتات. فموقع واحد كمِسراح Meserah، كان يحتاج

إلى إمدادات تقدر بأربعمائة وخمسين حمولة، وقافلة أسبوعية، وحسب الحسابات الرسمية كانت الحمولة الواحدة تساوي ستة وثلاثين بسيطة، في حين كان الثمن الحقيقي هو 19,85 بسيطة[48]، وكان هذا الثمن يرتفع أكثر كلما زادت الشحنة، وكانت الحصص يتعاقد عليها، لكنها كانت لا تصل بالرغم من دفع ثمنها مسبقا. وإذا حدث ووصلت الحمولة، فإن المتعاقد كان يقدم وصلا بكمية مضاعفة، وهذا بالضبط ما حصل لأوركيزا Urquiza، التاجر التعيس الذي سلم أربعمائة وخمسين طنا من التبن، وكان مجبرا على إعطاء وصل بثمانمائة طن، فيتقاضى ثمن أربعمائة طن فقط[49].

كانت الحصص المتفاوتة في المال تودع في جيوب من وصفهم لوبيث ريندا بجماعة البخلاء، المكونة من القائد إميليو مونيوث كالشنيري Emilio Muñoz Calchineri (مدير المخزن) وخوصي غارسيا رسطريبادا José García Restrebada (رئيس الإدارة بالعرائش) والقائدان فرناندو غرسيا بريمون Fernando García Bremón، وماورو رودريغس آيير إي خوردان Mauro Rodriguez Aller y Jorda، إضافة إلى وكيل وزارة الدفاع البرلماني السابق، الجنرال فرانثيسكو مونطيس ديل كستيو، فهذا الأخير كان يتقاضى راتبه في العرائش، ويعيش بمدينة طنجة في فيلا تعرف باسم "بورشيط"، وكانت له حاشية عريضة من الخدم، ومجموعة من السيارات من نوع بانهرد Panhard ودلهاي Delahaye.

استمرت هذه الخروقات إلى حدود حرب أنوال، بداية مع السيد خوردان الذي أعطى لنفسه رخصة لمدة شهرين، لأسباب مرضية مفتعلة، فذهب إلى مدينة روندة الإسبانية حيث يملك مزرعة هناك ،يقدر ثمنها بثلاث ملايين بسيطة، ثم حلّ بعدها بميناء سانتا ماريا ،حيث تعيش عشيقته،[50]. وبعودته إلى العرائش، طلب تأجيل مجموعة من الملفات، فعلل زملاؤه الموقف بأنه باسم القانون لا يمكن مطالبته بشيء. كان خوردان قد أقسم على الانتقام، وكان يتحين الفرصة فقط، فحلت هذه الأخيرة في فاتح شتنبر 1921 بعد انتهائه من إغلاق حسابات الشهر المنصرم. فخلال تلك الأيام المشؤومة التي كان فيها جيش سيلفستري، والذي كان يقدر عدده بعشرة آلاف رجل، يعاني ألم الحصار والموت، كان القائد خوردان يجمع الأرباح الطائلة التي وصلت إلى مليون وخمسة وخمسين ألف بسيطة، جنيت من جراء تجويع الجيش، ورداءة

أسلحته. وأمام هذا الكم الهائل من الثروة اتخذ خوردان قراره بالاحتفاظ بكل شيء في حوزته، ووضع زملاءه المندهشين أمام خيارين: فإما الكتمان وعدم البوح بشيء مقابل توقيع الاستقالة من الجيش، وإما كشف الأوراق وفضح المستور[51]، فحصل ما لم يكن متوقعا، إذ وشى اللصوص باللص الكبير، وبدوره تكلم خوردان بكل وضوح واعترف بكل الحقائق.

اجريت محاكمة لسان خورخو الذي صار فيما بعد كومندان عام بالعرائش، وكذا "البورغيطي" Burguete المقيم العام الجديد بعد استقالة برنكر سنة 1922، وخلال جلسات التحقيق كان الأضناء مجبرين على تقديم توضيحات بشأن «النتائج الخطيرة للقضية»[52] التي تابع ملابساتها الجنرال جرمان خيل يوسطي Germán Gil Yuste. وحسب لوبيث ريندا، دفع مونطيس ديل كسطيو Montes del Castillo غرامة تقدر بـ الف وخمسمائة طن من الشعير المخزون باسمه في الدار البيضاء[53]، وحُكم على خوردان بعشرين سنة حبسا، نُفذت ابتداء من يونيو 1923. اما عن المحامي الذي تولى الدفاع عن القضية، وهو العميد خوان اونثيطا Juan Unceta فقد أصابه الندم من المرافعة، وبالتالي تنازل عن الملف. كما تقدمت السيدة دورا دي خيلس Dora de Giles زوجة خوردان الوفية بطلب عفو من الملك. وهكذا وبتاريخ الثاني عشر من يوليوز 1927 كان خوردان مايزال سجينا بحصن الآشو El Hacho بسبتة «في انتظار ان يتم أربعة عشر سنة وثلاثة شهور وتسعة ايام في السجن»[54]. ولم نستطع نحن التأكد من قتل القائد بعيار ناري بعد الإفراج عنه كما كان شائعا.

بعد هذه العقوبات لم يتجرأ احد على التورط في فضيحة من هذا النوع، وإن كانت هناك تحقيقات تفيد عكس ذلك (انظر التقارير التفصيلية لكريسبو دي لارا في البرلمان)، حتى الجيش لم يكن بمعزل عن هذه الاختلاسات ، فالجنود كانوا يرون كيف أن الضباط كانوا يسرقون، فبادروا هم كذلك بالسرقة والنهب بطريقة جد سهلة وجد انتحارية، تلخصت في بيع الأسلحة والرصاص لرجال القبيلة.

وصل الجنون بالجيش إلى ذروته، فرضي أولئك الجنود اللصوص ببيع حياتهم إلى قتلتهم، وبما انهم كانوا يعرفون ان الرجل الريفي أو الجبلي هو شخص خبير بالأسلحة، يرفض شراء كل سلاح انتهت صلاحيته، فإنهم كانوا يقدمون لأعدائهم اجود ما لديهم

من عتاد حربي، وكانت عملية البيع والشراء تتم على هذا المنوال: يقوم المشتري بفتح فوهة البندقية، ويدقق النظر في الزناد، ويقلب كل آليات المدفع، وكان البائعون يقبلون بالاحتفاظ بالسلاح الذي لا ينفع ولا يجدي، أما ربحهم فكان لا يتعدى المائة أو ثلاثمائة بسيطة للبندقية الجيدة، أو خمسة وعشرين ريالا مقابل بيع خمسة وعشرين رصاصة، وكل رصاصة كانت تعني النيل من حياة جندي إسباني. لقد كان البخل شديدا إلى درجة أن الأثمان كانت جد بخسة، وقد تحدث تقرير سري أرسله السكرتير الخاص لألفونصو الثالث عشر ما بين 1909 و1931 إلى إميليو ماريا دي طورس Emilio María de Torres، عن طبيعة هذه القذارة بدون تحفظ.

وجاء في هذا التقرير المصنف بـ"السري" والمؤرخ في التاسع من أكتوبر 1919، أن خبر تزويد القبائل الريفية بالسلاح من جهة الشمال، وبالضبط من طنجة ومن جهة الحدود المتاخمة لمنطقة الحماية الفرنسية لا يعدو كونه "أسطورة"، والحقيقة هي «أنه منذ أحداث مليلية لسنة 1893 وحتى أحداث تطوان وطنجة، والمقاومة الريفية تشتري من الجنود الإسبان كل خراطيشهم، سواء تلك التي يبيعونها أو تلك التي تسقط منهم من أحزمة الرصاص»[55].

ولكي يدعم وجهة نظره، ذكر المخبر المجهول الاسم -والذي يذكرنا أسلوبه بأسلوب فيالبا Villalba- أن «أفضل دليل على ذلك، هو الذخيرة الحربية من نوع ماوسر Mauser، فأجودها كان رخيصا ومتوفرا، أما الأسلحة الأخرى ذات الجودة العالية فكانت باهضة الثمن، وقد فكر هذا المُخاطب في تقديم حل ينص على «أنه لا يوجد من حل آخر لتقويض المقاومة الريفية والجبلية سوى إمداد جيوش إفريقيا ببنادق ورشاشات من عيار مخالف "للماوسر"، وهذا شيء رخيص ومتيسر في نفس الآن، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما تكتنزه مخازن الأوروبيين».

كان برنكر وقتها وزيرا للدفاع، ولم يصدر عنه أي اقتراح للملك، وأمام علم هذا الأخير بالمشكل الرهيب من طرف طوريس Torres، نحى برنكر وخلفه في المنصب إيزا، وداخل إدارة الإمدادات والتموين. كان عدد الضباط الذين يسرقون كثيرا، وأغلبهم كانوا من الجنود الذين باعوا حياتهم بالخراطيش التي سوف تخترق أجسادهم يوما. فقد كان الطمع في الحصول على المال يقابل الموت المُحتوم.

وفي سنة 1921 كانت المتاجرات الحقيرة مازالت سارية المفعول، فقد كان جيش إفريقيا كان ينهار يوما بعد يوم، في حين كان هناك جيش آخر يقوم بمهام الأول، نخص بالذكر هنا الجيوش الأهلية، فعوض أن نرسل افضل الضباط لقيادة اجود العساكر، كانت المناصب في الشرطة الأهلية -والتي كانت تحظى بعناية كبيرة في زمن لاريا Larrea وايثبورو- بيد هيئة ضباط فاسدة، جاهلة ومستهترة بطبيعة الرجل الريفي والجبلي[56].

ففي الريف الإسباني، كانت هناك فوضى حقيقية في النظام، وقليل هم الضباط الذين يواظبون على الحضور، وعلى قيادة وحداتهم العسكرية بانفسهم، فالكل كان يفضل الإقامة بمليلية، مدينة النزوات والراحة. اما والي إقليم الناظور، التنينتي كولونيل باردو اغودين Pardo Agudin فقد كان يقيم بدوره في مليلية ،بصفة دائمة،، اما الملازمون الآخرون والقياد فقد كانوا ،يتناوبون على قيادة الطوابير كل عشرة او خمسة عشر يوما،، في حين كان ،رؤساء الأركان الحربية يُعينون ليلة خروج الطوابير، وكان من الصعب جدا أن يخرج نفس الضابط مع الطابور الواحد إذا ما كانت هناك عمليتين عسكريتين مختلفتين،[57].

كان المشكل العويص يتلخص في العدد، عدد الجنود الحقيقيين المتواجدين على ساحة المعركة، ففي الثلاثين من يوليوز 1921، كان جيش سيلفستري يتالف من ثلاثمائة ضابط، وتسعة آلاف جندي وثلاثمائة وثلاثة، موزعين على مائة وواحد وعشرون موقعا، وكانت برفقتهم الفان وخمسمائة وثمانية وسبعون دابة، وبعد مرور ثلاثة اسابيع، ارتفع العدد لينتقل إلى خمسمائة وثمانية وثمانين ضابطا وستة عشر الفا وخمسمائة واثنين وثمانين جنديا، واكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة واثنين وتسعين دابة موزعة على مائة واربع واربعين موقعا.

وفي عملية جديدة لتفقد صفوف الجيش تم إحصاء ثمانمائة وخمسة واربعون رئيسا وضابطا وعشرين الف جندي ومائة وتسعة وثلاثين وخمسة آلاف ومائتين وواحد وخمسين دابة[58].

وفيما يخص النقاش حول الدواب، يوافينا كريسبو دي لارا Crespo de Lara بتعليقات مضحكة، فقد ذكر في إحدى جلسات البرلمان ،ان الجياد والبغال، كانت

تموت كلها تقريبا في نهاية الشهر، ونادرا ما تموت في مستهل أو منتصف الشهر. ومنذ ان حطّ الجيش دحاله، والدواب تموت في الأيام الأخيرة للشهر، وبعدها احتدم النقاش حول علف تلك الدواب، وكأنها كانت تعيش الشهر كله»[59].

ومن جملة الابتزازات التي كانت موجودة كذلك، نجد سوء استعمال ما كان يصطلح عليه "بالسايرات العسكرية السريعة"، ففي سنة 1915 ندد بابلو إغليسياس Pablo Iglesias بكل تلك الخروقات[60].

وكل ما في الأمر، ان عائلة واحد من الجنود الاحتياطيين بإفريقيا، اقتنت سيارة عسكرية سريعة من طراز "فورد اش-ب 20" -بثمن يقدر بأربعة آلاف بسيطة- ووهبتها للجيش، واشترطت أن يبقى الجندي صاحب السيارة سائقا... ويصحبه واحد من المساعدين، وقد عُرفت هذه العملية القذرة باسم "كمين فورد" حيث ندد السيناتور خوان سرديل فراس Juan Sarradell Farras من اليسار الليبرالي «بأولئك الجنود اصحاب السيارة، الذين استغلوا هذه الهدية»[61]. واضاف قائلا: «إن اقل ما يمكن أن يطالب به جيش، هو العدالة في التضحيات، والمساواة أمام العدو. ففي المغرب لم تكن لهذه المساواة وجود».

قال السيد آنخل رومانوس إي سانتا رومانا Ángel Romános y Santa Romana بخصوص هذه السيارات العسكرية السريعة، إنه كان من الأولى «البحث فيما إذا كانت هذه المركبات ملكا لهيئة الجيش، وإن كان الحال كذلك، فبأي طريقة تم اقتناؤها، وما مصدر المصاريف التي تُصرف للحفاظ عليها».

وحسب رومانوس ساعد «هذا الكم من الأخطاء السياسية-العسكرية القومية وكذا الأخلاقية، في تقزيم قوة القيادات، واضعف روابط النظام بينها، فإذا ما حلت الساعة، لم يجد هذا الجيش قوة يجابه بها الشتات والرعب»، وانهى كلامه بهذا الحكم «لا القيادة كانت تثق في اتباعها ولا هؤلاء كانوا يثقون في القيادة»[62]، وفاجعة انوال يمكن تلخيصها في هاته العبارات.

وبعد وفاته بشهور، تمت معاقبة الكومندان العام بمليلية داخل البرلمان بهذه العبارات: «إن ما وقع للجنرال سيلفستري جاء نتيجة لجهله وبعده عن جنوده»[63]، لكن سيلفستري كان واعيا تماما بحالة جيوشه، عيبه الوحيد هو انه كان على علم بفئة

معينة من ضباطه، أولئك الذين لقوا حتفهم بجواره، أو أولئك الذين صمدوا وقاوموا حتى النهاية، أما الآخرون فمنهم من فر بجلده، ومنهم من استسلم.

سحابة سوداء ووعود أخرى غير واضحة المعالم

بانتهاء فصل الربيع لسنة 1921، دخل سيلفستري مرحلة تشاؤم غير معهودة. ففي رسالة بعث بها إلى برنكير بتاريخ التاسع والعشرين من ماي 1921، تطرق إلى المواقف الغامضة لكل من قبيلة بني ورياغل، بني أوليشك، بني تويزن وغيرها، واستدل موضحا انه سيتقدم نحو الأمام إذا ما حصل على مساندة هذه القبائل، وإلا «فعليه أن يفكر جيدا، قبل اتخاذ أي خطوة لأنهم حتما سوف يواجهون اشتباكات دامية، تختلف كثيرا عن كل المعارك التي خاضوها على هذه الأرض»[64]. وفي نفس الرسالة -التي مررها غابريل نجل الكولونيل مورالس إلى بيكاسو- استعمل سيلفستري أسلوبا متميزا، مليئا بالعبارات المجازية للتعبير عن مواقفه فقال: «إن الغمامة السوداء التي حلت بالمنطقة المحتلة، وتسببت في قلقي، مصدرها الطائفة العلوية التي سأتطرق لها في رسالة أخرى، ليس لغرض سوى ترتيب الأرشيفات وتصنيف الوثائق»، ولم نجد نحن تفاصيل عن الحادث، ولو أن بعض الإشاعات راجت وتحدثت عن قدوم ملك من المورو، وبالطبع لم يكن هذا بعبد الكريم ولا بالسلطان مولاي يوسف.

وصف سيلفستري عبد الكريم بطريقة متميزة فقال: «إذا كان في حياة أبيه كما يقولون، لا يجرؤ على فعل أي شيء، فإنه يجرؤ على كل شيء بعد وفاة أبيه، فنبذ كل العادات التي اكتسبها في حياته من جراء احتكاكه بنا، وأصبح اليوم يصول ويجول في البلاد كأي جبلي متسخ أحرقته أشعة الشمس»، وبموازاة هذه النعوت، كانت هناك معلومات أخرى تكشف عن الكيفية التي كان يعبئ بها عبد الكريم البني ورياغليين «كان يمدهم بالأعلام ويشيد الخنادق، ويعزّز الصفوف بمدفعين وبندقيتين رشاشتين (مما استعمل في معركة أبران)، فوضع إحداهما في جبل القامة والأخرى أمام الحسيمة».

وفي السادس عشر من مايو، تحاور عبد الكريم مع غوط Got -الذي كان بدوره على علاقة مع المقاول أوراثيو إشيبريطا Horacio Echevarrieta- وأعرب له عن رغبته في تنظيم قوة أمن قوامها خمسمائة أو ألف رجل «وذلك بهدف تعزيز الأمن في القبيلة،

فيما بعد ياتي دورالتفاوض مع إسبانيا، فأجاب سيلفستري عن هذا المشروع بما يلي: «إن هذا لوهم وخيال، ولكنه خيال خطير من شانه ان يعرقل مخططاتنا»[65].

وفي الثامن عشر والتاسع عشر من مايو، بعث الزعيم الريفي بالعديد من الرسائل إلى مورالس يتحدث فيها بصيغة الجمع، كناية على أن النص يحمل كلماته وكلمات اخيه امحمد، ففي البداية رحب بالتحركات السلمية التي ينشدها الكولونيل واعرب عن استعداده الكامل للمشاركة في هذا الهدف النبيل، لكن فيما بعد طلب منه الكولونيل ان يبعث إليه مع «بخريطو (محمد ازرقان) بالشروحات اللازمة علّها تنفعنا في المستقبل». وفي الختام، اوكل لمورالس تبليغ «تحياتنا إلى سيلفستري»[66].

ماذا كان موقف سيلفستري من كل هذه العبارات؟ جاء في حديثه مع برنكير «ليس لدي ما اقوله الآن، واتمنى ان تسعفني الأحداث في اتخاذ موقف معين، اما فيما يخص عبارات الود الصادرة عن الريفي، فقد اعتبرها سيلفستري «حيلة للاحتياط، إذا ما ساءت الأمور»، وشاءت الأقدار ان يستقبل سيلفستري لتوه رسالة اخرى من صديق قديم منذ أيام الدراسة، رسالة تحمل تنديدات وتحذيرات وعبارات صادقة وحازمة ونبوءة جاء فيها: إن الريف الإسباني هو بمثابة بركان.

فرنانديث طماريت يكتب رسالة فريدة من نوعها

كانت الرسالة التي تلقاها سيلفستري في السادس عشر من مايو 1921 تحمل توقيع ريكاردو فرنانديث طماريت Ricardo Fernandez Tamarit، التنيتي كولونيل الذي يبلغ من العمر سبعة واربعين سنة، والذي كتب الرسالة من مكتب الرئاسة بموقعه بسوق الثلاثاء التابع لبوبكر، ذلك الحصن الجنوبي الذي بناه بنفسه، والذي تخلى عن قيادته لأسباب صحية، فعوضه غارسيا إستيبان García Esteban الذي قام في يوليوز بانسحاب مفجع.

أجاب طماريت على "رسالة" و"بيان" سيلفستري المُسلّمين إليه من طرف زميله بيكيراس Piqueras. هذا الشخص الذي تولى كذلك مهمة نقل رسالة طماريت «وتسليمها شخصيا إلى الإقامة العامة» في السادس والعشرين من ابريل[67]، وقد جاء تبادل هذه الرسائل بين الزعماء إثر معاتبة سيلفستري لمساعده عقب عمليات

الاستطلاع التي قام بها في الممرات الاستراتيجية والموحشة لعين زوراح Ain Zorah وتل بوسفمادن Busfemadan، وهي منطقة وصفها ضباط الشرطة الأهلية بأنها «وكر العدو المرعب» (البني ورياغليين).

وفي الثاني عشر من ابريل، اجرى فرنانديث طماريت رحلة استطلاعية إلى الجبال العالية برفقة مجموعة من المرشدين الريفيين الأوفياء دون أن يصحب معه الحرس المسلح من الإسبان، وعاد بلا مشاكل، وبينما هو في الطريق أثار انتباهه «الماء الغزير، والكلأ الوفير، وخيرات أخرى»، فأكد لسيلفستري أن «هذه العناصر الثلاثة ستفيدهم كثيرا»، بمعنى أنه بإمكان الجيش المرور من بوسفمادن.

وصف سيلفستري هذه الجولة الاستطلاعية ذات الأهمية التكتيكية لتطويق اجدير، "بالرحلة غير المجدية"، كما نعت صاحبها "بالدمية" "التي تقامر بحياتها بجنون"[68].

حاول التنينتي كولونيل أن يهدئ من روع الجنرال موضحا له أن غضبه استند إلى تقارير خاطئة مصدرها قيادات الشرطة الأهلية، التي كانت تكتفي بإضفاء صبغة المبالغة ساعة حديثها عن التضاريس الوعرة للمنطقة وعن عدوانية أهل بوسفمادن، فعناصر الشرطة كانت «تتظاهر بالإخلاص في إنجاز مهامها التي كانت لا تؤديها في الواقع، فجئت أنا وأسدلت الستار عن هذه الأكذوبة، وبالطبع لن يغفروا لي ذلك»[69] وأضاف طماريت مخاطبا سيلفستري: «المعذرة، إن خاطبتك بكل هذه الصراحة، فضميري يحثني على ذلك»، ودون أن يتوقف عن الحديث، حذره بقوله: «بالرغم من مظهرك القوي الذي يوحي بأنك رجل حيوي وذو عنفوان، فأنت ما تزال ذلك الطفل الكبير الذي يختبئ تحت شاربه، فإن حلقته يوما فأنت ضائع لا محالة»[70].

وروى طماريت لسيلفستري أسباب نجاحه لوحده في الجولات الاستطلاعية بمنطقة بوسفمادن، فالأمر يتعلق بأحداث مروعة ارتبطت بردود فعل مشرفة، يروي أنه قبل بضعة أسابيع، وبينما هو بمكتبه، سمع صوت "امرأة تصرخ في يأس"، فقفز من مكانه بسرعة حيث وجد عند سياج المعسكر "فتاة شابة حسناء" تصرخ بشدة، وهي في يد ستة من رجال الشرطة الأهلية قبضوا عليها بأمر من خادم الملازم (سالاما)، وإزاء هذا المنظر التفت جمهرة من الجنود (الإسبان) الذين وبخوا الشرطة التي تمكّنت «من إلقاء القبض على الفتاة بعد أن أشبعوا الأم والأخت ضربا عند محاولتهما إنقاذ البنت»، واستمع طماريت لشكوى تلك الريفية الشابة «التي انحنت على ركبتيه وهي تبكي وكل

فرائصها ترتعد». فجمع طماريت همته وأمر بجلد كل واحد من الشرطة "اربعين جلدة"، و"ستين جلدة لخادم الجندي" الذي أدى غرامة "تصل إلى مائة ريال سلمت لأم البنت"، وبعدها بقليل ظهر الرأس المدبر لهذه الجريمة، فتلقى من سيده سَيْلاً من التوبيخات. وبموازاة ذلك، واتباعا لتوجيهات طماريت، قام واحد من مساعديه وهو الملازم **ميي** Mille الشجاع -الذي لقي حتفه في فاجعة يوليوز- بسفرية إلى البلدة «صحبة فرقتين من الكانطرا وهدد باستعمال السلاح إذا ما حاول احد الاعتداء على الفتاة».

فهذا الحادث بقدر ما رفع من قيمة طماريث والجنود الإسبان في نظر الريفيين، بقدر ما قضى على ما تبقى من مكانة عالية لقياديي الشرطة، وبعد أيام حضرت شخصيات ريفية بارزة إلى المعسكر، كـ"مزيان علي من بني بويخمي، وحامد من مطالسة، وبوطالب من فرشة"، واكدوا لطماريت بإسبانية ركيكة «انه، وبالنظر لعدالته، يمكنه التجوال في المنطقة كما يشاء»[71]. ومن هناك كانت "الرحلة" إلى عين زوراح.

وفي طريق العودة، وعند ثكنة سياش Siach، التقى طماريت بالملازم بنيطيث Benítez وهو "سكران لا يدري ما حوله"، ومما زاد الطين بلة انه ليلة الاستيلاء على طاجنيت Tajanit اتجه طماريت إلى المعسكر بعدما تعذر عليه ربط المكالمات الهاتفية مع الطرف الآخر، فدخل «دون أن يراه أو يعترض سبيله احد»، فوجد «السماعات داخل مخدع الهاتف في غير موضعها»، وداخل الخيمة كان كل الضباط نائمين «حيث وجد ثلاثة منهم في حالة سكر تشمئز منها النفوس»[72].

حذر طماريت سيلفستري فاستطرد قائلا: «توجد داخل الشرطة عناصر فاسدة، أثارت سلوكياتها الخبيثة موجة من الكراهية، ومن يدري فقد تتحول هذه الكراهية إلى ثورة عامة وغير متوقعة»، وأضاف «انه داخل الشرطة نفسها يوجد العديد من الضباط المحترمين»، وهم يعدون على رؤوس الأصابع: كـ كلافيط Calvet، وكيولا Cayuela، وكابابلانكا Capablanca، ولوثون Luzón، وسان مارتينن؛ فهؤلاء كانوا بمثابة مصابيح مضيئة في هيئة مظلمة.

وبصراحته المعهودة خاطب فرنانديث طماريت سيلفستري قائلا: «إنه لا يعقل أن نكتفي بطرد بوميس Pomes (هذا الضابط صاحب السلوكيات الفظيعة التي تحدث عنها بيكاسو)، بل يجب أن نطرد كذلك كاراسكو Carrasco، بنيطو Benito، سالاما Salama، وآخرين ممن أصبحت تصرفاتهم معروفة ومشهورة، وإنني لأتعجب كيف تجهل هذه الأمور، وأنت الذي تملك وسائل الاتصال التي لا يتوفر عليها مورالس».

لم يكن طماريت يخشى في قول الحق لومة لائم، فعلّق على جراة رئيسه بقوله: «لقد حططت رحالك مبكرا بسيدي ادريس، وافراو وانوال»، وذكره بقوله: «ولم تعزز مؤخرة الجيش بالمرة»، كما حذره من ان القبائل التي بقيت في الخلف لم تكن مستسلمة وموالية، وانه «بحدوث اي مشكل فإنك ستجد خمسة او ستة آلاف فوهة بندقية موجهة إلى ظهرك»، كما اكد له ان تمسمان سوف تعلن عن عدائها قريبا، لأن «ضغوطات بني ورياغل كبيرة ويصعب مقاومتها»، وواصل حديثه مخبرا بأن الجيوش ليست على اتم الاستعداد، وانهى كلامه بجملة مجازية صالحة لكل الإسبان المتواجدين بالريف عام 1921 قائلا: «إننا نَحْيَى في فوهة بركان».

وعند استقالته المشرفة، والتي نزلت كالصاعقة، ذكر طماريت لسيلفستري «حقا، انه لمن العار ان يُرَخص للكولونيلات بقضاء وقتهم بمليلية او إسبانيا يحكون بطونهم، ولا يذهبون إلى الميدان إلا نادرا»، وردا على جواب الجنرال الذي تضمن عبارات تسيء إلى ذكورته، اردف طماريث قائلا: «وبشان ما ذكرته لي عن الخصيات الثلاث، وهو امر ما كان لك ان تقوله لي، فيسعدني ان اذكرك بانه لدي خصيتين فقط، وبما انني مقتنع بان كل عنايتي بهما غير كافية، فانا اسعى للحفاظ عليهما قدر المستطاع. وإنني اتوسل إليك من اجل الصالح العام ان لا ترهق مبكرا خصيتيك انت. كما أنه من غير اللائق بك، ولا بمركزك المتسامي ان تستعمل مثل هذه العبارات، اظن انني اجبت بالتفصيل عن بيانك، فإذا ما احتجت إلى توضيحات اخرى ادليت لك بها يوم الثامن عشر عند مجيئي لمليلية، كما امرت بذلك»[74].

كانت هذه الرسالة العجيبة خلاصة ريف سيلفستري. وعن صاحبها ذكر روبيو Rubio ان سعادة الكونتيسة دي باردو بثان Pardo Bazán، قالت بشانه: «كان من اكبر الجند المثقفين الذين تعاملت معهم»[75].

إسبانية أبران التي كانت تغط في النوم

لم يستقر سيلفستري على راي محدد، فضل ان يقلب خياراته حتى حدود الواحد والثلاثين من ماي، والحقيقة ان مدة ثمانية واربعين ساعة من التامل والتفكير كانت طويلة بالنسبة لعملية زحف بسيطة، لكن الجنرال كان يدرك تماما ان ابران تمثل رهانا

أخطر من تفريست، وسبق له أن استشار طماريت بشأن هذه العملية، فأجابه التنيتي كولونيل قائلا: «إن هذه الخطوة لم يحن أوانها بعد، ويستحسن تأجيلها»[76]، كان سيلفستري يثق كثيرا بخلف مورالس السيد بيار Villar، صاحب الجولات العديدة في المنطقة -رفقة القائد خوان غارسيا مارغايو Juan García Margallo- وكان بيار واثقا من الصلاحيات العسكرية للمنطقة، ومتيقنا من ولاء حامية تمسمان التي طالبت «بتعجيل السطو على أبران»[77]. كان سيلفستري يثق كذلك في آنجلو خريي Angelo Girelli، المغامر الإيطالي والجاسوس المحنك الذي كان يعرف المناطق الريفية شبرا شبرا. وقد خرج خريي هذا في مهمة سرية، رغم أن دوره «اقتصر على التقاط بعض الصور لأبران وتيزي تاركيسيت»[78]، وحدث أن اختلف التمسمانيون فيما بينهم، فتراجعوا عن مواقفهم في حضرة بيار، وطلبوا منه أن لا ينكس العلم الإسباني في أبران. وجاء تحذير السيد محمد أوقرقاش بأن أبران قد تمتص حياة ثلاثة آلاف شخص، إلا أن الكومندان لم يجرؤ على التراجع عن مواقفه أمام جنراله.

كان بيار يحضّر لمغامراته في الخفاء دون أن يعلم به زملاؤه، ونفس الحال سُجل مع قائد المهندسين السيد إميليو الثوغاراي غيكواشيا Emilio Alzugaray Goicoechea المسؤول عن الجيش بأنوال، ولاحتياط بسيط توجه الثوغاراي في الواحد والثلاثين من مايو إلى خيمة رئيس الحملة يستفسره «عن الموقع الموالي للاحتلال»، فأجابه دافيلا بأن الاختيار وقع على أبران، وفي دهشة كبيرة أوضح الثوغاراي لكبيره «أن ذلك الموقع لا يشكل أي هدف عسكري، وفي حالة الهجوم عليه، فإنه سيكون من العسير إمداده بالمؤونات كما يستحيل إنقاذه»، ثم أجاب دافيلا في رباطة جأش قائلا: «إن العمليات ستجري بطريقة حبية وحميمية»[79]، كان رئيس الحملة العسكرية يعارض وبشدة هذه العمليات، فكتب عنه غابريل مورالس قائلا: «نتيجة لهذه الأحداث، فإن التنيتي كولونيل دافيلا تخلى عن القيادة، ورحل هذا الرجل المتواضع والعظيم»[80].

وفي ظروف مشابهة، علم مانويل روس سانشيث Manuel Ros Sánchez، الذي كان تلينتي كولونيل لثرنيولا Ceriñola، بالأحداث، فتلقى أمرا «بتسليم عشرة آلاف خراطيش من نوع ريمنغطون Remington للحركة الصديقة»، والتي ما لبثت أن ثارت فور حصولها على السلاح. وفي غياب العراقيل أصدر بيار أوامره للجنود بالخروج، كان العدد يقدر بألف وأربعمائة وواحد وستين رجلا، وأربعمائة وخمسة وثمانين دابة،

واحضرت "كل البغال" التي كانت في انوال[81]، كانت الساعة تشير إلى الواحدة من فجر الواحد من يونيو 1921.

وفي تلك الليلة الوضّاحة من الصيف الريفي، تقدمت الطوابير في هدوء، كانت الكيلومترات الخمسة عشر تمتد أمام أعينهم قبل الوصول إلى الهدف، كان الجيش مجبرا على السير المتواصل، فيصعدون وينزلون، وينعطفون مع الطريق المنعرج. وبعد مضي أربع ساعات ونصف، تم الوصول إلى قمة الجبل العظيم الذي يبلغ طوله ستمائة متر، إنه دار أوبران أو أبران. كان على الجنود أن يتقدموا واحدا واحدا، وقد شكلوا مع دوابهم المصطفة طابورا طويلا، ووصل الفوج الأول، وبعد ساعتين التحقت الفرق العسكرية المتبقية، واشرقت الشمس على منظر جيوش منهوكة تسترد انفاسها لمدة نصف ساعة، قبل أن تشرع في عمليات التحصين.

كان المنظر رائعا، فمن الجهة الغربية وتحت نور الصباح الدافئ، كانت تتراءى المساحات الحالمة للحسيمة، ومن جهة الشمال كان البحر، ومن الشرق كان جبل المورو الشامخ، أما من جهة الجنوب، وبالضبط في الوسط كانت هناك انوال متربعة على عرشها والظلام مازال يكتنفها، وفي الخلف كان إيزومار، وعلى اليمين كانت هناك تلال إيغريبن الصفراء والقاحلة، وفي المؤخرة كانت هناك جبال تيزي عزة الشاهقة بقممها العجيبة والحصينة، وبالقرب من الحسيمة كان هناك جبل آخر يدعى جبل القامة، وتظهر عليه حركة آدميين يتنقلون، إنهم الريفيون، لكن لا يبدو أنهم عدوانيون، كانوا يمعنون النظر في الإسبان وينتظرون. وحدث أن نصح القائد الحاج قدور الذي كان بصحبة بيار بعدم إنزال القوات بأبران. كان المكان موحشا، لكن بيار وبقوة عزم مهيبة أصدر تعليماته بالشروع في البناء والتحصين[82]. كانت المفاجأة الأولى بأبران هي انعدام الماء، والثانية ندرة الحجر والصخر ووفرة التراب، أما المفاجأة الثالثة فتمثلت في ،أن الأكياس التي ستُستعمل حواجز وقائية، كانت بالية ومثقوبة،[83]، فبادر الجنود إلى وضع الأكياس فوق بعضها البعض إلى أن وصل طولها إلى متر ونصف. لم يكن الجندي الإسباني طويل القامة، ومع ذلك لم تق هذه الدروع سوى صدورهم، وفيما بعد جاء دور المدافع كذلك، فبجوار القطع الأربع من عيار 75 مليمتر، وضعت القذائف (ثلاثمائة وستون منها كان بمثابة ذخيرة للمدافع الرشاشة والقنابل الفتاكة)، ثم شيّد السياج والأسلاك. كل العمليات كانت تجري سيئة كالعادة، ومما زاد الطين بلة هو وقوف صفين من الجنود على بعد ثلاثين متر من

الحاجز الواقي، فهذه المسافة كانت تعني إمكانية انقضاض الرجل الريفي المستعد لكل شيء عليهم في ظرف تسع ثوان من الركض، وهذه هي المدة الزمنية التي كان يملكها الإسبان للذود عن انفسهم في الهجوم الأخير، مدة تقتسمها العمليات التالية، تصويب الهدف، إطلاق النار بعد شحن السلاح وإفراغه، ثم معاودة ملئه لإفراغه للمرة الأخيرة. ثلاث طلقات إذن في تسع ثوان توجه لأشخاص محنكين.

كانت الجبهة الجنوبية لأبران والتي تطل على انوال، عبارة عن منحدر بارز تكسوه الغابات بأشجارها الكثيفة والباسقة، التي يصل طولها إلى متر. تأمل بيار هذا المنظر بكل ثقة وذكر لضباطه -اويلفا وسلافرانكا Huelva y Solafranca، والملازمون كامينو Camino فلوميستا إي ريس Flomesta y Reyes، وآلفريث فرناندث Álferez Fernández- «إن هذه الجبهة تشكل في حد ذاتها حصنا منيعا»[84]. والواقع ان العدو اتخذ من هذه النقطة مرصدا لعملياته الهجومية ضد المعسكر.

قضى مورالس ليلته في انوال والقلق يضاجعه، شأنه في ذلك شأن اولئك الجنود الذين سيخوضون غمار القتال في ابران ضد كل تلك الأكياس المتعفّنة، هذا وقد شهد التنينتي كولونيل روس Ros محادثة جرت «بين المقيم العام ومورالس»، حيث «كشفت عن اوجه الخلاف العميق بين وجهات النظر، فيما يخص نسبة نجاح هذه العملية العسكرية التي خرجت لتوها إلى حيز الوجود»[85].

سيلفستري وابران، جدال تاريخي. حسب بريطو Prieto الذي اكد الخبر وطريقة قطعية داخل البرلمان[86]، واستنادا إلى التقارير الرسمية التي نشرت في صحافة مليلية، وتارجحت تعليقاتها بين معارضين ومؤيدين، فثمة معلومات تفيد ان بيار اخذ المدافع إلى ابران وتركها هناك، وبعودته إلى انوال اخذ معه فرقتين من ذوي المدافع الرشاشة، فبقيت ابران مجردة من الأسلحة الأتوماتيكية. تألم سيلفستري لهذا الوضع، واعترف لمساعديه بمليلية بعجزه عن إيجاد حل لهذه الإشكالية، فتعقّدت الأمور، وذلك بسبب عدم تطبيق أوامره، لأن الطوابير اخذت طريقها للعودة[87]. نقطة اخرى تجلّت في اجتماع الريفيين وتطويقهم للجبل، كان عددهم كبيرا بالنسبة لعدو قليل بالرغم من مدفعيته، وحسب بريطو Prieto كان هدفهم «حسب الإشاعات الرائجة في مليلية»، إلقاء القبض على الجنرال صاحب الشارب، والذي «لم يخرج يوما من مركزه»[88].

كانت أشباح الآدميين التي تظهر من بعيد على جبل القامة، قد اجتمعت وكوّنت حركة التمسمانيين، كان عددهم يفوق ألفي نفر، توزعوا على طول التلال. وانضم إليهم البنو ورياغليين، كانت المسافة التي تفصلهم عن الإسبان تتراوح ما بين تسعمائة وألف وستمائة متر، وهي مسافة لم تمنعهم من تصويب أسلحتهم، ومن النيل من البنادق العصرية.

كان كل من الإسبان والريفيين في حالة جس للنبض واستراق للسمع وإمعان للنظر، اما بيار وفي تحديه الكبير لصور التهديد الماثلة امامه، فقد صدر عنه كلام فاحش وصل إلى انوال، وفيما بعد امر قواته بالرجوع إلى القاعدة العسكرية، فلم يبق داخل المعسكر سوى ثمانية وعشرين من أصحاب المدفعية ومائتين وخمسين رجلا، من بينهم مائتين من الأهليين. وإزاء هذا العرض الهائل للمقاومين، كان القلق سيد الموقف.

حدث آخر جاء ليلقي بظلاله السوداوية على هذه الأحداث، فمنذ شهرين كاملين لم يتقاض بعض أفراد الجنود النظاميين رواتبهم الشهرية[89]، ونفس الحال كان في صفوف الشرطة الأهلية التي خرج قائدها السيد **رامون اويلفا** Ramón Huelva، رئيس الفرقة الثالثة عشر المعروفة بابران، «يحمل في حقيبته كل وثائق الفرقة، وفي محفظته كل ميزانيتها»، وحسب شهادة فورطيا Fortea كان الجنود «في حالة انتظار منذ الخامس عشر من يناير، وكانوا حفاة يلبسون ثيابا بالية»[90]، ولم يستطع أحد ان يشرح سبب خروج "اويلفا"في هذه الرحلة مع عدد كبير من الفرق الأمنية، حيث تدخلت في ابران الفرقة الخامسة والعاشرة والحادية عشر، في حين كانت في حوزته ميزانية فرق اخرى. كان "اويلفا" اول من لقي حتفه، على يد المقاومين الأصدقاء الذين قتلوه بطلقة نارية في رأسه، حيث تمرّدوا على القائد ونَحَوْه بمجرد خروجهم من ابران.

خرج بيار مع رجاله، ثم عاد أدراجه إلى انوال، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع زوالا، وكان الطابور يُعرض على أعين الحَرْكة، كان السير يجري بسرعة تشبه الركض، وكانت رائحة الألغام والكمائن تفوح في الهواء، ولا سبيل إلى تفاديها سوى الابتعاد عن هذه الطريق والتسلل عبر الأشجار، كان الجيش مشتتا وقلقا، يقلب ناظريه هنا وهناك في كل الاتجاهات، وفي تلك اللحظة سُمع دوي اثنين من العيارات النارية «كل عيار اشتمل على خمسين طلقة»[91]، تُرى اتمكن الإسبان من الحَرْكة؟ لا، بل

بالعكس، إنه هجوم الريفيين ببنادقهم الرشاشة، وفيما بعد دوّى صوت البنادق عاليا، كان فلومستا Flomesta واتباعه يبذلون قصارى جهدهم ويفعلون ما بوسعهم للذود عن انفسهم، وسمع بيار كغيره دوي الطلقات النارية فاصابه الذهول، وامر الجيش بالتقدم إلى الأمام، تعثر الكثيرون في خطاهم، وبين الفينة والأخرى كانوا يرجعون ابصارهم إلى الخلف حيث ابران الذي عمت فيه أصداع المدفعية الجسورة.

كان على راس مدافع ابران السيد ديغو فلوميستا Diego Flomesta، الضابط الذي لم يشأ أن يسهم في بناء مصلّى مليلية لفائدة الإكليروس، كان عمره يناهز الواحد والثلاثين سنة. كان هذا الرجل المرسي (من مرسية، وبالضبط من بوياس Bullas) الطويل القامة والشديد الاعتزاز بالنفس، محترفا كبيرا، وخبيرا جيدا في إدارة أسلحته. قاومت ابران ولمدة اربع ساعات، ولم تُقوّض المقاومة إلا بعد أن انقلب جنود الشرطة الأهلية ضد الضباط، وصوبوا بنادقهم نحوهم، فسقط صريعا كل من كامينو Camino، وفرنانديث إي ريس Fernández y Reyes واخيرا سالفرانكا Salafranca، فانتشرت المذابح في كل مكان، وفّر الكثيرون، كما جُرح فلوميستا الذي تمكن رغم إصابته الخطيرة من إتلاف ثلاث قطع حربية كان يديرها بمهارة، اما الريفيون، فعوض أن يُجهزوا عليه نهائيا، فإنهم طلبوا منه إعادة إصلاح المدافع، والتمسوا منه ان يكشف لهم عن اسرار شحن تلك القطع وتصويبها نحو الهدف، وكذا كيفية إطلاق النار منها، وقبل أن يوافق فلوميستا على هذا الفعل الشنيع وافته المنية في 30 يوليوز، حيث مات جوعا خلال فترة اسره.

كانت كل الأجواء في انوال تنذر بالفاجعة، فمن ابران كانت تتصاعد أعمدة دخان كثيفة تسبب فيها الريفيون الذين احرقوا كل ما لا يلزمهم من معدات غير صالحة للاستعمال، وكذا جثث الأعداء، في حين عادت كتائب بيار ادراجها في موكب يحفه العار والخذلان. وعن هذا المشهد غاب سيلفستري الذي بعث ببرقية إلى برنكير قبل خروجه إلى مليلية جاء فيها: «لقد أخذنا ابران دون خسائر في الأرواح»[92]، وفي السادسة مساء، دخل سيلفستري إلى مليلية، بعد ساعتين تقريبا من تحول ابران إلى مقبرة لجنوده، فكانت بذلك وصمة عار سجلت في سجله المهني، وداخل الإقامة العامة استقبله واحد من ضباطه الذين يثق بهم، وهو الكولونيل رفائيل كابابلانكا غاريغو Rafael Capablanca Garrigó

والذي هناه «بالنهاية السعيدة» للعملية التي اطلع عليها من برقية وصلت من انوال، لم يظهر الهدوء على محيا سيلفستري، وبعد ان انسحب للركون إلى الراحة، اوضح لكابابلانكا نقيض الأمر، والسبب كان يكمن في نفاذ المدافع الرشاشة[93]. وعند عودة كابابلانكا إلى مكتبه سلم له حارسه برقية موجزة وصلت من انوال، برفقة دافيلا، ففك رموز الرسالة التي تقول: «لقد شُن هجوم على ابران، واستنفذت كل مفجرات القنابل»، وفيما بعد سلمت برقية اخرى لكلا الرئيسين جاء فيها: «لقد وصل بعض المقاتلين والأهليين»[94]، كان دافيلا يحس بهول الموقف، فاستطرد قائلا: «لقد التهموا الموقع»[95]. ومن انوال دائما، وصلت برقية ثالثة كشفت في عبارات ملتبسة ومقتضبة عن العجز والكارثة التي حلت في عبارة: «إننا لا نرى شيئا، فقط قليلا من الدخان»[96].

دخلت الإقامة العامة بمليلية مرحلة عصيبة منذ حرب 1911-1912، فكل العيون كانت متوجهة إلى سيلفستري الذي كان يفتل شواربه الطويلة في عصبية لا تخفى على ضباطه، كان الجنرال متوترا، فطلب سيارة القيادة، واصدر اوامره بالخروج الفوري، بأسرع ما يمكن إلى انوال، حيث كان الظلام يخيّم على المكان، وعبثا حاول الكولونيلات والملازمون ان يقنعوا سيلفستري بالتنازل عن فكرته، لكنه خرج كلمح البصر، ووصل إلى الباطل وقد أرخى الليل سدوله. وهناك كان في انتظاره الصديق المخلص فرنانديث طماريت رفقة القائد **خوصي غارنيرو إي غالفيث** José Garnero y Gálvez، ودون أن يتمالك نفسه ارتمى سيلفستري في أحضان التنيتي كولونيل قائلا وقد انحدرت العبرات من عينيه: «لقد كنت محقا، فقد حدث ما توقعته انت، وإني أطلب منك الآن خدمة الذهاب إلى انوال رفقة ثلاثة من المتطوعين لتأخذ البطارية الخفيفة التي توجد بالدريوش»، وفيما بعد اكد في صرامة قائلا: «سأذهب حالا بالسيارة إلى انوال، ولنرى هل سيقتلونني هناك، فهذا افضل بكثير، فقد ذهبت ضحية لأسباب خارجة عن إرادتي»[97].

حاول طماريت أن يهدئ من روع الجنرال، محاولا إقناعه بعدم الإقدام على ارتكاب حماقة كتلك التي ينوي فعلها، لكن سيلفستري لم يعره اهتماما وواصل اوامره بالزحف اماما، وفي الطريق، فتح العديد من المقاومين النار على السيارة التي كانت تسير نحو منحدرات إيزومار، فكان الرصاص يصيب هيكل السيارة دون أن يصل إلى الجنرال، قطعت العربة الميناء وتوغلت بعمق في حفرة انوال.

وفي نفس الليلة، قررت نفس "الحركة" المنتشية بالانتصار على أبران مهاجمة سيدي ادريس، كان التمسمانيون والبنو ورياغليون قد اتحدوا وأصبحوا يدا واحدة، وكان عددهم كثيرا، لكنهم هذه المرة اصطدموا بزعيم قوي كانت له خبرة كبيرة في القتال، إنه القائد بنطيث Benítez، المالقي (من مالقة) العنيد، الذي لم يدع للريفيين فرصة تنفس الصعداء، فقاوم وانقذ سيدي ادريس، بفضل كتيبة محترفة من المشاة البحرية، المكونة من خمسة عشر رجلا، يراسهم ملازم الباخرة بيدرو بيريث غوثمان Pedro Pérez Guzmán، الذي صعد في حزم إلى الموقع، وعين هناك رجاله مزودين باثنين من المدافع الرشاشة، فاتخذوا مكانهم بجوار ثلاث مدرعات كان يديرها الملازم غلان Galan، واقبل الريفيون مثل عاصفة هوجاء، بقوة كسرت الأسلاك إلى ان وصلوا إلى ستة امتار من الحاجز[98]، لكن بيريث غوثمان ومساعديه كانوا هناك في انتظارهم، فقصفوهم عن قريب، فانسحب الريفيون ملطخين بالدماء، لدفن تسعة وعشرين من انصارهم، لكن امارات الانهزام كانت لا تبدو عليهم. وفي اليوم الموالي، وبعد ان استرجع هدوءه، اخبر سيلفستري برنكر بمستجدات الأمور، فقرر المقيم العام الذي تلقى في غضون اربع وعشرين ساعة نبأ ،الاحتلال المظفر لأبران ثم ضياعه المفجع، التحدث إلى سيلفستري، فلا احد كان يُخبر بالكوارث.

الكارثة كانت عظيمة، والكل كان يغط في نوم عميق، فاحداث ابران لم تحرك مشاعر احد، وظل سيلفستري وبرنكر والحكومة والملك في غفلتهم، فالكل اعتبر المصيبة بمثابة غيبوبة او نكبة او محنة استعمارية، وفي الجهة الأخرى كانت مدافع ابران سلعة يتجول بها داخل الأسواق الريفية، وكان الهدف هو إذكاء روح الحماسة في الجيش واستقطاب المتطوعين.

محادثات الجنرالات
على متن "الأسبونطانيو"

حينما اتفق برنكر وسيلفستري على إجراء المحادثات، كان الاتفاق هذه المرة على اللقاء في باخرة حربية لم تكن بـ"لايا" ولا بـ"الخيرالدا"، فهاتان البارجتان اصبحتا غير قادرتين على تحمل ضربات الموج الذي يضرب الشواطئ الريفية، فوقع الاختيار على باخرة *اميرة استورياس*. وضُرب موعد يوم الخامس من يونيو في سيدي ادريس.

كانت باخرة *اميرة استورياس* تشكل في حد ذاتها خلاصة العيوب التي ترتبط بالنظام الصناعي - العسكري الإسباني، كانت عبارة عن باخرة تصل حمولتها إلى سبعة آلاف طن، مثلت المشروع الشهير والفاشل لإعادة تسليح البحرية، والمعروف باسم «مشروع بيرانخير Beranger»، نسبة إلى خوصي ماريا بيرانخير José María Béranger، ورويث ابوداكا Ruiz Apodaca وزير البحرية برفقة ساغسطا Sagasta (وذلك في الفترة ما بين نونبر 1885 واكتوبر 1886)، حيث لم تتوحد الرؤى بين أصحاب المدفعية والبحرية. كانت حكاية إقلاع هذا المركب من قاعدة قادس المعروفة بلاكراكا La Carraca من الطرائف الكوميدية، ففي اليوم الثامن من اكتوبر 1896، تم الإعلان عن إقلاع السفينة، التي ما فتئت ان تقدمت قليلا ببعض امتار حتى رست من جديد في مكانها، أمام دهشة السلطات والعامة من الناس، واعيدت المحاولة مرة ثانية، فزحفت السفينة عشرة امتار اخرى وبقيت عند حافة البحر. ومن فكاهة سكان اندلوسيا ان أطلقوا لقب "المتثاقل" علي هذا المركب، إذ بقي على ذلك الوضع غير المستقر لمدة أيام، والناس لا تكف عن النكت، والسلطة في حرج، وفجاة، وفي السابع عشر من اكتوبر، تحركت السفينة لوحدها واخذت نفسا عميقا، وامام دهشة العاملين «قفزت لوحدها»[99]، ووسط سخرية الجميع تغير اللقب إلى "الأسبونطانيو"، وهو ما يعني المركب التلقائي أو العفوي.

وحول المحادثات التي دارت بين برنكير وسيلفستري توجد شهادات عديدة، اهمها تلك التي ساقها القائد **طوليو لوبيث رويث** Tulio López Ruiz، والكولونيل **كابابلانكا** في ملف محاكمة برنكر، حيث تبادل الجنرالان التحية في ترحاب معهود ومدروس، واعترف سيلفستري أمام برنكر «بان الضربة كانت موجعة جدا، وانه لن يتقدم بخطوة واحدة، إذا لم تُعزز الصفوف العسكرية التي يعتبرها رديئة جدا»[100]، حيث عاود مطالبه القديمة والمتمثلة في إمداده بالمال لإصلاح الطرق، وتوفير الأسلحة والذخيرة، وتدريب جيش آخر تتكون وحداته من فرق دفاعية تنبثق من مجموعة النظاميين لمدينة الحسيمة. وبعد سماع برنكر لهذه الأسطوانة التي ملّ من الإصغاء إليها شهرا بعد شهر، أجاب سيلفستري بسخرية وتهكّم قائلا: «فيم الحاجة إلى فرق عسكرية اخرى، وفي منطقتك جيوش لا عمل لها سوى الراحة». لقد كان برنكر على حق، لكن ذلك كان في ابريل وليس في يونيو 1921.

تبادل الجنرالان عبارات اللوم والسخط، وبعد قليل، خيّم صمت ثقيل تقطع حبله مجددا، حيث تطايرت الفاظ الاستنكار والعتاب، وتصدّعت بذلك صداقة الجنرالين وتفستخت، وذُعر قياد السفينة أمام هذا المشهد المروع، وتدخل ربان الباخرة «ليهدئ من روعهم وذلك حتى يبقى طاقم السفينة في منأى عن هذا الشجار»[101]، وبعد كل هذا الصخب عاد برنكر إلى سبتة، كان بإمكانه النزول والمرور بالريف، لكنه لم يفعل، فقد كان غرضه التفاهم مع سيلفستري، غير انه لم يتفاهم معه، لأنه لم تكن لديه رغبة في تضييع الوقت لفهم الريف، إذ إن جبالة كانت هي المغناطيس الذي يجتذبه ويستحوذ على كل تفكيره.

وصل سيلفستري وآثار اللقاء واضحة على قسمات وجهه، فالتف حوله مساعدوه في اهتمام كبير لمعرفة التفاصيل، فدنا منه كابابلانكا الذي كان يعرف انه محل ثقة قائده وساله في ود: «ماذا هناك سيدي الجنرال»، فاجابه سيلفستري، بامتعاض شديد: «او تدري ماذا قال لي؟»، فاسترسل بعد ان اطلق صيحة مذوية توجز فشل اللقاء في هذه العبارات: «لقد ذكر لي انه ولمدة ثلاثة اشهر لم يستطع ان يمدني بما يلزمني من قوات، وانه سيكتفي بإرسال طابور **التيرثيو** Tercio وذخيرة فرق النظامين بسبتة، فلنقل إذن لعبد الكريم ان ينتظر، «وهل سينتظرهم يا ترى؟»[102]. فقد سيلفستري صوابه، وانعكست على وجهه علامات الأسى القوي، كان صدره يهيج كلما تذكر الكتيبتين والذخيرة التي سيرسلها برنكر -حفنة من الرجال واربعة آليات مصفحة- في غضون ثلاثة اشهر. ولا غرابة في جواب سيلفستري على كابابلانكا، والذي جاء في شكل هجوم على المقيم العام قائلا: «لقد افسد هذا السكير كل خططنا»[103].

كان سيلفستري يريد لنفسه القوات الأهلية، وبذلك يحرم خصومه منها. لقد لخص الصحافي روبيو فرنانديث Rubio Fernández هذه الاستراتيجية فقال: «كان الجنديْ المورو يعني الشيء الكثير»[104].

وبعد مرور يومين، بعث التمسمانيون إلى انوال بإعلان جاء فيه: «إذا اردتم جثث الضحايا التي سقطت في ابران، فعليكم بتادية اربعة آلاف بسيطة للجثة الواحدة»[105]. فبادر اصدقاء سلافرنكا Salafranca باسترجاع اشلاء زميلهم الشجاع، كما استُرجعت جثة رئيس المدفعية السيد دانيال سغاطي Daniel Zarate، التي كانت مبتورة، واشار

برنكر في برقيته "لإيزا"، في السابع من يونيو على الساعة الثانية عشر إلا ربع، بعد ان احصى عدد الضحايا، إلى وصول جثمان سغاطي قائلا: «... وجثة اخرى يبدو انها للقائد سلافرانكا»[106].

سياسة "توافقية" وجيش في طريق الاعتدال

لم تكن إسبانية ابران تشير بأصبعها للتيار المحافظ الذي يمثله داتو، بل كانت ترمز لليبرالية المهمومة في شخص آيندي سلاسار Allende Salazar.

دخل ايندي سلاسار عالم السياسة بقناعات ثقافية وليس بدافع الطمع او الرغبة في تحقيق طموحات معينة، في الأصل كان مهندسا زراعيا وكان استاذا كرسيا في مدرسة تخصصه، اما موطنه فكان غيرنيكا (فيسكايا)، وكان عضوا في الحزب المحافظ، ولأربع مرات وكلت إليه حقائب وزارية معينة، كان وزيرا للمالية سنة (1901)، وللإرشادات العامة (1902)، ووزيرا للفلاحة (1903)، واخيرا وزيرا للحكومة سنة (1907).

وبعد الانشقاقات في صفوف الحزب المحافظ الذي انفصل إلى شطرين بسبب قضية ماورا Maura، ظهر داتو، فأعلن ايندي سلاسار بعصبية وتطرف شديدين تبعيته لماورا. كان ايندي سلاسار رجلا طويل القامة، ضخم البنية، قليل الكلام بين الناس، لا يتحدث إلا مع الأصدقاء الذين يثق بهم، كان رجل سياسة متبصرا ومهذبا، وجديرا بالثقة، مؤمنا بقضية إفريقيا الألفونصية.

وفي صيف 1921 عوض ايندي سلاسار في حكومته الثانية، "داتو" الذي تعرض لهجوم في صبيحة، الخامس من مارس 1921، حيث استهدفت بعض الطلقات سيارته اثناء مرورها ببطء بمنعرج باب القلعة Puerta Alcalá، والحادث تعلق بمجموعة من المسلحين الفوضويين الذين فتحوا النار عليه -من مسدسات اوتوماتيكية من نوع ماوسر-، لكن هذه الطلقات الواحدة والعشرون لم تخترق فقط الجسد الصغير لداتو، بل توغلت كذلك داخل نظام الفونصو.

ورث ايندي سلاسار من داتو حكومة فاسدة، فالأزمات كانت عديدة، نذكر منها على سبيل المثال ثورات مطلقة كاطلونيا، والاحتقانات الحقوقية التي كانت بين الجمعيات النقابية والمنظمات الحكومية، فضلا عن مشكل آخر ظهر ليزيد الطين بلة، وهو مشكل المغرب

الذي كان خطيرا ومخيفا للغاية؛ فالأزمة الأولى، جعلت سلفادور سيغي Salvador Seguí في مواجهة مع الجنرال سيفيريانو مارتينث انيدو Serveiano Martínez Anido، الذي كان ديكتاتورا لا حاكما على بلدة برشلونة بالمعنى الصحيح للكلمة، كانت إسبانيا مهد التجمعات السياسية المجهولة، وبداخلها كانت تحاك الدسائس والمؤامرات وتُطلق الرصاصات، فيقع الموتى على الأرض، بعد ان تترصدهم نيران البنادق إما من الأمام او من الخلف. لم تكن هناك قوانين سوى الأخذ بالثار. إسبانيا العُلوية، وإلى جانبها كانت هناك إسبانيا اخرى ساذجة وجاهلة بكل ما يدور في المغرب، وكانت هذه الأخيرة على وشك الموت بسبب الكمائن التي نصبت لها، فبقيت هناك تنزف دما.

حافظ ايندي سلاسار على نفس تركيبة الجيش التي كانت في الماضي، وحافظ إيزا على منصبه في الوزارة، وكذلك كان الحال مع برنكر وسيلفستري اللذين واصلا سيطرتهما على المغرب. وإلى حدود فصل الربيع كان الجنرالان على صداقتهما المعهودة، لكن مع حلول فصل الصيف نشبت العداوة بينهما، بسبب المحادثات التي جرت على متن باخرة اميرة استورياس، التي وضعت حدا فاصلا بينهما. لكن ورغم ذلك، حافظ الزعيمان على الشكليات. كان جيش إفريقا ممزقا ومقسما على قيادتين، كل واحدة منها تخوض حربا مختلفة، فبرنكر كان ينوي القضاء على الريسوني، بينما سيلفستري لم يعد يرغب في تنحية عبد الكريم، كان كل ما يريده هو فترة استراحة، وتلك امنية لم تتحقق له أبدا.

كان برنكر يتقدم بجيوشه ليضع حدا لحرب جبالة، وفي المقابل كان سيلفستري حائرا لا يدري ما السبيل لمواصلة الحرب التي بدات في الريف، فلا عتاد لديه ولا رجال ولا خطط حربية. كان يعلم في قرارة نفسه ان برنكر لن يمده بالرجال والمدافع ولن يدفع له بسيطة واحدة إذا لم ينته هو من القضاء على الحركة الريسونية. فتلاشت كل احلامه ولم يبق له من خيار آخر سوى تحمل فصل الصيف الحار بالريف، أي الصمود حتى حلول الخريف، كما ذكر مورالس.

ومن نفس الباخرة التي اقالته إلى سبتة، بعث برنكر ببرقية موجزة إلى إيزا، كان الوقت زوالا وشمس الخامس من يونيو 1921 تستعد للرحيل، وقتها شرع المكلف

بالبرقيات بتلاوة الرسالة: «الساعة السابعة والنصف بسيدي ادريس على متن باخرة اميرة استورياس». وتحدث برنكر بفم سيلفستري قائلا: «خلاصة القول، ان الأمور في مجملها معقدة، وحسب القائد العام، فإنه يجب علينا اتخاذ الاحتياطات اللازمة والتصرف بحذر»، ثم استرسل برنكر في هذا التحليل المدهش قائلا: «من جهتي انا، فلا شيء يدعو إلى القلق حتى الوقت الراهن»[107]، ولكي يعزز تفاؤله ارسل برنكر ببرقية اخرى إلى إيزا فور وصوله إلى تطوان في السادس من يونيو جاء فيها: «لا شيء في (الريف) يثير الرعب او القلق».

شيء واحد كان يؤرق برنكر، هو الخوف من الهزيمة في معركته مع الريسوني، واعترف بهذا الشعور في مذكراته حيث قال: «... لقد عُدت إلى مخططي الأول الذي يقضي بترك هذا المشكل الجاد والمتمثل في (الريف)، حتى الانتهاء من السيطرة على الساحل»[108]، إنه جنرال حذق، لا يريد الخوض في حرب قبل الانتهاء من حرب اخرى، لكنه لم ينتبه إلى حقيقة ان حرب الريف هي سيف مشهر سينضم إلى جبالة فيطعنه هو والنظام معا.

وفي انوال قام شاب يدعى إرنيسطو نوغيس باريرا Ernesto Nougués Barrera، وهو ملازم يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، بكتابة رسالة إلى اعمامه في الثاني عشر من يوليوز 1921، وذلك بعد مضي عشرة ايام على الكارثة، فتحدث عن الحالة النفسية لجيش سيلفستري، كما تطرق كذلك إلى طبيعة الترتيبات الحربية.

وقد ذكر في مستهل رسالته ما يلي: «لقد مررنا بأيام عصيبة جدا، اثرت كثيرا في معنوياتنا»، وفيما بعد انتقد الأحداث فاستطرد قائلا: «لقد حدث ما كان متوقعا، ولم يكترث احد من قبل لنقاط ضعفنا، وحلت بنا محن، نظن اننا على صواب، وهذا امر مستحيل. خلاصة القول هنا، انه إذا لم يحفظنا الإله فإننا لن ننعم بإفريقيا ولو للحظة واحدة»[109]. وحدث ان تحققت نبوءة نوغيس الشجاع فيما يخص "إفريقيا" التي كانت تخوض الحرب حتى نهاية يوليوز 1927.

هوامش الفصل الرابع

1) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" الدفتر 1.

2) بالاستناد إلى ملخص بيوغرافي وجيز عثر عليه في المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" المجلد 1، وإشارات بيوغرافية أخرى حول نجل سيلفستري ظهرت في نشرة *أ-ب-سي* التي وزعت في إشبيلية، يوم الثلاثاء 28 مايو 1937.

3) سيلفستري تحدث عن "أربع سنوات كان المحصول فيها متوسطا أو منعدما" لكن هذا الفقر لم يكن جديدا، إذ إن جذوره تمتد إلى 1915.

4) المصلحة العسكرية التاريخية مجموعة "فرنانديث سيلفستري"، مجلد 11.

5) برنكر، خوان، الملازم الثاني (وفيما بعد مدير جريدة البوبولار بمليلية)، *الجيش هو الشعب. انتصاراتنا بميادين إفريقيا*، دار النشر، بوسطال إكسبريس. مليلية 1922. ص. 36.

6) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

7) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث "مقاطعة الثلاثاء. العلاقة بين مختلف المواقع، مسطرة من طرف الوزارة الحربية، 30 يونيو 1921".

8) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانديث سيلفستري"، المجلد 10.

9) برنكر دامسو، *الحملات العسكرية في الريف وجبالة 1921-1922*، ملاحظات ووثائق جمعتها في مذكرتي عن العمليات الحربية الموالية لفيلاسكو. مدريد 1923، ص. 262.

10) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانيث سيلفستري"، المجلد 10.

11) الصفحة 15 من نشرة الأخبار الحكومية التي فتحت لتوضيح الملابسات والظروف التي تشابكت وتسببت في الانسحاب من المواقع التابعة للإقامة العامة بمليلية، وذلك في شهر يوليوز 1921. وأصبحت هذه النشرة وثيقة ثمينة للمطالبة بالمحاكمات داخل مجلس الشيوخ سنة 1922، وذلك بهدف مقاضاة الجنرال برنكر وستتطرق إليها فيما بعد في "محاكمة برنكر".

12) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانديث سيلفستري" رسالة 26 يناير.

13) هذا الاحتياط كان لميغيل فينوفا وزير الدولة والدعم والمالية والبحرية في العديد من الحكومات الليبرالية. مذكرات الجلسات البرلمانية (مذكرة الجلسات البرلمانية) الخميس 29 يونيو 1922، ص. 3141.

14) (مذكرة الجلسات البرلمانية) مداخلة إدواردو أوثيكا أيكاسيط، في جلسة الثلاثاء 8 نونبر 1921، ص. 4008. أما بالنسبة للمصاريف التي صرفت في منطقة ماوراء البحار فقد قدرها رومانونيس في 1.969 مليون (المصدر السابق نفسه. صفحة 126) علاوة على 260 مليون أخرى دفعت كرسوم إجباريا.

15) مذكرة الجلسات البرلمانية، إدواردو أورتيكا إكاسيط في جلسة 8 نونبر 1921، ص. 4008.

16) رسالة إلى برنكر، بمليلية تحمل تاريخ 29 فبراير 1921. المصلحة التاريخية العسكرية مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.

17) غارسيا فيغيراس إي إرنانديث إريرا المصدر السابق نفسه، ص.307.

18) نشرت هذه الرسالة بكاملها في صحيفة *الصول* يوم الخميس 3 نونبر 1921.

19) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م. فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.

20) حسب عياش في (المصدر السابق نفسه، ص. 154) كان الشخص هو ابن البغدادي، وحسب بلانكو إزاغا كان بوشتى البغدادي (في نفس المصدر السابق، ص. 244).

21) ما يناهز 1500 من العلويين كانوا على متن باخرة حربية مغربية، نزلت بجوار مليلية، وعبروا منطقة الريف من الوسط، إلى أن وصلوا إلى الحسيمة، وبعد تلقي مساعدة بني ورياغل هاجموا أصحاب بقيوة، ذكر هذا "بيكر خيرونيمو" في *تاريخ المغرب*، المعهد الطوبغرافي، لخيمي راطي. مدريد 1915، ص. 410.

22) رسالة من سيلفستري إلى برنكر، تحمل تاريخ 28 فبراير 1921 بمليلية، المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.

23) رسالة من برنكر إلى سيلفستري. بتاريخ، 21 يناير 1921 بتطوان. المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م. فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.

24) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

25) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

26) تقارير الكولونيل مورالس نشرها إيزا، وتحدث عنها داخل مجلس النواب في جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922. مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 4415.

27) فالي، بيير إي ديغفورك هنري Vally, Pierre y Durfoucq, Henri *تاريخ الحرب العالمية الأولى*، ترجمة أ. م ماينش مورول A. M. Mayench Murull. دار النشر كاروجيو. برشلونة 1972، الجزء الأول، ص.213 والجزء الثاني، ص. 6. انظر كذلك الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة 1، العدد ف-1.025.

28) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير عن شهادة غابريل مورالس، بعث بها إلى الجنرال بيكاسو، في غشت 1921، ص. 8.

29) أطروحة غارسيا فيغيراس وإرنانديث إريرا (ص. 309).

30) رسالة أعلن عنها داخل البرلمان من لدن إيزا. مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922، ص. 4401.

31) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مغرامس، ص. 8.

32) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922، ص. 4402.

33) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

34) الأوامر العليا التي أصدرها برنكر، والتي صادق عليها "خوردانا وسوسا" الكولونيل، ورئيس هيئة أركان الحرب.

35) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922، ص. 4402.

36) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مغرالس، ص. 8 و9.

37) برقيات متبادلة بين برنكر وسيلفستري (10-13 أبريل 1921) المصلحة التاريخية العسكرية، الإقامة العامة بمليلية. مجموعة 278.

38) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد ف-1025.

39) حادث رواه فيليبي كريسبو دي لارا، النائب البرلماني المحافظ في مداخلته أمام البرلمان في جلسة الخميس 6 يوليوز 1922، مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3460.

40) مداخلة كريسبو دي لارا في جلسة الأربعاء 28 يونيو 1922 مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3093.

41) مداخلة إيزا أمام البرلمان في جلسة الجمعة 21 أكتوبر 1921 مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3723.

42) هذا هو التاريخ الذي أعطاه الكونت رومانونيس بكل دقة بعد أن قاطع الدوق إيزا في الجلسة البرلمانية ليوم الأربعاء 29 نونبر 1922، فرد عليه الوزير أنه يمتلك بيانا عن الاجتماع "يحمل تاريخ 13 يوليوز 1921" مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 4409.

43) مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3831، مداخلة بريطو في جلسة الخميس 27 أكتوبر 1921.

44) المرجع نفسه، ص. 4404، مداخلة إيزا في البرلمان في جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922.

45) البيان... (محاكمة برنكر)، ص. 12.

46) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 24 نونبر 1922 الصفحات، 4316/4325.

47) صحيفة *لا ليبرطاط* (الحرية)، نشرة 7 شتنبر 1922.

48) ريندا لوبيث، *فضيحة المليون بالعرائش. بيانات، سوابق ونتائج الفساد بالمغرب*، مطبعة إخوان ساينس. مدريد 1922، ص. 35.

49) المصدر نفسه، ص. 36-38.

50) صحيفة *الحرية*، 7 شتنبر 1922.

51) لوبيث ريندا، *فضيحة*...، ص. 95.

52) صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 8 شتنبر 1922.

53) لوبس ريندا، *فضيحة*...، ص. 70.

54) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. الملف ج.824.

55) الأرشيف العام للقصر الملكي، الخزانة، 5/15.765.

56) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 21.

57) وثائق مرتبطة بالتقارير التي أنجزها الجنرال خوان بيكاسو حول مسؤوليات التدخل الإسباني في المغرب خلال يوليوز 1921. وهو ملخص مطبوع من نفس المرجع (الذي يتكون من 2.433 ورقة) ونشرته دور موراطا بمدريد، (حوالي سنة 1922)، ص. 55، وسوف نتطرق إلى هذا الملخص، انطلاقا من الآن، ونذكره باسم وثائق... (تقرير بيكاسو). ولا يعقل خلطه مع ما أسميناه (بالتصريح الموجز) للشهود، الذي اعتمد عليه بيكاسو والمعروف بالملحق، والذي تصفحه نواب البرلمان لاحقا وزمرة من الشخصيات الأخرى. وهكذا سنسمي (التصريح الموجز) الذي يشير إلى أوراق التقارير (تقارير بيكاسو الأصلية).

58) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 95.

59) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة فيليبي كريسبو دي لارا في جلسة الأربعاء 28 يونيو 1922، ص. 3074.

60) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 17 نونبر 1915، ص. 215.

61) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلات سراديل Sarradell في جلسات 7 و28 أبريل 1922. الصفحات، 734 و1032.

62) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 96.

63) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة النائب البرلماني مارتينيث دي كامبوس في جلسة الأربعاء 9 نونبر 1921. ص. 4055.

64) إيزا- فيكونت، *مسؤوليتي وزيرا للحرب في كارثة مليلية*، المصدر السابق نفسه، الصفحات 415-419.

65) المصدر نفسه، ص. 5 و6.

66) المصدر نفسه، ص. 9 و10.

67) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا (أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا) رسالة من التنيتي كولونيل فرنانديث طماريت إلى الجنرال سيلفستري، وقد جاءت في تسع صفحات مرقنة، تحتوي كل صفحة منها على 62 سطرا. هذا وقد قام التنيتي كولونيل المهندس خوصي غارسيا بنيتيث بإخراج أربع نسخ من هذه الرسالة. واحدة منها توجد في الأكاديمية العامة لثاراغوثا.

68) المصدر نفسه، ص. 2و3.

69) المصدر نفسه، ص. 5.

70) المصدر نفسه، ص. 1.

71) المصدر نفسه، ص. 5.

72) المصدر نفسه، ص. 6.

73) المصدر نفسه، ص. 7.

74) المصدر نفسه، ص. 9.

75) روبيو فرنانديث، إدواردو، *مليلية، على هامش الكارثة (ماي-غشت لسنة 1921)* دار النشر- سيرفانطس. برشلونة 1921. ص. 30.

76) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (التصريح الموجز) للتنيتي كولونيل ريكاردو فرنانديث طماريت (5 أكتوبر 1921) على الورقة 1.197 التي تنتسب إلى (تقارير بيكاسو الأصلية).

77) نفس المصدر، (التصريح الموجز) للقبطان خوان غارسيا مارغايو (5 أكتوبر 1921) على الورقة 1.210 المنتسبة (لتقارير بيكاسو الأصلية).

78) المصدر نفسه، ت. م (التصريح الموجز) التنيتي كولونيل فيدل دافيلا أروندو (11 أكتوبر 1921) المكتوب على الورقة 1284 المنتسبة لـ ت.ب.أ (تقارير بيكاسو الأصلية).

79) وثائق... (تقارير بيكاسو) ص. 411.

80) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مورالس، ص. 10.

81) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتليتني كولونيل مانويل رويث سانتيث (17 أكتوبر 1921) المكتوب على الورقة 1.367 التي يتضمنها ت-ب-أ (تقارير بيكاسو الأصلية).

82) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 98.

83) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتليتني كولونيل مانويل رويث سانتيث.

84) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 97.

85) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتليتني كولونيل مانويل رويث سانتيث.

86) مذكرات الجلسات البرلمانية (مذكرة الجلسات البرلمانية) جلسة 27 أكتوبر 1921، ص. 3820.

87) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

88) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27 أكتوبر 1921، ص. 3820.

89) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 8 نونبر 1921، ص. 4002.

90) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 71.

91) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا (ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا)، المجموعة 442/9. هذا الحادث ظهر في البرقية رقم 6.949 والتي ذيلت بعبارة "برقية مستعجلة، شخصية وسرية"، كان برنكر يعاود إرسالها لإيزا من تطوان على الساعة الحادية عشر وخمسة وثلاثين دقيقة، يوم 3 يونيو 1921، وتزامنت هذه الرسالة مع الرسالة التي بعث بها سيلفستري إلى برنكر يوم 29 مايو يحدثه فيها عن "مدفعين رشاشين".

92) عرض النائب البرلماني (الإقليمي) فرانثيسكو باسطوس انسارط في جلسة 25 أكتوبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3764.

93) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

94) اثناء تلك المحادثة التلغرافية التي جرت بين الكومندان غلارسا Galarsa، رئيس المصلحة ببويناڤيستا Bue-navista والجنرال نفارو تم الحديث عن "الفارين من العدالة، وكان من بينهم 72 جريحا ومصابا بكسور، 25 منهم كانوا اوربيين، لكن 3 منهم فقط كانوا في حالة خطرة، ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا المجموعة 442/9.

95) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

96) عرض النائب البرلماني باسطوس في جلسة امام البرلمان يوم الثلاثاء 25 اكتوبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3764.

97) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 4.

98) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، برقية "شخصية وسرية" رقم 6.979 من برنكر إلى إيزا، يوم 04 يونيو 1921 على الساعة الرابعة مساء.

99) رودريكز غونثالس، اغوستين رامون، *السياسة البحرية لإعادة النظام السابق (1875-1898)* سان مارتين. مدريد 1988، ص. 290.

100) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 14.

101) عرض النائب البرلماني خوليان بسطيرو في جلسة الخميس 3 نونبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3940.

102) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

103) اسبيطيا، انطونيو، *البذرة الخبيثة*، المطبعة الكلاسيكية الإسبانية، مدريد، 1921، ص. 84.

104) ربيو فرناندث، *مليلية، على هامش الكارثة* (مايو-غشت 1921) المصدر السابق نفسه. الصفحات 40-41.

105) نفس المصدر. ص. 47.

106) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 552.

107) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9 البرقية رقم 1054.

108) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 42.

109) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 596.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس:

جنرال التوال الثرى

جيش في رخصة، وكولونيل يصر على البقاء

بعد مضي ثمانية واربعين ساعة على ضياع ابران، اتخذ سيلفستري مجموعة من التدابير تلخصت في إقامة معسكر بمنطقة تاليلت Talilit في منتصف الطريق بين سيدي "ادريس" و"افراو"، وأمّن بوجماجن، وهو جبل ومركز امامي. وكرر نفس العملية في ثلاث نقاط مهمة معبأ مؤخرة الجيش، فكانت المجموعة "ا" (امام ابن طيب)، في حين المجموعة "ب" و"ت" امام ممر إيزومار.

وفي السابع من يونيو، انهى سيلفستري تجهيزاته بعملية جريئة جديدة تلخصت في الإجهاز على إيغريبن، تلك الربوة الصفراء التي كانت تظهر من ابران، وتثير الخوف من قريب. أما مورد الماء فكان يبعد بأربع كيلومترات ونصف، وهكذا كان الارتواء من المنبع مشقة يومية، وبالتالي كان يعوّل على انوال التي كانت بدورها تعول على إيغريبن. تمت التضحية بجيش مقابل كتلة صخرية، وبمحاذاة إيغريبن كانت هناك ربوة تشبه في شكلها شكل النقانق، اتخذها الجيش مكانا للاختباء فيه، وقد تاتى لهم ذلك، نظرا لاستحالة السطو على ربوة الأشجار المعروفة بـ"لوما دي لوس اربوليس".

وحسب ما لاحظ الطبيب الملازم "باثكيث بيرنابيو"[1]، فإن بوجماجن -التي صورها ملطخة بالدماء في خندق يقع على بعد مائة متر تقريبا - كانت في واقع الأمر موقعا دفاعيا افضل بكثير من انوال. لكن سيلفستري رفض الفكرة بعد دراسته لإمكانية التغيير.

وفي تلك الأيام، منح سيلفستري لعساكر التجنيد الإجباري لعام 1918 رخصة «غير محدودة»، فضلا عن "ترخيص مؤقت" مُنح لهم ما بين سنتي 1918-1919، وفجأة خسر سيلفستري ثلاثة آلاف رجل من جنوده المحنكين، الذين تم تعويضهم بجنود 1920، جنود لم يتلقوا اي تدريبات، ويخافون من "المورو" خوفا كبيرا،[2].

كرر سيلفستري طلبه مجددا بإمداده بقوات النظاميين من الحسيمة، وهو طلب لقي جواب الرفض مرة اخرى، وكذلك إمداده باسلحة اوتوماتيكية، وقام إيزا بإرسال تجهيزات عدة لا تسد الحاجة ولا تفي بالغرض، إذ بعث بعشرين بندقية رشاشة من نوع "كولت" كانت سيئة للغاية، ذلك ان الحاجة كانت ماسة إلى مائة بندقية اخرى، والحال ان إسبانيا كانت تمتلك بنادق ذات جودة عالية مثل (الماكسيم 08)، وهي آلات المانية الصنع تم استعمالها في الكاميرون، واودعها الجيش الإسباني في مخازن الأسلحة سنة 1914 بعد هزيمته النكراء.

كان برنكر على علم بوجود هذه الأسلحة، إذ تكلم عنها مع لاثيريا، اما سيلفستري فلم يكن على علم بشيء عن هذه الآليات، وكذلك الحال مع إيزا الذي لم تكن لديه اي معلومات عن الأمر.

استمر مورالس في مساعيه السلمية وتحركاته المناهضة للعنف، فقام باستدعاء مجموعة من الأعيان إلى اجتماع سري عقد بدوار بوجماجن، حضره إحدى عشر رجلا، ثلاثة من الإسبان وهم: **مورالس** ومساعديه، الملازم **ثيفانطوس** Civantos، والقبطان **غارسيا مارغايو** García Margallo، وثمانية من الريفيين وهم: **سي عمار المحمدي**، **وسي دادي المحمدي** من قبيلة بني ورياغل، **وعمار الصديق**، **ومحند الصادق**، **وبوزين ادريس** من قبيلة احديفة، **وسي عبد الله الحاج** من قبيلة بني عبد الله، **والفقيه العربي** من بني يطف، وثامنهم كان مجهول الهوية (سي دادي...؟) من تَفْسنا (بقيوة).

كان هدف مورالس يتلخص في تكوين حزب إسباني، نعم كان الحزب هو بيت القصيد. ولتحقيق هذا الهدف، سلم مائة دينار لكل واحد من الحاضرين للبدء في المهام المنوطة بهم[3]، لم يكن هدف هذه التحركات القضاء على قبيلة عبد الكريم، بل كان السعي واضحا لوضع حد لمجازفات وتهورات بيار، كان مورالس يستشعر الخطر.

تحدث محمد عبد الكريم بنفسه عن هذه التفاصيل في رسالته التي كتبها في السادس والعشرين من يونيو 1921، والتي جاء فيها ما يلي: «لقد وقع ما حدث في أبران وفي كل أرجاء تمسمان، لكن الذنب ليس ذنبنا، فنحن دائما كنا على اتصال بمورالس، وقبل انتهاء المدة الزمنية للاتفاقيات، انطلقت العمليات المفاجئة التي أصفها بالخيانة. وفيما بعد تحدث عن ضرورة التوصل إلى حل سريع للحد من إراقة الدماء، واشار بشكل ضمني إلى مشاركته في الثورة المسلحة. وفي الختام، تساءل في حذر ورمزية قائلا: «لماذا لا نلجأ إلى الطريق[4]، طريق السلم، طريق مورالس؟

لم يسفر اللقاء الإسباني-الريفي عن نتائج تذكر، لأنه في الحادي عشر من يوليوز، بعث سيلفستري ببرقية إلى برنكر يخبره فيها بموعد مقابلة جديدة ستجري غدا الثلاثاء، لكن الأخبار والتقارير انقطعت.

كان دافيلا مريضا، فطلب رخصة ورحل عن المكان[5]، وبعد انتهائه من جمع لوازمه خطب قائلا: غابريل؟ انا ذاهب، إنني مريض، ولديّ أربعة أطفال. فاجابه رئيس الشرطة الأهلية قائلا: وانا كذلك يا فيدل Fidel، لكنني سأظل هنا[6].

ربوة ضائعة وسط اشتباكات دامية

في التاسع من يوليوز 1921، وبالضبط من موقع بوجماجن، استطاع باثكيث بيرنابيو Vázquez Bernabeu استشعار هول الخطر المخيم على إيغريبن، فالريفيون بنوا جدرانا عليها ثُقب يصوب من خلالها السلاح، ومدّوا الحواجز مستعملين أكياسا رملية وضعت على طول مسافة الخط الواقع عند تلة الأشجار "لا لوما دي لوس آربوليس". كل هذه التحصينات كانت مخبأة خلف أكوام التبن[7]، ومن حجر الحسيمة، لاحظ رئيس الفرقة العسكرية الملازم كولونيل ثيفانطوس اشتعال نيران تدفع حَرَكة جبل المصور[8] إلى إعطاء إشارة الانطلاقة لقبائل المنطقة.

وفي السابع عشر من يوليوز كان الهجوم الأول على إيغريبن، أسفر عن انتصار الريفيين بعد أن تمكنوا من إحباط محاولات أبناء جلدتهم في الشرطة الأهلية. وبحلول الليل، تم تقييم حجم الخسائر التي وصلت إلى سبعة عشر قتيلا وثلاثة وخمسين جريحا، لكن سيلفستري ابلغ برنكر في تقريره، بأن الخسائر البشرية وصلت إلى

الخمسين ولم يذكر له شيء عن الهدف من ذلك الصراع عند "لا لوما دي لوس آربوليس" (ربوة الأشجار) سنة 1923، وفيما بعد اشتكى برنكر من التستر على هذا الخطر وتساءل: «لماذا لم يذكروا لي انه وبعد هجومات عديدة لم تتمكن القوات من الوصول إلى هدفها، وان الأمر انتهى بها إلى الفرار»[9].

طلب سيلفستري من برنكر الإذن للقيام بهجوم مضاد، مع إعطاء ضمانات كاملة بالانتصار[10]، وبعد معاينة دقيقة اجاب برنكر: «... هذا لا يعني انك يجب أن تبقى مكتوف الأيدي، بل بالعكس فانا اعتقد انه عليك ان تستغل كل الفرص المتاحة لك للهجوم»[11]. لقد كان ذلك الرد بمثابة موافقة.

اما في انوال، فقد كانت ازمة الذخيرة الحربية قد بلغت ذروتها، ففي الثامن عشر من يوليوز وعلى الساعة الواحدة إلا ربع سمح الكولونيل خواكين ارغويس دي دلوس ريوس Juaquín Argüelles de Los Ríos رئيس المدفعية ورئيس المنطقة العسكرية، بإرسال البرقية التالية لسيلفستري: «لم يبق لدينا سوى مائة وثمانية وثمانين قذيفة يدوية واثنتي عشرة مفرقعة وست عشرة علبة ذخيرة للرشاشات، وثلاثمائة وخمسين قذيفة هاون، ومائتين وواحد وثمانين الف رصاصة للبنادق». وبعد ذلك باثنتي عشرة ساعة، لم تبق هناك ولو قذيفة واحدة. هذا ما اكده قائد آخر كتب البرقية التالية: «18/ 7/ 1921. الثانية عشر وخمسة واربعون دقيقة. الرمز: ب: ليس لدينا ذخيرة للمدافع في الجبل. العدو يهاجم بوجماجن من جهة "الزاوية" وربوة "تيسنغارت"، لا نستطيع إمدادكم بذخيرة المدافع. انطونيو فالكارثيل Antonio Valcárcel. تم تشفير رموز الرسالة وفيما بعد مزقت النسخة الأصلية»[12].

ملازم شجاع لم يكن ببطل نظامي

كان يجب مساعدة إيغريبن مهما كلف الأمر، وهو ما حاولت فعله قافلة محملة بالمساعدات الإنسانية، يديرها الكومندان خوان روميرو لوبيث Juan Romero López، الذي اصيب بجراح قاتلة من جراء رصاصة اطلقها احد المقاومين. كانت القافلة تسير قُدما تحرسها فرقة من الجنود النظاميين برئاسة القائد **ثيبوبينو بون ليندسمان**

Cebollino Von Lindesman، وفي وسط القافلة كانت هناك فصائل عسكرية مكونة من سبعة عشر من المدفعيين بقيادة السرقسطي **نوغيس باريرا** Nougués Barrera.

كانت البغال -وعددها سبعة وستون- تحمل المؤن ومساعدات أخرى وزعت على الشكل التالي، عشرة دواب محملة بالماء، واثنتا عشر بالطعام، وإحدى وأربعون دابة محملة بالذخيرة الحربية وأربعة حاملات (لنقل الجرحى)، أما الذخيرة فكانت عبارة عن ثلاثمائة وستة وثلاثين مفرقعة من عيار 75، وستة وثلاثين قذيفة، ومائة وستة وسبعين قنبلة، ورشاشات مدفعية وعشرة صناديق من الخراطيش.

طاردت الطلقات النارية والصيحات الريفية قافلة ليندمان فتفرقت الجموع. وما هي إلا دقائق حتى استأنف رجال المقاومة إطلاق النار من مخابئهم، فسقط الرجال والدواب. كان رجال الحركة يحكمون هذه المرة تصويب بنادقهم، فكانت النتيجة تشتيت صفوف القافلة، أما البغالون فاستمروا في وكز دوابهم تارة بالصياح وتارة بالسياط، أما الجنود فقد التفوا حول بعضهم البعض وفتحوا النار.

وعند الصعود إلى إيغريين، سقط نوغيس من أعلى صهوة جواده الذي سقط بدوره ميتا. وبالرغم من ذلك لم تفتر عزيمته وهمته، فوقف من جديد وتقدم بجنوده والمسدس بيده مصرا على وصول القافلة إلى مصيرها بعد مشقة وجهد في الطريق[13]. وبعد مقتل العديد من البغال، تدحرجت العديد من الحمولات على سفح الجبل. لكن رد فعل نوغيس ورجاله كان هو الإصرار على شحن المدفعية، فشمرت سواعد الجيش لأجل ذلك الغرض. ومن فرقته المكونة من سبعة عشر رجلا، أصيب ثمانية منهم بجراح خطيرة، وهو ما معناه 50٪ من حجم الخسائر البشرية، الشيء الذي كان يحتم منح وسام سان فرناندو، لكن نوغيس الذي مكث بإيغريين رفقة سبعة من الجرحى -وصل واحد منهم رغم جراحه الخطيرة إلى أنوال، لم يُوشّح أحد صدره بأي وسام. تلك أمور لها علاقة بالنظام.

أرخى الليل سدوله وبدأت "الحركة" تشن هجومها. كانت إيغريين تفتقر إلى التحصينات، فحاجز الأكياس الرملية نُصب على بعد عشرة أمتار من الخيام، ورغم ذلك صمدت بقوة. وخلال الاشتباك وصل الريفيون إلى السياج، فتم صدهم بقنابل يدوية ووابل من الرشاشات وكذلك برؤوس البنادق المسنّنة. كان "نوغيس" يمد يد

المساعدة إلى رجال المدفعية، ويطلق النار من المدفع المبرمج على درجة الصفر التي تعادل مائة متر وذلك لقرب المهاجمين. ومن المرتفعات المجاورة بدأ الريفيون بإطلاق النار على البغال، وشرعت الدواب الجريحة بالركل والرفس مذعورة، فاصطدمت بالسياج وحطمته. ومع طلوع الفجر، لم يبق منها إلا القليل واجتمعت على جثثها الحشرات، كانت الدواب تئن من الألم بسبب إصابتها في القوائم أو في العين، فاضطر الجنود للإجهاز عليها. وما إن حلت الظهيرة بحرارتها اللاذعة التي وصلت إلى خمسة وخمسين درجة، حتى فاحت جثث الحيوانات الميتة والمنتفخة، وتحلّلت بسبب الحر الشديد إلى أكوام من اللحم والروث، فانبعثت منها روائح كريهة جعلت المدافعين (الإسبان) يتقيؤون. لكن الأدهى من ذلك هو أن هذه الجثث شكلت درجا متعفنا في المدخل كان بإمكان الريفيين استعماله للصعود.

وفي السابع من يوليوز 1923، قيل بشأن نوغيس: انه وبالرغم من أن تصرفه كان عملا بطوليا، إلا أنه وحسب المادة السادسة من البند التاسع والأربعين من القانون المنظم والمُوَقّع (بتوقيع غير مقروء)، فإن الموقف المشار إليه يعتبر رد فعل عادي يتعلق بضرورة حماية حمولة القافلة أكثر من سائقيها. ودقق نفس المدعي العام في كلامه بقوله، وحتى إن كان هذا القانون ساري المفعول، فيجب التأكد من سلامة أسلحة وذخائر كل من لقي حتفه، وهذا ما لم يجري التحقيق فيه[14]. ضاعت الأسلحة بالطبع، فكيف بالذخائر أن لا تضيع، ولم ينج أحد من الضباط، فقد قتلوا برمتهم، ماعدا واحدا منهم رفقة ضباطه، هذا هو النظام.

إيغريبن: "حضيرة" الرجال الشجعان

يوم الثامن عشر من يوليوز، كانت نيران المدفعية تهزّ المنطقة بشكل عنيف، وقام المهندسون بسرعة فائقة بإقامة حاجز قطع على الحركة طريق إيزومار[15]. كانت مسألة الحفاظ على إيزومار "رأس أنوال الشامخ" بالنسبة لآلاف الرجال مسألة حياة أو موت. بيد أن المرتفعات الاستراتيجية بقيت كالعادة تحت مسؤولية وحراسة مائة أربعة وأربعين من المشاة، بالإضافة إلى واحد وعشرين رجلا من المدفعية، وأربع آليات من عيار 75 مليمتر[16]. كل ذلك اعتبر دفاعا كافيا، لكن إيزومار كانت تفتقر إلى الشجعان.

جُهزت قافلة اخرى لمساعدة الرجال المحاصرين في الجبال، وكانت القيادة هذه المرة للقائد السابق لسيدي ادريس الكومندان **خوليو بنيتيث بنيتيث** Julio Benítez Benítez الذي كان عمره يناهز ثالثة وثلاثين سنة. كان ضابطا متيقظا، وهادئ الطبع، إلا ان نظّاراته المستديرة وحاجبيه المقطبين دائما وروحه المتشائمة كانت تضفي عليه هيئة الانهزامي. ومع ذلك لم يكف عن حث رجاله المتواجدين في ايغريبن (بؤرة التوتر الشديد والفوران الدائم الذي اطلق عليه خوليو هذا اسم "الحضيرة الصغيرة") على الصمود لأجل هدف سام وشبه مستحيل، تمثل في صيانة هيبة وكرامة الجيش.

وفيما يخص المساعدات الجوية، فكانت البداية مع طائرة واحدة، انضمت إليها فيما بعد طائرات اخرى كانت تقذف بقنابل ضعيفة لا تخيف سكان الريف. وكان اهالي إيغريبن يتتبعون باعينهم ابتعاد هذه الطائرات في اتجاه مليلية، وهي تحلّق في اجواء الظهيرة الساخنة. وبعد ان علم بهول المأساة التي حلت، عاد نفارو الذي كان وقتها بإسبانيا.

كان الأربعاء تاسع عشر من يوليوز، يوما آخر من القصف الشديد، والحر الخانق، والطلقات النارية المكثفة، وقتها خرجت قافلة اخرى في اتجاه إيغريبن يقودها نونييث دي برادو Nuñez de Prado برفقة ستة من فرق المشاة، وفيلقين من النظاميين، وآليات حربية خاصة بالجبال. كان المجموع يقدر بنحو الف رجل واربعة مدافع، كما ان القافلة كانت مزودة باثنتي عشرة حمولة من المؤن تكفي لثلاثة ايام، وثلاثة وخمسين برميل ماء تم إفراغه في حاويات المعسكر للتزود من جديد من اي عين قريبة إذا امكن ذلك، بالإضافة إلى شحنة من القذائف لكل من اوردونيا ونوغيس Orduña y Nougués، ومائة قنبلة يدوية وعشرة صناديق من البنادق وثمانية براميل من البترول لحرق قطيع الماشية الميت[17].

كان رجال المقاومة يقطعون الطريق، كالعادة، كانت طلقاتهم دقيقة تصيب هدفها، اصيب التنينتي كولونيل نونييث بجراح في ساعده، ومع ذلك تحمل الموقف. كان رجاله يختبئون وراء كتل صخرية ملتهبة بفعل حرارة الشمس، وبمرور الساعات، امتطى ثيبوبينو Cebollino صهوة جواده واتجه نحو انوال، تحت وابل الطلقات النارية. كان هدفه هو تنبيه **ارغويث** Argüelles بأن الزحف نحو الأمام امر مستحيل، لكنه عاد خالي الوفاض سوى من امر يجبرهم على الصمود في نفس المكان. وفيما بعد، ارسل نونييث دي برادو واحدا

من مساعديه، وهو القائد **ثابينو** Zappino الذي شق طريقه بدوره تحت وابل من رصاص العدو، فلم يتغير جواب أرغوييث، بل بقي هو نفسه، مواصلة المقاومة. بعدها حاول كارلوس ثابينو العودة لكنه لم يصل، إذ أصابته رصاصة فأردته قتيلا.

توقف القبطان للحظة، فراعه هول ما رأى من انعدام النظام والانضباط وانعدام الشجاعة عند الجنود. وحينما اشتكى الضابط برودة الجيش، أقسم على إيصال القافلة أو يهلك دون ذلك، فقُتل برصاص العدو[18]. وفيما بعد نشر نعي وفاته في يومية أ-بي-سي في عددها الصادر يوم الجمعة الثاني والعشرين من يوليوز، جاء فيه أن الهالك قُتل في التاسع عشر من يوليوز بأرض أنوال دفاعا وخدمة للوطن. كان أول وآخر قتيل اهتمت به الصحافة ووسائل الإعلام في كارثة جيش سيلفستري، فتذكرته الجماهير دائما في مدريد. فيما بعد سقط المئات بل الآلاف، ولكن دون أن يُنْشر نعيهم، فتألمت كل إسبانيا من أجلهم. كانت الساعة تشير إلى الثانية زوالا حينما وصل إلى أنوال الكولونيل مانيلا، وهو على أتم الاستعداد لتعويض أرغيوس. وبفرح تشوبه الحيرة قبل هذا الأخير هذا التناوب، وصل قائد حقيقي بمعنى الكلمة. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الضباط طالبوا بهذا التعويض، فاعتز الكولونيل مانيلا كثيرا بهذه الثقة، والدليل فيما ذكره لزوجته السيدة ماريا دو كسني María du Quesne في آخر رسالة كتبها لها في الثامن عشر من يوليوز، والتي قرأتها بنفسها بعد انهيار معنويات مدريد وبعد معرفتها بكارثة إفريقيا، إذ اعتبر زوجها في عداد "المفقودين"، وقد ظل هذا الاعتقاد قائما لمدة سبعة وستين سنة إلى أن كشف الحقيقة مجموعة من الأسرى، كانوا تحت إمرة نائب، وكومندان مليلية، وكبير الشرطة بتطوان، ووزير الدفاع بمدريد، فذكروا أن مانيلا قتل، وبعد التعرف على جثمانه دفن بمكان قريب جدا من أنوال.

قائد تم نسيانه وطلب "عاجل جدا"

كان فرانثيسكو خفيير مانيلا كوراليس Francisco Javier Manella Corrales رجل حرب بمعنى الكلمة، كانت له دراية واسعة بالقتال، فهو الذي خاض الحرب في كوبا وإفريقيا، وفي كليهما أثبت براعته بامتياز. كان هذا الشخص المنحدر من مدينة قادس، والذي يبلغ من العمر واحد وخمسين سنة، صاحب بنية قوية رغم نحافته،

ومظهر حسن، كما كان كذلك من اكثر رجال سيلفستري وفاء، فقد خدمه طويلا. وبالرغم من انه لم يَحضر ساعة وفاته، لأن مانيلا لقي حتفه في ساحة المعركة، فإنه على الأقل شارك في بناء أسطورته. كان بحق رجل فروسية، مثله في ذلك مثل مانيرا فالديس Manera Valdés، الذي كان يبلغ من العمر تسعة وأربعين سنة، وكان مساعدا لسيلفستري، وكوبي المنشأ مثله[19].

منذ الواحد والعشرين من مايو، كان مانيلا بمليلية يخرج في دوريات جديدة، وبوصوله إلى المكان وجد الوحدات التي كانت تحت إمرته سابقا، والمعروفة بفرقة الخيالة الرابعة عشر الكانطرا، موزعة على مناطق الريف بشكل عشوائي جدا، ذلك أن الكتائب وفصائل الجيش كانت منتشرة على طول خط يصل إلى مائة وعشرين كيلومتر[20]، وبالإضافة إلى هذا الشتات كان هناك العبث والبطء والخمول وفقدان الإرادة، فجاء مانيلا فأعاد نظام وترتيب الصفوف، واحيى الرغبة في الجيش وذكر في الثالث عشر من يونيو، كانت الفرق العسكرية قد تعودت على الخمول والكسل، وها هي الآن تتحرك بسرعة كبيرة.

ورغم الحذر الكبير الذي كان يلف رسائل قائد الكانطرا، فإنها نادرا ما كانت تخلو من عبارات معينة كان يبعثها لزوجته مثل: "سري" او "خاص" او "لا تخبري أحدا بالأمر". وقد قال عن الضابط الذي عوضه دون أن يذكر اسمه: «حسب ما سمعت، وهذا شيء اعرفه انا تماما، فالكولونيل السابق كان رجل إدارة اكثر من رجل حرب او قائد فرقة حربية»[21].

وفي الرابع عشر من يونيو، توجه مانيلا إلى انوال ليباشر مهامه الأولى بصفته رئيسا لتلك المنطقة، وذكر لزوجته ما لقيه من عناية من عائلة سيلفستري التي قال عنها: «إنها عائلة حنونة جدا، ودائما يدعونني للطعام في منزلهم»، وختم حديثه بقوله: «وكما تعلمين جيدا فانا لست اجتماعيا بطبعي»[22]. وتمر خمسة أيام ويكتب من جديد لعزيزته ماريا (وهي العبارة التي يستهل بها دائما رسائله) من انوال قائلا: «انا هنا على رأس جيش لن اعود ابدا لقيادته ولو صرت جنرالا». فقد انصبت انتقاداته على «هذه المنطقة التي ينتظر فيها رجال سيلفستري ساعة الموت. ويضيف هامسا: «اكتب لك هذا لتقرئيه إلى بولي Poli (نجله فرانثيسكو دي أسيس، اثنا عشر سنة، والذي سيصبح لاحقا جنرالا)، واخبريه أن لدي عشرين مدفعا وستين بندقية رشاشة». وفيما بعد تحدث مانيلا عن الضباط الشباب المتواجدين بانوال، حيث يوجد فتيان بارزون من

بينهم ابناء سيلفستري ونفارو وشباب آخرون ينتمون إلى عائلات معروفة قائلا في شانهم: «عليهم ان يكونوا المثل الأعلى للآخرين».

وقبيل وفاته باسبوع واحد، وفي حديثه عن نيران الحرب التي اندلعت وتأججت بإيغريبن انطلاقا من سيدي ادريس، تحدث إلى زوجته قائلا: «انظري إلى هؤلاء الفتيان، شباب في العقد الثاني من عمرهم يسقطون في ساحة المعركة، وستتحسرين اكثر على تجاهل (مدريد)، فالناس لا تفكر إلا في نفسها، تبا لهذه الأنانية». وقبلها بعشرة ايام اعرب عن رغبة الكثيرين في الالتحاق بمؤخرة الجيش، واقر لماريا: «ساحكي لك فيما بعد تفاصيل الأحداث، وستدركين تماما كم هي الخروقات التي اصلحتها، وما بقي دون إصلاح...»[23] لكن الموت حال بينه وبين ذلك.

ادهشت الحرب المعلنة على الريف الكولونيل الذي فغر فاه، لم يكن سبب الدهشة، الثقة الكبيرة في النصر، لأن الجيوش الإسبانية كانت تفتقر إلى كل مقومات القتال، بدءا بصراحة برنكر وتوقعات إيزا. وفي الليلة التي سبقت إحكام الحصار الريفي على إيغريبن في الثامن من يوليوز، صرح مانيلا بما يلي: «لا اظن اننا سنناور الآن، إذ لا شيء لدينا، ومن المحزن ان يكون كل العتاد الحربي تقريبا بإسبانيا او بتطوان»، هذا وقد اتسمت تصريحات ضباط سيلفستري بالواقعية في محاكمة برنكر، هؤلاء الذين تمكنوا من الفرار والبقاء على قيد الحياة، وفي حديثه عن رئيسه قال: «مسكين، لا تذكري شيئا عن الجنرال سيلفستري، كيف انهم... (عبارات لا تقرا)، واظن، ومثلي كثير، ان مسالة الحسيمة سيتكلف بها المقيم العام لأننا نبعد عن المكان بواحد وثلاثين كلم، وامامنا عدو قوي وشديد البأس»[24].

وجاء يوم الرحيل، كان يوم الثلاثاء الثامن عشر من يوليوز، وقتها بعث فرانثيسكو إلى ماريا برسالته الأخيرة، فمن انوال صدرت الأوامر التي تقضي بذهابه الفوري لتعويض كولونيل المدفعية (ارغويس)، وفي ختام رسالته، قال: «في هذه اللحظة توصلت بالبلاغ. وقد سقط العديد من القتلى والجرحى، فذكر لي الجنرال (سيلفستري) انهم قد اخطاوا (وسطر على هذه العبارة). مسكين اغوستين Agustin سيصابوا بالذهول حينما يعلم بالأمر -لا تقولي شيئا- ولك من عزيزك باكو Paco آلاف القبلات».

قام باكو مانيلا بدوريات في أنوال، فالتقى وجها لوجه بالقافلة المحاصرة هناك. كانت الساعة تشير إلى الرابعة زوالا من يوم التاسع عشر من يوليوز، فخطط للهجوم الأخير، وأصدر أوامره لمن استطاع من رجاله بتسليم وعاء مائه للجنود النظاميين المتوجهين نحو إيغريين[25]، لكن هذا المخطط باء بالفشل الذريع، لأن طلقات المدفعية كانت تصل إلى التلة الصفراء فقط، بل كان بعضها يسقط على نفس التحصينات الإسبانية، بينما كان الريفيون في الأعلى.

وفي التاسع عشر من يوليوز 1921، توفي مانيلا دون التوصل إلى هدنة في إيغريين، وحدث أن احتفظ مناصروه ببوله الذي راج عنه أنه إذا برد وانضافت إليه قطع السكر يمكن شربه. وفي الليلة الموالية استمر القتال على نفس النحو، إذ اشتدت المعارك عند الأسوار، ولم يستسلم الريفيون ولا الإسبانيون. وعند الحادية عشر والنصف ليلا بمليلية، كتب سيلفستري برقية مختصرة إلى إيزا يطالبه فيها بإرسال العتاد والذخيرة التالية: خمس عشرة قذيفة من عيار 70 ملم، بالإضافة إلى خمس عشرة قذيفة أخرى متنوعة ضرورية لتعزيز صفوف الجيش، وعشرين ألف مفرقعة، وعشرة ملايين خرطوشة من نوع ماوسر، ومليوني خرطوشة ريمنغطون، وستين ألف قذيفة للمدافع، واثني عشر صاصة للبنادق. لكن عتادا من هذا الحجم لم يكن متوفرا بتاتا، وكان سيلفستري على علم بهذا الخصاص ومع ذلك حدد الأجل قائلا: «إنها حاجيات ملحة، ولهذا أرجو من سيادتكم الموقرة أن تعجلوا بهذا الطلب وباستخراجهم لهذا العتاد من أي مخزن قريب لهذا المكان، وإرساله لنا في أجل أقصاه عشرة أيام»[26]. لم يكن في حسبان سيلفستري أنه سيعيش ليومين ونصف فقط، ثم توافيه المنية. لقد وصل الطلب المُستعجل باثنتي عشر ساعة من التأخير إلى بوينا بيستا، فجاء الجواب من رئيس قسم جهة المغرب كالآتي: «بعد أن تلقينا البارحة برقية بشأن إرسال العتاد والذخيرة، أصدرنا أوامرنا بضرورة الإسراع لتنفيذ هذا الطلب، وإمداد الميدان بكل ما يحتاجه، مع تحيات كارلوس لوبيث دي لاميلا Carlos López de Lamela». لقد ضاع الوقت كثيرا، لكن المقاومة استمرت في الهضبة الصفراء، وثمة مؤشرات أوضحت أن تلك الهضبة الصغيرة والعالية كان من العسير احتلالها.

برقيات عاجلة وعطلة صيفية رسمية مقطوعة

كان برنكر منغمسا في حملته، وحربه داخل معسكره الجبلي في "ركبة الغزال" مواجهة للخطوط الريوسنية، وكانت ترد عليه أنباء مقلقة تفيد بأن الريف قد انتفض.

وكانت تشغل المقيم العام صعوبات التواصل مع مليلية، لأنه كان بحاجة إلى متابعة الأحداث عن كثب، وها هي هذه الانتفاضة المفاجئة "للحركة" تقلب عليه مواجعه[27]، لكنه لم يغادر "الركبة" التي وصلت إليها برقية مشفرة أخرى من سيلفستري في الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة يوم العشرين من يوليوز.

اخبر سيلفستري برنكر ان «جل القوات الحاضرة بأنوال تحركت، وبعد تامين مؤخرة الجيش بحامية من القبائل»، وفيما بعد ذكّره بفشل القافلة الأخيرة، ووعد بإصلاح قريب .... حالة إيغريبن يرثى لها، وغداً ستعالج الأمور».

فيما بعد كشف سيلفستري لبرنكر عن خطة الطوارئ التي اعدها، «سوف اشكل طابورا من الوحدات الميدانية (...) وساعينه يوم الخميس على القندوسي، وذلك بهدف التركيز على واد صالح شرق سيدي ادريس، وهو المكان الذي انوي إقامة قاعدة تموين به، ستكون القوة الضاربة وذلك بتقوية الميمنة، وتحصين مركز على الشاطئ يضمن لنا سلامة الجيش». لم تنجز هذه التحصينات، وعاد سيلفستري يطالب بالمساعدة ولكنه هذه المرة ترك المبادرة بيد رئيسه، «إنه من اللازم إرسال قوات دعم من رجال وعتاد في كميات تراها سعادتكم كافية»[28].

أرسل برنكر مرة أخرى برقية سيلفستري إلى مدريد، فقرأها لوبيث دي لاميلا في بوينا بيستا، فقام هذا التنينتي كولونيل بإرسال نسخة موجزة منها إلى إيزا، الذي كان بسان سيباستيان في عطلة صيفية رسمية، وذكر له فيها ما يلي، «أبلغ سعادتكم الموقرة بما جاء في برقية المقيم العام بعد اطلاعي عليها، وتجدر بكم العودة إلى القصر...»[29].

وصل نفارو إلى أنوال، في الوقت الذي دخلت فيه إيغريبن اليوم الرابع من الحصار، ومن مليلية كان سيلفستري يواصل القتال، ويواصل في نفس الوقت إرسال برقيات إلى برنكر. وفي برقية أرسلها في نفس اليوم، أي في العشرين من يوليوز على الساعة الثانية وخمسة وثلاثين دقيقة، طلب الإذن لإجراء عمليتين حيويتين تتلخصان في تعاون الفصائل العسكرية، ووصول الدعم الجوي.

كان الهدف من العملية الأولى «إرساء ثلاثة أو أربعة قطع حربية بخليج الحسيمة، للتفاخر بعروض القوة مع قصف كل الخط الساحلي بنيرانها»، كان سيلفستري في احتراسه بقدر ما

يمكن ان تعنيه عملية هجومية من هذا النوع، فاعلن لبرنكر ان هذا القصف المزعوم لابد وان يتحقق، ولكن ليس قبل «إخلاء المنطقة التي تضم اصدقاء اوفياء لنا»[30].

وبشان العملية الثانية، قدم سيلفستري التوضيحات التالية، «اظن انه من الضروري إرسال فيلق جوي مهم من إسبانيا، يتكون من ست طائرات، في حين ان برنكر لم يكن يملك سوى ثمان عشرة طائرة موزعة على ميادين القتال بتطوان، واربع طائرات اخرى بالعرائش[31]. اثنان وعشرون طائرة إذن، (ثمة إحصاءات اخرى تحدثت عن اربع عشرة طائرة في منطقة جبالة) كان هذا العدد يفوق، بخمس مرات، عدد الطائرات الموجودة في مليلية، فمن بين الطائرات الستة التي كانت متوفرة، واحدة فقط كانت معطلة. كان سيلفستري لا يجرؤ على طلب هذا الدعم الجوي الذي كان من الممكن ان يصله فورا، وفي غضون اقل من ساعتين من مدينة تطوان.

فاجابه برنكر الذي تظاهر بانه مقتنع بوجهة نظره، ورغم ذلك لم يحرك لا معدات جوية ولم يحث إيزا على الاستعجال بالشروع في قصف اجدير. ومما زاد الطين بلة قوله، «... اطلب من الحكومة الوسائل اللازمة لنقل الإمدادات التي سيحتاجها سيلفستري، وسوف اكون ممتنا لكم لو اسرعتم في التنفيذ»[32]. والسؤال المطروح هو «ما هو عدد الجنود والعتاد الذي كان سيرضي سيلفستري؟»، فكل هذه الإكراهات انضافت إلى معضلة ضياع الوقت.

وسنة 1921، وبإنهاء كل من ايالا Ayala ورويث دي لا فونطي Ruiz de la Fuente لشهادتهما اثناء محاكمة برنكر، اوضحا ان هذا الجواب يستجيب لقرارات غير عملية «كشفت غياب مبررات تعلل الحاجة إلى الدعم الجوي، وابلغ دليل على ذلك هو سوء وتردي الوضعية»[33].

وكان من المفارقات الغريبة ما جاء في برقية بعث بها برنكر إلى إيزا يوم الثاني عشر من يوليوز على الساعة الثانية والنصف زوالا، حيث اعرب عن استحسانه لفكرة استخدام الترسانة البحرية والجوية، وفي نظرة لا تخلو من التشاؤم قال، «وبما ان الأمر ليس بيدي لكي ارضي رغباته (رغبات سيلفستري)، فإني ارفع هذا الملف إلى الحكومة لتبث فيه، وإني اعتبر انه من اللائق العناية بهذا الموضوع»[34]. فلتات الحلول إذن من جهات اخرى، في حين ان الحل والعقد كان بيده هو.

رسالة وصلت متاخرة جدا

في الخامس عشر من يوليوز 1921، وقبل يومين من حصار إيغريبن، كتب سيلفستري إلى برنكر، وهو مايزال يطالبه بالدعم الحربي، ويطالب بسداد أجور الأهالي التي تأخرت بنحو اربعة شهور، كان يذكّر دائما بالخطأ الكبير الذي ارتكب لعدم مد السكة الحديدية إلى ابن طيب، وحذره من تدهور الأمور، وانه يفتقر إلى الشاحنات، وسيارات الإسعاف التي لا يملك منها سوى ثلاثة، ورغم الخصاص الكبير لم يفقد سيلفستري ثقته، واعتبر مهمة كسر شوكة العدو أمرا ممكنا وسهل التحقيق، وذلك بإجراء عمليات صغيرة ومتتابعة[35].

هكذا إذن كشف سيلفستري من جديد عن طبعه القتالي، وفيما بعد، اقترح فكرة حكيمة على برنكر، كانت بمثابة النجاة للجيش، «اعتبر انه من المناسب جدا، ان يستغل مصب واد صالح لإرسال الإمدادات للجيش، وذلك عبر البحر. خاصة وان معسكر سيدي ادريس لم يعد يفي بالغرض، فإذا ما حصنّا هذا الموقع الجديد (خط انوال - تاليليت)، بمجموعة من الحصون الخشبية، فإننا سنكون قد امّنّا وصول الإمدادات البرية والبحرية، فبين البحر وانوال مسافة اثنا عشر كلم. وإني التمس موافقتك لتنفيذ هذا المخطط». كان سيلفستري يخفي قلقه الذي تمكن برنكر بفطنته من ملاحظته.

خانت الشجاعة سيلفستري، فلم يجرؤ على طلب خروج القوات البحرية، فشرح الواضحات عنده كان من المفضحات. لكن حكومة ايندي سلاسار ووزيرها في البحرية كانت تصم اذنها تجاه الأحداث.

ليلة العشرين من يوليوز
وظهور مخطط فريد من نوعه

بعد خمسة ايام ظهر سيلفستري بوجه آخر، فاصدر اوامره إلى كل القوات بتكوين فرق -عرضية- والسبب هو الخصاص في الرجال (وقوات الاحتياط)، ورغم ذلك كان مخططه الحربي جاهزا.

وفي العشرين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة ليلا، تلقى قائد هيئة أركان الحرب السيد الفونصو فرنانديث مارتينيث أمرا عاجلا بالمثول امام سيلفستري. كانت القيادة

العامة بمليلية تشبه في شدة حركتها مساكن النمل، فالأوامر كانت تصدر بسرعة، والمكالمات الهاتفية لا تنقطع والبرقيات في وصول مستمر، والأخبار الحاسمة أو المبررات المخجلة ترد في كل حين. كانت الأزمة عامة.

استقبل سيلفستري فرنانديث وسأله عما ،إذا كان يعرف طريقا سهلا يؤمن انتقال الجيش من منطقة الكبداني إلى نقطة معينة على الساحل تكون حلقة وصل بين افراو وسيدي ادريس، فأجاب فرنانديث وهو واحد من أعضاء لجنة خارطة الحرب بالإيجاب. واندهش اندهاشا كبيرا حينما شرح له سيلفستري تفاصيل السبب حيث قال: ،لأجل أن نقيم هناك معسكرا نشق من خلاله طريقا يربط معسكر انوال بالبحر، وذلك لتفادي المشاكل التي قد تقع في الطريق الرابطة بين ابن طيب وإيزومار،[36]. أدرك فرنانديث فورا أن ثمة استعدادات تجري للانسحاب التام من انوال، وأن سيلفستري ليس مطمئنا لأي انسحاب عبر مليلية برا، بل فضل طريق البحر، وذلك لنقل الجيش عن طريق السفن. كان هذا مخططا فريدا من نوعه، جعل فرنانديث في حيرة من امره، يقلب الأمور ويدرس حيثياتها ومخاطرها.

قطع سيلفستري على الكومندان حبل افكاره، وامره بالالتحاق بدار الكبداني لقيادة الجيش عبر الطريق المذكور. لم يكن الجنرال يريد مماطلات ولا حيرة باعتبارهما عنصرين من عناصر الفشل. وحدث ان أُسْنِدت رئاسة هذا الطابور المبتدئ إلى الكولونيل اراخو Arájo، اما مهمة فرنانديث فارتكزت على إرشاد هؤلاء الرجال المقدر عددهم بألف شخص، في الاتجاه الصحيح، وكان هذا هو آخر امل لإنقاذ الجيش إلى حدود الساحل، وبالتالي الاحتماء هناك وانتظار الدعم من انوال.

وافق فرنانديث، وخرج في مهمته الجديدة رغم الشكوك التي تساوره. كان يدرك تماما ان طريق البحر تشكل في حد ذاتها كابوسا مرعبا، ونفس الشيء بالنسبة لطريق انوال في اتجاه واد صالح، فكلا الطريقين كانا مخيفين وموحشين. كما جاء في تصريح له يوم العاشر من شتنبر 1921 أمام بيكاسو، والأدهى من ذلك انه كان على اطلاع بشيء آخر اكثر اهمية، وهو ندرة الماء بالمنطقة حيث يوجد معسكره. خرج فرنانديث من مكتب سيلفستري دون ان يذكر شيئا عن هذا الأمر، لأن الجنرال أصدر الأوامر في حضرة العديد من القياد. لم تكن مخاوف الكومندان تكمن في معارضة الجنرال، بل

كان يخشى ان يظهر امام الآخرين جاهلا لكميات الماء وتضاريس المنطقة، فقرر ترقب اللحظة المناسبة ليحذر سيلفستري على انفراد بثغرات ومخاطر المخطط. وقد تسنى له ذلك في نفس الليلة العشرين من الشهر، فتنازل الجنرال حالا عن تطبيق مخططه»[37].

لم يكن في حوزة سيلفستري سوى بارجة لايا Laya وحاملة مدافع تعرف بلاوريا Lauria اتت من سبتة، وفي برقية بعث بها يوم العشرين من يوليوز، طلب برنكر من إيزا إمداده، «ببارجة شبيهة بأميرة استورياس (المتواجدة بطنجة) لتكون تحت إمرته، وكان من الضروري ان تُقلع هذه البارجة، ومعها كل الأسطول البحري، يوم العشرين. لكن لم تخرج سوى بارجة الفارو دي بثان وبوستمانتي وبونيفاث وخيرالدا يوم الواحد والعشرين من يوليوز»[38] فماذا عن باقي البواخر والمدرعات؟ بلا شك كانوا يغُطّون في قيلولة استعمارية عميقة.

بالإضافة إلى ذلك، تقدم برنكر لإيزا بطلب دعمه بباخرة تجارية معروفة باسم المرانطي لوبو لحمل ما يناهز الف رجل، وحوالي مائتي راس من القطيع إلى مليلية إذا اقتضت الضرورة. فمنح برنكر لسيلفستري نفس الإمدادات التي وعده بها يوم الخامس من يونيو وذلك اثناء محادثتهما على متن باخرة لبرنثيسا، وكان إلحاحه متعبا.

لحظات وداع بمليلية وفيلق الجيش غير الضروري

كان من المقرر ان يخرج سيلفستري إلى انوال في الصباح الباكر، فاخذ معه كل ما استطاع جمعه من الرجال، والحصلية كانت: ثمانمائة وواحد وثمانين رجلا خرجوا إلى مصير مجهول. وكان برفقتهم مساعده خوان بيدرو إرنانديث اولاغيبيل J. Pedro Hernández Olaguibel.

وبعد انتهائه عند الفجر من تحضير لوازم الطريق، ودع الكومندان إرنانديث زوجته، وعند الباب كانت تنتظره واحدة من السيارات العسكرية السريعة (من نوع فورد 20 أش-ب) لتقله إلى مقر القيادة العامة. ويوم الواحد والعشرين من يوليوز اشرق عليه الصباح في مليلية.

كان إرنانديث ضابطا مدققا يحسب كل حركاته، وكان شديد الوفاء لسيلفستري، يحفظ كل وثائقه الخاصة والسرية، فمعا كانا يشكلان قوة كبيرة، والاثنين كانا على علم بوجود خمسة فصائل من فرقة الكانطرا في انتظارهم خلف انوال، وكانت هذه الفرق

المتجمهرة عند الدريوش تمثل النموذج الوحيد لوحدات الخيالة الأوروبية، واصبحت هذه الفرق نواة الجيش، فإذا ما تم تدمير هذه النواة فسيموت الجيش كله.

وقبل الصعود إلى سيارة فورد، وضع إرنانديث في يد زوجته السيدة لويسا كناليس دي لاس إيراس Luisa Canales de Las Heras مفاتيح كانت تخص الجنرال فيليب نفارو، واشياء اخرى لا يعلمها سوى الزوجين معا. فاندهشت لويسا عند رؤية تلك الأمتعة الشخصية، فساورتها القناعة بأن زوجها لن يعود حيا من مهمته، خاصة وانه شرح لها وبدقة آخر مهامه ورغباته[39]، تعانق الزوجان بقوة، ثم خرجت السيارة في اتجاه القيادة العامة.

انضمت إلى كل تلك القوات وحدات احتياطية مكونة من جنود لا يهم مصيرهم كثيرا، وكان مجموعهم حوالي ثلاثمائة رجل يُعرفون بفيلق الجيش غير الضروري. خرجوا والرعب يتملكهم، لم يكونوا مدربين على المشي عشرات الكيلومترات، كان البعض مزودا بمسدسات تتعطل عن العمل فور إطلاق الرصاصة الأولى، كما ان هذا النوع من السلاح كان جد خطير بالنسبة لمن يستعمله، ويعرف باسم كامبو خيرو Campogiro، هذه "الخردة السيئة جدا"، حسب تعبير رامون سولانو Ramón Solano [40]. وكان البعض الآخر يحمل على كتفيه بنادق محشوة بعيارات نارية من احجام مختلفة، وآخرون يحملون حراب بنادق مشوهة، كان هذا هو كل زادهم للدفاع[41]. وكانت وجهتهم نحو مواقع نُصبت كفخ على طول جبهة كرط، وهي مواقع تم تفكيكها منذ حرب 1912، ولم يكن بالمنطقة سوى غرابيب سود تحلق فوق السماء والجيوب المقاومة.

استيقظت مليلية في تثاقل، والوحدات الأخيرة تستعد للخروج، كان عددها خمسة واربعين رجلا، منهم طباخون، وكتبة، وسعاة بريد، وموسيقيون، بل وحتى الحراس خرجوا تاركين اكشاك حراستهم خالية، فلم يبق في المعسكر سوى خمسة وعشرين رجلا يقومون بدور الحراسة[42]. اصطفت الجيوش في كسل وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم، وكان الجندي اندري مارتينيثAndrés Martínez ضمن الفرقة الثانية المهملة، وكان يقودهم القائد اغوستين لوبيث Agustín López من وحدة الاحتياط، وهو الذي كان رئيسا للأرشيف.

اصدر القائد -رئيس الأرشيف- اوامره بالانطلاق فخرج الكل، خمسة واربعون جنديا غير نظامي، وبصحبتهم اثنين من البغال محملة بقليل من المؤونة، والماء والقليل من الذخيرة، كان ذلك يوم الواحد والعشرين من يوليوز 1921. ومن مليلية خرج آخر

الجنود للدفاع عن إسبانية الفونصو الثالث عشر في المغرب، كانت منحدرات الريف قد ارهقتهم كثيرا. وكذلك الحال بالنسبة لحرارة الجو التي استنزفت قواهم، فسقط احد النواب المساعدين وفقد وعيه، فحملوه على ظهر بغل، وتركوه في المؤخرة. اما قائد الجيش فكان يمشي ببطء متخلفا عن الركب بسبب بدانته المفرطة، وظن البعض ان تاخره في اللحاق بالرفاق يعكس همته، لكنهم كانوا مخطئين.

وبالوصول إلى الضفة اليمنى لكرط حلت المأساة، وذلك لأن فرقة رئيس الأرشيف التقت بمجموعة من الإسبان الفارين من مطاردة الريفيين، فانتشر الخوف المريع، وركض الكل في اتجاه مليلية ماعدا قائدهم. فـ اغوستين لوبيث كان على وعي بضعف حركيته، فاختار الزمان والمكان لموته. حيث أخذ المسدس بيده، وقام بتضحيات جسيمة لإنقاذ رجاله الذين لم يتمكنوا من الفرار، فمات الكل باستثناء المساعد المغمى عليه والجندي مارتينيث الذي روى تفاصيل هذه المأساة لدومينكز يوسا Domínguez llosa قبل وفاته بمليلية[43].

رجال يعرفون كيف يموتون: رجال بنيتيث

اشرق صباح يوم الواحد والعشرين من يوليوز على إيغريبن، والموقع عبارة عن كتلة من الأجساد المنهكة، والجرحى ينتظرون رعاية طبية، في ظل غياب الأدوية والضمادات التي نفذت، وقتلى دثرت اجسادهم بلباسهم الرسمي الملطخ بالدماء. كان المقاتلون يحتملون اهوال الليل على قدر استطاعتهم، وهم يمتصون ما بقي في حوزتهم من بطاطس، ويشربون العطور (الجرحى) بل حتى حتى حبر الكتابة، ويطفئون نار العطش الملتهبة بشرب البول المحلى بالسكر. كانت الأسلاك الشائكة قد انهارت، وسقطت الخيام على الأرض من جراء إطلاق النار والقنابل اليدوية وطلقات المدافع. ونصب الريفيون عند هضبة معروفة باسم "عمار اوسعيد" على بعد الف وثلاثمائة متر، مدفعين سطوا عليهما إثر احداث ابران. لم تصب طلقاتهم الأولى هدفها، لكن الرجل الريفي كان يتعلم بسرعة، وما هي إلا لحظات، حتى كانت قذائفهم تدخل إيغريبن وتحرق الأخضر واليابس[44]. فلم يبق، من بين مائتين واربعة واربعين رجلا عند بداية الحصار، سوى بعض المئات القادرين على حمل السلاح. كانوا يرفضون الاستسلام ولا يفكرون فيه.

كان على رأس أنوال الجنرال نفارو، الذي وصل إلى عين المكان في اليوم السابق، وقام بإرسال برقيات تشجيع إلى إيغريبن يصف فيها الجند بأبطال يرفعون اسم إسبانيا عاليا، وكان يحمّسهم بقوله، «قاوموا لساعات أكثر، فإن سمعة إسبانيا بين أيديكم». كانت إيغريبن هي إسبانيا، لكن وبإصرار بنيتيث على تحمل الوضعية المأساوية التي يعيشها رجاله من نتونة الجثث، والجروح التي تسببت في موتهم بسبب الروائح الكريهة، وندرة المياه، ونفاذ المؤن؛ أرسل نفارو برقية أخرى جاء فيها، «قاوموا هذه الليلة، أقسم أنكم ستنجحون. وإلا اكتفينا بشرف القتال»[45].

ومع بزوغ أول خيوط فجر يوم الواحد والعشرين من يوليوز، بعث نفارو ببرقية إلى سيلفستري يطالبه بإعداد قافلة إغاثة أخرى، إذ دفعته طبيعة المنطقة إلى تقسيم الوحدات إلى كتيبتين اثنتين. وفيما بعد تطرق إلى معنويات الجيش ووصفها بغير الكافية للتصدي لحالة الضعف. كان نفارو يجس نبض الجيش، فاستنتج أنه ضعيف، خائر القوى، ومرتاب، لهذا جاءت عباراته لسيلفستري كالآتي، «لا أظن أننا منتصرون، وكان ينتظر الأوامر بخصوص انتظار القافلة أو الاستعداد للانسحاب من إيغريبن»[46].

لم تأت الأوامر، ولم تكن هناك أي حلول، فالبرقية وصلت إلى مليلية في وقت كان فيه سيلفستري غائبا. وفي أنوال كان مانيلا ومورالس يتراسان جناحين من أقوى كتائب الإنقاذ، وعددهم يصل إلى ثلاثة آلاف رجل تقريبا. كان الكولونيلان يعملان معا بجد وإصرار، لكن اليأس دبّ إلى نفوسهم بسبب معنويات الجيش التي كانت تحت الصفر، فالجيش كان يقاتل بلا قوة ولا ثبات، كما أن شجاعته لم تكن بالكافية، فلم يبق أمام مانيلا ومورالس من حل سوى الاستسلام، وهكذا شرعا في الانسحاب. أما إيغريبن فغدت بؤرة للانفجارات والدخان المتصاعد، فلا صوت يعلو هناك سوى دوي البنادق، وطقطقة المدفعية المزعجة.

وفي تلك اللحظات الحاسمة ظهر سيلفستري، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف زوالا من يوم الواحد والعشرين من يوليوز، حيث علم الجنرال بفشل القافلة، فتطاير الغضب من عينيه، واغتاظ أكثر عند استماعه لتلاوة برقية بنيتيث التي جاء فيها، «لا أصدق كيف أنكم تتركون إخوانكم الإسبان يموتون ويضحون بحياتهم أمام أعينكم»[47].

غضب سيلفستري كثيرا، فأصدر أوامره لضباطه بتشكيل الكتائب وإيصالها إلى إيغريبن. لكن مساعديه إرنانديث، ولوبيث رويث، ومنيرا حاولوا إقناعه بالعدول عن قراره، وشيئا فشيئا هدأ سيلفستري من روعه. وفيما بعد أصدر تعليماته لبنيتيث بالذهاب للتفاوض مع العدو، فغضب بنيتيث من هذا القرار غير الصائب قائلا: «لقد قُتل ضباط إيغريبن، لكنهم لم يستسلموا»، فجاء هذا التصريح ضربة موجعة لسيلفستري الذي تحسر على عجزه. وهناك بالهضبة الصفراء كانت تخيم معنويات شبيهة بمعنويات جيش نابليون القديم.

طرح خيار آخر، تمثل في وضع المدفعية في منطقة عالية بغية قصف "الحركة" من الجهة الجانبية، لكن مدفيعة إيزومار كانت تخفق دائما في إصابتها الهدف، فأمر سيلفستري القائد بلانكو بإعداد وتحريك جنوده المتواجدين على رأس المدفعية الجبلية الخامسة، والمكونة من أربع قطع من عيار 70 ملم. كان رامون بلانكو إي دياث دي لا إيسلا Ramón Blanco y Diaz de la Isla شابا في الخامسة والعشرين من عمره، ترك الأكاديمية الحربية التي كان يشتغل بها مدرسا، وطلب المجيء إلى المغرب، فمكث بمليلية أربعة أشهر[48]. وبتلقيه الأوامر حرك رجاله وآلياته بسرعة، ومن موقعه هاجم المقاومين بقذائف مدمرة، لكن مساعدته وصلت متأخرة[49].

لم تكن مقدمة الجيوش الإسبانية تبعد عن إيغريبن سوى بنصف كيلومتر. وحدث أن أخلى بنيتيث سبيل رجاله، فكان لابد من إخلاء الموقع، الآن أو البقاء فيه إلى الأبد.

شرعت الكتائب في الانسحاب بسرعة، واتخذ بلانكو مع معداته الحربية ركنا منزويا. لم يكن هناك من سبيل للذهاب إلى أنوال، فاتخذ قراره الوحيد بالانعطاف نحو إيزومار، لحماية المدافع وتفادي العدو. كان سيصل إلى هناك حتما، في الوقت المناسب وفي الصبيحة الحاسمة، لم يكن هناك خيار آخر لإنقاذ الجيش من الدمار.

وعاد بريق الانفجارات يشع من جديد من جهة إيغريبن، وفي أنوال كانت تفك رموز رسالة غريبة جاء فيها: «لم يبق سوى اثنتي عشر قذيفة مدفع، سنشرع في إطلاقها الآن لرد الهجوم، إحسبوها، فعند الطلقة الأخيرة ستُفتح النيران علينا، وسيدخل "الموروس" والإسبان في مواجهة مباشرة»[50]. إنه بنيتيث يتحدث بوضوح، كان الموقف بطوليا حتى النخاع.

جاء قرار بنيتيث وضباطه يحث على اللحاق بمؤخرة الجيش، حيث فكروا في تشكيل طابور صغير، وهذا ما حصل بالفعل. فقد اصطف كل من القواد: ارتورو بولنيس Arturo Bulnes، وفيدريكو دي لا باث اوردونيا F. de la Paz Orduña، والملازمين خوليو بوستمانتي إي بيبيس Julio Bustamante y Vives، ولويس كسادو إسكوديرو Luis Casado Escudero، ومانويل كاسترو مونيوث M. Castro Muñoz، والفونصو غالان ارّبال A. Galán Arrabal، واوييدو رودريغيس Oviedo Rodriguez، وخوليان سيرا سيرانو Julián Sierra Serrano [51]، بالإضافة إلى رفائيل بيانويبا هوبر Rafael Villanova Hopper، وإنريكي روييث اوسونا برتبة ملازم ثان.

سارت الطليعة تحت إمرة بولنيس Bulnes، اما الجناح الأيسر فكان يقوده غالان Galan، والميمنة كانت تحت قيادة كسادو Casado، في حين بقيت مسؤولية الشطر الأعظم من الجيش ملقاة على عاتق بنيتيث الذي تولى السهر على الجرحى والمرضى. وفيما يخص مؤخرة الجيش فقد تولى امرها باث اوردونيا Paz Orduña. فوزعت على الطابور الذخيرة الحربية (عشرون خرطوشة لكل واحد). كما وزعت النقود التي كانت في الصندوق (خمس عشرة الف بسيطة)، وزعها بنيتيث على جيش لا تفارقه الدهشة، وتم الاتفاق على إعادة المال إلى المعسكر إذا ما تيسر المرور[52].

كانت المجموعات في تآزرها على اهبة الاستعداد للخروج، لكنها سرعان ما تفككت دعائمها وطوقها الموت من كل جانب، فهرولت الحشود تتسلق الأسوار بغية إعطاء العدو فرصة التلذذ بمقتلهم، وذلك ليفوز الآخرون بالحياة وينجون بجلودهم ولو لثوان معدودة، كان بعض الجنود يقفزون عاليا، ومنهم من كان يعانق صاحبه قبل الموت، وتلك حالة بوستمانتي (المتخم بالجروح) ونوغيس، وذي لاباث، وكلهم كانوا على راس المدفعية بإيغريبن. وتجدر الإشارة إلى ان دي لاباث اوردونيا كان له اخ آخر يدعى ميغيل، وبدوره كان يسير مدفعية في انوال، وكلاهما كان يقدر حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فإذا ما نفذت قذائف المدافع فقد يقصف الواحد منهم الآخر، كان عدد الطلقات والانفجارات يحسب كذلك: اثنتي عشر. وبالتالي بات من الضروري إطلاق القذائف من جهة واستقبالها من جهة اخرى. لكن انوال لازمت الصمت، صمت استغله فيديركو دي لاباث واتلف في مهارة عالية مفاتيح مدافعه التي مات بجوارها.

إجراء قرعة وكولونيل يذهب إلى "بوينا بيستا"

وصل إلى أنوال وبعد مشقة كبيرة، كل الفارين من ويلات إيغريبن. لم يكونوا رجالا بل أشباحا مخيفة، كان مجموعهم اثنا عشر أو ستة عشر رجلا وحسب إحصائيات اخرى كان العدد هو ستة وثلاثون[53]. كان منظرهم مرعبا للغاية بعيونهم الجاحظة، ووجوههم المعفرة بالتراب. أربعة منهم لقوا حتفهم من جراء شرب كميات كبيرة من الماء إلى حد امتلاء بطونهم، ضاربين عرض الحائط كل النصائح التي اسديت لهم. وأمام هذا المنظر لزم كل أفراد المعسكر الصمت، وأعرب البعض عن سخطهم، وتأثرت معنويات العديدين. وعند الجبل لم يبق سوى شخصين على قيد الحياة وهما، جندي (نجهل اسمه) والملازم كسادو، حيث أصيب الاثنان بجروح خطيرة فأغمي عليهما، وحسبهما الريفيون في عداد الموتى، لكن تم أسرهم فيما بعد.

كان انطونيو اندرو مودول Antonio Andreu Modol واحد من رجال المدفعية الذين تمكنوا من الفرار من الهضبة الصفراء، وكان يدين بحياته ،لهمة واحد من مساعدي الفرقة الطبية العسكرية، الذي تصدى للموروس من شرطة ونظاميين...، كان "بيكاسو" يتمنى الحصول على اسم هذا الرجل الشجاع، لكن بلا جدوى[54]. كان سيلفستري شاحب الوجه مثل مودول، ولم يكن يرغب في سقوط قتلى آخرين، فأصدر أوامره لنفارو بالرجوع إلى مليلية، فأبى هذا الأخير ولم يجد سيلفستري من حل آخر سوى إعادة الأوامر من جديد، فامتثل نفارو هذه المرة.

تحدث سيلفستري إلى ضابطيه، القائد لوبيث رويث والتلنتي كولونيل مانيرا وأمرهما بإجراء قرعة فيما بينهما لمعرفة من سيبقى إلى جانبه، فهو الآن يريد الاحتفاظ بمساعد واحد فقط[55]. لم يكن ممكنا التخلص من إرنانديث أولاغيبل Hernández Olaguibel، الذي قرر السير على خطى قائده، ومرافقته مهما كانت النتائج. أما عن توليو لوبيث رويث Tulio López Ruiz، وإنريكي مانيرا فالديس Valdés Manera Enríque، فقد رفضا بدورهما المشاركة في القرعة، فكرامتهما لا تسمح بذلك. لكن سيلفستري كان حازما وأصر على طلبه فأجريت القرعة، وأدرك كل من كان حاضرا بالمكان أن الجنرال عقد نيته على الموت في أنوال.

كان لابد من إعادة القرعة ثلاث مرات، وخسر مانيرا الذي بدا عليه الارتياح لهذا القرار الارتجالي. فجاءت لحظات الوداع قصيرة ومؤثرة ومشحونة بالمشاعر الجياشة. سلم سيلفستري للوبيث رويث مفاتيح مكتبه بالقيادة العامة بمليلية، وكلفه بسحب «أشياء خاصة به والف بسيطة (وبالضبط الف واثنين وعشرين بسيطة) وتسليمها إلى امه ذاكرا له بأن هذا هو كل ما يملك من مذخرات»[56]. كما طلب الجنرال من الكومندان وهو يضمه إليه بحرارة شديدة بأن يُقبل كاتبة مذكراته (السيدة إلوطريا Eleuteria)، كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف من يوم الواحد والعشرين من يوليوز.

وفي تلك اللحظات خرج سيلفستري عن صوابه، كيف لا وهو القائد العام لجيش محاصر. وهذا ما فهمناه من برقيته التي بعث بها إلى برنكر في مليلية على الساعة الرابعة وثلاث عشرة دقيقة: «القائد العام للجيش من انوال، يخبرك أنه من الضروري إرسال فريق من عمال السكة الحديدية والمعدات اللازمة لإنشاء خط حديدي يربط ابن طيب بتيزطوطين»[57].

بعد أن قرأ بيكاسو هذه البرقية، لم يتردد في وصف مضمونها بالمطالبة غير المناسبة[58]. فالطلبات كانت كثيرة: معدات لإنشاء سكة حديدية يصل طولها إلى ثمانية وثلاثين كلم (وهي المسافة التي تفصل ابن طيب عن تيزطوطين) في وقت كان الجيش يلفظ انفاسه الأخيرة، كان هذا الطلب غير معقول، بل غير منطقي أبدا. فاندهش برنكر للأمر، لكن المقيم العام لازم الصمت، ولم يذكر شيئا مما ذكره سيلفستري في نفس البرقية عن الستين الفا من القنابل. كان ذلك لا يهم كثيرا، ومرت ستة أيام وعاد سيلفستري ليذكر -إيزا وبرنكر- بالحقيقة المعروفة: نفاذ الذخيرة. ففي انوال لم يبق سوى مائتي الف من الخراطيش، وستمائة قذيفة. وبما أن عدد المدافع كان لا يتعدى خمس قطع، فكل مدفع كانت تخصص له ثلاثون قذيفة، وهو ما يكفي لمعركة واحدة. لكن مدافع انوال لم تف بالغرض.

وفي برقية أُرسلت على الساعة السابعة والنصف، وصف سيلفستري بكل صراحة بشاعة الأحداث في إيغريبن، فقد تحدث عن قواد وضباط انتحروا عند التحصينات. وذكر الانسحاب الدامي للغاية، وعن نفسه قال: إنه بقي في انوال وقد أحاط به العدو من

كل جانب. وفي ثلاث عشرة كلمة، كان لها وقع خاص، طلب ما يلي، «ونظرا لهذه الوضعية الخطيرة والمزرية، أطلب من سيادتكم موافاتنا بفرق كاملة ومجهزة بالكامل»[59].

لقد طلب "فرقا" بصيغة الجمع وليس فرقة واحدة فقط، في حين أن إسبانيا كانت فقيرة لا تملك فرقة واحدة، وقد تدارك سيلفستري خطأ تعبيره، وبعد إرسال هذه البرقية إلى الراديو، نزل مساعد الجنرال السيد مانيرا لتصحيح العبارة وتعويضها بأخرى تشير إلى أن القوات المعنية هي كتيبة مختلطة. ثلاثة آلاف رجل مقابل عشرين ألفا. كان سيلفستري يخشى رد فعل الحكومة إزاء هذه الطلبات[60] فأخفى الوضعية الحقيقية.

خلفت هذه البرقية التي تتحدث عن الفرق العسكرية أثرا قويا، وأدرك لاميلا Lamela المتتبع الوحيد للأحداث الإفريقية بكل تفاصيلها ولحظاتها أن أنوال تسير نحو التهلكة. واستمر إيزا في غيابه عن ساحة الأحداث، لكن مراسلاته لم تنقطع، ففي إحدى برقياته، التي أرسلت على الساعة 22:23 و23:18، جاءت الأوامر لبرنكر بالقيام بمجموعة من الإجراءات والتحركات، «أصدر أوامرك بالاستيلاء على البواخر التي ترسو في سبتة، وقم بشحنها بالمواد الضرورية، وذلك للنزول بسيدي ادريس أو أي منطقة أخرى يعينها القائد العام بمليلية»[61]. وكإجراء وقائي أعطى الوزير أوامره إلى الحاكم العسكري بقادس بتحريك البواخر.

لم يتوقف لاملا Lamela عن تحويل برقيات سيلفستري إلى تطوان وسان سيباستيان. وفي كل مرة كان يذكّر برنكر «بالوضعية المأساوية في أنوال» وفيما يخص بارجة لوريا وبونيفاس، تجرأ لاميلا على مطالبة برنكر بإرسالها إلى الحسيمة وذلك لمدّ يد المساعدة لسيلفستري الذي أصبح في وضعية لا تحتمل التأخير في التنفيذ.

ونفس البرقية تلقاها إيزا من لاملا، مع إضافة جاء فيها، «أخبر سعادتكم بهذه الأمور على أمل أن تتفضلوا بإيصال هذه البرقية إلى يد عاهلنا المعظم»[62]. كان الفونصو الثالث عشر لا يعلم شيئا عن المآسي التي تدور رحاها في إفريقيا، ففي تلك اللحظات كان على متن القطار في طريق العودة إلى سان سيباستيان، بعد رحلته في بورغوس التي قصدها لحضور إحدى المراسيم.

وفي مليلية كان هناك جندي آخر يستعد للخروج إلى انوال، يتعلق الأمر بسيغفريدو ساينث غوتييريس Sigfredo Saínz Gutiérrez، احد قادة هيئة الأركان الحربية الذي تقدم متطوعا، وتمثلت أوامره في إقامة معسكر عند خندق بني عزة، وذلك للتنسيق مع العمل الدفاعي لبريمو دي ريفرا، وتسليمه يدا بيد خطة الهجوم المضاد. كان من المنتظر ان يتدخل كل الفرسان -من نظاميين والكانطرا، وهو مؤشر يعكس صعوبة الوضع. كانت انوال بمثابة مصيدة للفئران، هكذا على الأقل كان ينعتها العديد من الضباط.

تلقى سانيث تعليمات صارمة بتنفيذ مهمته مستعملا كل الوسائل المتوفرة لديه. واعتمد في ذلك على ثلاث فرق سيرينيولا Ceriñola، اثنان منها بقيت خلف الأسوار. وبما أن بلوغ القمة كان امرا عسيرا، فإن النصيحة كانت بحمل اكياس وحبال كإجراء وقائي. وكانت انوال عشاء آخر للنسور في الريف الإسباني. وبما أن المنطقة كانت تفتقر إلى الماء، فإن البعض نصحه بإرسال شاحنة محملة بثمانين برميلا من الماء. كما ان كابابلانكا وعده بسيارة خفيفة ستكون في انتظاره مع منتصف الليل عند باب القيادة العامة[63].

تبادل برقيات أخرى في ظروف مختلفة

انتقل برنكر إلى "الفندق"، ومن ذلك المكان، ذكر لإيزا في الرابعة إلا ربع من يوم الثاني والعشرين من يوليوز ان برقيات سيلفستري التي يحولها الوزير بدوره إلى جهات اخرى لم تصله، وكل شيء يوحي بأن الوضع خطير جدا[64]. واي خطورة هاته؟ فالأمور كانت من سيئ إلى اسوأ منذ الثامن عشر من يوليوز.

لم تكن انوال غارقة في الصمت، بل كانت محطة فوران متصل، فبجوار خيمة سيلفستري كانت هناك محطة عصرية لبث وتلقي البرقيات اللاسلكية من نوع تيليفونكين Telefunken. وقد وضعت في عربة كانت تستخدم منذ ايام، وكان يعمل بها ارياس Arías، وهو ملازم شاب من فرقة الاتصالات اللاسلكية في الحرب، وكذا مانويل دي لاس إيرس Manuel de Las Heras من نفس الفرقة. وصل الاثنان على متن دراجة نارية[65] إلى عين المكان. هذا وقد حدد بيكاسو في رسمه التخطيطي موقع جهاز الراديو بالقرب من قمة تلك الهضبة، بجوار خيمة الجنرال. وكان يساعد كلا من ارياس ولاس إيراس احد عشر رجلا آخر.

بلغ الأمر ببرنكر إلى حد قوله لإيزا في الثاني والعشرين من يوليوز على الساعة الثالثة إلا ربع، بان التحول المفاجئ لموقع العمليات العسكرية بالمغرب، سيتم، بالطبع، على حساب الحرب على بني عروس التي لم يكتمل نجاحها[66]. بعدها ذكّر بالمساعدة التي ارسلها لسيلفستري، فرقتان من المشاة، وفرقتان من الجيش النظامي لسبتة واربع طوابير اخرى مؤلفة من حوالي الفي رجل. واوضح انه ارسل «مدفعا وسيارة إسعاف باعتبارهما المعدات الوحيدة التي يمكن ان يستغني عنها القائد العام لسبتة (آلفاريث دي مانثانو Álarez de Manzano). وذكر انه سيرسل كذلك الجنرال سان خورخو. ولإنقاذ ونجدة سيلفستري، حرك برنكر اربعة مدافع، وسيارة إسعاف واحدة والفي رجل، وجنرالا واحدا. وهذا في حد ذاته يشكل تَحسنا كبيرا إذا ما قورنت هذه المعطيات بالمساعدات الممنوحة يومه الخامس من يونيو.

صدرت عن المقيم العام اعذار واهية لتبرير موقفه، إذ ذكر لإيزا في نفس البرقية التي ارسلت على الساعة الرابعة إلا ربع ما يلي: «ايجب أن أخبركم سيدي، بأنني اتوصل ببرقياتكم التي لم اتلق فيها اخبارا مقلقة، الأمر الذي يدل على أن القائد العام بمليلية يطلب فقط ما انوي فعله، والآن كل المساعدات جاهزة للإرسال».

وبعد ثمان ساعات، وبالضبط على الساعة الحادية عشر وخمسة وخمسين دقيقة، ذكر برنكر من "الركبة" لإيزا ما يلي: «وبعد، ونظرا للحالة المزرية التي وصل إليها مقر القيادة العامة، فإنني اعتبر -ولو ان الأمر يؤلمني ويصعب شرحه بهذه الطريقة إلى الحكومة- انه من الضروري إرسال قوات من إسبانيا إلى مليلية، وبالكميات التي يعتبرها سيلفستري كافية»[67]. لم يكن هناك شيء "ضروري" وإن كان "حقا مؤلما". في تلك السويعات كان سيلفستري ميت في خيمته، اما جيشه فقد ابيد عن آخره عند مرتفعات إيزومار.

مواكب احتفالية بمدينة بورغوس، وخطب لتابين الراحل (إلسيد) el Cid

في صبيحة الخميس الواحد والعشرين من يوليوز، كان الملك الفونصوالثالث عشر وزوجته السيدة فيكتوريا إيوخنيا Victoría Eugenña بمدينة بورغوس، بهدف حضور مراسيم حفل كبير، يتعلق بنقل رفات "إلسيد" El Cid Campeador في موكب جنائزي

كبير، انطلق من البلدية ووصل إلى الضريح الذي اقيم له في وسط الكنيسة. المناسبة جاءت إحياء للذكرى المائوية، في دورتها السابعة، لفعاليات الأنشطة التي تقام بهذه الكنيسة الكبيرة.

تراس الفونصوالثالث عشر الاستعراض العسكري للجيش، كان عمره آنذاك ستة وثلاثين سنة. كان على نحافته ورشاقته المعهودتين، ولم تكن تظهر تحت عينيه تلك الهالات السوداء التي بدت عليه في الأعوام العصيبة ما بين (1915-1917). لم تكن هيبة تلك اللحظات، ولا اللباس الرسمي الخاص بالقائد الأعلى، ليمنعاه من الظهور بمنظره المتواضع والبسيط. كان سكان مدينة بورغوس يهتفون باسمه بحماس، وكانت الملكة إلى جانبه في لباس الحداد، تغطي رأسها بوشاح حريري اسود مطرز، فأضفت على المكان هيبة ووقارا. وعند توقف الموكب الملكي، قُدم استعراض جوي قام به سرب من الطائرات على شكل عروض بهلوانية خطيرة[68]، نعم كانت العروض خطيرة، جدا لدرجة ان إحدى الطائرات ارتطمت بالأرض، لكن الطيارين -انطون وغونثاليث- تمكنا من النجاة. واضاف هذا الأسطول الجوي، الذي كانت إفريقيا في امس الحاجة إليه بعض الألعاب الأخرى لينسحب فيما بعد بطريقة غير منتظمة، وعاد إلى قاعدته في مدريد في شكل طيران جماعي لا يخلو من احداث مختلفة.

وبانتهاء العروض العسكرية دخل الموكب إلى الكنيسة، وقام المستشارون بنقل الصندوق الذي يحمل رفات "إلسيد" El Cid. كان دوي نواقيس الكنيسة يتردد في المكان، ويمتزج بطلقات المدافع وهتافات الشعب للعاهلين. في النهاية وقّع الملك محضر تسليم جثمان الزعيم القشتالي الذي وضع في صندوق من رصاص، واغلق القبر بوضع اللحد[69].

أحيى القديس مطران بلنسية السيد ريج Reig، اما الصلاة فقد رتلها اسقف فيتوريا إيخو Eújo، حيث ذكر بأمجاد "إلسيد El Cid"، وتحدث بإعجاب عن بطولاته التي سار على نهجها رجال آخرون، كالجنود الإسبان الذين يقاتلون في المغرب ضد العدو الأبدي، المورو اي المغاربة. بعدها اخذ الكلمة الكردينال بنلوش Benlloch الذي هتف بعد الانتهاء من خطبته الموجزة وامام دهشة الجميع بعبارة فليحيا إلسيد! فسرت قشعريرة بين الحاضرين، اما الفونصوالثالث عشر فقد اختصر كثيرا كلمته التي القاها في اتزان وهدوء، وشكر ساكنة بورغوس على حسن استقبالها، وانهى حديثه بعبارة، «إنني اثق في إسبانيا»[70].

وبعد انتهاء الحفل، توجه العاهلان إلى حلبة مصارعة الثيران، وهناك قدم لهم **اورفيون اسكويتيا** Orfeón Azcoitía حفلا موسيقيا رائعا. وبعدها عاد الملكان إلى سان سيباستيان، وتوجهت حشود كثيفة من الناس لتوديعهم عند المحطة. وقتها كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء من يوم الثاني عشر من يوليوز.

لم يكن سيلفستري في انوال ينتظر معجزات، بل كان يتحين الفرص، كان ينظر بترقب إلى الجهاز الذي يشغله كل من ارياس ولاس إيراس، لكن الجهاز لم يصدر اي صوت.

انعقاد مجالس حربية في خيمة الجنرال سيلفستري

حلت ليلة الواحد والعشرين من يوليوز، ومعسكر انوال مازال تحت الحصار، كان الكل يخاف الاقتراب من منبع الماء، بسبب وابل رصاص العدو. اما الدواب المجتمعة والمذعورة فكانت كثيرة العدد (ازيد من الف راس)، وكان رجال المدفعية منهوكين بسبب العطش، فقد قضوا يومين دون شرب جرعة ماء واحدة[71]. ووصلت انباء إلى المعسكر مفادها ان بعض الريفيين من جهة والشرطة من جهة اخرى، اكدوا ان عدد افراد الحركة يصل إلى ثمانية او عشرة آلاف رجل[72].

اما الإسبان فكان عددهم يقدر بنحو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين رجلا موزعين على الشكل التالي: مائة واربعة وتسعون من الضباط، خمسة آلاف ومائة وخمس وثمانون من الجند -حسب "التقرير" الدقيق لبيكاسو- سيموت منهم الف في الصباح. اما الريفيون فكانت غالبيتهم مسلحة ببنادق اكثر سرعة في الأداء من الماوسر وهي "الرباعية" كما يطلق عليها بالعربية.

وعلى الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة، كتب سيلفستري إلى برنكر برقية اخرى فضحت يأسه، لكنه لم يفقد القدرة على التفكير والتقرير. وهذا نص البرقية: «بمساعدة قطع بحرية ذات حمولة كبيرة وقوات بحرية، يمكن إقامة جبهة ساحلية عند انوال، انطلاقا من مصب تازكين ما بين سيدي صالح وراس افراو. ومن المحتمل ان تتعاون معنا جهات صديقة من (بني سعيد). المرجو ان يلقى طلبي هذا آذانا صاغية وإجابة عاجلة، وإلا فإن الأمر لن ينفع»، كان المخطط بمثابة محاولة ثالثة لنفس الفكرة، الفكرة التي جاءت في رسالة الخامس عشر، والسابع عشر من يوليوز، مرفوقة

بمشروع الإغاثة الذي تكلف به طابور أراوخو Araújo بقيادة الكومندان فرنانديث. كان هذا المخطط سينقذ حياة العديد من الجند لو نُفذ من قبل بيومين، ولو وُجد رجال قادرون على تطبيقه على الوجه الأكمل في كل من مدريد وتطوان.

كان سيلفستري يتحدث عن بوارج حربية ذات حمولة كبيرة، وكانت الإشارة واضحة إلى البوارج المدرعة. كان الجنرال يومئ إلى هذه البواخر الثلاث المعروفة باسم إسبانيا الفونصوالثالث عشر وخايمي الأول، وكانت هذه الأخيرة حديثة الصنع، لكنها لم تُسلم بعد للأسطول الحربي بالرغم من أنها كانت ثمرة خطة فرنانديث لسنة 1908. المهم أن سيلفستري كان يرغب في خروج هذه البوارج في اتجاه سواحل الريف بكل سرعة. لم تعد المسألة مسألة تأمين بعض المواقع، بل أصبح الأمر يتعلق بإنقاذ رجال وليس بإنقاذ موقف سياسي. لكن إيزا وفرنانديث بريدا Fernandez Prida (وزير البحرية) لا علاقة لهما بروح المبادرة، ونفس الحال كان مع أينديسلاثار.

كان سيلفستري يعي تماما حالة الاستسلام والإذعان التي دبّت في نفوس القيادات داخل الحكومة، لذلك أضاف هذه العبارات: «لكن بسرعة كبيرة وإلا فإن كل التدابير لن تنفع» كان هذا بمثابة إنذار إلى كل من يقرأ برقيته، بمعنى أنه إذا لم تُجند الضمائر والشجاعة والسرعة فلا داع لأن يزعجوا أنفسهم. واعتمد كذلك على سيناريو خاطئ إذ تحدث عن حركات صديقة في إشارة إلى قدور نمار، قائد بني سعيد الذي كان وحسب مصادر موثوقة يتواجد بأنوال يومي الواحد والعشرين والثاني والعشرين من يوليوز[73]. لكن هذا الرهان كان غير منطقي؛ فكل القبائل كانت تتمنى كسر شوكة سيلفستري مرة أخرى، ليس بهدف التخلص منه وإنما بهدف القضاء على جيشه.

وأمام هذه الملابسات، لم يجد بيكاسو من طريقة أخرى للتعليق على تلك الكوارث المتعاقبة سوى ما جاء في تصريح له: «ليس هناك من طريقة لإنقاذ الموقف سوى التشبث بروح عسكرية عالية، ليس فقط على مستوى المعنويات وما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولكن كذلك على مستوى التطبيق. فإذا كان مستحيلا تعويض كل الخسائر، فعلى الأقل يمكن تقليصها إلى الحد الأدنى، وذلك لتفادي الكارثة الأخيرة»[74]. وحدث أن ظهرت هذه الروح العالية في سيلفستري، خاصة في المرة الأخيرة حينما بادر بنقل جيشه عبر البحر مرة ثانية.

دعا الجنرال ضباطه لعقد اجتماع حربي جديد، وحسب بعض الشهود، والإحصائيات، كان هذا اللقاء الثالث من نوعه في اقل من اثنتي عشر ساعة، وحضر الاجتماع كل من الكولونيل مورالس (عن الشرطة المحلية)، ومانيلا (عن فرقة الكانطرا)، والتنيتي كولونيل مارينا (عن سرنيولا Ciriñola)، وبيريث اورطيث (عن سان فرناندو)، ومساعدا سيلفستري، الكومندان إرنانديث ومانيرا، والثوغاراي عن هيئة (المهندسين)، ويامس Llamas عن فرقة (النظاميين)، وإسيخا Ecija عن (المدفعية)، وبيار عن (الشرطة)، إضافة إلى القائد سباتي Sabaté عن هيئة الأركان الحربية، وبالكارثيل Valcárcel (عن هيئة المهندسين)[75]. كما حضر الاجتماع نجل سيلفستري، وإن لم يكن له الحق في الكلمة. وجاء اقتراح الجنرال بسيطا للغاية لكنه كان خطيرا في نفس الآن، فإما الانسحاب او المقاومة حتى آخر رمق. وبالنظر إلى مجريات الأمور، يمكن القول بان سيلفستري اخطأ في طرح هذا الخيار. فالأولى به كان فرض قراره وما تمليه عليه خبرته وشخصيته، المقاومة إذن كانت هي الخيار الوحيد، لكن الجنرال تنازل عن هذا الحل الأخير.

امتلأت خيمة الجنرال سيلفستري برجال يرتدون ازياء عسكرية يعلوها الغبار، كانت اجسادهم تلف اجسادا جامدة، ونظراتهم قاسية. جلس الرجال المدعوون (كان عددهم كثيرا بالنسبة لفضاء صغير مليء بالأسرة والأمتعة الشخصية) لم يتبادلوا التحية الرسمية ولم تبدُ عليهم امارات الحماس. وتفاجأ الكل، بوجه الجنرال المكفهر، تطرق سيلفستري مباشرة إلى الموضوع فقال، «ايها السادة، قريبا جدا سيقتحم العدو معسكرنا...»[76]. وبعد أن افصح سيلفستري عن تخوفاته من تمرد قبيلة بني اولشيك، حذر قائلا، «ليس لأننا لا نملك ذخيرة كافية للصمود في معركة واحدة، بل وحتى لا تتكرر اخطاء إيغريبن اظن انه علينا ان نشق طريقنا غدا صباحا إلى ابن طيب». توقف سيلفستري عن الكلام وتفحص وقع كلماته في وجوه الحاضرين، ثم تابع حديثه، «وبالرغم من أن هذه العملية ستكبدنا خسائر بشرية قد تصل إلى 50%، فهذا افضل من ان نبقى مكتوفي الأيدي ونهلك جميعا».

اعتلى الذهول والقلق محيا الحاضرين، فالكل كان ينتظر من الجنرال رد فعل مغاير. كان املهم ان يزرع فيهم روح الحماسة، وها هو الآن يقنعهم بضرورة الانسحاب. ثم استطرد قائلا، «هذا هو رايي واحب ان اعرف إن كان لأحدكم حل آخر».

ولتبسيط عملية الانسحاب، قدم سيلفستري شروحات مقلقة، «يجب تعطيل المدفعية وإتلافها، مع ترك كل شيء في المعسكر على حاله. وذلك لتحويل انظار العدو عنا»[77]، ومنع حمل الأمتعة او حقائب اليد، ووجه هذا التحذير إلى كل الضباط.

في البداية، تضاربت الآراء، كان البعض يرى ضرورة المقاومة بكل شراسة مهما كلف الثمن، وكان البعض الآخر يجنح للانسحاب بسلام. ومن الأسباب التي طُرحت لتبرير الانسحاب كان نفاذ الذخيرة، وحالة الجيش المتردية، وغياب الأمن بكل اشكاله. لكن الكولونيل مورالس عارض بكل قوة وشراسة هذا القرار قائلا، «لقد فات اوان الانسحاب»، واصر على اقواله، «من المستحيل الوصول إلى ابن طيب»[78]، هذا الحصن الذي اتفقت عليه الأغلبية. وحدث ان نزلت تصريحات قائد الشرطة الأهلية كالصاعقة على جموع الحاضرين باستثناء مانيلا الذي كان يسانده. ورفض مورالس تقديم اي إيضاحات رغم إصرار العديدين. وحسب فيفيرو Vivero كانت كلمات مورالس واضحة، واستطرد قائلا، «إنه من اللازم الخروج حالا للمقاومة»[79]. وهذا ما كان يجب فعله حقا، الخروج ليلا ومباغتة العدو ومداهمته بتحطيم حصونه، وتجنب الصعود إلى إيزومار تحت حرارة الشمس الريفية. كان هذا اقتراحا آخر، لم يوله أحد اهمية.

وفجاة طرحت فكرة المفاوضات وعقد معاهدة هدنة مع عبد الكريم، لا أحد يعرف مصدر هذا الخيار. فاولئك الذين بقوا على قيد الحياة فضلوا الكتمان والتستر على كل ماهو حساس. فاجاب سيلفستري باحتقار ان الزعيم المذكور لا قيمة له، واردف انه إذا وافق الزعيم الريفي على الهدنة، فإن اتباعه سيقتلونه[80]. وبعد مشادات كلامية، تضارب موقفان اثنان، الأول ويمثله مورالس الذي يدعو إلى المقاومة والصمود في نفس المكان، والموقف الثاني الذي تبنته الأغلبية، ويقضي بالانسحاب الفوري. وفي الوسط كان مانيلا متوترا ومغتاظا يرقب عن كثب كل حركات الجنرال. فإذا وافق هذا الأخير على الخيار الثاني، فهذا يعني انه لن يشهد عمليات الانسحاب لأنه سيقدم على الانتحار. كان مانيلا يدعم مورالس دون ان ينطق او يهمس بكلمة.

لم يتنازل مورالس عن موقفه عكس سيلفستري، وهذا مؤشر صادق على إحساسه بالعذاب وحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه. وفي النهاية أصدر قرار "الانسحاب المباغت" رغم معارضة مورالس. وانتهت الجلسة بتحديد موعد آخر للاجتماع في

الصبيحة الموالية على الساعة السادسة، وذلك لترتيب أمور الانسحاب، كإجراءات أولية تحثّ على المصادقة على سير المدفعية في الصف الثاني، مسبوقة بالأمتعة، والجرحى الذين (يصل عددهم ربما إلى مائتين) إضافة إلى ما تبقى من الذخيرة. أما الجنود المشاة كإجراء احتياطي ووقائي فمكانهم المؤخرة[81]. لم يكن الجنود يعرفون وجهتهم، ونفس الشيء بالنسبة للضباط، باستثناء البعض منهم.

وعند طلوع الفجر، وعلى الساعة الثالثة وخمسة واربعين دقيقة، كاتب برنكر سيلفستري من فندقه، «تلقيت في هذا المعسكر، برقية من الوزير يوافيني فيها برسالة كنت قد بعثت بها انت إليه من انوال، والتي من خلالها تعرفت على الوضعية المقلقة التي تجتازها، لذلك أود أن أعرف عنها المزيد من التفاصيل للنظر فيها». كيف يُعقل أن يحتاج برنكر للمزيد من التفاصيل عن الأحداث بعد كل ما عرفه من إيزا، وبعد كل ما يجب أن يستشعره بالنظر إلى منصبه وموقعه؟ كان برنكر يرغب فقط في إخبار سيلفستري بشأن المساعدات التي كان ينوي إرسالها، والتي اخبره بها إيزا. فما ضرورة العتاب إذن، وأضاف، «بالرغم من ان هذه الإمدادات كانت ستؤمن لي النجاح على جبهة بني عروس التي دخلت الآن مرحلة هامة من الصراع»[82].

كانت هذه المساعدات المَوعودة، تثير قلق المجلس في انوال أكثر مما تطمئنه. ففي اجتماع للرؤساء، تم اعتبار المساعدات التي يقدمها المقيم العام غير كافية، وان الجيش يساق إلى كفاح مسلح عقيم، ستكون نتائجه وخيمة جدا على باقي الأراضي وعلى الأمة جمعاء[83].

وقبل انتهاء الجلسة، حضر واحد من المكلفين بجهاز الإرسال (لاس إيراس) يحمل بيده برقية ادهشت الكل. كانت الأنباء من مدريد تفيد بوجود كتيبتين في الساحل المجاور، سيتم إرسالهما في القريب العاجل. كان هذا بمثابة حلم، خلّف نوعا من الارتياح، لكن، وبمراجعة حسابات الزمن والأرقام، اتضح أن الحال لن يتغير عما هو عليه. فجاء رد فعل سيلفستري أمام هيئة المجلس برمته بنوع من "العجرفة والتكبر"، وأصر على تحمله مسؤولية إصدار الأوامر بالخروج من هذه المواقع، وأخبر الكل قائلا، «إنني سأتولى إخبار الحكومة بهذا القرار»، وأكد انه سيجيب عن كل الاستفسارات بنفسه شخصيا، وحذر قائلا، «وتذكروا جيدا في الغد ما قلته اليوم»[84].

وفيما بعد قرر سيلفستري موافاة إيزا ببرقية أخرى، ستكون الأخيرة من نوعها، ونفس الشيء فعل مع برنكر.

كان الجنرال متوترا جدا، وقد لاحظ القائد بالكارثيل Valcárcel كيف أن سيلفستري أعاد كتابة النص مرتين وطفق في مراجعته. كانت النسخة الثالثة أحسن بكثير من سابقاتها. وحول الوضع في المنطقة قال: «إن قواتي بأنوال تتعرض لهجوم مستمر، ومنابع المياه بعيدة عنا، أما العدو فقد قطع علينا خط التموين وأصبح من المستحيل الاعتناء بجرحانا؛ ليس لدي ذخيرة تكفي ولو لمعركة واحدة» وختم قوله بما يلي: «لهذا فإنني اتخذت قرارات سريعة بالانسحاب، وأنا أتحمل كل المسؤولية في ذلك. والبداية ستكون في اتجاه خط ابن طيب - بن سعيد. حدث أن سُجل خطأ في البرقية، "فابن سعيد" لم تكن نقطة طوبوغرافية ولكنها كانت قبيلة. وظن سيلفستري أنها ماتزال وفية لإسبانيا.

كان سيلفستري يسعى لإرضاء ضميره بقوله لإيزا أنه وأثناء عملية الانسحاب: «سأستولي على كل المواقع التي ستسقط في يدي ريثما أتلقى المساعدات التي ستوافيني بها سعادتك»[85]. كان لا يتطرق في حديثه إلى ابن طيب، وكأنه عدل عن الهروب. فالانسحاب بالنسبة له كان استسلاما وعارا وليس عملية إنقاذ الجيش. ولكي ينجو من تأنيب الضمير وملاحقة العار فكر في الموت. كان غموض النص دليلا على قرب حلول فاجعة عسكرية، وكان سيلفستري يطلب من إيزا موافاته بالمساعدات عبر مليلية. كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا بأنوال حينما أرسل إيزا ردا باستلامه للبرقية بعدها بنصف ساعة.

وأشرقت الشمس على تلك الحفرة الكبيرة، حيث طلب التنينتي كولونيل مارينا من القبطان كوريا Correa العمل على تشكيل وحداته، والتقدم بها نحو منبع الماء لإقامة حصن هناك. كان كوريا لا يعلم شيئا، فأطاع الأوامر، وشق طريقه نحو المكان المشار إليه. وفيما بعد ندّد النائب العام السيد آنخيل رومانونس في محضر أعده أيالا إي رويث دي لافونتي Ayala Ruiz de La Fuente[86] بهذا الإجراء، معتبرا أن كوريا كان ضحية استغلال. وكانت النتيجة أن وضع مارينا في قفص الاتهام. وبموازاة مع ذلك، أُصدرت أوامر أخرى تقضي بانسحاب معسكرات تاليليت نحو أنوال، ومعسكرات بوجماجن نحو أفراو، أما فرق الكانطرا فانتقلت إلى المناطق الخلفية

لإيزومار، وذلك لتامين عملية الانسحاب. اما اصحاب المدفعية التي كانت في أعلى الممر فلم يخبرهم احد.

ثمة ضوضاء غير عادية كان مصدرها خيمة سيلفستري، كان الضباط يدخلون ويخرجون في عجلة، والنتيجة كانت إلغاء الانسحاب، فالجنرال غيّر رأيه: "سوف نقاوم".

رغم عدم الدعوة إلى عقد اجتماع ثان، فإن الأمور كانت تستدعي انعقاد لقاء آخر، حتى وإن غابت أغلبية العناصر المشاركة في صنع القرار. فحدث أن حضرت شخصيات بارزة ومرموقة كمورالس ومانيلا، وهناك أعلن كولونيل الكانطرا قراره بمساندة طرح الرئيس المسؤول عن الأمن (موراليس). وامام هذه القناعات الثنائية، تراجع سيلفستري عن موقفه. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا من يوم الجمعة الثاني والعشرين من يوليوز.

ارسل سابتي Sobaté برقية إلى القائد دولز Dolz المتواجد في الدريوش، وطلب منه موافاته بنصف مليون خرطوشة من نوع ماوسر، والف قذيفة لمدافع الجبال. كما طلب منه مدافع رشاشة، لأن أغلب الآليات كانت مترهلة ومتآكلة. وفيما بعد طلب من الملازم كورا Cura من هيئة المهندسين الذي كان بجواره، إعداد أدوات لتحصين الموقع[87]. كانت انوال تبدو مستعدة لأقصى مقاومة ممكنة.

وبعد ذلك استدعى سيلفستري الكومندان يامس Llamas والكولونيل مانيلا، واوضح لهما، بدون مراوغة، أخطار الموقف وضرورة مغادرة المعسكر، لأن البقاء فيه يعني معاودة مأساة إيغريين...[88]. فتلقى يامس ومارينا الأوامر بالاستعداد للانسحاب.

خرج ساينث Saínz من الدريوش بعد ان قضى ليلة من السفر على متن شاحنة ركبها بعد ان تعطلت سيارته. ونتيجة تأخره في الخروج من مليلية، التقى في الطريق بصديقين رغبا في معرفة وجهته، ولكي لا يُحدث ضجة اجابهما قائلا: «لا ادري، أظن انني سأتوجه إلى انوال». وصلت السيارة، وظن ساينث انه ليس من الضروري العودة إلى بيته لوداع زوجته مرة ثانية، فقد سبق وان قال لها: «إلى اللقاء، سآتي قبل موعد العشاء»[89]، لكنه سوف يتأخر ثمانية عشر شهرا قبل رؤيتها مرة اخرى.

شتات بانوال وحقيبة سيلفستري

حوالي الساعة العاشرة صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، سُلمت في مليلية للكومندان لوبيث رويث برقية عاجلة وصلت لتوها من انوال. فقرا توليو لوبيث نص هذه البرقية، «نحن بخير. سلام حار. خوان»[90] في ثلاث كلمات إذن، هدا مساعد سيلفستري السيد خوان نظيره إيرنانديث اولاغيبل، فاطمأنت القيادة العسكرية، وما هي إلا دقائق حتى تغير كل شيء.

كان المجلس العسكري يعقد جلساته، بكيفية مستمرة، داخل خيمة سيلفستري، وفجاة دخل الكومندان بيار (وتحدث شهود عيان عن قائد آخر من شرطة الأهالي وهو السيد كارسكو) المسؤول عن كارثة ابران، وطفق يتحدث في صياح وجلبة عن خطر وشيك. فخرج الضباط لتقصي الأخبار، وهناك وتحت اشعة الشمس المحرقة تجلت للعيان "الحركة" وهي تتقدم بخطوات متزنة عبر الطريق الملتوية. كانت الأعداد كبيرة، وقد وُزعت إلى ثلاث أو خمس فرق بحيث لا تتوفر على ارقام مضبوطة بشانها، فاعطت الانطباع على وجود جيش منظم وقوي. فعمّ القلق، وفجاة بدات طلقات النيران تدوي عاليا، وعمّت الفوضى، فنادى سيلفستري على يامس Llamas، فوجد هذا الأخير صعوبة جمة في الصعود إلى خيمة الجنرال. وكرر سيلفستري اوامره التي جاءت على النحو التالي: «يجب أن لا يذكر القادة شيئا لضباطهم حتى لا يتسرب النبا إلى الجيش، فيدبّ الرعب في النفوس وتعم الفوضى». وذكر سيلفستري يامس مرة أخرى بثلاثة امور، تلخصت في تعطيل وإتلاف المدفعية الخفيفة (اربع قطع) مع ترك المعسكر على حاله، واخيرا منع كليا اخذ الأمتعة[91]. قبل سيلفستري بفكرة الانسحاب لكنه لن يتحمل شبح العار الذي سيطارده بسبب هذا الهروب الجماعي، لكن ما حدث هو أن الكُل عارض الأوامر.

تجمهر عدد من القادة عند مدخل خيمة سيلفستري، ودخلوا في نقاش حاد وهم يتبادلون عبارات اللوم والعتاب الصارخ. وفي الجهة الأخرى كانت رصاصات الريفيين تحصد أرواحا على الدواب والرجال. واحتدم النقاش بين الضباط غير العابئين بالفوضى التي تحيط بهم، وراى القائد بيدرو شاكون فالديكانياس Pedro Chacón Valdecañas من

المدفعية، كيف أن الكولونيل مانيلا الذي كان رئيسا على تلك الثكنة، يحتج بقوله إنه الشخص الوحيد الذي صوت داخل مجلس الرؤساء بعدم مغادرة الموقع، وإنه مستعد للانتحار عوض الانسحاب. وفي رباطة جاش توسل شاكون لمانيلا بالعدول عن موقفه، لأن هذا سيؤثر سلبا على معنويات الجيش الذي يسمعه. لكن الكولونيل عقب بقوله إن الأمر لم يعد يهمه. تملك الجميع الشعور بالكارثة، وسرت بين الجند إشاعات مرعبة تفيد بأن الجنرال يبحث عن مسدس ليقدم على الانتحار[92]. كان الأمر منطقيا، فسيلفستري نادرا ما كان يحمل السلاح.

وحانت لحظة وداع أخرى مع مانويل فرنانديث سيلفستري دوارتي Manuel Fernández Silv. Duarte وهو يودع أباه ويقدم له التحية الرسمية. كان الاثنان يرغبان في كتم عواطفهما، واستعد الملازم للصعود إلى السيارة، ثم استدار عند سماعه لصوت الجنرال وهو يناديه بلقب الدلل، كما في طفولته ،وداعا Bolete، "بوليطي"،. وسيروي مانويل هذا المشهد الدرامي للملك الفونصو الثالث عشر الذي استقبله بعد الحدث بخمسة أيام في جلسة خاصة. واعترف، ،خرجت دون أن أسلم عليه لتضايقي من الأحداث،[93].

كان جهاز الراديو مايزال بخير، وقام سيلفستري بإرسال آخر برقية إلى برنكر يخبره فيها بأن العدو يتقدم نحو الأمام في فرق يزداد عددها في كل لحظة، ولا شيء في حوزته سوى مائة خرطوشة لكل رجل، وأنه أصدر أوامره بالرحيل إلى ابن طيب. وفي فندق تطوان تسلم البرقية ضابط طويل القامة يعرف باسم الكومندان خوان بيغبيدر اتيينثا Juan Beigbeder Atienza كان عمره 33 سنة، وهو من أصبح فيما بعد مقيما عاما ثم وزيرا للشؤون الخارجية (ما بين1942 و1944) في عهد فرانكو. وسجل بيغبيدر هذه الجمل المأساوية التي تنذر بحلول فاجعة قريبة وأسرع بتسليم النص إلى رئيسه برنكر[94].

كانت الساعة تشير إلى العاشرة وخمسين دقيقة، حينما انفجر المقيم العام غضبا، إذ تعجب من صدور قرار بالانسحاب دون إذن منه، خصوصا في لحظة حرجة ضرب فيها العدو الحصار على الجنود. كان برنكر يهم بالخروج زوالا إلى عاصمة المستعمرة، بالرغم من وعيه وقناعته بأن خطوة كهاته لم تعد مهمة بالنظر إلى الأحداث، وأحس

بأن السفر إلى مليلية، لا جدوى منه من الناحية التكتيكية. وكان بجواره كل من الجنرالان مارثو Marzo وباريرا Barrera. كان الأول رئيسا للقوات بتطوان، والثاني قائدا عاما بالعرائش. وذُهل الاثنان عند سماع الخبر، فاستشعروا هول الكارثة، التي ستنزل بكل ثقلها ليس فقط على سيلفستري، ولكن كذلك على الجيش وعلى إسبانيا. فكتب برنكر جوابه قائلا: «لقد علمت بالنبأ في هذه اللحظات العصيبة، واتمنى أن تفكروا في سمعة وهيبة إسبانيا قبل كل شيء». بعدها حوّل لإيزا برقية سيلفستري وضمنها تعقيبا ربما كان قاسيا -حسب تصريحات بعض المتتبعين- بوصول تلك البرقية إلى مليلية وبعد أن قراها نفارو على مسامع ضباطه ذكر واحد من الشهود وهو الكومندان لوبيث رويث أن البرقية المذكورة تم التعليق عليها بقسوة شديدة[95].

وحسب تصريحات فيفرو Vivero، كان الصواب هو الرد على سيلفستري بهذه الطريقة: «إنني أؤمن بقدراتك المعهودة وببسالة الجند المنضوين تحت لوائك، وهي امور كافية للتصدي للوضعية الحرجة التي اخبرتني بها والتي تجتازها»[96]. كان بقاء الجيش رهينا ببقاء سمعة الجنرال، لكن هذه السمعة كانت على وشك الانهيار.

ولنا أن نتخيل رد فعل سيلفستري، فبالرغم من أن الجنرال لم يعد يهمه سوى إنقاذ شاراته العسكرية واخلاقياته المهنية، وإنقاذ اوسمته كجنرال والحفاظ على وسام مساعد الملك، وربما حزام القيادة الأحمر كذلك، فإن العادة جرت بخروج سيلفستري للحملات العسكرية وهو يشد خاصرته برباط غير مزخرف، وهذا ما اكده سائقه الخصوصي أيوسيبيو كاسانوباس Eusebio Casanovas.

سلم سيلفستري لكاسانوباس كل لوازمه وقال له: «خذ هذه الحقيبة إلى البيت، فإذا تعذر عليك إيصالها، فالأولى بك الا تصل انت كذلك... مفهوم؟»[97].

لم تكن انوال تشبه إيغريبن، بل ابران بمساحاتها الشاسعة، وفوهاتها المفتوحة التي تتصاعد منها اعمدة دخان الحريق، كان الجنود المحاصرون منهكين. هكذا سقطت هذه المنطقة الاستعمارية التي كلفت اثنا عشرة سنة من العناء، وراح ضحيتها ثمانية آلاف او عشرة آلاف من الإسبان، وكانت هذه الأحداث سببا لحفر نعش النظام.

صعد ساينث إلى إيزومار من جهته الجنوبية بعد أن خرج من الدريوش محملا بالفي كيس مملوء بالتراب، وهو كل ما تبقى في المعسكر. كانت الأوامر تنص على ثمانية

آلاف كيس لكن العدد كان اكثر بقليل من ذلك، وكان الهدف هو إقامة ثكنة عسكرية ما بين جبل الكديه وإينطيرميديا "ب". تلقى ساينث وعداً بالمساعدات الموعودة والمتمثلة في ثمانية آلاف خرطوشة للبنادق، لكنه كان يجهل تماما كل التفاصيل التي تخص شاحنات الماء. وعند مرتفعات إيزومار التقى بالقائد فورتيا Fortea والتنينتي كولونيل بريمو دي ريفيرا، ومن هناك شاهدوا هروب الجيش وعلموا ما حل بجنراله.

إيزومار: انهيار رجل جيش

لم تخرج من انوال كتيبة عسكرية منظمة، بل خرجت حشود تجردت من سلاحها عن طواعية. وضاعت كل المدفعية تقريبا، ولم يبق من عشرين مدفعا سوى ستة مدافع. وقام مئات الجنود برمي بنادقهم وعلامات التعب بادية على محياهم من جراء الركض السريع لإنقاذ حياتهم. لم يكن عدد الضباط الذين ساروا على هذا النهج بقليل، فدمروا بذلك الجيش تدميرا.

وبهذا التصرف وأد الضباط الذين خرجوا في السيارات العسكرية الأولى ما تبقى من روح المعنويات عند الجيش. ورغم إصرار سيلفستري على ترك الأمتعة، إلا أن هذه الأخيرة كانت تظهر جلية على السيارات، ففضحت بالتالي عمليات الهروب، كان الضباط يفرون وهم يحملون حقائبهم، وقُدر للقائد ساينث أن يكون شاهدا على وصمة العار هذه[98]. كما تسببت السيارات السريعة التي كانت تسابق الريح في زرع روح الدمار والشتات في صفوف الجيش. أما عن الضباط الذين لزموا أماكنهم، فقد علت وجوههم مسحة من الخجل والحيرة من سوء ما بشروا به من فرار، فاستعصى عليهم شرح الموقف لجنودهم الذين تملّكهم الغيظ والرعب، ففضلوا مغادرة رؤسائهم والفرار بدورهم. وتجدر الإشارة إلى أن بعض القياد رفضوا وبشدة كل أشكال الذل والهوان، فصمدوا إزاء الوضع. فكانت النتيجة أن ذبحهم رجالهم الذين تحولوا إلى وحوش، ومكث البعض الآخر عند الأسوار في انتظار ملك الموت. وحدث أن أعطى هؤلاء القلة النموذج المثالي للآخرين.

كان هاجس كل الفارين يتلخص في عبور ممرات إيزومار بسرعة، ومن حسن الحظ كان الجو يومها ملائما في تلك الظهيرة، فالشمس كانت في الخلف، وتجدر الإشارة إلى

ان إيزومار كان سلاح الريفيين الذي يرمز للفناء. وما هي إلا لحظات حتى انتشرت المذابح في الآفاق. وفور ولوج الحشود الكثيفة إلى الفج الجبلي، وتفرق وحدات الشرطة وفرق النظاميين، وصوبت الشرطة سلاحها نحو الجموع المزدحمة، فحلت الخيانة أو الثأر. المهم هو أن المجازر كانت على أوجها. وانصرف جزء من النظاميين لحال سبيلهم، في حين، لازم البعض الآخر أماكنهم لمواصلة القتال بقيادة الكومندان يامس[99].

عمّ الرعب والحقد الفج الجبلي الذي يمتد على مساحة قدرها ست كيلومترات، وتتخللها مجموعة من الخنادق العميقة. أصبح إيزومار بمثابة مقبرة جماعية ضمّت بين دفتيها كل الذين أُعدموا من الخلف وذبحوا بالسيوف، فضاع الجيش برمته. وحدثت مشاهد تقشعر منها الألباب، حيث كان يقذف بالجرحى إلى الأرض، فيتم الاستيلاء على دوابهم. وضاعت المدفعية بسبب تفرق شمل الخيول التي كانت تحملها، فتاهت البغال هائجة واعتلى صهوتها الجنود، ولقي بعض الضباط مصرعهم على يد جنودهم بسبب محاولتهم صد هذه الهيستيريا التي تفشّت بشكل مخيف، ونزع البعض الآخر ليس فقط أوسمتهم الشرفية، بل كذلك أحذيتهم العسكرية، وأحزمتهم التي تدل على وظيفتهم، التي كان من واجبهم الإخلاص إليها بصفتهم قادة جيش.

طاب المقام لسكان القبائل في المرتفعات، في حين بقيت مجموعات من اللصوص في الأسفل تنتظر انحدار الجنود الإسبان وأمتعتهم من الأعلى لينهبوهم. وهكذا راح الإسبان ضحية مذبحة منظمة، فلاحت من بعيد كوكبة من النساء الريفيات وقد أتين من المداشر المجاورة ليشاركن في هذه المذبحة الشرسة، مدفوعات بأحقاد قديمة ودفينة، ورغبة في الأخذ بالثأر سريعا، كن يجهزن على الجرحى بالسكاكين والهراوات وبالأيدي كذلك، ويرشقونهم بالحجارة. فيسخرون منهم ويذلونهم كما كان الحال مع القائد سباتي الذي سيئت معاملته من طرف النساء الريفيات، حيث جرّدنه من ثيابه وأخذن كل ممتلكاته النفيسة[100].

وأخيرا ضاعت المدافع، والعربات، والبغال، والرشاشات، والأمتعة، وصناديق الذخيرة، والشاحنات المحملة بالجرحى، الحالمين بالفرار أحياء من قلب إيزومار.

اما الأحياء، فقد واصلوا طريقهم وسط زوبعة من الغبار الخانق، لا يُسمع من خلاله سوى صوت صياح وجلبه.

ومن جهة الفجاج الجبلية، ظهرت فجاة مجموعات اخرى من الجلادين، كانت غالبيتهم من الشباب والشيوخ المسلحين بـ"غُميات" Gumías، كان الغضب يتملكهم، فراحوا يبحثون عن الجرحى فيجهزون عليهم دون رحمة ولا شفقة، غير عابئين بتوسلاتهم، فيقضون عليهم وينزعون عنهم سراويلهم ليبتروا في عصبية شديدة اعضاءهم التناسلية ويضعونها في أفواههم.

موقع برئيسين، ونفس الرحيل

اصبحت القشلة التي تحيط بإيزومار، مهجورة وخاوية على عروشها وهي تنفث دخان الحريق الذي نسفها. ولم يبق من المدافع التي كانت هناك حتى فجر الواحد والعشرين من يوليوز سوى مدفع واحد. وفي الصبيحة الباكرة غادر القبطان بلانكو المكان بعد قضاء ليلة مع جنده. في انتظار اوامر سيلفستري، وعند وقوفه بإحدى الساحات، لمح من بعيد سحابة كثيفة من الغبار، وما هي إلا لحظات حتى عمت الفوضى أرجاء المنطقة، ودنت منه حشود الريفيين. ولم يبق له من الوقت سوى خمسة او ستة دقائق، فرفع عينيه نحو إيزومار. هناك كانت مدافع أخرى تكفي لحماية الرجال المنضوين تحت لوائه ومسؤوليته، وعددهم مائة رجل[101]. وبكل هدوء أصدر أوامره لأتباعه بتوجيه فوهة المدرعات نحو مصدر الضجيج. كانت المدفعية الجبلية الخامسة هي الوحيدة التي تمكنت من الوصول إلى الدريوش سليمة.

كانت النار تلتهم إيزومار في شراهة، في حين كانت المدافع تصوب فواهاتها نحو افق يشهد على احتضار الجيش.

وعلى راس إيزومار كانت هناك قيادتان مشؤومتان، اصبحتا مصدر غموض وإحباط معنوي لكل وحدات الجيش، إذ كان القائد خواكين بيريث فالديفيا Joaquín Perez valdivia على راس هذا الموقع، يتزعم ثمانية وتسعين رجلا، ويساعده في ذلك مساعداه، الملازم اغوستين الفار غونثاليث Agustin Alvar González، وإنريكي بالدس Enrique valdes، وينضاف إليهم خوصي غديا ميان José Guedea Millan برفقة ستة وثلاثين

رجلا، علاوة على خمسة جنود من المهندسين، والطبيب بريميتيفو غوتييرس اورطاسون Primitivo Gutiérrez Urtasun، والملازم رومان رودريغيس ارانـدو R. Rodríguez Arando بتسعة عشر جنديا من فرقة المدفعية، وكان هو المسؤول عن المدافع. المجموع كان هو مائة وستة وستين نفرا. وكان هناك كذلك ضابط سابع وهو الكومندان خسوالدو مارتينث فيفاس Jesualdo Martínez Vivas المكلف بالسهر على العتاد الحربي، والمتواجد بتلك النقطة الاستراتيجية، فكان يقوم باستبدال القطع القديمة من نوع كروب Krupp بأخرى من عيار 75 ملم وطراز سان شامون[102].

وصل مارتينث فيفياس إلى إيزومار يوم الثامن عشر من يوليوز. وخلال اربعة ايام كون فكرة شمولية عن التكتيكات. فإيغريبن كانت محاصرة، وانوال تتلفظ انفاسها الأخيرة وإيزومار يبسط جناحيه لحماية الجيش[103].

اعتبر مارتينيث فيفاس أن بيريث فالديفيا هو المسؤول عن إدارة تلك الثكنة العسكرية، فاحتدم النقاش حول هذه المشاذاة اللامعقولة في الكلام، فانبثقت كارثة أخرى.

وصبيحة الثاني والعشرين من يوليوز كان بيريث فالدفيا ومارتينس فيفاس بالقرب من اسوار إيزومار. وفجاة، لمحوا من بعيد عند منحدرات (الجبل) مجموعة من المورو وهم يهرولون في اتجاه انوال.

وبالرغم من أن الضابطين شهدا معا قدوم فيالق عسكرية في اعداد كبيرة، وجدّ منظمة تسير في اتجاه انوال، إلا انهما لم يتحركا وظنا انها قوات صديقة. وماهي إلا لحظات حتى دنت منهما سيارة عسكرية واقترب منهم، فارس كان يعتلي صهوة جواده فاخبرهما أن المقيم العام قد جاء في السيارة، وانه يجب الانسحاب حالا من المعسكر[104]، فامتثلا للأوامر لأن هذا الأمر كان يناسبهما.

وعندما نزل المساعد غيديا إلى أسفل الطريق من دون حذر ليستطلع الأمر بعد ان ادهشته الضجة التي عمت المكان. لم يجد من حيلة اخرى سوى أن يعود أدراجه بسرعة. وبوصوله وجد كتيبته العسكرية مستعدة للخروج، فاخبره المساعد بانه تلقى الأوامر بالانسحاب من المكان تماما، كما فعلت الكتائب الأخرى[105].

وكانت هناك معلومة ذات اهمية كبيرة ساقها غيديا لبيكاسو، وتخص القوات المذكورة حيث قال عنها إنها شرعت في الانسحاب قبيل بدء الهجوم، فقامت

بتعطيل وإتلاف المعدات الحربية، وأضرمت النار في المعسكر، هكذا وصل غيديا واتباعه إلى ابن طيب.

وفي دفاعه عن نفسه، ذكر مارتينث أن قوات إيزومار اتخذت قرارها بالانسحاب من الموقع، بعد أن علمت أن قوات أنوال قد تخلّت عن ثكناتها. كما لو أن هذا القرار اتخذ باستفتاء الجنود والضباط. وقد بنى مارتنيث تأكيداته على ما صدر من أنوال من تقارير تفيد بانسحاب كل الكتيبة، وتوجهها إلى ابن طيب، وكذا بانسحاب مواقع الخط الاول في اتجاه نفس المكان[106].

واعتمد مارتينيث فيفاس على هذه الأحداث التي لم تثبت صحتها (حسب بيكاسو) ليوضح أسباب فراره الذي لم يعترض عليه "بيريث فلدفيا". وصلت الإهانة إلى أقصى حد عند التأكد بأن المدافع التي كانت مشحونة لم تطلق النار، لأنها لم تلمح العدو الماثل أمامها[107].

الجهة الأخرى لإيزومار: تحصينات من الفرسان والمشاة

كانت الكتائب الخمسة من الفرقة الرابع عشرة للفرسان، والمسلحة بالسيوف والمدافع الرشاشة، قد اتخذت مكانها خلف إيزومار. وكان فرناندو بريمو دي ريفيرا إي أوربانيخا F. Primo de Rivera y Orbaneja، هذا الأرستقراطي من خريس Jerez والماهر في المسايفة، والبالغ من العمر اثنين وأربعين سنة، والمنتمي لفوج 1898 هو الرئيس الثاني لهذه الفرق. لم يكن يعرف شيئا عن مانيلا، لكنه كان يثق في لقاء قريب مع هذا الكولونيل، كان يرأس أربعمائة وواحدا وستين رجلا: اثنان وعشرون منهم ضباط، وأربعمائة وتسعة وثلاثون جنديا حسب لوائح بيكاسو[108]. هذا كل ما كان في الدريوش.

منذ سقوط إيغريبن، والتنينتي كولونيل يحافظ على حالة الاستنفار بين وحداته العسكرية. وعند الليل توقف دوي المدافع الصادر من أنوال. كان الكل يعلم بأن نفارو يتواجد بمليلية، في مباحثات لمساعدة سيلفستري. لم يذكر بريمو لرجاله شيئا عن هذا القبيل، حيث تقدمت كتائب النظاميين في اتجاه الخندق الكبير، وعمّ صمت رهيب في الخلف.

ومن أعلى إيزومار، راقب فرسان بريمو عن كثب تحركات جنود بيريث فلدفيا. كانت مدافع القائد بلانكو قريبة من المكان، وبعيدة قليلا عن سفح الجبل. وكانت المدفعية تبدو

جاهزة وعلى اهبة الاستعداد لإطلاق اول قذائفها. لم تكن فكرة الانسحاب تخطر على بال احد. وفجاة سمع ذوي إطلاق نار قوي تردد صداه في الجبال، ولاحظ فرسان بريمو ارتفاع زوبعة من الغبار في الشق الشمالي لإيزومار. لم يكن بإمكانهم التوقع أو التنبأ بالأحداث التي افرزت هذه الضجة، بهذه السرعة الهائلة. وفي هذه الأثناء مرت سيارة عسكرية سريعة، تتبعها شاحنات محملة بالجرحى، فتقدمت بكل سرعة نحو الجهة الجنوبية للممر الضيق، وما ان راى السائق الفرق العسكرية حتى اوقف سيارته، وفي ثلاث جمل مقتضبة لخّص الضابط الطبيب الفاجعة بقوله إن سيلفستري ربما لقي حتفه ومعه كل مساعديه، واضاف ان شرطة الأهالي انضمت إلى العدو وقامت بقتل كثير من ضباطها، فتشتتت طوابير انوال. لم يعرف احد مصير مانيلا ومورالس، وهكذا انصرفت السيارة، وتنبأ بريمو بالنتائج قائلا: «سيهرب كل الجيش»، وهو المسؤول عن الفرق.

وصلت سيارات عسكرية اخرى، ونزل من إحداها قائد توجه نحو ساينث، حيث وافاه بالخبر اليقين، خبر ارتعدت له فرائص ضابط هيئة الأركان. إنها نهاية الجيش، «لقد انتحر الجنرال»[109].

جمع بريمو دي ريفيرا ضباطه، وشرح لهم تفاصيل ما جرى، مؤكدا ان الوقت قد حان للتضحية في سبيل الوطن. وهكذا انتظمت مدفعية بلانكو جانبا، واصطفت المدافع والعربات وكذا الخيول والرجال في صفين جد متناسقين. فتبادلت الفرقتان التحية عند تقاطعهما، واخذت كل واحدة منهما طريقها.

كان الغبار يلف إيزومار، وكان الرجال كالحمقى يهرولون عن اليمين وعن الشمال. كان الكل يركض ويركض، وسقط العديد من جراء القصف، وقام رجال فرقة الكانطرا بامتطاء صهوة جيادهم بعد ان وضعوا المدافع في المكان المناسب.

وقبيل انطلاق الهجوم الأول، لم يبق لبريمو دي ريفيرا سوى وجهات ثلاث على اليمين وفي الأعلى، ولم تبق اي راية إسبانية ترفرف في إيزومار. كانت قوات بريث فلديفيا قد اعلنت انسحابها. وفي الخلف جهة اليمين، كانت الطلقات النارية جد قوية في الجهة الوسطى "ب"، وكان رجال بيريث غارسيا يقاومون. وفي الخلف جهة اليسار، كان علم الحرب يرفرف خفاقا في المنطقة "ا". حيث كان إسكريبانو Escribano واتباعه

يقاومون. كانت فرقة الكانطرا على وشك الوقوع في فخ الحصار. شيء واحد كان يلوح في الأفق: الهجوم في الحال.

كانت فرق كل من الملازم بواس Púas والقائد شيكوطي Chicote تفتح النار على المقاومين باستمرار، فجرت فصول قتال شرس في الهضاب، والخنادق، والمنحدرات، وحتى على الطريق نفسها. وبعد دقائق اضرمت النيران. فبقي رجال الكانطرا لوحدهم. احترم العدو مقاومتهم وفضل أن يصب جام غضبه على الفارين الذين كان من السهل قتلهم. في حين بقيت قشلة ابن طيب تنتظر الإغاثة. فخطط بريمو دي ريفيرا لعملية إنقاذ محكمة، وفيما بعد خرجت الفرق العسكرية بخطى مرتابة، متوجهة نحو الدريوش.

وبالنسبة للمواقع الوسطى الثلاثة "ا" - "ب" - "ت" المرابطة بإيزومار، فإن الموقع الأخير أُبيد أثناء عملية الفرار الجماعية. فلقي الكل حتفهم، وذكر ميغيل برس غرسيا Míguel Peréz García رئيس المعسكر "ب" للقائد خيسوس خيمينيث أورطونيدا Jesús Jiménez Ortoneda انه لم يتوصل بأي أوامر، ومع ذلك كان سيموت وهو يؤدي مهمته[110]. كان خيمينيث من رجال الشرطة المكلفين بالدوريات الاستطلاعية. وقبل هذه الأحداث بيوم واحد تلقى أوامر صارمة من القائد بيار، تنص على مراقبة تحركات القائدين: بورحاي وعبد الله وقتلهما إذا ما حاولا الفرار. واكتفى القائد بمراقبتهما حتى الدريوش، حيث هرب بُورحاي ليلة الثاني والعشرين والثالث والعشرين من يوليوز في اتجاه وجدة. وقد تمكن هذا الريفي من خيانة الفرق الأهالية، فبعد أن تملكته الشفقة والرافة، اخلى سبيل خمسة من الجنود الإسبان الذين كانوا هناك[111]. ومن إيزومار، كان خمينيث يلاحظ كيف أن بوجماجن Buymeyan كانت تحترق، بينما في المقابل كانت أنوال تغرق في صمتها. وبعد أن أنهى حديثه مع بيريث، استأنف مسيرته؛ إذ كان على موعد آخر مع القائد فورتيا الذي كان يصحب العديد من «القياد المورو» الذين أبعدوه عن الجبل حتى لا يرى الكارثة[112]، وعندما لم يعثر خمينيث على أحد، واصل سيره حتى ابن طيب.

كان المعسكر "ب" يستعد لمواجهة العدو، وكان بيريث واثقا من نفسه. فظن أن جيوشه كافية لخوض القتال. فالعدد لم يكن هينا: خمسة وتسعون من جند سرنيولا،

وأربع مهندسين، وأزيد من أربعين رجلا من شرطة الأهالي. وكان بجوار القائد كل من الملازمين مانويل سوطو كوندي Manuel Soto Conde، وإنريكي دي أورا ميلغارس Enrique de Hora Melgares، علاوة على المساعد إسديرو لوبيث كمنيا Isidoro López Camiña، كان القائد يتوقع هجوما شرسا، وما هي إلا لحظات حتى حلت الصواعق بصعود مجموعات من الريفيين إلى الجبل. واستمرت الهجمات والقتال طيلة خمس ساعات، توفي خلالها بيريث وواحد من مساعديه. فحاول القائدان الآخران صحبة ثلة من الأحياء الانسحاب، لكنهم حوصروا في الوادي المحادي للمعسكر حيث لقوا حتفهم، باستثناء ثلاثة من الجنود الذين تم أسرهم[113].

وفاة سيلفستري الأسطورة، جنرال يتكشف

شكلت وفاة سيلفستري بانوال جزءا من الملحمة الإسبانية والملحمة العسكرية، فصارت قصة كلاسيكية، أسالت الكثير من المداد. كانت نهاية رجل يائس تلمس في الظلام طريق الهدى والنجاة. نهاية جنرال أرهقه القلق والشعور بالذنب، نهاية رجل حرب كان كل همه هو إنقاذ شرف الجيش، في حين، كان العديد من القياد والضباط الآخرين لا يهتمون سوى بإنقاذ حياتهم ومكتسباتهم. إنها نهاية قائد شجاع أبى أن يطأطئ رأسه، ويستسلم في حضرة وزيره أو ملكه. نهاية خادم أبيّ خدم الحكومة، وكانت له صداقة وطيدة بالمقيم العام، فتركه الكل لوحده يواجه مصيره ويتزلف للانتحار.

وقصة وفاته أسالت الكثير من المداد، كما سلف الذكر، فتعددت الروايات التي اتخذت في أغلب الأحيان طابعا أسطوريا[114]، وتعددت الإشارة إلى المغامرة الألفونصية بالمغرب، والحكايات جسدت وفاة شخص ماتت معه أخلاقيات وسياسة الدولة والنظام برمته.

حافظ سيلفستري على مناعته وهدوئه، ويمكن القول بأنه استعاد الهدوء أخيرا بعد غياب طويل. فبات يتحكم في اعتداله. فودع ولده، وقطع جل اتصالاته مع العالم الخارجي، كما أصدر أوامره لكل من أرياس ولاس إيراس بتحطيم محطة المكالمات اللاسلكية. كان مانويل أرياس دي لاباث في الثانية والعشرين من عمره[115]، وبجواره كان

لاس إيراس، لم يكن تحطيم جهاز الاستقبال يعني فقط التنازل عن أي مساعدة خارجية، بل كان في حد ذاته رفضا لأي حل من الحلول. فامتثل ارياس ولاس إيراس للأوامر وانهالا على الجهاز بالفأس[116]. كانت بضع ضربات كافية لتنفيذ المهمة.

واحيطت بسرية بالغة قصة ما إذا كان سيلفستري قد أجرى محادثات أم لا، مع المقيم العام في تلك اللحظات الحرجة. فهناك من يؤكد صحة هذا القول (الثوغاراي Alzugray)[117]، وهناك من يكذبه (برنكر)، اما بيكاسو فقد وصف الاسقاطات باللحظة المظلمة في تاريخ الخروج من انوال[118]. واما سيلفستري فكان يتحين الفرصة المناسبة والمعقولة لينهي الأمر مرة واحدة.

لمح القائد سباتي sabaté، رئيس أركان الهيئة الحربية سيلفستري من بعيد، لكنه لم يجرؤ على التحدث إليه. لن ينسى ابدا تلك الصورة «صورة الجنرال وهو يخترق شساعة الكارثة، كان يبدو وكأنه غير عابئ بالخطر الذي يحذق به هناك خارج المعسكر العام، وهو معرض مباشرة للنيران الكثيفة. كان صامتا لا يبالي بكل ما يلف به من اهوال»[119]، فذهب سباتي للبحث عن مانيلا ومورالس، في حين بقي سيلفستري وحيدا مقتنعا باختياره.

وكثيرون من راوه هناك (بيريث اورتيث، يامس، ثيفانطوس) بهيئته الشامخة والأبية، الشَجاعة والمتوثرة كذلك. وفي تلك اللحظة الحرجة تماما صاح في وجه كل المهرولين الذين مروا امامه، والذين دُعروا لمشهده وهو يقف في حزم وثبات لا يبالي بكل ما يحدث من حوله، ولربما كانت تلك هي اللحظة التي قال فيها، «ايها الجنود، اركضوا، اركضوا، فإن الغول آت» وهو ما يتنافى مع طبعه المتحدي والهزلي إزاء الموت. ومن يدري فربما كانت تلك الساعة كذلك ساعة سؤاله، «اتظنون انكم بهذه الطريقة ستصلون إلى بر الأمان؟»[120]، كانت المعنويات قد هوت إلى الدرك الأسفل، وهذا ما عكسته عمليات الفرار السريعة، إذ في اقل من نصف ساعة بات المعسكر مهجورا[121]. فلم يعد هناك احد يستطيع ان يصرخ سيلفستري في وجهه.

ركب الملازم ارياس والمساعد لاس إيراس دراجتهما النارية، كانت النيران الريفية ماتزال على اوجها، فراحت الكتائب ضحية الهجوم، وسقط الكل صرعى عند منحدرات

إيزومار، كان يجب الانصراف سريعا، فشهد الرجلان معا كيف ان سيلفستري ولج خيمته في صمت. تحرك الرجلان وما ان ابتعدا عن المعسكر بخمسين مترا حتى سمعا دوي طلقة نارية داخل خيمة الجنرال، لقد انتحر بلا شك[122]. اسرع ارياس ولاس إيراس بدراجتهما، وتوغلا داخل مجازر إيزومار، فعبراها إلى الدريوش ووصلا إلى اعرويت. فبقي لاس إيراس على قيد الحياة[123]. والتحق ارياس بالموتى (حسب رواية لاس إيراس سنة 1956 التي حكاها للوبيث فيرير López Ferrer) بعد ان أصبح هذا الملازم جنرالا.

اقتنص سيلفستري لحظة خلوة فوضع حدا لحياته. كانت النهاية سهلة، فهو لم يقم بهجمات انتحارية في مقدمة فرقته (التي ضاعت)، ولم يقم بمقاومات يائسة عند الأسوار. كانت ملحمة بسيطة.

كل المؤشرات دلت على أن سيلفستري، هذا المحارب البسيط اختار لحياته في لحظاتها الأخيرة بطولة متناقضة، فوفاته جاءت موجزة، رخيصة وغامضة. مات في خيمته. وكان بإمكانه ان يلقي بنفسه من مرتفع ليتبع مانيلا ومورالس، لكن الاختيار الصائب وقع على الانتحار داخل الخيمة، باعتبارها المكان الذي يحوي شاراته والنياشين الشخصية، والذي كان يؤمن حماية ولو ضئيلة امام كل تلك الحماقات التي كانت فصولها تدور بالخارج.

قيمة رصاصة صائبة، وآخر رجال أنوال

حينما دخل سيلفستري إلى خيمته، ابتعد عنه مانيلا ومورالس، وهذا ما وثقه الجندي مورينو مارتين Moreno Martin الذي بقي على قيد الحياة من فرقة الكانطرا. كانت الطلقات الريفية ماتزال على تقاطرها دون ان تخلف ضحايا، لأن الشطر الكبير من الجيش كان قد فر بجلده، كانت الأرض مكسوة بالأمتعة والسلاح والسيارات، وكذا بالجنود الموتى الذين ابلوا البلاء الحسن في القتال والصمود.

كان السؤال الذي طرحه برنكر في قسوة «هل كان هناك قتال في انوال؟»[124]، فكان يجب طرحه على قيادات الجيش والحكومة حتى على الدولة نفسها.

ذكر احد حرس سيلفستري وهو إيوسيبيو كاسانوفار Eusebio Casanovar انه انتظر الجنرال في انوال، حتى آخر لحظة، وان محرك سيارته لم يتوقف عن الحركة حتى

الدقيقة الأخيرة. وحسب شهادته، فإن الكومندان إيرنانديث هو من الح عليه بالعودة إلى مليلية. وفي النهاية، امتثل للأوامر بعد أن جمع بعض حقائب وامتعة الجنرال. رحل كاسانوفار لوحده على متن سيارة سيلفستري، وفيما بعد ذكر أنه أوقف السيارة عند وصوله إلى إيزومار، فربما يحتاجها الجنرال[12]. وعلى بعد ستة كيلومترات من انوال المهجورة، والتي باتت النيران تلتهمها، كانت هناك رواية اخرى تستر عليها كاسانوفار، وهو انه كان يحمل معه نجل سيلفستري. وهو ما يعلل انتظاره الملح للجنرال عند قمة إيزومار، انتظار لا فائدة منه.

كان **إرنانديث** (سكرتير سيلفستري)، **ومانيرا** (مساعد الجنرال) من الأوائل الذين سقطوا ضحية الهجوم. ربما انهما انتحرا اقتداء بالجنرال، فهذا ما كان يتطلبه شرفهم، وهذا ما سمحت به الأهوال التي كانت تحيط بهم.

وبقي مورالس ومانيلا صحبة خمسة وعشرين من الجنود، فشكلوا حلقة دفاع مؤثرة. وصعد الجميع إلى إيزومار. كانوا آخر من خرج من المعسكر تقريبا، إذ بقيت ثلة من المقاومين في الخلف. وكانوا هم الأوائل الذين لقوا حتفهم؛ بدءا من جثث الكتيبة الأولى للقبطان انطونيو غوميث إغليسياس antonio Gámez Iglesías، ومجموعة من المهندسين الجنود تحت إمرة الكومندان سانتياغو غونثاليث مونيي Santíago González Muné، وكوكبة من رجال المدفعية الملتفون حول القبطان ميغيل دي لاباث أوردونيا M. de la Paz Orduña، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثين سنة، وكان يكبر اخاه فيدريكو الذي توفي بإيغريين بسنة واحدة.

لقي دي لاباث أوردونيا حتفه، وسقط بعده سانتياغو موني الذي قُتل عند أسوار المنطقة. وما هي إلا لحظات حتى قُتل بونثي Poncé عند مشارف المعسكر. فتوفي الكل، باستثناء غوميس إغليسياس[126]. ورغم ذلك بقيت قلة من الجنود مع الملازم أورناطو إرنانديث روميرو Hornato Hernández Romero، الذي احتمى بإحدى التلال. كان إرنانديث يصدر أوامره بإطلاق صفارات[127]. وما أن رأى الكولونيل مورالس ومانيلا يدخلان في اشتباكات شرسة عند الفجاج الجبلية حتى أمر رجاله بالتراجع. وحسب ما يبدو فإن إرنانديث وجنوده كانوا من الأواخر في انوال.

كان مورالس ومانيلا مايزالان في المقدمة، يتبعهما كل من خواكين داركور Juaquín D.Harcourt، وغوط Got الطبيب، وإميليو سباتي رئيس هيئة الحرب. وانضم إلى

القافلة فيما بعد كل من الكومندان اندريس بنيا رودريغيس Andrés Piña Rodríguez، والقائد إميليو مورالس ترافالينا Emilio Morales Travalina برفقة عدد قليل من الجنود (لا يتعدى العشرين)، فالتحمت الإرادات المتماسكة وصعدوا في حزم في اتجاه إيزومار. سلك إرنانديث صحبة فرقته نفس الطريق، وأعطى الكولونيلان معا مثالا عظيما وهما يقاتلان في ساحة المعركة والمسدسات في أيديهما، كانا يرتديان ازياءهما الرسمية واوسمتهما. ولم يكن لديهما الاستعداد للاستسلام. كان بجوار مانيلا مساعد القائد رامون أرثي إرادير Ramón Arce Iradier الذي أثخنته الجراح فسقط ميتا بجوار قائده.

حصل الملازم خوصي ثيفانطوس كانيس José Civantos Canés، (مساعد مورالس في الميدان)، على إذن من الكولونيل، يسمح له بالذهاب للبحث عن حصان عوض ذاك الذي قُتل في معركة البارحة، فوجد ضالته. لكن، وفي طريق العودة إلى المعسكر، طالته رصاصة عدو (من جنود الشرطة الأهلية)، فقتلت الحصان الجديد الذي كان يمتطيه، وجرح الفارس بشكل طفيف في يده اليسرى. أصاب الجرح أصبعه فرتقه بشكل بسيط. وفي هذه الواقعة ضيع ثيفانطوس عشرين دقيقة حالت دون اجتماعه برئيسه الكولونيل[128].

وقتها كان سيلفستري في عداد الموتى، وكان من واجب الكولونيل مورالس أن يتقصى ملابسات الحادث. ومرة سمعه زملاؤه يؤكد وبشكل قطعي، «لن اقدم على الانتحار حتى ولو ضاقت بي الدنيا بما رحبت»[129]، واقسم الكل على ان يقتل بعضهم البعض إذا ما أصيبوا بجروح خطيرة، وذلك لتفادي عمليات التعذيب التي ينتهجها الريفيون في حق أعدائهم. وتحسبا لحالة الطوارئ وقف كل من بينيا Piña والقائد مورالس رفقة ثلة من الجنود عند جانب الطريق بنية الوصول إلى قمة إيزومار، وتلك رغبة لم تتحقق، إذ طالت رصاصات العدو كل من بينيا ومورالس فاردتهما أرضا، في حين ذهب الآخرون عبر الطريق وتوغلوا داخل الخندق.

كان مانيلا يتقدم نحو الأمام وهو يمتطي صهوة جواده، وكان الريفيون من جهة اخرى يتتبعون خطواته انطلاقا من عبوات بنادقهم. بداية، دخل إلى الخندق النحس الذي أصبح فيما بعد مقبرة، فخرج من هذا الفخ واقترب من إيزومار، هذا المعسكر الذي كان على بيريث فالدفيا ومارتينث فيفاس أن يدافعا عنه دفاع المستميت حتى

الموت. كان مانيلا واعيا بأهميته الحيوية، فحاول تنظيم نواة للمقاومة في الطريق، لكنه لم يتسنى له ذلك، فبقي هناك واقفا وسط الميدان الرحب يدافع عن نفسه بمسدسه، قرر الصمود حتى النهاية. فتوفي هناك.

اما عن مجموعة الكولونيل مورالس، فقد واصلت زحفها وصعودها عبر مرتفعات إيزومار الممتلئة بالدماء. كان الموكب يتقدم وسط دهشة ونيران الريفيين، وقبل الموت بلحظات، استدار مورالس في اتجاه القائد سباتي وقال له: «ارايت كيف انني كنت على حق؟»[130].

احتفظ الكولونيل بمسدسه، واخرج بندقية دافع بها عن نفسه، وثمة لبس حجب الحقيقة عن ساعة إصابة مورالس بعيار ناري في ساقه؛ فهل حدث ذلك عند نهاية الطريق او عند دخوله إلى المنحدر الجنوبي؟. وما هي إلا لحظات حتى اخترقت رصاصة اخرى قفصه الصدري. وحسب رواية نفارو: «لما أحس مورالس بجراحه الخطيرة جدا، لم يجد من حل آخر سوى تحفيز اتباعه على المقاومة وتشجيعهم على التخلص من جسده الذي لن يكون سوى عبء ثقيل عليهم»[131]. وحسب رواية داركور، توفي مورالس عند عبوره الخندق، وحُمل على حصان، كان جسده مثخنا بالجراح[132]. ويمكن تلخيص رواية بيكاسو الجديرة بالتصديق على هذا المنوال: سقط مورالس جريحا، وكان يعرف أن تلك هي نهايته، بصفته قائدا ورجل حرب عمد إلى حث رجاله على الوفاء بالعهد، فلم يجرؤ احد على فعل ذلك. وادلى القائد داركور (الذي كان بدوره مصابا بجراح) بشهادة تفي بأن الكولونيل توفي حينما تخلى زملاؤه عنه، وتلك تصريحات لم يقبلها بيكاسو، بل ادانها[133]. احاط الريفيون بمورالس فلم يتعرفوا على الكولونيل ذي الشخصية المتميزة، وقبل ان يقتلوه، عذبوه وفتحوا له جرحا كبيرا في وجهه.

وفي نفس المكان بإيزومار، استمرت الفوضى. ويشهد داركور كيف انه رأى واحدا من القواد يصرخ في وجه "ضابط" كان يستعد للفرار: «ايها الضابط لا تركض وتَقَدم للمقاومة»[134].

حصل الملازم ثيفانطوس على بغل اعطاه إياه عسكري من المدفعية، فأنهى به طريقه إيزومار ثم واصل سيره، لكنه لم يعثر على الكولونيل. فقد سبقه بلا شك، أو ربما مر بجانبه فلم ينتبه للأمر. وما هي إلا خطوات، حتى التقى ثيفانطوس وجها لوجه مع الكانطرا، فطلب من رئيس الفرقة المنكب على ردع الحَرَكة المتاججة بإعطاء جواد افضل من ذاك الذي كان بحوزته. فتملكت الشفقة بريمو دي ريفيرا فناوله إحدى

الخيول التي قتل أصحابها. وهكذا حصل ثيفانطوس على مطية ثالثة اثناء عملية انسحابه. وفي الدريوش ركب سيارة عسكرية سريعة، وفي نفس ليلة الثاني والعشرين من يوليوز حل بمليلية. وكان من أوائل الفارين من انوال.

لم يكن لغيره هذا الحظ، ولم يكن هذا الحظ مطلبا غاليا بالنسبة إليهم. وفي ابن طيب توفي الملازم إرنانديث.

خمسة دقائق على الهاتف
في ابن طيب وإسبانيا لا تجيب:

وصلت السيارة التي كانت تقل نجل سيلفستري إلى ابن طيب وتوقفت هناك. فالسائق كان مجبرا على الوقوف، فتلك هي النقطة التي كان من المنتظر ان يلتقي عندها بالجيش المنسحب. لكن لا أحد كان بالمكان، لا الأب ولا الجيش، فقط مجموعة خائفة من الجنود، وربما عند تلك النقطة الحساسة توصل مانويل فرنانديث - سيلفستري بالخبر اليقين عن النهاية المأساوية للجنرال.

كان جيش سيلفستري يحتفظ بأحسن وأجود احتياطاته بمنطقة ابن طيب. وكانت الثكنة العسكرية مكونة من مجموعة من المهندسين، وإدارتين للتموين والإمدادات، ونصف فرقة سان فرناندو، والفرقة الخامسة لألكانطرا، علاوة على فرق المدفعية التي كانت تمتلك قطعتين حربيتين من عيار 75 ملميتر، وجنود فرقة الهندسة البحرية وأطباء عسكريين. وحسب وثائق بيكاسو، وبتاريخ الثاني والعشرين من يوليوز كانت منطقة ابن طيب تحوي عددا كبيرا من الجنود، ستمائة وواحد وخمسون رجلا (أربعة وعشرون منهم من الضباط، وستمائة وسبعة وعشرون من الجنود) ومائة وتسعة وثمانون من الدواب[135].

ونظرا لأهمية الترسانة الحربية وخطورة الوضع، كانت ابن طيب تعتبر من الثكنات العسكرية المهمة جدا. لذا وجب وضعها تحت قيادة أحد الكولونيلات. لكن مليلية فقدت كل رجالها، فثمة مجموعة كانت ماتزال هناك، ومنهم أراوخو Araujo (رئيس فرقة مليلية)، وأرغويس Argüelles (رئيس فرقة المدفعية المختلطة)، وفرنانديث دي كوردوبا Fernández de Cordoba (رئيس قوات التدخل)، وخمينيس أوريبو Jiménes arroyo (رئيس فرقة إفريقيا)، ومورالس رينوسو Reinoso Morales (رئيس فرق سيرنيولا)،

وسالثيدو مولينويفو Salcedo Molinuevo (رئيس فرقة سان فرناندو)، وسانتيث مونخي Sánchez Monje (قائد هيئة أركان الحرب للإقامة العامة)، وفونطان سانتاماريا Fontán Santaímaría (رئيس إدارة التموين)، وطريفنيو Triviño (رئيس الصحة العسكرية). وبالنسبة لريكلمي Riquelme (رئيس سرينيولا) فقد كان في مدريد في فترة نقاهة دامت شهرا ونصف بسبب عملية جراحية اجريت له. لكنه لم يعلم بالكارثة حتى عودته إلى مليلية في الثالث والعشرين من يوليوز. الحصيلة كانت إحدى عشر عنصرا من القيادات العليا كانت حاضرة، وكان واحد منهم غائبا.

ولتبرئة كل من لوبيث بوثاس López Pozas وسانشيث مونخي Sánchez Monje، تجدر الإشارة إلى انهما امتثلا فقط لأوامر نفارو. وبقيت بذلك ابن طيب تحت إمرة قائد أثار -غيظ- وحنق بيكاسو بشكل كبير. إنه انطونيو لوبو ريسطوري Antonio Lobo Ristori الذي كان قائدا منذ شتنبر 1915، وينحدر هذا الشخص الذي ولد بقادس، من عائلة بحارة بسان فرناند، كان عمره يناهز السابعة والثلاثين ربيعا، كما كان من قدماء المحاربين بإفريقيا، وبالرغم من أن مسيرته العسكرية عرفت جمودا وفتورا سنة 1921[136]. فقد اظهر هذا القائد شجاعة وروحا ارتجالية، وقدرة على مواجهة رؤسائه ساعة ركونهم للخمول، ولكنه كان يفتقر إلى شيئين أساسيين، خطة المقاومة والأوامر.

امران خطيران كانا يثقلان كاهل لوبو، الجرحى المتواجدون بالموقع، وقيمة المعدات الحربية التي لديه. فإذا قاوم بما لديه، فإن الجرحى سيموتون حتما، حتى وإن قاوموا فلا شيء يضمن سلامة مخازن السلاح وعدم سقوطها في يد العدو. لهذا قرر طلب التعليمات، كان هدفه هو الحصول على مساندة رسمية من أحد قادته.

وبجوار الخنادق الكبيرة للمعسكر، انتظمت خطوط عريضة من الذخيرة. ودقق بيكاسو الذي رفع بيده خارطة ابن طيب، واستنتج انها ذخيرة أُعدت لأنوال، ولم يفته كذلك أن يُذكر بعرض الطريق (عشرة امتار)، واضاف الجنرال مفاجاة وثائقية جاءت عبارة عن رسم للقطع الأربع للمدفعية التي كانت منتظمة ومُعرفة بهذا الشكل، تينت Tent وإينريلي Enrile اللتان تم سحبهما من إيزومار، وهي قطع كروب القديمة التي عوضها مارتينيز فيفاس[137]. كانت لابن طيب أسباب قوية للذود عن نفسها، إذ كان في حوزتها ستمائة وواحدا وخمسين رجلا وستة مدافع، وماء وفيرا، علاوة على أغذية وذخيرة توفرت بكميات كبيرة.

كان بجوار لوبو، القائد خوصي كيريخيتا بابون José Querejeta Pavón والملازمان خايمي كامبس كوردون Jaime Camps Cordon وفيسنطي طورو طيشيا F. Toro Tellecheaa وكذا طبيب المعسكر الملازم فيليب بنيا مارتينيث Felipe Peña Martinez الذي اعتمد بيكاسو على شهاداته لإعداد تقاريره. وحوالي العاشرة صباحا خرج هؤلاء الضباط من خيامهم في انتظار معرفة مصير انوال كان الضباط الذين ذاع صيتهم في الآفاق قلقين، كيف لا وصدى القتال يصلهم من بعيد، ودوي الرصاص ياتي من الجهة الأخرى لإيزومار. وفجاة تجلت لهم صورة واضحة من الصعب طمسها او نسيانها، فعلى الطريق مرت، بسرعة كبيرة، ثلاثة بغال وحصان يركضون بلا فرسان في اتجاه السهل، فيما تقدمت في صخب الوفود الأولى من الرجال، وقد تبعثرت الوحدات العسكرية وعمت فوضى كبيرة. فالكل كان يركض حسب استطاعته في غياب قيادة واضحة[138]، كل هذا حدث بعد الزوال.

دمرت عمليات الانسحاب المرعبة روح المروءة فقتلت معنويات الجند، كما قضت على كل امل في الانتظار والانتصار. كان مانويل فرنانديث سيلفستري دوراتي يتوقع الأسوأ، فإذا كان الجيش يفر على هذا المنوال، فإن والده قد مات بلا شك. فهو يستبعد أن يتزعم أباه عمليات الفرار هاته، وربما أكد هذا التقدير المؤلم السيد الثوغراي Alzugaray الذي كان برفقته هناك، واستأذن الكومندان بالصعود إلى سيارة ابيه، فوافق الملازم، وخرجا معا في اتجاه الدريوش. وواصلت الجيوش تقاطعها، واصطدامها مع بعضها البعض، كانوا كالموج العنيف الذي يصطدم بكل ما وُجد في طريقه، وفيما بعد واصلوا طريقهم إلى حدود أبواب ابن طيب للموت هناك.

نزل كل من لوبو وضباطه إلى قارعة الطريق، بهدف إقناع العناصر النافعة بالعدول عن فكرة الفرار. كان لوبو واتباعه يصدرون الأوامر ويهددون، حتى إنهم دخلوا في اشتباكات عنيفة، بنية استمالة الفارين، لكن كل الجهود ذهبت سدى، لأن الرعب تملك الجميع. وفيما بعد قصد لوبو اولئك الضباط الذين لمحهم من بين الحشود المتناثرة، والتمس منهم إعادة تشكيل قواتهم والدخول إلى المعسكر لتامين حمايته. لكن كل هذه التوسلات لم تجد آذانا صاغية، فعللوا موقفهم بعدم وجود أوامر بهذا الشأن. عاود لوبو طلبه للتنينتي كولونيل مارينا الذي كان رئيسا ثانيا لفرقة سيرنيولا، والذي وصل في الساعات

الأولى من المساء صحبة مائة من الجنود الآخرين، فرفض مارينا. وبعد استراحة قصيرة رحل مع فرقته الخائفة. كان الملازم غيديبا شاهدا على هذه الأحداث. فهذا الضابط كان يصحب معه فرقته كاملة (والمكونة من ستة وثلاثين رجلا) بما فيهم ،ضحايا حادث الاختناق. كما رحل غيديبا مع قوات سرينيولا حيث كان مارينا رئيسا له، فوصل إلى الدريوش وهناك قرأ اللائحة، وسلم الميت الذي كان معهم[139].

كانت نجدة ابن طيب متوقفة على قرارات قيادها العسكريين، ومدى قدرة الجيش على الصمود وتحمل المقاومة، ولولا فرسان الكانطرا الذين واصلوا في حزم دفاعهم المستميت، لسقط المعسكر بيد الحركة. وواصلت أفواج الفارين من انوال عبورها، لم يكن العدد كبيرا، فالجموع تفرقت وتناثرت، كانت الشمس تميل نحو المغيب، وكان هذا نذير شؤم، على أن ساعة القرار حانت.

اتصل لوبو هاتفيا بدار الدريوش، للمرة الثانية أو الثالثة، وثمة مؤشرات دلت على تحدثه مع القائد دولز Dolz الذي سبق لسباتي وان كلمه بساعات قليلة وطلب منه إمداده بكميات كبيرة من الذخيرة. اغتنم لوبو هذه المناسبة، وطالب بصلاحية إصداره للأوامر، والح في التحدث مع أصحاب القرار. وفي الدريوش دائما، كان الملازم هناك الفاريث ديل كورال Álvarez del Corral الذي كان رئيسا على المنطقة، فأصر لوبو على التحدث إليه، أو إلى مرووسيه، لكن نفارو تأخر في الوصول. كان الوقت يمر بسرعة ولا حلول تلوح في الأفق، فقرر لوبو اتخاذ قرارات صارمة من تلقاء نفسه، وأخبر مخاطبه (دولز أو ضابط آخر) انه إذا لم يتلق أوامر في غضون خمس دقائق، وبالنظر إلى الحالة المعقدة التي يعيشها، فإنه سوف يعتبر هذا الصمت أمرا بالانسحاب[140]. هكذا تقدم ضابط بإنذار اخير لرؤسائه، أأقاوم أم انسحب؟ اجيبوني بالله عليكم، لكن لا حياة لمن تنادي، إسبانيا لا تجيب.

كانت هذه لحظة عجيبة، لحظة حدد فيها القائد أجلا معينا، ليس فقط لرؤسائه، ولكن للنظام العسكري الإسباني برمته. كان لابد من اتخاذ قرار سريع، فإما القتال أو الفرار. لم يكن لوبو مسؤولا عن ستمائة وواحد وخمسين رجلا فقط، بل أيضا عن سبعين جريحا كان الملازم بنيا يعتني بهم. كان لوبو يعي جيدا النتائج الوخيمة، اعتبارا لما سمع وما رأى، الشيء الذي جعله يحدد أجلا قصيرا، وحتى الخمس دقائق باتت بالنسبة إليه مدة طويلة.

ولنا ان نتخيل صورة لوبو وهو ينظر من خلال نافذة عنبره إلى طريق انوال التي باتت خالية من الجنود الفارين. كان لوبو يرفع سماعة الهاتف، وثمة صمت ثقيل يخيم على الخط من الجهة الأخرى. اما عن فرسان الكانطرا فقد لازموا اماكنهم، كانت عزيمتهم هي حصنهم المنيع، وكانت الأوامر الصادرة تؤكد على عدم الاستسلام. فإذا ما انسحبوا كانت تلك هي النهاية لا محالة. ومرت الدقائق ثقيلة، ولا حياة لمن تنادي في الدريوش. اصيبت إسبانيا بالخرس، وهو امر اجبر لوبو (وهو يعرف انه سيُتهم وسيُحاكم على تصرفه ذلك) على إصدار امر بالانسحاب الفوري. تُرى اكان هذا هو الحل الوحيد الممكن؟ وكيف استقبل القواد الثلاثة الآخرين تعليمات زميلهم؟ لا شيء، لا احد يدري، حيث إن الثلاثة **كيريخيتا** Querejeta و**أوغستين غارثيا اندوخار** Agustin García Andújar، **خوصي بيريث بينيا ماريا** José Pérez Peña María، اعتُبروا في عداد «المفقودين». ونفس الشأن بالنسبة للوبو الذي لقي حتفه بجبل اعرويت، ولم يسلم القواد الأربعة والعشرون المتواجدون بابن طيب من الأدى باستثناء سبعة من الجنود الذين تمكنوا من العودة إلى مليلية[141].

وما هي إلا دقائق معدودة حتى أصبحت ابن طيب خالية على عروشها، وخرج كل الجرحى سالمين، كانت النجاة ليوم واحد فقط. وشاءت الأقدار أن يموت العديد في الطريق الرابطة بين الدريوش وجبل أعرويت، ومنهم من توفي في هذه الأخيرة.

خرجت الكتيبة من ابن طيب بفضل **ريكاردو شيكوطي أركو** Ricardo Chicote Arco، هذا الفارس الكاطالاني المغوار، ذو الستة والعشرين سنة من عمره[142]. كان قائدا منذ سنة 1918، وبإجراء اتفاق مع لوبو وكيرخيتا نظم هذا الفارس عملية الانسحاب على النحو التالي: الخيول إلى اليسار لتلفت أنظار العدو، والمشاة إلى اليمين، والجرحى في الوسط بجوار بنيا، ولوبو في المقدمة. فخرجت الكتيبة في اتجاه الدريوش، وبدأت النيران تشتعل في ابن طيب.

كان الدخان الكثيف يتصاعد نتيجة انفجار البارود، ويذكر نفارو بالعزلة، ويشير إلى ضياع عتاد حربي قيم. وقصد الريفيون هذه الإشارة السوداء، فأخذوا في نهب ما وجدوا من الغنائم.

واعرب بيكاسو عن استيائه الشديد من هذه الأمور، ووصف ما حدث بكونه نتيجة حتمية لحالة الفوضى والتفسخ التي عمت المنطقة، فشعر بغصة عميقة بسبب ضياع المدافع الستة.

خواطر وأحاسيس تعزف على إيقاع سريع جدا

عاد لويس رويث إلى مقر القيادة بمليلية بعد حضوره مراسيم دفن كل من ثابينو وروميرو zappino y Romero. وفور دخوله إلى المبنى، علم بان انوال قد استسلمت. وقبل الاستيقاظ من الدهشة، وصله أمر من نفارو يدعوه للحاق به فورا[143]. كان من الضروري الخروج ،حالا، في اتجاه الدريوش. وانضم إليه ضابطان من هيئة الأركان الحربية، الكومندان إلوي غونثاليث سيميوني Eloy González simeoni والقائد إنريكي سانتيث مونخي إي كروز E. S. Monje y Cruz اللذان لقيا حتفهما في جبل أعرويت. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا من يوم الجمعة، الثاني والعشرين من يوليوز، حينما صعدوا إلى السيارات.

كانت القافلة الصغيرة تخترق وتقطع الطرق الجبلية بأقصى سرعة ممكنة، فمرت عبر الناظور التي كانت في غفلة من أمرها، وكذلك سلوان التي وجدوها في نفس الحالة من الهدوء. وفجأة بدت لهم عربة أخرى تقترب منهم بنفس السرعة، فتوقفت السيارتان، ،لقد التقينا بسيارة القائد العام،، فأطل القائد الثوغاراي برأسه. ومما زاد من دهشة مجموعة نفارو هو وجه الملازم فرنانديث سيلفستري المكفهر. كان عمره لا يتعدى العشرين ربيعا[144]، وبجمل متقطعة حاول ان يروي لهم تفاصيل الأحداث. لكن الثوغاراي هو من تولى هذه المهمة واخبر بفاجعة الانسحاب، وموت الجنرال سيلفستري منتحرا، فنزل هذا الخبر كالصاعقة على الجميع. فوافق نفارو على مواصلة الطريق حتى مليلية. كانت حالة نجل سيلفستري، يرثى لها فامر نفارو لويس رويث بمرافقته، واوكل إليه مهمة إشعار أخوات الجنرال بالخبر، وذلك بطريقة لبقة، حتى لا تعلم أمه التي كانت حالتها جد صعبة في تلك الأيام[145].

واصل الملازم والكومندان معا طريقهما نحو مليلية، وبالقرب من سلوان ظهرت سيارة عسكرية اخرى، كان اللقاء مع التنينتي كولونيل لويس أوغرطي Luis Ugarte من المهندسين، قدم الثوغاراي التحية واخذا طريقهما إلى الدريوش[146]. وحمل لويس رويث ونجل سيلفستري نبأ وفاة الجنرال إلى المعسكر.

مكالمة هاتفية إلى موقع المأساة:
حقا إنها كارثة

لم يترك نفارو خلفا له طيلة مدة غيابه، لأنه كان يفكر بالرجوع، وهو أمر نابع من قناعته وتفاؤله. كان المنصب سيؤول إلى ماسايير Masaller اعتبارا لأقدميته، لكن فرانثيسكو ماسايير إي الباريدا Francisco Masaller y Albareda، كولونيل المدفعية، ذو الستين عاما، لم يشأ أن يشغل هذا المنصب خصوصا بعد سماعه للإشاعات. فآل المنصب إلى الكولونيل خراردو سانتيث مونخي Gerardo S. Monje الذي ودعه للتو ولده إنريكي، واستلم في نفس الليلة القيادة داخل المعسكر. كان قراره هذا سببا في رفع دعوى قضائية ضده، وضد ماسايير[147].

بعث سانتيث مونخي ببرقية إلى وزارة الدفاع، يخبر فيها المسؤولين بالنهاية المأساوية لسيلفستري. لم يكن الوزير متواجدا بمقره في بوينا بيستا، فتلقى لاميلا Lamela الذي لا يكل ولا يمل نبأ الكارثة، وجملها لإيزا ونقلها هذا الأخير إلى الملك.

وهذا ما جاء في نص تلك البرقية التي وصلت إلى مدريد في الثاني والعشرين من يوليوز على الساعة الخامسة وخمسين دقيقة، «أخبر سيادتكم الموقرة، وبكل أسف، بنبأ بعث به نجل القائد العام، وهو أن والده الجنرال سيلفستري انتحر بعد عمليات إخلاء أنوال». عاود لاميلا إرسال البرقية إلى برنكر، مضيفا اقتراحا كاد أن يكون أمرا، «ونظرا للوضعية الصعبة، فإنني أرى أنه من الضروري والمستعجل جدا حضوركم إلى هذا المعسكر»[148].

وبعد ساعات، واصل المقيم العام طريقه في اتجاه عاصمة المستعمرة، كان ذلك يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وحل الليل في الطريق على خندق العين الجديدة بتطوان، وتجاوز المقيم العام بسيارته صفوف الجنود المنتظمة والمتوجهة نحو سبتة، وعن تلك اللحظات. وأولئك الجنود تحدث برنكر بشكل مبالغ فيه (بصفته أولا رجل حرب، وثانيا شخصية قادرة على سبر أغوار النفوس)، عن هدف تلك القوات التي كانت ذاهبة للتخفيف من عبء الحزن الذي خلفته الهزيمة، وحتى إن تحركت مشاعرهم للتضحية في سبيل الوطن، والرغبة في رد الاعتبار والانتقام من هذا العار، إلا أن الإحباط والإحساس العميق بالحزن، والشك في سبل الانتصار، كان يردعهم[149].

وعلى الساعة الثانية صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وبالضبط في منطقة الركبة، ايقظ التنيتي كولونيل ميان اسطراي Millán Astray الكومندان فرانكو قائد اللواء الأول، وبعُجالة كبيرة أخبره أن الهدف هو الوصول إلى الفندق، وذلك لإجراء "قرعة" بين مختلف الفصائل (وتلك ممارسة كان العمل جار بها في حالة الطوارئ). وبما ان الاختيار وقع عليه فليس امامه اكثر من ساعتين للرحيل[150]. وبعد القرعة وقع الاختيار على اللواء الأول الذي كان عليه الخروج للموت وتحدي المصير، وفيما بعد انصرف فرانكو واتباعه. وما هي إلا لحظات حتى تحركت الفرق الأخرى. لم تكن القرعة كافية.

قام اولئك الجنود المحترفون بمجهودات جد شاقة، حيث قطعوا المسافة الفاصلة بين الركبة والفندق في سبعة عشر ساعة مشيا على الأقدام. كانوا يمشون وكانهم اناس آليون، وبعد نوم دام ثلاث ساعات على قارعة الطريق (حيث لم يكن لديهم وقت ولا قوة لإقامة الخيام)، واصلوا السير حتى تطوان. فوصلوا على الساعة العاشرة صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز. قطعوا ما يناهز مائة كلم في يوم ونصف[151].

وفي تطوان، كان برنكر على علم بمصير سيلفستري الذي اعتبره الكل في عداد المفقودين، اي في عداد القتلى. وكان يعي تماما حالة الجيش الذي بات بدوره يواجه خطر الاختفاء، لكنه لم يعرب عن هذه الانطباعات لإيزا، ولم يعرف شيئا عن نفارو.

كان نفارو، بالدريوش، في حيرة من أمره لا يدري ما العمل، فقد وصل إلى هناك على الساعة الخامسة والنصف، ولم يجد في المعسكر سوى الخراب والدمار. فجلس يتأمل في ما تبقى من الجيش، وبعد هنيهة شرع الجنود في الوصول، كانوا منهكين، تؤلمهم أقدامهم من جراء المشي، (لم يعودوا قادرين على السير). كان الجند يحلمون بالنجاة باي ثمن، (وهو ما تؤكده صورة ثلاثة رجال فوق دابة واحدة) فاداروا ظهورهم لرؤسائهم الذين اهملوا بدورهم وحداتهم. كان هاجس الكل هو الارتواء بالماء حتى الانتفاخ، والارتماء في ركن من الأركان. كانوا كالمجانين.

وبعد وصول الجنرال نفارو بعشر دقائق، ظهر القائد لوبو متزعما فصائل ابن طيب التي تمكنت من النجاة، في حين لم تَسْلم الجياد من الأذى. كان الدخان الأسود المتصاعد من تلك المنطقة البعيدة التي هجروها، دليلا على احتواء المكان لأكبر ترسانة إسبانية في الريف... كانت أصداء انفجارات ابن طيب ماتزال على قوتها، فمخازن العتاد كانت تشتغل اكثر وتحترق كلما وصلت إليها نيران لوبو واتباعه.

ضيع نفارو ازيد من ساعة واحدة ليتنبه في الأخير إلى خطورة واهمية التزاماته، فتحدث في إحدى برقياته التي بعث بها على الساعة السادسة إلا ربع عن مفاجاة مؤلمة، «لقد التقيت بشلة من الجنود القادمين من انوال، والمعسكرات التي كانت في الجهة الوسطى» واعرب عن حيرته بقوله «ليس لدي معلومات دقيقة حول الأحداث» وواصل حديثه قائلا: «كما انني لا أعلم بالضبط مصير القائد العام»، ثم تطرق فيما بعد لموضوع كانت آثاره تظهر من بعيد حين قال: «لقد اخبروني بانهم انسحبوا من ابن طيب، واشعلوا النار فيها» وهكذا تقدم باقتراح للنجاة فقال: «ساحاول تنظيم كل العناصر التي تراكمت هنا»[152]. ولما قرا برنكر برقية نفارو وحللها بحضور إيزا، لم يتردد في وصف النص -بالمختصر جدا-[153]. ولا عجب في الأمر، فقد جرت العادة على ان تكون بداية الكوارث على هذا الشكل.

واخيرا استطاع إيزا تحديد مكان المقيم العام، فاجرى معه اتصالا تلغرافيا على الساعة الحادية عشر والربع من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، حيث ذكر له: «اظن انكم قد علمتم بما حل بمليلية كنتيجة حتمية لكارثة انوال». آنذاك ذكر برنكر لإيزا برقية نفارو القادمة من الدريوش واضاف: «ساتولى بنفسي معالجة هذا الوضع الحرج الذي ارهقني وعجزت انا شخصيا عن تقديم الحلول له» بسبب التضحية الكريمة والبطولية للجنرال سيلفستري» وانهى برنكر حديثه مع إيزا بإعطاء تحليلات للوضع، حيث قال: لقد هزم الجيش، ومات الجنرال، وبات من المستحيل إصلاح الوضع. حقا إنها كارثة.

بات من واجب برنكر تعبئة كل قواته البرية والجوية، فطلب من إيزا ان يمده بسبعة كتائب من المجندين في الخدمة العسكرية، وذلك لتنفيذ الخدمات. وذكر إمكانية استغنائه عن جنود الصف او الفرسان. وفي نفس المكالمة الهاتفية ذكر للوزير انه ينوي الخروج إلى مليلية في غضون بضع ساعات، وذكره كذلك «لن اجري اتصالات معك خلال السفر، لأن الناقلة الوحيدة التي استطيع التوفر عليها، لا تتوفر على جهاز لإرسال اللاسلكي»[154]. لن يتفاجا برنكر في اعالي البحار عند حدوث عطب في جهاز استقبال بارجة الأدميرال بونيفاث Almirante Bonifaz، فقد صعد إلى هذه المدمرة وهو يعلم بالعزلة التي سيغرق فيها والحكومة كلها.

كانت شمس نهار الثاني والعشرين من يوليوز قد اقتربت من المغيب، وواصلت وفود الأحياء من الجيش تقاطرها على الدريوش. كان الجنود ظمآى ومنهكين، اما معنوياتهم

فكانت تحت الصفر. والتقى الجندي فيثنطي غاريدو كوسيرو Vicente Garrido Cauceira المنحدر من كورونيا بالقائد لوبيث فيثينطي، الذي وصل في حالة يرثى لها، فقدم له الماء. وفي تلك اللحظة ظهر الملازم ثان بالسيرو Balseiro، وما ان لمحه حتى نهره بقوله، «اغرب عن وجهي». كانت الدريوش صورة للإرهاق وتانيب الضمير، وفيما بعد تم تعيين حرس للمنطقة. وحل الليل، وضاء بضوء القمر[155]، وظن الناس ان القائد خسوس لوبيث فيثينطي والملازم ثان البيرطو بالسيرو قد ابتلعتهما هذه الماساة[156].

ضياع جنرال في الدريوش
وأدراج مكتبه تُفتح بالقوة

في يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة العاشرة إلا ربع، وصل إلى وزارة الدفاع خبر انسحاب جديد. إنه نفارو، فبعد إعداده للائحة باسماء المواقع التي ضاعت، اكد ان معنويات الجيش ضعيفة، ولن يتعهد بقتال جديد. فتنازل بذلك عن المقاومة في الدريوش، وواصل حديثه قائلا، «ارى انه لا سبيل إلى إنقاذ هذا الوضع سوى إرسال قوات للنجدة، قوات تكون كبيرة العدد وجد منظمة. بيد انني لا اشك في ان انسحابا من هذا النوع، اي بطريقة متدرجة، سيقلص حتما من رقعة الأراضي التي نحتلها»[157]. وصلت هذه البرقية إلى مدريد في الثانية وعشر دقائق من يوم الثالث والعشرين من يوليوز.

ينتمي فيليب نفارو إي ثيبايوس إسكاليرال F. N y Ceballos escaleral وهو "بارون" كاسا دابالييوس إلى فرقة الفرسان، وهي نخبة الجيش. ولد بمدريد في الواحد والعشرين من يوليوز 1872، كان ابوه "بريغادير" يدعى كارلوس نفارو باديا Carlos Navarro Padillo [158]. كان فيليب نحيفا، تغطي وجهه لحية كثيفة. وكان حاد الطبع، وقلما يسهب في الحديث مع ضباطه، وكان دائما يقف بعيدا عن الجنود. كان شجاعا، لكنه لم يكن جسورا، ولا شعبيا كسيلفستري، كان يعرف مهمته نعم، بيد انه كان جاهلا بالخطط الحربية واستراتيجية الحروب، كما كان بسيطا في اوامره، تراه مضطربا خلال فترة الأزمات، وقد بقي في عزلة عن الحقائق التي دارت رحالها في اعرويت، وهو طبع اقلع عنه في اجدير عندما كان في الأسر. هذا وقد اجبرته الظروف على إثبات الذات في الدريوش

ويعود الكولونيل العجوز للجيش الميت

وفي نفس يوم الثاني والعشرين من يوليوز أو بعد ذلك بقليل، عثر عبد الكريم عند منحدرات إيزومار على جثة تعرف على صاحبها بالرغم من الجراح التي كانت تكسوها، إنه الكولونيل مورالس. فتأثر عبد الكريم كثيرا بعدها اتخذ قرارا إنسانيا وفريدا من نوعه، إذ عزم على إشعار مليلية بالنبأ، وذلك لتحديد موعد تسليم جثة الشخص الذي كان مسؤولا عن الأمن القومي.

ذعرت السلطات الإسبانية من هول ما سمعته من عبد الكريم، وأسرعت لتسهيل هذا اللقاء. فتولت بارجة "لايا" مسؤولية تنفيذ هذه المهمة، وضُرب موعد في سيدي ادريس. وفي صبيحة الثلاثاء الثالث من غشت، لمح كومندان البارجة السيد خافيير دي سالاس Javier de salas من خلال منظاره علما ابيضا، وعلما إسبانيا، التفت حوله جموع من المورو وبعض الجنود الأسرى[163].

وخشية الوقوع في الفخ، وكإجراء وقائي، اكتفى "سالاس" بإرسال زورق يتألف كل طاقمه من الريفيين. لم تكن هناك حيلة ولا فخاخ منصوبة، ففي وسط المقاومين الريفيين كان يرقد جثمان مورالس، وقد نُزعت عنه بذلته الرسمية، فظهر فقط بملابسه الداخلية القاتمة اللون. كان الجسد موضوعا فوق نعش بغطاء. هذا وقد تكلف الأسرى الإسبان بوضع الجثة في تابوت من زنك أعد لهذا الغرض. كانت العودة إلى البارجة سريعة جدا، وتأهبت "لايا" للإبحار. وقتها، علم "سالاس" بوجود مساعد واحد واثني عشر جنديا من الأسرى بدون تبغ وبدون تغذية جيدة بسيدي ادريس، فأمر بإمدادهم بنصف كيلوغرام من التبغ وكذا ببعض المواد الغذائية. وبعد هذه المهمة الإنسانية خرجت البارجة إلى عرض البحر، وأبحرت بسرعة نحو الشرق. لازم الأسرى الإسبان أماكنهم على الشاطئ، ومكثوا هناك إلى أن ابتلع الأفق المركب الصغير. وفي مليلية كانت عائلة مورالس تنتظر بارجة "لايا" ومعها بعض رؤساء المعسكر، من بينهم الكولونيل ارغوييس، خوردانا، ماسايير، وسانتيث مونخي. كانت شخصية الكومندان بيغبيدر Beigbeder، مساعد برنكر هي الأكثر بروزا في الجناح القيادي الذي كان يتزعمه الجنرال فرسنيدا Fresneda حاكم المنطقة.

رست بارجة "لايا"، وتقدمت زمرة من البحارة لحمل التابوت المغطى بالعلم الوطني ووضعه على ارضية الرصيف، وحدث ما لم يكن متوقعا، إذ تدخل برطولومي دي مورالس Bartolomé de Morales قائد الباخرة، وقطع حبل الصمت الرهيب الذي كان يلف المكان، وطلب بالكشف عن الجثة ليتأكد ما إذا كانت تخص اخاه ام لا. فخيمت لحظة من الحيرة والتردد، لكن برطولومي كان على حق. فتمت تلبية طلبه فازيح الغطاء عن النعش، فاطل على وجه الكولونيل وقد شوهت معالمه بجرح عريض[164]، وبالرغم من هذا الجرح المتوحش، تمكن برطولومي من التعرف على غابريل، كان تأثره بليغا إلى درجة انه لم يستطع البكاء. اغلق التابوت من جديد وخرج الموكب في اتجاه المقبرة. وهناك في مقبرة الأبطال، احتشد جمع من الناس ينتظرون في ترقب واحترام وصول الزعيم الوحيد الذي أعاده العدو. إنه القائد العجوز لجيش ميت.

أنوال: معركة الأرقام

كم كان عدد الجنود الإسبان المتواجدين بانوال ؟ لم يكن العدد "ستين الف" وهو رقم خيالي اشاعته الأسطورة المغربية، ومازالت تتبناه إلى حد الآن. ولم يكن العدد "عشرين الفا" كما كان يشير البعض[165].

فور انتهاء المعارك الحقيقية بأرض الريف، ظهرت تطاحنات كبيرة بين المسؤولين، وبرزت خلافات حادة حول الأرقام، امتد شعاعها إلى يومنا هذا. ففي إحدى الجلسات الصاخبة للبرلمان، بتاريخ السابع والعشرين من اكتوبر 1921، والتي انعقدت لتدارس الموضوع، اكد إيزا أنه في شهر يوليوز كان عدد الإسبان المتواجدين بمقر الإقامة العامة بمليلية هو خمسة وعشرين الفا وسبعمائة وواحدا وتسعين. فاعقب بريطو Prieto، وهو يحمل بيده لوائح تبين إحصاءات اخرى ولوائح تهم كل فرقة على حدة، ان العدد الإجمالي كان هو أربعة وعشرين الفا وثلاثمائة واثنين وعشرين. فإذا طرحنا من هذا العدد نسب الضحايا التي تقدر بثلاثة عشر الفا ومائة واثنين وتسعين قتيلا. ونستثني من هذا العدد نسبة الأهالي المقدر عددهم بأربعة آلاف وخمسمائة وأربعة وعشرين، فإن الحاصل النهائي للخسائر البشرية هو ثمانية آلاف وستمائة وثمانية وستون قتيلا. آنذاك اكد بريطو انه من واجب مجلس المستشارين، والدولة ان يؤكدا ان عدد القتلى هو ثمانية آلاف قتيل[166].

وهذا هو الرقم الذي تم الاعتماد عليه كاكثر الأرقام صوابا إلى يومنا هذا، إلى ان ظهرت وثائق ومخطوطات خاصة بالإقامة العامة بمليلية ومستندات عثر عليها ضمن الوثائق الشخصية للجنرال بيكاسو، والتي اضافت معلومات اخرى. فقد جاء في هذه الوثائق انه في الثاني والعشرين من يوليوز، وهو اليوم الحاسم، كان عدد الجيوش الحاضرة هو تسعة عشر الفا وتسعمائة وثلاثة وعشرين جنديا، من بينهم اربعة آلاف وستمائة وثمانية وسبعين من الأهالي. وبالتالي فإن نسبة خمسة عشر الفا ومائتين وخمسة واربعين هي الخاصة بالجنود الإسبان. الف وثمانمائة وثلاثون منهم كانوا موزعين على الميادين، والبقية كانت تتدخل في شكل طوابير او فرق ثابتة، دون احتساب المرضى والجرحى، الذين يمكن تحديد عددهم في اربعمائة شخص. إذن فالعدد النهائي هو ثلاثة عشر الفا.

وإذا ما نقصنا من هذا العدد اسرى انوال واجدير المقدر عددهم بأربعمائة وتسعة وثلاثين رجلا، وكذا اولئك الذين التجؤوا إلى مليلية او الصخرتين والجزر الجعفرية، وعددهم الفين ومائة، وأولئك المستسلمون في الناظور، والذين تم إرجاعهم إلى الخطوط الإسبانية، الذين استطاعوا الاختباء في القبائل ثم عادوا فيما بعد بشهور (وعددهم ثلاثمائة وسبعة وثمانون حتى حدود مايو 1922)، فإن الفارق سيمثله المختفون، والمجموع هو عشرة آلاف كلهم تقريبا من القتلى.

وفي الثاني والعشرين من يوليوز 1921، كان عدد الجنود بانوال هو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين رجلا (مائة واربعة وتسعون ضابطا وخمسة آلاف ومائة وخمسة وثمانون من الجند)، وازيد من عشرين مدفعا، وخمس آليات والف وسبعمائة وستة وثمانون دابة. هذه هي الأرقام النهائية التي درسها وراجعها بيكاسو[167].

وهكذا عمت فوضى الأرقام، ولم يسلم من هذه المبالغات سوى اثنين من الكتاب وهما: كابايرو بوبيدا Caballero Poveda ودومينغيث يوسا Domínguez Llosa اللذان قدما ارقاما معقولة[168]. دفع حصار إيغريبن والهجوم الذي نفذه الريفيون على خط الجبهة الجنرال سيلفستري إلى تحريك كل قواته التي استعصى عليه جمعها وتوحيد صفوفها بعد تمزقها، ولم يتمكن من جمع سوى فرقة عسكرية واحدة، كانت بمثابة كتيبة.

وإذا ما أضفنا إلى جيوش انوال المقدر عددهم بنحو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين نفرا، بنسبة الف وثلاثمائة وواحد وثمانين جنديا في الدريوش، وازيد من تسعمائة وثمانية وتسعين رجلا تحت إمرة اراوخو Araújo بدار الكبداني، وتسعمائة وسبعين جنديا تابعين لغرسيا إسطيبن بسوق تلاتز، وستمائة واربعة رجال في شيفت، بقيادة روميرو اوريغو Romero Orrego، فإن الحصيلة سترتفع إلى تسعة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثين رجلا[169]، وهي نسب قوات التدخل الإسباني في الريف، تنضاف إليها اربعة آلاف او اقل من الجنود الموزعين على الجبال والتلال، الذين كانوا يعانون من العزلة ونقص في العتاد. فكان محكوما عليهم بالموت.

زيارة الدوق **إيزا** إلى المغرب (في يوليوز 1920)، وبعد مأدبة عشاء اقيمت على شرفه، جلس في الصف الثالث كل من: **برنكر** (وهو يستند إلى عصا) وإلى يساره **سيلفستري**، وعلى يسار هذا الأخير، جلس الجنرال **مونتي بيردي** Monte Verde. المصور مجهول الهوية. (المصدر مجموعة وثائق المؤلف).

القائد العام بمليلية، **سيلفستري**، في محادثة مع قائد الكانطرا، الكولونيل **مانيلا** (يدير ظهره)، بعد زيارة تفقدية لفرقة الكانطرا في أزغانغن في مايو او يونيو لعام 1921؛ (تُجهل هوية المصور) الصورة منحت من طرف عائلة **مانيلا**.

صورة للجنرالات، **سيلفستري** (يدير ظهره ويده اليمنى مسندة إلى خاصرته)، **نفارو** (يضع يديه في جيبه) و(صورة جانبية) **لباريرا** Barrera في جهة ابن طيب، أنوال، 1921. المصدر مجهول. مجموعة وثائق المؤلف.

الكولونيل **مورالس** (يدير ظهره) في محادثة مع المقيم العام **برنكر**، خلال رحلة قام بها هذا الأخير إلى منطقة الدريوش - أنوال (في أبريل 1921). المصور مجهول والصورة مهداة من طرف **كارمن أورمايشي مورالس** Carmen Ormaeche de Morales.

مجموعة من الضباط الغير معروفين بجوار سيارتين قياديتين أو ،سيارتين عسكريتين سريعتين، (فورد 20 هـ - ب). مصور الصورة مجهول 1921. مجموعة وثائق المؤلف.

مدافع جاهزة بمعسكر سوق الحاج (بمليلية): آخر حصن دفاعي بعد كارثة أنوال. صورة ،**لازارو** Lázaro، - غشت/ شتنبر 1921- مجموعة وثائق المؤلف.

ضباط وجنود بعد الاستيلاء على هضبة اشدو Haxdu (بالكوروكو). والتمكن من المدافع التي كانت تقصف مليلية في العاشر من اكتوبر 1921. صورة **لاثارو**. مجموعة وثائق المؤلف.

المقيم العام: **برنكر**: يحتفل مع ضباطه - الكولونيل **خوردانا سوذا** على يمينه - بنشوة الانتصار بعد الهجوم المضاد بمليلية. صورة **لاثارو** 1921. مجموعة وثائق المؤلف.

صورة ،لمصنع دقيق، تم تدميره في النافلور حيث كانت وحدات الحرس المدني بزعامة الملازم **فرينسو** Frenso: تقاوم وبشدة في حرب استرجعوا بعدها المدينة (17 شتنبر 1921) ملتقط الصورة مجهول. مجموعة وثائق المؤلف.

قائد المهندسين - **سوريانو** - عند مقود قاذفة قنابل من نوع هافيياند Havilland تم الحصول عليها بمساعدة من مدينة ثاراغوثا التي يظهر شعارها على الجانب الأيسر للطائرة، صورة **لاثارو** 1921. مجموعة وثائق المؤلف.

برنكر: (يشد على أنفه بمنديل) وهو يتجول بين أطلال عيادة الجرحى لأعرويت، حيث قُتل ما لا يقل عن 107 جريح إسباني. الصورة ربما التقطها لاثارو. الرابع والعشرين من أكتوبر 1921.

جنود فرق التطهير تحت أنظار بعض القساوسة المسيحيين، وهم يجمعون رفات الإسبان المتناثرة عند ضواحي أعرويت. صورة لاثارو أكتوبر 1921. مجموعة وثائق المؤلف.

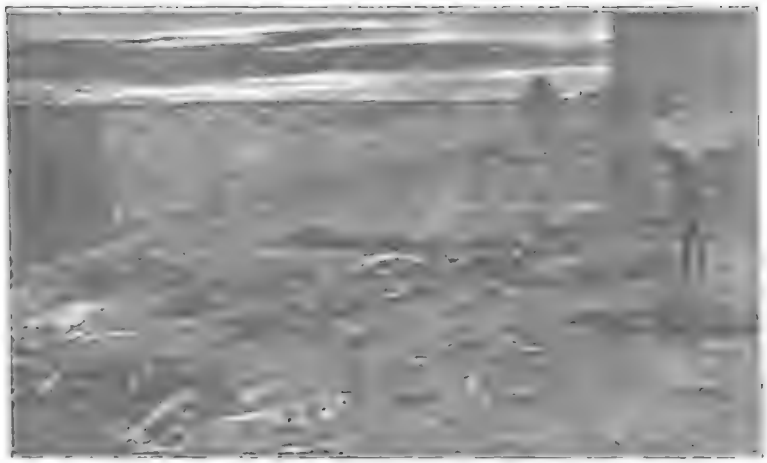

صورة ضابط من طابور **كابنياس** Cabanellas وهو ينحني احتراما امام جثث الإسبان عند منحدرات اعرويت. الصورة **لألفونصو (الفونصو سانتيث بورتيلا** Alfonso Sánchez Portela) في الرابع والعشرين من اكتوبر 1921.

زعماء قبيلة بني بوافرور وهم يسلمون اسلحتهم للكولونيل **ريكلمي**. صورة "**لاثارو**" حملة 1921-1922. مجموعة وثائق المؤلف.

مجموعة من الصحفيين والجنود الإسبان وهم يحتفلون في سرور بالاستيلاء على "الكوركو" الصورة لمصور مجهول. التقطت في العاشر من اكتوبر 1921.

عائلات ريفية، من قبيلة غير معروفة (ربما بني بو يحيى) ذاهبة للاستسلام إلى السلطات الإسبانية في مليلية. صورة خوصي ماريا كساريغو José M. Casariego شتاء عام 1922.

فهرس الفصل الخامس

1) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 80.
2) المذكرة العالمية، نشرة 13 نونبر 1921.
3) برنكر. المصدر السابق نفسه، ص. 237.
4) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 278.
5) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 426.
6) الأبناء الأربعة لمورالس هم، أنا ماريا، فرانثيسكا، كارمن وغابريل، محادثات مع السيدة كارمن اورمايشي مورالس- زوجة ابن مورالس. ابريل 1997.
7) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 80.
8) المصدرنفسه، ص. 82.
9) برنكر، المصدر نفسه، ص. 46-47.
10) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 44-45.
11) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 238.
12) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا (ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا) "برقيات انوال" يوليوز 1921.
13) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، تداعيات رفض ملف توشيح الملازم نوغيس بالوسام الشرفي. المجموعة، ن /571.
14) المصدر نفسه، جاء قرار المجلس الأعلى للشؤون الحربية والبحرية يوم 10 يوليوز 1923، وحدث ان طالبت -السيدة إميليا باريرا Emilia Barrera، والدة الملازم- بهذا المكسب يوم 30 مايو 1924 مقدمة بين يدي المصالح المختصة شهود عيان جدد عايشوا بطولات ولدها، لكن مطالبها ووجهت بالرفض بعلة انقضاء الأجل الذي كان على "الملتمسة ان تستغله في (نونبر ودجنبر 1922)".
15) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 85.
16) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حول مخططات وزارة الحرب التي ضمت إلى "الثكنة العسكرية، المدفعية الجبلية الخامسة (بقيادة بلانكو) علاوة على حصن يضم 140 رجلا و4 قطع حربية. بيد ان كل هذه المدفعية كانت توجد "خارج" المعسكر ساعة الفتنة.
17) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 495.
18) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا، بيان "الوجيز في العمليات والتقييمات" للجنرال فيليب نفارو الذي عرضه على الإدارة العسكرية، بتاريخ 2 شتنبر 1924 بمدريد، ص. 4.
19) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة م.338 وم.340 ومحادثات مع السيدة كونثبثيون مانيا دوكيسني Concepcion Manella Duquesne حفيدة الكولونيل، يوليوز 1998.
20) المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا (المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا) رسالة الكولونيل في (10 يونيو 1921) إلى زوجته، ماريا دوكسني مونطالبو Maria Du Quesne Mpntalvo.
21) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 10 يونيو 1921 بمليلية.
22) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 13 يونيو 1921 بمليلية.

23) المصدر نفسه. رسائل من الكولونيل مانيلا إلى زوجته، من انوال (19 يونيو) ومن مليلية (15 يوليوز) لعام 1921.
24) رسالة مانيلا بتاريخ 8 من يوليوز 1921.
25) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 496.
26) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9، برقية مسجلة تحت رقم 8.650 وتم التوصل بالبرقية في مدريد على الساعة 11،30 يوم 20 يوليوز.
27) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 71.
28) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 47.
29) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9 برقية مسجلة تحت رقم 8.395.
30) بيانات... (محاكمة برنكر) ص. 47.
31) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 17 نونبر 1921 ص. 4.234 مداخلة النائب البرلماني والكومندان فيليب كرسبو دي لارا. المشهود له بكفاءته العالية، والتجربة الطويلة في الملاحة الجوية.
32) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 48.
33) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
34) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا،المجموعة442/9 البرقية المسجلة تحت رقم 703.8، وتم التوصل بهذه الرسالة في مدريد يوم 21 يوليوز على الساعة السادسة وخمسة واربعين دقيقة.
35) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 243-245.
36) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 444.
37) المصدر نفسه.
38) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 942/9 إرساليات مستعجلة مسجلة تحت الأرقام التالية،-3.941- 3.947- تهم تعبئة وتحريك الرجال والبواخر (21 يوليوز 1921) التي كانت تحت إمرة انطون إبليون. البحار وقائد هيئة اركان الحرب العليا للقوات المسلحة. كانت الوحدات الحربية توجد في مياه كارطاخينا وسان فرناند و(قادس).
39) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، إ-730.
40) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الثلاثاء 27 يونيو 1922، ص. 3.005. كان رامون سولانو Ramon Solano ومانسو سونيغا Manso Zu-iga بطلان في الرماية فالكل كان يعترف لهما بمهارتهما في هذه الرياضة.
41) هذا البرنامج المثير تمت دراسته من لدن سانتياغو دومينكز يوسا -ومنه استنبطنا هذه المعلومات- الذي تحدث ما بين 1990 و1992 مع العديد من الأحياء الذين خرجوا سالمين من تلك المأساة.
42) رسالة إلى الكاتب خطها سنتياغو دومينكز يوسا في ثلاث صفحات وبعثها بتاريخ 9 مايو 1997 إلى مليلية.
43) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا، يوليوز 1998 ،كان دومينكز قد تحدث مع مارتينز حينما كان عمره 90 عاما.
44) *تاريخ الحملات*...، الجزء III، ص. 641.
45) المصدر نفسه، ص. 642.
46) بيانات...، (محاكمة برنكر) ص. 49.
47) غارسيا فيغيراس وإرنانديث إريرا. المصدر السابق نفسه، ص.327.
48) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ب- 3.195.

49) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا *"المعلومات العسكرية في انوال"* يوليوز 1921.

50) *تاريخ الحملات...*، الجزء الثاني، ص. 643.

51) المصدر نفسه والصفحة، الجزء الثالث، ص. 640. هناك شكوك قوية تحوم حول ما إذا كان هذا الضابط، المعروف باسم سيرا سرانو Sierra Serrano والذي أصيب بجروح خطيرة، يوم 18 يوليوز، كان مايزال على قيد الحياة ساعة الانسحاب من إيغريبن.

52) مذكرات تخص المدفعية، 1921. الصفحات، 913-914.

(53) *تاريخ الحملات...*، الجزء الثالث، ص. 430.

54) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت-م) لأنطونيو اندرو مودول Antonio Andrew Modol (في 28 اكتوبر 1921). والمكتوب على الورقة 1.482 التي توجد ضمن (تقارير بيكاسو الأصلية). وكذلك الرسالة التي بعث بها بيكاسو شخصيا لبرنكر، يوم 15 يناير 1922.

55) بيانات... (محاكمة برنكر) ص. 15.

56) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

57) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

58) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 95.

59) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 51.

60) المصدر نفسه والصفحة نفسها، انظر إلى البرقية التي بعث بها سيلفستري إلى برنكر يوم 21 يوليوز 1921 على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة.

61) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 50.

62) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، البرقيات المسجلة تحت رقم 8.401 و8.403.

63) سانث غوتيريث سيغفريدو Sanz Gutiérrez, Sigfredo مع *الجنرال نفارو في الحرب والأسر*، دار النشر، سوثيسور دي ريفادينيرا مدريد، 1924. ص. 2 و3. وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب أخطأ في ضبط المواقيت، إذ تحدث عن "الثانية عشر زوالا" ليوم 21 يوليوز، وهو ما يتعارض تماما مع حالته في إيزومار يوم 22.

64) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9 هذه البرقية سجلت تحت رقم 8.726، وتم التوصل بها في مدريد 22 يوليوز على الساعة الرابعة وثمانية واربعين دقيقة.

65) رسالة من خواكين لوبيث فيرير Joaquin Lopez Ferrer إلى الكومندان إيوخينيو دي سانطوس رودريغو Eugenio de Santos Rodrigo بتاريخ 24 مايو 1976، (م-ت-ع) المجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري".

66) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9 البرقية رقم 8.726.

67) المصدر نفسه، البرقية رقم 8.730.

68) صحيفة أ-ب-سي، نشرة الجمعة 22 يوليوز 1921.

69) المصدر نفسه، ص. 7.

70) المصدر نفسه، ص. 8.

71) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات، 97 و490.

72) المصدر نفسه، ص. 506.

73) وكذلك قوات الكولونيل ارغويس Argüelles الذي تحدث عن انضمام "حركة بني سعيد" إلى جيوش سيلفستري يوم 21. وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 491.

74) المصدر نفسه، ص. 331-332.

75) من الممكن انه، بجانب الكومندان يامس مارتين Llamas Martin الذي كان من الفرق النظامية رقم 2، كان هناك كذلك اندريس بنيا رودريكز Andrés Pía Rodriguez من إفريقيا.

76)بريث اورتيث، إدواردو، كولونيل، *من انوال إلى جبل اعرويت، وثمانية عشر شهرا من الأسر*. حكاية شاهد عيان، ارتيس غرافيكس بوسطال-إكسبرس، مليلية، 1923، ص. 17.

77) المصدر نفسه، ص. 18.

78) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 96.

79) فيفرو، اوغوستو، الانهيار، الناشر رفائيل كارو راجيو، مدريد 1922، ص. 164.

80) بريث اورتيث، المصدر السابق نفسه، ص. 18.

81) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 96.

82) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 51.

83) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 506.

84) بريث اورتيث، المصدر السابق نفسه، ص. 19.

85) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 17.

86) المصدر نفسه، ص. 141. الجملة كانت لمارينا.

87) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 507.

88) المصدر نفسه، ص. 524.

89) ساينث، غوتيريث. المصدر السابق نفسه. ص. 4.

90) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 15.

91) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 526، حسب "يامامس" فإن هذه الأحداث وقعت حوالي التاسعة صباحا.

92) المصدر نفسه، ص. 500.

93) صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 29 يوليوز 1921.

94) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 52.

95) المصدر نفسه، ص. 15.

96) فيفرو ا. المصدر السابق نفسه، ص. 168-169.

97) صحيفة *ا-ب-سي*. نشرة الجمعة 26 غشت 1921، في هذا المقال، وكغيره من المقالات تم التستر على هوية كسانوفاس الذي يظهر فقط "سائقا للمقيم العام".

98) ساينث غوتيريث، المصدر السابق نفسه، ص. 7.

99) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 448-452 شهادة التنيتي كولونيل نونيوث دي برادو الذي تحدث عن الخسائر البشرية التي بلغ حجمها ثلاثمائة من القتلى في صفوف النظاميين ساعة الانسحاب من انوال، ذكره ليون فيافردي، انطونيو في "مدينة مليلية، والقوات النظامية" ضمن تلغراف مليلية، نشرة الأحد 17 غشت 1997.

100) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 6.

101) ما تبقى بعد معارك البارحة، التي كان يخوض غمارها 138 رجلا. (أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث) "في مواقع إيزومار".

102) (أرشيف سنتياغو دومينكز يوسا)، المجموعة، "المواقع التابعة لأنوال".

103) (أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث)، (ت.م) (التصريح الموجز) للكومندان خوالدو مارتينث فيفاس (ليوم 3 اكتوبر 1921) المكتوب على الورقة رقم 1.153 (لتقارير بيكاسو الأصلية).

104) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

105) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 114.

106) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم الثاني خوصي غديا ميان (الواحد من اكتوبر 1921) في الورقة 1.248 لتقارير بيكاسو الأصلية.

107) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 105.

108) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حالة القوات العسكرية بدار الدريوش. 22 يوليوز 1921.

109) ماينث غوتيريث، المصدر السابق نفسه، ص. 7.

110) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 115.

111) غارسيا فيغيراس إيريرا، نفس المصدر السابق، ص. 356.

112) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات، 458-469.

113) *تاريخ الحملات...*، الجزء الثالث، ص. 460.

114) ضمن العديد من البيانات الإخبارية، نورد تلك التي نشرت في *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا*، تحت عنوان، *كشوفات مثيرة*، وفي عنوان صغير أكد "التنيتي كولونيل السيد كابنياس أن الجنرال سيلفستري ما يزال حيا"، نشرة الاثنين 12 دجنبر 1921.

115) لقد عثرنا على نسبه كاملا في السجل العسكري السنوي لسنة 1921. وهكذا تكون سنة ولادته هي 17 يوليوز 1899.

116) (المصلحة التاريخية العسكرية)، رسالة خواكين لوبيث فيرير.

117) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 414. لقد كان الثوغاراي هو من تعرف على القبطان كاراسكو، وتحدث عنه بكونه الضابط الذي ولج خيمة سيلفستري وذلك ليخبر الكولونيل (مانيا) ويريه الحركة التي كانت قادمة في طوابير ثلاثة.

118) المصدر نفسه، ص. 334.

119) المصدر نفسه، ص. 530.

120) *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا*، نشرة الجمعة 01 دجنبر 1921. كل عبارات الشتم التي قذفها سيلفستري في حق "رجال الشرطة الذين هموا بالفرار، ينعتهم بالجبناء"، أكدها الجندي مورنو مارتين في الوثائق التي توجد ضمن (تقارير بيكاسو)، ص. 101.

121) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 98.

122) المصلحة التاريخية العسكرية، المجموعة المتعلقة بـ "مانويل فرنانديث سيلفستري"، رسالة خواكين لوبيث فيرير.

123) نجاة "لامس إراس" من الحرب بإفريقيا ومن المشاكل الأهلية. وسنة 1956 حينما كان رئيسا على الورش بـ"سنطاندر إلكطريكا" تعرف على خواكين لوبيث فيرير المهندس، وآنذاك روى له لامس إراس التفاصيل التي يعرفها حول وفاة سيلفستري. كان خواكين، نجل لوشيانو لوبيث فيرير الذي كان سكرتيرا عاما في الإقامة العامة ما بين سنتي (1921-1923).

124) برنكر. المصدر السابق نفسه، ص. 79.

125) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الخميس 4 غشت 1921.

126) ارشيف سنتياغو دومينكز يوسا، *"الوجيز في العمليات والتقييمات"*، ص. 53 و(ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث) "معسكر انوال" لوائح الخسائر البشرية.

127) المصدر نفسه، ص. 5.

128) (ارشيف سنتياغو دومينكز يوسا) مجموعة "الوثائق القضائية التي تهم تحديد المسؤوليات في أحداث عام 1921" وفي مقالتي المعنونة بـ *"كارثة انوال" (تاريخ 16 يوليوز 1996)* وضعت ثيفانطوس بجوار مورالس ومانيلا. وكان هذا خطأ استدللنا عليه بموجب البحث في الوثائق الجديدة ومراجعة المصادر القديمة.

129) جريدة *ا-ب-سي*، نشرة الخميس 28 يوليوز 1921.

130) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مورالس (الابن) ص. 13.

131) ارشيف سنتياغو دومينكز يوسا، *"الوجيز في العمليات والتقييمات"*، ص. 3.

132) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت-م) لخواكين أركورطي كوط في (28 شتنبر 1921) على الورقة 120 من تقرير بيكاسو.

133) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 386 .

134) المصدر نفسه، ص. 103.

135) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث "معسكر ابن طيب" في 22 يوليوز 1921.

136) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ل-865.

137) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تصميم خطي لبيكاسو. انظر الملحق.

138) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 472.

139) المصدر نفسه، ص. 588.

140) المصدر نفسه، ص. 473.

141) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر ابن طيب" لائحة الخسائر البشرية.

142) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م- 150.

143) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 15.

144) ولد مانويل فرنانديث دوارطي سيلفستري يوم 16 مايو 1901 السجل العسكري السنوي. 1926 (ص. 372) خلال هذه السنة كان ملازما ثانيا. وتم تعيينه في المدرسة المركزية للرماية.

145) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 15..

146) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 415.

147) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442، رقم الإرسالية 8.729.

148) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442، رقم الإرسالية 8.729.

149) برنكر، د، المصدر السابق نفسه، ص. 64-65.

150) سيرفا، ريكاردو، فرانثيسكو فرانكو. *عهد إسبانيا*، دار النشر الوطنية، مدريد 1973، ص. 176.

151) *الفرق العسكرية الإسبانية (خمسون عاما من التاريخ)*، كتاب من إعداد وتنسيق الملازم كولونيل انطونيو مارتينس دي لاكاسا. مدريد 1975. ص. 107-109.

152) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة، 9/442، البرقية 8.737.

153) نفس المصدر، محاضرة مع برنكر على الساعة الثالثة وثلاث وعشرين دقيقة.

154) نفس المحاضرة الفت يوم 22 من يوليوز على الساعة الحادية عشر وخمسة وأربعين دقيقة.

(155) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 481.

156) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "انوال" لائحة الأحياء والأموات.

157) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442. البرقية المسجلة تحت رقم 8741.

158) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد ن-71.

159) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 57.

160) المصدر نفسه، ص. 16.

161) صحيفة *الصول*. نشرة الخميس 28 يوليوز 1921.

162) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، محضر غابريل مورالس، ص. 8. فحسب طيوفيلو مورو الذي كان متزوجا من إحدى بنات برطولومي مورالس، كان الكولونيل يحتفظ "ضمن اوراقه الشخصية" بإحدى عشرة رسالة، كتبت إلى برنكر سنة 1920. وإليكم تواريخ إرسالها -19 مارس، 10 ابريل، 6 يونيو، 29 يوليوز، 24و28 غشت، 11 و27 اكتوبر، 14و22 نونبر، و18 دجنبر- علاوة على خمس رسائل اخرى لسنة 1921 بعثت في -26 يناير، و28 فبراير، و28 مارس و26 ابريل، و29 مايو- إضافة إلى هذه الرسائل كان الكولونيل يحتفظ كذلك بجملة من الوثائق التي كانت ترسل إلى سيلفستري ومنها، محضر 1 يناير، مذكرة 13 فبراير، ومحضر 2 مارس، ومذكرة 19 يوليوز، إضافة إلى المحضر الشهير ليوم 16 فبراير 1921.

163) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 3 غشت 1921.

164) نفس المصدر، والصفحة.

165) الغرباوي أحمد، في، *تعاليم الحرب الشعبية المناهضة للاستعمار في الريف*، دار النشر، البيان، الرباط 1975، ص 21. ذكر في حديثه عن معركة انوال ان "خمسة آلاف من الريفيين طوقوا 20.000 من الإسبان المسلحين"، وهذا الكاتب في حديثه عن سيلفستري وصل إلى القول بان سيلفستري شارك في "حرب شارل" (وكيف كانت هذه المشاركة وهو ابن خمس سنوات؟ لأنه ولد عام 1871 وتلك المعركة لم تنته سوى عام 1876)، وذكر الكاتب كذلك ان سيلفستري شارك في حرب الفليبين، وهذا خطأ لأن الجنرال لم يعرف قط هذا المكان. ص. 19.

166) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27 اكتوبر 1921، ص. 3820.

167) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "الوضعية يوم 22 يوليوز" في مقاطعة انوال، لائحة بكل الوحدات.

168) تحدث كبايرو بوفيدا فرناندو، في "المغرب، معركة 21. ارقام واقعية (الأول والثاني)" عن 5252 رجلا كانوا بانوال. و14.641 "من المقاتلين" (زيادة على الأهالي) فكل هذه الأعداد كانت تابعة لجيش سيلفستري. اما دومينكز يوسا فقد احصى في رسالته التي بعث بها إلى الكاتب السالف الذكر يوم 9 مايو 1997 عدد الجنود وحصرهم في "1200"، وهو الرقم الحقيقي بالنظر إلى اللوائح الكثيرة والمبالغ فيها.

169) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، لوائح "معسكر دار الكبداني" "موقع سوق الثلاثاء" و"معسكر شيفت" 22 يوليوز 1921.

الفصل السادس:

أزيد من ثلاثة آلاف قتيل في أعروس، وآخرون كثير

كانت الحكومة تدرك حقيقة الأمور بإفريقيا لكنها، كانت متجاهلة

قصد الملك الفونصوالثالث عشر وصاحبة السمو الملكي السيدة "فيكتوريا اوخنيا" مدينة سان سيباستيان بعد العودة من بورغوس، وتزامنت عودتهما مع عيد ميلاد الأميرة ماريا كريستينا، الذي احتفلا به يوم الخميس الواحد والعشرين من يوليوز. وعشية يوم الثاني والعشرين، تلقى العاهلان في نفس المدينة "سان سيباستيان" الأنباء الأولى حول المأساة الإسبانية في المغرب، سيلفستري في عداد القتلى، والجيش كله في مهب الريح. فطلب الفونصوالثالث عشر تجهيز قطار كيفما كان نوعه للرحيل.

كان "إيزا" أيضا بسان سيباستيان، وكان ينوي التوجه نحو الحدود الفرنسية لاستقبال ابنته التي كانت تدرس بإحدى المدارس في لندن. وهناك في المحطة، سلم الجنرال كيرول Querol لوزير الدفاع برقية كاتب الوزارة، والتي تضمنت رسالة المقيم العام الذي يخبره فيها بالتقدم الجديد الذي احرزته قواتنا في المغرب والاستيلاء على مواقع جديدة[1]. كانت الساعة تشير إلى الواحدة زوالا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز. سافر إيزا وهموم النكبة تلاحقه بالرغم من أن الصحيفة اليومية الوحيدة والمتحيزة للملكية، حاولت إثبات عكس تلك الحقائق. وفي تلك الأثناء وصل إلى سان سيباستيان في القطار القادم من مدريد، **خوصي سانتيش غيرا** José Sánchez Guerra رئيس الحكومة وزعيم الحزب المحافظ الذي التف حوله الصحفيون وأمطروه بالأسئلة،

فلم يجد من جواب سوى «لا اعرف شيئا». وعند سؤاله عن رحلة الملك إلى العاصمة، اجاب في غموض: «ربما هي أمور تخص الضفة الأخرى»[2].

كان ذلك بمثابة تأكيد للكارثة العسكرية، فالضفة الأخرى هي المغرب. وفي مدريد كانت تروج إشاعات تنذر بالخطر وتنذر بسقوط مليلية.

عاد إيزا ادراجه بشكل سريع، في حين، استقل العاهل (الذي لم يكن ضمن برنامجه فكرة المجيء إلى القصر) القطار السريع الذي يقلع بالليل ليصل إلى مدريد في الساعات الأولى من النهار[3]. وفي انتظار وصول الملك وإيزا، اجتمع "الليندي سلشار" بثلة من الوزراء -كانت الوزارة شبه خالية لأن الكل كان في عطلة- في مجلس صغير عجز عن تقديم اي حلول.

وعلى الساعة التاسعة وخمسين دقيقة من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، وصل الفونصوالثالث عشر إلى المحطة الشمالية التي كانت تعرف بـ(برينثيبي بيو). وهناك كانت الحكومة في استقباله، وكذا شخصيات لم تتمكن من حضور اجتماع أيند يسلاشار، فضرب لها موعداً في تلك المحطة. وتوجه الكل نحو القصر حيث انعقد مجلس الوزراء. وفي الختام، اكد إيزا امام حشد كبير من الصحفيين ما نصه: «لا الجنرال نفارو ولا انا لدينا معلومات عن السيد فرنانديث سيلفستري» وبعدها اكد في جراة وبشكل قطعي: «وانا مازلت على اتصال بالجنرال نفارو». في حين أن القائد الثاني للإقامة العامة بمليلية، لم يكن باستطاعته ان يربط اتصالا مع القيادة، إذ كان كل همه هو الوصول إلى "الباطل" Batel.

كان الصحفيون يستفزون إيزا بهدف معرفة مصير الجنرال سيلفستري وما حل به، فاجاب الوزير بعبارات مقتضبة لا تشفي الغليل. لكن الفاجعة تأكدت بطريقة غير مباشرة، فمن خلال إشارات وإيماءات صدرت عن بعض الوزراء، تأكد الصحفيون من أن الإشاعة التي روج لها كانت حقيقية للأسف.

كان مانويل ايندي سلاشار، الذي يبلغ من العمر خمسة وستين عاما، يبدو شيخا في تلك اللحظات، كان القلق باديا عليه. وفي محاولته لطمأنة البلاد، تضمن خطابه هذه العبارة: «هذا شيء مؤسف للغاية، ولكن سوف ترون كيف ان الأمور ستعالج بسرعة». لكن قسم تحرير جريدة "الصول El Sol" لم ينتظر، فنشر في اربع اعمدة ما سوف يكون العنوان الأكثر وضوحا: «وفاة الجنرال فرنانديث سيلفستري»[4]. وتطرقت جريدة ا-ب-سي،

بدورها لهذا الموضوع، وتحدثت عن موت القائد العام لمليلية. لكنها، وفي عنوان عريض، ذكرت أن موقع أنوال تحاصره حركة بني ورياغل[5].

كتيبة شيفت: الكولونيل آخر شخص خرج

وفي نفس اليوم (السبت الثالث والعشرين)، وبعد أن تحولت نواحي أنوال إلى مجزرة، قام الريفيون بحملات تمشيط واسعة للمنطقة. ورغم هذه الدوريات والتحركات الريفية، بقيت ثلاث قوات إسبانية بمعزل عن الأذى وهي الأهم، قوات "أراوخو" المتواجدة بدار الكبداني، وقوات سوق الثلاثاء بقيادة غرسيا إستيبان، وقوات أخرى بمنطقة "شيفت". كانت الوحدات الأولى تغطي الجانب الأيمن من الساحل، أما الوحدات الثانية فتموقعت على اليسار من الداخل، وبجانبها كانت الفرقة الثالثة في المقدمة.

كان عددهم الإجمالي حوالي ألفين وخمسمائة رجل، عدد كبير بالنسبة للإمكانيات الهزيلة والمتاحة لنفارو. كانت الطوابير الثلاثة عرضة للضياع.

تقع "شيفت" بمنطقة تعرف بمضيق ميضار، على الهامش الأيسر لكرط، في قلب بني توزين. كان الموقع يضم ما يعرف بالطابور المتحرك لفرق مليلية، وهو عبارة عن خمس فرق (من بينها فرق المدافع الرشاشة) علاوة على القطار النظامي. كان المجموع هو ستمائة وأربعة رجال (تسعة عشر من الضباط، وخمسمائة وخمسة وثمانين من الجند) يترأسهم التنينتي كولونيل روميرو Romero [6]. حطت هذه القوات رحالها في منطقة تفتقر إلى الماء، وتلك حماقة أخرى زادت من دهشة بيكاسو. ورغم هذا الاختيار اللامعقول، أرغم الجيش على الذهاب إلى الدريوش، التي تبعد بسبع كيلومترات، للبحث عن الماء، أو التوجه إلى بوهفورا Buhafora التي كانت أكثر قربا. بيد أن طريقها كان محفوفا بالمخاطر. في حين كان على قطعان الماشية أن تقصد كرط (التي تبعد بثلاث كلمترات) للارتواء. كل هذا أدى إلى نتائج مأساوية تمثلت في إصابة العديد من الجند بالمالاريا وأمراض الجلد الناتجة عن النتونة وكثرة الأوساخ[7].

وعلى الساعة الرابعة والربع صباحا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، تم إرسال برقية عاجلة إلى رُميرو. كان التنينتي كولونيل يشاهد بأم عينيه كيف كانت الجبال تشعل نارا، وسمع دوي الاشتباكات بين جنود إنطرميديا-أ- ومسلحين من بوهفورا. قرأ

روميرو بارتياح البرقية التي بعث بها نفارو، والتي كانت تتضمن أمرا بالانسحاب نحو الدريوش. فأصدر أوامره بتعطيل وإتلاف القطعتين الحربيتين من نوع شنيدر والاستعداد للانسحاب. وتوالت الإشعارات المماثلة في الوصول إلى مواقع أخرى: عين كرط، وعزيب ميضار، وازرو، وحمودة، وإيسن لسن.

كان خوصي روميرو أوريغو José Romero Orrego يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما، ورغم السن كان خفيف الحركة، فقطع واحدا وعشرين كلم حتى الدريوش بخطوات غريبة وخطيرة، حسب رواية بيكاسو. لكن روميرو اقترف خطأ واحدا كان فادحا وقاتلا -حسب تصريحات نفارو فيما بعد- إذ قرر أن لا يترك شيئا للعدو، فأمر بحرق مخازن السلاح. كانت أعمدة الدخان الكثيف تتصاعد وكأنها علم حرب نكس على الأراضي المفتوحة لشيفت. فانتبه الريفيون للحدث، وهرولوا إلى المكان في حشد كبير، فتشتت شمل الكتيبة التي كانت منتظمة، بفعل إطلاق الرصاص وتفككت صفوفها بشكل مخيف[8]، فهرول الكل. كان التنينتي كولونيل هو آخر من التحق بالركب، فبقي هناك مع حارسه وبشجاعة لا متناهية، كان يحاول حماية سير الكتيبة. غير أنه بعد هذا الحدث، لم يعلم أحد بنهايته.

كان نفارو في الدريوش، فبعث بفرسان الكانطرا في اتجاه شيفت بنية تسهيل عملية الانسحاب وتفادي وقوع مجازر. لكن وبالرغم من ذلك، خلفت الاشتباكات مائة وأربعة وعشرين قتيلا، دون أن تصل وفود شيفت إلى بر الأمان. وفي الدريوش، كانت تجري استعدادات أخرى يائسة للخروج.

وفي أقل من خمس ساعات، قطع جنود شيفت، الذين بقوا على قيد الحياة، مسافة كل الأراضي المرتفعة والمؤدية إلى مليلية في رحلتين كانتا محفوفتين بمخاطر الحياة أو الموت، وقليلون هم الذين تمكنوا من النجاة. وفي الرابع والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة والنصف صباحا، قام القائد فليكس المانسا دياث Felix AlManza Díaz بإحصاء جديد للرجال والعتاد، فجاءت نتيجة إحصاء العتاد سريعة ومهولة، كيف لا، والعدد لم يكن يتعدى مدفعا رشاشا واحدا، وأربع بنادق قصيرة، وثلاث بنادق، وخمس بغال. أما بالنسبة لعدد الرجال، فالنتيجة كانت أكثر سوءا. إذ إن الحصيلة لم تتجاوز ستة من الضباط، وثلاثة من المساعدين، وثمانية وعشرين من الجند، إذن سبعة وثلاثون

من اصل ستمائة واربعة رجال[9]، وهو ما يعني 94٪ من الخسائر. كما ابيدت كتيبة "روميرو" عن آخرها.

أراوخو واستراتجياته المتميزة

في اتجاه مليلية، وباتباع المنعرجات الجبلية حيث قبيلة بني سعيد، وليس ببعيد عن الشريط الساحلي لكرط، كانت القندوسي. وهناك كانت متمركزة كتيبة "اراوخو" قبل خروجها في اتجاه الكبداني. ولو ان "اراوخو" اتبع اوامر "سيلفستري" للتمكن من تحقيق هدفين أساسيين وهما: الوصول إلى مصب واد صالح، والنزول هناك لإنشاء ميدان تحيط به الخنادق، ثم الانحراف في اتجاه إيزومار ونشر القوات خلف انوال. وفي القندوسي بقي ثمانية وثمانون رجلا يتحكمون في مخازن مهمة من العتاد والذخيرة.

لم يكن سيلفريو اراوخو طوريس Silverio Araújo Torres قائد حرب، بل قائد الإرساليات. كان يعيش كبقية زملائه في مليلية، وفي وقت وجيز لا يتعدى الأربعة والعشرين ساعة، تزعم جيشا قوامه الف رجل. إذ انضافت إلى الفرق الخمس التي كانت برفقته، اربع فرق من حاملي البنادق، وفرقة واحدة من حاملي المدافع الرشاشة، علاوة على ثلاث كتائب من الجيوش المرابطة بالقندوسي بزعامة "الكومندان سانث غرسيا"، إضافة إلى بعض العناصر المسلحة الأخرى ومدفعية واحدة[10]. كان "سيلفستري" قد التجأ إلى سيلفيريو واوكل إليه مهمة إنقاذ انوال والجيش، لكن حجم هذه المسؤوليات المتراكمة حال دون تحقيق اهدافه.

كان "اراوخو" يبلغ من العمر سبعة وخمسين سنة، وبالرغم من صحته السليمة التي منحته القوة خلال الأشهر الثمانية عشر من الأسر التي قضاها في أجدير، فإن نفسيته لم تكن مستعدة لهذا النوع من التعبئة المفاجئة والحازمة[11]. وبعد احداث انوال التي اطلع عليها من خلال تصريحات الفارين وبعض البرقيات، بقي أراوخو معزولا وبعيدا عن تعليمات من يثق بهم، وبعيدا كذلك عن الدريوش ومليلية. فتعكر مزاجه من جراء هذه العزلة والفراغ الاستراتيجي. وقبل البدء في الصراع، الذي كان يستشعر ضراوته، فكر في ابنه، القائد "إدواردو أراوخو سولر" Eduardo Araújo Soler الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة[12].

كان أراوخو على علم بوجود "نفارو" في الدريوش، ومع ذلك مر يوم الثاني والعشرين بأكمله دون ان يتخذ اي قرار. وفي الوقت نفسه، كانت تصله إلى معسكره أنباء مقلقة عن مواقع تُهاجم ومواقع تُحاصر، ومواقع صامتة لا تجيب. علاوة على طلبات مستعجلة بالنجدة لم يُعرها أراوخو اهتماما[13]. وفي الليل، كانت عشرات المواقع الريفية تحترق. بقي "أراوخو" مشلولا، ففي كل ساعة، كانت تضيع فرص المناورات وتزهق أرواح الأشخاص. وقد لخص بيكاسو هذه القواعد في هذه العبارات، «كانت الوضعية واضحة جدا، فإما التمركز على جبهة كرط (لتكوين خط دفاعي ثان من جهة النهر)، وإما الصبر والمقاومة بمعية الكتائب العسكرية التي كانت موجودة، والتي كانت تبدو كافية. لكن لم يحصل شيء من هذا القبيل»[14].

وفي اليوم الموالي، السبت الثالث والعشرون، قرر أراوخو طلب تعليمات من نفارو. لم تكن الخطوط الهاتفية مقطوعة مع الدريوش، ورغم ذلك فضل إرسال كل من الضابطين، الفونصو فرنانديث مارتينيث، (الكومندان الذي عهد إليه سيلفستري بمخطط بالانسحاب)، ومساعده الذي كان ابنه إدواردو. فانطلق الاثنان في اتجاه الدريوش على متن سيارة عسكرية سريعة.

لم تستغرق سيارة فرنانديث وأراوخو للوصول إلى الدريوش سوى ساعة واحدة، مرورا بطريق القندوسي -بوكسادا- دار أزوجاغ. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا حينما طلب الضابطان الاجتماع بممثلي السلطة العليا بمليلية، فدخل الرجلان في محادثات مع الجنرال نفارو دامت ساعة واحدة[15]. وفي ساحات الدريوش، كانت جيوش أنوال المتبقية تنتظم داخل الصفوف ومعها كتائب شيفت التي وصلت لتوها منهكة القوى.

فسر "نفارو" لضباط أراوخو التدابير اللازم اتخاذها، وذكر أن أولى الخطوات تتجلى في الإسراع بالانسحاب في اتجاه القندوسي. وتم تبليغ هذا الأمر البديهي إلى دار الكبداني بواسطة الوسيلة الأكثر سرعة، وهي الهاتف الذي لم يكن معطلا. فرجع الضابطان من رحلة سفر لم تكن ضرورية. وهكذا حصل الكولونيل على الأمر الذي كان يبحث عنه، لكنه لم يفعل شيئا.

تلقى "فرنانديث مارتينيث" و"أراوخو" انباء تفيد بأن الطريق عبر بوكسادا في اتجاه الكبداني مقطوعة، وذلك بسبب سيطرة زعيم ريفي يدعى بوحراي Buharray على

المنطقة. ونتيجة لذلك، قررا التوجه نحو الباطل، ومن ثم الانعطاف في اتجاه الغرب للوصول إلى القندوسي. وفي الباطل، ومن مصادر موثوقة، تلقى الضابطان اخبارا جديدة اخرى تفيد بحدوث ثورة هنالك، فتعذر عليهما الذهاب إلى القندوسي، وهناك التقيا الكولونيل خمينث أرويو Jiménez arroyo الذي وصل لتوه من مليلية، فطلبا منه قوات لحمايتهما. فكان الجواب بالنفي طبعا وذلك لقلة الجنود. فاجرى فرنانديث واراوخو مكالمة هاتفية مع القاعدة التي ينتميان إليها، فوقع ما لم يكن متوقعا، حيث إنه ،وبعد إجراء المكالمات مع الكبداني، قرر الضابطان الرجوع إلى مليلية دون تقديم خدماتهما للكولونيل خمينس ارويو. اعتمد القائد اراوخو في رجوعه على إذن من رئيسه (والده) الذي سمح له هاتفيا بالرجوع. ونفس الشيء بالنسبة للكومندان فرنانديث.

وهكذا، انقذ كل من الكومندان فرنانديث مارتينيث والقائد أراوخو حياتهما ومسيرتهما العسكرية، واصدر المجلس الحربي حكما مخففا في حقهما، ينص على سنة واحدة من السجن التاديبي مع الإعفاء من تقديم الخدمات طيلة مدة السجن. وصادق على هذا الحكم قاضي التحقيق، والمستشار السيد "خوصي ماريا دي سنتمينات إي فونتكوبرتا" José María de sentmenat y Fontcuberta في مليلية يوم الثلاثين من مايو 1923 [16].

الخروج من الدريوش وحفرة "إغان"

حينما جمع بيكاسو كل المعلومات التي تهم الانسحاب من الدريوش، اوضح في إحدى رسوماته اليدوية -والضرورية جدا لمعرفة احداث الريف لسنة 1921- كل الخصائص التي كانت تمتاز بها المنطقة، والتي كانت تتكون من معقلين دفاعيين اثنين، المعسكر شمالا، والمستوصف والمخازن وافران الخبز والطهي يمينا، وتفصل بين الجهتين الطريق المؤدية إلى ابن طيب، ومساحتها تقدر بست مائة متر. كانت نيران البنادق هي الوسيلة الوحيدة لجعل هذه المنطقة حصنا منيعا لا يمكن اختراقه.

كانت في حوزة نفارو ثلاث مدفعيات حربية، الأولى والخامسة "جبلية" برئاسة القائدين روبيو Rubio وبلانكو Blanco، ومدفعية "عرضية" للملازم ايالا Ayala، ومدفع القائد روانو Ruano الذي سلم من النهب، وقطعتين حربيتين من نوع "شنيدر" كانتا في مخازن الدريوش، والتي تولى امرها الملازم إنريلي Enrile ولوبث دي مورلا López de Morla.

والمجموع كان هو ثلاثة عشر أو خمسة عشر مدفعا، وتلك كانت أظن، قوة نارية مهمة، بالإضافة إلى اربعمائة وتسعة وثمانين رجلا، ومائتين وخمسة وعشرين حصانا. وحدث أن تنازل رئيس هذه المدفعية الحربية الكومندان إثيخا Ecija عن القيادة لزميل له في نفس الرتبة يدعى ماركري Marquerie.

وعلى الساعة الرابعة صباحا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، استدعى نفارو الكومندان إدواردو أرميخو غرسيا Eduardo Armijo García من إدارة التموين، للتشاور معه حول ما يمكن فعله، فإما المواصلة في الدريوش أو الخروج منها. وكوجهة نظر شخصية، اقترح ارميخو على رئيسه المكوث هناك، كانت حججه تستند إلى القدرة الاستيعابية الهائلة للمعسكر، وتوفره على مورد ماء وكميات كبيرة من الذخيرة[17]. لم يكن متوقعا من ارميخو شخصا احترافيا في الميدان أن يعتبر خمسين الف خرطوشة فقط -وهذا هو الرقم الذي سجله تاريخ هذه الدراما- ذخيرة كبيرة. هذا، دون إدراج مطالبة "سباتي" العاجلة "لدولز" بنصف مليون من خراطيش البنادق، والف قذيفة مدفعية. فاحتمال ضياع هذه القذائف المدفعية في الطريق نحو ابن طيب كان جد وارد، حيث وردت تقارير تفيد أن قافلة كبيرة مكونة من أربعمائة ناقة تبددت وضاعت في نفس يوم الثاني من يوليوز.

كانت الدريوش خلاف "اعرويت" بمثابة حصن منيع له تاميناته، ووصف بريث أورتيث Pérez Ortiz (الذي كان يدير اعمال المعسكر) المكان بالمناسب جدا للدفاع، مما جعله يؤكد قائلا: «نظرا لقرب الدريوش من منبع المياه، وتطويقها للمراكز الأمامية لـ"حمان" (بالقرب من كرط)، فإنني اظن اننا في موضع قوة نستطيع بذلك المقاومة منه لشهور عدة. وفي رايي، علينا البقاء هنا»[18].

وفي تلك الليلة (الثالث والعشرين من يوليوز)، وحينما سال نفارو ضباطه عن عدد القوات المعتمد عليها، سلمه بيريث اورتيس ورقة تتضمن الجواب: الف وستمائة وأربعة وعشرين جنديا (من بينهم كتائب انوال والدريوش). وفي اليوم الموالي، ومع وصول قوات شيفت والمناطق الأخرى، انضاف إلى العدد الف من الجنود الآخرين. وبعد التحدث إلى ارميخو، أصدر نفارو (وهو الأدرى براي بيريث اورتيث والمقتنع بإمكانياته) امرا بوقف الانسحاب.

كل ما جنته وربحته الدريوش من مؤهلات دفاعية هائلة، كان موازيا لخسارتها لروح الحماسة عند الجيش، ويحكي الكومندان "اندريس فرنانديث موليرو" Andrés Fernández Mulero مدير قسم النقل والاتصالات اللاسلكية، كيف انه أعد العدة لرحيل كل السيارات العسكرية نحو مليلية، وهي تنقل على متنها الضباط الجرحى والمرضى، وآخرين ممن رُخص لهم الجنرال بالعودة إلى مليلية[19]. كانت المعنويات في الحضيض منذ أحداث أنوال، كما استمر انعدام الحيطة والتبصر. وفي الساعات الأولى من مساء الثاني والعشرين من يوليوز، شاهد أرميخو وصول القائد كاراسكو Carrasco العائد إلى الدريوش، في سيارة عسكرية صحبة العديد من الأشخاص، وهو يروي حكايات أنوال دون تحفظ وعلى مسامع الجند. مما استدعى تحذيره بضرورة التزام الصمت، حتى لا يقضي على ما تبقى من معنويات الجيش[20].

وعند الفجر، استيقظت الدريوش على مشهد مؤلم؛ مشهد عازفي البوق الثلاثة عشر لفرقة الكانطرا، وهم يعزفون نشيد الاستيقاظ، لقد تابع كل أولئك الذين بقوا على قيد الحياة من كارثة أنوال، هذا العرض بإعجاب وتفاؤل. وبعد أن انتهى هذا التقليد العسكري، بدا بعض الأمل إذ شُكّلت فرقة الفرسان التي لم تتمكن من إنقاذ سوى بواق واحد متخم بالجراح.

وبحلول ظهيرة الثالث والعشرين من يوليوز، وفي ركن من أركان المعسكر، ألقى بيريث أورتيث خطبة على رجاله، مؤكدا لهم ضرورة الصمود وعدم الانسحاب من الدريوش، وفي نفس الأثناء، وصل نفارو وذكر له في حدة وصلابة بأن الظروف تقتضي إفراغ المركز[21]. وانطلاقا من معرفتنا بطبيعة وشخصية التنينتي كولونيل، كان من المحتمل وقوع مشادات كلامية مع جنراله، غير أن "بريث" تفادى الحديث عن هذه الأمور في مذكراته. وهكذا، بقيت هيئة ضباط سان فرناندو في حيرة من أمرها، أما زعيمها فقد حاول ابتلاع الإهانة.

نزل خبر الانسحاب من الدريوش كالصاعقة على الجيش، مما أدى إلى تدفق حشود كبيرة من الجنود، سواء المصابين منهم بجروح طفيفة أو غير المصابين على الشاحنات. فكان يركب الشاحنة الواحدة ما يزيد عن ستين رجلا، وبإقلاع الشاحنات وقطعها لبعض الكيلومترات كانت تنقلب تحت وطأة الوزن الثقيل، أو تتعطل بسبب تضرر النوابض. وأمام هذا الوضع، هب الريفيون لنهب الشاحنات المعطلة في سرعة

البرق، اما تلك التي مازالت صالحة، فقد واصلت طريقها دون التوقف أمام المشاهد الدرامية التي كانت تعترضها.

وفي إحدى سيارات الإسعاف المتبقية، جاء الملازم إيسماييل ريوس غرسيا Ismail Ríos García الذي وصل إلى الدريوش قادما من شيفت جريحا. وحدث أن تعطلت السيارة من جراء الحمولة الثقيلة، فتوقفت عن السير. وفجاة، انقض عليها حشد كبير من الريفيين، وفتحوا النار على السائق وضربوا الجرحى بسكاكينهم. وبعد عملية نهب جنونية للجثث، انسحب المهاجمون. لم يدر "ريوس" ماذا يفعل وسط القتلى، فاستغل الفرصة لاستجماع قواه وطلب النجدة بعد ذلك.

كان جسد "ريوس" متخما بثمانية وعشرين طعنة بالخنجر، فكثرت الثقب على بدلته الرسمية، ولطخ الدم كل اكمامها وطياتها، فوقف في وسط الطريق يحاول إيقاف اي سيارة مارة، وهو يلوح بدراعيه المفتوحتين لطلب النجدة. فلم يتوقف احد امام هذا المنظر المرعب، حيث مرت عليه اولا سيارة تتبعها شاحنة بنفس السرعة دون ان تعير إلى المستنجد اهتماما. فيئس "ريوس" وقبل ان يفقد الأمل بالمرة، مرت شاحنة اخرى ابطأت السير دون ان تتوقف، فتعلق الضابط بها وساعده الراكبون على الصعود. وهكذا، تمكن ريوس من الوصول إلى تيزطوطين، ومن هناك إلى مليلية[22].

تم الانسحاب من الدريوش، وخرج الجنود في اربعة افواج: فرقة "سرنيولا" اولا تتعقبها مائتان واثنان وخمسون من الجرحى، وبعض عربات المؤن والمدفعية، وفي المؤخرة قوات سان فرناندو المكونة لمؤخرة الجيش. كان المجموع هو الفين وستمائة وستة وستين رجلا مصحوبين بالمدفعية، وواحد وتسعين حصانا، ومائة وثلاثة وتسعين بغلا[23]. وللوصول إلى تيزطوطين، كان على الكل قطع مسافة عشرين كلم للوصول إلى السكة الحديدية. لكن، لم يتمكن احد من الوصول إلى المكان، إذ ان حفرة "إغان" كانت تنتظرهم.

اصدر "نفارو" اوامره بإحراق كل شيء، وهو بالضبط ما فعله "روميرو" في شيفت، تكرر نفس الخطأ ونفس الكارثة. اندهش الريفيون لانسحاب الإسبان في تلك الساعة -الواحدة زوالا-، فانحدروا من الجبال المجاورة في اتجاه المعسكر، الذي تصاعدت منه اعمدة الدخان الكثيف. كان "نفارو" مايزال في الدريوش صحبة ثلة من الحرس وسائقه الوفي، المساعد ميلون Melón، الذي كان امام مقود السيارة. أسرعت الكتيبة، وبالرغم

من العياء الشديد،ضاعفوا من سرعتهم. لأن الخطر كان يحذق بهم من كل جانب. وفجاة، وجدوا الشاحنات التي تقل الجرحى. كانت معظمها مخربة ومحروقة او مقلوبة عند المنحدرات الجانبية. أما ركابها، فلم تكن حالتهم تختلف عن هذه الشاحنات. كل الممارسات الريفية المرعبة تجسدت هناك أمام أعينهم.

وفي الدريوش، أعطى "نفارو" إلى "ميلون" إشارته بالانطلاق، فضغط المساعد بكل قوة على بنزين السيارة التي خرجت تتعقب الكتيبة. وفي طريقها، داست بقوة كل الجثث وكتل الحجارة التي كانت تعترض سبيلها[24]. كل هذه الأحداث، رواها "ميلون" للكومندان "فرنانديث موليرو" الذي تمكن من النجاة رفقة بعض الشاحنات التي كانت تحت إمرته، ووُفق بذلك في الوصول إلى اعرويت على الساعة الخامسة مساء. وبعيدا، بقيت الكتيبة تواصل سيرها في انكسار. لقد عمت الفوضى ودبّ العصيان في صفوفها بسبب تعليمات نفارو التي أصدرها. لقد راى ان الجيش اصبح يمر بالطريق ولا يعبأ بالمجازر التي وقعت.

امتلأ نفارو غيظا وأمر بجمع الجثث من الأرض وحملها على البغال وعربات المدافع، فتبادل الجنود -عدد ليس بالقليل من الضباط- نظرات الحيرة. إنها الثالثة زوالا، ورئيسهم يأمرهم الآن ليس بحفر القبور، ولكن بحمل الجثث وإيصالها إلى الباط، التي كانت تبعد بنحو عشر كيلومترات. فلاحت بعض بوادر الاعتراض التي أخرجت نفارو عن صوابه، فحذر قائلا، ،إذا بقيت هنا جثة واحدة فلن تخرج الكتيبة،.كان نفارو يريد من ضباطه أن يساندوه ويقدموا له يد العون، فبادر القواد والملازمون والسلاح بأيديهم بتحفيز وإرغام الجنود على حمل الموتى. وحدث ما لم يكن متوقعا، فقد أصبحت البغال لا تقوى على حمولتها، مما دفع الجرحى إلى رمي الموتى أرضا ليركبوا هم[25].

وفي خضم هذه الفوضى الأخلاقية، اصطدمت الكتيبة بحاجز اعترض سبيلها، إنه خندق "إغان".

كان الريفيون هناك بانتظار الإسبان، فاربكت نيرانهم صفوف الجيوش الإسبانية، ورغم ذلك امر نفارو بمواصلة السير. لكن يبدو انه لم يعد يملك اي سلطة على جيشه، فتقدم ساينث Sainz من هيئة اركان الحرب وشكّل -وهو يصرخ بأعلى صوته- بعض الفرق. فاجتمع حشد من الجنود وبادروا بإطلاق النار، لكن عددهم كان قليلا لأن باقي

الجيش امتنع عن المشاركة حتى في عملية الدفاع عن نفسه. وتعالى صراخ الجنود وهم يتوجهون لقائدهم بطلب انضمام الضباط إليهم، عوض بقائهم على الطريق يحتمون وراء البغال من نيران العدو. شحب وجه "نفارو" و"ساينث"، لم يكن السبب هو التمزق الذي هز الجيش، بل إحساسهم بأن النهاية باتت وشيكة، وقتها ظهر القائد بلانكو الذي حاول أن يخلص الضباط المعنيين من جبنهم، لكن دون جدوى.

كان "رامون بلانكو" على رأس المدفعية الخامسة بكل من انوال وإيزومار. وهناك بإغان بدا موقفه رائعا وهو يعاتب بشدة زملاءه (بعدما رأى ضياع ثلاثة مدافع)، ويعطي مثالا للجنود في الصمود، فانقذ الموقف. بعدها جاء الحدث الحاسم مع فرقة الكانطرا[26].

توقف بريمو دي ريفيرا وجنوده أمام خندق إغان، وفكر مليا فيما يجب فعله. فهل يتصدى بنيرانه إلى كل الريفيين المرابطين هناك لإنقاذ ما تبقى من الجيش؟ أم يكتفي بنجدة عناصر فرقته؟ فجاء القرار حاسما، حيث انطلقت إلى هناك وحدات الكانطرا. كان الفرسان يصوّبون سلاحهم نحو الصفوف الريفية المتراصة، فدمروها عن آخرها، وسقط الرجال والدواب. وعلى هذا الحال، وجدوا بعد مرور خمسة أشهر على الحادث. كان النصر حليفهم هذه المرة. وهكذا، تمكنوا من إنقاذ كتيبة نفارو وتحويل تلك الهزيمة إلى ملحمة.

صاحبة مطعم "الباطل" وعصا نفارو

وانتهت حكايات إغان بمشهد مروع تقشعرّ له الأبدان، إذ شهد الجندي "بيثينتي غاريدو كووثيرو" Vicente Garrido Couceiro، الذي كان آخر من عبر الممر، منظر دراجة نارية تجر قاطرة تحمل شخصا عاري الجسد ومتخما بالطعنات، وقد غطي برداء صاحبة مطعم معسكر الباطل[27]، المعروفة باسم خوانا مارتينيث لوبيث Juana Martínez López، أما زميلها فلم يعرف اسمه[28].

بوصوله إلى الباطل، لم يجد نفارو سوى مؤن قليلة وهزيلة، أما الماء فكان متوفرا، لكنه كان اجاجا. علاوة على أن كل خطوط الاتصال مع اعرويت كانت مقطوعة. فتمثلت العزلة بوجهها. خيبة أمل اخرى كانت مع السكة الحديدية، إذ لم يأت على متنها اي قطار من مليلية. كانت تيزطوطين قريبة، لكن نفارو كان يراها بعيدة المنال في ذلك اليوم. واصلت الفرق الريفية إطلاق النار من مخابئها بلا هوادة، فذعر الجند. وبعيدا، كان يظهر جبل اعرويت الذي وصل إليه بعض جنود نفارو في الليل سيرا على الأقدام.

استنفذ نفارو كل صبره، خصوصا في تلك الساعات التعيسة في "الباطل". واستمر وصول الضباط. كانوا منهوكي القوى ضعيفي المعنويات، مجردين من أوسمتهم. علاوة على أن فرقهم العسكرية تخلت عنهم. هذا وقد رأى الجندي "دومينكو طورطوسا لينارس" Domingo Tortosa Linares من فرقة إفريقيا، كيف أن الجنرال وصل به الأمر إلى ضرب ملازم بعصاه لأنه كان لا يحمل (مثل آخرين) لا نجمات ولا شارات. وفي الوقت الذي كان فيه نفارو ينهال على الضابط التعس ضربا بالعصا، سمع "طورطوسا" والدهشة تمتلكه صوت الجنرال وهو يهتف: «إنني عجوز، لا أريد ماء، فليذهب من يشاء»[29].

لم تكن القيادة العليا في مدريد على علم بنهاية "نفارو"، عكس مليلية التي كانت على اطلاع بمصيره ومصير كتيبته. ففي زوال يوم الثالث والعشرين من يوليوز، اكتشف ركاب طائرة "برسطول" Bristol و"هافييان" Havilland التي كانت تحط بسلوان، جثته بدهشة. فتكشفت الهزيمة النكراء التي تجلت بوضوح في السماء، فظهرت الجثث ومدافعها وشاحناتها، وكل أصناف الأمتعة المنتشرة من إيزومار إلى الباطل، وتصاعدت العشرات من أعمدة الدخان الأسود على طول وعرض الجبال، تنبئ باحتراق العديد من المراكز، وكذا احتراق أجساد المدافعين عنها.

"برنكر" يبحر قبالة شاطئ تأكله النيران

مساء الثالث والعشرين من يوليوز، صعد "برنكر" إلى باخرة "البونيفاس" Bonífaz، وهي الباخرة التي دخلت الخدمة سنة 1911، وتصل حمولتها إلى ثمانمائة طن، وقوة 1024 حصان، أما قدرتها الاستيعابية فكانت تتسع لمائة وسبعة وعشرين بحارا لتحريك أربع مدافع من عيار 76,2 ميليمتر، واثنين من المدافع الرشاشة[30]. آنذاك، كانت بريطانيا العظمى قد أطلقت سفنا مدمرة من نوع "افريدي" Afridi، تصل سرعتها إلى أربع وثلاثين عقدة بحرية. وظهرت بعدها بواخر "مانداتي" Mandate[31]، التي تصل حمولتها إلى ألف وخمسة وعشرين طنا، ولها نفس السرعة في الإبحار، والتي تصل إلى أربع وثلاثين عقدة بحرية، مزودة بثلاث قطع من عيار 102ميليمتر[32].

كانت هذه هي الآليات البريطانية التي كانت تفوق بكثير البونيفاس، وسبق أن عرضت لندن على مدريد منذ زمن قريب، صفقة لبيع هذه السفن بأثمنة جد بخسة، تراوحت بين

(مائة وخمسين الف، ومائتي الف بسيطة). كل هذه الأنباء، تحدث عنها الماركيز "كورتينا" Cortina في رسالة بعث بها إلى لاثيرفا في الرابع عشر من نونبر 1921[33].

واخيرا خرج "برنكر" نحو مليلية، وانطلق "البونيفاس" من سبتة، وتقدم نحو الأمام باقصى سرعة ممكنة، سرعة لم تكن تتجاوز الاثني عشر عقدة.

ومن مقر القيادة، راقب "برنكر" وضباطه ساحل غمارة وقت الغروب. وبعد الانعطاف نحو خليج بادس، لاحت من بعيد العلامات الأولى التي تنبئ بهول الثورة الريفية، كيف لا وقمم جبال الحسيمة كانت تحترق، كانت النيران المشتعلة تنذر بالتعبئة القتالية الشاملة للريفيين.

تجاوزت باخرة "البونيفاس" القوس الجغرافي الواسع لمدينة الحسيمة، كانت الصخور التي تحتضن الخليج غارقة في صمت رهيب. لكن، وبتخطي صخرة راس كيلاطس، سمع دوي قوي للرصاص، وبدت سيدي ادريس بؤرة تشع منها ومضات الانفجارات الكثيفة، ومنطقة تعج بالمقاومة وتطالب بالمساندة من مدفعية "لايا" واميرة "استورياس"، اللتين كانتا هناك تقدّمان يد المساعدة في حدود المستطاع. تبادل ركاب البواخر التحية النظامية، وأخبر قبطان باخرة "الأميرة" السيد "إيليسيو سانتيثيث" Eliseo Sánchiz بانه لا يستطيع الاتصال بالثكنة، التي لم يعد يعرف عنها سوى أنها أصبحت بدون ماء، وذلك لأن كل مصادر المياه والشاطئ نفسه بات بيد الحركة. اما رجال الكومندان فيلاثكيث -والمقدر عددهم بثلاثمائة رجل انضافت إليهم مائتان وأربعة وسبعون ممن جاؤوا من تاليليت على قيد الحياة- فكانت مقاومتهم تبدو جيدة. لكن الظما والعجز بسبب استنزاف كل الذخيرة، جعل رجال سيدي ادريس الثلاثمائة يستشعرون دنو اجلهم. كان طيف وذكريات إيغريبن تلوحان في الأفق.

وبعد قليل، تابعت "البونيفاس" سيرها ظهر رصيف راس "افراو"، وهو موقع آخر تمت مهاجمته ومحاصرته. ومما زاد الطين بلة، هو عدم وصول اية مساعدة بحرية. ولأن مركب "لاوريا" Lauria الذي اقلع بسرعة من الجزيرة الخضراء تاخر عن الوصول إلى المياه الريفية، ونتيجة لذلك، بقي ما يناهز مائة وثمانين جنديا، كانوا تحت إمرة الملازم "خواكين فارا دي ريي" Joaquin Vara de Rey بعد غياب القائد (فرانثيسكو رييس F. reyes) الذي كان في رخصة بإسبانيا، يقاومون[34] او على الأقل هذا ما كان

يبدو. كان من المستحيل الاتصال بهم. وظل الصمت يخيم على افراو، وكذلك الشأن بالنسبة للمقيم العام الذي لم يفتح فمه.

خلفت "البونيفاس" وراءها كل الحصون المحاذية للبحر، وبدأت تقترب من هدفها مليلية التي لاحت من بعيد. ومن هناك لمح "برنكر" جبلا من النار، كانت نيران "الكوروكو" تعد بالعشرات.

مدينة مجردة من السلاح وقيادة منهارة

وليلة الثالث والعشرين من يوليوز وعلى الساعة الحادية عشر، قطعت باخرة "البونيفاس" مضيق مليلية. كانت عاصمة الريف الإسباني تظن في هذه اللحظات انها تعيش آخر ساعاتها تحت هذا الحكم، خاصة بعد ان اكد نجل الجنرال "سيلفستري" نبأ وفاة والده، ووصلت لاحقا المئات -بل الآلاف- من المعمرين الفارين من غاريت Garet، والمناطق المنجمية لبني افرور. كل هذا تسبب في فقدان ثقة الشعب، حيث خيّم جو من الرعب على الميناء. كانت المدينة -وهي بدون سلاح- توشك ان تستسلم.

كان مجموع القوات العسكرية المتوفرة بالمدينة لا يتجاوز الفا وثمانمائة رجل، وكان متوقعا ان يقوم العدو في اي لحظة بهجوم جماعي في الفجر. خاصة بعد ان تمكن الريفيون من تجاوز خط "كرط" بكل سهولة، علاوة على ذلك، كانت كل الحصون في حاجة إلى مدفعية عصرية، فكل ما كان متوفرا من قطع حربية قوية كان موجها إما نحو البحر او كان لا يفي بالغرض، كقطع "كروب" على سبيل المثال، وأوردونييث Ordóñeez التي تعود إلى زمن مارغايو Margallo. كما ان الذخيرة لم تكن كافية، ناهيك عن معنويات الجيش التي كانت في الحضيض ولا سبيل إلى إنعاشها.

تفاقم الاستياء الشعبي، خاصة بعد ان تبين ان "البونيفاس" وصلت لوحدها دون قافلة كبيرة محملة بالجيوش. فما حاجة سكان مليلية لجنرال يصحبه حارسه؟ إنهم في حاجة إلى جيش لا إلى مقيم عام. فاشتعل فتيل التمرد وانهال الناس ضربا على الجند الحرس والبحارة المتواجدين بالميناء، فاحتدم الاشتباك بالأيدي وتم تبادل الشتائم المبتذلة والتهديدات بالموت، وحاول العديد الهجوم على الزوارق ومراكب النقل التي كانت ترسو هناك. وتدخل الجيش والقوات البحرية لتفرقة المتظاهرين والحد من الفوضى بكل ما أوتوا من قوة. وعاين "برنكر" هذا المشهد الدرامي، وبخيبة أمل أحنى

رأسه ليستمع للأخبار التي نقلها إليه "سانتيثث مونخي" Sánchez Monje، الذي صعد لتوه إلى البارجة. كانت الأنباء تتضارب حول انقطاع خطوط الاتصال مع "نفارو" في الدريوش، وسقوط المعسكرات الواحدة تلو الأخرى. والكوركو الذي بات قاب قوسين او أدنى من الضياع. لم تكن بمليلية قوات لحراسة المدينة، فبالأحرى إرسالها لنجدة الناظور وسلوان، وفي حالة إعلان قبيلة بني شيكر (التي كانت تحرس مليلية من الخلف في اتجاه الغرب) عصيانها، فإن المدينة ستسقط لا محالة. وفي الميناء كان في انتظار المقيم العام زمرة من أعيان الولاية الذين تم استدعاؤهم ببرقيات، وذلك قبل خروج "برنكر" من سبتة، فكان عليه أن يلتقي بهم هناك دون تأخير.

استحضر "برنكر" تلك اللحظات العصيبة وعبر عنها بهذه العبارات: «لقد كانت ساعات عسيرة حقا، احسستُ فيها بثقل المسؤولية، وتلمست تخبط وخوف شعب ينتظر من حاكمه، أن يحمله إلى بر الأمان...»[35]. تفرقت الجموع، لقد كان الوقت فجرا ولم يعد هناك ما يمكن انتظاره، فربما تقع المعجزة غدا، هذا إذا ما تأخر الريفيون قليلا ولم يهاجموا في الساعات الأولى. واسترجع "برنكر" ذكرياته، كان الشعور بالأسى عظيما وانت تتأمل هذا المشهد الحزين لتلك الحشود التي تفرقت في صمت وغم وهي تقصد بيوتها، وكلها أمل في غد مجهول. وعاش "برنكر" ليلة أسوأ من تلك التي قضاها "كورتيس" في "اوتومبا" Otumbra، ليلة خلدها في صفحات تاريخ إسبانيا بقوله: «لقد كانت بحق ليلة مأساوية لم يسجل تاريخنا مثلها...»[36].

كان الأعيان الريفيون ينتظرون بدورهم "برنكر"، وما أن شاهدوه حتى أعربوا عن ارتياب منطقي ومعقول، لأنهم مثل سكان مليلية، كانوا ينتظرون قدوم قوات ضخمة، وها هي إسبانيا تبعث لهم بجنرال منهوك القوى. لم تكن المسألة بالنسبة إليهم ولفترات مبعث ثقة ولا مبعث خوف، إذ الأغلبية قد اختارت المقاومة. فانصرف البعض من الميناء ومكث البعض الآخر، كان ابن شلال Chel-Lal، اكثر الحاضرين ارتيابا، وبجواره كان الشرفاء (أحفاد النبي محمد)، وامزيان الذين تأخروا في الانصراف ليطلبوا منه عدم تصديق كل الإشاعات والأخبار التي وصلته بشأن انشقاقهم عنه[37]. أما الآخرون، فقد ساروا على درب الخيانة، وتلك حالة ابن شلال زعيم بني أفرور، الذي أرغمته الأحداث وعواطفه وتخوفاته على تغيير مواقفه.

تحمس "روبيرتو كانو" Roberto Cano، احد كتاب مليلية، وبادر بمطالبة السلاح بهدف تكوين جيش من المواطنين المتطوعين. فكر "كانو" في الملازم فرنانديث طماريت قائدا مناسبا لهذه الكتائب المدنية، غير ان السلطات العسكرية تخوفت من افكاره التي تروم تنظيم ميليشيات، فرفضت إمداده بالسلاح[38].

وفي مدريد، كان المراسلون الصحافيون يحاصرون مكاتب "بوينابيستا". وكان "إيزا" على علم بان "برنكر" بات في مليلية، لا يتوفر على معلومات دقيقة عن الحادث، وهو بدوره يجهل ما يجب فعله في الضفة الأخرى. وبكل صراحة، ذكر للصحفيين المشدوهين قائلا: «لقد وصلت لتوي، ولا أعرف شيئا إلى حد الساعة، تعالوا إلى الوزارة وسامدكم بالأخبار لاحقا»[39].

وفي مليلية، كان "برنكر" يتاهب لإجراء مكالمة هاتفية مع "إيزا" في فجر الرابع والعشرين من يوليوز على الساعة الثانية صباحا تقريبا.

واثناء المكالمة الهاتفية، حاول المقيم العام ان يختصر في حديثه مع الوزير. فالكوارث التي حلت وتلك التي ما زالت في الطريق، جعلت "برنكر" يختصر في شروحاته ووصفه للدراما الإفريقية. لقد اخبر عن الحصار المضروب على سيدي إدريس وافراو، وبما ان الفوضى الشعبية التي تعيشها ارصفة مليلية ماتزال في أوجها، فقد ذكر لإيزا انباء نصفها حقيقي والنصف الآخر افتراء، حيث قال: «لقد وجدت الشعب في حالة نفسية سيئة، وهم ينتظرون بكل ثقة مساعدة الحكومة»[40].

وفي محاولة فاشلة لتصنع الهدوء، تحدث "برنكر" لـ"إيزا" عن عدم تمكنه من الاتصال "بنفارو"، وذكر ان الانسحاب الذي تزعمته البقية المتبقية من كتائب انوال، واصل تقدمه في اتجاه الباطل. وعلى ما يبدو، فإن هذه الفرق تحركت من جديد في اتجاه جبل اعرويت. في هذه اللحظات، شرعت في الوصول بشكل ارتجالي وغير منظم». (بعد كل هذه التصريحات) صور "برنكر" المأساة قائلا: «... لم يعد هناك شيء يمكن الاستفادة منه، فكل الأجهزة باتت تتخبط في فوضى كبيرة، واصبحت الذخيرة كلها تقريبا في يد العدو، وتبعثرت القوات وضاعت كل قياداتها». وقبل ان يعقب الوزير، بادره "برنكر" بقوله: «ولأن حالة المعدات الحربية يرثى لها، فإني أعلم ان معنويات الجند اسوا حالا، لقد دب الرعب في صفوف الجيش كله».

كان "إيزا" مايزال على صمته حينما انهى "برنكر" كلامه قائلا، «وفي كلمة واحدة، اخبرك بان الإقامة العامة لن تصمد طويلا، إذ لم يعد فيها شيء صالح، يجب بناء كل شيء من جديد»[41]. حينما علم وزير الدفاع بان جيشه قد ضاع، كانت الساعة تشير إلى الواحدة واربعين دقيقة من يوم الرابع والعشرين من يوليوز. ورغم انه توقع فقدان منصبه الذي سيظل شاغرا داخل الحكومة، إلا أنه استبعد انهيار النظام كما انهارت الإقامة العامة بمليلية.

استقبل إيزا الصحفيين في «بوينابيستا»، كانت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربع صباحا، حيث تقمص هذا الوزير دور ممثل بارع يجسد التفاؤل الرسمي، ففي مدريد الحزينة ليوم (الرابع والعشرين من يوليوز) لعب "إيزا" دورا مهما في مسرحية عبثية غير معقولة، حيث صرح قائلا، «إن انطباع الشعب في مليلية ممتاز، فقد لمس "برنكر" عند كل الناس روح تفاؤل كبيرة، وكل زعماء القبائل المجاورة للمدينة، قدموا مجددا ولاءهم لإسبانيا، ومن المنتظر ان يعاد تنظيم الإقامة العامة وترتيب اجهزتها في اقرب الآجال». واوضح اخيرا بانه لم يستلم بعد، بيانا لحجم الخسائر البشرية، وانه سيدلي بها في غضون يومين[42].

إنقاذ مليلية بفضل قَسَم ثلاث رجال بالانتحار ثلاث مرات

افزعت انباء انوال كل المستوطنين في اراضي افراو وجبهة كرط ومناجم ويكسان، وكذا جيوب الناظور وسلوان. وكان لهذه الأنباء وقع خاص في الشاحنات المحملة بالجرحى، والسيارات العسكرية التي تحمل على متنها الضباط المنكسرين، وقوافل فرق المدفعية دون آلياتهم، والكتائب المفككة. كانوا كلهم منهوكي القوى، ولهم نفس الوجهة، مليلية.

كانت مليلية تحتاج إلى يوم كامل لتسترجع انفاسها، وشرعت قيادات المقاطعات والفرق الكبيرة في الخروج إلى الجبهة. فقرر قائد فرقة إفريقيا "خمينس ارويو" Jiménez Arroyo، (الذي تم إيقاظه من منزله على الساعة الخامسة والنصف من صباح الثالث والعشرين من يوليوز من طرف ضباط الصف التابعين للإقامة العامة)، الخروج إلى "الباطل" رفقة

"التنينتي كولونيل بيكيراس" Piqueras ومساعده "القبطان خوصي دي لاما" José de Lama، فاستقلوا إحدى السيارات العسكرية، وفي أقل من ساعتين وصلوا إلى وجهتهم.

كانت الطريق إلى الدريوش مؤمنة، لكن "خمينس أرويو" فضل الاتصال هاتفيا. وعلى الجهة الأخرى من الخط، ومن الدريوش بالضبط اجابه "إنريكي" نجل الكولونيل، والح عليه بأن يستعجل نفارو بهذه التعليمات، كأن تبقى (المدفعية) بالباطل، وأن تجرى عملية انتقاء صارمة للجند المحملين على ظهر الشاحنات. فمن لم يكن بإمكانه البقاء، فبإمكانه متابعة السير نحو مليلية[43]. والحقيقة أن هذه التعليمات لم تكن أوامر، بل أنباء عن كارثة شمولية.

وفي الوقت الذي اتخذ "خمينس أرويو" قراره، اتصل به نائبه "غارسيا إستيبان" من المعسكر في سوق الثلاثاء، وهو المكان الذي كان من واجب خمينس أن يكون حاضرا فيه في تلك اللحظات، لأن خيرة جنده كانت محاصرة هناك. فكان جواب الكولونيل لغرسيا إستيبان بالصمود، حتى يرى إن كان بوسعه إمداده بالمساعدات[44].

وبوصول فرق الدريوش إلى الباطل في بلبلة وفوضى كبيرتين، ضاقت معنويات "فرانثيسكو خيمنس أرويو" الذي كان يبلغ من العمر خمسة وخمسين سنة. كان قد نسي تجربته في القتال، وكان له ولد لابد أن يسهر عليه. وحوالي الثالثة زوالا، قرر الذهاب إلى أعرويت إلى معرفة هل نفذت أوامره. فانتهز فرصة خروج سيارة فورد من الدريوش، والتي كانت تقل قبطانا وملازما وجنديا من فرق الخيالة، بالإضافة إلى ولد له كان ملازما ثانيا في الجيوش النظامية، فركب السيارة، وفي غضون خمسة عشر دقيقة وصل كل الفريق إلى أعرويت.

كانت الدهشة والتهاون تخيمان على أرض ستتحول في بضع دقائق إلى مقبرة للجيش، وكان القبطان "كاراسكو" قائد فرقة "ميليا" من الشرطة الأهلية المعسكرة هناك، يتحمل جزء من هذه الأفعال المؤلمة. وفور عزمه مغادرة أعرويت تاركا وراءه رجاله، تم ذبح كل من سولت له نفسه الفرار من المكان. لكن وقبل وقوع هذا الحدث المنزوع، قام كل من "كاراسكو" و"خمينس أرويو" وقبطان آخر غير معروف بفعل مشرف، تلخص في إرغام كل أولئك الذين كانوا على متن الشاحنات بالنزول. وقد اقتضى الحال تهديدهم بمسدساتهم حتى يمتثل الكل لأوامرهم. كانت فاجعة أنوال قد

افقدت الرجال صوابهم، فتحولوا من ابطال إلى انذال، وعاشوا تحت رحمة قوة متارجحة لا تعرف معنى للمقاومة او الصمود.

وفي محطة القطار، حل القبطان "لويس روانو إي بينيا" Luís Ruano y Peña الذي كان بانوال على راس البطارية الجبلية الثالثة، على الساعة الرابعة مساء، واحضر معه عددا من البغال، والكثير من الرجال العُزّل. وما ان رآهم "خمينس ارويو" حتى امرهم بالبقاء كلهم باعرويت. فاعترض القبطان بسبب نقص العلف ونقص الذخيرة والمؤن. فتراجع الكولونيل عن رايه وقَبِل ببقاء ثلاثة من الضباط ومائة من فرقة المدفعية. آنذاك سال "روانو" خمينس ارويو عما إذا كان ينوي المكوث باعرويت. ونفس السؤال كرره لكاراسكو، فاجابه الاثنان بالإيجاب والزموه امر التوجه إلى مليلية مع بقية قواته. تفحص "روانو" الضابطين معا، وعندما ادلى بشهادته قال: «لم الاحظ شيئا غريبا في مظهر الأول ولا في مظهر الثاني». كانت الساعة تشير إلى السادسة والأربعين دقيقة من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، وسارت البقية من البطارية الثالثة في اتجاه مليلية. وبمحاذاتها كانت هناك كتيبة اخرى تقصد نفس المكان، إنها بطارية القبطان "غالبيس" Galbis.

كان القطار الأخير يستعد للخروج نحو الباطل، فقصده كل من "خمينس ارويو" و"كاراسكو"، وما إن صعد الكولونيل إلى القاطرة حتى اصيب بحالة إغماء من جراء جلطة في الدماغ. لكنه كان يبدو في كامل وعيه. والدليل على ذلك، مطالبته بإحضار سيارته التي صعد إليها دون عناء، فانطلقت السيارة. اندلعت الفوضى باعرويت، حيث انتفضت عناصر الشرطة وخرجت من معسكراتها، ففتحت النار على الجيش، وعلى كل اولئك الفارين الذين كانوا مايزالون يتوافدون على المعسكر.

واصل "روانو" طريقه صحبة اتباعه في اتجاه سلوان، فلحقت بهم إحدى السيارات التي توقفت. كانت الدهشة كبيرة حين اكتشف ان "خمينس ارويو" و"كاراسكو" كانا على متن هذه العربة. اشار "كاراسكو" لزميله "روانو" بأن الشرطة تطاردهما في الخلف. فحسب القبطان انهم فرسان قادمون لحماية رجاله، لكن تبين له فيما بعد ان الشرطة السالفة الذكر، ما هي إلا مجموعة مكونة من اربعة رجال يمتطون صهوة جيادهم، مروا عليه دون التفاتة وولوا وجوههم نحو مليلية[45]. وفي الواحدة صباحا، وصل "روانو"

وفرقته الصغيرة إلى الناظور، وبعد استراحة استمرت ساعتين، وصلوا إلى مليلية على الساعة الخامسة والنصف صباحا.

وصبيحة الرابع والعشرين من يوليوز، وصل إلى الناظور قطار محمل برجال معنوياتهم في الحضيض. كان "ريكاردو فرنسو أورثايث" Ricardo Fresno Urzaáz، الضابط الشجاع من الحرس المدني يقوم بعمليات تفتيش بالمحطة. وتلخصت دورياته في إنزال الجند المسلحين من القاطرة، وعرضهم على "باردو اغودين" Pardo Agudín. ولم يسلم من هذه العمليات سوى اثنين أو ثلاثة من الجنود الذين كانوا يسهرون على امتعة الكولونيل خمينس أرويو الذي اعطى تعليمات بذلك[46].

جاءت نجاة مليلية على يد ثلاث رجال شجعان وهم، زعيم قبيلة بني شيكار، الذي اقنع رعيته بعدم التمرد. وضابطان إسبانيان اثنان -نجهل اسمهما- قدما له مساعدة قوامها ستين او ثمانون رجلا فقط. واقسم الثلاثة بالانتحار، إذا لم تصل المساعدات من إسبانيا.

وقد روى هذا الرهان المرعب -فيما بعد- النائب "نوغيس" Nogués الذي اوضح انه بفضل ملازمين اثنين من الشرطة الأهلية، ومورو واحد يعرف اليوم باسم القايد عبد القادر، لم يدخل الموروس إلى مليلية. واقتضت الضرورة بأن يعرض هؤلاء الضباط على المورو الموالي لإسبانيا مسألة انتحارهم معه،[47] فجاءت نجاة مليلية عبر ثلاثة وعود بالانتحار.

المستوطنون بين القتل والنهب

اقتحمت ثلة من المعمرين في فجر الرابع والعشرين من يوليوز، إلى جانب فرق مشتتة اخرى مدينة مليلية. ووصلتها هذه الجموع مرورا بطريق الناظور والمسالك التي تصب فيها انطلاقا من الزغانغن Segangan وسان خوان. كانت الكتائب عبارة عن حشد غير متجانس، يجر عددا غير قليل من العربات التي اغلقت الطرقات للحظات. وفي خضم هذا الضجيج والصخب، تمكّنت مائتان من الأحصنة المحملة بالمدافع والمؤن بقيادة ضباطها[48] من المرور في تماسك. كان رجال "غالبيس" Galbis من الأوائل الذين عبروا الطريق.

كان الكولونيل "فرنانديث طماريت" في الصفوف الأولى بضواحي مليلية، كان عمره يناهز الثمانية والأربعين سنة، وكان في رخصة مرضية سببها الم حاد في العين. لكن وبعد معرفته بالأحداث، التحق بموقعه.

بعد ان راى "طماريت" هذا السيل المنهمر من البشر، ادرك صعوبة عبور إيزومار، ففسح المجال لهذه الحشود، واوقف الجنود العزل، وسأل "فالديس" و"فرنانديث بينيدو" Valdés y Fernandez Pinedo، ضباط طابور إفريقيا عن سبب تخلفهم عن ركب جنودهم وما قصة اسلحتهم. فارتبك الضابطان واجابا بصراحة انهما سلما سلاحهما لزملاء كانوا في حاجة إليه. دوّن فرنانديث طماريت هذه التصريحات ومرّرها لكولونيل الفرقة الذي لم يكن سوى خمينس ارويو[49] الذي لم يفعل اي شيء.

كانت قنطرة "تريانا" التي تربط طريق الناظور بمليلية، قاعدة للقبطان خوصي غرسيا اغوجا" José García Agulla، والملازم "فاليرو بريث اونداطيكي" Valero Pérez Ondategui من الحرس المدني. وكانت برفقتهما زمرة من الجنود. واحتداء بـ"فرنانديث طماريت"، سمح الرجلان للمدنيين الفارين بالمرور، وركزوا اهتمامهم اكثر على الجنود. وفجاة لمحوا من بعيد اناسا يزحفون في تثاقل عبر الطريق، فحسبوهم جنودا، وباقترابهم ادركوا انهم ضباط هاربون، إذ لم تكن على ستراتهم الحربية اوسمة ولا شارات شرفية، فتركوهم.

كانت مسألة الحياة او الموت بالنسبة للمعمرين رهينة بتصرفاتهم القديمة مع الريفيين، فبمنطقة بوشادا مثلا، قُتل مهندس وسبعة من العمال. في حين اعتقل بونيلا Bonila، رئيس العمال. وأُخذ إلى منزل القايد الحاج اعمار (صاحب تلك الأراضي) الذي دفع فدية لشراء حريته. اما "البطيرا" Albatera من جهة كرط، فقد ادى ما مقداره خمسة آلاف بسيطة ثمنا لحريته، بعد ان نهب له حدو بن عيسى الحيوانات ومعدات الحرث.

وباراضي افراو، حيث وكالة "سوطولاثار" Sotolazar، التي كانت تقوم بمجموعة من التنقيبات المنجمية، حصل "خوصي خمينس غاريدو"José Jiménez garrido وعائلته على حماية، منحها إياهم عامل قديم يعرف بميمون الذي اخذهم إلى بيته. وبعد ان امنهم لمدة ستة وخمسين يوما، تفاوض مع زعيم الحركة (عبد الكريم) بشان حرية الرجل. لكن الأسوا هو ما سجل مع احد المعمرين الفرنسيين "إدموندو شفاول"

Edmundo Chaffaeul، فبعد هروبه من مزرعته في "زايو" رفقة عائلته وامتعته، باغته في الطريق احد المورو الهاربين من الجندية، فنهب منه الملابس وبغال العربة. ولم يكتف بهذا القدر فقط، بل جرح زوجة المستوطن في محاولة لسرقة خاتمها، وكاد ان يقتل رضيعها الذي لم يتجاوز الشهر الواحد، حيث اسقطه بعنف على الأرض، لكنه نجا بفضل امه التي احتضنته بجسدها[50].

الملحمة المزيفة لمدافعي البئر رقم 2

وبعد زحفهم نحو اعرويت، ترك رجال "نفارو" في الخلف مجموعة من المواقع والحصون، اثنان منهما عاشتا حدثا افرز ما يشبه بطولة عظيمة، ما لبثت ان تلاشت باكتشاف ان المسالة لم تكن سوى خدعة دنيئة.

فعلى يسار الطريق بين الدريوش -الباطل، كانت توجدضمن المراكز الواقعة هناك ثكنة دار ازوكاش والبئر المعروف (بالبئر رقم 2). وكانت هذه القشلة بمثابة حصن، يتسع لحامية صغيرة مكونة من خسوس ارينثا لاندا Jesús Arenza Landa، ورفائيل ليلو Rafael Lello، وخسوس مارتينيث طريو J. Martínez Terrio، وإميليو مونيرا Emilio Muniera، واخيراً رفائيل صوردو كوليو Rafael Dordo Colio. فالستة كانوا يحرسون محرك البنزين الذي كان يستخرج الماء من البئر. هذا الماء كان حيويا بالنسبة لكل سكان المنطقة.

كان "ارنثانثا" Arenzanza [51] رئيس الفيلق العسكري، قد اتخذ قراره بالمقاومة. في حين واصلت المواقع المجاورة احتضارها الواحدة تلو الأخرى. وأمام استحالة الوصول إلى الباطل، حيث كان نفارو مايزال يقاوم، قررت جموع الفارين السطو على البئر رقم 2 واتخاذه ورقة للنجاة. وهذا ما فعله الجندي سيلفيريو كورشادوSilverio Corchado، والمساعد خواكين رودريكز بريرو J. Rodríguez Barreiro.

ميدان الحرب، وفي محاولة منه لاستعراض ملحمته الحربية، صور ارينثانثا خاصة بعد صموده في وجه العدو ثانية، حيث قال: «لقد قمنا بجولات استطلاعية واحصينا ثلاثة واربعين جثة للريفيين في ملابسهم الداخلية، لكنهم لم يكونوا مسلحين»[52]. وتلك ملحمة حدثت في الثلاثين من شهر غشت.

وفي اليوم الموالي، التحق بمنطقة البئر رقم 2 الملازم إلدفونصو رويث طبيادور غوادالوبي Ildefonso Ruiz Tapiador Guadalupe، الذي كان رئيسا لفرق دار ازوكاش. كان ضابطا شابا -عمره عشرين ربيعا- وقد وقف هذا الضابط مشدوها أمام سلسلة الكوارث التي كان شاهدا عليها. فلم يشأ ان يخلع "ارنثانثا" من منصبه، وذلك لشعوره بالتعب والعياء الشديدين. وحسب الشهادات الكاذبة (كما سنبين) للقائد، فإن الملازم لم يشارك في القتال الذي اعتبره ضربا من ضروب الانتحار.

كان منبع الماء الذي يحرسه أولئك الرجال التسعة، جد مهم بالنسبة للريفيين وقطعان ماشيتهم. احتكر الإسبان هذا الماء (الذي كان بمثابة الحياة)، وشاء العدو الريفي ان يتنازل عن هذا المورد الحيوي، واقتضت الظروف ان تبرم اتفاقية سلام محلي بين الطرفين، كانت فعالة وفريدة من نوعها. وامتدت منذ الرابع والعشرين من يوليوز إلى غاية الخامس من غشت 1921.

وحسب تصريحات ارنثانثا، فقد غادرت الفرقة البئر فور انتهاء بنزين المحرك، واستطاعت العبور إلى المنطقة الفرنسية. وشاءت الأقدار ان يعترض رجلان ريفيان سبيلها، لكن ارنثانثا قتل بيده واحدا منهما، وانتهز لحظة غفلة، وفعل نفس الشيء مع الآخر فارداه قتيلا بمطرقة[53].

اعتبر الرأي العام هذا القائد بطلا مغوارا، في حين تعددت السخريات بشأن الملازم الفاتر الهمة. وشهد الكل -ماعدا صوردو Sordo- بهذا الحكم أمام بيكاسو فصدقهم. كانت الحكاية جد محبوكة لا يشوبها شك، وتأخرت الحقيقة عن الظهور. لكنها تكشفت في يناير 1922. وكان بيكاسو من الأوائل الذين اطلعوا على الخبر وبادر، بدوره إلى إخبار فرنانديث طماريت، الذي كان لا يشك في براءة ارنثانثا. فنزل الخبر كالصاعقة على هذا الملازم، وتألم من هذه المجازفات. ونتيجة لذلك، فتح تحقيق مضاد يطالب بمنح ارنثانثا وسام البطولة. ولم يغلق ملف المتابعة -الذي كان يضم مائة وخمسة وتسعين ورقة- إلا بحلول الثالث عشر من اكتوبر 1925، حينها تقدمت النيابة العامة للمجلس الأعلى بملخص لكل الشهادات التي تم الإدلاء بها. حيث أورد انه وبعد هذه التصريحات حول الصراع حتى الموت مع الريفيين الاثنين، التي حفظها المحامون عن ظهر قلب كما يبدو، تحرك شيئا ما بداخل ارنثانثا. لعله الضمير الذي اجبره على

كتابة اعتراف بخط يده، تضمنته الصفحات الثمانين أو الثلاثة والثمانين، يؤكد فيها عدم صحة الأقوال الواردة بشأن الدفاع عن الحصن.

وبواسطة الاعتراف الجديد لأرنثانثا، أعاد المدعي العام صياغة الحقيقة فقال، «بحلول الثامن والعشرين من غشت (لسنة 1921)، وبعد التيقن من عزلتهم واستحالة الدفاع عن أنفسهم، ارتأى الرجال التفاوض مع العدو على قدر المستطاع. فأخذ الريفيون البئر واعتقلوا الإسبان الذين سلموا أسلحتهم للقائد حَمُو، وتلك اعترافات أدلى بها أرنثانثا نفسه»[54]. وحيال هذه الأحداث المخزية والمخجلة، التزمت المؤسسات العسكرية الصمت. فقد فقدت البلاد في شخص أرنثانثا بطلا شعبيا، في حين كان هناك أبطال حقيقيون آخرون.

خيانة في "بوحفورة"
وصخب مقاومات يُدوّي من بعيد

كانت بوحفورة تابعة لمقاطعة الدريوش، وكانت المنطقة الوسطى -أ- تابعة لأنوال. وعرفت المنطقتان المتوغلتان في الجبال المعزولة، تظاهرات واسعة النطاق في نفس يوم الثاني والعشرين من يوليوز. وعاشت بوحفورة يوما آخر قبل حلول الخراب والدمار.

وكان "أنطونيو ريغ باليرينو" Antonio Reig Valerino، الذي يبلغ من العمر تسعة وعشرين سنة، ضابطا يرأس المدفعية في بوحفورة. وكانت تحت إمرته قوات كبيرة مكونة من ثمانية ضباط ومائتين وخمسة وستين من الجند (مائة واثنتان وعشرون منهم إسبان، ومائة وثلاثة وسبعون من شرطة الأهالي)[55]، التي ستخون الإسبان، فغرقت بوحفورة في خيانة شاملة.

تواردت الأنباء حول سقوط أنوال، ونصح القايد حدو القبطان رفائيل كابابلانكا مورينو[56] بإخلاء الموقع. لكن هذا الأخير وبصفته ضابطا للشرطة الأهلية، أبى إلا أن ينادي على شيوخ القبائل المجاورة من أجل الاحتفاظ بهم داخل المدينة رهائن...[57]، وبهذا، يكون قد وقّع على وثيقة الحكم بالموت على رجاله دون أن يقصد.

اقترب الريفيون من بوحفورة، وبادروا بإطلاق النار. ودون تردد أصدر كابابلانكا أوامره للشيوخ بالتمركز عند الأسوار والتحدث مع المهاجمين[58]. وهكذا تم إيقاف

الهجوم وسجن الشيوخ في إحدى الخيمات. وبعد برهة، ظهر محمد نجل حَدُو الذي اعرب عن رغبته في إرسال برقية إلى الكولونيل رئيس الشرطة الذي كان في الدريوش. كانت الخطوط مازالت صالحة، وقوبل طلبه بالقبول. فجاء في برقيته التي كانت موجهة لمورالس الذي كان قد لقي حتفه، ما يلي، «إذا كنت تثق بي، فابعث إلي بقوات وذخيرة إلى مراكز بوحفورة وميضار، وإن لم تجب طلبي فسأضطر إلى الانسحاب إلى قبيلتي رفقة رجالي». وحدث ما لم يكن متوقعا، فالذي اجاب هو الجنرال "نفارو" نفسه، الذي اصدر امره بتسليم صندوق من ذخيرة البنادق. فسلمه "كابابلانكا" إلى نجل الشيخ المذكور[59]. وهكذا اصبح المهاجمون مسلحين.

ارخى الليل سدوله على بوحفورة، وعلى الساعة الرابعة والربع من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، جاءت الأوامر من الدريوش بالانسحاب نحو شيفت، (اهم المراكز القريبة). وحدث أن اتفق الضباط الثمانية (القبطانان رفائيل كابابلانكا، ولويس لاثي دي اغيلار Luís Lacy de Aguilar والملازمون انطونيو انطون بلاثيو Antonio A Palacio وفرانثيسكو مالدونادو مير Francisco Maldonado Mir، وانطونيو كيروا مولينا Antonio Quero Molina وريغ باليرينو Reig Valerino ورامون روديرو سرانوRamón Rodero Serrano ومانويل سوسا كساني Manuel Sousa Casani) المجتمعين في مجلس الحرب، على البقاء[60]. في حين كانت الخيانة تشق طريقها في صمت، حيث اقتربت مجموعة من رجال القبائل من الأسوار، وحددوا مكان الخيمة التي يحتجز فيها شيوخهم، وفتحوا في الحائط ثلاث فتحات اشار إليها بيكاسو الذي اعتدنا منه هذه الدقة في الوصف، في رسمه التخطيطي لهذا المعسكر. سلموهم من خلالها الأسلحة والعتاد دون أن يحس الحرس بشيء. وبذلك ضاعت بوحفورة.

ومرت صبيحة الثالث والعشرين من يوليوز، كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء، كل شيء كان يبدو هادئا في بوحفورة. كان القبطان لاثي Lacy، يقوم بدوريات عسكرية. وبوصوله إلى مكان الخيمة، ربما لأنه احس بما كان يدبر، واشتعل فتيل الثورة. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والربع، وبالاستماع إلى تصريحات ريغ Reig، أشار بيكاسو في رسمه التخطيطي إلى مكان الحادث المشؤوم بحرف "X" و"B"، مذيلا ذلك بتوضيحات تقول، «هذا هو المكان الذي توفي فيه الكبطان لاثي»[61]، اما ريغ الذي كان على راس البطارية -المكونة من اربع مدافع متآكلة من نوع كروب- فكان لديه

متسع من الوقت لتحريك إحدى قطعه الحربية، خاصة الدبابة الأولى على اليسار والتي اشار إليها بيكاسو -المدقق دائما- بالحرف "C". وفتح رييغ النار على المنزل (الزنزانة) محدثا ثقبا كبيرا ومخلفا عدة ضحايا بالداخل. وبالمقابل سيطر العدو على المقهى الصغير المجاور للمعسكر. بيد ان احد الضباط (غير المعروفين) تصدى وبشجاعة لهذا التهديد بواسطة حربة بندقيته، لكن المقاومة اصبحت مستحيلة. وبذلك ضاع المقهى الصغير وولج الريفيون المكان، وسقط كابابلانكا ومعه كل الضباط باستثناء رييغ الذي ترك وشانه احتراما لمهمته بصفته مدفعيا. كان الوقت كافيا له لتعطيل بطاريته، بالرغم من ان العدو كان قد سيطر على اثنين من المدافع الصالحة وعربة محملة بمائة وسبعة وعشرين قذيفة[62].

وبقي رييغ وعشرون آخرون على قيد الحياة، لم يسلم منهم سوى ثلاثة اشخاص وهم: النائب سلفادور غونثاليث Salvador Conzaléz، والجندي ايوستاكيو البثيتي Eustaquio Albacete، ورييغ نفسه. وبحلول الظلام على بوحفورة سمع الملازم دوي عيارات نارية صادرة من تاواردا، أطلقها جنود المنطقة الوسطى -أ-. واستمر رييغ في سماع هذه الأصوات لمدة ثلاثة ايام او اربعة. وسيخبره بالأحداث القايد حدو. وسيق رييغ إلى انوال حيث كان هناك ما يناهز ثلاثمائة وتسعة عشر أسيرا. ويوم الثامن عشر من غشت، تمكن من الفرار[63] والوصول إلى مليلية رفقة جندي جريح. وقد قيل إن الاثنين تنكرا في الزيّ الريفي ليصلا إلى مليلية. وصرحت الإحصائيات الرسمية وقتها بغياب ثلاثة واربعين قائدا من شرطة الأهالي، زيادة على اثني عشر من ضباط الصف، وستة من المترجمين[64].

"لعبة خبيثة" بمنطقة سمار

وبجوار مليلية، في جبال بني شيكر غرب مليلية، كان يوجد سمار Sammar، وهو موقع في الجانب الشمالي لخط كرط. وفي الرابع والعشرين من يوليوز تمت محاصرته. ومن المشاكل العويصة التي طرحت، كان مشكل الماء الذي يجب جلبه من مكان يبعد بثلاث كيلومترات[65].

ثلاثة وثمانون رجلا كانوا يدافعون عن سمار (اربعة واربعون منهم من الأهالي). وبالرغم من قلة هذا العدد[66]، فإن المكان كان يحتضن أربع مدافع من نوع كروب

وعيار 88 مليمتر. وكان على راسها جندي واربعة عساكر من فرق المدفعية، وكان هذا الجنون في حد ذاته إجراميا، لأن استخدام مدفع واحد من تلك المدافع كان يستلزم خمسة عشر رجلا[67]. اما ضباط القشلة فكانوا هم: القبطان والدكتور مانويل بريس طورس، والملازمون ريكاردو ساينث اندرو -على راس فرقة الشرطة- وخوان ماركو مير Juan Marco Mir، الذي كان قائدا للمعسكر. وتجدر الإشارة إلى ان القبطان بيريث كان يدير مستوصفا أهليا، وهو ما يفسر وجوده بمنطقة نائية صغيرة كسمار.

ويوم الرابع والعشرين من يوليوز، خرجت القافلة كعادتها نحو إشافين -الراس العسكري للمقاطعة- يحرسها اربعة من الجنود وثلاثة عناصر من الشرطة، ممتطين صهوات جيادهم، لكن العدو اعترض سبيلهم، ففرت الشرطة مع الطلقات الأولى[68]. وبخصوص النقص الحاصل في المؤن، قامت الشرطة بحل هذا المشكل بذبح بقرة، وإحضار بقرتان اخريتان إلى الحصن[69]، وظهيرة نفس يوم الأحد الرابع والعشرين، شاهد الجندي آنخل طورس Ángel Torres، كيف ان ثلاثة من الضباط كانوا يتفاوضون مع أحد النواب المورو بشان الاستسلام، حيث اقترح عليهم تسليم سلاحهم وتوليه هو حراسة الحصن، وحسب تصريحات القائد إيدالغو Hidalgo، فإن ملازم الشرطة (ساينث) حاول إقناع ملازم مليلية (ماركو Marco) بتسليم الحصن والسلاح إلى رجال الأمن. وبالرغم من ضغوطات زميله الذي كان يعتبر الوضع خطيرا[70]، فإن ماركو امتنع عن تسليم السلاح. والأدهى من ذلك، امتناعه عن الذهاب إلى الثكنة عبر الحقول، وذلك لتخوفه من الخيانة.

وعند اقتناع الملازم، ذهب المساعد لإحضار عناصر من عائلته، من بينهم مجموعة من النساء جئن للذهاب مع الجنود غير المسلحين...[71].

كان ماركو على علم بان الأهالي الموالين لسانث، ينتمون إلى المداشر المتاخمة لسمار، الشيء الذي جعله يشك في صحة ولائهم. لكن التفاهم في الراي الذي اعرب عنه كل من سانث وبيريث اذهل ماركو، الذي لم يجد من حل آخر سوى قبول الاستسلام رغم اشمئزازه من الأمر. فاستسلم الجنود لقدرهم وتنازلوا عن السلاح. وبهذا يكون الملازم سانث قد فتح للعدو الباب على مصراعيه.

خرج الإسبان وكان الضباط يحملون مسدساتهم[72]. وكان الجنود المساعدون يسوقون البغال، وتقدم الركب صحبة مجموعة من النساء الريفيات، لكن الشرطة الأهلية لازمت اماكنها ولم تتقدم معهم، فارتاب ماركو للأمر وسأل سانث، «الم تقل بأن الشرطة سترافقنا». فحاول زميله ان يهدئ من روعه بقوله، «إن القوات ستظل هناك لحراسة المكان، ولن يجرؤ أحد على اخذ شيء من الحصن»، فاستشعر ماركو الخطر الذي لاحت بوادره بسماع دوي طلقات نارية، حاصرهم بعدها المورو... واعتقد الرهائن ان هذه الطلقات ما هي إلا إشارة لهجوم مرتقب، ففرت الريفيات في اتجاه المهاجمين وعمت الضجة في المكان. فاستغل ضابط الشرطة هذا الموقف وامتطى جواده. فتعجب ماركو قائلا، «ترجل عن حصانك يا سانث، إنك ستؤدي بنا إلى الهلاك». لكن سانث وكز حصانه وهرب، وفي طريقه اسقط (إيدالغو) لكثرة انتقاداته[73].

وانضم بيريس Peris إلى سانث في هروبه، وبقي ماركو وحيدا مع رجاله الذين التفوا حوله، لقد تعرّض للخيانة، وقتها تحدث الملازم إلى رفقائه في يأس قائلا، «ابنائي، إننا ميتون لا محالة، فمن كتبت له النجاة، فليصرح بالحقيقة»[74]. وركض الجميع في اتجاه الشاطئ القريب، وركض آنخيل بيريث كذلك رفقة ملازمه، وما هي إلا لحظات حتى سقط جريحا، فتردد رفيقه في مساعدته، لكنه واصل ركضه. فداهمه الريفيون وانقضوا عليه، وبعد ان جردوه من ممتلكاته القليلة والثمينة سمحوا له بمواصلة الطريق في اتجاه مليلية، لكن الأمر كان مختلفا مع بيريس Peris، الذي تم أسره بعد إصابة حصانه. وبعد ان نهبه الريفيون، اخذوه إلى منزل التقى فيه بالملازم سانث Sanz من الشرطة[75]. ومن هناك خرج الاثنان صوب مليلية، وفيما بعد تمت محاكمتهما.

طالب والد ماركو مير وهو السيد خوان ماركو روكامورا Juan Marco Rocamora، أستاذ الفروسية، بفتح تحقيق في هذه القضية. فحُكم على بيريس بسنة من السجن النافذ، وحرم من مزاولة عمله، أما سانث، فتم اعتباره متمردا فرّ من مليلية بعد ان وجد نفسه محاصرا. هذا ولم يذكر شيء عن الوسام المطالب به لتكريم الملازم ماركو. ومضت الشهور، ويوم الثالث عشر من مايو 1922، ورد على جمعية الإغاثة وتعاضدية فرقة المشاة، بلاغ مفاده انه منذ يومين بالتحديد، تم دفن جثة الملازم دون خوان ماركو مير، التي عثر عليها عند موقع السمار. ومن المفترض ان تكون وفاته قد جاءت نتيجة لتأثره بالجراح التي احدثها العدو[76].

ورود حمراء على موقع "المنطقة الوسطى أ"

كانت منطقة تاوَرْدا Tahuarda، عبارة عن كتل كبيرة من الصخور والأحجار الرملية، وهناك كانت "المنطقة الوسطى أ". كانت الدريوش بعيدة جدا، لدرجة انها كانت تتخيل إليك من بعيد وكانها لعبة اطفال. وكانت الكتيبة الصغيرة والمكونة من ثمانية وستين من المشاة، وإحدى عشر مدفعية واربعة جنود من المهندسين المسلحين بمدفعيتين رشاشتين، وقطعتين حربيتين من عيار 70 ملم، يتراسها القبطان إسكريبانو Escribano، الذي تلقى فيما بعد مساعدات الملازمين داريو فرنانديث رايغادا Darío F.Raigada، وانطونيو ماركيث طيشيا Antonio Márquez Tellechea، وانطونيو ميدينا دي كاسترو Antonio Medina de Castro. هذا الأخير كان رئيس البطارية الحربية، اما ميدينا Medina فكان ينتمي إلى الفوج "206". ومنذ عامين وخلال فصلي الصيف، كان مايزال في شيقوبية يتابع دراسته.

كان اصله من بلد الوليد، وبالضبط من منطقة سيرادا Serrada، وكان يبلغ من العمر اربعة وعشرين عاما، وتحت جبهته العريضة وابتسامته الصريحة وتصرفاته الصبيانية، كانت تختفي علامات الأبطال، وكذا علامات العاشق الولهان. كانت له خطيبة في خيرونا تدعى روسا مرغاريطا برسلو Rosa Margarita Barcel، وكان يراسلها يوميا. فمن انوال التي عين بها، كتب الملازم إلى محبوبته (بتاريخ السابع من مارس) هذه العبارات: «إذا حصل ونظرت إلى السماء، نظرتي تتجه صوب النجوم وتعانق روحي روحك. المعسكر يغط في نوم عميق، وضجيج آت من بعيد، إنها سكرة نور سماوي. احبك روسا مارغاريطا، يا حياتي الجميلة، احبك صغيرتي»[77].

كان قبطان "انطرميديا أ"، وهو السيد خوصي إسكروبانو اغوادو من قدماء المحاربين المنتمين إلى فوج 1909، وهي السنة التي انجز فيها حملات عسكرية دامية في كل من خنادق الكوروكو وحقول الناظور. ومنذ سنة 1912، وهو يتباهى بأوسمة القبطان التي منحت له. كان ينتسب إلى مدينة طليطلة، وكان عمره ثمانية وثلاثين عاما، كما كان ابن العسكري القبطان انطونيو إسكريبانو اونسونبيAntonio Escribano Onsunbe[78]، وكان على راس كتيبة مكونة من خمسة وثمانين رجلا، من بينهم ثلاثة ضباط[79]. تعرض القبطان لنفس ظروف زميله بيريث غارسيا، إذ لم تصله تعليمات ليس فقط من انوال ولكن

كذلك من الدريوش، إذ نسي المكلف بالبرقيات إخباره بأمر الانسحاب[80]. ومصائب قوم عند قوم فوائد، إذ نزل هذا الأمر بردا وسلاما على نفارو، الذي انسحب بسهولة. وذلك لأن فرق "انطرميديا أ" كانت قد استمالت عددا لا يستهان به من الريفيين. وحذق الخطر، وخيّم شبح الموت على إسكريبانو ورجاله ماعدا انطونيو طافيرا مورالس، الرجل الوحيد الذي تمكن من البقاء حيا.

صمد إسكريبانو ورجاله طويلا، وقُدّر لهم أن يشهدوا مرور الموكب المأساوي للفارين من أنوال، ولم تصل إلى الدريوش أية مساعدات. ورغم ذلك، لم تفتر همّة الجنود الذين واصلوا إطلاق النار ورفضوا أية مساومة للاستسلام. وهو ما أدهش الريفيين الذين اعتادوا الظفر بالمواقع الإسبانية بسرعة. لم تستسلم "انطرميديا أ" إذن، وظل العلم الإسباني يرفرف خفاقا في الأعلى، وكأنه ذلك الجزء العلوي في سفينة تبحر في أيام "ترافا لغار". وواصلت الحَرْكة هجوماتها مخلفة العديد من القتلى والجرحى في صفوف الإسبان. ومع ذلك، رفضت الفرقة التي كان يرأسها ضباط أكفاء أية مساومة. فلم تتوقف البطارية بقيادة ميدينا Medina عن إطلاق نيرانها. هكذا إذن، لم يكن أحد في"انطرميديا أ" يعرف معنى للتكاسل أو التقاعس.

ومرت ظهيرة الثاني والعشرين من يوليوز، وتبعتها ظهيرة الثالث والعشرين، وتبقى "انطرميديا أ" لوحدها، ولم تعد الدريوش سوى مصدر لأعمدة الدخان الكثيف. ذهب نفارو تاركا وراءه موقعا كان بالإمكان أن يكون أحسن مواقعه الدفاعية، واتجه صوب أعرويت التي لقي حتفه عندها الجيش، وخلفه بقيت "انطرميديا أ" تنتظر الجواب من مدريد بعد مراسلات وتلغرافات أعلنوا فيها عن تربص العدو من كل جانب. لكن مدريد ظلت على صحتها[81]، وأدلى كل من الطبيب بنيا Peña وملازمو المدفعية ريبغ، وغوميث لوبيث، بشهادات ضد الإهمال، وشهدوا بالصمود البطولي لكل من اسكريبانو واتباعه.

وليلة الرابع والعشرين من يوليوز، أعد اسكريبانو عدته وحاول الانسحاب. وما أن تخطت الفرقة الصغيرة الموقع ببضع خطوات حتى وقعت في قبضة العدو. وأبى القبطان إلا أن يبقى بجانب فرقته التي طوقها العدو في محاولة منه لمنعها من الخروج[82]. وحدث أن استغل الجندي طفيرا Tavira هذا الظرف ففر بجلده. كان يريد اللحاق بنفارو بتيزطوطين وبعدها الذهاب إلى مليلية.

واصلت فرقة "المنطقة الوسطى أ" مقاومتها، فسقط الملازم ميدينا قتيلا رفقة مدافعه، لكن بطاريته واصلت إطلاق النار. ويومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من يوليوز، سقطت سيدي ادريس وافراو، لكن فرقة "المنطقة الوسطى أ" التي كانت آخر معقل إسباني في ريف "سيلفستري"، استمرت في صمودها الشامخ بين صخور تاوردا.

وفي غضون ساعات أخرى، فرضت الحقائق نفسها، نقص في المياه، ونفاد في الذخيرة والمؤن. كان لابد من التفاوض، وذلك يوم السابع والعشرين من يوليوز (وحسب شهود عيان كان اليوم يوم الخميس). وبالرغم من أن الحديث عن الاستسلام كان أمرا ترفضه كرامته، فإن القبطان خرج من الموقع بغية التفاوض بشانه، فالتفت حوله كوكبة من أعيان القبائل -وعددهم أربعة حسب شهود عيان- فذهب معهم إسكريبانو للتفاوض الذي استغرق مدة طويلة. وفي لحظة معينة تضايق إسكريبانو وشك في جملة قيلت، وحركة صدرت ونظرة القيت، فتنبه إلى أن بعض المجموعات الريفية شرعت في اقتلاع أوتاد السياج، فاشتم القبطان ريبغ Reig رائحة الخيانة تتطاير في الهواء، فهمّ باستئصال الشر من جذوره. فانفصل عن المفاوضين وأسرع خطاه في اتجاه السياج، وأصدر أوامره لجنوده بإطلاق النار. فكانت نهايته هناك، وسقط إسكريبانو إثر إصابته بطلقة نارية من تلك التي كان يطلقها رجاله، وربما إثر طعنة غادرة استهدفته من الخلف، فهوى واختلط مع الأهالي. كانت الضربة قاضية ودقيقة، إلى درجة أن الصفوف الريفية انهارت عن آخرها، حيث علم من مصادر وصلت إلى الملازم ريبغ أن حصيلة الوفيات في صفوف الأهالي بلغت ثمانين قتيلا. لكن الحركة استرجعت أنفاسها، وانقضت على الموقع في موجة لا يمكن حصرها. وعلى ما يبدو، بقي شخص آخر على قيد الحياة، فالتقى في أعرويت بزميله طافيرا الهارب، فروى له تفاصيل الملحمة. وفي أعرويت نفسها، لقي هذا الجندي المجهول الهوية حتفه، في حين تمكّن طافيرا من الفرار حيا من تلك المذبحة[83].

وصلت أنباء عن بطولة فرقة "المنطقة الوسطى أ" إلى حدود أجدير، وهو أمر أورده المدعي العام في الدعوى المضادة لفائدة وسام الشرف لاسكريبانو (في مايو 1924)، حيث قال: «إنه لمن دواعي الشرف والعزة أن نتباهى بالتعليقات التي تداولتها الأوساط الريفية المتمردة، والتي صدرت مؤخرا بشأن تحركات أفراد هذا الموقع...»[84].

كانت بطولة إسكريانو ملحمة عظيمة بالنسبة للريفيين، لا بالنسبة للإدارة العسكرية الإسبانية فقط، والتي تبين انها العدو الحقيقي. ولم تفد في شيء مرافعة المدعي العام الذي اقر بأن هذا الفعل البطولي، تضمنه البند الحادي عشر من الفصل الرابع والخمسين من القانون المنظم لتشريع سان فرناندو والذي ينص على: «دعم انسحاب الجيش -بعد تلقي الأمر بذلك- دون التخلي عن الموقع، حتى ولو هوجم هذا الأخير أو حوصر من طرف العدو، أو حتى مقتل ثلث عناصره».

ولم تسجل بطولات اخرى في صفوف "فرقة المنطقة الوسطى ا"، وذلك لموت المدافعين عنها بما فيهم القبطان. وحتى إن طالب المدعي العام بتطبيق الفصل المذكور اعلاه على الحالة الراهنة، بغض النظر عن كيفية وفاة إسكريانو الذي قيل عنه إنه لم يؤد فقط المهمة المنوطة به، بل تجاوز الشروط فيما يخص عدد الضحايا. وهذا التصريح مرفوض، باعتبار ان الشهادة التي ادلى بها "طافيرا" الهارب من الجندية[85]، والوحيد الذي بقي على قيد الحياة كانت غير كافية.

وهكذا، حرم القبطان إسكريانو من وسام الشرف، فلم يكترث للأمر. لكن الحال لم يكن كذلك بالنسبة لزوجته السيدة ماريا دي لوريطو اوغارثا خورادو María de Loreto Ugarza Jurado، واخيه ريكاردو Ricardo ملازم المشاة. اما عبارات المدعي العام الذي عرف كيف يحترمه، فقد ارتقت إلى مستوى تاريخي عال، واصبحت تصريحاته فصلا في تقرير بيكاسو. وجاءت هذه العبارات على النحو التالي: «وسط هذا الجو العام من الضعف، وامام المنظر المهول للعديد من المواقع وهي تشتعل نارا، وتشهد فرار كل المدافعين، يسطع بقوة نجم القبطان إسكريانو، الذي شاهد بأم عينيه هروب الجيش ورأى كيف ان ثلة من الجنود كافحوا في حالة يرثى لها للسيطرة على مواقع اكثر امانا. ولم يحذُ إسكريانو حَذْوَ هذه الكتائب، بل رفض كل الشروط التي فرضها العدو عليه للاستسلام، فبقي لوحده يدافع عن المعسكر بكل ما اوتي من قوة. لقد تشكلت لديه بعدما رأى انسحاب الجيش، قناعة مفادها انه لا سبيل سوى الاعتماد على إمكاناته الشخصية والتي لم تدم طويلا»[86].

شيء واحد لم يضمحل ولم يفتر ابدا، وهو حب روسا مرغريطا لأنطونيو، فقد انتظرته بلهفة وصبابة طيلة مدة غيابه ولم تتزوج، ولم تنسه قط. وفي مارس 1924، تم العثور

والتعرف على جثمان "ميدينا" من طرف القبطان خوان دييث ليثانا Juan Díez lizana، الذي قام بمواراة جثمانه في مليلية[87]. وعلمت روسا بذلك، فابت إلا ان تبقى خطيبة أبدية لأنطونيو حيث رحلت سنة 1937 إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن ميامي، واظبت "روسا Rosa" على كتابة الرسائل التي كانت تبعث بها إلى والدي انطونيو. وبعد سبعة وخمسين عاما من فاجعة انوال، عادت "روسا" إلى إسبانيا. فنزلت في البداية في بلد الوليد، وبعدها رحلت إلى مليلية. وهناك كلف الجنرال إدواردو ربرسا Eduardo Represa الكومندان مانويل كرمونا مير Manuel carmona Mir، بمرافقة تلك المراة العنيدة إلى المكان الوحيد الذي كانت تشتاق إلى زيارته، ويتعلق الأمر بالجبال التي كانت تاوي فرقة "المنطقة الوسطى أ". وبحكم عامل السن (سبعة وسبعون عاما)، عانت "روسا" من مشقة الطريق وهي تصعد جبال الريف. ورغم ذلك تابعت مسيرتها، وكلها رغبة في إيصال باقة الورود الحمراء التي كانت تحملها إلى اعلى نقطة في الجبل. كانت تود تقبيل هذه الباقة امام كل تلك الصخور التي دافع عنها حبيبها، ووضعها هناك. كما كانت تعتزم معاودة ذلك الصعود لكن طول المسافة، وكبر سنها حالا دون تحقيق هذه الأمنية. وفي العام الموالي، لم تتوان "روسا" عن إرسال شيك (بالدولار الأمريكي) اقتنى به الكومندان باقة الورود، وقام بتغطية مصاريف وضع إكليل الزهور على صخور تاوردا، او على مقبرة مليلية. واستمر الأمر كذلك سنة بعد اخرى، كانت النقود تصل، وباقة تلو باقة من الورود الحمراء تراكمت عند مقبرة الأبطال في فضاء معزول كما هو الحال في صخرة تاواردا. وهكذا دواليك، إلى ان حلت سنة 1991، حيث توقفت الحوالات بسبب وفاة "روسا مارغريطا" خطيبة القبطان[88]. لكن إخلاصها للسيد "ميدينا" الشجاع، ووفاء هذا الأخير ورجاله لمهامهم العسكرية مستمرة إلى الأبد.

دار الكبداني، أسرار ووصمة عار في أعرويت الأولى

سبقت احداث جبل أعرويت احداث اخرى مروعة حدثت بدار الكبداني. وهناك كانت كتيبة اراوخو Araújo، هذا الكولونيل الذي سمح بان يمر يوم الثالث والعشرين من يوليوز بسلام. وما ان انتهى اليوم حتى كان الحصار قد تم، لكن ما حدث في الثمانية والأربعين ساعة المقبلة، شكل فصلا من فصول الأحداث التعيسة والبئيسة للتواجد الإسباني بانوال.

كان أراوخو مسؤولا عن حياة الف رجل تقريبا، قائدان إضافة إلى سبعة وثلاثين من الضباط، وتسعمائة وسبعة وخمسين من الجند[89]. لم يكن أراوخو يحترم فرقته بكل مكوناتها، والأدهى من ذلك، انه كان لا يعير اهتماما لمنصبه، وكذا للبديهيات التكتيكية المقدمة بمصادقة "نفارو"، والتي تنص على الانسحاب في اتجاه القندوسي والتشبث بالمقاومة عند خط كرط.

وبعد إطلاق سراحه بالريف سنة 1923، تم الاستماع إلى شهادته التي أدلى بها خلال الدعوة المنسوبة ضده، والتي أشار فيها بأصبع الاتهام إلى نفارو، الذي اتهمه بعدم القدرة على التقرير، وذكر أن ما فهمه هو أن هذه الأوامر كانت تهدف إلى الزج به وبكتيبته وبكل معسكرات بني سعيد في التهلكة، وذلك حتى لا تزعج فرقته مسار كتائب نفارو التي كانت تحت إمرته بالدريوش. وفي سنة 1925، تطرق المدعي العام لهذه التضحية التي قام بها أراوخو وبعض ضباطه، واردف في حسرة وسخط عارمين أن وفاة المعني بالأمر جاءت بكل برودة وعلى حين غفلة، فلم يكترث لها أحد[90].

دخلت المباحثات مع الريفيين مرحلة حاسمة، ففي صبيحة الثالث والعشرين من يوليوز، اجتمعت زمرة من الشيوخ الريفيين مع أراوخو، واقترح السي حمو (واحد من هؤلاء الأعيان الريفيين) الاجتماع بمنزل قريب من مورد الماء، وذلك بعد إجراء قرعة. وإلى ذلك الاتجاه خرجت فرقة "امادور"، وبوصولها اصدر القبطان أوامره (دون إخبار صاحب المكان) بحرق كومة من التبن كانت في الخارج تحجب الأنظار. وبانتهاء العملية، اهتم امادور، هذا المحترف المحتاط بترتيب المكان وتحصينه. لكنه لم يسلم من انتقادات الكولونيل المسؤول الذي ما لبث أن قال بلسانه، إنه لا يحسن التصرف، وانه أخفق في المهمة التي انيطت بفرقته، وذلك لأن كل من امادور وصاحب البيت تحولا إلى أعداء شرسين[91].

ضرب الريفيون الحصار على منبع الماء، وبقيت الكبداني حبيسة العطش. وعوض أن يسارع إلى رفع الحصار عن معسكر امادور، قَبِل أراوخو بشراء الماء من المورو. فاتفق الكومندان الفونصو فرنانديث مارتينيث مع أحد الزعماء الريفيين وهو حامد اشهور احسوب Hamed Achehur Ahssub على الثمن، ودفع له مسبقا خمسمائة بسيطة عربونا، أداها ملازم إدارة التموين ريكاردو مارتين لوبيث. فبدا أن الأمر انتهى

هنا، لكن اراوخو نفسه تنبه عشية (الثالث والعشرين من يوليون) إلى خطورة الأمر، فقرّر تاجيل الموضوع، فتم إخبار احسوب بهذا التغيير، هذا الأخير وعد بالعودة في صبيحة اليوم الموالي، لكنه لم يف بوعده، وذكر احسوب -الذي بقيت خمسمائة بسيطة في حوزته- ،ان مجموعة من المورو اعترضوا سبيله (!!) واطلقوا عليه النار، ففر بجلده تاركا البغال الثلاثة[92].

بعدها بقليل، وصل الملازم لويس طابيا كانتون Luís Tapía Cantún إلى دار الكبداني، وذلك بعد الإفراج عنه من اسره بتيزي إيزنورن. تمكن من عبور الخطوط الريفية بفضل رسالة كان يحملها معه إلى الإسبان يقنعهم فيها بالاستسلام. ورافق طابيا في مهمته الجندي خوصي لوبيث عازف البوق، وذلك المورو الذي كان يحظى بنفوذ ومكانة كبيرتين، والمعروف بالكونبوي (او القافلة)[93]. وياتي لقبه هذا، من ان المعني بالأمر كان يموّل المنطقة باللحم.

حمل طابيا الرسالتين من قدور نمار زعيم بني سعيد إلى كل من الكولونيل اراوخو والقبطان خوان اوثيطا غورا Juan Ozaeta Gurra، الذي كان يوما ما يشغل وظيفة رئيس مجلس المدينة بدار الكبداني، وقام بتحرير هاتين الرسالتين القبطان سانتيث ابارثيو Sánchez Aparício من موقع سيدي عبد الله، والذي تم شحنه بتيزي إيزوزن من طرف قدور[94].

كانت الاتفاقيات المشؤومة بشان الاستسلام قد بدات بدار الكبداني (القصبة الحمراء)، وكان على راس هذه الثكنة، حامية مكونة من ستين رجلا يراسهم القبطان نرسيسو سانتيث ابرسيو الذي امر بإفراغ الموقع. فخرج مع كتيبة نحو تيزي إيزنورن. وفي الطريق، فقد جزء لا يستهان به من قواته، لدرجة انه تخلّى عن جثث ثمانية او تسعة من الضحايا[95]. وفي إيزنورن، التقى سانتيث بطابيا الذي كان يتقلد هناك زمام الأمور، فحاصرهما الريفيون. وبعد محادثات وجيزة و"صاخبة" مع الأعداء، اخرجوا الراية البيضاء واخرج القبطان اخرى. وهكذا تم الاستسلام والإذعان، حيث خرج الجميع من الموقع منزوعي السلاح ما عدا الملازم مانويل ارويو مورنو، الذي اعلن عن عزمه على عدم الاستسلام كما روى ذلك الجندي خوصي كالثادو بيريث José Calzado Peréz. وهكذا تخلى الإسبان عن بنادقهم وهمّوا بالفرار. في حين استولى الريفيون على الأسلحة وصوّبوها نحو اعدائهم من الظهر، فنالت الطلقات من ارويو الذي اصر على

صموده، في حين كان سانتيثث ابرسيو يتدبر اموره في سبيل إنقاذ حياته وحياة القليل من الذين تبعوه عندما فاجاه واحد من المورو المسلحين، واجبره على الانبطاح ارضا وتمكّن من استمالته بواسطة شيك بالف بسيطة.

مشهد مرير آخر حدث بميادين انوال، حيث تفاوض قبطان حول اجل حريته بدفع شيك من الدفتر البنكي. وهكذا تحولت الكرامة العسكرية إلى خزانة مال، ولم يبق من ضمن مائة وعشرين رجلا كانوا تحت إمرة ومسؤولية سانتيث سوى أربعين من الأحياء، وصلوا إلى دار الكبداني، ليلقوا فيما بعد حتفهم بعد اتفاقية اخرى انتهت بدفع المال. وبدار الكبداني التقى سانتيث مع بقية حامية سيدي عبد الله التي استسلم قائدها، ليوبريو بيريث رنونثيو Liborío Peréz Renuncío، في ظروف كارثية مماثلة[96]. وتجدر الإشارة إلى أن سانتيث ابرسيو (هذا القبطان المحرر بحسب عبارة المدعي العام) كان يعرف جيدا ما تعنيه التنازلات والاستسلام، وكان يعرف بداياتها وكيف تنتهي بالموت. ورغم ذلك، كان يكتب لزملاء -مجبرين على المقاومة- ويقترح عليهم نفس الصفقة مع العدو، صفقة كانت تؤدي بعد تطبيقها إلى نفس النهاية القاسية.

وفي رسائله، طلب سانتيث من اراوخو المال والمؤن والأغطية لصالح فيلقه الذي تعرض للأسر، وهدّد الكولونيل بتسليم الكبداني (وما تعنيه لحياة المعتقلين)[97]. كما عرض وعد قدور بمرافقة الجيش بسلاحه وذخيرته إلى خارج أرض القبيلة معطيا ضمانات بعدم التعرض للأذى. والهدف من كل هذا، كان هو الوصول إلى مصب واد الكرط، حيث كانت في انتظارهم ثلاثة قوارب صيد ريفية ستحملهم إلى مليلية. والحقيقة أن هذا الاقتراح بقدر ما كان خياليا ووهميا، كان مغريا، مما جعل أراوخو يقبل به. كما أن القبطان مكاريو باسكونيس إدالغو Macarío Bascones Hidalgo، كان على علم بعروض الاستسلام هاته، وكان مصدر الخبر هو أحد الزملاء الذي استقى المعلومات من أناس آخرين. كان نبأ الاستسلام قد انتشر منذ ليلة الرابع والعشرين دون أن يكذبه أحد[98].

وفي اليوم الموالي، الاثنين الخامس والعشرين، دعا أراوخو إلى انعقاد مجلس حربي يعد الثاني من نوعه -الأول كان يوم السبت الثالث والعشرين- وفي انتظار وصول المشاركين، جاءت المفاجآت مع عودة الرجل القافلة -كونبوي- المعروف. احضر هذا الريفي بيده رسالة أخرى من سانتيث ابرسيو. كان القبطان قد كتب ثلاث رسائل كما

اوضح ذلك باسكونيس في المرافعة القضائية. لقد شكل وصوله حدثا كبيرا، ولاسيما ان الرسالة الموجهة إلى اراوخو كانت مفتوحة. وقبل ان تصل إلى يده، كان العديد من الضباط قد اطلعوا عليها وقرؤوها[99]. فلم يعد احد يخشى قلة الاحترام.

واعطيت الانطلاقة للاجتماع، الذي عقد بخيمة القيادة التي امتلأت عن آخرها بتسعة وعشرين ضابطا. وقرا اراوخو الرسالة الجديدة التي يخبر فيها قدور انه كان يحب كثيرا الكولونيل، وانه كان يريد إنقاذه وإنقاذ حاميته. واصل اراوخو تلاوته، لقد استوعب الحاضرون ان زعيم بني سعيد يطلب عشرين غطاء للأسرى الإسبان الذين يحتجزهم علاوة على ثلاثة بنادق يريدها لنفسه، وبندقية اخرى لمغربي آخر قدم خدمات مهمة[100].

وبانتهاء قراءة النص عرض "اراوخو" على ضباطه ثلاثة خيارات، المقاومة والصمود بالمعسكر، او الانسحاب، او التفاوض بشأن الاستسلام. فتقدم واحد من الضباط ليعرض فكرته كخطوة اولى للمباحثات وجنح للخيار الثالث. وقد وصف اراوخو هذه المبادرة بغير المقبولة على حسب سانس. وبعصبية شديدة، اوقف الاجتماع وطلب من الجميع موافاته بآرائهم موقعة ومكتوبة في ظرف لا يتجاوز خمس دقائق. لكن واحدا من الذين شهدوا الحدث وهو الملازم خواكين بيون روكا طوغورس Joaquín Bellón Roca Togores، تجرا على تكذيب هذه الذكريات المشرفة، واقر ان الكولونيل وقف امام كل الضباط قائلا: «يصعب تنفيذ الاقتراحين الأولين»، واوضح بعد ذلك انها كانت وجهة نظر[101].

واستعد الضباط للتصويت، حينها دخل النائب "بينو Pino"، وسال سانث عما إذا كان سيرسل "لنمار" الأغراض التي طلبها. واكد الكومندان ذلك وبدا التصويت. جاءت النتيجة مرضية، واحد وعشرون من اصل تسعة وعشرين صوتوا على خيار التفاوض. احتفظ اراوخو بهذه الأصوات بين وثائقه، واضاف إليها تعهدات بعض الضباط الذين تبين من خلال تصرفاتهم اللاحقة، ان ضم اصواتهم إلى الأصوات السالفة الذكر، إنما كان ظلما وعدوانا[102] على حسب عبارات المدعي العام.

يتعلق الأمر بالقبطان لويس كوادرادو غارابا Luis Cuadrado Garaba، وماريانو فيغتيس اغيلار Mariano Viegtiz Aguilar، والملازم سالفادور رلييا كمبوس salvador Relea Campos، والملازم الثاني رامون مونتي الغري دياس Ramón Montealegre Dias. فقد

خرج الأربعة من الكبداني رفقة فرقهم العسكرية، وماتوا بشرف في مقدمة جيوشهم. وقد ذكر المدعي العام بشأن هؤلاء الضباط الأكفاء، انه يجب رد الاعتبار لهم بغض النظر عن المهام السرية التي كان يوكلها إليهم الكولونيل[103].

ضيع أراوخو تلك الرسائل الشهيرة، وقال إنها سرقت منه في "اجدير"، وذكر محامي الدفاع في قضيته، ،انه من المؤسف، أن تسرق من الكولونيل خلال فترة اسره تلك الرسائل وكل الأوراق المهمة، وهو الذي كان يحتفظ وبحرص شديد بتلك الوثيقة المتضمنة لتصويت الضباط[104].

وبانتهاء الاجتماع، لم يعد احد يحس بالخجل. وبمحاذاة العنبر، كان طيف الرجل الملقب بالقافلة "كونبوي" يظهر جليا. كان الريفي ينتظر شيئا معينا، ينتظر ان تُمَرِّر هيئة الضباط الصحن لجمع المال الذي سينقذ حياتهم، او بالأحرى حياة الجميع. كان العدد يقدر تقريبا بالف ضابط. وكان سانث غارسيا هو من دعا كل الرؤساء والضباط وبعض الأطر إلى تسليم المال الذي كان بحوزة وحداتهم، وإن اقتضى الأمر فليدفعوا مدخراتهم ليدخرها لهم ذلك المورو المذكور، إلى حين إيجاد حل نهائي للأزمة التي تمر منها الفرقة[105]. وانتهى سانث من جمع المال الذي وصل إلى خمسة آلاف بسيطة بالتمام والكمال، وهو مبلغ قليل بالنسبة لألف رجل، لكنه كان كافيا بالنسبة لثلاثين رجلا. واشار المدعي العام ،إلى ان هذا المبلغ كان يثير بحق الانتباه، نظرا لضآلته[106]. كما شكك المتحدث بالقضية في ان يكون ذلك المبلغ هو المتفق عليه لتنفيذ الاتفاقيات[107].

ولم تكن هذه الكمية المحصل عليها هي كل المال الموجود في الكبداني، فقد ذكر النائب فرانثيسكو باسايو بيثيرا Fransisco Basallo Becerra كيف ان القبطان كان يدفع ريالا واحدا لشخصين اثنين، موضحا أن هذا المبلغ يجب الاحتفاظ به في حالة ما إذا ارادوا الانسحاب من المعسكر. وأُصدرت الأوامر للجيش بتغيير ملابسهم وارتداء افضل ما لديهم من ثياب. بعدها، جاءت اوامر اخرى بترك السلاح والأحزمة ووضعها على الأرض او تعليقها على الأسلاك، كما جاء في تصريح الشهود...[108]. بسيطتان اثنتان وخمسون سنتيما، كان هو ثمن الجندي الإسباني المنضوي تحت إمرة اراوخو.

وحدثت الكارثة وقبيلها كانت هناك إشارة جديدة، ذلك ان الملازم مانويل ثاراغوثا فرنانديث Manuel Zaragoza Fernández راى مجموعة تسوق بغلا محمَلا بالبطانيات

والبنادق، فاشتم رائحة امر غريب، وبعد لحظة، وصل واحد من المورو. فاعتقد انه واحدا من اعيان القبيلة. وكان صحبة هذا الريفي، رجال آخرون يحملون بايديهم اعلاما بيضاء. بداية جلسوا عند الأسلاك، في حين توجه الريفي الأول إلى حيث يوجد الكولونيل، فاجتمع مع اراوخو لمدة خمسة عشر دقيقة حسب شهادة ثاراغوثا.

وبغض النظر عن مشاعر الشك التي خالجت الفرق العسكرية الإسبانية، إلا ان هذه الكتائب كانت تثق بسيرورة الأمور. ووصلت الأوامر إلى بطارية القبطان فيكتوريو آلفريث غرينيون Victorío Alvárez Griñon توصي بعدم استعمال المعدات الحربية[109]. ومن جهة اخرى، كان الريفيون يقتربون في حشد كبير. كانت رغبتهم في الانتقام والنصر، وحديثهم الزائف عن السلام يربك الإسبان. وتعجب القبطان بسكونس لعدم فعل اي شيء لتفرقة تلك الحشود المتراصة على جنبات المعسكر الذي امتلأ بالريفيين، الذين يحملون الرايات البيض. واصل اراوخو محادثاته مع الريفي إلى النهاية، فتم الاتفاق على ان يخرج الكولونيل اولا، تتبعه هيئة الضباط، وفي الأخير الجيش[110]، لكن ما حدث هو العكس.

هجم الريفيون وكسروا الأسلاك، فركضوا نحو الأسلحة الإسبانية وسط صياح قوي. فذهلت الفرق العسكرية التي لم تكن تتوقع هذا الهجوم. فقفز الجميع فوق السياج، وحاول بعض الضباط وهم يلوّحون بدورهم برايات بيضاء أن يكبحوا جماح هذا السيل العارم، لكن دون جدوى. بل كانوا هم أول القتلى. وكان البعض الآخر يقاوم ويدافع إلى أن قضى نحبه. ووسط هذه الأحداث، انزوت بعض العناصر من هيئة الضباط التي وافقت على الاتفاقية وابتعدت عن الضجة، اعتبارا بانها اصبحت بعيدة عن اداء مهامها العسكرية، فاجتمعت بالكولونيل تنتظر تنفيذ ما اتفق عليه. ودخل اراوخو واتباعه إلى خيمة القيادة[111] بحثا عن النجاة، حسب شهادة القائد بلاس Blas والنائب لوبيث رودناس López Ródenas. اما "كوادرادو" و"مونتي الغري" و"رليا فيغت" فقد لقوا حتفهم في القتال، إذ سقطوا إلى جانب جنودهم.

وحينما اراد اراوخو ان يبرر هذه الأحداث، تحدث عن خراب الجيش الذي فَقَدَ السيطرة على بنوده -حسب تعبيره- بسبب إحباطه وسماعه عن اهوال انوال. وكان هذا سببا في تدخل المدعي العام سنة 1925 معاتبا بقوله، «ما الذي كان يجب ان تفعله تلك الحامية المعزولة من السلاح، حامية تخلّى عنها عدد كبير من الضباط؟».

وابتعد الدمار عن العنبر شيئا فشيئا، وغدت الكبداني مقبرة. فقرر ضباط أراوخو الخروج من المكان؛ إذ أجمع الكل انه من الأفضل الانصراف، حيث لم يعد هناك شيء يمكن القيام به. وهذا بالضبط ما فعلوه، فخرجوا بتأنّ من الباب الرئيسي. وهناك كان في انتظارهم قدور نمار على بعد ثمانية او عشرة اقدام من السياج[112].

كان زعيم بني سعيد مايزال عند وعده، وبجواره كانت جثث ازيد من تسعمائة جندي إسباني مرمية على الأرض، لكنه كان يريد تلك المجموعة الذليلة، اولئك الأشباح الذين كانوا ضباطا لإسبانيا. كان يريدهم احياء لا امواتا، وان يتخذهم ورقة رابحة ضد اي هجوم مضاد محتمل يقوم به "برنكر". وبلا شك فإن ثمنهم كان يفوق الخمسة آلاف بسيطة التي جمعت. واكتفى في حديثه بأمرهم باللحاق به والإسراع في المشي. وهكذا، سار الجميع حتى وصلوا إلى دوار الثلاثاء لبني سعيد، وهناك حملوا الكولونيل الذي كان متعبا على ظهر بغل[113].

رجال القبطان أمادور المسلحين بخناجر البنادق

كان مورد الماء يوجد على بعد ثمانمائة متر من الجبل الذي يأوي دار الكبداني، بجوار منزل السي حمو. وهناك كانت الفرقة السادسة من الطابور الثالث لوحدات مليلية. كان العدد الإجمالي يصل إلى مائة وستة رجال يترأسهم إنريكي امادور اسين Enrique Amador Asin، هذا الرجل صاحب اللحية والنظرات الحادة، والذي يبلغ من العمر واحدا واربعين سنة. كان متزوجا بكونثبثيون Concepción اخت القائد فرانثيسكو فرانكو سلفادور اراوخو[114]. كما ان اسين كان نحيف الجسد ذا طبع بسيط، وكان قبطانا منذ سنة 1910، إذ خاض موقعة اللوبو، واشتد عوده في خدمته وإشرافه على القوافل الإفريقية الصعبة.

لاحظ امادور اقتراب الحشود الريفية، فواصل إطلاق النار عليها منذ السبت الثالث والعشرين، لكنه فوجئ بدعوة «الكولونيل» بالاستسلام. فثارت ثائرة امادور الذي اجاب بالرفض، إذ لم يتسلم امرا مكتوبا بذلك. لم تكن الفوضى قد وصلت بعد إلى دار الكبداني، وهو ما سهل للقبطان إجراء اتصالات مع الكولونيل.فأجابه سانث غرسيا بإن الفرقة العسكرية بالكبداني تراقب عن كثب تحركات الموقع وتتابع نشاطاته. وبعد هذه

المراسلة، تلقى امادور امرا آخر بتسليم كل شيء إلى العدو وبالتالي الانسحاب[115]، لكن القبطان اصر على رفضه وذلك كان واجبه.

كانت صيحات مجازر الكبداني تصل إلى حدود مورد الماء، فاستمر القبطان في اتخاذ قراراته. اما رجاله، فقد غلبهم الجوع، وكيف لا؟! لم تكن في حوزتهم سوى علبة سردين واحدة لكل فرد، وعلبة لحم اخرى لشخصين. ولما اكلوا وشربوا، عنوا ان تكون الموت عن جبهة القتال. وفي تلك اللحظات، حضر بعض الريفيين إلى الموقع حاملين معهم خبر استسلام المعسكر الرئيسي، وانه حان الوقت بالنسبة لهذه الثكنة كذلك[116]. كانت هذه وصمة عار، لكن امادور الذي رفض للمرة التالية تلبية هذا الطلب، ومعه الملازمون فيلب كاسنيوس لوبيث Felipe Casinello López، وفرانسيسكو دلغادو Fransisco Delgado، واومبرطو بدورا سيغي Humberto Padura Segui، فهاجمت موجة من الأعداء الباب، وتبادل الطرفان إطلاق النار عن قرب، وامر امادور بالمهاجمة بخناجر البنادق، فذهب الكل إلى هناك في اتجاه الموت.

اخترق الجنود المسلحون بزعامة امادور الصفوف الريفية وتوغلوا في الوسط، فتراجع العدو. لكنه ما فتئ ان استعاد انفاسه وطوقهم من جديد. فاشتد القتال وتوفي الإسبان عن آخرهم، وفي مقدمتهم "امادور" و"دلغادو". اما بدورا Padura و"كسنيو"، فقد اصيبا بجراح، فاسر الأول وفرّ الآخر. وتوجه القائد سي حمو إلى مكان المجزرة، حيث كانت تنتظره هدية متوحشة. فهو الذي يتباهى بقتل القبطان امادور بيده[117].

وبعد دحر رجال امادور الشجعان، تنبّه الريفيون إلى كتيبة كانت تحاول الفرار، وهي تحتمي باعلام بيضاء ترتجف في ايديهم، فتعقبوهم وفتحوا النار عليهم. فشتتوا صفوفهم ودخل العديد من الإسبان في متاهات لا مخرج منها.

كان عددهم يصل إلى حوالي ثلاثمائة رجل، وكان من بينهم الجندي خوان غوال Juan Gual المنتمي إلى فرقة الملازم ارخونا Arjona -في دوريات الكبداني، والذي استسلم دون ان يقاوم. كان "غوال" قد لاحظ كيف ان الريفيين انتشروا على المرتفعات وشرعوا في إطلاق النار. في حين انبطح الضباط في يأس على الأرض، ولم يفعلوا اي شيء لرد الهجوم. وبعدما رأى غوال ان الكل يتساقط من جراء النيران التي لا ترحم، خرج يركض صحبة جندي آخر كان قد اصيب بجراح، وبعد ان هام على وجهه بالليل[118] وقع اسيرا بالقرب من الزغنغن Segangan، ثم افرج عنه وتمكن من بلوغ مليلية.

بعد يومين، وبالضبط في السابع والعشرين من يوليوز، بعث أراوخو برسالة إلى "برنكر" مع رسول له جاء فيها، «إننا نعتقد أن الريفيين سيطالبوننا بتبادل الأسرى المحتجزين بمليلية، وكذا ببعض المال»، واوضح الكولونيل للسيد المقيم العام أن كل المواقع تم إفراغها بسبب نفاد الماء والمؤن والوسائل الضرورية لنقل الضحايا، وهو ما كان ضروريا لمن يحسن القتال. بعدها حدثه عن الرفقة التي كانت معه، والمتمثلة في مجموعة من الضباط وجزء من حامية دار الكبداني[119]. وجاءت تصريحات أراوخو هاته في وقت لم يكن معه سوى اثني عشر ضابطا، واربعة مساعدين وقائد واحد، كان العدد إذن ستة عشر نفرا من أصل تسعمائة وثمانية وتسعين رجلا. وكان من بقي على قيد الحياة قليل جدا، إذ تحدث المطالب بالحق المدني عن عدد يتجاوز العشرين، ممن بقوا على قيد الحياة،[120] من عدد إجمالي يصل إلى تسعمائة وسبعة وخمسين بين جنود وقواد. يتعلق الأمر هنا، إذن، بأربعين شخصا من أصل الف تقريبا. كل هذا واراوخو مايزال يجرؤ على كتابة ما يلي، «ونظن أن الباقين يوجدون الآن في قبيلة بني سعيد، ونعتقد أنهم يحظون بعناية ومعاملة حسنة»[121].

بقي الكولونيل واتباعه بمنزل قدور، وسُمح لأحدهم بالتجول في جنبات دار الكبداني الحزينة. كان غرسيا هو من وصل إلى مورد الماء فوجده مغطى بالجثث وبعض المحروقين. وقد نُقلت مجموعة أراوخو إلى بوحرمانه Bu Hermana، وبعدها إلى اجدير، حيث مكثوا هناك ثمانية عشر شهرا كأسرى باستثناء سانث، الذي استطاع الفرار فوصل إلى الحسيمة سباحة[122].

الانسحاب من بوبكر وهرم "أوزاي"

كان سوق الثلاثاء بوبكر خلف شيفت، يتربع على عالم من الصخور والأعشاب اليابسة. وبهذا السوق، كانت توجد قاعدة عسكرية اخرى من الوحدات المتحركة، والمكونة من ست فرق (واحدة منها من حاملي المدافع الرشاشة). وكان عددهم يصل إلى تسعمائة وسبعين رجلا (ثلاثون ضابطا وتسعمائة واربعون جنديا). وإذا ما أضفنا إلى هذه النسبة عدد الحاميات المجاورة، والتي يقدر عددها بأربعة وعشرين فرقة عسكرية، فإن العدد الإجمالي هو الف وخمسمائة جندي[123].

كانت القيادة بيد التنيتي كولونيل ساتوريو غرسيا إستيبان Saturio García Esteban، والذي يبلغ من العمر ستة وخمسين عاما. واجه هذا الملازم امتحانا عسيرا تجلى في حيرته امام خيارين. فإما المقاومة، او العبور للمنطقة الفرنسية، وذلك لأن الكولونيل المسؤول كان غائبا منذ شهر ماي[124].

كان المعسكر يضم أربعة مدافع قديمة في حالة سيئة من نوع "كروب"، وعيار 90 ميلمترا، وكان على راسها اثنان وعشرون رجلا يتزعمهم الملازم اوريليو اريناس مولينا Aurelio Arenas Molina. كان المعسكر عبارة عن صور من الأحجار المتماسكة، بالطين تعلوها طبقة من الطوب، كما طوقت المنطقة برمتها بسياج. كان الماء يجلب من عيون "إرميلا" التي تبعد بثمانية وثلاثين كلم. كما كانت هناك إمكانية جلبه من تيزطوطن، حيث كان يحمل على متن القطار، بعد جلب هذا الماء من آبار الناظور. فيما بعد، كان يتكلف اسطول من الشاحنات المزودة بالصهاريج، بنقل هذه الحمولة الثمينة إلى المراكز الرئيسية. في حين تبقى المناطق النائية في انتظار وصول الإبل التي تحمل إليها الماء. ومما زاد الطين بلة، هو أن مخازن الذخيرة لم تعد تكفي سوى لسد حاجات ساعتين من القتال الشرس، أما المؤن والأدوية فكانت توشك على النفاذ[125].

وبعد التحدث مع خمينيث اريو (في الباطل)، ادرك غارسيا إسطيبان انه من الواجب الاعتماد على النفس بعدما تبين له أن الانسحاب في اتجاه أعرويت بات أمرا مستحيلا. وبعد التفكير في الخيارات المطروحة، قرر الاستسلام. كان بإمكانه المقاومة، لكن ذلك كان يعني الموت المؤكد لكل رجاله، او طلب الحماية من الفرنسيين، وهو ما يمكن أن ينقذ جنوده دون المدفعية.

وما بين الثاني والعشرين والرابع والعشرين من يوليوز، اشتدت وطأة الحصار وتزايدت البرقيات التي كانت ترد على مركز القيادة لغرسيا إستيبان. فغدت منطقة حاف Haf وسيدي جغوت Sidi Jagut تعيش تحت هجوم مستمر. وغرقت (لوما ريدوندا) وسيدي علي في صمت مريب، كما هوجمت مناطق "أرين" Arreyen، وسياش 1 وسياش 2 بالإضافة إلى تزروت - اوزاي. وفي النهاية، تمكّنت حاميات "ابن حيدور" و"لوما ريدوندا" و"سيدي علي" من إبلاغ الجهات المعنية، انها تعرضت لنفس الهجوم. وجاءت الأحداث بثلاث معسكرات، المعسكر الأول كان معسكر "حاف" في الشمال، والذي يبعد عن سوق

الثلاثاء بأربعة عشر كلم. فبعد التصدي لهجوم عنيف، طلب هذا المعسكر المساعدة بالحاح. هنا صدرت بعض ردود الفعل الفريدة من نوعها، إذ استدعى غرسيا إستيبان هيأة الضباط لحضور اجتماع تحدث لهم فيه عن تفاصيل الوضع بحاف. وبعد انتهاء الاجتماع من أعماله التي كانت -كما كان متخيلا- جد مقتضبة، دعي المجتمعون للمصادقة على محضر جاء فيه: «نظرا لصعوبة إنقاذ الموقف، فقد رُخص لحامية المعسكر بالانسحاب نحو سوق الثلاثاء. وأمام دهشة الجميع، أعلن الملازمون فرانثيسكو أروناس غسبار Fransisco Aronas Gaspar، وأرتورو ماندلي راميريث Arturo Mandly Ramírez؛ والملازم الثاني لويس مونيوث برتيت Luís Muñoz Bertet بأنهم يفضلون التضحية والخروج مع وحداتهم لتوفير الحماية لحامية "حاف" عوض الزج بها في التهلكة. وبعد نقاش حاد، صار اقتراح الضباط الثلاثة هو الأرجح، وهو ما كان على الكولونيل أن يفكر فيه منذ البداية. وهكذا، تشكلت الفرق للخروج، لكن لا شيء تم بعد ذلك. لقد وصلت أنباء تخبر بسقوط المعسكر[126]. وبعد سقوط "حاف"، انقضت الحركة على أريين لاو arreyen Lao ودورياتها الاستكشافية، وكذا على ريين دي غرواو Reyen de Guerruao، التي كان يتزعمها الملازم الثاني برطلومي ليون Bertolomé León رفقة ثمانية وعشرين من الجنود. وعرض الريفيون النجاة مقابل دفع المال، لكن لم يكن في حوزة ليون سوى قطع نقدية معدودة، الشيء الذي دفعه إلى طلب المساعدة من زملائه.

وتم اتخاذ قرار سريع وعام بسوق الثلاثاء، فخرج القبطان الونصو إستريغانا Alonso Estrigana، قائد الفرقة السادسة من وحدات الشرطة الأهلية صحبة الملازمين بلاثيوس وسالاما. خرج الثلاثة إذن بغية التفاوض مع المورو بشأن دفع ما قيمته الفين وخمسمائة بسيطة، مقابل السماح للحامية وأسلحتها بالخروج من المعسكر. فدفع القبطان وضباط آخرون هذا المبلغ. وهنا وقع حادث غريب آخر، فقد اقترح أحد الضباط، الذين نجهل اسمهم، إعطاء ألف بسيطة تستخلص من رصيد فرقته لتعويض النقص الحاصل في المبلغ الذي سلمه القبطان الونصو ورفقاؤه، لكن الكولونيل رفض هذا العرض. وكان الطبيب البيطري خوصي مونطرو الضابط بصفوف الكانطرا[127] شاهدا على هذه الأحداث، وما إن دُفع المال حتى تم خرق المعاهدة، فتقدم الريفيون لنهب السلاح. وذاك مازق تخلص منه الونصو المدبر بعد تسليمه لخمس بنادق إلى

العدو، إذ لم يسلم من الأذى سوى حامية "ريين غيرواو". اما أصحاب "اريين لاو"، فقد هاجمتهم الحركة مخلفة عدة ضحايا. وفي الوقت الذي بادرت فيه عناصر من الشرطة بالفرار، أصدر غرسيا إستيبان أوامره بالانسحاب التدريجي في اتجاه السوق.

ورغم ان بعض الأهالي من الشرطة بقوا على عهدهم ووفائهم، فإن الونصو اكد للكولونيل ان هؤلاء الأشخاص كانوا على استعداد «للموت معنا، نحن الضباط»، لكن شريطة ان ينظم خروج فوري وسريع في اتجاه مليلية، موضحا انهم لن يمكثوا طويلا بالمعسكر، حيث الموت الأكيد يحدق بهم من كل جانب[128]. كانت الساعة تشير إلى الخامسة زوالا من يوم الرابع والعشرين من يوليوز، وكانت الحيرة والغموض يكتنفان سوق الثلاثاء.

الحدث الثالث جاء مع الهجوم النهائي ضد معسكر "سياش"، إذ خرج الفرسان الذين كانوا بالسوق، رفقة الضابط اورتيغا Ortega في "اتجاه إغان"، وتعقبهم الملازم بيتيتو وسالاما في محاولة لإقناعهم بالعدول عن نواياهم، لكن دون جدوى. وتحت النيران المتاججة، ارتمى الملازمان لإنقاذ الطليعة. كان الأحياء يدافعون عن انفسهم بصعوبة شديدة، ودخلت أفواج من الجرحى إلى المعسكر. بعدها حدثت واقعة مذهلة رواها غارسيا إستيبان لبيكاسو، وهو أن مجموعة مكونة من ثلاثين (مونطيرو تحدث عن خمسين) فارسا كانت تحمل العلم الإسباني، ويُعتقد انهما الملازمان بنيتو وسالاما، وكذا زمرة من الشرطة، كانت تشق طريقها في اتجاه سوق الثلاثاء. ففتح عليهم الإسبان النيران معتقدين انهم ثوار[129].

خلف هذا الحادث دهشة كبيرة، إذ كيف لم يتبين لغرسيا إستيبان أن أولئك الرجال العائدين والحاملين للعلم الإسباني هم ضباطه. كل ما وقع هو أن خسوس بنيطو مرتينيث وبسيليو سالاما ميغيل[130] واتباعهما، هرولوا في اتجاه "افصو" وهو اتجاه العدو لحظة مباغتة نيران إخوانهم لهم. وشهد القبطان "Moreno" من أعلى الربوة، كيف أن هذا الفريق من الفرسان كان يركض في يأس. كان بنيطو وسالاما عنصرين من الشرطة الأهلية، ومعا لم يسلما من الانتقادات اللاذعة التي وجهها إليهم التنيتي كولونيل فرنانديث طماريت، حينما كان قائدا بسوق الثلاثاء[131]. وبمثولهم أمام الهيئة العليا، عرفا كيف يجيبا على الاتهامات الموجهة إليهما، وبقي "مورينو" يتذكر بإعجاب تلك الكتيبة المدهشة والقليلة العدد، والمصحوبة باثنين من الضباط، والتي أبيدت عن آخرها.

اعرب بيكاسو عن إعجابه بهذا الحدث، وفي عبارات لا تخلو من انتقادات لاذعة ضد ما أسماه بموجة التنازلات التي اغرقت الريف الإسباني، قال: «وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة التي يمكن الاستدلال بها، كان هذا التصرف جيدا إذا ما تمت مقارنته بسيل التنازلات والاستسلامات التي وقعت»[132].

لم يبق من خيار آخر سوى النزوح إلى المنطقة الفرنسية، لأجل ذلك دعا غرسيا إستيبان ضباطه للاجتماع على الساعة العاشرة ليلا. وبالاتفاق كليا على الانسحاب، طرحت اربع خيارات: فإما الخروج نحو اليسار مرورا بالسهول القاحلة، او التسلل من الوسط (من اليسار) عبر طريق تمتد بين سيدي علي وابن حيدور، وهو مكان يُحتمل ان تكون الحَرْكة على مشارفه. او الانسحاب من الوسط (وهذا هو الطريق المختصر) مرورا بالمنحدرات الغربية لبني حيدور واخاديد توريرت، أو الخروج من الوسط جهة اليمين باتخاذ معبر تزروت - اوزاي في اتجاه إغان، بعيدا عن الاتجاه الذي قد تشك فيه الحركة. وفي النهاية وقع الاختيار على الحل الرابع وهو الصائب[133]. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحا، وكان من المرتقب إجراء الانسحاب على الساعة الثالثة.

في البداية، كان كل شيء على ما يرام. كان الليل والضباب الكثيف حليفين ممتازين للكتيبة. وما إن انقشع الصباح، حتى تبدد الضباب وانكشفت عمليات الانسحاب للريفيين ولبعض الإسبان المرابطين في بعض نقاط صحراء "اوزاي" القاحلة. كان المعسكر الذي يشبه هرما مفتوحا، يطل على مرتفع ابن حيدور، هذا السور من الصخور الذي تحلق فوقه النسور.

بقي حصن **تزروت - اوزاي** الذي كان آخر معقل على الخط في الخلف، ولم يعد احد يستنجد بالآخر. وفي إحدى زوايا المعسكر، بقيت حامية مؤلفة من ثلاثة وثمانين رجلا، إضافة إلى خمسة وثلاثين وحدة اخرى من الشرطة الأهلية، كانت في الطليعة. وكان الكل تحت إمرة الملازم الذي تلقى امرا بإفراغ المركز واللجوء إلى المنطقة الفرنسية. وحينما قرا الملازمون هذه الأوامر، لم يفهموا جيدا محتواها ولم يتقبلوها، فاعتبروها خطأ. فليس من المعقول ان يطلب منهم الكولونيل الفرار، وليس من الممكن ان تلجأ الكتيبة إلى الفرنسيين. فهذا الأمر ليس له معنى او ربما كان خطأ، ولهذا لم يتم تنفيذه[134]. كان رؤساء "اوزاي" هما الملازمين إيلياس برنل كونثالس Elías Bernel Conzales، وثان

فرانثيسكو دونياس سانتيث Fransísco Dueñas Sánchez، وقد ظلت أسماؤهما مجهولة ولم يعترف أحد ببطولتهما. لكن وبفضل جهود بيكاسو، عرفنا قيمتهما وكيف انهما أحسنا التصرف[135]. كان هرم "اوزاي" عازما على المقاومة.

كان كل من "برنيل" و"دوينياس" يؤمنان بصحة تصرفاتهما، ويبدو أن رجالهما كانوا مستعدين للقتال. كانت في حوزتهم مدفعيتان من النوع الرديء -كروب عيار 88 مليمتر، من تلك التي استعملت في كوبا. لكن هذا كان افضل من لاشيء. فما قل من العتاد كانت تعوضه قوة العزيمة، كان عددهم يصل إلى مائة وعشرين رجلا، وما إن حل الليل حتى لقي الكل حتفه ما عدا سبعة أشخاص.

وما إن تنفس الصباح الذي بدد الضباب، حتى اكتشف كل من "برنال" و"دوينيلاس" عمليات الانسحاب التي انطلقت على بعد أربع كيلومترات. ومن يدر بالفعل ان "برنيل" و"دوينياس" كانا انتحاريين، بدليل انهما لم يسمحا لجنودهما بالعيش والفرار وراء فرصة النجاة التي تحدث زوبعة من الغبار من الخلف. شكوك قاسية انتابت أولئك الملازمين، لكنهما تغلبا على هواجسهما ولازما أماكنهما.

وهناك في السفح، كانت الكتائب تسرع خطاها، وفجأة انطلقت نيران المقاومين التي كانت تصيب هدفها دون ان تخطأ، لأن جيوش غرسيا إستيبان كانت مجتمعة ومنتظمة في فرق من أربعة جنود. فكان هدفا يستحيل الإخفاق في إصابته.

وفيما بعد حلت الكارثة، إذ سقط العديد من الضباط الذين اختارتهم فوّاهات بنادق الريفيين بكل عناية. وسقطت البغال خاصة تلك التي كانت تحمل المدافع الرشاشة. فذعر الجنود وتشتتوا، ودبّت من جديد موجة أخرى من الرعب. إنها فصول مشابهة لأحداث "إيزومار". تربص المرضى والجرحى في الخلف. وبعد أن تملكهم الخوف، حاولت فرقة منهم الإفلات من النيران، وبالتالي التوغل في جبل يعرف «بكوادريلاترو Cuadrilátero»، فتنبه الريفيون لذلك وتصدوا لهم.

بعد ذلك ظهرت مجموعة صغيرة من الفرسان، كان عددهم لا يتجاوز الخمسين أو الستين[136]. لكن الرقم كان كافيا لزرع بذور الفوضى في الصفوف الإسبانية. وتواصل تدفق الريفيين، كانت طقطقة الأسلحة تسيل لعابهم، فنزلوا بالممرات القريبة من تزروت إشباون وجبل بوبريس، وحدث أن ترددت المجموعات التي كانت تحمل بعض

المدافع الرشاشة بين متابعة السير في الطريق الذي يضيق عند الفجاج، والمرور عبر السهل. فكان الخيار الأخير، ومن ثم التقدم نحو "غيرواو". ولم تستطع كل الأصوات التي ارتفعت، أن تعيد هذه الشرذمة إلى صفوف الكتيبة. فلم ينج منهم احد[137].

وانتهى المسير ببقية الجيش، عند سلسلة جبال ابن حيدور المتوجة بأطياف العدو. وهناك سجلت الجروح الأخيرة، جروح الخزي والعار التي عبر عنها القنصل الإسباني في وجدة بقوله: «كل الجرحى الذين وصلوا إلى هنا، كانت جروحهم في الجانب الأيسر». موضحا أن غالبية الثقوب والجراح كانت جهة الخلف، وهو ما يؤكد انه لم يكن هناك اي رد فعل للقوات[138].

كانت حدود "حسي اوينزغا" Hassi Uenzga تظهر للجميع، لقد شل الرعب كل الرجال، حيث أُطلق العنان لأسوأ الغرائز، فنشبت شجارات بالسكاكين من اجل الحصول على البغال. ولم يشأ احد مساعدة الجرحى الذين سقطوا، ولم يمتثل احد لأوامر الضباط الشجعان "كالونصو" الذي بقي على قيد الحياة و"ميبي" Mille الذي قُتل. واخترق غرسيا إستيبان صفوف الهاربين في محاولة يائسة منه للسيطرة على الوضع، لكن الكل تجاهله.

واخيرا، تمكنت الفرق الهاربة من عبور الحدود، فارتمى الجنود المنهوكون وسط غابة صغيرة مجاورة "لحسي اوتنزغا"، دون أن تكون هناك وسائل لإغرائهم بالخروج من هناك. كما ذكر القبطان براتس Prats، وهو ما يفسر اختفاءهم كليا تلك الليلة. لم يكن عدد القتلى قليلا على بعد امتار من سياج المنطقة الفرنسية التي دخلت في صمت رهيب، وتلك أيضًا كانت حالة كل من القبطان فرانسيسكو اسنسي ردريغز Fransisco Asensi Rodriguez، والملازمون مانويل اسايس دي لوكاس Manuel asaise de Lucas، وفرناندو نونيس Fernando Nuñez، والملازم الثاني نيكولاس الدريطي إيريديا Nicolás al derete Heredia [139].

ما بعد حرب وجدة ورسالة من الجزر الجعفرية

تمكن غرسيا إستيبان من إنقاذ رجاله بمعدل النصف حسب تصريحاته، كما انه أضاع كل محاضر مجلس الدفاع لأنها كانت في حوزة الملازم "ميبي" الذي اعتبر في عداد المفقودين. كانت الخسائر فادحة، وقدم التنينتي كولونيل تقارير بشأن اربعمائة رجل بقوا على قيد الحياة، وهو ما يعني نسبة 59% من الضحايا. كان العدد الإجمالي

للكتيبة هو تسعمائة وسبعين، اي بنسبة 74٪ إذا ما تم اعتبار أن عدد الجنود الذين كان تحت إمْرَتِه عنهم وصل إلى الف وخمسمائة جندي[140].

لم يعط بيكاسو تصورات واضحة بشأن أحداث سوق الثلاثاء. لهذا، جاءت تصريحاته مقتضبة: «يجب النظر بإمعان إلى هذا الضعف، وكذا إلى قلة المعنويات، وإلى فتور الحماس الذي تسبب في هذا الانسحاب في ظرف قصير، تخللته مطاردة العدو. هذا الأخير الذي استفاد من عجز القيادة، ليتخذ في حقها التدابير اللازمة»[141]. ولم تنته الأزمات عند هذا الحد فقط، بل خرج إلى الوجود فصل ماساوي آخر تعلق بمحنة وجدة.

حينما ضاقت الفرق العسكرية ذرعا بما شهدته من أحداث، انتقلت إلى "كامب بغطو" Camp Bertaux. ومن هناك نزحت إلى تاوريرت (يوم الثامن والعشرين من يوليون) ثم إلى وجدة، فوهران، حيث استقرت هناك وطاب لها المقام وعاشت حياة سليمة ومنظمة[142]، كما أوضح ذلك الطبيب البيطري مونطيرو. لكن بعض الجنود جلبوا الخزي والعار لزيهم العسكري، وهو ما أكده التنينتي كولونيل نفسه أمام بيكاسو في تصريح ثالث، «فقد وصل إلى علمه انه بتاريخ الثاني من غشت، وقعت حادثة بين ضابطين وثلاثة من المساعدين بأحد دور الدعارة. فزجرهم غارسيا إستيبان الذي شهد الحادث، ونبههم بعدم مطالبتهم بالزيادة. فالأجرة التي كانت تصرف لهم كافية[143]. كان الجنود يعيشون بالمعسكرات، أما الضباط فكانت الفنادق هي مقر إقامتهم، حيث يبذرون أموال صندوق القنصلية في الملاهي والسهرات الليلية. في حين كان الجنود يتقاضون خمسة وعشرين سنتيما تؤدى إليهم يوميا[144]. ويوم الثامن من غشت، ابحرت هذه الفيالق العسكرية التعسة من وهران على متن بارجة "بيفر" Bellver، متوجهة نحو مليلية. آنذاك عُرف الرقم الحقيقي لأحياء "برنكر"، فجاءت الأرقام على النحو التالي: اثنان وعشرون ضابطا، واربعمائة واثنان وستون جنديا، وما يزيد عن تسعة جرحى مكثوا بوجدة. كل هذه التفاصيل نقلها "برنكر" إلى إيزا يوم الثلاثاء العاشر من غشت[145].

ومن بين أولئك الفارين من الموت، كان هناك رجل قوي البنية من اراغون يعرف باسم بيدرو كامبو Pedro Campo، كان من منطقة "كوستيان" Costean في (ويسكا Huesca). كل ما في الأمر هو أن هذا الشخص تم توجيهه إلى الجزر الجعفرية. ومن هناك كتب

إلى أبيه "موديستو Modesto"، يوم الخامس والعشرين من غشت. كان بيدرو اميا -كبقية الخمسة والستين او 70% من الجيش- فناشد زميلا له ان يكتب له رسالة ظلت اخطاؤها الإملائية والنحوية رمزا خالدا وتذكارا رائعا لتلك الفترة. وقد تركنا النص على حاله، وهذا ما جاء فيه: «والدي العزيز، متمنياتي انه بوصول هذه الرسالة، ان تتمتعوا بكامل الصحة وهو اقصى ما اتمناه، اما صحتي انا فهي متوسطة منذ ان حكمت على نفسي بالموت واظن انكم علمتم بكل شيء (...)». ويتابع «والدي، كل الأراضي التي كانت بيد إسبانيا منذ العام التاسع إلى يومنا هذا، اصبحت في يدهم. ويوم الخامس والعشرين، وهو يوم سانتياغو، اضطررنا لمغادرة المعسكرات والارتماء في المواقع الفرنسية مخلفين وراءنا طريقا مليئة بالموتى (عبارة موتى كتبت بحروف كبيرة في الرسالة الأصلية)، خرجنا من المعسكر وعددنا الف وخمسمائة رجل ولم يدخل إلى فرنسا سوى (وبحروف صغيرة) اربعمائة، وبقي الآخرون بيد المتمردين، اما نحن فقد تملكنا الغضب كثيرا...»[146].

لم يكن "برنكر" يصلح لا للخطب الحماسية ولا لاستقبال الطائرات

بإشراق صباح الرابع والعشرين من يوليوز، احتشدت جموع مليلية كلها على ارصفة الميناء. وعلى الساعة الثامنة، انطلقت هتافات ترحب بقدوم مركب اطل على المرفأ. وصلت إذن القوات الملكية المشهود لها بالتفوق. لكن وبنزول القوات، صمتت الجماهير. إذ إن الحمولة لم تتعد العشرين ضابطا واربعمائة وخمسين جنديا وتسعة عشر دابة. في حين، كانت الحاجة ملحة إلى عدد اكبر من الرجال والعتاد لإنقاذ مليلية. وبعد منتصف النهار، حل طيف آخر من بعيد لبارجة مدينة قادس التي استقبلت على الواحدة زوالا بتصفيقات ضعيفة.

وسرعان ما هدأت الحشود من روعها بعدما رأت الأزياء العسكرية للذين هبطوا على الجسر الصغير، نزلت الوحدات العسكرية لفرقة (طيرثيو Tercio) تضم اثنين وثلاثين قائدا وضابطا، وثمانمائة وواحد واربعين جنديا. كان معهم سان خورخو San jurjo، هذا الجنرال الأكرش المنشغل البال دائما، كانت نظرة واحدة من عينه تكفي لكي تطاع اوامره دون ان يصدر صوتا. بجانبه كان "ميان اسطراي" Astray Millán، الذي كان عدوانيا، يمشي في تبختر وخيلاء، كما كان فظا وخشنا في تصرفاته.

من فوق السفينة ارتجل "ميان" خطبة أذكت روح الحماسة، فسمع المواطنون عبارات النصر أو الموت، وعبارات النجاة للكل والتضحية إلى آخر رمق. فصفقت الجموع، وتعالت التصفيقات للجنود المحترفين، وترامت في الصفوف الأولى أغلبية العناصر العسكرية، في حين اهتمت البقية بتعبئة الشارع. فكانوا يمرّون بكل محاوره فيصلون إلى مؤخرته، وتعاد العملية مرة أخرى إلى أن يجنّ الليل، ويموت الخوف في الموقع. على ما يبدو، كانت هذه تعليمات "برنكر" حسب شهادته[147]، أو بالأحرى مبادرة صدرت من ميان أسطراي ووافق عليها سان خورخو، الذي انزعج كثيرا لأن المقيم العام لم يحضر لاستقباله.

ومساء الرابع والعشرين من يوليوز، كانت مليلية تحصي قدراتها: أربع فرق - بربون - كورونا - إسطرمادورا - وغرناطة، بالإضافة إلى فرق المحترفين. ففي يوم واحد وصلت فيالق قوامها ثلاثة آلاف ومائة وتسعة وأربعين جنديا. كانت إسبانيا إذن تستجيب وتلبي الطلبات فقط، أما الذكاء العسكري فكان جامدا لا يتحرك.

وفي فجر يوم الرابع والعشرين من يوليوز، وفور تلقيه إعلان وصول "برنكر" إلى مليلية، طلب "إيزا" من المساعدين موافاة المقيم العام بهذا البلاغ:

سعادة الوزير: «بلغوا من فضلكم السيد المقيم العام، أنه يمكن إرسال، ثمانية طائرات تخرج من مدريد إن رأى أن الأمر ضروريا. أربعة من نوع بريغيط Breguet، ولا يمكن إرسال المزيد بسبب النقص الحاصل في الطيارين، أما الأربعة الأخرى فيمكن إرسالها من تطوان حيث توجد هناك أربع عشرة طائرة بطيارين ممتازين...

وأضاف إيزا أن هذه الاستشارة قدمها قائد الملاحة الجوية (الكولونيل فيفس Vives) إلى المقيم العام ليبث فيها[148].

وبعد ساعات ذكّر الوزير المقيم العام بما يلي: «كل ما ذكرته لك البارحة بشأن الطائرات أصبح جاهزا، ونحن الآن ننتظر موافقتك»، فصدر عن "برنكر" جواب مبهم لم يستوعبه إيزا بسرعة حيث قال: «بالنسبة للمعدات الجوية فأنا لا أحتاجها، علاوة على أن المطار سلوان، أظنه لا يفي بالغرض. أما مطار الناظور، فقد أصدرت أوامري هذه الصبيحة بإحضار كل آلياته إلى مليلية، وتلك عملية لم يتم تنفيذها لفوات الأوان»[149].

كان "برنكر" غريب الأطوار، فالريف كان خاليا من الآليات الجوية، لكنه كان يتوفر على اربع عشرة طائرة في منطقة جبالة، وها هي مدريد تقدم له ثمان آليات اخرى، كان بإمكانه ان يهيئ قاعدة للإقلاع في ميدان الفروسية بمليلية، حتى إن الوزير كان ينتظر جوابه بعد ان أعد كل الترتيبات، لكن "برنكر" رفض كل شيء.

وقبل ان يودعه، كلف إيزا "برنكر" بمهمة فريدة من نوعها، فخاطبه قائلا: «انبه سعادتكم بشان طائرة مدنية ستهبط بمليلية، وعلى متنها مراسلون صحفيون من مدريد». فاعتَرت الدهشة "برنكر" الذي اجاب: «لا علم لي بالطائرة التي تحدثت عنها، والتي تقل الصحفيين، والحقيقة اننا لا نتوفر على اية قاعدة برية لنزول الطائرات»[150]. يتعلق الأمر بمبادرة جريئة ليومية "الليبيرال" التي بعثت بوفد لها على متن آلية جوية من نوع بريسطول 230 س. ف، التي كان يقودها ربان محترف «اقلع من مطار - كواترو فينطوس - يومه الرابع والعشرين صباحا»[151]. كانت الطائرة تقل المحرر خوصي إسبنوزا José Espinosa، فمرت بقرطبة - إشبيلية - جبل طارق ثم تطوان. ركز المسافرون اهتماماتهم على إفريقيا، فقطعوا الأراضي المرتفعة واطلعوا على قممها واحدة واحدة، وحلقوا فوق صخرة الحسيمة، وفوق العشرات من المواقع وهي تنفث الدخان، وشاهدوا العديد من الطائرات المعطلة التي تركت بسلوان والناظور. فنزلوا بميدان رستروغردو Rostrogordo الحصين، وسط دهشة الجميع بدءا بـ"برنكر".

وفي نفس اليوم، الرابع والعشرين من يوليوز، وعد إيزا "برنكر" بانه في ظرف يوم وليلة ستصل إلى هناك خمس سفن محملة بالجنود لإكمال الطوابير الستة عشر التي أرسلت من قبل. واوضح للمقيم العام قائلا: «واود ان اخبرك ان العتاد الذي طالب به مؤخرا الجنرال سيلفستري اصبح جاهزا»[152]، الستون الف قذيفة التي كان يطالب بها سيلفستري اصبحت جاهزة، بعد يومين من وفاته. وعند منتصف الليل استقبل "برنكر" في مكتبه واحدا من الملازمين، فطلب منه هذا الضابط الشاب إذنا بالرحيل إلى مدريد. استغرق الحديث مدة من الزمن، كان إيزا خلالها يحث على فتح الخط للحديث مع المقيم العام، لكن "برنكر" ترك الوزير ينتظر. وما إن ربط الاتصال معه حتى قدم له اعتذارات حيث قال: «كانت تجمعني بنجل الجنرال سيلفستري محادثات مؤثرة».

وتسقط حصون البحر

كانت قلعتا سيدي ادريس وافراو تطلان على البحر، فسقطتا بعد حصار وعزلة ومقاومة شرسة. ويوم الرابع والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة الخامسة وخمسة وعشرين دقيقة، بعث قبطان باخرة الأميرة La princesa، ببرقية إلى "برنكر" يستعجله فيها بإمدادهم بقوات المساندة. وفيما يتعلق بالمدافعين، طلب عدم تركهم للموت[153].

كانت قيادة سيدي ادريس بيد الكومندان خوان بلاثكيث إيخيل دي ارانا Juan Velázquez y Gil de Arana، هذا الرجل القرطبي الذي يبلغ من العمر خمسة واربعين عاما. كان يدير شؤون الحامية بحيوية ولباقة، ورغم كل الظروف لم يتردد في بعث رسالة إلى قبطان "الأميرة" (سانتيث) لينقلها بدوره إلى "برنكر". وجاء هذا البلاغ في شكل وثيقة مختصرة تحمل معاني اليأس: «إننا ضائعون، فليطلبوا من السيد المقيم العام ان يبعث لنا سريعا بقوات مساعدة، ولنرى هل سيخرجون فورا من الموقع. إننا نموت هنا، ولا نستطيع التحمل اكثر[154].

وبتزايد الضغط الريفي، ضاعت آخر علامات الحيطة والحذر. فبدا أن الكل كان يريد الفرار ما عدا القبطان وثلة من حاميته، الذين ارادوا إعطاء العبرة، ففعلوا ذلك ولقوا حتفهم. كان فيلاثكيث (الذي منح وساما بعد وفاته) من الأوائل الذين سقطوا، كما تعذر إتلاف المدافع الأربعة لضيق الوقت، وتدخل الملازم الثاني خوصي ماريا لاثاغا رويز José María Lazaga Ruiz، الذي كان واحدا من طاقم بارجة "لايا". فتقدم بزورقين -الأول كان يعمل بمحرك والثاني بمجدافين- لإنقاذ الهالكين الذين رآهم يحتضرون، ليمد لهم يد العون. فأمر بإرساء زورقهم على الشاطئ، وانقذ بعض الجنود. لكنه خسر نصف بحارته واصيب هو كذلك بخمس رصاصات، فتوفي في مليلية يوم الثلاثين من يوليوز، عن عمر يناهز الخامسة والعشرين عاما.

وغير الأسطول الصغير اتجاهه، كانت هذه المناورات تحذق بها المدافع من كل جانب، وادار الريفيون فوّاهات الآليات المصفحة، وبخبرة شديدة فتحوا النار[155]. وقبل الانطلاقة، وبين تلاطم الأمواج ليلا، تم إنقاذ اربعة جنود آخرين أضفوا على العملية صبغة التلاحم، بعد أن انضم هذا العدد إلى جملة الناجين بفضل "لاثاغا Lazaga"، وإن كان العدد ضئيلا، فإنه لا يخلو من اهمية (ثلاثون من ثلاثمائة).

وصبيحة السادس والعشرين من يوليوز، رَحل التاجر اليهودي المعروف باسم خاكوب فاراتشي Jacob Farachi، الذي كان يعمل على تلبية طلبات كل من الجيش والعمال المنكبين على عمليات التنقيب بالمناجم من افراو، رفقة عدد من المواطنين الإسبان، فتمكنوا من اللجوء إلى بيت احد المورو الأصدقاء[156]، وبفضل هذا اليهودي استقينا بعض الأنباء.

خرجت حامية افراو وكل همها اللحاق بالمراكب. كان الملازم "خواكين فارا دي ريي Joaquín Vara de Rey" يقود الجيش، وذلك لأن رئيس المعسكر السيد فرانثيسكو غارسيا، كان قد سقط في عمليات انسحاب جيوش الطليعة. كان "فارادي ريي" عازما على إنقاذ رجاله، لكنه لم يكن آخر من ذهب، مما جعل بيكاسو يتهمه كذلك. وكان هناك مساعد آخر هو من قام بتلك المهمة، يتعلق الأمر بماريانو غرسيا ماتينس Mariano García Martin، كان عمره خمسة وعشرين سنة، وكان ينتسب إلى بلدة صغيرة بطليطلة تعرف باسم لاطوري دي إستيبان امبران La Torre de Esteban Hambran. كان قد اتم دراسته بالسنة الثالثة، وينتظر الحصول على الإجازة، غير انه سيحرم منها بفعل رصاصة اخترقت بطنه. وبعد ان احس بعمق الجرح وبدنو اجله، اخذ بندقيته واحتمى وراء صخور كانت هناك. وطلب من زملائه المتاثرين بان يرحلوا. اما هو فسيبقى هناك ليحمي ظهورهم اثناء الانسحاب[157].

ومرت الجموع الأخيرة من افراو، كانت البوارج ترسل زوارقها، فسمح فارا دي ريي بعملية اخيرة، حين تم إنقاذ ما مجموعه مائة وثلاثون جنديا (اربعون منهم جرحى) من اصل مائة وتسعة وسبعين. وهناك في الخلف، بقي جندي بجرح عميق في بطنه طريح الطريق يصوب سلاحه نحو العدو الذي انقض عليه. وفي يوليوز 1922 منح له وسام الشرف.

حالة استنفار قصوى بالناظور، وغموض بسلوان

في ليلة الثالث والعشرين من يوليوز، وبالناظور، شاهد الملازم فريسنو Fresno (الذي كان يحمل المؤن للكنيسة الجديدة، حيث كان ينوي الاحتماء بها مع حرس آخرين) وصول كتيبة في حالة يرثى لها، فعلق ضابط الفرقة متحدثا عن الجزء الكبير من قواته التي هلكت مستسلمة او جريحة، ومنهم من لقي حتفه رجما بالحجارة[158]، وعند رؤية هذه

المشاهد، طلب الناس البنادق للتَّحَصن بالكنيسة، فلم تعط لهم بعلة عدم وجودها. لم يكن الأمر كذلك، كل شيء كان موجودا، السلاح والمؤن، لكنهم احرقوا كل شيء. وبطلوع الفجر أُطلقت صفارات الاستنفار من معسكرات الفرق العسكرية.

كانت صفارات الإنذار تلك التي تكررت بأمر من باردو اغودين Pardo Agudin، بمثابة إشارة ثمينة استغلها الريفيون، إذ شرعوا في السرقة والنهب وإشعال النيران[159]. فعمّت الفوضى صفوف الجنود الذين تفرقوا، وتمكّن فريسنو من إنقاذ تسعة وستين شخصا انضموا إلى اولئك الذين قرّروا البقاء، فشكلوا حامية هزيلة مكونة من مائة واربعة وستين مُدافعا، من بينهم ثلاثة عشر ضابطا. وتم التنازل عن الكنيسة التي حصنها "فريسنو" واللجوء إلى معمل الدقيق. وقبلها امر "باردو اغودين" باستخراج ،اربعين صندوقا من الذخيرة من المخازن، وازيد من مائة وعشرين بندقية بعثها إلى مليلية على متن عربة يعلوها علم الفرقة[160]. وفيما بعد، اصدر اوامره بإضرام النيران في العنبر ونسف الذخيرة. هذه الذخيرة وتلك التي ارسلت إلى مليلية، كانت الناظور تحتاجها لتدافع عن نفسها.

وفي سلوان، تمردت الفرقة الثالثة للنظاميين. وهمّ حوالي المائة بالفرار، بعد ان سقط في صفوفهم اربعة عشر قتيلا من العناصر المخلصة، التي شاركت في مناورة بالقصبة، برئاسة القائد "كاراسكو carrasco". وعلى بعد اربعمائة متر من هذا الموقع، كان المطار الذي اتخذت منه الفرق التي كان سيلفستري يعتمد عليها، قاعدة لها. وهناك كانت توجد خمس طائرات في حالة لا بأس بها، وطائرة وحيدة معطلة تحت قيادة المهندس السيد بيو فرنانديث موليرو Pío Fernández Mulero. ولحماية المطار، كان هناك ثلاثة نواب و ثلاثة واربعون جنديا، انضاف إليهم ثلاثون فارسا من فرقة الكانطرا. علاوة على ثلاثة من الضباط وهم، الملازم مارتينيث بيبانكوس Martínez Vivancos الملازم الثاني ماروطو Maroto، ومارتينيث كانياداس Martínez Cañadas.

كانت حامية سلوان تتالف اساسا من اربعة طيارين وثلاثة من المراقبين. اما الضباط فكانوا ينامون دائما في مليلية، ويبقى واحد منهم فقط للسهر على المطار. وإذا ما حدث طارئ، فالقانون يقول، ،إنه وفي حالة سماع صفارات الإنذار، على الجميع ركوب السيارات والالتحاق بسلوان،[116].

تلقى "فرنانديث موليرو" في بيته بمليلية خبرا ابلغه إياه الملازم الثاني مارتينيث كانياداس، الذي حضر على متن سيارة عسكرية سريعة. كان سبب الزيارة -كما أوضح ذلك قائده- هو الإخبار برغبة ضابطين وهما، أريثون Arizon ورويدا Rueda، في المبيت بالمطار، فكان جواب فرنانديث موليرو أن هذا التصرف غير لائق، وذلك حتى لا تنزعج القوات المرابطة هناك. اما بيكاسو فلم يفهم لماذا تكبد هذا الملازم مشقة السفر من اجل امر تافه كهذا.[162] لكن كل المؤشرات كانت تدل على أن مارتينيث كانياداس سافر إلى مليلية للتشاور مع قائده بشأن الطائرات، وما يجب فعله بصددها. فإما نقلها إلى الناظور أو إلى مليلية. لكن المحادثات في تلك الساعات، لم تسفر عن أي قرارات -كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف زوالا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز- فضاعت الطائرات.

ومرت ساعتان قبل أن يتمكن فرنانديث موليرو من ربط الاتصال بالمطار، حيث املى على طياريه امرا جديرا بالذكر. وقد لخصه بيكاسو على النحو التالي، «ونظرا لحالة الهدوء العام، فقد اذن لمن يشاء من ضباط الفرق العسكرية بالنزول إلى الموقع (مليلية)»[163]. واضاف فرنانديث موليرو، انه عشية الثالث والعشرين، لم تكن هناك اوامر بالخدمة، فترك الحرية لضباطه ليتصرفوا كيف يشاؤون. كانت الديموقراطية العسكرية قد استبدت بالريف الإسباني. البداية كانت في إيزومار، وفيما بعد في سلوان. لكن الأمر كان مختلفا في "بوحفورة"، فهناك كان الرهان شديدا على تحمل المسؤولية وحفظ ماء الوجه.

وبحلول الليل، علم فرنانديث موليرو أن طلقات نارية استهدفت المطار،[164] فبقي هناك بمقر الإقامة العامة إلى حدود الخامسة صباحا. بعدها، استقل سيارته وخرج في اتجاه الناظور، لكنه لم يستطع تجاوز الموقع الثاني على بعد ثلاث كيلومترات من مليلية.

وادلى خوصي غرسيا مونيوث José García Muñoz، -الذي كان طيارا كذلك- بشهادة تفيد انه بتاريخ الثاني والعشرين من يوليوز، تلقى أوامرا بتنفيذ جولات استطلاعية، والقيام بقصف جوي. لكن وبعد الاطلاع على احداث (انوال)، تم التراجع عن هذه القرارات[165]. ويوم السبت الثالث والعشرين، وفي عملية جمعت كل الطائرات الموجودة، بادر فرنانديث موليرو بقصف ابن طيب -الذي سبق وان اشعل النار فيه كل من "لوبو Lobo" واتباعه-،

وبسبب هذه المناورة الجوية، تلقى سنة 1925 ميدالية عسكرية. وما إن حطت الطائرة حتى عاد القبطان إلى مليلية دون أن ينتظر وصول الطائرات الأخرى[166].

وفي تصريحاته المقنعة أمام بيكاسو، اشتكى غارسيا مونيوث من كون القبطان "موليرو" لم يشأ أن يصحب معه باقي الضباط، حينما عزم على الذهاب إلى سلوان صبيحة الرابع والعشرين، إذ لا أحد يتوفر على سيارة سوى قائد الفرقة. وعن الرحلة الفاشلة التي قام بها فرنانديث موليرو قال: «إن الأمر كان مقصودا ومتعمدا». لقد كان واضحا أن الطريق إلى الناظور ظل مفتوحا حتى الساعة الثامنة والنصف[167]، وكان قطار السابعة صباحا قد وصل بدوره إلى الناظور.

وأثناء دفاعه ذكر فرنانديث موليرو، أنه حتى ولو بقي الضباط في المطار فإنه كان سيتعذر عليهم إنقاذ الطائرات. كان هذا خرقا سافرا للأحداث، قضى على الروح القتالية للجنود وقضى على احترافيتهم[168]. ولما بقيت الطائرات بدون طيارين، قام الريفيون بإحراقها.

قائد عند منحدر أعرويت وشجار بين زعيمين اثنين

ولمدة أربعة أيام مضنية، مكث "نفارو" وأتباعه في الباطل تحت سيل رصاصات العدو. ويوم الأربعاء السابع والعشرين من يوليوز، قرر "نفارو" الدفع بكتيبته المنهكة نحو تيزطوطين المجاورة. لكن وفي غضون ساعات قليلة، نفد ماء البئر. فجاء القرار بالزحف نحو أعرويت التي كانت تبعد بأربعة عشر كلم. وكان يقود مؤخرة الجيش ضابطان اثنان من المهندسين، وهما القبطان فيليكس أريناس Félix Arenas، وخسوس أغيري أرتيس دي ثراطي Jesús Aguirre Ortiz de zírate.

وكلاهما حقق عملا ذا أهمية يوم الثلاثاء الخامس والعشرين بتيزطوطين، إذ أشعلا النار في كومات تبن كان يحتمي وراءها الريفيون المسلحون بالبنادق، فكانت هذه ملحمة ثانية على طريقة كاسكورو. شكل "أغيري" صفا من القناصين الجيدين، في حين وقف أريناس بصحبة الجندي كليكسطو أرويو Calixto Arroyo، وجندي آخر على طول الخط الذي كانت تطاله البنادق الريفية، فحمل ثمانية صفائح من البنزين، سلمها له "أغيري" من خلال الأسلاك، فأضرم النار في كومات التبن التي ما فتئت أن احترقت بكاملها. كما هَمَّ بإحراق ثمانية أو عشرة جثث كانت تنبعث منها رائحة نتنة جد قوية[169].

ويوم الجمعة التاسع والعشرين من يوليوز، مكث "اريناس" و"اغيري" في المؤخرة لحماية ظهر الجيش، وواصلا إطلاق النار على الريفيين. كان كل اولئك القواد يدافعون عن انفسهم باستعمال البنادق، وكانت يد "اريناس" مضمضة من جراء الحروق التي اصابته خلال بطولته السالفة. وعلى مشارف اعرويت، طوقهم العدو الذي كان قد احكم قبضته على فرق الطليعة كذلك. فاشتد القتال واحتدم على طول الجبهات الأربع، ورأى "اغيري" سقوط أحد ملازميه جريحا وهو "ماروطو Maroto"، فحمله على كتفه ودخل في صفوف رجاله[170] والبندقية بيده. وهكذا بقي "اريناس" لوحده بين المدافع.

وضاعت كذلك بطارية "بلانكو" الوحيدة التي بقيت، وكان قائدها يريد الدفاع عنها، لكن رجاله حالوا دون ذلك، فظهر "اريناس" الذي دافع عن هذه المدافع وكأنها جزء من حياته.

ولد فيلكس أريناس غاسبار Felix Arenas Gaspar، الإسباني ببويرتوريكو يوم الثالث عشر من دجنبر 1891. كان والده فيلكس اريناس إسكولانو Felix Arenas Escolano، قائدا في المدفعية، وبعد مروره بأكاديمية طليطلة، التحق بمدينة غوادا لخارا (وادي الحجارة) لتلقي تكوينه كمهندس، والتحق بخدمة المناطيد سنة 1911. كان "اريناس" تقنيا كبيرا وماهرا، ذا خبرة بالمناطيد، درس بالمدرسة الحربية العليا التي حاز فيها على نقط جيدة، بالإضافة إلى مهارته في الطبوغرافيا والاتصال التليغرافي. كما انه كان يتطوع باستمرار ولا تعوقه اي ارتباطات. كان اخوه فرانثيسكو، الملازم في كتيبة سوق الثلاثاء، قد لقي حتفه اثناء عمليات الانسحاب تلك، لكنه لم ولن يعرف شيئا عنه. تقلد بمحض الصدفة زمام الأمور بتيزطوطين، فكان قدوة لكل اولئك الفارين.

كان يقاوم بيأس وكانت يده المحروقة، تحول بينه وبين استعمال البندقية بشكل جيد. اندهش الريفيون من هذا الصمود، فأوقفوا هجومهم إلى أن تجرأ واحد منهم، فصوب بندقيته نحو رأسه فارداه قتيلا.

وبدخولهم إلى اعرويت، طلب العديد من الضباط -ومن بينهم الملازم كالدرون Calderón وسانتيث- من نفارو منح الوسام "لأريناس"، فكان ذلك في نونبر 1924.

أخذ الريفيون تلك المدافع وابعدوها عن المكان لكي لا يطالها الإسبان في هجوم مضاد محتمل، ودرسوا طريقة تشغيلها، فقاموا بفتح النار. واخترقت أولى القذائف جسم القبطان بلانكو، هذا المصارع الكبير "لإيغان"، الذي لقي مصرعه بطلقة من مدفعيته، التي لم يتمكن من إنقاذها بسبب رجاله الذين منعوه.

وعلى نفس الهضبة، توفي الأخوان غارسيا مارتينس، "موديستو Modesto" و"فيكتور Victor"، حيث كانت لهما رتبة ضابط.

وهكذا، بقي نفارو بدون كتيبة عسكرية، وضاع منه تقريبا كل قادته، فعلى مشارف اعـرويت، توفي كل من التنينتي كـولونيل "الفـاريس دل كـورال Álvarez del Corral"، وبيكيراس Piqueras. ولحسن الحظ، بقي بجانبه بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera، وبيرث أورتيث Peréz Ortiz.

قطع رئيس فرقة "سان فرناندو" أربعة عشر كيلومترا مشيا على الأقدام، وهو لا يكف عن تشجيع وإصدار أوامره لكتيبته المنهكة، التي قطعت نفس المسافة مرورا بنفس الهضاب والسهول. كان عمره يصل إلى سبعة وخمسين عاما. وبوصوله إلى اعرويت ضمآنا ومبحوح الصوت، جلس على الأرض يلتقط انفاسه ويشكو من تشنجات عضلية. لم يبق كذلك طويلا، حيث علم أن الجنرال يبحث عنه. وقد لخص بريث أورتيث رد فعله على هذا النحو: «إن ساقاي لا تطاوعاني، لقد توصلت بالرسالة، وجوابي هو أني لا أستطيع الذهاب»، فحضر نفارو بنفسه للبحث عنه. وقد بدا جد مغتاظ، والامتعاض باد بشكل جلي على محياه. وما إن سمع التنينتي كولونيل الأمر الذي صدر في حقه (والذي نجهله)، حتى خرج عن طوعه منفجرا: «لا، مستحيل، وخاصة بهذه الطريقة»، لكنه سرعان ما هدأ من روعه. أما بريث أورتيث، فمازال يتذكر عينا نفارو المتوقدتان[171].

كان عدد الأسرى بأعرويت يصل إلى ثلاثة آلاف وسبعة عشر رجلا. أما المؤن المتوفرة، فكانت تقدر بمائة وتسعة لترات من الزيت، وثلاثة وعشرين كيسا من الأرز، وخمسة أكياس من القهوة، ومائتين وثمانية وعشرين من الشعير، وعشرة أكياس من الحمص، وستة عشر أخرى من الفصوليا. زيادة على أحصنة "الكانطرا"، والبغال التي يمكن اللجوء إلى أكلها إذا اقتضت الضرورة ذلك.

كان ألفونصو الثالث عشر يعتقد أن "برنكر" يقوم بواجبه

في يوم الثامن والعشرين من يوليوز، لم تكن بمليلية أي طائرة. وفيما بعد، تمت تعبئة المئات من الجنود، الذين تحركوا بأمر صدر بنحو أسبوع، لتنظيف الطريق من الأحجار. و في اليوم الموالي، السبت التاسع والعشرين، وصل الدعم الجوي الأول من غرناطة. إذ وفدت طائرة من نوع "بريسطول"، يقودها القبطان "منثنيكي" Manzaneque، الذي رافقه القبطان كريو Carrillo. وبحلول المساء، قام الضابطان معا بجولات ميدانية للبحث عن كتيبة نفارو[172]، فوجدوها محاصرة عند أعرويت تواصل المقاومة. فرجعت "البريسطول" أدراجها وأنبأت بالخبر، وعاودت الإقلاع مرة أخرى. كان طاقم الطائرة يحمل معه كيسا من الشكولاته والبسكويت وخمس قطع من الخبز من الحجم الكبير، وصندوقا من عشرين كيلوغراما من الذخيرة[173]. كانت الرحلة تستغرق أربعين دقيقة ذهابا وإيابا، فقام "كريو" و"منثنيكي" بثلاث رحلات جوية في نفس اليوم.

وفي نفس اليوم، التاسع والعشرين من يوليوز، وبعد أن علم الفونصوالثالث عشر أنه تم الاتصال بكتيبة نفارو، أرسل لإيزا رسالة تشجيع ليبعثها بدوره إلى المحاصرين. لكن عندما أخبره عن اعتراض "برنكر" على استقبال أي دعم جوي، ألح الملك على أهمية هذه الوحدات للقيام بعمليات الإنقاذ، وأضاف أنه يظن أن الجنرال يفكر في نفس الحلول، ولربما هو شارع الآن في تنفيذها، وجاءت رسالة "إيزا" إلى "برنكر" تحمل هذه العبارات: «وفي نفس الوقت تساءل جلالة الملك بروحه النبيلة، إذا كنتم تظنون أن تزويد تلك الكتيبة بالذخيرة والمؤن عن طريق الجو شيء ممكن. وأفيدكم أنه حصل عند جلالته يقين بأن سعادتكم بالتأكيد قد فكرتم مسبقا فيما يمكن فعله وكذا طريقة إجرائه، أطيب التحيات»[174].

لم يكن الفونصو الثالث عشر يعلم بأن طائرة واحدة هي التي تحلق في سماء أعرويت، في الوقت الذي كان بالإمكان أن تكون هناك اثنان وعشرون طائرة (أربعة عشر كانت في جبالة وثمانية في مدريد). وواصل كل من " كاريو " و"منسنكي" مجهوداتهما لأربعة أيام أُخرى، وهي المدة التي كانت كافية لتشكيل فيلق جوي يقصف المدافع التي تم نهبها. وعوض أن ترمي الوحدات الجوية بالقنابل على العدو، كانت

ترسل للمحاصرين العتاد، الذي سرعان ما يتكسر عند ارتطامه بالأرض، والأكل الذي ضاع بسقوطه في مجال يسيطر عليه العدو[175].

لكن "كاريو" و"منسنيكي" واظبا على مهامهما، واستمرا في رمي الخبز وعلب اللحم، وصناديق الدواء وذخيرة البنادق وقطع الثلج. وكل هذه الأشياء كانت معبأة في أكياس تتحطم عند ارتطامها بالأرض. لم يعبأ العشرات من الجنود بهذا التحطم، فخرجوا يتسابقون على قطع الثلج المتكسرة، فماتوا بسبب الرصاص الريفي. اما من كتبت له النجاة، فكان يعطي جزءا من الثلج للجرحى وجزءا آخر للرفاق، في حين يحتفظ هو بقطعة صغيرة ليبلل فاه[176]. لاحظ "مانسنيكي" بنفسه كيف أن الجنود كانوا يجمعون اكياس الخبز، ويتركون اكياس الذخيرة، وهذا ما يوحي بانعدام المعنويات عند الجيش. إذ كانت دوافعهم مادية ليس إلا. وبسبب قلقه، قام "مانسنيكي" بتجربة في التحليق بطائرته فوق الميدان وإنزال كيس مملوء بالخراطيش. وكانت النتيجة أن سحقت هذه الأخيرة، وبالتالي اصبحت غير صالحة للاستعمال[177]. فاغتاظ الطيار وقام بتصميم مظلة تقلل سرعة الهبوط، وزودها برزمة تقي الكيس من الارتطام القوي بالأرض، فعاود التحليق فوق مليلية ورمى بالحمولة التجريبية، فكانت النتيجة ان وصلت الذخائر والعتاد بسلام، لكن كان الوقت قد انتهى.

واصل الريفيون هجوماتهم بالمدفعية، ففي يوم واحد أطلقوا ما يناهز مائة واربعة عشر قذيفة، سقطت واحدة منها على مستوصف المعسكر، وتسببت في مقتل ستة عشر جريحا. ويوم الجمعة الواحد والثلاثين، بعث "برنكر" ببرقية إلى نفارو جاء فيها، «اود أن اعرف ما إذا كان تموين بسيط من الجو يكفي لتواصلوا المقاومة»[178].

وقد ذكر "بريث اورتيث" بالتموينات التي وصلتهم يوم الثلاثين من يوليوز، إذ قال: «لقد التقطنا كيسا من خبز من حجم صغير، قمنا بتوزيعه على الجرحى، قطعة صغيرة لكل واحد»[179]. وهكذا بقي الرجال فريسة للجوع، او لرشاشات العدو والأمراض. وحتى دفن الجثث لم يكن بالأمر الممكن، إذ لم يكن في حوزة المحاصرين سوى مِعْولين اثنين ومجْرفة واحدة[180]. وبهذه الأدوات، كان عليهم حفر قبور لدفن ما معدله خمسة وعشرون جثة يوميا. وكانت الحيوانات الميتة تقذف خارج المعسكر، كان الخطر يحدق من كل جانب[181].

وصول نجدة بدون معنى ومنطق رسمي مماثل

في اليوم الثاني من شهر غشت، وعلى الساعة الثامنة واربعين دقيقة، وصلت خمس طائرات من نوع "هافيلاند Havilland" من مدينة تطوان، يقودها الطيارون، القبطان "بورواغا Buruaga"، والملازمان "ماتيو Mateo"، و"إدالغو Hidalgo"، والمساعدان كاربيو Carpio، وإغليسياس Iglesias. وكمراقبين، كان هناك الكومندان ايمات Aymat، والملازمون كماشو Camacho، وبيود Bellod، وغونثالث González، وفالدس Valdés [182]. اكان يجب ان تمر عشرة ايام على وفاة سيلفستري لكي يقرر "برنكر" تحريك جزء من قواته الجوية بالمغرب؟

وقبل ذلك بيوم واحد، وفي مدينة تطوان كذلك، اجتمع الطاقم الجوي الذي جاء بعض عناصره من العرائش في مادبة أُعدت بهدف توديع الزملاء، الذين تم اختيارهم للذهاب إلى مليلية عن طريق القرعة[183]. حلقت الطائرات بكل حذر فوق ساحل الريف، وعلى طول هذا الساحل، المقدر طوله بثلاثمائة كيلومتر، اصطفت البوارج تحسبا لإجراء عملية إنقاذ في حالة سقوط إحدى الطائرات في البحر.

كانت لأعرويت تعزيزاتها العسكرية، والمتمثلة في ست طائرات -تحطمت اثنتان في عمليات الهبوط- بما فيهما طائرة "كاريو" و"مانسكي". وفي اليوم الثاني من غشت، قامت كل تلك الطائرات بأربع رحلات جوية، وصلت إلى تسع رحلات في اليوم الموالي. ويوم الرابع من غشت، لم تقلع أي طائرة. وفي السادس من نفس الشهر، قامت بأربع رحلات اخرى، ارتفعت إلى ستة في اليوم الموالي، وإلى سبعة يوم الأحد السابع من غشت. وتقلص العدد إلى ثلاث رحلات في اليوم الثامن، ثم ارتفع من جديد إلى خمسة في اليوم التاسع، وهو اليوم الأخير. وكانت الحصيلة هي: ثمانية وثلاثين دورية جوية[184].

كانت الطائرات تحلق وتلقي بحمولتها، فكانت تنجح مرة واحدة في كل ثلاث محاولات، فيئس المُحاصرون، واستغل الريفيون هذا الوضع، وتعالت أصواتهم بالسخرية قائلين: «طيور الحكومة ترمي بالخبز إلى المورو»[185]. هكذا كانوا يصرخون. وبالليل كان التعذيب اشد، كان الأسرى يسمعون رنين جرس المحطة، في حين كان الريفيون يقومون «بإطلاق تصفيرات ويقلدون بها وبسخرية صوت القاطرة، ويصرخون كصبيان مشاغبين ضاحكين: «إنهم يستدعوننا لركوب القطار الذاهب إلى مليلية»[186].

لم تقصف اي طائرة المدافع التي كانت قد سُرقت، ومن بينها تلك التي كانت متمركزة عند هضبة يصل ارتفاعها إلى الف متر، وتقع في الشمال الشرقي للمعسكر، وتلك مسافة حددها بيكاسو في الخارطة التي رسمها[187].

كان "إيزا" يريد إنقاذ اعرويت، لكن كانت تعوزه خطة محكمة. اما "برنكر" صاحب الحلول، فلم يجرؤ على المبادرة. كان المقيم العام شديد الحيطة والغموض، وانتهى الأمر بانتقال هذه العدوى إلى الوزير، الذي كان بطبعه يميل إلى الخمول. فجاء حديثه كالتالي: «إنني اشاطرك الراي، واتفهم جيدا حرصك فيما يخص مجريات الأمور، فيجب التضحية بكل شيء في سبيل سلامة وامن الموقع، وتفادي اي انهيار في القوى العسكرية»[188]، وهكذا اتضحت، وبشكل جلي، اسباب التخلي عن اعرويت. فـ"برنكر" و"إيزا" لم يكن يهمهما شيء سوى سلامة مليلية، وماعدا هذا، فسلامة وحياة ثلاثة آلاف رجل لا تهم. ومن مليلية ومدريد، كانت الاستعدادات جارية للاستسلام.

ويوم الواحد والثلاثين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة والربع ليلا، ذكر "برنكر" لإيزا انه سمح لنفارو بالتصرف حسب ما تمليه الظروف[189]. كان قد بعث برسالة إلى نفارو -الذي اخبره عن إرهاقه الشديد- واعطاه مطلق الصلاحيات قائلا: «وإنني اسمح لك باتخاذ القرارات التي تقترحها، او تلك التي تراها مناسبة، وإني اوصيك باستمالة الرهائن تفاديا لأي إمكانية للخيانة»[190].

لم يكن هناك شيء أكثر عشوائية في الريف الإسباني، الغارق في تلك الهزيمة المشابهة للهزيمة القوطية، من مسألة إبعاد اي محاولة للغدر والخيانة، لكن "برنكر" كان يثق في ذلك. ويجيب إيزا قائلا: «طبعا، وإنه لمن دواعي الأسف ان يكون نفارو قريبا نسبيا منا، ولا نستطيع نحن فعل شيء يتناسب ومركزنا الاجتماعي كنبلاء، لكن البلاد ستتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، التي يمكن ان نتحملها نحن في حالة التزامنا بشيء جوهري»[191].

اصبح ميدان الهبوط جاهزا، بعد حصاد حقول القمح للتو. لكن ست طائرات، لم تكن كافية للانتصار في الحرب. هذا وقد قال رودولفو بينياس Rodolfo Viñas: «لو كان في هذا الحقل الذي جمعت غلته الآن، ما يعادل عشرين طائرة، لتوفرت الوسائل اللازمة للانتصار لكتيبة نفارو التي تقاوم، وللمدافعين الشجعان من سلوان والناظور، والذين لم يفكروا قط في الاستسلام حتى الموت...»[192]. كان بينياس قد كتب ذلك قبل حدوث الكارثة.

معركة بين الوزراء = استهتار باسلحة فتاكة

في الوقت الذي كانت فيه كتيبة نفارو محاصرة في اعرويت، كانت صحافة مدريد تنشر مقالات تثير جدالا ساخنا بين الجنرال "لوكي Luque"، وزير الحرب السابق في حكومة رومانونيس، والدوق "إيزا" الذي كان على وشك إنهاء الخدمة.

اتهم لوكي في مقالاته، التي كانت تنشر في يومية "الصول"، والموقعة باسم مستعار (ا- دي - إلي)، الوزير "إيزا" بالاستهتار في امر صفقة كبيرة، تهم شراء كمية من العتاد الحربي البريطاني بثمن جد مناسب. وقد وصف "لوكي" هذه العملية، التي اخفاها الدوق عن سيلفستري و"برنكر" باللامعقولة، ونعت الوزير بالمختل عقليا. كما ان هذا التصرف، جعل كلا من الجيش والشعب، يلتجئون إلى طلب الرحمة من العناية الإلهية، لتنجيهم وتجاوز عن حماقاتهم.

اخطأ "إيزا" في الرد على الاتهامات المنسوبة إليه في يومية "لاإيبوكا" "La época" المحافظة، ففي اول رد له بدا متهورا، إذ بلغ به الأمر إلى وصف العتاد الحربي الذي رفضه بـ"التجريبي"، ذاكرا بان الأمر يتعلق فقط بمدافع تصلح للخنادق، وبعض الجرارات، وعتاد لإدارة التموينات، ووسائل تتعلق بالصحة. وهو ما دفعه إلى الوقوع في خطأ غريب، فصرح بما يلي، «كما ان تفاهة هذه الوسائل، لا تتناسب مع المشكلة المطروحة في المغرب، وهذا امر واضح وجلي». وبغض النظر عن هذا الهذيان، فإنه تحدى "لوكي" بان يكون اكثر دقة ووضوحا في تصريحاته[193].

اما جواب "لوكي"، فجاء ليوضح عجز وعدم كفاية "إيزا" فيما يخص الترتيبات العسكرية. فما نعته الدوق بكونه عتادا لا قيمة له، لم يكن شيئا آخر سوى قذائف الهاون الشهيرة من عيار 81 ملم، والتي كانت إلى جانب المدافع الرشاشة، سلاحا فتاكا خلال حرب 1914-1918. وعن هذه القذائف، تحدث "لوكي" بقوله، «أن القذيفة الواحدة كانت تحتوي على كيلوغرام واحد من المواد المتفجرة، وأن مداها كان يصل إلى تسعمائة وخمسين مترا. وما إن تطلق هذه القذيفة حتى تحدث فوهة يبلغ قطرها ثلاثة امتار، وعمقها مترا واحدا، فيصير من الممكن دفن مجموعة من المورو هناك. ناهيك عن ان هذه المدافع كان بوسعها ان تطلق اثنين وثلاثين قذيفة في الدقيقة الواحدة».

فإلى جانب جهله بقيمة تلك الأسلحة، كان "إيزا" عاجزا عن الإلمام بالوضعية الحقيقية للجيش. وهكذا تكشفت الحقائق التي اثبتت عدم صلاحية "إيزا" وزير لحرب، وعدم تبصر الشخص الذي أوصله إلى ذاك المنصب.

وإزاء هدوء إيزا المتجاهل لهذه الزوبعة، أعرب "لوكي" عن سخريته، ثم بادر إلى إعطاء خصمه وصفا جيدا، وشرحا مفصلا لما تعنيه كلمة مدفع حرب، وكم يساوي من المال قائلا: «لا يتعلق الأمر بانبوب بسيط من الفولاذ، وثمنه خمسمائة بسيطة». وكختام لهذا الجدال، نشر الجنرال قائمة بأسماء كبار الضباط المكونين للجنة اقتناء الأسلحة، وهم الجنرالات غارسيا مورنو García Moreno، ومونيوث كوبوس Muñoz Cobos، وفيالبا Villalba، دون التستر على عدد تلك الأسلحة، ووجهتها (نحو المغرب) وكمية الذخائر: اثنان وسبعون آلية لوحدات المشاة، زيادة على ثلاثمائة وثمانية عشر مدفعا للقذائف تسلم للمعسكرات، وعشرين الف قذيفة.

وضمن هذه الكمية الهائلة، كانت هناك آلاف من القنابل الحارقة التي تثير الدخان، وكذا ثلاثة آلاف ومائة وخمسة وعشرون قنبلة يدوية لإحداث سحابة من الدخان، من شانها تغطية عمليات الانسحاب، كما جاء في عبارة "لوكي" الاستهزائية.

علاوة على كل ما ذكرناه، تنضاف مائة وخمسون محطة للاتصالات اللاسلكية (ت.س.هـ.TSH)، جاءت في وقت لم تبق فيه ولو محطة واحدة. خصوصا بعد ضياع تلك التي كانت عند سيلفستري بانوال، وخمسمائة وخمسة وسبعين هاتفا نقالا، مع مائة وخمسة وأربعين جهازا لتلقي وتحويل المكالمات الهاتفية. اضف إلى ذلك، ثمانين خزانة للإسعافات الأولية، ومائة الف علبة من الدواء، وخمسمائة خيمة مخروطية الشكل، وسبعين خيمة تستخدم كمستوصف، وستة وأربعين آلية لتطهير الثياب من الجراثيم، واثنتي عشرة أخرى لتعقيم المياه، وسبع عشرة سيارة للإسعاف، وأربع سيارات تضم مختبرات للتصوير بالأشعة لإجراء فحوصات بالأشعة في قلب ميدان المعركة. وفي كلمته الأخيرة والمشحونة بالسخرية، ذكر "لوكي" انه: «من المؤسف التفكير في أن الطبيب بإفريقيا، يصعب عليه البحث اليوم عن رصاصة اخترقت جسم رجل من رجالنا».

لم يدع الجنرال للأرستقراطي مهلة لكي يلتقط انفاسه، بل بادر بتذكيره بأن صفقة السلاح كان قد صادق عليها مجلس الوزراء و"ايند سلاسار" نفسه، وايدها مدير المالية (بوغيال Bugallal) و(ليما Lema). وإذا لم يكن الأمر كافيا، فإن الجنرال اعطى تفاصيل دقيقة بخصوص تكلفة هذه الصفقة التي قدرت في البداية بحوالي ثمانية ملايين بسيطة. في الوقت الذي كان فيه الجنيه الإسترليني يساوي تسعة عشر بسيطة. لكن وببلوغ الجنيه ثمانية وعشرين بسيطة للجنيه الواحد، غدت عملية الشراء مستحيلة. وفي إشارة مستهدفة، ذكر بأن الفرق الحاصل، والذي يقدر (بازيد من ثلاثة ملايين)، جاء نتيجة لتماطل السيد الدوق. وفي تحد كبير، اضاف لوكي عبارة: «العتاد الحربي ينتظر في إنجلترا»[194]. لقد كانت تلك الملايين الثمانية التي صادق عليها المجلس ولم تصرف، من اسوأ الأموال التي ادخرتها ووفرتها الحكومة الألفونصية، وبتلك السياسة الاقتصادية النحسة، تكون قد دفنت عقليتها الاستعمارية البسيطة أصلا، ومعها ما بين تسعة أو عشرة آلاف حياة، علاوة على تضحيتها باستمرارية النظام. ثمانية ملايين كانت أقل بقليل، من الراتب الذي يتقاضاه الملك سنويا.

استسلام مزدوج:
الأول لن يغتفر والثاني غير منطقي

في سلوان، كانت المقاومة على اشدها مع كاراسكو وفرنانديث. ونفس الشيء كان يفعله أو يبدو -ذلك- مع باردو اغودين بالناظور. وحدث ان اورد "برنكر" في حق هذا التنينتي كولونيل، كلمات جد قاسية حيث قال: «لم نجد من اثر للعزيمة أو روح للتضحية في سبيل الوطن، في تصرفات هذا القائد»[195]. ولم يكن المقيم العام فقط محقا في كلامه، بل كانت لديه الحجج والدلائل. فكل هذه السرعة للتخلص من الذخيرة، وإرسال أربعين صندوقا منها إلى مليلية، والاحتفاظ فقط بثمانية صناديق، وكل هذه العجلة للاختباء في مصنع الدقيق دون التزود بالمؤن التي كانت تعج بها دكاكين البلدة. فالرسالة الأولى لالتماس النجدة، والتي حملها الجندي **إسماعيل مونيوث** Ismail Muñoz، الذي قطع البحر سباحة بكل إيثار وشجاعة[196]، والتي يطلب فيها **باردو اغودين**

المعونة لاعتبارات لها علاقة بالضمير[197]. فبهذه التصرفات والطلبات التي ليس لها اي علاقة بما هو عسكري، عرف "برنكر" حقيقة من يوجد في قيادة الناظور.

ورغم ذلك، أعطى "برنكر" بنفسه -يوم السادس والعشرين من يوليوز، على الساعة السادسة والنصف- مهلة للإنقاذ بدت وشيكة وإن كانت مغلوطة، حين قال: «أتمنى الا اتأخر اكثر من يومين في الحضور، والأحرى أن تقاوموا»[198]. آنذاك، كتبت جريدة (ا.ب.سي) بعنوان عريض ما يلي: «الأوضاع تتحسن بمنطقة مليلية، والجنرال "برنكر" يريد ان تعرف البلاد كل الحقيقة»[199].

وفي نفس الوقت، تقدم واحد من الأعيان الريفيين، وهو أوعمر بن امحمد بن عبد الله بطلب إلى "ريكيلمي" Riquelme، يقترح فيه ذهابه رفقة مائتي رجل من فرخانة لإغاثة الناظور. فقرر الكولونيل الذي أُعجب بهذا الإخلاص والوفاء والشجاعة، إبلاغ "برنكر" بالأمر، وهو شيء ما كان عليه ان يفعله بتاتا. فرحل أوعمر بنفسه إلى مليلية بهدف إخبار الكومندان "لوبيرا" Lopera، الذي كان يشغل منصب رئيس الوكالة المركزية للشؤون الأهلية، فاصيب بخيبة الأمل لأن العرض أو الاقتراح تم رفضه[200] رغم ان أولئك الريفيين المقدر عددهم بمائتين، والذين وصلوا في زوارق عبر "مارشيكا Marchica"، كان بإمكانهم إنقاذ حامية الناظور، لأن المسافة التي كانت تفصل بين رصيف مصنع الدقيق والبحر لم تكن سوى مائة متر في المجمل[201].

كان على "برنكر" ان يهاجم ويخترق الحواجز، عله يلفت انظار الحركة التي كانت مقاومتها تنصب على الناظور. خاصة وان القوات الريفية كانت تحتمي بجبهة يحسب لها حسابها، فا"لكوروكو" أصبح ملكا لهم.

ظنت البلاد ان "الكوروكو" بات في قبضة الإسبان، وكانت الحكومة هي اكثر من يثق بهذا الوهم. اما "إيزا" فكان الرجل الوحيد الذي يشك في هذا الأمر. وفي اليوم الثامن من شهر غشت، وخلال مكالمة هاتفية مع "برنكر"، تحدث إيزا قائلا: «وبالمناسبة، فقد تحدث إلي بعض (الطيارين) عن بعض المعسكرات التي رأوها قائمة في إحدى فجاج الكوروكو، فحسبوها للعدو، فخلت الأمر غير صحيح، لأننا سيطرنا على كل الكوروكو بما فيه قممه النائية الـ كو-لا Kol-la، وباسبيل Basbel». فجاء جواب المقيم العام كالصاعقة: «لم تكن لنا اي سيطرة على الكوروكو، ولم اتطرق انا لهذا الموضوع ابدا في

كل البلاغات التي كنت ارسلها،[202] فبقي الوزير دون حراك، فالكوروكو في ايدي الريفيين إذن.

كان الكوروكو قد ضاع بسبب تهاون مبهم، لكن القائد اوعمر بن محمد -الذي عرض اقتراحاته بشأن تحرير الناظور- لم يقف مكتوف الأيدي، فاقترح على ريكيلمي جمع الف ومائتين من اهالي القبائل، والذهاب للسيطرة على نقطة "حسدو" Hasdu في الكوروكو، قبل ان تقوم الحركة بذلك. تردد ريكيلمي كثيرا، بيد انه لم يستطع غض النظر عن هذا الاقتراح من جديد، فارسل اوعمر للمرة الثانية إلى مليلية ليخبر "لوبيرا"، الذي قام باستشارة جديدة مع "برنكر". لكن الجواب لم يتغير، فكل العروض تم رفضها بسبب التموين، وما يمكن ان يترتب عنه من أخطار[203].

تواصلت عمليات الدفاع المستميت في الناظور، فآزرتها فرق من الحرس المدني -المارشا Almarcha، ولوثانو Lozano- بقيادة فريسنو Fresno. لكن باردو أغودين، كان قد تلقى رسالة من الملازم إباروندو Ibarrondo، الذي كان قائدا على الحصن الصغير "بامعروفن"، يخبره فيها بضرورة تسليم المصنع إذا اراد النجاة بحياته وحياة رجاله. فاجاب التنيتي كولونيل ،نظرا لضيق الوقت، فإنه لا يمكن الآن الدخول في محادثات. فضرب للأعيان المورو موعدا في اليوم الموالي (1 غشت)،[204]، ومن مدينة مليلية شرع ضابط آخر، وهو القبطان خيمينس اورطوندا Jiménez Ortoneda، الذي نجا من مجازر جبل الودية -القريبة من المنطقة الوسطى ا- وعمل على تفعيل وساطة ثانية من مليلية.

وبعد ان علم "برنكر" بأخبار مفاوضات الاستسلام، بعث إلى باردو أغودين ببرقية ينبهه فيها ضرورة تاجيل تلك المحادثات ستة او سبعة ايام أخرى[205]، كانت هذه هي المهلة الجديدة التي حددها لمد يد العون. وفي زوال اليوم الثاني من غشت، تم إخبار "برنكر" بانه تمت مشاهدة مجموعة من الناس قادمة من طريق الناظور تحمل اعلاما بيضاء. لم تكن تلك الحشود سوى جنود الناظور الذين بقوا على قيد الحياة، وكان عددهم يقدر بمائة وستة وخمسين رجلا، يتقدمهم قائدهم الذي رجع معهم مستسلما، دون ان ينتظر نهاية المحادثات. وصلت القوات المهزومة، وقبل أن يصعد باردو أغودين إلى السيارة ليواصل سفره إلى مليلية، خاطبه القائد خمينيس قائلا: «انتم مدينون لي بخروجكم احياء من هناك»[206].

وفي سلوان، وبالضبط في تلك الساعات، كانت تجري احداث مأساة أخرى، فقد سقط المطار بسبب النقص الحاصل في المياه والزاد. وكانت جثث خمسة عشر فارسا من فرقة الكانطرا تحيط بالمعسكر، ولم يبق على قيد الحياة من الخمسة عشر الآخرين سوى فارس واحد. فسلم مانويل مارتينيث فيفانكوس Manuel Martínez Vivancos الموقع، وانقذ حياة الجند في ظروف عصيبة. بعد تسليم السلاح والسير نحو الناظور التي حسبوها في يد الإسبان، طوقهم الريفيون من كل جانب، وطاردوهم، فقتلوهم بالرصاص وطعنا بالخناجر، عدا قلة منهم استطاعت الفرار[207].

اما في القصبة، فكانت النهاية يوم الثالث من غشت، حيث فَقَدَ "كاراسكو" مائة من المدافعين من اصل اربعمائة، كانوا يختبئون معه ومع فرنانديث في قلعة الروكي القديمة. وخلال عمليات المقاومة وقع حادث سيئ، يتعلق الأمر بخوليو ليومبارت سزار Julío Leomport César، مساعد إدارة التموين، الذي احتكر كمية مهمة من المؤن باعها فيما بعد للجنود[208]، ووصل به الأمر كذلك إلى إخفاء الماء. وقد كشف هذه القضية الجندي خوان غوميس اوريا Juan Gómez Oria، الذي وجد يوم الانسحاب ثلاثة براميل من الحجم الكبير مملوءة بالماء[209]. مات "ليومبارت" اثناء الانسحاب الذي انتهت فصوله الأخيرة باغتيالات جماعية فظيعة.

وقبل الاستسلام، وافق كاراسكو على خروج ازيد من خمسين امراة ريفية من القصبة، وكذا ابنائهن من عائلات الشرطة[210]. بعدها سمح له الريفيون، ومن ضمنهم كانت فرق من الشرطة الموالية له في السابق -قبل ان يتخلى عنهم في اعرويت- بالخروج. دون شك، احس كاراسكو بنهايته، اما زميله، فرانثيسكو فرنانديث بريث فقد اذن له بالخروج كذلك. خرج وهو يجر شهرته بصفته ضابطا حذرا وصديقا للمورو، كل هذه الصفات لم تسعفه في شيء. واتفق كاراسكو مع حمو الابن ومع خرّكة ابن شلال على الاستسلام. وعلى بعد عشرين مترا من الباب، فتحت النيران على كاراسكو وفرنانديث. فتقدم الريفيون لإهانة الأول وضربه وتعذيبه، بوضع خرقة في فمه، ثم اطلقوا عليه الرصاص واحرقوا جسده فيما بعد. ولا علم لنا إن كان فرنانديث، هو ذلك الضابط الذي بعد ان خلعوا عنه ثيابه، فتحوا بطنه بخنجر. وبخصوص الجنود، فقد تم اخذهم إلى حظيرة (إينا Ena)، وهناك اعدموهم رميا بالرصاص ثم احرقوهم. وقد

تمكن من الفرار من هذه المجزرة، وبمشقة كبيرة، خوان غامس الذي روى في مليلية ملحمته هاته. كما أن بعض زملائه فروا عبر طريق الناظور، لكن هناك كان في انتظارهم حمو من "الزغنغن" رفقة فرسان آخرين، طاردوهم على طول أربع كيلومترات، وقتلوا كل من استطاعوا القبض عليه[211].

وفي منطقة أطاليون Atalayún، تلقى رجال الناظور المستسلمين الأوامر بالتزام الصمت والانتظار. فانتظموا في تشكيلة رباعية للاستماع إلى التنينتي كولونيل ميان أستراي، الذي يكثر من الحركة أثناء الكلام. فهددهم هذا الأخير بإنزال أقصى العقوبات على كل من تحدث أو روى ما جرى لهم، أو أدلى بتفاصيل الأحداث. بعدها أمرهم بالانصراف، فتحركوا بخطى متوازنة حتى وصلوا إلى القطار، الذي ركبوه في فزع وحزن، وخوفا من أن يقتلهم العدو. وفي الوقائع التاريخية لـ ليبيرال Liberal، وُصفت هذه الفرقة التي تعرضت للإهانة على هذا الشكل بأنهم: «لم تكن لهم رغبة في الاستماع أو التحدث إلى أحد»[212].

مفارقات ومعاناة واعتراضات "برنكر"

يوم الثاني من غشت، أخبر "برنكر" "إيزا" بفكرة جهنمية، تتلخص في إعداد مخطط لإنقاذ كتيبة نفارو. فاستمع إليه إيزا دون أن يوليه الأهمية التي يستحقها.

يتعلق الأمر بعملية هجوم واسعة على الجبهات الريفية، وذلك بإنزال القوات عند ريستينكا، وبعد الإيحاء بالهجوم على سوق الأربعاء بفرقة عسكرية وكتيبتين من المشاة، يتم الهجوم الحقيقي ... وستكون الفرصة سانحة للتحول إلى الناظور من هذه النقطة، ومن ثم إعلان الحرب على الفرق العسكرية المرابطة هناك. والحقيقة أن هذا المخطط كان محكما باعتباره يدبر للهجوم على العدو من الخلف، ويستغفله عند سحبه لقواته من الجبهة الرئيسية. ستكون ضربة موجعة لا محالة. وبهذا المخطط ظهر خيال ومنطق "برنكر" وهو يصمم ويخطط لعملية هجومية ممتازة، جعلت معارضيه ومنتقديه -كـ«ويلر Weyler، ولوكي Luque- يشيرون إليه بأصابع الاتهام لعدم تفكيره من قبل في هذه الأمور، وتطبيقها على أرض الواقع. ويوم الرابع من غشت، فكر "برنكر" في القيام بجس النبض، لكنه كان بحاجة إلى أمور أربعة: الجرأة، وبارجة حربية، ووزيرين جيدين.

وقبل التجربة، طالب "برنكر" بالبارجة الحربية المسماة بالفونصو الثالث عشر. كان ذلك في اليوم الموالي من سقوط الناظور وفاجعة سلوان. كما اقترح شراء باخرتين للنقل قائلا: «بعثتُ بهما إلى جبل طارق لإجراء الفحص التقني، فأخبروني أنهما جيدتان وصالحتان لأي عملية إبحار نتوخى من ورائها تقويض المقاومة بالمارشيكا، وطالبوا مقابلها ثلاثمائة الف بسيطة»[213]. لم يكن الطلب مستعصيا، لكن خواكين فرنانديث بريدا Joaquín Fernández Prida -هذا الأستاذ صاحب الكرسي في التاريخ والقانون الدولي- والذي وجد نفسه فجاة على راس الأسطول، فقاده كما يقود مركبا للتجوال في بحيرة "ريتيرو"، لم يفهم شيئا مما يجري.

كان هذا البرلماني الموريستي (نسبة إلى ماورا Maura)، والذي شغل من قبل منصب وزير العدل ثم وزير الحكومة، من اشد المعارضين لنوايا إيزا. فتصدى له بكل شكوكه، فخضع وزير الحرب واستسلم مستطردا اكثر: «إن وزير البحرية يقول بان إبحار "الفونصو الثالث عشر" إلى مليلية، سوف تكون له مساوئ وسلبيات كبيرة بالنظر إلى حمولته، بغض النظر عن جملة من الصعوبات التي ذكرها». وكخطوة موالية، الغيت كلّ عمليات شراء العتاد الذي سيستخدم في إنزال القوات، وذكر كذلك: «كما ان (فرنانديث بريدا) اخبرني ان لا حاجة لنا ببواخر النقل». وفجاة تغير مجرى الحديث، وحسب اعتقاده، (أي فرنانديث بريدا)، فإن القضية يمكن حلها بتعيين مساعد أدميرال، يحمل على عاتقه مسؤولية قيادة القوات البحرية[214]. ليس من الصعب تخيل دهشة وغضب "برنكر". لم تكن هناك مدرعات، ولا مراكب للنقل، لكن مساعد الأدميرال كانت مسألة إرساله محتملة، ولهذا جاء جوابه (برنكر) على هذا النحو: «أظن أنه من الخطأ عدم إرسال بارجة الفونصو الثالث عشر». واضاف بسخرية كذلك: «ارى انه ليس من الضروري أن تبعث لنا مساعد ادميرال، إذا لم توافينا سعادتك ببعض القوات». وفي عفوية كانت اقل من عفوية سيلفستري، جاء جوابه على إيزا في الرابع من غشت مشابها لجواب الأول يوم الخامس يوليوز: «فلتحتفظ بهذا "المساعد أدميرال"».

على ضوء الأحداث السالفة الذكر، بات من المستحيل انتظار أي نتيجة من عملية الرابع من غشت المزمع إجراؤها على ريستينكا. فمن الحديث عن عمليات هجوم كبرى، تم الانتقال إلى إجراء مناوشات بسيطة فاشلة، حتى وإن خلفت ثمانية وثلاثين

فردا من الخسائر البشرية. وبات نفارو الذي سمع بأصداء حملة عسكرية، يطلب النجدة بكل استعجال. ووصلت البرقية التي ابرقت إلى "اطاليون" بيد "سان خورخو" الذي كان على متن بارجة "كاطلونيا"، فحول بدوره هذه الرسالة إلى المقيم العام الذي كان على متن سفينة "خيرالدا". وفي الوقت الذي كان فيه "برنكر" يفكر بالجواب، وصلت مجموعة من المكالمات المزعجة من أعرويت إلى أطاليون، فالتقطها ملازم التلغراف كاسترو. إنه نفارو الذي يتساءل عما إذا كانوا سيوافونه بفرق الإنقاذ. ولم يستطع "برنكر" الذي ضاق ذرعا بهذه الأحداث، ان يرسل له شيئا اكثر من آمال في إجراء مفاوضات مع العدو. وكان المبعوث هو: «صديقنا ادريس بن سعيد، الذي تعرفه. وقد ارسلته إلى حضرتك لكي يسهل انسحاب الكتيبة»[215].

دبت الهزيمة والانكسار في نفوس رجال نفارو، وهم يتطلعون إلى أعمدة الدخان المتصاعد من سلوان. كانت المدافع الكبرى للأسطول غارقة في صمتها، وقد تساءل بريث اورتيث قائلا: «ترى، الا تملك إسبانيا قنابل ولا طائرات أخرى اكثر؟» وباسم المعتقلين ناشد الدولة: «اي تنظيم هذا، الذي لم يستطع في تسعة عشر يوما -من الواحد والعشرين من يوليوز إلى التاسع من غشت- إرسال كتيبة إلى ريستنكا، لتقطع خمسة وعشرين كيلومترا من الأراضي المنبسطة، وتنقذ أسرى جبل أعرويت؟»[216].

ويوم الواحد والثلاثين من يوليوز، تراس "برنكر" اجتماعا للجنرالات، وتركز الحديث اساسا على موضوع إنقاذ نفارو. لكن المقيم العام -وبجانبه الجنرالات "كبانياس Cabanellas، وكبلكانتي Cavalcanti (الذي وصل لتوه)، و"فرسنيدا" Fresneda، ونيلا Neila، وسان خورخو Sanjurjo، إضافة إلى الكولونيل خوردانا Jordana- لم يوافه أحد من الحاضرين بأي خطة، لإنقاذ الوضع في أعرويت. وبعد جرد متشائم لقائمة التعزيزات الضرورية، والتي كانت على وشك الوصول، والتي وصفها بكونها مجموعة من الوحدات غير المتماسكة، تحدث "لإيزا" قائلا: «وبعدم تحريك القوات، أظن انني أسديت خدمة كبيرة، وقدمت اكبر تضحية يمكن ان تعطى للوطن، بعد التضحية بالنفس طبعا». فأجاب الوزير "برنكر" قائلا: «إن الرعية برمتها تقدر جسامة التضحية التي تقوم بها، والإكراهات التي تواجهك كرجل يملك قلب المحارب وعقل الحاكم المدبر، وثق بأنك ستنال المكافاة التي ستجعلك مفخرة بين الملك وشعبه»[217].

هذا وقد تسببت هذه العبارات التي اشيعت فيما بعد، في إثارة موجة من الانتقادات اللاذعة، كتلك التي صدرت من "اثانيا" Azaña، المراقب الخطير الذي ذكر سنة 1923، .إن الجنرال ("برنكر")، برهن على اننا مستعدون لتصديق أن عبد الكريم والريفيين كانوا هم المخطئين، والهدف كان هو نشر التفاؤل الرسمي»[218].

اعرب الجنرالات عن رغبتهم في تجنب القتال، فخالفهم ضباطهم. ويوم العشرين من يوليوز 1922، اكد الكولونيل ريكيلمي، ان كل سكان مليلية يرغبون في الذهاب لإنقاذ كل من يوجد في هضبة أعرويت. ولم يكن "ريكيلمي" وحده صاحب هذه التصريحات، بل كان هناك كذلك التلينتي كولونيل انطونيو زغري Antonio Zegri، وكل من الكومندان الثوغاراي Alzugaray وكرفخال Carvajal وغيرهم من المتعطشين للقتال. اما خطتهم، فكانت تخطيهم الحواجز والخطوط الريفية، ثم الوصول إلى أعرويت، ومن ثم العودة برجال نفارو و"كرفخال"، وهو من عُين ليعرض على القائد الأعلى فكرة تكوين كتيبة يتراسها كل الجنرالات، وكذا هيئة الضباط التي نجت من الكوارث كتيبة ينضمّ إلى صفوفها جنود من مختلف الفرق العسكرية، وذلك لإنقاذ إخوانهم بجبل أعرويت[219]. وهذا مشهد آخر من المشاهد الرائعة والهائلة لأنوال الإسبانية. الضباط يجتمعون ليطلبوا من الجنرال ان يقاتل وينقذ ما تبقى من جيش سيلفستري.

فقد المقيم العام صوابه بسبب هذه الفكرة، إذ كيف يسمح بهجوم يشنه آلاف من الرجال، سيقطعون خمسة وثلاثين كيلومترا للوصول إلى القشلة المحاصرة، فجاء الجواب بالنفي. وكان محقا من الوجهة التكتيكية، إذ ان مخططه كان افضل بكثير، لكن من الناحية الأخلاقية وربما من الناحية العملية كذلك، كان مخطئا، إذ كان بإمكان هذه التشكيلة التي انتظمت في شكل فرقة، مكونة من عشرة آلاف رجل، ان تقوض (وحتى تاريخ الثالث من غشت، وهو اليوم الذي استسلمت فيه سلوان) دعائم المقاومة الريفية، وتصل بعدها إلى أعرويت، فتبحر ثانية من جهة ريستنكا. والحقيقة انه ولإنجاز هذه العملية، كانت الحاجة ماسة إلى أسطول ووزير بحرية. لم يكن "برنكر" يمتلك شيئا من هذا القبيل، ولهذا جاء جوابه لـ"ريكيلمي" بانه بأعرويت، «ليس هناك من خيار آخر، سوى الخضوع والاستسلام».

كان "ريكيلمي" لا يختلف عن سيلفستري في إلحاحه وإصراره، ووصف "برنكر"، الذي اشتد الضغط عليه، الفكرة بانها جنونية ولا يمكن تطبيقها. لكنه امر باستدعاء

خوردانا، فخاطبه قائلا: «كولونيل، كم من الأرواح ستُحْصَد في هذه العملية؟» فأجاب خوردانا في مراوغة ودقة حوالي الف وخمسمائة». واعتبر "برنكر" هذه الخسائر كبيرة ولا تحتمل، وعقب "ريكيلمي" «إن عمليات الإنقاذ هاته، ستؤثر بشكل فعال على نتائج الحملة وعلى سمعة الجنود الإسبان».

اقترح "برنكر" على ريكيلمي فكرة الذهاب للقاء القائد العام، الذي لم يكن سوى "كبالكانتي" Cavalcante الذي خلف سيلفستري. وكان "كابلكانتي" رجل المفاجآت، فقد راودت "ريكيلمي" فكرة في نيل شرف قيادة فرق الإنقاذ بنفسه[220]، فأيده في ذلك الكومندان أبيليو باربرو ساندانيا Abilio Barbero Sandaña، ومساعدوه كانيدو Cañedo وسانتياغو Santíago. عاد "ريكيلمي" يقفز من الفرحة، وهو يتشوق لملاقاة المقيم العام، لكنه تلقى إجابة حاسمة لا رجعة فيها. فلا خروج من مليلية ولا ذهاب إلى اي مكان، لا من اجل نفارو، ولا من اجل شخص آخر. كل التفكير يجب أن ينصب حول مليلية وإنقاذها، ويجب إعطاء أمثلة من الروح الوطنية العالية والتخلص من الاختلافات اللامعقولة في الراي[221]، كانت هذه إذن، هي خلاصة الجواب بالرفض الذي ورد يوم السادس من غشت في تقرير وقعه ستة من الجنرالات وكولونيل واحد.

وبسقوط اعرويت تكشفت الحقيقة، وبرهن "برنكر" على انه لا يملك سوى تسعة عشر الف وثلاثمائة وسبعة وثلاثين رجلا: ثلاثة آلاف منهم كانوا من القدماء المحاربين، كانوا معاقين جسديا او ذهنيا، وبما انه كان يحتاج إلى ما تبقى من الجنود لحماية مليلية، فإن ثمانية آلاف وخمسمائة من المشاة هو ما تبقى لتشكيل الكتيبة[222]. لكن تحقيقات أيالا ورويث دي لافونتي Ayala y Ruiz de la Fuente، أثبتت وبطريقة غير قابلة للنقاش، انه وبتاريخ التاسع من غشت 1921، كان بمليلية خمسة وعشرون الفا وثمانمائة وستة رجال موزعين على الشكل التالي: ثمانمائة وخمسة واربعون قائدا وضابطا، واربعة وعشرون الفا وتسعمائة وواحد وستون جنديا[223].

وفي حديث جمع "برنكر" بإيزا، يوم التاسع والعشرين من يوليوز على الساعة الثانية عشر والنصف، استدل "برنكر" بما يلي: «صحيح أن هذا الوضع فريد من نوعه، فالأمر لا يتعلق فقط بتعزيز وحدات الجيش، بل بإنشاء وخلق جيش آخر ليقاتل في اليوم الموالي». وافق إيزا "برنكر" على قوله مرددا: «هذا ما نستطيع إرساله في هذه اللحظات الأولى»[224].

هذا وقد كتب خوان "برنكر" الذي كان مديرا ليومية "إيل بوبولار"، تلخيصا بصفته كذلك رجل حرب، شارك كملازم ثان في المناوشات العسكرية عند سفوح جبال الكوروكو، تحدث فيه عن تلك الأحداث قائلا: «إن الخطر الكبير الذي يجب استئصاله من وسط الجيش، هو التردد وحيرة قاداته»[225]. نعم وبلا شك، لكن أيضا تردد وحيرة وزرائه.

بلاغ ينفي وقوع مجازر (أو محارق) في أعرويت

وفيما يتعلق بكتيبة نفارو، وضع "برنكر" ثقته في كل من " ادريس بن سعيد "، و"ابن شلال"، و"ابن هلول"، وكذلك في "ابن اسماني"، هذا الريفي الذي ذاع صيته في كل البقاع. كان جاسوسا معروفا باسم إيل غاتو، ولا يجوز الخلط بينه وبين ابن حمادي، الذي قطع المدافعون التابعون للقائد اريثا Ariza، اذنيه خلال حرب 1893. وتقدم بن اسماني هذا إلى ابن شلال بطلب الدخول في مباحثات مع الجنرال نفارو.

اجاب قائد بوإفرور برسالة، اكد فيها انه يمتلك مائتي بندقية، والمعنى هنا مائتين من المسلحين الأوفياء. وتحسبا لوقوع الرسالة في أيدي العدو، قام ابن شلال بتغيير عبارة "بنادق" بـ"ريالات"[226]. لكن مائتين من حاملي البنادق، لم تكن تعني شيئا بأعرويت، حيث إن رجال الحركة كانوا حوالي خمسة آلاف رجل.

وداخل المعسكر المحاصر، تحولت منابع الماء إلى مقابر، وداهمت المدفعية الريفية بطلقاتها أسوار المكان، وتجاوز عدد الجرحى الأربعمائة نفر. كما افترس التعفن العديد من الجنود، حيث وصل عدد الوفيات في السابع من غشت إلى مائة وسبعة وستين. تجندت الفرق الطبية لاستئصال الأعضاء المتعفّنة بدون تخدير، كما هو الحال مع بريمو دي ريفيرا، الذي قال لأطبائه الملازمين بنيا Peña، وربويار Rebollar: «هيا انهوا الأمر بسرعة». وعض بأسنانه على قطعة القماش التي طلبها، فاستأصلوا له ساعده الأيسر الذي أصيب بقذيفة. وكانت العملية سريعة ووحشية، بقي بريمو دي ريفيرا على إثرها فاقدا للوعي، وبعد يومين مات بسبب التعفن[227].

لم يكن لأعرويت من خيار آخر سوى الاستسلام والثقة بالعدو، حيث أصبح من المستحيل الاستمرار في المقاومة. خاصة بعد صدور أمر قيل إن صاحبه هو نفارو، أمر بمنع الاحتجاج بشكل نهائي[228]. فقام بعض الجنود بالانتحار وتمرد البعض الآخر.

استغرقت محادثات نفارو يومين كاملين، تشبث فيهما بمطالبه التي تمثلت في ترك الجنود اسلحتهم، وحمل الجرحى على متن نقالات إلى مليلية بصحبة اطبائهم، واحتفاظ الضباط بأمتعتهم الشخصية واسلحتهم. كان اليوم هو التاسع من غشت، ولا توجد في اعرويت ولا قطرة ماء واحدة. وبحلول الزوال، ثبت مجموعة من الجنود فوق الأسوار، وركضت في اتجاه منبع الماء، فناداهم الضباط بأعلى صوتهم، وهددوهم. كانت النيران تطال كل من يغامر بالخروج، وكان بريث أورتيث عند المدخل، يحاول منع خروج اي جندي طائش. وفجأة سمع تلك الصيحة المرعبة: «لنقتل الضباط». استدار التنينتي كولونيل والمسدس بيده، كانت امامه جموع غفيرة يقدر عددها بحوالي ثلاثين رجلا، كان اليأس سيد الموقف. فسأل عن صاحب الصوت الذي ينادي بالقتل، فانكمش الجنود وتكدسوا في حلقة، وساروا يدلون بشهادتهم. فتقدم واحد منهم وهو يمشي في ارتباك ورعب، واشار بأصبعه إلى المتمرد صاحب العبارة، فاتجه نحوه بريث أورتيث، وفي الوقت الذي اراد أن يخرجه من بين الصفوف، ارتمى عليه الرجل فصار يعانقه ويقبله بحرارة، وهو يبكي بكل حزن وكآبة[229].

كان الكومندان بيار، المعروف منذ أحداث ابران، أول من استهل المحادثات مع أعيان الحركة، فخرج لذلك الغرض يوم الثامن من غشت. ومنذ ذلك الحين، انقطعت عنه الأخبار. كان الأمل معقودا في أن يكون أوفر حظا من الملازم نيكولاس سوارث كانطون Nicolás Suárez Cantón، الذي كان عضوا في الشرطة الأهلية، والذي لقي مصرعه بالرصاص بعد خروجه يوم السادس من غشت، وهو يلوّح بعلم البرلمان. كانت الاتفاقيات تجري مع "بوحراي" و"عبيد الحاج" و"ابن شلال" الغني عن التعريف، ولم يتم الحديث عن المال، رغم أن الريفيين كانوا يحسبون ويقدرون قيمة هذا الجنرال، الذي كان يرتدي قميصا، ويشد خاصرته بحزام احمر -وبمثل هذا الزي كان يتحرك نفارو داخل المعسكر- وكذا قيمة بعض ضباطه التي قد تساوي عشرة آلاف ريال. اما الباقين، فاي مبلغ كان يفي بالغرض. وبموازاة ذلك، كانت هناك اتفاقيات يجري الحديث فيها عن الملايين. فقد انتهى إلى العلم، أن ملازما من الشرطة رفقة اثنين آخرين، ركبوا الجياد وذهبوا ليعلنوا استسلام اعرويت، فتمت المطالبة بتسليم السلاح وثلاثة ملايين بسيطة[230].

وفي نفس الوقت، تلقى "برنكر" إعلانا من "كبالكنتي"، أحضره له مبعوث عبد الكريم المتواجد بجبل مورو. وطلب منه ان يعمل جاهدا على إرجاع هذه الكتيبة إلى مليلية، لكن العملية جوبهت بمخاطر جمة. لم يكن واردا تمرد كل من قبائل بني بويحيى ومطالسة،[231].

وصلت هذه الرسالة، التي أكدها "برنكر" بدوره إلى "إيزا" في محادثة تليغرافية، يوم الثامن من غشت على الساعة الثامنة والنصف، لتميط اللثام عن محاولة الزعيم الريفي تفادي وقوع مجزرة، والتحذير من عواقب الأمور. ولم يكن زعيم حركة بني ورياغل يمثله أحد بأعرويت، لذلك وقعت المذابح أثناء غيابه.

آنذاك، علِم "برنكر" من إيزا أنه سيوافيه بستة وثلاثين الف رجل لتحصين منطقة مليلية، واعتبر "برنكر" أن هذا العدد سيمكن من تحقيق غارات بسيطة ستعيد الناظور وسلوان واطلاطن ويزانين إلى خط 1910[232]. فلا حديث عن أعرويت، وكأنها لم تكن موجودة. وبموازاة مع ذلك، أخبر المقيم العام بإرساله لأربعمائة الف كيس رملي، وخمسمائة كيلومتر من الأسلاك الشائكة، يوم الثامن والعشرين من يوليوز. إضافة إلى واحد وثلاثين الف قذيفة، وعشرين الف خرطوشة من نوع "ماوسر". في حين أن الطلب كان ينادي بخمسين مليونا[233]، ولو كان سيلفستري لاكتفى بربع هذا المقدار.

انقضت الآجال المحددة في أعرويت وعاد بيار. لم يعرف أحد تفاصيل الاتفاق الذي جرى بين الكومندان والزعماء الريفيين. ويعتبر خسوس بيار الفرادو Jesús Villar Alvarado، شخصية رئيسية لمعرفة تفاصيل الأحداث، وبالضبط في الأيام الأخيرة، ليس فقط في أعرويت، وكذلك معرفة الجوانب المظلمة في المأساة الإفريقية، التي بدأت أولى فصولها بجبال تمسمان. لكن شاءت الأقدار، أن يعدم بيار خلال فترة أسره بأجدير في الثاني عشر من يناير 1922.

وفي التاسع من غشت على الساعة الواحدة إلا ربع، أعلن نفارو انتهاء مقاومته. وإبان خروجه لملاقاة زعماء الحركة، أصدر أوامره بإرسال برقية إلى "برنكر" جاء فيها، «أتوسل إلى سعادتكم الموقرة، بأن تبلغوا جلالة الملك بعمق شكر فرقتنا العسكرية، وامتنانها لما بعثه فخامته إلينا من سلام حار في لحظات عصيبة مليئة بالأخطار والمحن»[234].

التقى نفارو بابن شلال وبوحراي وعابيد لحاج تحت عتبة بويرتا دي فانتاسيا Puerta de Fantasía، التي لم يبق منها سوى الأطلال، والتي تدل على جبل اعرويت. كان بجانب نفارو كل من بيار والقبطان ساينث Sainz وكالفيط Calvet والمترجم الكايدي Alcaide. نص الاتفاق على التنازل عن السلاح والرحيل مع الجرحى دون ان يصاب احد باذى. وذكر انطونيو الكايدي لينارس Linares Alcaide Antonio، ان الأوامر كانت تمرر بسرعة لتنفيذ الاتفاق. وعلى الساعة الواحدة زوالا من يوم التاسع من غشت، انتقل برفقة الجنرال بعض ضباطه الذين اصطحبوه إلى المحطة...[235]. لم يشك نفارو في شيء، حتى إنه استدار ليدعو "ماركيري" Marquerie للانضمام إلى هيئة اركان حربه، لكن استاذ الأكاديمية الحربية في سيغوفيا، وبرباطة جاش رفض الدعوة، وفضل مشاطرة جنوده مصيرهم. ورفع يده ليؤدي التحية للجنرال الذي انصرف.

كان الفريدو ماركيري إي رويث دلغادو Alfredo Marquerie y Ruiz delgado رجلا قوي البنية، بدينا نسبيا إن صح التعبير. كانت نظراته حادة، ومعاملاته بشوشة. علاوة على انه كان ابا حساسا ذا عاطفة جياشة، وكان له ابن في مليلية يبلغ من العمر اربعة عشر ربيعا. ومع مرور الوقت، صار هذا الابن ناقدا مسرحيا مشهورا. وقبل الخروج إلى دار الدريوش، ودع ابنه بهذه العبارات: «ولدي، لن نلتقي مجددا»[236].

اصطفت امام "ماركيريي" صفوف عريضة من المرضى والجرحى، كانت تتاهب للخروج في الدفعة الأولى. وهناك كان الملازمون الأطباء تيوفيلو ريبويار مارتينث Teófilo Rebollar Martínez، وخوصي روفير موطا José Rover Motta، وإنريكي فيديغاين اغيلار Enrique Videgain Aguilar، يتحدثون مع فيليب بنيا Felipe Peña، الذي اصيب بجرح في راسه أثناء دفاعه عن أسوار المعسكر. كان هذا الحدث سببا في ترشيحه لنيل الوسام. وفي إحدى النقالات، كان يرقد نجل الكولونيل سانتيث مونخي، وقد بترت إحدى ساقيه بسبب نفس القذيفة التي حصدت ارواح ثلاثين آخرين يوم السابع من غشت. وكان ضمن الجرحى، القبطان لوبو الذي كان قائدا على ابن طيب. بالإضافة إلى التنينتي كولونيل "مارينا"، والقبطان "باندين" Bandin، الذي كان القائد الأول في اعرويت، والذي أصبح شبه اعمى.

كان "مانويل باندين" طريح الفراش بمليلية، كان يشكو من الم حاد في عينه. وما ان علم بأخبار الكارثة حتى صعد إلى سيارة نقلته إلى أعرويت في نفس اليوم (الثاني والعشرين من يوليوز). فوقف منتصبا وبجانبه -وحسب بعض الشهود-[237]،صديقه الملازم بيدرو غاي دي لا طوري Pedro Gay de la Torre، وبالقرب منه، احتشدت مجموعة من ضباط الكانطرا من بينهم، القبطان خوليان تريانا بلاسكو Julián Triana Blasco، الذي دافع عن الباب الرئيسية بمدفعه الرشاش. وحضر الملازمان خوصي دي مانطرولا José de Manterola، وفيكتوريانو بواس إلفيرا Victoriano Púas Elvira، وكذا قس الفرقة السيد "خوصي كابوي إيريغوين" José Capoy Irigoyen [238]. كانت علامات القتال تبدو واضحة عليهم، وظنوا ان ايام الاشتباكات الحادية عشر التي خاضوها قد انتهت. وببساطة تباهوا باوسمتهم، ووثق الكل بالنصر والنجاة، لكن الموت كان يتربص لهم ولم يسلم احد منهم سوى "بنيا" Peña.

اصدر امر بالخروج، واعطيت الانطلاقة في مجموعة من النقاط. وكإشارة للتنبيه، تم التلويح بعمامات في الهواء[239].

فاندفع الريفيون للاستيلاء على السلاح والأرواح، وداسوا في طريقهم كل الجرحى، وضربوا الجنود والضباط، فكانت المجزرة، مجزرة كل الجنود. وتوجه "ماركيي" إلى رفاقه بالخطاب: «أدوا الصلاة إن كنتم تؤمنون، لأنها اللحظة الأخيرة». فاختلطت الأمور على الجيش الذي أصبح أعزلا، وانكمشوا على بعضهم البعض بحثا عن النجاة، ومنهم من خرج يركض لا يعرف وجهته. وفي الخارج، كان رجال بني بويحيى ومطالسة ينتظرونهم. سبعة سنين مرت وهم ينتظرون هذا اليوم المشهود، فطوقوا ببنادقهم الباب الخارجية ومرتفع أعرويت، وخرج الإسبان يركضون على طول الطريق المؤدية إلى الموت المحقق. القليل منهم من استطاع الوصول والفرار من الموت. ومن تاتى له ذلك، كانت تنتظره اهوال اخرى كالضياع وسط الحقول، التي تشتعل أملا في الوصول إلى مليلية. وهناك من تظاهر بالجنون ليستميل شفقة سكان بعض الدواوير. وبقي هناك خيار آخر، خيار إنقاذ الحياة بواسطة المال عن طريق الأهل والأصدقاء، وتلك حالة "فيليب بنيا"، الذي تمكن من الوصول إلى الزغنغن رغم جراحه الخطيرة، وهناك تفاوض بشأن حريته[240].

تملك الرعب والفزع نفارو ومجموعته، فقد شلّت المذابح حركاتهم، وظنوا انهم ميتون لا محالة. وكان على ابن شلال وآخرين من الزعماء الريفيين، ان يتصدوا ببنادقهم لكل من يحاول الاقتراب من المحطة. لقد كتبت لهم النجاة، بعد انصراف الريفيين إلى البحث عن غنائم الحرب. آنذاك، قدم الريفيون جوادا للجنرال، وحملوا معهم ما تبقى من الضباط[241]. كانت الوجهة نحو البيوت التي يمتلكها ابن شلال على بعد كيلومتر واحد او اكثر في الشمال الشرقي لأعرويت. وهناك مكثوا حتى حدود الخامس والعشرين من غشت، وهو التاريخ الذي رحلوا فيه إلى الحسيمة.

لا احد كان يعلم بالوضع في مليلية، إلى ان وصل في اليوم الموالي اثنان من الجنود، استطاعوا الفرار من المجزرة، ورووا على مسامع "برنكر" ان شرذمة من القبائل هاجمت المعسكر بهدف الاستيلاء على الأسلحة، التي كان الجنود الإسبان قد تركوها مسبقا، الشيء الذي نتج عنه حدوث اشتباكات عنيفة، خلفت العديد من القتلى في صفوف الحامية العسكرية. لم يصدق "برنكر" تلك الرواية، فبدا مرتابا، إلى ان اخبروه بوصول مبعوث (رسول) يحمل رسالة من نفارو. وصف جنرال أعرويت الوضع لرئيسه بقوله، «وبعد الكارثة وقعت في الأسر...». كما عرض عليه قائمة بأسماء من يرافقونه، «الكومندان ثاراغوثا، وبيار، والقبطان ساينث، وكوريا Correa، وإرنانديث واغيري Aguirre، وكذا الملازم إنريلي Enrile، والملازم الثاني اريبالو Arévalo، وجيلبرت Gilabert، والمترجم الكايدي، بالإضافة إلى سبعة من الجنود». وبعد هذا الجرد، عرض عليه الثمن المطلوب مقابل إطلاق سراحهم، عشرة آلاف ريال لكل واحد. واشار إلى المكان الذي يمكن ان يرسل إليه المبلغ -ريستينكا- وختم الرسالة بخاتمه، لقد اكد ان الكارثة حقيقة لا غبار عليها.

اجرى "برنكر" اتصالا مع مدريد يوم الأربعاء العاشر من غشت، على الساعة الواحدة وعشر دقائق، وبعد التحية، اعتذر لإيزا قائلا: «اعتذر عن اتصالي بسعادتكم في هذه الساعة غير المناسبة(!) لأخبركم بالنهاية المؤلمة للمقاومة البطولية في اعرويت». ولتهدئة الوزير، اوضح بانه كتب لنفارو رسالة يخبره فيها بالموافقة على شروط إنقاذه من الأسر، واشار كذلك ان المبعوثين الريفيين بإمكانهم الذهاب حتى آبار "أوْكْراز"، فهذا هو الطريق الآمن. ومن هناك، السير إلى ريستنكا حيث سيتقاضون الثمن المتفق

عليه. فاجاب إيزا بما يلي: «الحقيقة ان كل ما رويته لي يعد شيئا مؤلما للغاية، وكل هذه الجرائم النكراء التي ذهب ضحيتها إخواننا، تثير بحق السخط»[242].

ومر يوم آخر، وظهر جنديان آخران ممن بقوا على قيد الحياة، فاكدا للحاضرين كل الفظاعات التي كانا شاهدين عليها باعرويت. ومن جهة اخرى، كان "برنكر" يعلم بان الحكومة شرعت في تقديم الاستقالة. وإزاء هذا الحدث، عهد إلى إيزا بما يلي: «إنني اظن ان الأمر تلفّه إشاعات، وإن تاكد عكس ذلك، سوف اكون اول من ياسف فعلا لهذه النهاية». واكد له إيزا ان الأزمة حقيقية، فما كان جواب "برنكر" إلا ان اشار عليه بإمكانية الاعتماد على البرقية التي بعث بها إليه يوم الرابع من غشت، والتي تحدث فيها عن تسخير منصبه لخدمة الحكومة. وفي خضم هذه المحادثات الهاتفية سُلمت لـ"برنكر" رسالة مناجاة اتى بها رسول موثوق به، وفيما بعد بثّها إلى إيزا باعتبارها اكثر مواساة من سابقتها.

كان مصدر البريد ابن شلال، الذي اكد ان منزله يحتضن جنرالا وجنودا آخرين، تقاطروا فيما بعد، إلى ان وصل عددهم إلى ثمانية وعشرين. بعدها، تحدث عن ثلاثمائة رجل رحلوا بمحض إرادتهم إلى بني سعيد، بقيادة رجال من بني ورياغل، رافقوهم ليقدموهم إلى عبد الكريم. ونقل إليه انه في صبيحة يوم الانسحاب، كان إطلاق النار مكثفا، فسقط على إثره مائة من رجالنا، لكن جنودنا لم يتعرضوا لخيانات ولا لمضايقات (!). وهكذا، اختلطت الأمور على "برنكر"، فذكر لإيزا ان هذه الرسالة تتطابق مع سابقتها، التي اطلعه عليها مكتب الشؤون الأهلية. وهو ما جعله يفكر: «ان ما رواه الجنود له من قصص مبالغ فيها، وبالتالي إذا اقنعهم بهذا، فلا داعي إلى ان يرسل لهم الرسالة»[243]. وبكل ثقة، اجاب إيزا: «بإمكانك إلغاء الإرسال».

لقد تجرا "برنكر" على اعتبار الأمر ممكنا، بمعنى انه من الممكن ان ينسحب "ثلاثمائة" من الإسبان، وبمحض إرادتهم، لملاقاة زعيم الثورة الريفية، فيجتازون كل الأراضي المرتفعة (والتي تقدر مساحتها بمائة كيلومتر ما بين اعرويت وانوال). وفي نفس اليوم الحادي عشر من غشت، صدر عن يومية "الصول" التي كتبت عنوانا بخط عريض جاء فيه: «المورو يدخلون إلى جبل اعرويت». وفي المقابل، اعلنت صحيفة ا.ب.سي اليومية المحافظة ما يلي: «من المنتظر ان يصل اليوم إلى مليلية الجنرال نفارو مع بعض العناصر من فرقته». لكن الصحيفة التي كانت اكثر مصداقية، هي

"يومية عمليات فرقة مليلية". "**دياريودي اوبيثيونس دي لا إسكوادريا دي مليليه**"، فما بين العاشر والسادس عشر من غشت لسنة 1921، نشرت عبارة مقتضبة تقول: «توقف الطيران»[244]. ليس بسبب النقص في الوقود أو القنابل، أو بسبب خصاص في الطيارين أو الطائرات، كل ما في الأمر أن آخر من حلق فوق أعرويت هما - الثنائي بورواغا - كماشو، ماتيو فالدس - وكاربيو بيود - اكتشفا الآلاف من الجثث الهامدة دون حراك.

وأضاف "برنكر" لإيزا: «لقد طلبوا مني اليوم (دون أن يحدد مَن) ترخيصا لإلغاء كل الرحلات الجوية، ولأن الطائرات في حاجة ماسة إلى الراحة حتى تستطيع الطيران»[245]. كان التماس الراحة حجة واهية للتقاعس، وعدم الإسراع لإنقاذ ما تبقى من جيوش سيلفستري التي هلك منها الكثير.

إقالة الحكومة وصدور أوامر باستعمال الأسلحة الكيماوية

يوم الثاني عشر من غشت، جرى اتصال تلغرافي آخر بين كل من الوزير إيزا و"برنكر". أما ميان أستراي فكان متواجدا بمكتب الوزير، إذ ذهب إلى (بويناپيستا) ليطلعه على آخر الأنباء بمليلية، وجاءت نهاية المحادثات على هذا النحو:

الوزير: «وبشأن المدفعية التي يشغلني أمرها كثيرا، أود القول بأن كل الطلبات في طور الإنجاز، كما قمنا كذلك بشراء عربات مصفحة ومدرعات، ومواد تستخدم في تركيب غازات خانقة ستحضر هناك في مليلية».

المقيم العام: «كنت دائما أعارض استعمال الغازات السامة ضد هؤلاء الأهالي، الآن وقد خدعونا وبعد تصرفاتهم المشينة معنا، فسأستعملها ضدهم بكل سرور».

الوزير: «وفيما يخص الغازات، فقد فكرت في تشييد مصنع في مليلية، ولك أنت أن تتدبر كيفية استعمالها ونفنها، هذا هو كل شيء. وداعا الآن ولك مني أحر السلام».

المقيم العام: «صدقني، سأستعمل هذه الغازات. أتركك الآن مع أطيب التحيات»[246].

لم يشعر "برنكر" بصفته مقيما عاما أن أهدافه تحققت كاملة. لكن الكبريت والفوسجين Fosgeno، وهي نفس الغازات التي استعملها الألمان في حروبهم سنة (1915)، كانت في طريقها إلى المغرب.

في تركيبة تعتمد اساسا على كِبْريتور - كلور، ولدت هذه الغازات السامة تشكيلة مميتة، إذ إن تاثيراتها كانت جد خطيرة، فهي تستهدف الغشاءات المخاطية للخلايا التنفسية فتدمرها، محدثة بذلك اختناقات حادة وبالتالي الموت. اعراض اخرى تجلت في ظهور (قروح) خطيرة على الجلد، او التسبب في العمى الجزئي او الكلي[247]. هذا وقد كانت اتفاقيات لاهاي الموقعة ما بين عامي -1899 و 1907- قد حذرت من استعمال الغازات في الحروب، وجاءت معاهدة فيرساي لسنة 1919 (التي وقعت عليها إسبانيا في عهد الملك الفونصو) لتؤكد على هذا الحظر. لكن اليأس الذي تسببت فيه مجازر الإسبان في كل من اعرويت والكبداني والناظور وسلوان، قضى على كل اشكال الحواجز الأخلاقية التي تمنع استعمال هذه الغازات.

فامام وحشية الحرب التي كان الطرفان المتنازعان، بشق الأنفس يحصلان فيها على الأسرى. وامام التماطل والتاخير في تكوين جيش قادر على القتال ومداهمة الجبهات بقوة، وامام عجز القيادات ومعاناة الجيش، طلب البرلمان استعمال الغازات السامة. وبهذه العبارات كان الحديث يجري بين كل من سولانو Solano وكرسبو دي لارا Crespo de Lara [148].

جاء الطلب على هذه الغازات في العشرين من غشت 1921، وهو نفس التاريخ الذي طُلبت فيه غازات سامة لشحن القنابل والمتفجرات المناسبة[249]. لكن المواثيق الدولية اجهضت هذه المحاولة، فمرت سنتان.

وجاء هذا القرار الدموي بعد الاستيلاء على تيزي عزة، جنة الريف، فتبددت كل المخاوف، ففي يوم الخامس عشر من يوليوز 1923، تحدث لويس سيلفيلا الذي كان وزيرا سابقا للبحرية، وآنذاك مقيما عاما إلى ايثبورو Aizpuro، عن الرعب الذي احدثته التجارب البسيطة التي تمت في تيزي عزة باستعمال قذائف المدفعية. وطلب سيلفيلا بانعقاد اجتماع غدا بمجلس الوزراء، والعمل على حل الملف العالق، والذي يخص شراء وإرسال خمسة آلاف من قنابل الغازات السامة[250]. وبعد التشاور مع الجنرالين كاسترو جيرونا، ومارتينيث انيدو، اعتبر سيلفيلا ان الحل السريع يكمن في استعمال هذه الوسيلة. وستسمح هذه المبادرة بإنقاذ حياة رجالنا. وكيفما كان الحال فهذا افضل من ان يُروع الراي العام بمنظر اشتباكات دامية. وقبل شهر، فتح الملف من جديد في برلين، فلم تتوان المانيا في شخص عاهلها "ويمار" Weimar عن تقديم يد العون والمساعدة. فبعد

ان جن جنونها باستيلاء فرنسا على "رور" Rhur، لم تتحفظ في تسهيل وتصدير اسرار الحرب المدمرة لقوة استعمارية كانت عدوة لفرنسا في المغرب.

وعلم الكولونيل ديسبجول Despujol، الذي كان رئيسا لهيئة الأركان الحربية بالإقامة العامة، من مبعوثه في برلين السيد "ف. موهوا F. Mohoa"، بنتائج المباحثات التي تمت بينه وبين بون تشودي Von Tschudi، رئيس الطيران الألماني، ومدير قسم الكيماويات. وفي نفس اليوم (الرابع عشر من يوليوز 1923)، بعث "موهوا" بتقرير مفصل إلى التنينتي كولونيل كيندلان Kindelán، واتفق كل من المبعوثين الإسباني والألماني على ضرورة استعمال الغازات، فجاء في تصريحات لهما، «إن هذه الوسائل التي تظهر في البداية وكانها غير إنسانية، هي بالعكس جد إنسانية بالنظر إلى سرعة نتائجها». واضاف "موهوا" -وحسب تقديرات المهندس الألماني- فإن خمسين قنبلة من وزن خمسين كيلو في كل واحدة، هو عدد كاف لتطهير مساحة عشرين كلو متر مربع.

وانتهت المؤامرة بتشييد مصنع للمواد الكيماوية في سان مارتين دي لافيغا (في الجنوب الشرقي لمدريد)، أُطلق عليه اسم "الفونصو الثالث عشر". لكن وامام ضعف الإنتاج، تم ربط الاتصال بمجموعة سطولزنبرغ Stolzenberg الألمانية، التي اقترحت تصنيع -الكبريت- بمليلية بطريقة تقليدية، تعتمد على معالجة المادة الأولية -ديجلكتول- بحمض الهيدروكلوريك. وتمت العملية بشراء أطنان من الديجلكتول، كانت الوحيدة من نوعها في العالم بأسره، وتم تهريبها من المانيا[251]. كل هذه الأنباء والمعطيات وردت في برقية عثر عليها بين وثائق رومانونس. اما عن المصنع الذي كان "إيزا" يريد بناءه بمليلية، فقد تأتى له ذلك. فالمصنع حسب خريطة انجزتها شركة مناجم الريف للمنطقة سنة 1934 بسلم 1/ 20.000، كان يقع بموازاة الخيمة الثانية، في الكيلومتر 7,400 من الطريق المؤدية إلى الناظور، وسُمي بشكل واضح بمصنع الغازات[252].

المختفون من الجنود

بعد خمسة أشهر من وفاة سيلفستري، وبعد الاستماع إلى العديد من الأحياء، انتهى الجنرال من إعداد مستند ضخم، يتعلق الأمر بالجنرال بيكاسو الذي تطرق وبدقته المعهودة، إلى سرد وقائع الضباط الذين كانوا بأنوال يوم الثاني والعشرين من يوليوز. كان العدد الإجمالي هو مائة وأربعة وتسعين اسما، دوّن في ست صفحات، وشكلوا مقبرة.

ولنا نحن أن نتخيله هناك في مليلية، في خريف وشتاء 1921، وهو منكب على عمله يمحص الشهادات، ويوضح الالتباسات، ويدقق في النتائج، ويقرر الأفعال والتصرفات. استمع بيكاسو إلى ثمانية وسبعين رجلا وامرأة واحدة، ولا حديث إلا عن موضوع واحد: أنوال. ومن بين المُستجوبين، كان هناك ثلاثة وخمسون ضابطا، واثنان وعشرون من الجنود والمتقاعدين، وأربعة مدنيين (لاندلوثي Landaluce، وبيردو Verdu، والمترجم الكايدي، وخوانا مارتينيث لوبيث صاحبة المطعم).

وبعد الاستماع إلى الشهادات التسعة والسبعين، انتقل بيكاسو للحديث عن الأموات، والمفقودين والأسرى، وكل أولئك الذين رجعوا، فوضع الكل في مكانه المناسب دون أن تضرب له يد. رغم أنه عاش لحظات انفعال شديدة، جعلته يكتب إلى جانب الأسماء المائة والأربع والتسعين من ضحايا أنوال[253]، عبارات تخبرنا عن مصير أولئك. فكانت عبارة «ميت» التي أوردها سبع مرات، وكلمة "أسير" التي جاءت مذيلة بست ملاحظات وتعليقات، وعبارة "مفقودين" التي تكررت اثنين وسبعين مرة، وعبارة "حاضر" التي ذكرت في خمس وتسعين مناسبة.

ثلاثة عشر اسما آخر سُجل تحت عبارة غامضة تقول "لا"، والعدد كان مؤلفا من أربعة إسبان، وتسعة من الريفيين، واحد منهم على الأقل وهو ابراهيم بن لحسن، استطاع العودة إلى مليلية. كان شجاعا حيث أضفى صبغة الشرف على مهمته كمُقدّم، وكشف بعض أسرار الدراما التي وقعت عند ضفاف نهر ملوية.

واصل بيكاسو تدوين معلوماته، وهو أمر قام به في كل المعسكرات التي كان بها ضباط إسبان أو مُورو. واهتم بالأساس بعدد الجنود الحاضرين يوم الثاني والعشرين من يوليوز في كل من أفراو، بوهفورة، سمار، سيدي ادريس، تزروت أوزاي، طريبين، وفي كل المعسكرات حتى الصغيرة منها. فلم يكن حجم الحصن أو المعسكر ليرمز إلى البطولة أو العار.

ونفس العملية انتهجها بيكاسو مع المعسكرات الكبيرة، كمعسكر ابن طيب الذي سجل فيه عبارة "مختفي" في حق سبعة عشر اسما، من أصل خمسة وعشرين رجلا، ثم معسكر دار الدريوش الذي سجل فيه ما بين واحد وخمسين شخصا، اثنان وثلاثون "مختفيا"، وتسعة "وفيات". وللمرة السادسة عشر، تكررت العبارة المشؤومة، عبارة "مختفي" في حق واحد وثلاثين ضابطا، كانوا بسوق الثلاثاء، وبدار الكبداني، حيث

دمرت كتيبة أراخو عن بكرة أبيها بعد استسلامها المشين. وضع بيكاسو إلى جانب اثني عشر اسما عبارة "أسير"، وأمام أربعة جنود عبارة "حاضر"، وفي حالة واحدة عبارتا "مستشفى" و"جريح". أما الأسماء الخمسة والعشرون المتبقية، فسجلت على هامشها الكلمة النحسة "مختفي". وتلك كانت حصيلة ما وقع هناك يوم الخامس والعشرين من يوليوز 1921 [254].

شهور عديدة وبيكاسو مشغول بكتابة لوائح الحزن والكآبة هاته، تسعة شهور كاملة استغرقها في تقصي الحقائق بهدف الوصول إلى معرفة مصير جيش سيلفستري، هذا الجيش الذي اختفى دون أن يترك أثرا.

كانت أعرويت هي المنطقة التي احتضنت أكبر كَمّ من جثث الجنود المحنطين، والأجساد المتآكلة. جيش من الهياكل كان مستعدا لمعارضة الحقيقة الرسمية.

ولسنتين متتاليتين، ظلت هذه الصور المخيفة تخيم على منابر مجلس النواب. وقد تسببت في سقوط حكومات وخلع قادة كبار وزعماء عسكريين، ووصلت حتى إلى أعلى منصب في النظام، الملك.

كان غياب الكفاح المسلح، كفاح الجنرالات والحكومة على حد سواء، في سبيل إنقاذ قوات أعرويت، السبب في إنساب أسوأ التصورات بالجيش الألفونصي وقادته في إفريقيا. وهكذا أُبيدت الأحلام الاجتماعية والأخلاقية، التي كانت معلقة على الملكية، تلك الملكية التي تركت بأعرويت الأبواب مفتوحة على مصراعيها للجمهورية.

كان بيكاسو ومعه أغليرا Aguilera، ورفاقه، أيالا Ayala، ورومانوس Romanos، ورويث دي لافونتي Ruiz de la Fuente، من الذين يريدون معرفة الحقيقة. ومن نزاعاتهم حفظت المؤسسة العسكرية كرامتها وماء وجهها، وكذا البرلمان، الذي هو عماد السلطة الوطنية، خرج قويا. وبنفس الطاقة، انقذوا ذاكرة الجيش من الضياع والنسيان.

وفي أعرويت، ظهرت جثة الفين وستمائة وثمانية وستين رجلا، في شكل أشباح أو ما شابهها. وسنة بعد سنة، وبعد تطاير كتل الغبار والوحل والثلج والحرارة، تكشف للعيان أجساد ذلك الجيش. واستمرت اللقاءات المؤثرة والعاطفية مع رفات وجثث أولئك الأشخاص، وذلك حتى حدود الحرب الأهلية الإسبانية.

هوامش الفصل السادس

1) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 22 يوليوز 1921.
2) صحيفة الصول، نشرة السبت 23 يوليوز 1921.
3) المصدر نفسه.
4) صحيفة *الصول*، نشرة الأحد 24 يوليوز 1921.
5) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأحد 1971/07/24.
6) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر شيفت" 1921/07/22.
7) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 139-140.
8) المصدر نفسه، ص. 350.
9) المصدر نفسه، ص. 595.
10) تاريخ *الحملات*... الجزء الثالث. ص. 466.
11) ملف الكولونيل أراوخو المصنف، ا-1993 لم يظهر في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه
12) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد ا-2077.
13) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 355.
14) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
15) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ا-2077. الملف الشخصي للكومندان، ا فرنانديث مارتينس، الذي يتضمن الحكم ضده "بتهمة الإهمال" المنسوبة إليه من طرف المحكمة، التي أدانت كذلك القبطان أراوخو بسبب مجرى الأحداث الواقعة في 1921/07/23.
16) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
17) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 156.
18) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 30.
19) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 479.
20) المصدر نفسه، ص. 484.
21) المصدر نفسه، ص. 156-157.
22) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقدم الملازم -ريوس غارسيا- يوم "26 غشت 1921" بدعوى ضد هذه الأحداث، فامتثل أمام هيئة الجنرال بيكاسو. ولم تعرف النتائج.
23) غارسيا فيغراس وإرنانديث إريرا، نفس المصدر السابق، ص.351.
24) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)،ص. 480.
25) المصدر نفسه، ص. 160.
26) نتابع هنا تحركات فرق الجيوش النظامية -التي دونت في 29 ورقة- بتحريض من قائدها الجديد، الكولونيل إميليو فرنانديث بريث يوم 20 أبريل 1922 وذلك أملا في الحصول على الوسام الجماعي، وحدث وانتهى الأمر بهذه الوثيقة إلى أرشيف بيكاسو. بعد أن مرت بيد برنكر وميي Mille، ص. 482.

27) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 482.

28) المصدر نفسه، ص. 163.

29) المصدر نفسه، ص. 515 و516.

30) ثيريثو، ريكاردو، *القوات المسلحة الإسبانية في القرن xx*، دار النشر الغرب، مدريد 1983. المجلد 3. الجزء I ص. 109-112.

31) عرفوا باسم "العشيرة، لحملهم اسم العشائر المعروفة داخل الإمبراطورية. جيورجيني جيورجيو، تاريخ *البحرية*، في 9 أجزاء، دار النشر، فابري، ميلانو، 1978. الجزء 8. ص. 322.

32) المصدر نفسه، ص. 325-331.

33) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 278، تم رفض ذلك العرض الإنجليزي المغري، وكذلك عرض إيطاليا التي تقدمت "ببيع بواخر سريعة، ومسلحة بأثمنة جد بخسة".

34) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 128.

35) برنكر، د، نفس المصدر السابق، ص. 89.

36) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

37) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 55.

38) المصدر نفسه، ص. 5.

39) صحيفة *الليبرال*. نشرة الأحد 24/07/1921.

40) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9 محاضرة 24 يوليوز على الساعة الواحدة وأربعين دقيقة.

41) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

42) صحيفة *الليبرال*، نشرة الأحد 24/07/1921.

43) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 464.

44) المصدر نفسه، ص. 567.

45) المصدر نفسه، ص. 465-511.

46) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم ريكاردو فريسنو أورسايس (يوم 8 دجنبر 1921)، في الصفحة 1.856 ضمن تقرير بيكاسو الأصلي وحسب أقوال فريسنو، كان خمينس أرويو مسافرا في ذلك القطار، الشيء الذي يتعارض مع شهادة القبطان روانو.

47) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 16 نونبر 1921، ص. 4196.

48) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 132.

49) المصدر نفسه، ص. 6.

50) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، محضر حول "فظاعات المورو" مخطوط في 49 صفحة، مجموعة المستشارين الحقوقيين التابعين للجنرال بيكاسو. وتم إرسال هذا المحضر لبرنكر في شتنبر 1921، ص. 8، 31، 37.

51) حسب النظام العام للجيش في إفريقيا، الصادر يوم 6 غشت 1924، تم تحديد موقع هيغيل بريث ريفيرا المدافع السابع، في البوثو رقم 2.

52) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى العدد: 1-2206.

53) الأوامر العامة للجيوش بإفريقيا، والتي أصدرت يوم 6 غشت 1923، بإلحاح من مليلية، 27 يوليوز.

54) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، ا-2206.
55) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر بوحفورة" 22/07/1921.
56) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 144.
57) *تاريخ الحملات...*، الجزء III، ص. 462.
58) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
59) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 144.
60) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم روكي ريبج فالرينو، المدون في الورقة 1.191 في تقرير بيكاسو.
61) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تصميم خطي لبيكاسو. انظر الملحق.
62) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم ريبج الورقة 1191 (تقرير بيكاسو).
63) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، إ-1213.
64) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 19 غشت 1921.
65) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 227.
66) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر السمار" عدد الجنود في 22 يوليوز.
67) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 226. كانت البطاريات من هذا النوع، ولأنها كانت تتكون من قطعتين اثنتين. فإنها كانت تحتاج إلى "35 رجل وضابط واحد"، فإذا ما اجتمعت ست قطع أخرى كانت الحاجة ماسة "إلى خمس ضباط و152 رجلا مزودين بـ 132 دابة" ذكر هذا "لاريا ليسو فرانثيسكو" في كتابه *التنظيم العسكري لإسبانيا*، مطبعة وورقة، أرملة وأبناء بلايس، طليطلة 1893، ص. 381.
68) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) القائد ماريو إدالغو إدالغو. الورقة 849 من تقرير بيكاسو.
69) نفس المصدر، (ت.م) للجندي آنخيل طورس بريث (13شتنبر1921)، الورقة 849 من تقرير بيكاسو.
70) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م-856، آراء حول الأحكام المنافية لمنح النجمة للملازم ماركو مير.
71) ا-خ-ك-ي-ل، (ت.م) القائد ماريو إدالغو (تقارير بيكاسو).
72) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد، م-562.
73) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحة 542، و(أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث)، (ت.م) للقائد ماريو إدالغو المندرج ضمن (تقارير بيكاسو).
74) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 573.
75) (ت.م) للقبطان مانويل بريث طورس (14 شتنبر 1921)، الورقة 885 المندرجة ضمن تقارير بيكاسو.
76) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد م-562.
77) مير برلنغا، فرانثيسكو، *عبق التاريخ، مليلية. 1992*. (الفصل 19 ص. 265-267، وكذلك محادثات مع سنتياغو دومينكز يوما، يونيو 1997
78) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، إ-1213.
79) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر إنطرمديا ا" يوم 23 يوليوز 1921.
80) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 116.
81) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

82) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد إ-1213.

83) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم روكي ريبج فالرينو (اكتوبر 1921) الورقة 1191 المندرجة ضمن تقرير بيكاسو.

84) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد، م- 1213، ص. 4، فتاوى سابقة.

85) حالة "إسكريبانو" التي تمخض عنها إعداد عرض تراسه الجنرال ميي، ووافق عليه المجلس الأعلى للحرب والبحرية (الذي كان عضوا فيه). ميي رفض كل تلك الرسومات الجبائية التي فرضت يوم 22 مايو 1924. (الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه) المجموعة إ-1213 ص. 6 (من توجيهات)، و1-2 (من العرض المجهز).

86) المصدر نفسه، ص. 5 من نفس التعليمات.

87) بريث سيفيبا ايالا، ذكريات لا تنسى، مطبعة الأكاديمية الحربية، شيقوبية، ص. 54.

88) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا، يوليوز 1997.

89) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حسب بيكاسو، كان هناك 41 ضابطا ومعهم أراوخو، لكن هذا الضابط الواحد والأربعين لم يتم التعرف عليه.

90) نفس المصدر والصفحة، مراجعة المحاضر التحقيقية التي كتبت ضد الكولونيل سيلفستري، يوليوز 1924. ويوم 2 مارس 1925 تم النظر كليا في هذه المحاضر التي كانت مكونة في الأصل من 95 صفحة، ثلاث -منها بخط اليد- ذيلت بالعديد من الملاحظات بخط بيكاسو، ص. 15.

91) المصدر نفسه، ص. 18.

92) المصدر نفسه، ص. 25-26.

93) المصدر نفسه، ص. 28.

94) المصدر نفسه، ص. 28.

95) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، الصفحات، 210-211.

96) المصدر نفسه، ص. 208-212.

97) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "دعوى ضد الكولونيل اراوخو"، ص. 30.

98) المصدر نفسه، ص. 29.

99) المصدر نفسه، ص. 34.

100) المصدر نفسه، ص. 34-38.

101) المصدر نفسه، ص. 38-51.

102) المصدر نفسه، ص. 39.

103) المصدر نفسه، ص. 40-72. اسماء شخصية وعائلية استخرجت من لوائح كانت في ارشيف بيكاسو وتعود إلى "معسكر دار الكبداني" لـ 22 من يوليوز.

104) المصدر نفسه، دعوى ضد الكولونيل أراوخو ص. 32.

105) المصدر نفسه، ص. 45.

106) المصدر نفسه، ص. 47.

107) المصدر نفسه، ص. 61.

108) المصدر نفسه، ص. 53-69-72.

109) المصدر نفسه، ص. 56.

110) المصدر نفسه، ص. 52-71.

111) المصدر نفسه، ص. 71.

112) المصدر نفسه، ص. 56-57.

113) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، دعوى ضد الكولونيل أراوخو. ص. 73.

114) فرانكو-سلغادو أراوخو، فرانثيسكو، *حياتي بجوار فرانكو*. دار النشر بلانيطا. برشلونة 1977، ص. 57.

115) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 357.

116) المصدر نفسه، ص. 356-357.

117) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "*دعوى ضد الكولونيل أراوخو*"، ص. 18.

118) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، الصفحات 204-205.

119) نشرت هذه الرسالة للكولونيل أراوخو في جريدة *ا-ب-سي* من لدن غريغوريو كوروشانو، بعد أن أخذ إذن برنكر.

120) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "دعوى ضد الكولونيل أراوخو"، ص. 82.

121) صحيفة *ا-ب-سي*، 28/07/1921.

122) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للكومندان رافاييل سانس غارسيا 18أكتوبر 1921 المدون على الورقة 1354 و1382 والمدرج ضمن تقارير بيكاسو.

123) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، كان عدد الجنود المتواجدين بالمعسكرات الأربعة والعشرين لمعسكرات سوق الثلاثاء قد ارتفع إلى1873 (54 ضابطا و1819 جنديا).

124) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 127.

125) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 365.

126) المصدر نفسه، ص. 239.

127) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري خوصي مونطيرو مونطيرو (07/10/1921) والمدون على الورقة 1.242 والمدرج ضمن تقرير بيكاسو الأصلي.

128) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 239.

129) المصدر نفسه، ص. 240.

130) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، أسماء تم الحصول عليها انطلاقا من لوائح جمعها بيكاسو من "معسكر سوق الثلاثاء" يوم 22 يوليوز.

131) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا رسالة من فرنانديث طماريت للجنرال سيلفستري بتاريخ، سوق الثلاثاء 16/05/1921 ص. 3-5.

132) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 240.

133) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، خريطة وتوقيع بيكاسو، انظر الملحق.

134) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 253-254.

135) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر تزروت أوزاي" 22 يوليوز.

136) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 243.

137) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري خوصي مونطيرو مونطيرو (1921/10/04) الورقة رقم 1242 والمدرجة ضمن تقرير بيكاسو الأصلي.

138) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 600.

139) كل اسماء هؤلاء الضباط، مصدرها اللوائح الصادرة عن "معسكر سوق الثلاثاء، والتي عمل بيكاسو على مراجعتها وتنقيحها.

140) أحسن دراسة أنجزت حول الأحداث، هي تلك التي تعود لدومينكز يوسا سانتياغو وخيل روبيث، سرفيانو ب. *سوق الثلاثاء الفاجعة الأخرى*، 1992، ص. 112-122.

141) المصدر نفسه، ص. 246.

142) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري مونطيرو. الورقة 1.242 للتقرير الأصلي لبيكاسو.

143) المصدر نفسه (ت.م) للملازم كولونيل غارسيا إسطيبان (18-22 غشت 1921) الورقتين 202 و209 للتقرير الأصلي لبيكاسو.

144) رسالة بيكاسو إلى لاثيريا بتاريخ 9 نونبر 1921.

145) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 442/9 مكالمة هاتفية جرت بين إيزا-برنكر على الساعة 15،20، يوم 1921/08/09.

146) ملخص هذه الرسالة الموقعة حصل عليها الكاتب بفضل بلاس بروطو كامبو، حفيد الجندي الذي كان بالجزر الجعفرية.

147) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 91.

148) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 442/9، مراسيم تم الاحتفال بها بين برنكر ومساعديه، بحضور إيزا وذلك على الساعة الثانية عشرة وخمسة وأربعين دقيقة، بتاريخ 1921/07/24.

149) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إزا-برنكر على الساعة 05،14 بتاريخ 1921/07/24.

150) المصدر نفسه.

151) صحيفة *الليبرال*، نشرة الثلاثاء 26 يوليوز 1921.

152) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 442/9 حوار تلغرافي بين إيزا وبرنكر على الساعة 05،14 بتاريخ 24 يوليوز.

153) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 125.

154) المصدر نفسه، ص. 124.

155) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 442/9، بهذا يجزم برنكر إلى إيزا -في محادثة هاتفية جرت يوم 26 يوليوز على الساعة 15،15- حينما تحدث له عن "قصف" البارجة.

156) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) خكوب فراشي (1921/09/09) الورقة 676 المدرجة ضمن (تقارير بيكاسو الأصلي).

157) عن النص الأصلي وما سبق من تقديم النجمة للقائد المكلف بعشرة جنود، السيد غارسيا. *ابطال إسبانيا*، المصدر السابق نفسه. ص. 893.

158) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 275.

159) المصدر نفسه، ص. 280.

160) المصدر نفسه، ص. 279.

161) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث (ت.م) للقبطان بيو فرنانديث موليرو (ليوم 4 اكتوبر 1921) الورقة 1184 المدرجة ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

162) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو المدرج ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو، بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 288.

163) المصدر نفسه، ص. 289.

164) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو.

165) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان خوصي غارسيا مونيوث (6 اكتوبر 1921) الورقة 1225 المدرجة ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

166) إريرا الونصو، إميليو، كولونيل. "الطيران عند الانسحاب من انوال". مجلة، *تاريخ الملاحة الجوية*، رقم 9، نونبر 1991. ص. 22، وحسب اقوال "إريرا" كان فرنانديث موليرو هو آخر من وصل من الربابنة "وذلك لأنه تخلف عن الركب بنصف ساعة"، وتجدر الإشارة إلى أن الملاحظات الأولى والتي دونت في مذكرة المناوشات الجوية لسرب طائرات مليلية تنطبق على بلاغات 29/07/1921، مع غياب صفحتي اليومين السابقين. الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية المجموعة، ا 1/5.

167) (ت.م) للقبطان خوصي غارسيا مونيوث.

168) المصدر نفسه (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو.

169) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "مذكرة العمليات لقيادة المهندسين بمليلية" يوليوز- غشت 1921، ص. 4.

170) المصدر نفسه، ص. 6.

171) بريث اورتيث، إ، نفس المصدر السابق، ص. 78.

172) (الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية) مذكرة العمليات، 29 يوليوز المجموعة، ا 4/5.

173) صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 2 غشت 1921.

174) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 442/9 البرقية المسجلة تحت رقم 8112.

175) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) ص. 183.

176) المصدر نفسه، (تقارير بيكاسو)، ص. 183.

177) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 04/08/1921.

178) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 63.

179) بريث اورتيث، إ، نفس المصدر السابق، ص. 86.

180) المصدر نفسه، ص. 79.

181) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للمترجم انطونيو الكايدي لينارس (10-11 اكتوبر 1921) المدون على الأوراق 1.282-1.302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو (ت-ا-ب).

182) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، العدد ا 1/5.

183) صحيفة *الصول*، عدد الخميس 04/08/1921.

184) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، العدد، ا 1/5.

185) بريث اورتيث، إ، نفس المصدر السابق. ص. 99.

186) المصدر نفسه، ص. 84.

187) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، بنصف دائرة بالقرب من أعرويت كان مجرى نهر "كبايو" يزود المنطقة بالماء انطلاقا من منبعين الأول وقد ذكرناه، أما الثاني فقد كان فريسة لرصاص الريفيين.

188) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9، محادثة هاتفية جمعت بين إيزا وبرنكر يوم 1921/07/27 على الساعة 10:00.

199) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9.

190) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 64.

191) ا-م.ا-م، المجموعة 442/9 - محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 1921/07/31 على الساعة الثامنة وخمسة عشر دقيقة.

192) *صحيفة الصول*، نشرة الأربعاء 3 غشت 1921.

193) *صحيفة الزمن (لا إيبوكا)*، عدد الثلاثاء 1921/08/02.

194) لوكي أغوستين *"إزاء الكارثة"* في *جريدة الصول*، عدد الخميس 4 غشت 1921.

195) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 61.

196) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 537.

197) المصدر نفسه، ص. 281.

198) المصدر نفسه.

199) *صحيفة ا-ب-سي*، عدد الأربعاء 1921/07/27.

200) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.

201) المصدر نفسه، ص. 9.

202) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 442/9 محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 2 غشت 1921 على الساعة الثامنة وعشرة دقائق.

203) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.

204) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتنيتي كولونيل فرانثيسكو باردو أغودين (1921/08/20) المدون على الورقة 261 (للتقرير الأصلي لبيكاسو).

205) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 62.

206) الوثائق... (تقرير بيكاسو) ص. 285.

207) المصدر نفسه، ص. 270.

208) المصدر نفسه، ص. 273.

209) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للجندي خوان غامس اوريا (22 شتنبر 1921) المدون على الورقة رقم 992. لتقرير بيكاسو.

210) الوثائق... (تقارير بيكاسو) ص. 271.

211) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "فظاعات المورو" ص. 18/19.

212) *صحيفة الليبرال*، عدد السبت 1921/08/06.

213) ا-م-ا-م، العدد 9/442 محادثة بين إيزا وبرنكر يوم 03 غشت 1921 على الساعة 20:35.

214) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 04/08/1921 على الساعة 09:10.

215) البيانات... (محاكمة برنكر) الصفحة 64. اما ألفونصو الثالث عشر فقد وصل إلى مليلية يوم 6 غشت، وكان معه على ظهر السفينة حشد من رجال المدفعية وكم من الذخيرة.

216) بريث اورتيث، إ، المصدر نفسه، ص. 99، والخامس والسادس من مقدمة الكتاب الذي الفه.

217) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 69 و70.

218) اثانيا، مانويل، في *الأعمال الكاملة*، طبعة خوان ماريشال، دار النشر لوازيز. المكسيك 1966، الجزء الأول، ص. 517، في الفصل المعنون بـ"مذكرات الحرب".

219) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.

220) المصدر نفسه، ص. 8/9.

221) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 248/249.

222) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 60.

223) المصدر نفسه، ص. 86/87.

224) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

225) برنكر، خ، المصدر السابق نفسه، ص. 73.

226) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 8.

227) بريث اورتيث، إ، المصدر السابق نفسه. ص. 84.

228) وهذا ما تم تاكيده في *صحيفة لاكورسبونديتيا دي إسبانيا*، في نشرة الخميس فاتح دجنبر 1921، فيما يتعلق "بالرواية الماساوية لواحد من الأحياء" وهو ما اوردناه هنا بتحفظ.

229) بريث اورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 135.

230) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "فظاعات المورو" ص. 8-9. هناك إشارة إلى "بيوت Boyut تليتني دي لاكطورثي ميا، الذي صوب النار في ذلك الاتجاه (اعرويت، وعمل على نهب ازغنغن).

231) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

232) المصدر نفسه، محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 09 غشت1921 على الساعة 20:15.

233) المصدر نفسه، محاضرة جرت يوم 10 من غشت على الساعة الثامنة واربعين دقيقة.

234) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442. التلغراف رقم 11.247.

235) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت.م) لأنطونيو الكايدي لينارس 10/10/1921، المدون على الورقة رقم 1282/1302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

236) *ابطال إسبانيا*، المصدر السابق نفسه، الفصل XXVII، ص. 864.

237) بريث دي سيفيبا إي آيالا، ف، نفس المصدر السابق. ص. 97-98.

238) فرقة كاسادو ريس دي الكانطرا، ملخص عمليات هذه الفرق خلال شهر يوليوز 1921. مليلية. مطبعة ريخمينطو، 1923. ص. 5/1.

239) فيفيرو، أ، المصدر السابق نفسه، ص. 236.

213) ا-م-ا-م، العدد 9/442 محادثة بين إيزا وبرنكر يوم 03 غشت 1921 على الساعة 20:35.

214) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 04/08/1921 على الساعة 09:10.

215) البيانات... (محاكمة برنكر) الصفحة 64. اما الفونصو الثالث عشر فقد وصل إلى مليلية يوم 6 غشت، وكان معه على ظهر السفينة حشد من رجال المدفعية وكم من الذخيرة.

216) بريث اورتيث، إ، المصدر نفسه، ص. 99، والخامس والسادس من مقدمة الكتاب الذي الفه.

217) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 69 و70.

218) اثانيا، مانويل، في *الأعمال الكاملة*، طبعة خوان ماريشال، دار النشر لوازيز. المكسيك 1966، الجزء الأول، ص. 517، في الفصل المعنون بـ"مذكرات الحرب".

219) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.

220) المصدر نفسه، ص. 8/9.

221) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 248/249.

222) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 60.

223) المصدر نفسه، ص. 86/87.

224) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

225) برنكر، خ، المصدر السابق نفسه، ص. 73.

226) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 8.

227) بريث اورتيث، إ، المصدر السابق نفسه. ص. 84.

228) وهذا ما تم تاكيده في صحيفة *لاكورسبونديثيا دي إسبانيا*، في نشرة الخميس فاتح دجنبر 1921، فيما يتعلق "بالرواية المأساوية لواحد من الأحياء" وهو ما اوردناه هنا بتحفظ.

229) بريث اورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 135.

230) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "فظاعات المورو" ص. 8-9. هناك إشارة إلى "بيوت Boyut تلينتي دي لاكطورثي ميا، الذي صوب النار في ذلك الاتجاه (اعرويت، وعمل على نهب ازغنغن).

231) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

232) المصدر نفسه، محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 09 غشت1921 على الساعة 20:15.

233) المصدر نفسه، محاضرة جرت يوم 10 من غشت على الساعة الثامنة واربعين دقيقة.

234) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442. التلغراف رقم 11.247.

235) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت.م) لأنطونيو الكايدي لينارس 10/10/1921، المدون على الورقة رقم 1282/1302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

236) *ابطال إسبانيا*، المصدر السابق نفسه، الفصل XXVII، ص. 864.

237) بريث دي سيفيبا إي آيالا، ف، نفس المصدر السابق. ص. 97-98.

238) فرقة كاسادو ريس دي الكانطرا، ملخص عمليات هذه الفرق خلال شهر يوليوز 1921. مليلية. مطبعة ريخمينطو، 1923. ص. 5/1.

239) فيفيرو، ا، المصدر السابق نفسه، ص. 236.

240) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتنيتي فيليب بنيا مارتينيث والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو. وقد تمكن بنيا من العودة إلى مليلية يوم 14 غشت.

241) المصدر نفسه، (ت.م) للمترجم انطونيو الكايدي.

242) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

243) المصدر نفسه، بلاغات جديدة تبادلها كل من برنكر وإيزا يوم 11 غشت 1921 على الساعة التاسعة وواحد واربعين دقيقة.

244) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، المجموعة 1 4/5 ص 3.

245) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442، إيزا وبرنكر في محادثة هاتفية انتهت على الساعة التاسعة واربعون دقيقة ليوم 11 غشت 1921.

246) المصدر نفسه، محادثة هاتفية جمعت كل من إيزا وبرنكر يوم 12 غشت 1921 على الساعة الثامنة وخمسين دقيقة.

247) لوستيجن الساندرو، *تاثيرات غازات الحرب*، ترجمة م. بيتلوغا، دار النشر إسباسا كالبي. مدريد 1935. ص. 49/70 و76/78.

248) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة سولانو في جلسة الخميس 20 اكتوبر 1921 (صفحة 3684) ومداخلة كرسبو دي لارا يوم الخميس 17 نونبر من نفس السنة (ص. 4.238).

249) مذكرة الجلسات البرلمانية، المصلحة المغربية، المجموعة 8، دفاتر 2.

250) المصلحة التاريخية العسكرية، القوات العسكرية في المغرب، المجموعة 79، دفاتر 7.

251) ارشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، مصنفات رومانونيس. المجموعة -6 الملحق 9.

252) (جمعية الدراسات الخاصة بمليلية).

253) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، التقرير حول "انوال" ملخص لكل الشهادات التي عاينت الأحداث التي وقعت بهذه المقاطعة وبالمعسكر الذي يحمل هذا الاسم، 35 صفحة. و3 صفحات في فهرس الإيضاحات.

254) المصدر نفسه، لوائح الأحياء والأموات الحاضرين في مليلية في كل موقع ذكرناه سابقا.

❖ ❖ ❖

الفصل السابع
إسبانيا بيكاسو

حكومة جديدة و مشكل متجدر

احيى الحاكم الجديد **انطونيو ماورا** Antonio Maura، تحمسات قديمة كانت مؤسساتية اكثر مما هي شعبية. حكم ماورا البلاد في ظروف جد معقدة، ولأربع مرات 1903-1904/ 1907-1909/ 1919 و1918. لكن الصعوبات تجسدت وبالخصوص في المرحلتين الثانية والثالثة.

فبعد اختفاء **سغاسطا** Sagasta و**سيلفيلا** Silvela، اصبح **ماورا** زعيما للمحافظين. وكان بإمكانه ان يمثل النظام وبشكل فعّال، خاصة بعد غياب الليبرالي **كانلخاس** Canalejas سنة 1912. لكن المعارضة المزدوجة، التي اعرب عنها كل من "رومانونيس" و"داتو"، والتي كانت أقوى بكثير، حالت دون تطبيق نموذجه الأخلاقي الفاضل، الذي رسمه لحكومة كانت مناسبة لإسبانيا.

وهكذا، نشأ ما اصطلح عليه "بالموريسمو" Maurismo، وهي تجربة وضعت الشجاعة والقناعة على المحك، فلم يكتب لها النجاح الرسمي، وإن كانت قد حققت تفوقا اخلاقيا ومعنويا. ان تكون ماوريستيا، هذا أمر كان يعادل الشرف داخل إسبانيا الألفونصية. ولم يكن "ماورا" يتوقع ابدا ان ينادي عليه الملك مرة اخرى. لكن الملكية في غشت 1921، كانت في حالة يتم، بلا ولي ولا وصي على الحكومة. فإما ماورا او الديكتاتورية العسكرية.

أما وزير الحربية الجديد، خوان دي لاثيرا وبنيفييل Juan de la Cierva y Peñafiel، فقد كان رجلا محافظا راديكاليا ومثابرا. نال درجة الدكتوراه، وعمل برلمانيا سنة 1894

بتعيين من مجلس بمرسية وطنه الأم. فشغل كل تلك المناصب التي لها علاقة بالدفاع عن النظام، مرورا بمنصب الحاكم المدني ووصولا إلى وزير الداخلية ثم وزير الحربية.

كان خوان دي لاثيربا رجلا لطيفا وخدوما مع كل من يحبهم ويقدرهم، وفظا عدوانيا مع كل من يكرههم. هكذا كان خوان دي لاثيربا، سبع وخمسون سنة، رجلا يكره النفاق.

كما انه كان مخلصا للملك، محبا له اكثر من إخلاصه للملكية -عكس ماورا- شاءت الأقدار أن يكون الرجل الحديدي، لكنه اخفق في أن يكون كذلك في المكان المناسب، أي إزاء الوضعية العسكرية. كما انه كان مثقفا وسخيا في أفعاله، شحيحا في أفكاره، عبوسا لا يرضى بالنفاق. فكانت تصرفاته سببا في موجة من الانتقادات، التي وجهت إليه داخل البرلمان، فكان يجابهها بأسلوبه المتحدي والدرامي.

روح حماسية مثلت أفضل تطلعات الملكية

العوائق التي تصدت لتحقيقات بيكاسو

فتح إيزا خزانة المستندات السرية، كان قعرها مظلما، وعلى بابها كتب العنوان التالي: مديرية الجيش الإفريقي. لم يعرف أحد اسم المرسل إليه الذي بقي مجهولا. وبالضبط بعد صدور تعليمات سامية يوم الرابع والعشرين من غشت، تعليمات سلطت الضوء على جواب "لاثيربا" لبرنكر الذي بدت توتراته واضحة. وبمقتضى هذا الجواب، أعفيت القيادات العليا من إجراء التحقيق. ونفس الإنذار، تكرر يومه الواحد من شتنبر، وفيما بعد وردت مذكرة ثالثة تؤكد على ضرورة عدم خضوع الإقامة العامة لأي نوع من التحريات أو التحقيقات. وجاء هذا في برقية شخصية وسرية بعث بها لاثيربا إلى بيكاسو يومه السادس من شتنبر، وفحوى البرقية هو كالتالي: «بالرغم من أن الوزير يريد أن تُحاكم هذه الأحداث الكئيبة بنوع من الإنصاف والوضوح والشمولية الكافية (...)، إلا انه يبدو أن الوقت قد حان لوضع كل المعلومات التي جُمعت، أو تلك التي سنحصل عليها رهن إشارة التحقيق القضائي. والهدف هو، (...) إعداد محاضر لها خصوصياتها. وعلى القاضي المعني بالأمر، ان يخبر المقيم العام بتفاصيل كل قضية على حدة، ويُرفقها بالشهادات التي أدليت في حقها. وعلى المقيم العام كذلك، وبعد

اطلاعه على المحاضر، ان يعين (بصفته جنرالا) رئيس القضاة الضروريين...»[1]. ساهمت هذه البرقية بالرغم من تحفظها وسريتها، في جعل اللامشروع قانونيا امرا طبيعيا ورسميا. وسنة 1922، جاء في محضر برنكر ان هذا النص يفتقر إلى مقومات المرسوم الملكي، ليس فقط لأنه يفتقر إلى الشكل الخارجي المميز لنص المرسوم، ولكن بالضبط لأن صفة السري التي كُتبت في النص الأصلي بحروف مائلة، جعلته يفقد الشرط الأساسي لكل نص تشريعي[2].

وبتلقي بيكاسو لهذه البرقية التي تفتق إلى الأسلوب والمنهجية، ثار بشدة واغتاظ من فحوى الرسالة التي كان لاثيربا اشار إليها بتاريخ الرابع والعشرين من غشت في رد له على بيكاسو، ذاكرا له موضوع الصعوبات التي جاءت في رسالته. هذا واعرب الجنرال عن معارضته للوزير، الذي امره بإعداد تحقيق حكومي يشمل كل الحجج التي وردت في حق موضوع الجيش الإفريقي، وذكر ان اي إخفاء او بتر للحقائق، سيجعله يرفض معرفة كل ما فعلته او لم تفعله القيادات العليا. وهدأ لاثيربا من روع بيكاسو قائلا: «يُستحب ان يكون التحقيق في هذه الأحداث كاملا وشاملا، حتى لا تبقى هناك ثغرات في هذه التراجيديا الكبيرة، التي تسببت في العديد من الأضرار لإسبانيا في مختلف مؤسساتها»[3].

ومن مليلية، يومه الأربعاء الواحد والثلاثين من غشت، تحدث بيكاسو إلى لاثيربا بعزيمة شفافة، فقال: «لقد تحملت تبعات هذا التكليف، فتصديت له بإصرار يفوق كل قدراتي، وقد جعلت الصبر سلاحي، واعترف انني عزمت وبطريقة متعمدة ان اقحم في الأمر القيادات العليا، وان اتحدث عنها لمكانتها وسمعتها من جهة، ولأن هذا مكسب قضائي. فإن حدث وان حذفت عبارة او اخفيت حقيقتها، فهذا في رايي من باب الملاطفة (عبارة كتبت بين عارضتين في النص الأصلي). ولهذا اتخذت من الأحداث المأساوية والمعبرة لأبران، نقطة انطلاق لأبحاثي»[4].

واوضح بيكاسو ان اولى التعليمات السامية التي اصدرها إيزا يوم الرابع من غشت، سمحت له، وتماشيا مع روح الفصل سبعمائة واثنان وستون المنظم لقانون الحرب، برصد كل الأسباب والأحداث التي اسهمت في تشكيل كل التداعيات التي طرأت في ذلك الميدان. اما عن التعليمات الثانية التي صدرت من لاثيربا يوم الرابع والعشرين من غشت، فقد قال عنها: «مع كل احتراماتي، فهذا امر لا يتناسب مع تصوراتي، فثمة

تناقض كبير في الأمر...». وفيما بعد، أخبر الوزير بأنه من تمام الدقة، ربط كل تلك المسؤوليات بالأحداث العرضية، التي جاءت نتيجة حتمية وطبيعية لجملة من الأخطاء والإخفاقات التي ارتكبتها القيادة.

كان بيكاسو واضحا جدا كما هو معتاد. ومع ذلك، وبعد إدراكه لنوعية المستنقع الذي يتخبط فيه، ترك للاثيربا حرية إعفائه من المهمة التي كُلف بها، فذكر: «وبغض النظر عن كل الأمور، أظن أنه من واجبي الحضور، وتلبية الدعوة التي وجهت إليّ يوم الخامس من شتنبر، لحضور جلسات اللجنة الاستشارية للجمعية الأممية التي أمثلها كطرف معني بالأمر، فربما يساعد هذا في إيجاد حلول أخرى تتناسب وتصوراتكم. حلول سأحترمها مسبقا»[5].

وبتخوف لاثيربا من استقالة بيكاسو، أصدر مرسوما ملكيا آخر بتاريخ ستة شتنبر، وبعث بمضمونه مسبقا في رسالة أُرسلت في الواحد من شتنبر إلى الجنرال، جاء فيها: «إذا ما نحينا جانبا وبشكل قطعي كل ما له علاقة بالقيادات العليا، أي بالمقيم العام، فإن تقييم تصرفات كل المسؤولين وبدون استثناء، تدخل في دائرة اختصاصك (أي من اختصاص بيكاسو)». وعاود بيكاسو قراءة هذه الزلات المتكررة. فقرر عدم الاستقالة، والبحث عن الحقيقة بأسلوبه وطريقته[6].

رجل حرب فريد من نوعه

ولد خوان بيكاسو غونثاليث Juan Picasso González، بمالقة يوم الثاني والعشرين من غشت 1857، واقترن اسمه بابلو رويث بيكاسو Pablo Ruiz Picasso، الرسام الشهير الذي كانت تربطه به رابطة دم.

يعود نسب عائلة بيكاسو إلى إيطاليا، وبالضبط إلى مدينة سوري Sori، الواقعة على ضفاف البحر الأدرياتيكي. وإلى هناك يرجع أصل طوماسو بيكاسي Tommaso Picassi المزداد سنة 1787، وبعده بيكاسو الذي عقد قرانه على السيدة ماريا غواردينيو María Guardeño، التي كانت تنتسب إلى مالقة. وسنة 1851، توفي بيكاسو الأول تاركا ولدين وهما فرانثيسكو Fransisco وخوان باوتيستا بيكاسو غواردنيو Juan Bautista Picasso Guardeño، اللذان بفضلهما تشعبت جذور العائلة، وامتدت لتشمل الأرجنتين، وإسبانيا وإيطاليا.

تزوج خوان باوتيستا بيكاسو من دولوريس غونثاليث سوطو Dolores González Soto، فرزقا بستة ابناء وهم: ترينيداد Trinidad، دولوريس Dolores، إولاليا Eulalia، اديلا Adela، خوان Juan واميليا Amelia. وهذا الذكر الوحيد، هو من صار فيما بعد جنرالا شهيرا.

تزوجت ماريا María إحدى بنات فرانثيسكو بيكاسو، من خوصي رويث بلاسكو Blasco Ruiz José، فمنيا بولد سمي بابلو رويث بيكاسو، ولمدة أربعة وعشرين سنة، تعايش بابلو رويث وخوان بيكاسو. وبين العم وابن الأخت، كانت تسود مشاعر الألفة والود، خاصة بعد أن فرق الزمان بينهما، فرحلت عائلة رويث بيكاسو إلى مالقة، ومن هناك إلى كورونيا ثم إلى برشلونة، وانتهت الجولة بباريس حيث استقر بابلو. أما عائلة بيكاسو غونثاليث، فقد ساقها الزمان إلى غرناطة، وبعدها إلى مدريد. وكل ما عرف عن الجنرال بيكاسو سنة 1921، انه كان عضوا بالمجلس الأعلى، وانه كان يتباهى بنجمة سان فرناندو، التي ظفر بها في إحدى المناسبات العصيبة، حيث كانت مليلية محاصرة من طرف اهالي الريف.

كان بيكاسو شديد الولع بالجياد، وكان فارسا مغوارا. وسنة 1876، وعن سن تناهز الثامنة عشر ربيعا، ولج اكاديمية الأركان الحربية، وهي هيئة سمحت له بصقل مواهبه، فسجل اسمه في تخصص غريب بالنسبة لبلد يُعتبر ذا توجه عسكري محض. وبحصوله على حق ركوب مطية، (تكلفت الوحدة المختصة بتغطية كل مصاريفها)، منح بيكاسو الحصان برينثبي (الأمير)، الذي سلمه له الكولونيل غيرمو إربارطي Guillermo Iriarte، يوم التاسع من اكتوبر 1893. ورفقته خرج في دورية هائلة، تصدت لها نيران الحركة، عند جهات مليلية بعد ثلاثة اسابيع[7].

كان يوم الثامن والعشرين من اكتوبر، يوم وفاة الجنرال مارغايو Margallo، عند مدخل حصن كابريرثياس Cabrerizas. وبضرب الحصار على القوات الإسبانية، لم يكن من الضروري فقط طلب التعزيزات العسكرية، بل الإشارة كذلك إلى كيفية إرسالها ومكان وصولها. كانت الحاجة ماسة إلى خطة معينة. وكان من الضروري ان تتوفر شجاعة كبيرة وبريد سريع. وكان لابد كذلك من رفع الحصار، واختراق الأراضي للوصول إلى حصن روستروغوردو Rostogordo. فتطوع بيكاسو وتقدم رفقة شرذمة من الحرس -وصل عددهم إلى خمسة وعشرين رجلا- ساروا في الخلف بمواقف. لكن وفور خروجهم، داهمتهم نيران رجال المقاومة، فقرر الجنرال آنذاك المضي قدما نحو

المقاومين معرضا حياته للخطر[8]. فجمع لجام فرسه، وركض بقوة إلى ان وصل إلى ميدان رسترو غوردو وكانه زوبعة. لكن كل الخطوط الهاتفية كانت مقطوعة، وتقطعت بذلك كل سبل الاتصال بمليلية، حتى عبر التلغرافات الشمسية. وطرح خيار العودة إلى برج كبريريثاس و المكوث هناك. كان المعسكر مطوقا من كل جانب، فقرر بيكاسو عكس ذلك. لقد عزم على الدخول إلى مليلية، وامام عينه كانت تمتد مسافة تزيد عن ثلاثة آلاف متر، إذا ما واصل الطريق عبر حافة الخنادق، التي كانت بمثابة فخاخ. فقرر الذهاب لوحده. كان على وعي بحدود إمكانياته، وكان يرفض المزيد من القتلى بجانبه. وما إن خرج وجاوز اسوار رسترو غوردو، حتى تحول كل من الفارس وجواده إلى هدف، صُوِّبت نحوه نيران العدو. بلغ تاثير هذه الغارة على النفوس لدرجة ان كل الجيوش خرجت من مواقعها، لتشجع هذا الركض اليائس. فتعالى الصياح الذي كان مدويا إلى درجة انه حجب صدى الطلقات النارية، ولم يتوقف إلى ان دخل بيكاسو إلى مليلية.

لم يؤمن الوسام الشرفي لمعان المسيرة المهنية، لكنه كان يضمن الحق في الترقية. فبعد سنة واحدة من بطولته، ترقى بيكاسو إلى رتبة كومندان. وسنة 1895، وصل إلى تيلينتي كولونيل. وفي اكتوبر 1902، نال النجمات الثلاث ذات الرؤوس الثمانية، ورغم ان الرقم ثلاثة كان يشير إلى درجة سلم الكولونيلات، إلا انه لم يصعد إلى درجة برغادير Brigadie، إلا بعد مرور السنين، حتى (1915). وبعد سنة واحدة، تم إلغاء ما اصطلح عليه بقسم هيئة أركان الحرب، فاسف بيكاسو لهذا القرار غير المعقول، والذي جرد هيئة الضباط الإسبانية ليس فقط من وضع تصور فلسفي للحرب، ولكن كذلك من فهم الميليشيات بشكل عميق. وابى بيكاسو إلا ان يواصل اجتهاداته في المهام البيروقراطية التي تشغله. وسنة 1919، قدم استقالته من منصبه بصفته وكيلا لوزارة الدفاع، بعد أن رفض مسبقا منصب الوزير، لخوفه من فقدان شرفه، والذي جعل منه إنسانا متميزا. ويوم السادس عشر من فبراير 1921، ترقى إلى درجة رئيس الفرقة، وذلك بعد مرور شهر على وصول سيلفستري إلى انوال. لم يكن بيكاسو يطمح إلى ترقية اخرى، كان يحس بدنو المعاش، وهو امر طبيعي إذا ما نظرنا إلى سنه الذي ناهز الرابعة والستين عاما. كما ان اهتماماته واجتهاداته المهنية، توجهت إلى كل ما يدور في العالم الخارجي، في بلدان القوى العظمى. كما انشغل بالقرارات المعقدة التي انبثقت منذ

فترة ما بعد الحرب العالمية. وباختياره ممثلا لإسبانيا في اللجنة الأممية، اصبح عنصرا دائم العضوية داخل اللجنة الاستشارية للشؤون الحربية، البحرية منها والجوية. إنها مهام انيطت به في يوليوز 1920. وبحلول هزيمة انوال، ركز إيزا اهتمامه عليه، وقد كان هذا بلا شك افضل واصوب قرار اتخذه الوزير في حياته باكملها.

كان بيكاسو يقدر المغرب ويعرفه حق المعرفة، إذ كانت له دراية بقساوة طقسه ووعورة جباله، وكذا بشدة مقاومة سكانه. كان يتصور ان كل هذه الأمور قد اخذت بعين الاعتبار، فذهل لما راى عكس ذلك، إذ لم تقدر ولم تحترم الحكومة كل هذه المعطيات. واتُّهم بيكاسو بانه جمهوري وماسوني وبروتستاني. وبعد ان تجاهلته الجمهورية الثانية بالمرة، وادارت له ظهرها، لم يساند ابداً في حياته اي إيديولوجية. كان دائما يحمل معه ميدالية بها صورة عذراء غرناطة، المعروفة بعذراء الهموم (Las Angustias)، وهذا هو كل تشيّعه المخفي[9]. كان بيكاسو متزوجا من السيدة التي اخذت بتلابيب قلبه. يتعلق الأمر بماريا لوث فيثنط لاسو دي لافيغا María Luz Vicente Lasso de la Vega، وكانت تصغره بأربع سنوات. كانت لها وجاهة ورشاقة فريدة من نوعها. رزق الزوجان بذكرين وهما: نيسطور Nestor وادلبرطو Adalberto المزدادين على التوالي عامي 1887 و1893[10].

طاردت هتافات الجماهير بيكاسو، وتعقبته السياسة بعينها التي لا تنام، وتتبعت خطواته المؤسسات. تلك المؤسسات التي تنصلت منه في نهاية المطاف، بعدما كانت تتفهمه. فبقي لاثيريا بشهامته، يدافع عنه بكل ما اوتي من قوة. كان على بيكاسو ان يرضي الجيش والحكومة والبرلمان والشعب. وفي حدود إمكانياته خدم الحقيقة. وفي سبيل كشفها، لم يطأطئ الراس ابدا، ولم يعترف بصداقات ولا بتوصيات مهمة.

حملات العون والإغاثة، وأوديسة سفينة المياه

بحلول شهر غشت 1921، عاشت إسبانيا على إيقاع موجات الحزن والأسى، فعمت ارجاء البلاد بطائق التعزية والجنائز، وخرجت إلى الشوارع مواكب دينية، كموكب عذراء الملوك بإشبيلية، الذي بادر بجمع التبرعات باسم ارواح الجنود بإفريقيا[11]. وتناسلت اليانصيب الخيرية والاشتراكات العمومية، وتراست الملكة فيكتوريا اوخينيا Victoria Eugenia، بنفسها اربع مسيرات. وبعد انقضاء أسبوعين، كانت الحصيلة اكثر من ثلاثمائة الف بسيطة. وحتى

حلبات مصارعة الثيران، لم تبق في منأى عن الأحداث. إذ بانتهاء العرض، كان المصارعون والمساعدون يصولون ويجولون داخل الحلبة، وبأيديهم علم كبير يرفرف خفاقا. كما أنهم كانوا يلقون على الأرض بذلك القماش الأحمر الملطخ بالدماء، بهدف استمالة عطف الجمهور، الذي كان يرمي بصدقاته وهباته، ستؤول إلى جرحى مليلية. وهذا ما فعله في مدريد كل من ناثيونال الثاني Nacional II، وفواستو باراخاس Fuasto Barajas، وسط صخب وفوران شعبي هائل، تردد صداه في مدرجات فيستا الغري Vista Alegre[12].

وفي منطقة الباسك، أُصدر نداء إلى البسكيين الميسورين يستميلهم للانخراط في حملة جمع التبرعات، وذلك بهدف اقتناء مدفع حرب سمي بمدفع فيسكايا. قيل عنه من الوجهة الحربية، إنه كان أكبر سلاح فتاك ضد وحشية الريفيين[13].

وشملت هذه التبرعات كل شرائح المجتمع، إذ وهبت السيدة الأرستقراطية كطالينا اوركيخو دي اوريول Catalina Erquijo de Oriol، مبنى هائل كانت تمتلكه بسان تورسي، لفائدة الجرحى والمرضى. وبإشبيلية، تقدمت زمرة من سائقي القاطرات والآلات البخارية، كانت تعمل لحساب شركة السكك الحديدية (خط مدينة ديل كامبو نحو سامورا) بهبة قدرها مائة بسيطة، سلمت للحاكم من اجل إرسالها إلى مستشفى الدم. وحتى المستعمرة البريطانية بمالقة، ساهمت بمبلغ قدره ثلاثة آلاف وستمائة بسيطة، أعطيت لمداواة الجرحى[14].

وفي برشلونة، كانت الحركة دؤوبة بهدف تكوين فيلق من المتطوعين الكطلان[15]، لإحياء انتصارات عام 1860 من جديد. وحتى طلبة الدراسات الدينية، انضموا لهذه الحملات. وتجدر الإشارة إلى حالة خاصة سُجلت مع بيو بريثوسا Pío Brezosa، هذا التنينتي كولونيل التابع للصحة، والذي وهب نفسه أمام لاثيربا متطوعا للذهاب إلى أوحش القبائل وأشدها عداوة لإسبانيا، وذلك بهدف مداواة جرحاها والسعي إلى تحريرهم، حتى إنه اقترح تكوين فرقة من الأطباء، يرحلون إلى المغرب لأداء مهامهم، فينالون بذلك ثقة الريفيين. لم ينقطع سيل المحسنين، فهناك من قرر طرق باب الحظ وسيلة للتضامن، وتلك حالة السيد خوصي فيثينطي José Vicente، الذي أهدى ثلاثة أعشار من ربح ورقة اليانصيب لصالح الجنود بإفريقيا[16]. ولم يُعرف إن كانت ورقة اليانصيب تلك، قد ربحت شيئا أم لا.

وفي مجمل التراب الوطني، نُظمت حملات لجمع التبرعات، بغية شراء طائرات للجيش، طائرات حملت أسماء وشارات هذه الأقاليم. فغرناطة، لم تكن سوى آلية جوية من نوع دي هافيلاند De Havilland، قوتها خارقة، وثمنها كان يقدر بأربعة وثمانين الف بسيطة[17]. وفي الميرية وقادس، فتحت اشتراكات بقيمة خمسمائة بسيطة. وفي العاصمة، وصلت قيمة الاشتراكات التي شجعتها يومية "الصول"، بهدف اقتناء طائرة مدريد، إلى إحدى عشر الفا وثمانية وسبعين بسيطة في اقل من شهر[18]. وذهب الأمر بعيدا بثاراغوثا، حيث القبطان جنرال السيد امبوديا Ampudia، (عوض فرانثيسكو امبوديا لوبيث Fransisco De Ampudia López، الذي كان برغادير في فرقة المشاة)، والذي طرح فكرة فتح المساهمات الوطنية، وذلك بهدف شراء طائرات حرب وقنابل، وغازات سامة[19].

وبحلول شهر اكتوبر، وبفضل المساهمات الشعبية، وصل عدد الطائرات المتبرع بها إلى عشرة، اربعة منها وهبتها مرسية وكارطاخينا، واثنتان من ثاراغوثا واثنتان اخريتان من سلمانكا، وواحدة من آفيلا، واخرى من فيغو. وكان من المنتظر، ان تُسلم عشرون آلية اخرى، تعود في الأصل إلى سبعة عشر إقليما[20]. علاوة على ست طائرات اخرى، تبرعت بها بعض الشخصيات.

وإزاء ملحمة جمع التبرعات هاته، كانت تتمثل المأساة الحقيقية. ففي "المضيق" (جنوب غرب تطوان) مثلا، كانت تصطف وحدات الفرق العسكرية في انتظار إجراء تلقيح ضد حمى التيفوس، ولم يكن في متناول اليد سوى اربع او خمس حقنات فلادية. كان من الصعب تطهيرها جيدا من الجراثيم. خمس إبر لحقن ما يزيد عن الف رجل. وبفضل التدخل المتحمس للفرنسي تيبولط Thiebault، وابنته ماريا طريسا María Teresa، وإهدائهما لاثنتي عشر او ثلاثة عشر علبة من إبر البلاتين، تم إنقاذ الموقف الذي يستحق ان يُنعت حسب عبارة البرلماني سولانو، «بالمخجل جدا»[21].

وبكاستيون، وجيان ومالقة، تبرع موظفو المجالس الإقليمية بيوم عملهم. وبإشبيلية، تم الاحتفال بيوم السيجار لفائدة الجنود. فكانت الحصيلة يوم الثالث والعشرين من غشت، سبعة عشر صندوقا مملوء بعلب السجائر، وثلاثة صناديق أخرى بها سجائر منفردة، وخمس علب من السيجار الفخم. وعلقت في كل مكان، بالبنوك والمحلات

التجارية، والملاهي الليلية والفنادق، صناديق خُصصت للتبغ، وكتبت عليها العبارة التالية: «في سبيل الجنود الذين يقاتلون بإفريقيا»[22].

ووصلت إلى موانئ أندلسيا والشرق، بواخر قادمة من وراء البحار. فخرجت من تلك السراديب الكئيبة، حشود مثخنة بالجراح، مريضة وتائهة ومنهوكة، مخلفة وراءها حربا غير مألوفة. وباتت مليلية في خصاص تام في الماء الصالح للشرب.

كانت مالقة وحسب الاتفاق، ترسل يوميا إلى مليلية خمسين لترا من الماء، وهي كمية لم تكن كافية. فاقترحت صحافة بيلباو على قرائها إهداء شاحنات - كوبا لجنود غاريانو Garellano، وهي فرق كانت ترابط بمليلية[23]. وهكذا، استأجرت الحكومة بارجة الكونت شوروكا El Conde Churruca، التي اقلعت قاصدة لندن، وهناك شحنت ستة آلاف طن ثم عادت.

وعن إبحار سفينة شوروكا، تقدم الماركيز خوصي غومس اثيبو José Gómez Acebo وزير البحرية، بالشروحات التالية، والتي كانت مدهشة حقا: «كانت السفينة تجلب المياه من إنجلترا، حتى لا تضطر للوقوف بإسبانيا، مواصلة السير مباشرة نحو مليلية»[24].

امتلأ ميناء مليلية عن آخره بحشود رحبت بقدوم بارجة شوروكا. بيد أن خيبة أمل كبيرة دبّت في صفوف الشعب، فالسفينة لم تُفرغ حمولتها كاملة. إذ الخزان كان يقدر بثلاثة وعشرين قدما أي (6.7 متر)، لكن لم تكن هناك خراطيم مياه ولا براميل ولا حلول. وهناك بقيت سفينة الماء تتمايل في الخليج الصغير، فتعطلت مهمتها وضاعت شحنتها، ومر شهر والحالة المخجلة مازالت على ما هي عليه[25].

اختلافات عسكرية بين الإنجليز والإسبان

استطاعت حرب إفريقيا أن تستميل طاقات بشرية متحمسة أكثر مما كان متوقعا: طاقات كانت تتوق إلى الحرب، وتتطلع نحو إسبانيا. فبعد أن فتحت القنصليات شبابيكها لتسجيل المتطوعين في الجندية، كان رد الفعل مذهلا. ففي لندن، ويوم الخميس الثامن عشر من غشت، وعلى الساعة التاسعة صباحا، تدفق الآلاف من قدماء المحاربين المتحمسين، وتزاحموا عند بوابات السفارة الإسبانية، التي تقع في الحي الراقي المعروف بـ"شلسيا Chelsea". فمنذ الثالثة صباحا، انتظر أولئك المتعطشون

للكفاح في إفريقيا دورهم. وما إن حلت العاشرة صباحا، حتى فاق عدد المتطوعين الألف وخمسمائة رجل. المئات منهم كانوا ضباطا قدامى، عرفوا بحنكتهم وخبرتهم في مجال القتال. فذُهل الدبلوماسيون الإسبان من هول ما رأوا من كثرة الجموع، فطلبوا من مدريد توضيحات عن الأمر.

كان الحل الذي وقع الاتفاق عليه مؤسفا للغاية، إذ تم إصدار امر يقضي بقبول الجنود فقط، دون إعطاء تعويضات لعائلاتهم. كما اذيع خبر توقيع العقود بإسبانيا. فكان على المتطوعين الرحيل إلى هناك على نفقاتهم الخاصة. الشيء الذي ولّد الدهشة وفجّر ينابيع الغضب، والذي اتخذ اشكالا من العنف. فكان من الضروري اللجوء إلى شرطة مكافحة الشغب لتفرقة تلك الجموع[26].

لم تكن عمليات التطوع للجندية بنيويورك تعرف شغبا كثيرا، بالنظر إلى مثيلاتها بلندن. إذ تم قبول مائتي رجل، ابحروا ليلا في اتجاه إسبانيا يوم الثالث والعشرين من غشت[27]. وبموازاة ذلك، كان المشكل الإنجليزي يزداد تفاقما.

كان الفونصو ميري دي فال Alfonso Merry del val، سفير إسبانيا بلندن. وقد اتسمت تقاريره خلال الحرب العالمية بالنموذجية. لكنه، وامام احتدام موجات التعبئة البريطانية الموجهة نحو إسبانيا، وبسبب طبيعة الحرب في المغرب، تذمر كثيرا وأدلى بتصريحات مزعجة.

وفي رسالة بعث بها يوم الثامن عشر من غشت 1921 إلى وزير الحكومة، السيد غونثالث أونطوريا González Hontoría، حذر من مغبة تجنيد الإنجليز، نظرا لمجموعة من الاعتبارات. ولخص هذه المساوئ فيما يلي:

«إن الجندي الإنجليزي هو شخص متعود على التفنن والعناية بالمآكل والملبس... وعلى ضوء هذه المعطيات، فإن شروطه لن تكون قليلة. وليس هذا هو الأسوأ، نظرا لطبيعته المتردة، فإنه يهيج بسرعة ولأسباب لا علاقة لها بالسياسة نهائيا. يفقد صوابه لتفاهات تتعلق بالثكنات العسكرية (...). إن الجيوش الإنجليزية لم يحركها اليوم إسبارطيرو Espartero ولا اودنيل ODonnell، (في إشارة إلى القوات الإنجليزية التي خاضت غمار حرب كارلوس الأولى)، ولا حتى القوى النقابية. فإذا ما قُدم لهم طعام غير كاف، او قليل بالنسبة للكمية التي طالبوا بها، وإذا تم تموينهم بعتاد ومعدات من

نوع رديء، او غابت الذخيرة في قتال دموي، او تعامل معهم ضباط بقسوة، فإنهم يتخذون من كل هذه الأمور ذريعة، فينقلبون على رؤسائهم. يخربون ما حولهم او ببساطة يختفون من الميدان. (...) وفي بلدان أجنبية، شوهدوا لمرات عديدة، يتعاملون مع العدو، طمعا في مناصب وقيادات لم تكن لتخطر على بالهم[28].

وبما ان شروط ومتطلبات الجنود البريطانيين كانت كثيرة للذهاب إلى القتال، وامام غياب هذه الإمكانيات في المغرب الإسباني، فالأولى على حد تعبير السفير الإسباني الاستغناء عن هذه الخدمات الأجنبية، والاعتماد بالأساس على الجنود الإسبان الذين يقاتلون ويرضون ليس فقط بوجبة هزيلة، او عتاد مترهل، أو نقص في الذخيرة، وإنما يحاربون وهم جياع وعراة، في ظل حضور او غياب أسلحة رديئة، ونفاد ذخيرة. ومع كل هذه الظروف، لا يتمردون ابدا. إنهم افضل جنود في العالم.

وبتلقائية وحيرة، اوجز **ميري دي فال** اقواله، فاستطرد قائلا، «علينا ان نأخذ بعين الاعتبار انه مهما بلغت درجة السفالة بالمتطوعين الإنجليز، الذين ليسوا اكثر من اشخاص عاطلين يمقتون العمل، فإن السفير البريطاني سيظل دائما خلفهم، يساندهم في اي مطلب يطلبونه، وهو ما يزيد الأمر تعقيدا. وباختصار، فانا لست موافقا على تجنيد عدد كبير من الإنجليز، لأن إحساسهم الفطري بأنهم ارقى شعب من كل الأجناس، يجعل منهم عناصر يصعب التحكم فيها. وإذا حدث واستُقطبت اعداد هائلة منهم، وليس الأمر مستبعدا إذا ما نظرنا إلى براعتهم في القتال، فمن الأفضل وضعهم تحت قيادة واحد من ضباط هذا البلد، لأنه سيفهمهم ويسيرهم كما ينبغي[29].

ولى المحاربون البريطانيون وجوههم شطر إفريقيا. كانت السلطات الإسبانية مستاءة منهم كثيرا. فعند منتصف شهر نونبر، قرر أربعون رجلا منهم -حسب المعلومات الواردة- العودة إلى الوطن الأم. وتداولت الأوساط العامة وصحافة لندن اخبار ملتمساتهم. واشتدت التهكّمات والسخريات المعادية لإسبانيا، فبعث غونثالث اونطوريا برسالة احتجاج يوم السابع والعشرين من نونبر 1921، إلى السفير البريطاني بمدريد السيد إسمي هووارد Esme Howard يندد فيها بالعبارة الهجومية، ("الجماهير الإسبانية الفقيرة" Spanish Horde)، التي تناقلتها يومية التايمز تحت عناوين تسيء إلى إسبانيا وجنودها[30]. وبحلول فبراير 1922، طلب احد المتطوعين وبعد إصابته بجراح،

بتعويض عن الخسارة التي لحقته، وكأنه عامل وقع ضحية حادثة عمل. وهو ما نقله لاثيريا بغضب إلى برنكر[31]. لكن لا احد منهم تطاول بالحديث عن صفوف عبد الكريم، التي كانت تضم مرتزقة فرنسيين والمانا.

وحدث أن استمدت إسبانيا قوتها من اولئك الإنجليز الجيدين، وتعلمت معنى الإخلاص من صديق قديم كان يعرف بالجنرال رودكين Rudkin، الذي كان شاهدا على ذلك الهجوم الذي شنته قوات سيلفستري على تفرسيت.

وفي رسالة بعث بها إلى جريدة التايمز، أعادت يومية الصول نشرها، ندد رودكين بالأخطاء الفادحة التي ارتكبها الإسبان في مجال الصحة والغذاء واللباس. في حين وصف كل اشكال المعاملات التعسفية بالهزيلة والفكاهية. كما أورد معلومات دقيقة بشان تاخير دفع الأجور. إذ كانت تدفع بريطانيا العظمى الرواتب للمرتزقة مسبقا كي يعودوا، وتعطى لهم ملابس مدنية نظيفة، وتشترى لهم تذاكر السفر البري والبحري. ومن جهة اخرى، وبعد وصولهم إلى أوطانهم، لم تسلم لهم تذاكر القطار الذي سيقلهم إلى بلداتهم. ولهذا السبب، انتقد رودكين هذا التخاذل وعدم الاهتمام المستمر من الوزارات البريطانية الخارجية والحربية. وختاما، لم تكن لرودكين سوى هذه العبارات التي مدح بها قيادة الفيلق قائلا:

«الشيء الذي أثار إعجابي، هو أن الكولونيل ميان اسطراي وضباطه، استطاعوا بمعية فرق المتطوعين الأجانب، تحقيق نجاحات باهرة، رغم قصر مدة التداريب. وهذا شيء من الواجب التنويه والاعتراف به في حق شرف الضباط وجنودهم»[32].

حصار مليلية:
ملائكة في صورة مدفعيين، ومعجزات يومية

انعقد الاجتماع الأول لمجلس الوزراء في حكومة ماورا، يوم الاثنين السادس عشر من غشت 1921. واسفرت المداولات عن بيانات، تم إصدارها بطريقة شبه رسمية، ونصت على أن شمال المغرب يعتبر بمثابة رهان، لا يمكن التنازل عنه، وذلك لضمان استقلال وامن إسبانيا. وبموازاة مع ذلك، تم التطرق إلى قيادة برنكر، التي وصفت بالهائلة،

لكونها تعتمد اساسا على سبل ومناهج تقدمية رائعة. وقيل عن الحرب إنها ستستمر بلا هوادة، واضافوا انها لن تتوقف حتى ينتهي هذا الإنجاز السياسي الذي دعمته وساندته اسلحة المواطنين[33]. كل هذا، لم يكن سوى ملخص حاسم عن النزعة الحربية التي طبعت الاستعمار الألفونصي.

ويوم الخامس عشر من غشت، جمع برنكر خمسة وثلاثين الف رجل في مليلية. كان بالإمكان الشروع في حرب الاسترداد، لكن وبعد مرور خمسة ايام، اقر برنكر للاثيربا بان بطارية ريفية، تمكّنت من إحكام طلقاتها، واطلقت قذائف وصلت إلى داخل معسكر سيدي حامد الحاج، فخلفت قتيلين اثنين واربعة جرحى[34]. وهكذا، اصبحت مليلية تعيش على إيقاع النيران التي يصدرها طبجيو الكوروكو.

ولم يُعلم بحقيقة رسالة بعث بها ريكيلمي إلى برنكر يوم الثالث من غشت، إلا بعد مرور سنة ونصف. وقد تضمن هذا الإنذار، الإشعار التالي: هناك حرس يقدر عددهم بمائة رجل بالكوروكو، ومن المحتمل ان تحدث اي مفاجاة بالليل عبر "البرانكو دي اللوبو"[35]. المفاجاة كانت هي الاستيلاء على الغابة الكثيفة برمتها وانطلاق القصف.

استعمل الريفيون المدافع التي غنموها، واستغلوا اليد العاملة الأسيرة التي كانت تحت سيطرتهم. فكانت القطع الحربية تُسير من قبل المحتجزين الإسبان، الذين حملوها سابقا على اكتافهم، وصعدوا بها إلى مرتفعات وعرة تختلف مستوياتها بـ 20%. شارك في هذا الكفاح المسلح، حوالي مائة وخمسين اسيرا، لقي العديد منهم حتفهم في خضم تصويبهم لفوّاهات تلك المدفعيات. وحسب بعض المصادر، فإن بعض الإسبان ذوي النوايا السيئة، هم الذين كانوا يسيرون تلك المدافع، وهو ما اكده الجنديان بنيطو فرجس كاسطيل Benito Verges Castell، والفونصو إسبينوسا سانتيث Alfonso Espinosa Sánchez، الذين فروا من ميادين المورو، فحكوا أن حرسهم كانوا يدفعون للأحياء الذين ينقلون المدافع إلى الكوروكو، ريالين اثنين وعلبة صغيرة من السجائر[36]. وهكذا، ظلت مليلية تعيش على إيقاع نيران العدو، وهو أمر لم يحدث منذ حصار 1774-1775، حينما اراد سيدي محمد بن عبد الله، رابع الملوك العلويين، استرجاع المدينة. ومنذ ذلك الحين، والمدينة في مامن من هذا القصف، الذي شهد حصارا دام اربعة اشهر[37]، قُذفت المدينة فيه بثمانية آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين قنبلة، وثلاثة

آلاف ومائة وتسعة وعشرين رصاصة قاتلة. لكن الشيء الذي خدش، الروح الوطنية للشعب بعدوانية كبيرة، هو منظر المدينة وهي تُقصف بمدافع سيلفستري.

لم تكن ابدا بحوزة الريفيين اكثر من ثلاث آليات مصفحة لقصف المدينة، ولم تكن قذائفهم عند تفجيرها تفزع ساكنة مليلية، بقدر ما كانت تؤجج روح الحماسة فيهم. وما ان ينجلي الهلع الأول، حتى تحل محله الأنفة والتحدي. وبعد ان تاكد مؤرخ ا.ب.سي، السيد كوروشانو Corrochano، بأن التسلية وإرضاء الفضول، هما من دفعا بمدافع المورو إلى البحث عن القلعة، جاء تحديه لفوّاهات مدافع الكوروكو على هذا المنوال: «إنهم يقصفون؟ فليقصفوا»[38]. ويأتي الحديث عن الطبجيين الإسبان -الريفيين، الذين صوبوا طلقاتهم بالضبط على الحي الرئيسي، حيث كانت تقطن ساكنة شديدة الجراة والجسارة. ساكنة باتت تعتبر وصول دوي الطلقات المدفعية امرا عاديا. ولم تكن هذه الطلقات بالكثيفة كما كان يروج، ولم تخلف خسائر عديدة كما كان مرتقبا. فإذا ما اصابت القذائف اهدافها (الميناء - الثكنات العسكرية - الحصون - المطار)، كان لا ينفجر منها سوى اثنين او ثلاثة من اصل عشر قذائف.

وعن مدافع الكوروكو، قال السيد بوراس Borrás، انها تطل براسها لهنيهة، فتقذف بلعابها وتعود ادراجها بسرعة. وبعد ان قارنها بآليات حقيقية اخرى، كتلك التي تفتح فوهاتها فتصدر ازيزا قويا، وصفها وكانها ذلك الطائر الصغير، الذي يطل براسه من الساعة الخشبية ليحدد الساعة بمليلية، فيحذر المدينة من غفلتها ومن نسيانها للخطر. وتساءل الصحافي عمّن باستطاعته القبض على وقواق الساعة؟ ومن ذا الذي يتحكم فيه؟ ومن يصوب زناده؟ وحسب بوراس، كان المسؤول هو احد الهاربين من الجندية، القائد ريبو Rillo، الذي أُشيع عنه، ان قذيفة صادرة من مليلية استهدفت ساقه، فمر إلى جبهة العدو ليتحالف معه، لكنه لم يكن خائنا مائة بالمائة. فالغدر لم يكن إلا لعبة مزدوجة ومحكمة، إذ ريبو كان قائد مدفعية يحسن إعداد المتفجرات. وحسب بوراس، كان ذلك الهارب من الجندية (ريبو) رجلا طيبا، وبصفته خبيرا بالمتفجرات، كان يمنع من ان يقصفنا العدو بقنابل مميتة، كانت ستهوي علينا عوض هذه الأجسام غير الضارة وغير المؤذية[39].

لم تتاخر الحقيقة طويلا في الظهور، فإمليو ريبو إيريرا Emilio Rillo Herrera، كان يعمل وعن سن تناهز الست عشرة سنة، كبواق في جيش أراغون رقم 21. وبعد أربع سنوات من الخدمة، التحق بفرق المتطوعين الأجانب. بعدها، فرّ من الجندية سنة 1920. وبعد إقامة عابرة وعاجلة بفندق بلاص بثاراغونا، حيث كان يعمل ترجمانا، قرر التطوع والانضمام إلى صفوف فرق الجيش الإفريقية، فأرسل إلى دار الكبداني. كان واحدا ممن نجوا من مذابح الخامس والعشرين من يوليوز. سقط أسيرا في يد العدو، وظل يصوب فوهات المدرعات حتى منتصف شهر شتنبر. وقتها، شك الريفيون في مدى إخلاصه في العمل، فساقوه حتى أنوال. فهرب من الدريوش ووصل إلى مليلية في شهر نونبر.

ادلى "ريبو" بتصريحاته أمام هيئة الاستشاريين التي يترأسها بيكاسو، وكان القائد يحتفظ بساقيه الاثنتين. ففيدل بورس مارتينيث Fidel Porres Martínez، الذي كان بدوره على رأس المدفعية، كان هو من فقد ساقه من جراء إصابته بطلقة مدفعية. لم يتردد ريبو في الوشاية به لدى السلطات الإسبانية، فجمع ضده سبعة شهود من زملائه القدامى[40]. وسواء كان المعني بالأمر هو القائد ريبو أو البوطخار El Botajar، وهو لقب خوان لوبيث خورادو Juan López Jurado (أحد الفارين كذلك من الجندية عام 1911)[41]، فإن مليلية وفي خضم القصف الريفي، نجت بفضل أولئك الفارين من الجندية الطيبين، والذين عانوا من تأنيب الضمير. وكذلك، بفضل وفاء وعناية العذراء (صوليداد).

كانت صورة العذراء توجد في بيت متواضع. وفي إحدى غرفه، كان ينام طفلان صغيران في نفس السرير. وحدث أن اخترقت قنبلة سقف الحجرة، فدمرت الطابق العلوي، وهوت بالقرب من الأميرين الهادئين. لكن وباصطدام القذيفة بالسرير ذي النوابض، وثبت في الهواء بشكل عجيب، وزاغت فوارتها المتفجرة. كانت قذيفة من نوع شاربنيل Charpnel، وانحرفت نحو السقف والحيطان حيث خلّفت ثلاثمائة جريح. فنجا الطفلان بفضل حضور العذراء معهم. فشاع الحديث عن معجزة لاكتها السنة العديد من النساء اللواتي، انبهرن بالحدث[42]. وهكذا، تحول المنزل الواقع بشارع بولافييخا Polavieja رقم 48، إلى رمز لمقاومة مليلية. وربما بسبب العامل المعنوي، أو بسبب فشل القنابل المتفجرة الإسبانية في إصابة هدفها، كانت مليلية تنام في هدوء في مأمن من الخطر، تحرسها عذراء لاصوليداد بعينها وملائكتها المتمثلين في رجال المدفعية في الكوروكو.

معجزة أخرى جسدها سؤال ظل مطروحا وهو، لماذا لم يستول عبد الكريم على القيادة العامة في مليلية، ولم يُجهز بالمرة على المدينة؟ الجواب هو، أن المقاومين الذين استدعتهم عائلاتهم لإنهاء الأشغال الفلاحية، كان لديهم ما يكفيهم من غنائم كثيرة. كانوا يتمتعون باستقلال شبه مضمون عن إسبانيا، وكذا عن السلطة المركزية. وكذلك بشرف قومي عظيم، واعتراف من الشعوب الإفريقية والعربية بعظمتهم بعد فتكهم بقوة أوربية. علاوة على ذلك، انتشرت في الريف فكرة (كانت عائلة عبد الكريم تشاطرها كذلك) أن الإسبان، وبعد فشلهم سيتنازلون عن حقوقهم لفرنسا. وبالتالي، سيخرجون من سبتة ومليلية. لكن هذه الرحلة في اتجاه البحر لم تحدث، فمكث الإسبان في مواقعهم وقاوموا، لكن هذه المرة بصدق.

أول جيش وطني:
أثرياء ومعوزون يقاتلون جنبا إلى جنب

جاء على لسان برنكر أن المعمعة كانت فريدة من نوعها. يتعلق الأمر بتشكيل جيش أراد الخروج به إلى القتال في اليوم الموالي، فطلب مهلة شهر كامل ليتصدى للهجوم. فانقضى الأجل دون أثر لهذا الجيش. وفي المقابل، أعد الريفيون عدتهم في ظرف لا يتجاوز الخمسة أيام فقط، فاستمروا في هجوماتهم يحصدون الأرواح. بخلاف الإسبان، الذين لم يحركوا سوى مشاعر التأثر والحيرة العارمة.

تطوع للجندية ضباط مشاة لا دراية لهم بالميدان بتاتا. كما أن المخازن كانت فارغة من العتاد والذخيرة. مما جعل الحكومة تمد يدها بالسطو على ممتلكات مستودعات مديرية الأشغال العمومية بإسبانيا[43]. كان النقص كبيرا في كل شيء، والأدهى من ذلك هو واقع فرق الرشاشات، حيث إن عددا كبيرا من الجنود، كانوا يجهلون كيفية استخدام تلك الآليات. ومما زاد الطين بلة، أن هذه الرشاشات البائسة (من نوع كولط)، كانت تتوقف عن العمل فور استخدامها[44]. فاهتز الرأي العام الوطني إزاء هذه الأخبار الواردة من مليلية، والتي تفيد بوجود جيوش عراة بلا ملابس ولا سلاح، فاتخذ نائب من إسطريمادورا قرارا فعالا وجريئا.

حسب ما يبدو، فإن السيد خوان فيطوريكا كاسوسو Juan Vitórica Casuso، هو صاحب المبادرة المفاجئة[45]. فبعد أن علم أنه بمدينة ليون تُصنع البنادق الرشاشة،

ذهب إلى هناك دون تردد، واشترى بماله الخاص ستة آليات أوتوماتيكية -من طراز شوشاط- مزودة بذخيرتها. فعاد إلى إسبانيا، ثم ركب على متن الباخرة الأولى في اتجاه مليلية. وهناك سلم ما اشتراه إلى كولونيل إحدى الفرق، الذي اندهش لهذا الفعل. وتمت هذه البطولة في أربعة أيام كاملة، تحدث عنها الكل داخل البرلمان "ارسنيو مارتينيث دي كامبوس دي لافيسكا" Arsenío Martínez de Campos y de la viesca، الذي أورد في جلسة الواحد والعشرين من اكتوبر ما يلي: «إذا استطاع السيد فيطوريكا جلب ست قطع من هذا السلاح، فإن واحدا من ضباط الجيش كان بمقدوره إحضار ستين قطعة»[46].

حوادث أخرى سجلت بشأن الدواب، حيث كانت الحاجة ملحة لألف من الجياد، لتعزيز القوات الموجهة إلى الريف. لكن ما حدث هو أن شراء عدد ضئيل من الخيول، لا يسد الحاجة، فكان لابد من القيام بعمليات شراء واسعة من الجزائر وهنغاريا والبرتغال، وحتى من الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ندد مارتينيث كامبوس بالوضع، مذكرا بوجود ما يناهز مائتين وخمسين قائدا وضابطا كانوا يهتمون بتربية الخيول، فكيف اللجوء إلى الخارج لاقتناء هذه الجياد، وبشكل قاطع، استدل على أنه لا حاجة له بهذا النظام، إذا كان هناك نقص في الخيول[47].

وندد برلماني آخر السيد "سولانو" Solano، بمهزلة الجند الذين يستخدمون الدواب في نقل بنات وعقيلات بعض الضباط للتنزه. واوضح أن إحدى فرق المشاة، كانت تمتلك ما يفوق مائتي حصان. كانت كلها تخصص لهذه الأغراض التي لا علاقة لها بالمهام الرئيسية التي أنيطت بها (وعم الضحك في المكان). وبما أن الوحدة العسكرية واصلت دفع ثمن غذاء الخيول، فإن الضباط كانوا يدسون في جيوبهم ثمن هذا الغذاء. وآخر الخروقات سجلت مع موت الجياد، حيث كانت تحرر شهادة الوفاة، وينتهي الأمر بسلام. ولكن بيع الأحصنة التي أشيع عنها أنها أصبحت جيفة، كان ممكنا. وحذر سولانو الجموع الحاضرة بقوله: «فإذا عارض أحدهم، فأنا مستعد لأثبت ذلك متى شئتم، فسَرَت همسات كبيرة في البرلمان[48].

وفي مقابل هذا الفساد الأخلاقي المتفشي، ظهر نوع من المساواة في أداء الواجبات. وعن هذا الظرف، قال السيد مايطثو Maetzu بإحساس حاد: «هذه هي الحرب الإسبانية الأولى التي خاض فيها أبناء الأثرياء غمار الحرب، جنبا إلى جنب مع أبناء المعوزين»[49].

قلعة محاصرة: ارتياب ومقاومة

عند اواخر شهر غشت، تكدّست في الشوارع، والثكنات العسكرية وحصون مليلية، حشود وصل عددها إلى سبعة واربعين الف رجل. كان الوضع مقلقا، ففي الوقت الذي كان فيه الضباط مرتاحين في إقاماتهم او في احد الفنادق من الدرجة الثانية، كان الجيش ينام على الأرض، سواء كانت معبدة او من تراب، ودائما في العراء تحت السماء. كانت الخيام والأسرة قد نفذتا، ولم يبق شيء في الاحتياط. فطالب برنكر لاثيربا بخمسة عشر الف خيمة فردية، وطالب بتعجيل إرسال ثمانية آلاف منها[50]. وبسرعة كبيرة، تم اللجوء إلى المانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى، وذلك لتفادي تعقيدات ديبلوماسية.

وحدث ان اعطت اميرة "دي أروكيخو" de Urquijo، مثالا رائعا عن التضامن، فبعد اطلاعها على الدراما، اشترت بمالها الخاص اربعة آلاف سرير، بعثت بها إلى مليلية، فوصلت إلى المكان في غضون ثمانية واربعين ساعة. فاحس البعض بالعزاء، واستهتر الكل بحكومة ماورا[51].

وتمت دعوة الصناع المهرة من شرق البلاد ومنطقة كاطلونيا، وطلب منهم "لاثيربا" العمل بثمن رمزي باسم المواطنة، وذلك لتغطية العجز الحاصل في إسفنج الأسرة، الذي كان يقدر عدده بمائة وثمانين الف وحدة. فتم الاتفاق على ثمن 21,50 بسيطة. كان لابد من انتظار شهر نونبر لتحصل مليلية على عدد كاف من الخيام، يأوي ما معدله سبعة وثمانين الف رجل من الجيش[52]. كانت الحشود كثيرة، لكن الجيوش قليلة. فالنواة الفعالة -والقتالية- كانت مكونة من رجال نظاميين، وفرق المتطوعين، وبعض وحدات المدفعية، وثلة من الفرق المسؤولة عن تزويد الجنود بالعتاد والذخيرة. علاوة على الفرق المعروفة باسم بورغس - كورونا، غرناطة ولابرنثيثا. وضحت كل هذه الفرق بالغالي والنفيس. كان المشهد الأول مع هيئة ضباط فرقة "لابرنثيثا"، التي فقدت خمسة من قوادها في اول هجوم لها، واصيب ضابطان اثنان، وهما: غونثالث طابلاس González Tablas ومولا Mola من فرق الجيوش النظامية، بجروح خطيرة. وخسرت كتائب النظاميين، المؤلفة من سبعمائة وستين جنديا من منطقة جبالة، العديد من

افرادها، ولم يتمكن من النجاة سوى مائة واربعين رجلا، استطاعوا البقاء على قيد الحياة بعد ثلاثة اشهر، عانوا فيها من اربعين مواجهة دموية في مذابح الكوروكو. ومرة اخرى، وبعد مشاهدته لعروض الجنود الذين بقوا على قيد الحياة، ذعر برنكر وبادر بإخراج خمسة آلاف بسيطة من محفظته، وسلمها لغونثالث طابلاس بهدف توزيعها على جنود طابور فِرِير Ferrer، (نسبة إلى الكومندان خوصي فرير José Ferrer)، الذين عادوا منهوكي القوى[53].

وبعد إطلاق عشر عيارات نارية، اتضح أن جنود فرقة صقلية قد دخلوا غمار القتال. اما "كتائب وادراس"، ففعلوا ذلك بعد خمس طلقات. ورغم كل الظروف المزرية، صعدت القوات الإسبانية بكل جد لملاقاة العدو، فقاتلت وهوت عند خنادق الكوروكو.

تعودت الجيوش الإسبانية على القتال بدون تعليمات عسكرية هادفة، ولا سلاح في المستوى المطلوب. كما تعودت كذلك على القتال بدون تعليمات جنرالات اكفاء. وفي برقية بعث بها إلى "إيزا" يوم التاسع والعشرين من يوليوز، وصل الأمر ببرنكر، إلى درجة الاعتراف امام الوزير بان الجنرال الوحيد الذي يثق به، هو القائد سان خورخو، الذي اعتاد الخروج يوميا لتفقد احوال المعسكرات الخارجية، كما انه يحرس القلعة ليلا[54].

وهكذا، وبعبارات مقتضبة، يكون برنكر قد ترك على الهامش كل من كابنياس cabanellas وكبلكانتي Cavalacanti، وفرسنيدا Fresneda ونيلا Neila وحتى خوردانا Jordana (الكولونيل وجنرال الأركان الحربية). وفي أواخر شهر غشت 1921، أصبحت مليلية عبارة عن حصن يحاصره جيش من جبالة العدوانيين، الذين لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر الفا. وبالرغم من وجود سبعة واربعين الف مُدافع، إلا انها كانت لا تمتلك سوى مقيم عام واحد، وجنرال آخر على راسها.

شرارة الحرب امتدت لتطال بالسنتها بلاد جبالة

تفاوض برنكر مع عبد المالك، احد الشيوخ الأجلاء. كان يثق في قدراته لمنع زحف فتيل الثورة إلى بلاد جبالة. فاعطى عبد المالك كلمته لبرنكر، ووعده بالضغط على الشيوخ الآخرين دون أن يقدم له وعدا بالإخلاص (وُضع على المحك ساعة وفاته عند الخنادق الإسبانية في عزيب ميضار، في صيف 1924). وعند منتصف شهر غشت،

بعث برنكر إلى عبد المالك بخمسين الف بسيطة، بهدف واد خرْكة غمارة، التي تتكون ضده، وكذلك لاستمالة الضمائر حتى لا يذهب الريفيون في ذلك الاتجاه[55]. لكن هذا المال وصل متاخرا.

قررت قبيلة بني يسف، التي كانت بمثابة حلقة وصل بين جنوب بني عروس (التي ينتمي إليها الريسوني)، ووزان (التابعة للنفوذ الفرنسي)، والتي تحوي افضل المقاتلين، إعلان تمردها وعصيانها. ولتفجير مكنونات غضبها، اختارت عقبة القلة في ربوة معزولة. كان يُعسكر عندها نصف طابور ثيوداد دي رودريكو la Ciudad de Rodrigo، وكان يقوده التنينتي كولونيل إسيدرو فالكارثل بلايا Isidoro Valcárcel Blaya، الذي كان على راس مائة وتسعة وتسعين رجلا. كما ان الثكنة كانت تضم اربع قطع حربية من نوع سان شاموند، وعيار 75 مليمترا. لكن وقبل يومين، سُرق منها مدفعان. كانت الدوريات والحراسة تتم بالمنطقة بطريقة روتينية واعتيادية، وكان ما يجري في الريف لا يمت لهذا العالم بصلة.

وليلتَي السابع والعشرين والثامن والعشرين من غشت، اقتربت حشود من قبيلة بني يسف في صمت من عقبة القلة. كان المعسكر يغط في نوم عميق. الجنود ركنوا إلى الراحة، وتبعثر الحرس الليلي في كل مكان. فحل الخطر والموت في آن واحد. وبما أن الدفاع بالمدافع كان امرا مستحيلا، فإن الإسبان ارتاوا تكوين إطارات دفاعية عنيدة، تلتف حول ثلة من الضباط. فمات الواحد منهم تلو الآخر.

وفي الدقائق الأخيرة من القتال، اتخذ الملازم إغناثيو غومس دي غيفارا Ignacio Gómez de Guevara، الذي كان على راس المدفعية، قرارا وحشيا تمثل في تفجير مستودع البارود والذخيرة، الذي كان يتواجد بداخله. وفي اللحظة التي تدفقت فيها افواج وجموع جبالة، شغل إحدى المفجرات، فسمع ذوي انفجار هائل وضع حدا للصراع. وتوفي كل ما تبقى من الضباط[56]، ومعهم فالكارثيل. في حين كُتبت النجاة لأحد ضباط المورو، وهو سيدي علي ساحلي[57]، الذي تمكن من الوصول إلى الخطوط الإسبانية. اما الجيش، فلم ينج منهم سوى اربعة وعشرين شخصا، خمسة عشر منهم من الأهالي، كان معظمهم مثخنا بالجراح. اما الآخرون (مائة وخمسة وسبعون)، فقد لقوا حتفهم. واللائحة طويلة ممن بُترت وقطعت اعضاؤهم.

ويوم الثلاثين من غشت، وصلت قوات دفاعية من العرائش إلى المعسكر الذي لحقه الدمار والخراب، فاستولت على المراكز الأمامية فقط، لأن القشلة برمتها كانت مكسوة بجثث القتلى والجيفة. واستغل برنكر هذا الوضع، ليخبر لاثيربا بما يلي: «بعد الاستماع إلى الأنباء السالفة الذكر، اظن انه تمت السيطرة على الوضع. إنني قد هنأت القائد العام (السيد بَاريرا Barrera)». لم يتغير برنكر، فها هو الآن يكرر اثناء احداث عقبة القلة، ما ذكره بعد ايام ابران.

ولم تكد تمر اربعة وعشرون ساعة اخرى، حتى حلّت مصيبة جديدة ازاحت الوشاح عن هذا الإصلاح العسكري، الذي لم يكن في الأصل سوى افتراء. وجاءت الضربة الثانية هذه المرة من الشمال الأقصى، بالقرب من نوادر Nuader. وعلى هذا المنوال، جرت فصول النكبة: كالعادة، كان فيلق من العساكر ينزل كل يوم إلى الواد (واد المخازن) بغية الارتواء، وهناك كان في انتظارهم ما يناهز اربعمائة كمين نصبه اناس من سماتة، كانوا بارعين في استخدام البنادق والاختباء والتربص للعدو من داخل الغابات. ترك اهل سماتة لكل الأشخاص والدواب فرصة الوصول إلى مورد الماء، دون ان يضايقوهم او يزعجوا حرسهم. وما ان وصلوا، حتى فتحوا عليهم نيرانا كثيفة خلفت ثمانية وعشرين قتيلا في صفوفهم واربعة عشر جريحا، علاوة على خسائر تزيد عن الأربعين من المواشي[58]. كل هذا حسب تقرير اعده برنكر إلى لاثيربا، الذي اندهش من جديد وثارت ثائرته.

لم يجد الوزير من بُد سوى التصريح بما يلي: «إنه من غير الضروري ان اذكرك، لأنك بالتاكيد قد فعلت هذا، بدافع تحذير الكل من مكايد وحيل العدو، الذي اظهر من خلال أحداث اليوم انه يستغل اي غفلة لينقضّ علينا».

وهكذا، انشغل الوزير بتذكير المقيم العام بمهامه العسكرية، بغية ان يلفت هذا الأخير انتباه اتباعه إلى ضرورة اتخاذ احتياطات لازمة.

شعر لاثيربا بالتعاسة، إذ تلقى لتوه وقبل بضع دقائق، خبر انسحاب حاميته من إحدى الحصون الخشبية الصغيرة الواقعة على جنبات الكوروكو، والمعروفة بـ"تكلمانين". فكان لابد من اتخاذ تدابير صارمة ضد قائد هذه الحامية، حسب قرارات برنكر.

منح مسدس لملازم ثان دبّ اليأس في نفسه

كان الخطر الدفاعي لمليلية يمتد على خط، كَسَبونا تيزا -سوق الأحد- آيت عايشة -سيدي موسى- سيدي حامد الحاج، وعطليون. فكل هذه الميادين كانت عبارة عن ساحات للقتال سنة 1909. وهناك كانت توجد ثلاث معسكرات في الواجهة، ترمز إلى الشجاعة والتعاسة في نفس الآن. يتعلق الأمر بقشلة دار حامد الملقب بالشرير، وقشلة "إكسطر تمدورا"، واخيرا قشلة "تكلمانين"، المعروفة كذلك باسم برج الموت. وحدث ان تحولت هذه الحصون المرتفعة التي كانت تتصدى لنيران الحصار الريفي، إلى قمم لها قيمتها. ففي معسكر "إكسطر تمدورا" مثلا، ويوم الواحد والعشرين من غشت، أُبيدت نصف حامية القشلة في هجوم شنته الحركة بالليل. كل هذا، والقائد خوليو أرا ايثكيريدو Julio Ara Izquierdo، عازم على مواصلة المقاومة وسط كَم من الجثث والمحتضرين، فكُتبت له النجاة. وفي سنة 1923، وشح بالوسام تقديرا للصمود في تلك العمليات القاسية والصعبة جدا.

وفي أولى تلك المعسكرات الانتحارية "معسكر الشرير"، وبعد الغارات الليلية التي شنّها الريفيون ليلة الخامس عشر والسادس عشر من شتنبر، كادت ان تفقد الحياة كل حامية المعسكر. وبعد إشعار عطليون Atalayon، والتي علمت بالأحداث، خرج من هناك القائد طوريرو Torrero واربعة عشر جنديا من فرق المتطوعين ضاربين بعرض الحائط كل الأوامر والتحذيرات، فحاولوا الدخول إلى الحصن الدموي. وقبل الخروج، احس المتطوعون انهم ذاهبون بلا عودة، الشيء الذي جعلهم يوزعون على زملائهم كل ممتلكاتهم، حتى إنهم نقلوا عناوين خطيبات الحرب، وعناوين الأقارب لموافاتهم برسالة النعي المشؤومة. كان لورينثو كامبس بويكردون Lorenzo Camps Puigredón، واحدا من اولئك الذين خرجوا من المعسكر. ويحكى انه كان قد تقاضى لتوه جزءا من علاوة، صرفت له لتطوعه في الجندية. فتقدم نحو إدواردو اغويا خمينس كورونادو Eduardo Agulla Jiménez Coronado، الذي كان رئيسا على عطليون، مخاطبا إياه: «سيدي الملازم، بما اننا ذاهبون إلى موت اكيد، اتَقَبّل مني تسليم هذا المال إلى منظمة الصليب الأحمر»[59]. فمد الجندي يده إلى الضابط وسلمه خمسين ريالا. وبإيماءات

من راسه، وافق "اغويا"، فتناول الأوراق النقدية والدموع تجري في عينيه. خرجت هذه المجموعة، وعبرت الأسلاك الشائكة، واختفت بعيدا داخل الجبال. فركضت بقوة ودلفت معسكر دار حامد. فدنا منهم الريفيون بدورهم، وصوبوا مدافعهم نحوهم. وعلى بعد مائتي متر فتحوا النار، فانهارت القذائف على سقف الحصن، الذي اشتعل نارا. فهوى على من فيه من المقاومين، فانقض الريفيون، وهم يفكرون في السلب والنهب اكثر مما يفكرون في القتال. لكن مفاجاتهم كانت كبيرة إزاء الجرحى الذين تصدوا لهم. لم ينج من المتطوعين الخمسة عشر اي احد. اما فيما يخص العشرين جنديا من الفرق النظامية، والمكونة لحامية المعسكر، فقد عاش منهم اثنان، وكلاهما كانا مصابان بجراح. كما انه لم يُعثر على اثر لكامبس وطوريرو.

وفي قشلة "تكلمانين"، جرت الأحداث على مرحلتين، فبعد هجوم آخر للحركة في غارة ليلية تمت يوم الثلاثين من غشت، قرر قائد المعسكر، الذي كان ملازما ثانيا وشخصا عاقلا وناضجا، الانسحاب برفقة الأحياء من الجنود. كان رامون مافيولي- رودس Ramon Mafioli Rodés، يبلغ من العمر واحدا وثلاثين سنة، سجل دخوله إلى الجيش في سنة 1899 جنديا متطوعا لا اكثر ولا اقل. وكان يرى الانسحاب من الحصن امرا ضروريا، فانصرف تاركا وراءه تسعة من القتلى، انغرس واحد منهم في الأسلاك، حيث كان يقاتل وجها لوجه مع العدو، ولاذ بالفرار مع احد عشر جريحا، وعشرة آخرين سالمين[60]، فالتجؤوا إلى الخط الثاني واعتصموا هناك. لم يعد مافيولي-رودس يخشى شيئا، ففرقته المكونة من ثلاثين رجلا خسرت عشرين نفرا، وهو ما معدله 66%. وكل الخسائر جاءت نتيجة لنكبات يوليوز، التي حدثت بدون أسباب معقولة، وبسبب جبن الكولونيلات الذين لم يساندوا فرقهم العسكرية. كل هذه الأسباب كان يؤمن بها مافيولي.

وفجر الفاتح من شتنبر، وصل سان خورخو إلى ميادين "تكلمانين". كانت القشلة مخربة عن آخرها، ولا اثر للعدو، وكان المكان مفروشا بالقتلى الإسبان. وحسب ما اشيع، فإن ضابط الجيش كان هنالك في الخلف. فاصدر سان خورخو اوامره بإحضار الملازم ثان. وامام الجيوش التي تشكلت وانتظمت، وامام الملازم الذي ذهل وشحب لونه، اصدر سان خورخو اوامره باعتقال هذا الأخير فورا، ودعا إلى مثوله امام مجلس الحرب. وفي نفس اليوم، اعطيت الانطلاقة لحملة الاعتقالات التي بدات في حصن

روسترو غوردو. وبعد مرور أسبوعين، اختنق مافيولي من كثرة الإنذارات التي كانت تحمل في طياتها الإهانة والذل، وقرر وضع حد لاحتضاره، فانتحر برصاصة في رأسه.

وجاء هذا الحادث في بلاغ حرر يوم الخامس عشر من شتنبر، كانت خيوطه متشابكة بطريقة غير عادية، فصار الموضوع غامضا يلفه اللبس. وجاء في هذا المحضر ما يلي: «لقد توفي الملازم ثان، السيد مافيولي رودس، الذي حاول الانتحار». ثم جاء سولانو، وروى الحادث التعيس. وعن تصرفات مافيولي أورد أنه كان يظن أن تبعاتها لن تؤدي به إلى المحاكم، في الوقت الذي كان عليه قتل الكل رميا بالرصاص. واسترسل في حديثه أمام قلق الحاضرين في البرلمان، وأوضح أن رؤساء الملازم «هم من أشفقوا عليه، وناولوه مسدسا ليضع حدا لحياته»[61].

وبعد توقف العمليات العسكرية، انتشرت انتقادات جاءت هذه المرة من داخل الجيش. فتزعم "ريكيلمي" هذه التنديدات، فأوضح قائلا: «إن إسبانيا لن تقوى على احتمال سيطرة مستديمة على المنطقة، فإذا ما أرادت ذلك فلها أن تؤمن وجود خمسمائة ألف رجل هنا»[62].

أما بالنسبة للريفين، فقد غدا حلمهم الكبير هو طرد المستعمر الإسباني. ومفاد ذلك، أنباء أوردها بعض الفارين الذين أخبروا الإسبان بتحركات بعض الأولياء الصالحين، الذين يصولون ويجولون في الأسواق، ذاكرين أن بنادق ومدافع المسيحيين ستتحول إلى ماء، وأن المسلمين سيحكمون العالم[63].

ومن جهته، أدلى برنكر إلى الصحافة بتصريحات مفاجئة، فبعد استجوابه من طرف "بوراس" Borras، وسؤاله عن نوعية الاستعمار الذي يفضل، أجاب: «إنها الحماية، وبالضبط كما يفهمها الإنجليز، على أساس أنها روابط ائتلافية كونفدرالية». وبعزيمة وحزم غير مألوفين، أضاف أن كل المستعمرات ينتهي بها المطاف إلى نيل الحرية والانعتاق من العبودية، والمغرب لن يكون في المستقبل حالة خاصة.

وبعد أن ذكره "بوراس" برغبة الشعب الجامحة في الأخذ بالثأر، علق قائلا: «إذن، أنتم لستم موافقين على إبادة هذه السلالة». فأجابه برنكر، وهو يهدئ من روعه: «لا أحد يريد هذا وأنا كذلك. كفى من هذه الهراءات. إننا نعاقب إلى الحد الذي نراه مناسبا. نعم، لكن أن نبيد أرضا من سكانها، فهذا غير مقبول»[64].

الموتى يعودون إلى الزعيم الريفي

قبل ان تستانف حرب الاسترداد مسيرتها بيوم واحد، تنفست مليلية على صخب وضوضاء عارمين. وكان ذلك بسبب ظهور فيليب بنيا Felipe Peña، الذي حسبه الكل قد مات في اعرويت. فقدم إلى المكان صحبة اثنين من الأهالي. انتهى الأمر بـ"بنيا" الذي لم يستعد عافيته بعد من جراء الجرح الذي أصابه في راسه[65]، بإحدى المداشر المجاورة "لأطلاطن". وهناك احترف مهنة الطبيب-العشاب، واستطاع بخبرته وبشاشته ان ينال إعجاب الريفيين وينال ثقتهم. وفي يوم السادس عشر من غشت، وصلت أفواج متعددة من كتيبة نفارو تناهز العشرين جنديا[66]. أصبح الموتى يعودون إذن.

وبعد مرور شهر كامل، وصل إلى مليلية شبح آخر، كان لطبيب يعرف باسم انطونيو فاثكيث برنابو Antonio Vázquez Bernabeu، الذي عاش بعد سقوط قشلة بوجماجن، المركز الأمامي لقوات سيلفستري آنذاك. نزلت الحامية إلى حفرة انوال بعد إتلافها للمدفعية، وهناك طوقتها الحَرْكة ففتكت بها عن آخرها[67]، ولم يسلم من واحد وتسعين جنديا سوى خمسة وعشرين، كان القائد "سالطو" Salto واحدا منهم. ولم يكن رد فعل "فاثكيث" معاكسا للسلوك الذي انتهجه "بلوما دي لوس آربوليس" في تلك العملية العصيبة يوم السادس عشر من يونيو، حيث كان يدافع عن جرحاه بطلقات نارية نظيفة، وذلك حتى لا يتم القضاء عليهم كليا. فاعجب الريفيون به، واحترموه وقدروا مهنته كطبيب.

وعن انطباعاته حول ايام يوليوز المشؤومة، اشار فاثكيث برنابو إلى احد المشاهد البطولية، حيث وُجِد بين انقاض احد الحصون جثة قائد واثنين من الملازمين التابعين لفرقة الرشاشات، مرمية فوق آليات مصفحة. وما ان حل بانوال، حتى راى مشاهد السلب والنهب التي قام بها الريفيون، فعلق على هذه الفرجة بقوله: «لا اظن انني سارى في حياتي مجانين اكثر من هؤلاء المجانين المهووسين بالنهب، حيث يسلب الواحد منهم من يد الآخر، ويرتمون على صهوة البغال التي تفزع فزعا شديدا، فتهوى بهم على الأرض وترفسهم بحوافرها، وهم يصيحون كمن يتخبطه الشيطان من المس».

وحدث أن سيق فاثكيث هذا، إلى حيث زعيم الثورة الذي استقبله وهو محاط بكتلة هائلة من الغنائم، وهي حصيلة ما نبهوه من المعسكر. فاقترح عليه عبد الكريم الذي

كان يعرف سمعة فاثكيث وشهرته بالريف، التي اكتسبها بعد توليده لنساء الشيوخ (وهذا مكسب عظيم وثقة كبيرة)، أن يكون طبيبه. وبالرغم من أن العرض كان لا بأس به ماديا، إلا أن فاثكيث أجابه قائلا: «إن الإسبان ليسوا أنذالا، ليتظاهروا بالصداقة وفيما بعد تأتي الخيانة». فاغتاظ عبد الكريم وأمر بحجزه بأجدير.

كان فاثكيث يعتني بالأسرى الإسبان، دون أن يهمل الريفيين. وعن ذكرياته قال: «كنت أداوي وأعالج الناس في بعض الأسواق وسط احتقار بعض الأطباء وفضول الكثيرين. ومرة رأيت كيف أن جريحا أصيب برصاصة في صدره، يتداوى بمعجون الأسنان». هكذا كان هذا الإسباني يداوي رجالا عششت الديدان في جروحهم، حتى يتماثل الجرح للشفاء. واصطدم الطبيب بجهل القبيلة، التي لا تتوانى في مسح مرهمه وتعويضه بدهنات مركبة من خبز ممضوغ، وأوراق الذرى وبعض الحبال والأنسجة القذرة»، فأكد فاثكيث أن الأغلبية كانت تموت وهذا أمر طبيعي[68].

تميزت الأسابيع الأولى من الأسر بحسن المعاملة والمأكل الطيب، دجاج وأرز في الصحون مع الشوكة والسكين. وما إن توغلت القوات الإسبانية أكثر داخل الريف، حتى تغيرت الأوضاع واشتدت القسوة. فهذا الزحف لم يولد سوى إفساد معنويات الأسرى، إذ لا حديث سوى عن سبتة ومليلية، وفي كل مرة نسمع عن سقوطهما.

وبوصول أحياء أعرويت، كان لابد من التنازل لصالح الجنرال نفارو عن السرير الوحيد الذي كان موجودا. لقد تكدست جموع تزيد عن اثنين وستين رجلا، في بيت واحد أُعد لاحتواء الأسرى. وعند إحساسه بالضعف والهوان، قرر فاثكيث الفرار واللحاق بالحسيمة سباحة.

وربما في إحدى ليالي شتنبر، مر الزمان على فاثكيث دون أن يشعر، وخانته قواه فلم يعد يستطيع مواصلة السباحة. كانت تفصله عن الشاطئ ثلاث كيلومترات، فأسرع، لكن ولسوء حظه، اكتشفه الحرس الريفي وبادروا بإطلاق النار عليه.

وبالرغم من حرصه على عدم الشوشرة أثناء سباحته، إلا أن الريفيين واصلوا إطلاق عياراتهم النارية المصوبة في اتجاه الصخرة. توقفت أخيرا هذه الطلقات المنهمرة، وخيم صمت رهيب. وللتخفيف من حدة التعب، واصل رحلته بالسباحة على الظهر[69]،

فوصل إلى الصخرة الوعرة والرمادية اللون، وصعد من جهتها الشمالية إلى أن وصل إلى فتحتها الأولى، فاندس فيها. ويوم الثالث والعشرين من شتنبر، حل بمليلية. وفي نفس يوم وصوله، وفي حضرة برنكر، أدلى بتصريحات نُقلت إلى لاثيريا. وهكذا، تم الكشف عن حقائق مذهلة، تم التستر عليها وإخفاؤها عن الرأي العام،

«إن الضباط يُعاملون معاملة حسنة، بالرغم من أن الغذاء كان هزيلا. إلا أن الوجبات التي كانت تُرسل من هنا كانت تكميلية. أما عبد الكريم فكان يعامل أسراه ببشاشة. (...) وعن الجنرال نفارو وباقي المحتجزين، فإنهم يتشوقون إلى الحرية، لكنهم صابرون على ما أصابهم، ينتظرون» (...) في البداية، كانت الحركة تطمع في أن نتخلى عن معاقل سلطاتنا، لكنها فيما بعد، سمحت بأن تظل هذه النقاط تحت سيطرتنا، واشترطت أن نبادر إلى إرسال معلمين ومهندسين...إلخ، لكي يعلموهم الحضارة[70].

ومع الصحافة، أعطى فاثكيث صورة ذات وجهين لعبد الكريم، فقال عنه إنه رجل لا يعرف للطمع معنى «فقد أكد لي أنه لا يريد المال، وأن كل مبتغاه هو أن نرحل من المكان. وفيما بعد، وصفه بالحقير والانتهازي إلى أقصى حد، إذ أوهم العديدين أن الأوراق النقدية الإسبانية من فئة خمسين -مائة- ألف بسيطة لا تساوي شيئا، فاحتفظ بها لنفسه، وها هو اليوم يمتلك أكياسا كاملة.

وأدلى فاثكيث بتفاصيل أخرى تميط اللثام عن هذا الجانب القاسي لعبد الكريم، الذي كان فظا غليظ القلب مع رجالاته. فحينما أخبرته بالعدد الهائل من الخسائر البشرية التي ذهبت ضحية إحدى المعارك، قال لي: «هذا أفضل، لينقص عدد المتوحشين». ونفس المواقف امتدت لتشمل الأسرى، وذلك أن الأدوية التي كنا نحتاجها، بقيت هناك في الشاطئ قرابة ثمانية أو عشرة أيام، دون أن يرسل أحد لجمعها. كما أضاف فاثكيث نعتين آخرين، مثال أن عبد الكريم خُلق لمهام عظيمة ولجمع شتات شعبه، وأنه كان زعيما مهموما، فتوقع أن تكون نهايته هي إما السقوط في يد الإسبان أو الموت على يد أتباعه، وإما الفرار إلى مكان لا يعلمه سوى الله[71].

هكذا إذن، صُورت معالم شخصية أنوفة ومتعجرفة، شخصية قاسية وبرغماتية، صلبة وعنيدة. لقد كان الرجل الريفي بحق.

خوان، بحار الناظور وسبعون آخرون

كان القتال على الكوروكو قد احاط بالجبل من كل جوانبه، وامتدت الاشتباكات بعيدا لتطال حصن كسابونا Casabona. وبعد اصطدامات عنيفة وشرسة جرت هناك يومي الرابع والثامن من شتنبر، تم إخضاع الخط، واهدرت ارواح ستة وخمسين شخصا، وجُرح مائتان من الجند، أسف لهم الإسبان كثيرا. وفي المقابل، سجلت الحَرْكة في صفوفها ضياع مائتي رجل. وهكذا، باتت الجبهات الريفية تتقلص رقعتها وتتراجع في اتجاه الناظور.

ويوم السادس عشر من شتنبر، خرجت كتيباين بقيادة سان خورخو وفيدريكو برنكر، اخ المقيم العام، مؤلفتين من خمسة عشر الف رجل، معززة بخمسين قطعة من المدفعية، واسطولين بحريين. فذهب الإسبان لملاقاة عدو يقدر عدده بنحو ستة آلاف عنصر.

وسُجلت خسائر فظيعة في كلا الطرفين المتنازعين. فإسبانيا على سبيل المثال، فقدت ثلاث وثلاثين شخصا، وجرح لها مائة وثلاثة عشر جنديا[72]، لكن الريفيين وبعد تيقنهم من فشلهم في بسط نفوذهم على جبل عروس، وكذا تلك الربوتين المتاخمتين للناظور، ارتأوا ان يتنازلوا عن السيطرة على تلك البقاع المقفرة. ومن جهة اخرى، وصفت جريدة أ.ب.سي، العملية بالهائلة جدا، ونعتت هذا الزحف الذي كانت ترافقه فرق المشاة والفرسان وتظلله أسراب الطائرات "بالجميل جدا"[73].

كانت الآمال معقودة على العودة إلى الناظور، وكانت حماسة حرب الاسترداد قوية لدرجة كبيرة. كما أن الرغبة في الانتقام التي تذكيها الصحافة، كانت تحرض الناس. ففي صحيفة أ.ب.سي، تمت المطالبة بعملية صارمة ومدمرة لكل الأوكار، التي يختبئ فيها الأعداء. ودققت الجريدة، «انه في حالة ما إذا تفادى الريفيون المواجهة، ولكيلا تبقى الخيانة في معزل عن العقوبة، فعلى حرب الإبادة أن تتجه إلى مداشر العدو. فإذا استسلمت ساكنة القبائل، آنذاك يكون الوقت سانحا للتحاور والاتفاق على نوعية السياسة التي يجب أن تنتهجها إسبانيا مع المغرب»[74].

وهكذا خرج الإسبان بروح حبلى بالرغبة في الانتقام والأخذ بالثار. لهذا السبب، سميت تلك الحملة الحربية المتاججة بحرب *الانتقام*. لكن ثار الإسبان لم يَدع لهم خيارا

آخر سوى الإجهاش بالبكاء. فانتشرت قواتهم في كل مكان، وصارت تسلب وتنهب وتخرب البساتين والديار. وعن تلك البقاع التي التهمتها النيران، قال كورشانو Corrochano، «إن روائح الحريق والجيفة، كانت تنبعث من هناك. فكان لابد من دفن الجثث، إلى ان وصل العدد إلى واحد وسبعين جثة. وبالرغم من اكتشاف ثمانية أشخاص يحتضرون تقريبا، في قاع بئر متعفن، فإن ذكرى أحداث الناظور ستظل وشما محفورا في ذاكرة الزمان.

لكن الفاجعة الكبيرة، تجسدت فيما يسمى بالبيت-المجزرة، وهو مكان ذاق فيه المعمرون الوانا شتى من التعذيب. فمنظر البيت كان يُفضي بالواحد، مهما كان طبعه هادئا، إلى الغثيان والتقيؤ. فالأرض والأركان والجدران كانت ملطخة بالدماء، دماء سالت وانسابت إلى ان اجتمعت في بركة كثيفة تكونت على وجهها قشرة، حامت فوقها كل اشكال الحشرات. اما فيما يخص الجثث، فقد كانت مشوهة المعالم لدرجة يصعب معها التعرف على أصحابها. كل ذلك كان بسبب التعذيب الوحشي، لكن الشيء الوحيد الذي اثار انتباه الكل، هو ما تضمنه احد الجدران من عبارات تقول، «إذا حدث ودخل احد إلى هذه الغرفة، فليعلم ان النيران قد التهمتنا جميعا، ثلاثون رجلا وامراتان. مرت بنا خمسة ايام لم نذق فيها طعم المأكل والمشرب، وما رايناه كان فظيعا. إخواني الإسبان دافعوا عنا. وتضرعوا لله ان ينقذ ارواحنا. كتبه خوان، صاحب الزورق بالناظور».

تطرق "بورامس" لهذا الحادث بالتفصيل، ورصد لنا منظر الجنود الإسبان وهم يتجولون داخل هذا الوكر السافل، فلزم البعض الصمت، واقسم البعض الآخر على الانتقام لخوان، بحار الناظور الذي مات شهيدا، وكذا لكل أولئك الذين ذهبوا مثله ضحية الغدر والوحشية[75].

تيزا: جنرال يركض وقبطان عند العقبة

بعد استرجاع الناظور، لم يكن التقدم نحو سلوان امرا ممكنا إلا إذا تم تحرير تيزا. هذا المعسكر الشامخ، والمتموقع جنوب غرب مليلية، والمحاصر منذ تسعة واربعين يوما. وللتخفيف من وطأة الأحداث الدرامية، تشكلت كتيبتان يقودهما كل من الجنرال سيرفنط Sirvent، والكولونيل طويرو Tuero، من عشرة آلاف شخص. معززين بثلاثة عشر بطارية (اي ما يعادل خمسين قطعة حربية تقريبا). ويوم السادس والعشرين من شتنبر، خرجت

الكتائب لتباشر عملها. لكن نيران الريفيين تصدت للمهاجمين، واردتهم ارضا، فتقهقرت الصفوف الإسبانية، وعادت ادراجها لا تنوي شيئا. تطايرت الشتائم وتبادلت القيادات مع "كابلكانتي" -الذي كان قائدا عاما آنذاك بمليلية- عبارات اللوم والعتاب.

كان خوصي كبالكانتي دي البوركركي José Cavalcante Alburequerque، واحدا من خاصة الملك. الكل كان يعتبره رجل حرب لا يشق له غبار. كيف لا، وهو الذي تصدى يوم العشرين من شتنبر 1909، لألف وخمسمائة مقاتل ريفي بجيش لا يتعدى خمسة وستين فارسا من الفرقة الرابعة لكسادورس التابعة لأفونصو الثالث عشر [76]. كان كبالكانتي -الذي تم توشيحه بوسام الشرف- يعرف كيفية الهجوم. ومرة، وببطولة كبيرة، شن هجوما جديدا وهو ابن الرابعة والأربعين عاما، وذلك بعد إقناع القبطان. من جهة اخرى، وبعد مرور ثلاثة ايام على فشل الحملة ضد تيزا، تكررت المحاولة فجمع كل من "سيرفنط" و"طويرو" ستة عشر الف شخص، تبارزوا مع حركة مخيفة مكونة من تسعة آلاف مقاتل. وفي مناسبة اخرى، فتك الريفيون بالإسبان. الشيء الذي افرز من جديد تطاير الكلام الجارح بين قيادات مليلية.

وبعد ان تيقن كبالكانتي ان القافلة مازالت متوغلة هناك في العقبة دون حراك، دنا من القبطان المسؤول وهمس له بالحديث، «إني ذاهب إلى تيزا، وعليك ان تلحق بي رفقة القافلة. فإذا ما وصلت، وهذا شيء استبعده، فلتشعرني بذلك»[77]، ودون ان يهمس بكلمة اخرى، وكز كبالكانتي دابته، وانطلق بجواده المعروف باسم "بادو" Bado، وتتبعه حارسه الذي اصيب بالدهشة. وفي الخلف بقي هناك الرجال والدواب.

امتدت خلف القبطان ماريانو ارانغورن لانديرو Mariano aranguren landero، الذي يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة، قافلة طويلة كثيرة البغال (ثلاثمائة بغل). كان هذا القائد قد راى سابقا كيف ان كبالكنتي كسر كل حواجز واسلاك المعسكر، فوجد نفسه مجبرا على فعل نفس الشيء. تقدم نحو الأمام مع رجاله، لكن رشاشات وبنادق الحركة تصدت لهم. لم يكن لأرانغورن حصانا يركبه، وكذلك الحال بالنسبة لرجاله. كان سيره بطيئا ومتعثرا. لكنه ورغم كل الظروف، دخل إلى تيزا وساعده ينزف دما. فباغت كبالكانتي بقوله، وهو يتارجح من جهة إلى اخرى، «سيدي الجنرال، تفضل، ها هي ذي القافلة او ما تبقى منها إن صح التعبير. فغالبية البغال توفيت خلال رحلتها الدموية». وعن مرافقيه من الرجال، لم يعط سوى لائحة طويلة من الضحايا.

كانت حصيلة احداث تيزا، تبلغ واحدا وثمانين قتيلا وثلاثمائة وثلاثة وثمانين جريحا[78]. اما فيما يخص الماء والمؤن والذخيرة، فكمياتها لم تصل إلى المكان إلا في حصص ضئيلة. اما الكرامة العسكرية، فقد فقدت ماء وجهها[79]. لولا جسارة كبالكانتي وشجاعة ارانغورنا ورجاله، لكانت الطامة الكبرى.

هذا وقد سجل محضر قضائي ضد "طوريرو" و"سيرفنت"، وكذلك الحال مع كبالكانتي. ورغم حماستهم وولائهم للعرش، لم يتوان الملك في انتقاد تهوراتهم، لكن سنة 1924، اصدر عفو ملكي في حقهم، وبقي ارانغورن بدون وسام الشرف، الذي ترشح له سنة 1922. لكنه ترقى إلى درجة جنرال ممتاز[80].

واصل الإسبان مسيرتهم، وامام هذا الزحف، وقف الريفيون وقفة رجل واحد، وعن هذا القتال العنيف والهائل قال "بوراس":

،كان الريفيون يقاتلون بالفطرة، فلا رئيس لهم ولا تعليمات عسكرية ولا اوامر تصدر من احد. كان الشخص الواحد منهم ينقض على قافلة مكونة من عشرة آلاف رجل، واحيانا اخرى كانت العشرة آلاف هاته تهاجم جنديا واحدا منهم. كل فرد من الطرفين المتنازعين كان ياخذ بمبادراته،[81].

نزل خبر وصول متطوعين من فرق إسبانية-كوبية إلى سبتة -والمقدر عددهم بنحو سبعمائة وواحد وثلاثين نفرا- بردا وسلاما على الشعب، الذي كانت معنوياته قد هوت إلى الحضيض.

وصلت الفرق الإسبانية-الكوبية -المكونة من اربعمائة وستة وستين إسبانيا، وخمسة وعشرين كوبيا، وباقي الجنسيات المختلفة التي وصل عددها إلى خمس عشرة جنسية، على متن سفينة مانويل دي كامبس Manuel de Camps. كانت الانطلاقة من لاكورونيا، حيث حطوا رحالهم يوم الرابع من اكتوبر، وذلك بعد اجتياز رحلة سريعة، استغرقت اثنا عشر يوما من لاهافانا. ويوم التاسع عشر من شتنبر، وصلت فرق اخرى من المتطوعين، يقدر عددها بمائتين وسبعة وثمانين وحدة، ابحرت على متن باخرة الأميرة إسبيلا دي بربون Isabel de Borbón، فانطلقت الرحلة من بوينوس أيرس وانتهت بميناء قادس. كانت مخيلة المتطوعين مشحونة بذكريات مثيرة تعود للحظة الوداع، التي جرت

فصولها بموانئ بوينوس أيرس، حيث اجتمعت حشود كبيرة وصل عددها إلى خمسين الف شخص تقريبا، أتوا ليشدوا على أيدي الجنود، ويشجعوهم في انطلاقتهم نحو الحرب بالمغرب[82]. كانت سبتة هي المحطة الأخيرة التي وصلوا إليها في بارجة غيين سرويا Guillen Sorolla. وبعد انقضاء أربع سنوات، عاد المتطوعون الأرجنتينيون إلى نفس الميناء السبتي، ليبحروا من هناك في اتجاه أوطانهم، بعد أن ذاقوا مرارة الحرب في الريف. ولم يرجع من ذلك العدد الإجمالي (مائتين وسبعة وثمانين) سوى خمسة وعشرين نفرا[83].

* ماورا وضميره المهني

وفي نفس اليوم الذي رفع فيه كبالكانتي الحصار عن تيزا، انعزل ماورا عن العالم وانفرد بنفسه داخل مكتبه. كان كل همه هو التخلص من هذا الثقل المعنوي الذي يؤرقه، فحاول التغلب عليه بمفرده. فهم بكتابة كل ما يختلج صدره من شكوك، والبوح بكل تصريحاته. كل هذه الأحاسيس تولدت ساعة وجوب التفاوض بشأن الأسرى الإسبان في كل من أنوال وأجدير.

ويوم العشرين من غشت، أخبر برنكر لاثيربا بنبأ عظيم، يفيد أنه استقبل (عبر رابط يجمعني بعبد الكريم) رسالة تتضمن شروط هذا الأخير لإطلاق سراح المحتجزين. وأعرب عن اندهاشه من الرقم المطلوب، الذي كان خياليا (إذ يقدر بثلاثة ملايين)، رفضتُ إعطاءها[84]. وبمرور الوقت، أضاف عبد الكريم إلى طلباته مليونا آخر تعويضا عن الأضرار والخسائر التي لحقت بالممتلكات الريفية، الشيء الذي أثار حنق ماورا. كما طالب كذلك، بالإفراج عن المائتين من الأهالي المعتقلين بالسجون الإسبانية بالمغرب. وعند منتصف شهر شتنبر، وبعد اجتماع مغلق للوزراء، استدل ماورا بقوله: «بما أن عبد الكريم وعشيرته قد رفضوا تماما إرسال قوات لقتالنا، فإنه بات من المباح ومن الأحسن إرضاءهم بالمال». وبعد وصفه لقبيلة بني ورياغل بأنها العصب الأكثر قوة وعداوة، والأكثر إصرارا على جلائنا من أرض المغرب، وبما أنه معترف بهم من لدن المورو والعالم بأسره، أكد ماورا أنه ما دام التفكير في السلاح خيارا وحلا للمشكل هو المطروح، فإن كل السبل لإطلاق سراح الأسرى لن تؤتي أكلها.

وعن تلك الخيارات المطروحة، ذكر ماورا (الذي بقي حبيس شكوك حادة، فتحرير الأسرى لن يزيد العدو سوى قوة من الناحية الاقتصادية او السياسية) ،ان النظر في هذه الحلول سيضاعف من حجم الانتقادات بشأن هذا التماطل الذي يطبع المباحثات والقتال[75]. وافادت مجموعة من القراءات التي جرت في تلك الأيام لتصريحاته، ان حالة يأس اصابت ماورا، الذي ادلى بافضل تصوراته السياسية التي تتلخص في تقديم البلاد على العباد. وفي سنة 1923، اوّل "غارسيا بريطو" الأمر بطريقة اخرى، بمعنى ان الشعب قبل الدولة. فهذه هي الأخلاقيات، وبهذا تعيش الحكومات طويلا.

لم تستطع الحكومة بصلابتها ان تتصدى للاكتئاب الجماهيري ولا للانشقاق البغيض الذي وقع في صفوف الجيش. هذا وقد تزعمت مجموعة من الضباط المهندسين اولى مظاهر التمرد. قام بالتنسيق فيما بينها الكومندان الثوغراي Alzugaray، الذي كان على اطلاع بالمآسي التي يعيشها زملاؤه، والمقدر عددهم بأربعة وعشرين نفرا، والذين طالب عبد الكريم بثلاثين الف ريال لتحريرهم[86]. كانت فدية الأسرى على وشك التسليم، وبعد ان احتشد المحتجزون الثلاثة والعشرون من اصل اربعة وعشرين بأجدير، تدخل لاثيريا ونبه الجنرال لوس اركوس Los Arcos إلى تلاعبات هذه الاتفاقيات. كانت الحكومة على حق، لكن الجرح الوطني كان ينزف، فآل به الحال إلى التنديد بالملكية.

اهتزت إسبانيا: وتمت السيطرة على الكوروكو والحديث عن سلوان

بعد إعادة الاستيلاء على "تيومة" يوم الثالث والعشرين من شتنبر، سلكت المناورات الإسبانية مسلكا آخر. إذ حولت وجهتها نحو الجهة اليمنى، وذلك بهدف التربص للعدو من الخلف، حيث الجبال الجنوبية المحاذية للكوروكو، الزغنغن وهضبة اطلاطن. فظهرت بذلك إمكانية تقويض المقاومة الريفية من الخلف، ورفع الحصار عن مليلية.

وفجر اليوم الثاني من اكتوبر، انطلقت ثلاث فرق عسكرية قوية - بقيادة برنكر (فديريكو)، كبانياس، وسان خورخو - وانتشرت على طول الخط. واثناء المناوشات الأولى، حافظت الحركة على قوتها وتماسكها، وهي تستند إلى حافة الخنادق، التي حُفرت بعمق وامتلأت عن آخرها بأشخاص دافعوا عنها دفاعا مستميتا، حسب عبارات

المقيم العام لوزير الحربية. وبعد قليل، حل الدمار بالريفيين. البداية كانت مع المدفعية، التي اجبرتهم على الانسحاب إلى الخلف، فبقي عدد كبير منهم ملقى على الأرض. وفيما بعد، وتحت وابل النيران، اعترض الفرسان سبيلهم، فوقعوا بايدينا وهم يتلفظون انفاسهم الأخيرة[87]. والحقيقة ان فصول هذا القتال، جرت بدون شفقة ولا تانيب ضمير. وهكذا أصبح الكوروكو يوم العاشر من اكتوبر ملكا للإسبان.

وفي مجلس النواب، كان الموعد ساخنا مع جلسات تحديد المسؤوليات. وفي هذا الجو المشحون والمكهرب، تحدث بريطو عن تعليق تناولته صحافة مدريد -ولربما نشرته كذلك صحيفة ا.ب.سي بقلم كاتبه كورشانو- منتقدا التصوير التالي: «تلقت دوقة فكتوريا هذا الصباح من الجنود، سلة من الورود الحمراء تلألأت بداخلها، اجمل رؤوس اثنين من المورو، من أصل مائتي جثة لقيت حتفها البارحة[88]. كانت الرؤوس تشع بلونها الأسمر وكانها رخام مبلط». فتملك الهلع كل الحاضرين بالبرلمان.

ولدت كارمن انغلوطي إي ميسا Carmen Angloti y Mesa دوقة فيكتوريا -وهو لقب نسب إليها عن طريق زوجها، الذي كان حفيد الجنرال إيسبارطيرو Espartero- يوم السابع من شتنبر 1875 بمدريد. كانت امراة ذات كفاءات عقلية وجسمانية عالية، فبعد اطلاعها على أحداث انوال، انزعجت كثيرا للوضع الصحي الذي أطبق على مليلية، فلم تتردد في اللجوء إلى منظمة الصليب الأحمر لطلب العون من مجموعة من الممرضات اللواتي تطوعن للخدمة. وفي غضون أيام قليلة، وصلوا إلى المكان. كان "بريطو" قد تعرف عليها بمليلية، فاعجب بشجاعتها ومهنيتها المتفوقة. وبعد مُضي أشهر، وبمناسبة إحياء الذكرى الشعبية لكارمن انغلوطي، قال في شانها: «هي تجسيد حي للطيبوبة، والتواضع والشجاعة. وكلها خصال تتمتع بها شخصية دوقة فيكتوريا»[89]. لكن وبحلول السابع والعشرين من اكتوبر 1921، كان على "بريطو" ان يشهر أولا الحقيقة التي كانت تدور في إفريقيا.

همّ لاثيربا بالحديث، وذكر انه حينما عثر الجنود في تلك الأيام على جثث زملائهم ممزقة، وعليها علامات التعذيب واضحة، وبجوارهم العديد من النساء التعيسات والأطفال وشيوخ تلك الحاضرة (الناظور)، كان اي حديث داخل البرلمان الإسباني عن فظاعة الإسبان، وفي ظل غياب اي مراقبة، سينسب إلى السيد بريطو.

وأضاف الوزير قائلا، «من المستحيل أن نكون نحن مثل الحيوانات المتوحشة. إننا شعب متحضر، ومن واجبنا التعامل معهم رغم كل الفظاعات بأسلوب حضاري، واعتبارهم آدميين». وأكد لاثيريا أن معاملتهم للريفيين جرت تبعا لمواثيق حقوق الإنسان، مطبقين في ذلك القوانين والمعاهدات العسكرية، كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وأنهى حديثه بقوله: «وكل هذه الأمور التي قرأتموها عن رؤوس المورو التي أهديت لسيدة جليلة، وسعيتم أنتم لتكريسها، لا تعدو كونها أساطير لا أساس لها من الصحة»[90].

لم يكن بريطو بحديثه يكذب أو يصور للعامة حقائق خرافية أو وهمية. فالحرب حقيقة كانت ضروسا، وخصوصا بالريف، والوزير هو من كان يخدع الناس. فـ لاثيريا كما لا يخفى على أحد، تلقى إشعارا من المقيم العام الذي تحدث معه بشأن معركة اليوم الثاني من أكتوبر -والتي قال عنها برنكر: «لا أذكر أنني شاهدت في حياتي قتالا أعنف من هذا الذي رأيته اليوم، ولا شراسة أعرب عنها كلا الطرفين المتنازعين، وهم يتقاتلون في شجاعة». وعن الخسائر التي تكبدها العدو، قال: «إن نسبة ما يزيد عن مائتين من القتلى كانوا مرميين بميدان القتال، مما يؤكد أن موتاهم تجاوزوا الألف قتيل». لكنه وبوصوله إلى الحديث عن المراحل الأخيرة من النزاع، دقق المقيم العام في تصويره للوزير، فقال: «في هذه الجبهة (الواقعة بين السبت والزغنغن)، كانت فرقنا من المشاة تصب جام غضبها على جموع الريفيين المتعطشين للفتك بمقاومينا، فسقط منهم الكثير، وبتر جنودنا رؤوسهم وجلبوها إلى الناظور»[91].

لم يتساهل الريفيون أثناء القتال، ولا حتى أثناء التنازلات التي جاءت نتيجة للغدر. وكذلك كان الحال مع الإسبان، الذين لم يتسامحوا بدورهم. وقد حمي وطيس القتال، وانبثقت سلسلة من المفاجآت. ففي نفس البلاغ لليوم الثاني من أكتوبر، ذكر برنكر بعد الإشارة إلى التدخل الشجاع للفرق النظامية السبتية، التي أُبيدت عن آخرها بعد اشتراكها في اشتباكات عنيفة، وبعد تطرقه إلى تصرفات "طرسيو"، التي لا تقل مثالية عن سابقاتها، ذكر بشأن الفرقتين العسكريتين معا، أنهما وصلتا مع العدو إلى القتال جسدا لجسد وبشجاعة تفوق كل إطراء، فأجهزتا عليهم داخل خنادقهم، وخلفتا في صفوفهم العديد من القتلى والجرحى الذين قضوا عليهم. وهما تقاتلان طيلة اليوم الواحد بكل جسارة[92]. كانت الحرب في الريف ريفية بحق، وبالنسبة للجميع. وهذا ما لامسته قوات سان خورخو في الزغنغن ما بين الثامن والتاسع من أكتوبر، إذ وجدوا

هناك جثثا للاسبان، وقد بدت عليها علامات التعذيب الشرس. ومن بينهم كانت امراة تعيسة، ثقب بطنها بوتد للخيمة[93]. (حسب الرواية الدرامية التي حكاها لاثيريا للملك).

وبعد فشل الحاميات الخلفية، سقط الكوروكو بيد الإسبان وتمكّنت الفرق العسكرية الثلاث -فرقة برنكر (فيدريكو)، فرسنيدا، وسان خورخو- من إحكام السيطرة على الجبل، وذلك في صبيحة يوم الاثنين العاشر من اكتوبر على الساعة التاسعة والربع. ونُكس العلم الإسباني على قمة باسبل Basbel الشاهقة.

وبعد مرور ثلاثة ارباع من الوقت، تمت السيطرة كذلك على قمة القلة وهضبة حاسدو التي كانت تحتضن المدفعية. وبعد اجتياز خنادق اللوبو وإنفيرنو (Infierno)، تم العثور على اسلحة شنايدر من عيار 75 مليمتر، التي كانت تقصف مليلية. وطفقت المدينة تحتفل باليوم العظيم، فقُرعت الأجراس واكتظت الشوارع بالجماهير، التي همت بإهداء النبيذ والحلوى والماء لكل الجنود العائدين، والذين حققوا انتصارا باهرا في الجبل الملعون[94]. لكن وبالليل، حدث ما لم يكن متوقعا، فحل الفزع والخوف، إذ يمكن القول إن الكوروكو اصبح كومة حطب مشتعلة[95] على حسب لاثيريا، وجاء هذا الفصل انتقاما لكل من راح ضحية حرب يوليوز.

كانت الحركة تنتظر ريثما تشرع كتائب سان خورخو في الانسحاب، لترسل بقواتها فتنقض على العدو وتطوقه. وهكذا، تسببت القيادة المزدوجة -لكل من سان خورخو وكاسترو خيرونا، وقوة العزيمة والإصرار على عدم الاستسلام، في وفاة اربعة وسبعين فردا، ومائتين وثمانية وتسعين جريحا[96]. فتحقق انتصار مفاجئ، بعدما كانت الهزيمة وشيكة. فدبت انتعاشة في صفوف الجيش، لكن منظر سقوط العديد من الزملاء افقد الرجال صوابهم، فصبوا جام غضبهم على الجبل. فباتت السنة اللهب تلتهمه ليوم وليلة.

كانت الطريق إلى سلوان خاوية على عروشها، وكانت قلعة الروكي تبدو هناك شامخة لا يقوى على المساس بها احد، اصطفت بداخلها وخارجها طوابير عريضة من المحكوم عليهم بالإعدام. كانت الحصيلة هي مقتل ستمائة رجل. الصحافة بدورها لم تدخر جهدا في نشر تفاصيل الحادث، فأذاعت رسومات ومخططات تشير إلى مواقع تلك الجثث، اربعة وعشرون منهم كانوا عند القصبة، إضافة إلى ستة آخرين كانوا

بجوار المقبرة، واربعة عند حافة النهر. وعلى حسب الوضع الذي كانت عليه اجسادهم، فإن الموت باغتهم وهم يشربون. ثمانية جثث اخرى كانت توجد بين السكة الحديدية والقرية المجاورة، ومن بينهم كان واحد من جنود الكانطرا، توفي بجانب جواده ولجام الفرس مازال في راحة يديه. وفي الطريق، في اتجاه تيومة لم تقل حصيلة الموتى عن مائة وخمسين، وآخرون كثر كانوا صرعى في الطريق القديم[97]. لكن الفظاعة الكبرى تجسدت بمنزل "إنا" -نسبة إلى نبيذ "شريس الشهير" (Jeréz)- كان مارتينس كامبوس حاضرا بالمكان، فوصف ذلك الكابوس قائلا: «إن المكان لم يكن منزلا فحسب، بل مجزرة، إذ وجدنا في بهو البيت ازيد من مائة جثة. كانت لأجساد مزقت بسكاكين حادة، واخرى صلبت على الجدران، وغالبية الضحايا كانت اعضاؤهم التناسلية مفحمة. والكل كانت ترتسم على صفحات وجهه علامات الألم الشديد»[98].

هذا وقد وجه كبانياس، الذي كان يرأس إحدى الكتائب العسكرية، رسالة مفتوحة إلى السادة رؤساء مجالس الدفاع والإعلام، متهما إياهم بعدم الاهتمام والعناية بمعنويات وعتاد الجيش. وهذا ما قاله في النشرة الكاملة، والأكثر مصداقية: «ايها السادة، اسمحوا لي، أن اتحدث بكل عفوية:

«لقد انتهينا لتونا من الاستيلاء على سلوان، وانتهينا كذلك من دفن خمسمائة جثة ضابط وجندي. فافتقار البلاد إلى لآلاف من الجيوش النظامية، جعل الجند ينهزمون بسرعة. وإزاء هذه المشاهد الدرامية، لا يسعني إلا ان ابعث إليكم بكل اشكال الانتقادات واللوم اللاذعين. وإني لأحملكم تبعات اهتمامكم فقط بقشور الأمور. فانتم المسؤولون الأولون عن تمريغ سمعة القيادة في التراب، وانتم المسؤولون عن التلاعب في الميزانية. فهل نسيتم اننا كنا في حاجة ماسة إلى الذخيرة، عندما اوليتم ظهوركم للجيش، فلم تهتموا بتحسين جودة وحداته».

«لقد عاش اولئك الجند تحت رحمة بعض الجبناء، الذين كنت امقتهم. فليقتص منكم التاريخ، وليقتص منكم اقارب اولئك الشهداء. وإني اعتذر عن اسلوبي الصريح في الكلام، لكنني بهذه الطريقة، اكون قد ارحت ضميري، ورسالتي إليك كبانياس ليست بالسرية»[99].

كان ميغيل كبانياس فرر Miguel Cabanellas Ferrer، يبلغ من العمر تسعة وأربعين سنة. كان صارما مع ضباطه، متفهما إلى درجة انه كان يعتبر نفسه ابا لهم. اما لحيته الكثيفة، الطويلة والبيضاء، فقد أعطته هيبة الجنرال المحنك. كان ذا بنية قوية ونظرة ثاقبة وصريحة، وعرف عنه انه كان قليل الكلام، كثير السمع. ولم تنتشر شهرته إلا بسبب الرسالة، فقد واجهته المجالس الحكومية، وقدمت ضده شكوى بالكذب والفضيحة، تسببت في إقالته فيما بعد من منصبه. وما من شيء أراح الجنرال أكثر من مشاهدته سنة (1922)، كيف ان تلك المجالس تفككت وتفسخت عن آخرها.

مقارعات ومشادات كلامية
بين وزير الدفاع ، وبرلمانيين

بحلول خريف 1921، عمّ الغضب في أرجاء البلاد. فمن الوجهة التاريخية، كان من العار ان تظل المكاتب الحكومية مفتوحة، بعد كل ما قيل عنها داخل المؤتمرات، لكنها بقيت تزاول عملها. كان محكوما عليها بالفشل، إذ باتت الأخطار تحدق بها من كل جانب، وجاءت تهديدات تطالب بتفسخها العاجل.

وريثما تحين ساعة الموت المؤسساتي في شتنبر 1923، اعلن البرلمان عدم خضوعه لأي شكل من اشكال التهاون والجبن والاستبداد والمكر. لقد كان حقا برلمانا متمردا ونبيلا، وبما انه (ورغم كل التنديدات) لم يغير من طبيعة الأمور قيد انملة، وبالرغم من كل التوبيخات الموجهة إليه -كان الموبخون هم من يديرون رحى الحرب في المغرب دون ان ينجحوا في إنهائها- قرر البرلمان اتخاذ تدابير اخرى، تتلخص في التصريح بالعجز والاستهتار ورفع لواء الفضيحة، فانتفض الجيش بقوة أمام تلك الهيئات.

وحول موضوع الحرب في إفريقيا، اندلعت نقاشات حادة داخل البرلمان يوم العشرين من اكتوبر. كان ذلك قبل اربعة ايام من وصول القوات إلى جبل اعرويت.

وجاءت مداخلة السيد رامون سولانو Ramón Solano، عنيفة جدا. إذ علل موقفه وبعد تقييمه للأحداث، وبعد إجرائه لمقارنة بين نتائج نكبة الثمانية والتسعين، والواحد والعشرين، قائلا، «إن كل تلك الأسماء، أسماء الجنرالات التي كانت ترن عاليا في

شوارع مانيلا. اولئك الثمانون او التسعون من البلداء، والمعتوهين واللصوص، بغض النظر عن اناس آخرين محترمين، هم بالضبط من كانوا بشوارع مليلية». ودون ان يسمح للحاضرين بالغرفة بالتقاط انفاسهم، واصل سولانو حديثه واصفا الأحداث بكونها فاجعة فريدة من نوعها. وبعد ان اشار إلى مسؤولية القيادات العسكرية، استدل على ان هول الفاجعة، تتحمل تبعاته كل البلاد، وخاصة الحكومات والقوى الشعبية التي اعربت عن جبنها امام العدو[100]. هذا وقد قام السيد سولانو بدوريات استطلاعية على جبهات مليلية، وهناك عند الصفوف الأمامية، بادره العديد من ضباط -"طرسيو"، والنظاميين، وضباط بعض الفرق العسكرية كفرقة بورغوس-وكورونا وغرناطة- بالسؤال، والغضب يتطاير من اعينهم: «تُرى اليس من حقنا، ونحن من نقامر بحياتنا هنا، خاصة بعد ان تساهلنا وتسامحنا، في عملية خلط اسمائنا بأسماء من ذهبوا في فاجعة يوليوز. اليس من حقنا ان نشهد على فرض العقوبات اللازمة في حق هؤلاء الأشخاص الذين استسلموا، دون ان يطلقوا رصاصة واحدة، ونهبوا الأهالي المنكوبين اشياءهم، وتسببوا في موت العديد من مواطنينا».

وتعهد سولانو بتبليغ هذه الملتمسات إلى البرلمان، وضمنها انتقاده لوجود جندي واحد تحت إمرة قيادتين اثنتين. وذكر بهذا الصدد، الكولونيل الذي كان يترأس فرقة سبتة، والذي بادره بالحديث: «بمقدور رجالي ان ينتشروا في كل مكان، لكنك ترى سيدي، الحالة التي هم عليها. بلا اسلحة ولا خيام ولا مؤونة». في المقابل، همس له في اذنه ضباط آخرون بهذه العبارات: «لا امل مع هؤلاء الجنود». فتساءل سولانو عن مغزى الخطاب الأول والثاني، ماذا يعني هذا وذاك؟ فاستنتج ان الأول (اي كولونيل سبتة) عرف كيف يُسير الفرقة، لقد كان قائدا حقا واحسن القيادة، اما الآخرون فلا شيء من هذا القبيل[101].

وروى سولانو تجربة شخصية اخرى، اعطى من خلالها مثالا مؤثرا لمجموعة من الرجال، كان تصورا خاصا عن الجيش، فقال: «إنني رايت مجموعة من جنود طرسيو، كيف أنهم كانوا يقتربون من احد الملازمين، فيهمسون له في اذنه: «إنك انت الإله». وذلك لأن الملازم المذكور، استطاع ان يثب ويتخطى الخنادق ليحمل جريحا والعدو امامه، فاعطى بذلك عبرة للجيش. لأجل ذلك كانت الفرق العسكرية، تدرك تمام الإدراك انها صحبة جنود يفضلون الموت، على أن يسقطوا في يد المورو»[102].

ودون ان يعطي مهلة للحاضرين بالغرفة، ندد سولانو بنوع آخر من الجنود المتواجدين بمليلية، اولئك الأشخاص (برتبة قبطان)، الذين يتقاضون راتبا شهريا قدره ستمائة بسيطة، ويصرفون في المقابل ما قيمته اثنتا عشر الفا، بل وحتى اربع عشرة الف بسيطة شهريا على محبوباتهم، اللواتي يمتصن كل ميزانية الجيش. وباسم هيئة الضباط النزيهة، طالب احد الحاضرين بالبرلمان اتخاذ عقوبات من هذا النوع، «كأن يُعدم الجبناء وكل الخسيسين، وأن تُمنح الجوائز لكل الشجعان والشرفاء». وتبين لسولانو بعد كل هذه الخروقات اللااخلاقية والجائرة، ان ثمة خيطا ابيض بدأ يلوح في الأفق الأسود.

واصل سولانو حديثه بنفس حماسته المعهودة دون ان يعبأ بأحد، موجها للحضور انتقادا لاذعا، جاء فيه: «هناك من الضباط من كان يقوم بتهريب السلاح والذخيرة، (ودبت في القاعة همهمات)، وذلك بهدف الحفاظ على مظاهر الترف، والاستئناس بعشيقات مليلية». ودون ان يحيد عن كلماته، استرسل قائلا: «إنه بإمكاني ان اثبت لكم كيف تم طرد ستة أشخاص من فيالقهم العسكرية، بعدما تبين تورطهم في قضية تهريب السلاح. وهي أمور جرت بسرية بالغة (وتواصلت الضجة داخل القاعة)». وفي أوج الفضيحة تساءل أحدهم: «ولكن ايها السادة، أيضم الجيش فقط عناصر شريفة؟ ألم يجر نفس الشيء بالنسبة لفرنسا؟ نفس الشيء تماما».

وأمام هذه التصريحات، ظهر لاثيربا جالسا في مقعده الأزرق، وقد بدت عليه علامات الحيرة والغضب. وبعد ان التقط أنفاسه، اتهم سولانو بتعميم المشكلة وبإلحاق العار بالمؤسسات. واعتبر أنه في تلك اللحظة الحرجة جدا من المسيرة الوطنية والقومية، عوض أن يُمجد تضحيات الجندي الإسباني ومجهوداته، انصب حديثه فقط على عاداته السيئة ورذائله (وعلت في المكان من جديد همسات). لكن سولانو قاطعه بقوله: «إنه كان هناك بين الجند لصوصا، وقد قلت هذا واكرره».

وبعد أن تلقى سولانو دعم ومساندة لاثاغا Lazaga، توجه إليهما لاثيربا بقوله: «بحديثكم عن الجيش الإسباني بهذه الطريقة اللامشروعة، تكونون قد أعلنتم عداءكم للوطن». (وعلت أصوات داخل القاعة)، بعدها توجه إلى الحضور بالسؤال في حركية درامية: «هل منكم من يستطيع القول هنا أمام الجمي، إن الجيش الإسباني لم يكن سوى شرذمة من اللصوص؟» (وتدفقت احتجاجات قوية، انبعثت من جهة اليسار)، وتطايرت كلمات جديدة لم تطفئها

سوى عبارات فيانويفا Villanñeva، الذي قال: «هناك اسئلة غريبة، خاصة تلك التي يطرحها وزير الدفاع». (احسنت. جيد، وتعالت تصفيقات من جهة اليسار)[103].

اسهب لاثاغا كثيرا في مداخلته، فاستدار جهة لاثيريا، وعاتبه بقوة، «دم الجيش من دمي، وقد افتديته بالدم الذي يجري في عروقي، لهذا لا يحق لسعادتك ان تلحق بي اتهاما من هذا النوع، (احسنت، جيد)». وإزاء هذا التصريح، فضل لاثيريا الصمت ولم يُعقب على ما جاء في كلام هذا البرلماني المحافظ، والذي كان كولونيلا للمدفعية. كانت للاثاغا عدة أسباب دفعته للحديث، اهمها وفاة ولده خوصي ماريا لاثاغا روييث José María Lazaga y Ruiz، الملازم الثاني من جراء خمسة جروح أصابته اثناء عمليات الانسحاب من سيدي ادريس.

وزير بلا "إخوة"
وقبطان تعوزه التاملات وبعد النظر

يوم الواحد والعشرين من اكتوبر، كان الموعد حاسما مع مداخلة السيد "إيزا" داخل البرلمان، إذ اعلن لجموع الحاضرين ان تواجده بعالم السياسة جاء نتيجة لشعوره بإيمان قوي، وان تصرفاته كانت من باب الضرورة، وان تحمله للمهام العمومية كان يجري في نظام تام. كما انه مستعد الآن للتخلي عن كل هذه المناصب. ووصل به الحد إلى مخاطبة البرلمانيين بعبارة (ايها الإخوة)، فاستمع الحضور واصغى في دهشة وشفقة. وتحدث إيزا عن شعوره بالضيق لهول الكارثة، واعلن عن إصراره على قراءة رسائل برنكر، وذلك لإثبات ان ما حدث من نكبات، لم يكن سوى مفاجاة مؤسفة»[104].

اعلن لاثيريا عن معارضته لهذا الموقف، لكن رئيس البرلمان السيد سانتيث غيرا Sánchez Guerra، اعطى موافقته بقراءة هذه الرسائل. فهم إيزا بتلاوة مضامينها بيد انه لم يُشر إلى برقية فبراير 1921، والتي اشتكى فيها برنكر من الحالة المأساوية للجيش. فاتضح ان "إيزا" كان انتقائيا. ويوم الخامس والعشرين من اكتوبر، وبتنبيه من لاثيريا، علم "برنكر" الذي كان بتطوان، ان "إيزا" يقرأ رسائله امام هيئة البرلمان، فأصابته دهشة كبيرة وتألم كثيرا. وبمرارة ذكر للوزير: «... ودون ان يطلب إيزا الإذن مني؟ ولي الحق في ذلك، لأن الرسائل هي في الأول والآخر مِلك لي»[105].

إذا كان إيزا قد فاجأ البرلمان، فإن قبطانا من المشاة سبقه إلى ذلك من قبل. يتعلق الأمر بمركيز منطقة فيسكا Viesca، السيد "ارسينيو مارتينيث دي كامبوس"، البرلماني وحفيد الشخص الملقب بـ"صاحب الهدنة". كان يتحدث عن عبد الكريم انطلاقا من معرفة عميقة بمجريات الأحداث، وعنه قال: «إنه المورو، الذي كان سيقودنا للنزول بالحسيمة». ووصف هذا البرلماني الثورة الريفية بالعجيبة لكونها، اندلعت ونشبت بدعم لا يتجاوز ثلاثمائة الف بسيطة، كان عبد الكريم يتقاضاها عن بعض المناجم. وبهذا النصيب، اقتنت قبيلة بني ورياغل وبثمن بخس، مجموعة من البنادق والذخيرة التي اشترتها من ذوي القبائل التي كانت تخضع لإسبانيا[106].

كان مارتينيث دي كامبوس Martínez de Campos، اول من قدم للحاضرين بالبرلمان بيانا تفصيليا عن اخطاء حصيلة الموتى، والمتعلقة بما يزيد عن ثمانية آلاف من الخسائر البشرية سقطت في الريف. فبعد ان اكد ان عدد من وصل إلى مليلية من الأحياء، كان لا يتعدى الف وثمانمائة رجل، وقدر ان عدد الباقين كان يناهز تسعة آلاف شخص، تساءل عن اولئك الرجال العشرة آلاف ونيف، الذين لم يعثر لهم على اثر في اي جهة.

كبيرة هي، تلك الضجة التي احدثها داخل القاعة بعد ما روى للحاضرين امثلة عن خروقات برنكر بمليلية، إذ تحدث عن عودة بعض الضباط إلى الحياة، بعدما لقوا حتفهم في بعض الكمائن. هم رجال ساقتهم ارجلهم إلى الإقامة العامة، وما إن رآهم برنكر، حتى بادرهم بالحديث في دهشة: «لقد ظننتكم في عداد الموتى».

تركت كلمات مارتينيث، وقعا كبيرا في نفوس الحاضرين: «على حسب علمي، توجد في مراكز التجنيد، وإسطبلات تربية الخيول، وفي المخازن، وكذا داخل إدارات الحكومات العسكرية، ما مقداره ثلاثة آلاف رئيس وضابط، يمكن الاستغناء عن خدماتهم حاليا، حري بهم في هذه الظرفية الحرجة الرحيل إلى المغرب».

وبعد ان تبينت له دلائل النفاق والرياء، وبخ وبشكل قوي مجموعة من الجنود الجدد. كانوا ينعمون بمناصب هائلة في مليلية، وذلك بدعم من عائلاتهم واصدقائهم. وذكر على سبيل المثال، كتيبة كانت تهيمن على ستين منصبا. وهنا قاطعه برلماني آخر، واضاف إليه اسم كتيبة اخرى كانت تبسط سيطرتها على مائة واربعة عشر مقعدا. واستغل رفائيل غيرا ديل ريو Rafael Guerra del Río، هذه الظرفية وطالب من رئيس

الهيئة موافاتهم بالأسماء حالا. ودون ان تراوده الشكوك، أشار مارتينيث ديل كامبو إلى ان السيد غارسيا باسو García Vaso، واصل حيله إلى أن صار نجله ساعيا للبريد (وتعالت من جديد التمتمات والتصفيقات). كان خوصي غارسيا باسو البرلماني الليبرالي، رجل ثقة بالنسبة للفيكونت رومانونيس.

هاجم مارتينيث مجالس هيئة الدفاع، وأوضح أن خمينس ارويو Jiménez Arroyo، كان الرئيس الأعلى لهذه المجالس بمليلية. في حين كان أراوخو Araújo -الذي قيل عنه، «ليته لم يكن في جبهات القتال، نظرا لما قام به من انسحاب»- رئيسا لفرقة المشاة بمليلية. بعدها دقق في حديثه قائلا، «ولم يسجل في صفوف إداريي هذه الهيئة سقوط أي قتيل أو جريح.» (ودبت الضجة من جديد)[107].

وأثناء مداخلته، اقترف مارتينيث ذنبا كبيرا، جاء نتيجة لإكراهات تلك الأيام. يتعلق الأمر باللحظة التي وصف فيها تلك الحالة المزرية، التي لن ينساها تاريخ العالم. لحظة ضياع مائة وسبع عشرة قطعة حربية بالجنون. كما تحاشى الحديث عن الخسائر البشرية، التي وقعت في صفوف القيادات. كان "بريطو" هو من ذكره بتضحيات الكومندان ماركيري Marquerie، وآخرين مثل بلانكو Blanco، الذين كانوا على رأس مدفعية أعرويت.

مسودة العزاء، ومقابر أعرويت

باستعادة السيطرة على سلوان، عمت الفرحة بشكل كبير كل أرجاء إسبانيا. ولم تكن مليلية في منأى عن هذه البهجة التي عمت البلاد، وأثلجت صدور العباد. أما أعرويت، فكانت بعيدة عن المنطقة بعشر كيلومترات. وهناك كان أكبر تكتل للجيش الضائع.

وثمة إحساس بالتناقض، كان يتملك الإسبان وهم يجتمعون في سلوان. فلا أحد كان يريد الوصول إلى مركز الذل والعار، ولا أحد كان يستطيع نسيان الأحداث. وكأن مراجعة الأخطاء، كانت هي السبيل لفهم هذه الحرب اللاشرعية.

ولشهور عدة، كان أقارب المفقودين يطرقون أبواب مليلية في الذهاب والإياب، كانوا ينتظرون بلهفة سماع أية أخبار عن الشهداء. وقد ارتفع عددهم إلى درجة أن "برنكر"

اقترح على "إيزا" في مكالمة هاتفية ما يلي: «تتدفق إلى مليلية حشود هائلة من الناس، مدفوعين برغبة في التعرف على مصير أقاربهم المختفين، أو ربما يدفعهم إلى هناك فضول بسيط(؟!)، الشيء الذي يستحيل معه توفير الإقامة لهم جميعا، فالأحرى بنا أن ننصحهم بعدم المجيء»[108].

ومن بين المئات المكتظة، كانت هناك سعادة الكونتيسة هورناتشوش Hornachuelas، التي أتت لتبحث عن أي دليل، أو بالأحرى أي عزاء، يواسيها في شخص كان يعرف باسم خوصي أوثيس إي أولايا José de Hoces y Olalla، نجلها الذي كان عضوا في فرقة نفارو. ومنذ أوائل شهر غشت[109]، وهي في بحث مستمر لمعرفة مُستقر ابنها. وعند أواخر شهر أكتوبر، بعثت برسالة حزينة إلى بيكاسو. وفيما بعد، تم العثور على مسودة جواب بيكاسو، موقعة بخطه بتاريخ الرابع من نونبر 1921. جاء فيها:

«إليك جوابي سيدتي: لقد تلقيت رسالتك يوم الواحد والثلاثين، وإني أقدر هلعك الذي أعتبره طبيعيا، وتشوقك إلى معرفة ما حدث لابنك. فثقي بي أني سأسأل باهتمام كل الأسرى، وسأستفسرهم واحدا واحدا حول ما إذا كانوا يعرفون شيئا عن ولدك. وسأوافيك بكل ما توفر لدي من معلومات. المشكلة الآن هي الحالة النفسية للجنود الذين بقوا على قيد الحياة بعد أحداث أعرويت، ومعنوياتهم المنحطة حالت دون اهتمامهم بما يجري حولهم، وهو ما يجعلني أشك في المعلومات التي سيوردونها. وكل ما تختزنه مُخيلاتهم من مشاهد لا تعدو كونها إشاعات. أكرر لك كامل احتراماتي، ولك مني أسمى عبارات التقدير»[110].

لم يوقع بيكاسو هذه الرسالة، وشطب عليها بريشته، وهو يفكر في كتابة خطاب آخر جديد. كان قد وصل إلى أعرويت بأحد عشر يوما من قبل. وكانت الكونتيسة على علم بذلك، فوجد نفسه وجها لوجه أمام المشكلة، فاستعصى عليه أن يكتب إليها رسالة.

لم تحاول الحركة أن تقاوم بأي شكل من الأشكال، لأنها كانت تدرك تماما وأمام التكتلات الحربية والهائلة للإسبان -ما يناهز مائة آلية مصفحة كانت مرصوصة على طول الخط - وقوات جوية تقدر بنحو عشرين طائرة- أنه لا حول لها ولا قوة. فبدا الانسحاب نحو الباطل حلا ضروريا ساعة خروج الإسبان من سلوان.

لم تكن أعرويت منطقة تستأثر باهتمام القيادة الريفية، فهي منطقة لا أهمية لها من الناحية العسكرية، وإن كان لها وزنها من الناحية المعنوية. أما مقاتلوا الريف، فكانوا لا يدفنون جثث أعدائهم أبدا لأنهم مسلمون، وأهل هذه الديانة يشمئزون من لمس أجساد الكفرة. إلا أنهم كانوا لا يتوانون في استعمالها وسيلة ضغط نفسي جديدة ضد أعدائهم، بإرغامهم على الاعتراف مرة أخرى بانهزامهم.

وهذا ما أكده وعاينه إسبانيان بنفسهما. يتعلق الأمر برفائيل فرنانديث دي كاسترو إي بدريـــرا Rafael Fernández de Castro y Pedrera، وروخـيليـــو نفـاريطـــي إدالغـــو Rogelio Navarrete Hidalgo، الأول كان صحافيا والثاني صيدليا. وقد عزم الاثنان على خوض الهجوم، فكان ذلك يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، حيث خرجا سالمين، وصور الأحداث عالقة بأذهانهما[111].

لم يكن الهجوم الإسباني كثيفا، ويوم الرابع والعشرين من أكتوبر، على الساعة الثامنة والنصف صباحا، بسطت الكتائب العسكرية سيطرتها على جبل أعرويت. وكل ما قيل عن أخطاء هذه الحملة، وُجدت له ظروف مخففة. كان الموت يحدق بكل جانب، وشخصت الوحشية أبصارها، وأفصحت أعرويت عن حالتها التي أصبحت بمثابة مقبرة مفتوحة، فظلت وشما على جبين سياسة الدولة. كانت الغربان والصقور، قد هجرت أوكار أعرويت منذ أسابيع، وحتى الديدان اختفت من تحت الشمس اللطيفة والباردة لأيام الريف ما قبل الشتوية. عجزت فرق كل من "سان خورخو" و"كابنياس"، التي انتشرت في المنطقة بغية معاينة كل أشكال الفظاعة، عن إجراء جرد للأحداث، وتحجرت العيون، فلم تذرف أي دمعة. فالفاجعة كانت أكبر مما يمكن أن يطيقه شخص واحد. كان الجيش الذي قضى نحبه، يمثل مجتمعا وأمة كاملة. ورويدا رويدا جُمعت أشلاؤه، ووضع فوقه صليب، كان الألم والاحترام يلفان الثلاثة آلاف من وفيات أعرويت.

وقد وصفت جريدة أ-ب-سي هذا المشهد "بالمرعب"، في حين ذكرت صحيفة "الصول" أن الرائحة كانت جد كريهة، إلى درجة أن الجنرالات أعطوا أوامرهم بعدم الدخول إلى ذاك المستنقع،[112] لكنهم ولجوا المكان بنظرات تائهة، وقلب منقبض وأفواه مزكومة بمناديل، وظهر في الصور برنكر، الذي كان قد وصل لتوه، مرتديا معطفه الرمادي اللون، والخشن الثوب، وهو يرتاد عيادات الثكنات العسكرية، حيث وقف على مائة وسبع جثث.

ومع مرور الأيام، بدأت تظهر مقابر أخرى، حيث عُثر على مقبرة عند منحدر المعسكر، وبها ما يزيد عن "ألف قتيل". وعند مورد نهر كَبَايو، تم تسجيل ما قدره "مائتي جثة محنطة". وفي إحدى البيادر التي كانت ملكا للمستعمر، عُثر على مائتين من الوفيات. وفي بيوتات ابن شلال -حيث تم عزل نفارو وضباطه عن المذابح التي ارتُكبت في حق جيشه- على بعد كيلومتر واحد، كانت ترقد ستمائة جثة هامدة. وخلال ستة أيام من الإحصاء، كان الغثيان والقيء هما المشهد الغالب. ودفنت فرق النظافة ما يزيد عن الفين وستمائة وثمانية عشر جثة[113].

وما إن علمت مليلية بنبأ وصول الجنود إلى جبل أعرويت، حتى تدفقت جموع عائلات المختفين في أعداد هائلة، فاخترقت كل الخطوط، وحلوا بهضبة أعرويت مذعورين من هول ما رأوا من كوارث غريبة. وهناك تلاشت كل الآمال، ليس فقط لرؤية رجال نفارو المفقودين، ولكن لليأس من عودة الفرق العسكرية الأخرى والمختفية، والتي بات الكل يحسبها في عداد الموتى. كان الريف يحتضن المئات من أعرويت.

وبعد لحظات الدهشة التي أربكت الجيوش، وإثر عمليات التعرف على الجثث التي لم تكن سهلة بتاتا بالنسبة لغالبية الجند، وإن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبعض الضباط، الذين ميزوا جثمان الكومندان ماركيري Marquerie، الذي كان يرقد إلى جانب أتباعه، وجثة القبطان سانتيث مونخي Sánchez Monje، الذي تمكنت إحدى القذائف الريفية من بتر ساقه، وهو ملقى على إحدى النقالات يوم التاسع من غشت وبجواره الجنود الأربعة، الذين تكلفوا بنقله إلى بر الأمان الوهمي، وقد مُزقت أجسادهم شر ممزق. وقريبا جدا من عين المكان، كانت ترقد جثث كل من التنيتي غي ديل لاطوري Gay del la Torre، والقبطان باندين Bandín، وقد تعانق الاثنان في محاولة من الأول لحماية جسد صديقه المملوء بالجراح. وعلى تلك الشاكلة، تم وضعهم داخل القبر. لا أحد استطاع أن يفصلهما عن بعضهما البعض.

وفي الطريق المؤدية إلى الباطل، تم العثور على جثة القبطان أريناس Arenas، المقاتل الباسل الذي أبلى البلاء الحسن في هضبة أعرويت. كان وحيدا حين اختطفته المنون، وقد فاجأته وهو يدافع عن تلك العربات المصفحة، التي ضاعت منه يوم التاسع والعشرين من يوليوز. وليس ببعيد رقد الإخوة غارسيا مارتينيث Garcáa Martánez للأبد. كان الاثنان ضابطين أطباء، الأول كان يدعى فيكتور Victor، والثاني موديسطو Modesto، وكان عمرهما يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين سنة.

وفي إحدى زوايا المعسكر، تم العثور على جثة رئيس الكانطرا، الذي فقد ساعده الأيسر. كان المنظر مرعبا وينبئ بالتحدي. ويوم السادس من غشت، تمت مواراة جثمانه المتعفن. لكن الريفيين نبشوا قبره من جديد، واخرجوه من هناك. لم تكن العملية صعبة، فقبره لم يكن عميقا جدا. وجاء جنوده ودثروه بحفنات من تراب، قبلوها بعاطفة جياشة. إنه "بريمو دي ريفيرا"، الذي بدت عليه علامات الصرامة، وبات جسده عرضة لرياح أعرويت المتعفنة. كان وجهه الشاحب يؤكد للريفيين، أنه ذاك الرجل الذي لا يقهر. وفي تشوقهم لمعرفة المزيد عن هذا الشخص، الذي هاجمهم أربع مرات بسيفه، وصراخه الذي كان يدوي بقوة في أرجاء إغان، وكلهم رغبة في معرفة الكيفية التي عليها ذلك الرجل، واحتراما له ولمكانته، لم يلمسوه واكتفوا بتأمله.

وفي أحسن مقالاته حول المعركة، والمعنونة بالقائد المخلوع الساعد بهضبة أعرويت، كشف كروشانو Corrochano النقاب عن أمور كان لها صدى: «كنت أفضل أن أجد نفارو إلى جانب بريمو دي ريفيرا. وليس هذا بالأمر العسير على عبد الكريم، الذي كان يأوي أسرى جبل أعرويت». واستمر في حديثه ينتقد غياب عروض عسكرية تلقائية: تسير في "طابور شرفي" مكون من عساكر ومدنيين (فكلنا إسبان)، يمر بجانب جثمان التنينتي كولونيل، كتكريم لكل من سقط هناك. ووصل الأمر بكروشانو إلى درجة الاتهام قائلا: «حقا تعوزنا الحماسة والروح الوطنية»[114].

ووسط تلك الجموع البائسة، ظهر بعض الشباب القساوسة كالإخوة التابعين لطريقة **كريستينا**، والذين طلبوا الإذن من الطبيب التلينتي مانويل ميراندا فيدال Manuel Miranda Vidal، بالسماح للمصورين بالتقاط صور لهم، وهم يقومون بدفن العديد من الجثث التي كانت مرمية هناك. فاستجاب ميراندا لهم، وزودهم ببعض المجرفات وعربة واحدة، وانصرف إلى حال سبيله.

وفيما يخص الأقنعة، لم يكن هناك سوى ثلاثين قناعا لخمسة عشر ألف جندي ذهبوا لتحرير أعرويت، أما كلورور الملح الذي كان ضروريا لمضادة الجراثيم، فقد نفذ تماما، ذلك لأن الأوعية التي أرسلت من مليلية لم تغط، فتبخر محتواها. وهذا ما انتقده أورثيغا إي نوغس Ortega y Nogués[115].

وفي الوقت الذي كان فيه ميراندا ورجاله منغمسين في مهامهم الإنسانية، أنهى الإخوة القساوسة أعمالهم فور انتهاء حصة التصوير. وأكد خوصي رامون فرنانديث أكسيا José Ramón Fernández Oxea، -الذي كان يعلل مراقبا لأي عمليات غش- أن أولئك القساوسة، كانوا يخدعون ويغشون في شفقتهم، إذ لم يفعلوا شيئا يذكر، مؤكدا ذلك بعبارة "أقسم لكم بحياتي"[119].

وعكس هذه التصرفات، نجدها مع الرهبان الكبوشيون من أصل أندلسي، كإميليو بايثا Baeza Emilio، وفيليكس سيغوروا Félix de Segura، وخوان دي لاكروث أوبيدال J. de la cruz Ubedal، الذين ذكرهم في مجمل عرضه غونثاليث كبايرو González Caballero، واللائحة طويلة لرجال الدين المنتمين إلى نفس الطريقة الرهبانية. وهنا يتعلق الأمر بالقشتاليَيْن إميليانو ريفيا Emiliano Revilla، الذي ذاع صيته بعد مرافقته لجنود الطرسيو في المقدمة، ومانويل دي أونطوريا Manuel de Hontoria. وقد امتاز الاثنان بإسعافهما للجرحى والمرضى.

وقبل استعادة السيطرة على أعرويت بثلاثة أيام، كان مارتينيث دي كامبوس قد طالب بتفكيك هيئة رجال الدين الحربية. وبعد التذكير بأن ويلر Weyler، فعل ذلك بموجب مرسوم، تم التأكيد على ضرورة إصدار "قانون"، وندد قائلا: «بصفة عامة، فهيئة القساوسة لا توجد في مكانها المناسب. ففي مقاهي مليلية توجد بعض تجمعاتهم»[118].

كانت إسبانيا في حالة حمى بسبب أحداث الريف. ويوم الرابع والعشرين من أكتوبر، وبعد العودة من أعرويت، ذكر برنكر للاثيريا بأن المشهد كان مروعا، وأضاف: «من النظرة الأولى، يتخيل إليك أن الجثث وصلت إلى ثمانمائة جثة». واستغل لاثيريا هذا الرقم، واستعمله معدلا إجماليا لمجمل الخسائر البشرية.

وبذهاب برنكر إلى تطوان، اتصل لاثيريا مع بكبلكانتي، المقيم العام بمليلية، وذلك يوم الخامس والعشرين من أكتوبر[119] على الساعة الثامنة ليلا، وجاء في الخطاب:

المقيم العام: «عن جنودنا بهضبة أعرويت، أذكرك أنهم الآن منكبون على تطهير المعسكر، وإنهم يؤدون المهمة التعيسة التي أنيطت بهم، ويوارون جثمان أصدقائهم الذين لقوا حتفهم هناك على أتم وجه. واليوم فقط، تم دفن خمسمائة وتسعة وثلاثين جثة، في حين دفنت أربعمائة وواحد وثمانين جثة أخرى البارحة. وحسب ما توصلت إليه من بلاغات، فمازالت الآلاف من الجثث تنتظر دورها».

الوزير: «الا يوجد خلل في الأرقام؟»

المقيم العام: «لا، لأنه بالإضافة إلى التلغراف، توصلت بأخبار شخصية مصدرها فرنانديث مارطوس Fernández Martos، مدير خدمات النظافة».

وبعد دقائق[120]، تحدث لاثيربا مع برنكر، وتلقى منه تصريحا غير قابل للنقاش. فجف ريق الوزير، الذي أصبح في حيرة من أمره بعد سماعه لتلك الأرقام المهولة.

قرر لاثيربا الذهاب إلى أعرويت، فكانت الرحلة يوم التاسع والعشرين من دجنبر. وبعودته إلى مليلية، أخبر الملك بتفاصيل الأمور. وبعد وصفه للمشهد -حيث غالبية الجثث قد دفنت- وحديثه عن الجو العاطفي، المتمثل في الهتافات الشعبية الحارة باسم إسبانيا والجيش، وذاكرة الضحايا التي اثرت في الجميع، ضمن استقالته بجملة معبرة تقول: «كان ذلك مشهدا يستحق ان تعيشه يا صاحب الجلالة»[121].

استغرقت عمليات جمع أشلاء ضحايا أعرويت، المقدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف، سنين عدة. كانت الجماجم وفقرات العمود الفقري، وعظام الفم أو أجزاء من الفك دائما في موعد مع من يبحث عنها. وهكذا، كانت المئات والمئات من أجزاء الأعضاء البشرية، منفصلة عن بعضها البعض بالكيلومترات. كل هذه الأشلاء، كانت لرجال معطوبين، وبضمها إلى بعضها البعض، يتخيل إليك وكأنها تشكل هوية واحدة. هوية جيش كان له وجود في يوم من الأيام.

فيما بعد تم نقل كل تلك الأشلاء إلى مستودع العظام بأعرويت. وفي سنة 1949، نقلت إلى جناح الأبطال بمليلية. واليوم، لا شيء بأعرويت يذكر بتلك الاستشهادات. تأمل بسيط في المناظر الطبيعية للمنطقة، حيث سقط كل أولئك الجنود، يسهل عليك تخيل نهايتهم وقبورهم.

برلماني من بلباو يهز دعائم البرلمان

بعد الوصول إلى أعرويت بثلاثة أيام، احتدمت النقاشات بشدة داخل البرلمان. كان ذلك يوم السابع والعشرين من أكتوبر. حيث أخذ "بريطو" الكلمة.

فبعد انتقاص المختفين، والمقدر عددهم بثلاثة عشر ألفا ومائة واثنين وتسعين من جملة الحاضرين بمليلية، تم استنتاج عدد الخسائر البشرية والمقدرة بثمانية آلاف

وستمائة وثمانية وستين، وهو عدد اجبر الغرفة على الاعتراف، بأن الخسائر في الأرواح وصلت إلى ثمانية آلاف. واسترسل قائلا، «ثمانية آلاف من القتلى تحتم الوقوف امام هذا الرقم، وتشير بالأصبع إلى مسؤوليات محددة». واوضح بريطو ان معلوماته حول قوات الجيش التابعة للإقامة العامة بمليلية، والتي يصل قوامها إلى اربعة وعشرين الفا وثلاثمائة واثنين وثلاثين، يختلف عن العدد الذي قدمه "إيزا"، والذي يشير إلى خمسة وعشرين الفا وسبعمائة وتسعة. وذكر انه لو كان هذا الرقم الأخير صحيحا، لكان عدد الضحايا الإسبان، يمكن ان يرتفع إلى عشرة آلاف ومائة وستة وعشرين.

وعند حديثه عن إيزا، ضمن "بريطو" تصريحاته مدحا غامضا للوزير السابق، مقحما في حديثه حتى الملك. فقال، «إنني ارى ان اكبر خدمة اسديت للعرش خلال مدة هذا الحكم البائس، هي تلك التي اسداها وبسخاء لا حدود له، السيد "إيزا". وذلك ليسدل الستار على مسؤولين كبار». (ودوت همسات داخل القاعة). بعدها تطرق إلى حيرة الحكومة فيما يخص احداث ابران، وتحدث كذلك عن جريمة سيدي اقلعي التعس، ولفقها دون ان يدلي بدليل[122] إلى سيلفستري. لم يكن بريطو يعلم شيئا عن رويداس لادسما Ruedas Ladesma، فهذا القبطان كان واحدا من الضباط السبعة عشر المرشحين للترقية، إذ ورد اسمه ضمن القائمة التي احالها يوم الرابع والعشرين من اكتوبر، السيد المقيم العام إلى لاثيربا[123]. كما ان برنكر ارتقى بدوره إلى درجة تلينتي، وذلك لاستحقاقات حربية.

وما إن حل شهر دجنبر، حتى علم بريطو بملابسات الجريمة التي دارت رحاها في *كويستا كولورادا*. وبسبب تداعيات هذا الحدث، ادين رويداس امام الملأ.

ادهش بريطو الحاضرين فور إخبارهم ان سلطات مليلية، رفضت عرض العديد من القبائل فيما يخص استرجاع جزء من المدفعية التي ضاعت منذ ايام انوال قائلا، «وإنني اقدم بين ايديكم تصريحا يؤكد ان جزء من هذا العتاد، الذي يصل إلى ستين مدرعة، والذي رفضته سلطات إسبانيا، قد اقتنته الجيوش الفرنسية». واكد ان الخطأ يكمن في عزوفنا عن الشراء، لأن فرنسا اشترت كل هذا العتاد بثمن بخس. المهم انها تنازلت عن ستين آلية مصفحة، قد تستخدم يوما ضدها، وعلى ضوء هذه المعطيات،

ندد بالتقاعس وذكر انه كان يجب على الوكلاء الإسبان، المضي إلى المنطقة الفرنسية وإعادة شراء الجزء الأكبر من دواب مدفعيتنا، وكل ما كان بمخازننا. وأخيرا دقق قائلا: «لقد عدنا لشراء ذلك القطيع الذي نهب منا»[124].

وفي خضم حديثه المتشابك، تطرق بريطو إلى أربعة مواقف جد حساسة، تتلخص في قضية الأسرى، والتكتيكات الحربية العاجلة التي انتهجتها الجيوش الإسبانية في زحفها نحو الأمام، وكذا الترخيص الذي مُنح لسيلفستري ليتقدم نحو الحسيمة. وأخيرا المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق مستشاري الملك.

آنذاك، كان إنداليسيو بريطو طورو Indalecio Prieto Tuero، يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين سنة. ولد في اوبيدو، في كنف أسرة متواضعة، ثم رحل إلى بلباو، حيث اشتغل كاتبا في جريدة "صوت فسكايا". وبعدها في صحيفة الليبرال، التي أصبح مديرا لها، ومسؤولا عنها سنة 1932. كان ضخم البنية، في إشارة إلى الوزن وإلى تلك الكتلة اللحمية التي كانت تحت ذقنه، والتي كانت تميزه -فصارت عنصرا أساسيا في الرسومات الكاريكاتورية في عهد الجمهورية الثانية- وعكس لاثيريا تماما، كان انانيا، جريئا ودقيقا في تصريحاته، وصارما في نواياه. وكانت له فصاحة وسلاسة وحجة قاطعة يصعب دحضها. وبتاريخ السابع والعشرين من اكتوبر، ذكر بريطو أن ثمن فدية سراح الأسرى، وصل إلى أربعة ملايين بسيطة. واوضح أن الشعب هو من صرح بأن الحكومة، «لا ترغب في إعطاء بسيطة واحدة لفائدة المعتقلين. وهناك من ربط هذا التصرف، بجملة إيحائية يفهم من محتواها، أن لحم الدجاج قد يكون اغلى ثمنا. (وتعالت اصوات صاخبة ومدوية داخل القاعة) كانت الإشارة واضحة إلى الملك، وذلك ما اكده سانتيث غيرا Sánchez Guerra، الذي حاول في حديثه تفادي أي إهانة او سب لجلالته، اعتبارا لمكانته، فهو يوجد خارج دائرة الانتقادات (وتعالت من جديد اصوات صاخبة)»[125].

وتطايرت هذه العبارات، إلى أن وصلت إلى حدود عنابر أجدير، مخلفة ضررا بليغا. وباقتراب ساعة الإفراج عن الأسرى، وما إن رأى بيريث اورتيث Pérez Ortiz، (يوم السابع والعشرين من يناير 1923) انطونيو لوبيث Antonio López يدخل إلى خليج الحسيمة، حتى كتب في مذكراته هذه الصيحات: «لقد تم شراء الدجاجات». واوضح في السطر الموالي: «من جهتي، فانا لا ابالي بهذه الإهانات، لكنها احزنتني جدا»[126].

اصر بريطو على مواصلة مهمته التخريبية، والرامية إلى كشف المستور. فازاح النقاب عن حكاية سيلفستري العائد إلى مليلية من بلد الوليد، والذي اكد انه سيذهب إلى الحسيمة بموافقة الملك. لقد أدان الخروقات الماثلة في كون والد عبد الكريم، مايزال يتقاضى معاشه من الحكومة حتى بعد وفاته بسنتين. وهو ما دفع ماورا الذي اصابه الذهول، إلى مطالبة غوثاليث انطوريا بتقديم إيضاحات بهذا الشأن. فعلم من وزيره ان ثمة ميزانية، كانت تُصرف سنويا إلى مليلية، يصل قدرها إلى نصف مليون بسيطة[127]. وعلق بقوله: «إن مليلية، يا سيد سولانو، قد غدت بحق بيتا للدعارة ووكرا للصوص». وواصل هجوماته كاشفا القناع عن نفاق الرقابة، التي تصدت، لتلك الرواية التي تحدثت عن إهداء رؤوس اثنين من الريفيين إلى سيدة لافكتوريا، واذنت لصحيفة الصول يوم الرابع من اكتوبر، بان تذكر ان معارك البارحة، لم تخلف أسيرا واحدا. واخيرا وصف النظام "بالتعيس"، الشيء الذي تسبب في تبادل الشتائم واللوم مع خوصي سانتيث غريرا José Sánchez Guerrera.

وفي وسط الضجة، ذكر بريطو بالزيارة التي قام بها الفونصو الثالث عشر، إلى مرتفعات "وجان" الملقبة بحصن الموت. لكن بتطرقه لشهادة واحد من رواد القصر، الذي مدح الملك واثنى عليه، باعتبار حدث زيارته الأول من نوعه منذ عهد فيليب الثاني. إذ لا أحد من الملوك وطئت قدماه أرض المستعمرات الإسبانية، تدفقت من جديد موجة من الغضب في صفوف الحاضرين من محافظين وليبراليين.

ووردت هذه العبارات السالفة الذكر، في خطاب أوخينيو مونطيرو ريوس Eugenio Montero Ríos، داخل واحد من صالونات القصر يوم الثالث والعشرين من يناير 1911، وذلك بعد عودة الفونصو الثالث عشر، من رحلته إلى مليلية ببضعة أيام. كان مونطيرو ريوس -الذي كان وقتها رئيسا لمجلس الشيوخ- يتحدث عن كارلوس الخامس، لا عن ولي عهده. لكن لم ينتبه أحد إلى الخطأ.

واصل هذا البرلماني من بلباو حديثه، وهو ينشد بحماسة انشودة الضياع: «كل تلك الميادين التي كانت بالأمس لنا، باتت اليوم مقابر لجنودنا. فما يناهز ثمانية آلاف جثة، أصبحت مكومة هناك... (وتعالت الاحتجاجات والصيحات التي حالت دون سماع الجزء الأخير من الجملة، فتدخل رئيس البرلمان وهو يلوح بالجرس الصغير، فالقى على مسامعه كلمات لم يلتفت إليها أحد)[128].

وبانتهاء جلسات السابع والعشرين من اكتوبر، بدا البرلمان وكانه ساحة معركة. فعلامات الغضب والحيرة كانت واضحة على وجوه البرلمانيين. فحرب المغرب وصلت إلى مدريد، ولا أمل في العفو.

مقترحات بإرسال طائرة محملة "بغبار أصفر"

قبل اشتعال فتيل الشجار داخل البرلمان بثلاثة اسابيع، اتصل برنكر بالفونصو الثالث عشر اتصالا تلغرافيا. ويوم الثامن من اكتوبر 1921، وعلى الساعة السادسة مساء وخمسة وثلاثين دقيقة، نقل المقيم العام لجلالة الملك بعض الأنباء السيئة، التي تفيد بأن عملية إطلاق سراح الأسرى لن تتم إلا بدفع أربعة ملايين بسيطة. وعن عبد الكريم، ذكر بأن قبضته لم تعد قوية على بعض العشائر، حيث اغتاضت مجموعة من القبائل من حجم الخسائر التي تكبدتها دون الأخذ بالثأر لها. ومن كثرة يأسه وعجزه، صمت الملك ولم ينطق بكلمة تحدث فيها إلى تلك القبائل، التي اعربت عن استعدادها لمد يد العون. لم يوافقه برنكر على ذلك، دون أن يقدم له حلا آخر. وعلى هذا المنوال جرت المحادثات بينهما:

المقيم العام: «لا أظنك سيدي ستجني ربحا من تدخلك في الموضوع، لأن هؤلاء الأسرى اصبحوا الآن ملكا لقبيلة بني ورياغل، التي انتزعتهم بالقوة من قبيلة -غلاية. وآخر فوج من المعتقلين سلم للريفيين، اعترافا لهم بالجميل في تصديهم لزحفنا نحن. والحقيقة ان قبيلة غلاية، باتت تنزعج اليوم من حضور الريفيين، انزعاجها من حضورنا نحن. وذلك لأن الريفيين يعاملونهم بجفاء واستبداد. وليس هناك سوى مجموعة صغيرة من المارقين، او من لهم تصفية حساب معنا، يحبذون ويرحبون بتواجد الريفيين معهم».

الفونصو الثالث عشر: « من المؤسف اننا لا نستطيع تزويدك الآن بطائرات، محملة بغازات سامة تنثرها على الميادين الريفية فتدمرها تدميرا، وتلقنها درسا يجعلها تستشعر قوتنا في أرضها. وإنني أرى انه لو تضافرت جهود كل الأجهزة، فإن الوقع سيكون فعالا ومضاعفا. ولا اظن سبعة او ثمانية بؤر للتوثر، ستصمد كثيرا في المقاومة»[129].

وفي سنة 1925، وصلت الآليات الجوية محملة بغازات من نوع، ث.2 (الإيبريتا Iperita)، وث.3 (الفسجين Fosgeno)، وث.4 (كلورو برثينا Cloropricina)، وقنابل سامة من عيار خمسين، خمسة وعشرين، وعشرة كيلوغرامات محشوة بالغبار الأصفر. وبعد أن حطت

هذه الطائرات رحالها في شواطئ الحسيمة بعشرة أيام، بعث "سان خورخو" بتقرير موجز إلى "بريمو دي ريفيرا"، يسلط فيه الضوء على تفاصيل ونتائج الحادث. وفيما يلي نص هذا التقرير، تلغراف رقم 215 بتاريخ 29/08/1925 من مليلية إلى تطوان.

.كما هو في معلومك، هناك انباء تخبر عن ارتفاع عدد المتمردين الذين لقوا حتفهم، او تسمموا من جراء القصف الأخير. وتاكيدا لذلك، فقد تلقيت اليوم اخبارا تفيد انه انطلاقا من "كيلاتش"، ووصولا إلى الحسيمة، تم العثور على مائة وثمانين شخصا فقدوا بصرهم، ومائة وستين من القتلى. وقد ادلى المخبرون بتصريحاتهم، واكدوا ان كل الأشجار قد تفحمت، وان سكان تلك المنطقة نادوا على عبد الكريم، واخبروه انهم لم يعد بمقدورهم الصمود اكثر. وبالرغم من المبالغة في الأرقام، فإن الخبر تزامن مع إذاعته في وكالات المراقبة، وهو ما يبرهن ان الأحداث كانت واقعية، حتى وإن تضاربت الآراء واختلفت وجهات النظر حول الأرقام،[130].

عاد بيكاسو محملا بملتمسات الجيش الميت

عاد بيكاسو إلى شبه الجزيرة الأيبيرية يوم الثالث والعشرين من يناير 1923، وهو يتابط تحت ذراعيه ملفات تحمل اسمه. كانت تقاريره عملاقة وحاسمة، وضمت الفين واربعمائة وثلاثة وثلاثين صفحة.

اصبحت تقاريره سجلات عدلية لأحداث إفريقيا الألفونصية، وبالتالي، غدت كابوسا مزعجا للدولة التي تحمل على عاتقها عشرين عاما من الأخطاء والزلات الاستعمارية. كانت الدولة ممثلة في أجهزة خطيرة وقوية، لكن الجنرال لم يول الأمر اهمية كبيرة، بل ظل شامخا وكانه الوتد الرئيسي لباخرة ذات الأشرعة الثلاثة -الجيش والحكومة والدولة-، باخرة كانت قاب قوسين او ادنى من الغرق في المياه العكرة، وسط عواصف هوجاء يتحكم فيها القضاء والنقابات والصحافة. كانت احكام بيكاسو جاهزة، احكام لم يستطع احد ان يجد لها ظروفا مخففة.

احيل ملف تقصي الحقائق في المغرب إلى البرلمان، لتنظر فيه اللجان المعروفة باسم «تسعة عشر» (1922)، و«الواحد والعشرين» (1923). في حين، عاد بيكاسو إلى

مزاولة مهامه في الهيئة الأممية. وبعودته، فوجئ بتغير النظام، ورفع العقوبات التي تبنتها السلطات بموجب مرسوم اصدرته مجالس "بريمو دي ريفيرا" المتهورة، والسلطات الألفونصية الوديعة. فكان من نتائج هذا القرار، أن تصدعت دعائم الملكية وانهارت.

وجد بيكاسو نفسه أمام جيش ميت، لكن، وبتحرياته وتقصيه للأخبار لمعرفة الكيفية التي انهار بها الجيش والسبب في ذلك، يكون قد أعاد الاعتبار إليه، ورد إليه كرامته وحقيقة وجوده في تلك المرحلة من التاريخ. كان الصمت الذي تبنته السلطات الرسمية فيما يخص نهاية رجال سيلفستري، قد أوجع هؤلاء وقضى عليهم للمرة الثانية، كما انه حرمهم من شرف الذكرى، بطريقة تعسفية وقاسية. لكن بيكاسو تصدى لهذا الظلم.

وبعد أن أشهر بيكاسو سلاحه الفتاك، والمتمثل في تقريره الذي أنجزه يوم الثامن عشر من ابريل 1922، توقفت الشجارات بين الأشخاص، وكذا المؤسسات التي كانت تتبادل التهم. فإزاء الفاجعة الإفريقية، وقف الكل عاجزا.

وأمام الجميع شخصت روح المسؤولية أبصارها، وبزغ الجحود، وظهر بيكاسو على شكل وصي تدعمه الجماهير الشعبية، وتقدم لمناصرة جيش كان على وشك الاندثار والنسيان، فدبت الحياة فيه من جديد. كان كل همه، هو طلب العدالة وإحلال السلام.

حكاية أوراق كانت في ملك الدولة

يوم العاشر من يوليوز 1921، تشكلت اللجنة الثنائية المكلفة بتقصي الحقائق. وهكذا، ظهرت اللجان المعروفة بـ «الواحد والعشرين» والمؤلفة من برلمانيين، أُوكلت إليهم مهمة الحكم والنظر في أحداث 1921. كانوا مجبرين على إصدار قرارات في أجل أقصاه واحدا وعشرين يوما، وهي مدة لم تكن كافية. ولهذا، تم اقتراح الفاتح من أكتوبر، كأجل أقصى لتقديم النتائج، وذلك بتزامن مع افتتاح الدورات الرئاسية. وقبل هذا الموعد بأسبوعين، حدث انقلاب عسكري جرف معه كل التطلعات والنوايا الجنسية.

وتجدر الإشارة إلى أن أعضاء لجنة «الواحد والعشرين»، كانوا أعضاء يمثلون الإيديولوجيات التالية داخل البرلمان، الاس بومرنيو Alas Pumariño، (من الحزب المحافظ)، دييث دي ريبينغا Diez de Revenga (من حزب لاثيربا)، دومينكو سان خوان

Domingo San Juán (من حزب اليسار لمنطقة كاطلونيا)، فرنانديث خمينيث Fernández Jiménez من شيعة (الكلا - سمورا)، غارسيا كيخارو García Guijarro (محافظ)، إينثا Inza من انصار (غاسيطي Gasseti)، لكيريكا Lequerica من اتباع (ماورا)، لوس ريوس فرناندو Los Ríos Fernándo، من الحزب الاشتراكي، مارتينيث دي كامبوس Martínez de Campos (من حزب الاستقلال)، موروطي Morote من انصار رومانونيس، بلاثيوس Palacíos من حزب الإصلاح، بريطو Prieto (من الاتحاد الاشتراكي)، رودس Rodés من الحزب القومي، رودريغس فالدس Rodríguez Valdés من انصار (لاثيربا)، رودريغس دي فغوري Rodríguez De Viguri (من الحزب المحافظ)، روانو Ruano (من المحافظين)، سغاسطا Sagasta (من الحزب الديموقراطي)، سوطو ريغيرا طابوادا Soto Reguera Taboada (من الحزب المحافظ)، طخيرو Tejero (من يسار كطالونيا) وسانكادا Zancada من الديموقراطيين. وتم اختيار (رودريغس دي فيغوري) نائبا للرئيس. اما الرئيس، فكان برناندو ماتيو سغاسطا إشفريا Bernando Mateo Sagasta Echeverria الذي كان واحدا من نواب البرلمان، بتعيين من كالدس دي ريس Caldas de Reyes، في (بونطي فيدرا).

جاءت إنطلاقة اشغال البرلمان في شهر غشت، وحدث أن امتنعت حكومة غارسيا بريطو عن موافاة الحاضرين بمحاضر مجلس الدفاع، فكانت هذه هي العقبة الأولى. وبعدها، وقع ما كان يخشاه الكل: انقلاب بريمو دي ريفيرا.

ويوم الثالث عشر من شتنبر 1923، كان سغاسطا بمدريد. وما إن علم بنبأ قدوم بريمو دي ريفيرا إلى العاصمة على متن القطار، حاملا معه موافقة الملك على مخططاته، حتى راودته كتلة من المشاعر، ساقته إلى التخمين بانهم قادمون من اجل تقارير بيكاسو، وسوف يمزقونها او يسرقونها. لم يتردد سغاسطا، وقصد البرلمان؛ وهناك ذكر الكل بواجبه كرئيس للجنة، فانقذ تلك الملفات. وكل هذه الوقائع كانت حقيقية، ففي شتنبر 1998، عثرنا على جزء من هذا الملف في أرشيف البرلمان، وبالضبط في حزمة من الأوراق كتب عليها، (فهرست وثائق الإقامة العامة التي تم العثور عليها في المجلس الأعلى للحرب والبحرية) وكتبت هذه العبارة بقلم احمر، وذيلت بملاحظة تقول ،لقد حملها معه السيد سغاسطا،[131].

وبعد أن أصبح المالك الوحيد لتلك الوثائق المهمة جدا، ارتأى سغاسطا ان يضعها في مكان آمن بمدرسة المهندسين الزراعيين، التي كان يديرها هو، والتي كان يعمل بها مدرسا. ولحمايتها من الإتلاف، عهد بها إلى أستاذ آخر كان يشتغل بنفس المؤسسة، يتعلق الأمر بإنريكي خمينيث خيرون Enrique Jiménez Giron. وهذا الأخير، هو من روى تفاصيل هذا الحادث لخوان كارلوس بيكاسو لوبيث Juan Carlos Piccaso Lopez[132].

وصل بريمو دي ريفيرا إلى مدريد، وبالفعل أول شيء طالب به هو تقارير بيكاسو. وحينما توجهت شرطته إلى البرلمان للبحث عنها، كانت الأوراق قد اختفت من هناك. لم تكن كذلك في حوزة بيكاسو، فتملك العجز بريمو دي ريفيرا. وبعد أن عرف من المسؤول عن الحادث، أصدر أوامره لسغاسطا، وطالبه بإرجاع التقارير. وفي رباطة جاش، ذكر الأستاذ أن لا علم له بالأمر. فثارت ثائرة بريمو لهذه الجراة، لكنه لم يشأ اعتقال هذا المهندس الجريء، وجاء الانتقام بعد سنوات وبشكل تقني، إذ بعد مطالبة كلية الزراعة -رابطة المدينة الجامعية- بإمدادهم بقطع أرضية تصل شساعتها إلى ستمائة هكتار، وذلك لإنجاز تداريب مدرسية، أبى الديكتاتور إلا أن تُمنح فقط واحدا وعشرين هكتارا من الأراضي.

وحينما فقد بريمو دي ريفيرا ثقة الملك، وانصرف إلى حال سبيله إلى منفاه في باريس، وبالضبط إلى فندق "موغيس"، حيث وافته المنية هناك يوم السابع عشر من مارس 1930، لم يبقى سغاسطا في منأى عن المشاكل، كان لابد من انتظار أفول حكومة برنكر والأرميرال أثنار، لتغلق نهائيا أبواب النظام الألفونصي، الذي أطاحت به صناديق الاقتراع سنة 1931.

وبعد أن استقر المقام بألفونصو الثالث عشر بالمنفى، أنقذ سغاسطا التقارير وأودعها في البرلمان. وتسببت أوراق بيكاسو في جملة من النزاعات الأهلية، انتهت بالنسيان. وفي سنة 1923 كان عمر سغاسطا سبعة وخمسين عاما، وحسب ما علمناه، فقد توفي قبل سنة 1961. وبخصوص خيمنس خيرون، فقد عرفنا فقط تاريخ ميلاده (1890)[133]، لكن تاريخ ومسيرة تلك التقارير لم تنته هنا.

ديكتاتور منشغل بالمحاكمات التاريخية

بعد ان استقرت الأوضاع نسبيا بالبلاد، قام سغاسطا بإرجاع محاضر بيكاسو إلى البرلمان. بيد أن جزءا مهما منها، كان قد وصل إلى هناك مسبقا على يد خصمه، الذي كان يعمل رئيسا للإدارة، وذلك سنة 1927.

اما عن الأعضاء النيابيين، والتجمع الوطني، فقد حدد مرسوم ملكي، اصدر سنة 1927 تحت رقم 1.567، هويتهم، وجاء في فصله الثاني، «مطالبة الغرف الجديدة بالنظر في السياسة العامة منذ مستهل شهر يوليوز 1909». وعن هذا النهج غير المعتاد، قال بريمو دي ريفيرا، «لا مجال للشك انه ابتداء من هذا التاريخ، ستعرف إسبانيا موجة من القلق والتمرد والصعوبات. وبما ان القيادات والحكومة حتما ستكونان متورطتين، فإن ضرورة فصل الخطأ عن الصواب ستطرح، والبحث عن مسؤوليات ترتبط بالأحزاب والهيئات التي اثرت في حياة الشعوب»[134].

وفيما بعد، صدرت تصريحات وجيهة وبناءة هذا نصها، «تجدر الإشارة إلى ان النصف الثاني من العام التاسع، والمواكب لما أطلق عليه الأسبوع الدموي -الذي لا حديث فيه عن إنجازات وكفاءة السلطات- وبداية الحملة في المغرب، وفصول اخرى، جاء ليزرع بذوز السوء التي اخمدتها ثورة 1923، والتي مازالت ظلالها تخيم ولو بصورة خفيفة. وهكذا، ارتأت الحكومة انه لصياغة حكم تاريخي معقول، ولتحديد المسؤوليات الملقاة على عاتق كل من النظام والأشخاص الذين كانوا آنذاك طرفا في صنع القرارات، يستحب الشروع الآن في عمليات التحليل والتمحيص للإصلاح الاجتماعي، الذي لن ينبني سوى على أسس ترتكز على الفهم العميق للأحداث وإلقاء الضوء على تصرفات صناع كل القضايا»[135].

كان بريمو دي ريفيرا يمجد فكرة التمرد والثورة التي يعتز بهما، وهو يوصي بتصفح كل الوثائق الخاصة بالمغرب. علاوة على ذلك، كان يريد من التجمع الوطني أن يقوم بمهامه على مراحل متتابعة، وبانتهائها، أوكلت من جديد تبعات هذا الملف للحكومة.

وهكذا عادت الصورة الحقيقية لبريمو دي ريفيرا -الذي عرفناه سنة 1917. وبدا في نفس الوقت، وكأنه ذلك الدكتاتور المنشغل بضرورة تشكيل أحكام تاريخية. كان هلوعا ولكن محقا، وفي هذا لم يجاريه -طيلة القرن XIX- أحد. فانشغالاته كانت نبيلة، لكنها ظلت خرساء.

وفيما بعد، تشكلت "لجنة" ثالثة مؤلفة هذه المرة من أحد عشر عضوا: ألوي Allué، بوين Buen، بورون Burón، فرنانديث Fernández، سانتيث بويرطا Sánchez Puerta، غارسيا غويينا García Goyena، يانوس Llanos، بلاثيو فالدس Palacio Valdés، برمتين Permatín، بيرلطا Peralta وطرييو Trillo، يتراسهم آنخيل غاسو إي فيدال Ángel Gassó y Vidal. ويوم الثاني والعشرين من نونبر 1927، افتتحت هذه اللجنة أولى جلساتها التي انتهت بالفشل، لأن غالبية الأوراق المطلوبة كانت "أوراقا سرية"، سحبها الوزراء مسبقا من الوزارات. فاعتبر هذا التصرف "تعسفا" -وهذا ما أورده يانوس في محضر جلسة السابع والعشرين من يونيو 1928. وهكذا، بدأت اللجنة تلفظ أنفاسها الأخيرة يوما بعد يوم -فآخر اجتماع لها كان يوم الثالث والعشرين من مارس 1929-، إلى أن اضمحلت بشكل نهائي، وذهب معها التجمع الوطني. وقبل أن يسحب سغاسطا الوثائق فيعيد جزءا منها سنة 1931، كانت هناك بادرة أخرى، تمثلت في شخص بريمو سنة 1927، الذي قام بجمع الوثائق الموجودة داخل البرلمان -ولربما أضيفت إليها المستندات المصنفة في أرشيفات المجلس الأعلى للحرب والبحرية- واستثنيت من هذه العمليات ملفات الإقامة العامة (التي كان سغاسطا قد أخذها، فلم يعثر لها على أثر). وفي ظل غياب بحث هادف وموضوعي عن المستندات التابعة في رفوف أرشيفات البرلمان، تبقى عروض بيكاسو وتقاريره هي المرجع الوحيد. وقد رتبت في أوراق من الرقم الفين ومائة واثنين وسبعين إلى الفين وأربعمائة وسبعة عشر، وضمت خمسين تصريحا، بدء من الكولونيل ريكيلمي، ووصولا إلى القنصل الإسباني باكوسدا. علاوة على مصادر النيابة العامة، مع آنخيل رومانونيس Ángel Romanos، والتي تعتبر تحفة ثمينة.

بريمو دي ريفيرا، وأفول الألفونصية

يوم الرابع من يوليوز 1924، قام ألفونصو الثالث عشر بفعل حجب تطلعاته العادلة التي جبل عليها. يتعلق الأمر بالعفو الذي أصدره في ذلك التاريخ، والذي اتخذ شكل مرسوم ملكي. ففي إصراره على إنقاذ الزعماء العسكريين المتورطين في بعض القضايا، ظهر مفهوم رفع *العقوبات* الذي ألحق به ضررا كبيرا. وبعد العفو عن كفلكانتي ونفارو (ما بين فبراير ويونيو 1924)، أصدر ألفونصو الثالث عشر عفوا آخر في حق أراوخو، برنكر،

لاكنال، وطويرو، وذلك بعد مرور شهر. وبنفس الحماسة والاندفاع، صدر عفو آخر في حق كل من ميغيل دي اونامونو Míguel de Unamuno، ورودريغو سوريانو Rodrigo Soríano، وقد عُرف عن الاثنين انهما كانا جمهوريين واعداء للنظام. وتلك كانت مصادفات ومفارقات مؤسفة.

وافق الفونصو الثالث عشر على المقترحات الديكتاتورية التي تقدم بها بريمو دي ريفيرا. كان يأمل في ان يجد النظام الجديد حلولا للأزمات الأهلية التي تسببت فيها الحرب الإفريقية، وان يقوّم اعوجاج وفساد الإدارة، وان يتصدى لمأساة نظام حكومته. وإلى هذه العناصر الثلاثة، تنضاف الرغبة في السيطرة بالقوة على الريف وجبالة. وبشجاعة وتبصر قويين، قضى بريمو دي ريفيرا على حماقات تلك القوات المسلحة - التي كان يقدر عددها بمائة وثمانين الف رجل، موزعين على خمسمائة موقع عسكري- فاصدر اوامره بالانسحاب الكامل من (شفشاون) سنة 1924، كما أعد هجوما آخر انتصر فيه على الحسيمة سنة 1925. وجد بريمو دي ريفيرا نفسه لوحده في هذه المهمة، إذ لم يساعده الملك، الذي لم يشأ ان يكون في مقدمة الأحداث السياسية والعسكرية. وكان على بريمو ان يواجه جيشا سئم من تكاليف الحياة، وتنكر لفكرة المناورات مع فرانكو فاريلا Franco Varela، لكن بريمو هو من ساقهم إلى ابواب الانتصار. ولولا انه انسحب من الساحة السياسية بعد السلام الذي حققه يوم العاشر من يوليوز 1927 في باب تازة، لصار بريمو دي ريفيرا رمزا من رموز تحرير الشعب الإسباني.

وبدافع من حدته التي تخلو من النفاق والرياء، طلب بريمو دي ريفيرا من القواد المعنيين يومي السادس والعشرين والسابع والعشرين من يناير 1930، تجديد العهد في وثيقة غير رسمية، دون ان يعلم الملك. فاعتذر زملاؤه الذين أصيبوا بالدهشة، فتدخل الفونصو الثالث عشر، بكل برودة فاقاله من منصبه. والنتيجة، تكشفت للعيان حكومة الأخطاء التي يترأسها برنكر. وبظهور محاولة خاكا Jaca، تأسيس جمهورية يوم الثاني عشر والرابع عشر من دجنبر 1930، لم يشأ الفونصو الثالث عشر، ان يصدر عفوا في حق الزعماء المتمردين، وتلك كانت نصيحة جوفاء من برنكر. فلقد تناسى الاثنان العفو الذي اعطته السيدة ماريا كريستينا إلى كل من الجنرال فيكامبا Villacamba، واتباعه

الذين ثاروا بسبب الجمهورية سنة 1886. وكانت النتيجة، أن انفصل الجيش عن الملك، وكره الشعب نظام الملكية.

تقبل الفونصو الثالث عشر نتائج انتخابات البلدية، وتألم لازدراء واحتقار رعاياه له. لكن رفضه استعمال القوة للبقاء في الحكم يوم الثلاثاء الرابع عشر من ابريل 1931 بمدريد، جر عليه احترام الشعب، لقد حمله هذا التصرف إلى ارتقاء في سلم العظمة والحقيقة العسكرية، فقد كان لوبيث بوثاس López Pozas، وكبلكانتي، بمساعدة من لاثيربا، هم من حاولوا الحفاظ على الألفونصية باستعمال السلاح. ولا احد من القادة العسكريين، شاء أن يكون الذراع القوي للملك.

وبالنظر إلى تدخلاته العديدة في عالم السياسة، كان الأولى بالفونصو الثالث عشر، أن يتدخل لفك النزاع الناشب في المغرب. هذا الموضوع، كان هو رحى المحادثات طيلة مدة حكمه. ولو انه سنة 1923، بعد عودة الأسرى إلى أوطانهم، وضع حدا للمشكلة باتباع نصائح كل من كامبو وماورا، لكان الأمر قد انتهى، ولذاعت شهرته في سائر أرجاء إسبانيا، بثقته في عرشه الذي كان سيحافظ عليه إلى آخر يوم وفاته. أما الآن، وبعد أن تفككت مجالس الدفاع، فمن المستبعد ان يتجرأ الجيش على التراجع عن مواقفه.

ولم ينقسم هذا الجيش، الذي عاد من المغرب بموجب أمر من الملك، بدء من العاشر من غشت 1932 (مع الانقلاب الفاشل لسان خورخو)، ولم يدافع عن شرعية الجمهورية من أساليب القمع باستورياس 1934، كما انه لم يتوان في أداء واجباته المتمثلة في حماية النظام الدستوري الشرعي (1936).

هوامش الفصل السابع

1) الوثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 303-304.

2) البيانات...(محاكمة برنكر)، ص. 142.

3) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "رسالة من لاثيريا إلى بيكاسو" بتاريخ 24 غشت 1921 -ولربما بعثها من مدريد قبل انصرافه إلى مليلية.

4) المصدر نفسه والصفحة نفسها، رسالة من بيكاسو إلى لاثيريا بتاريخ، مليلية 31 غشت 1921.

5) المصدر نفسه، ص. 5.

6) رسالة من لاثيريا إلى بيكاسو، 01/09/1921.

7) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، في يونيو 1997، وقت مباشرته لعمله، أو في مقر عمله بغرناطة حيث كان يتقلد منصب رئيس هيئة أركان الحرب. كان هذا الجنرال شغوفا إلى حد كبير بالجياد.

8) الحديث عن الاستحقاقات لمنح بيكاسو وسام الشرف (نجمة سان فرناندو) -ليوم 26 يناير 1894- المعرض العسكري الحديث، 1980، الجزء VI، ص. 46 و47.

9) هذا هو التصريح النهائي لحفيد الجنرال، واتفاق عائلته على جملة من الذكريات التي لازالت الذاكرة تختزنها. محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو في يونيو 1997.

10) أدالبرطو بيكاسو المتزوج من ماريا روسا لوبيث كان له ولدان ماريا روسا (المزدادة عام 1922) وخوان كارلوس (المزداد سنة 1924) وهو الحفيد الوحيد للجنرال الذي مايزال حيا. لكن نيسطور بيكاسو فيسنتي هو من تابع المسيرة العسكرية، إلى أن وصل إلى درجة كولونيل المهندسين. توفي عام 1974.

11) صحيفة *ا-ب-سي*، ليوم الأربعاء 17/08/1921.

12) المصدر نفسه، الثلاثاء 23/08/1921.

13) صحيفة *الليبرال*، نشرة الجمعة 12/08/1921.

14) المصدر نفسه، الأحد 21/08/1921.

15) صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 12/08/1921.

16) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 12/08/1921.

17) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 23/08/1921.

18) صحيفة *الصول*، نشرة الأربعاء 13/09/1921.

19) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 19/08/1921.

20) تلك المدن هي: أستورياس، بدخوص، برشلونة، سيوداد ريال، كوينكا، غرناطة، أويلفا، جيان، لوغرونيو، مدريد، مالقة، سلمنكا، سانطندير، طينيريفي، طيرويل، بلد الوليد، سامورا. جاء هذا في صحيفة *ا-ب-سي*، عدد الاحد 09 أكتوبر 1921.

21) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 20/10/1921، ص. 3.684.

22) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 24/08/1921.

23) المصدر نفسه، نشرة 19/08/1921.

24) المصدر نفسه، نشرة الخميس 29/09/1921.

25) مشتكى به من لدن إندالسيو بريطو أثناء النقاش حول موضوع تحديد المسؤوليات -مذكرة الجلسات البرلمانية- جلسة 27/10/1921، ص. 3824.

26) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 19/08/1921.

(27) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 24/08/1921.

28) (ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا)، العدد 5/442، رسالة من ميري دي فال إلى غونثالس أونطوريا بتاريخ، 18 غشت 1921، لندن.

29) المصدر نفسه.

30) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/360. رسالة من مانويل غونثالس أونطوريا إلى سير إسمي هووارد بتاريخ 27/11/1921، مدريد.

31) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 3/364 محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا جرت يوم 8/02/1922 على الساعة الثامنة وخمسة وأربعين دقيقة.

32) صحيفة *الصول*، نشرة الخميس 8/12/1921.

33) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 5/442.

34) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 حوار تلغرافي بين لاثيريا وبرنكر جرى يوم 20/08/1921 على الساعة الثامنة والنصف.

35) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 12.

36) صحيفة الصول، نشرة الأربعاء 13/09/1921.

37) مير بيرلنغا، فرانثيسكو، *الموجز في تاريخ مليلية*، تم طبع الكتاب من طرف كاتبه برعاية اللجنة المائوية الخامسة. مليلية 1996، ص. 21.

38) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الخميس 08/09/1921.

39) بورامس، طوماس، مطاردة المدافع. الصورة الخامسة، نشر في صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 16/09/1921.

40) الوثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 559-564.

41) صحيفة *الصول*، نشرة السبت 01/10/1921.

42) عن الحادث وآثاره الشعبية تحدث بوراص. في صحيفة *الصول* - في سلسلته المعنونة بـ"*صور القصف*" في نشرة الأحد 2/10/1921.

43) برنكر، د، المصدر السابق نفسه، ص. 249-251.

44) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9/442 محادثة هاتفية جمعت إيزا وبرنكر يومه 30/07/1921. على الساعة الثامنة والنصف.

45) الشكوك جاءت من نائب برلماني آخر كان حاضرا بالهيئة التشريعية لسنة 1921. ويدعى انطونيو غاراي فيطوريا. مهنته "مالك" وتم اختياره عن طريق مقاطعة الكانطرا بـ (كاثيريث).

46) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21/10/1921، ص. 3701.

47) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21/10/1921، ص. 3702.

48) المصدر نفسه، ص. 3.684.

49) مايتسو، راميرو، "*جنود الكووطا بإفريقيا*" في جريدة *الصول*، نشرة الخميس 13/10/1921.

50) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 364 محادثة تلغرافية جمعت لاثيريا ببرنكر يومه 17/08/1921. على الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة.

51) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة 20/10/1921، ص. 3.684.

52) صحيفة *الصول*، نشرة الأحد 25/09/1921.

53) صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 14/10/1921، وصحيفة *ا-ب-سي* في نشرتها ليوم الأحد 17 غشت.

54) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 9/442، محادثة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 29/07/1921 على الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة.

55) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 1/364، محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا يوم 15/08/1921.

56) رتبة قبطان، رامون غارسيا بلانكو، ومانويل مورالس الونصو، رتبة تلينتي، رامون شنشيا أورانطيس، وبوليكاربو مورسيانو غوميس، ورفائيل بريث سولر، رتبة ملازم ثان كان هناك إسحاق لوبيث غالان، وخوليو سولا فونط، في، *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث، ص. 205، وكذا في السجل العسكري السنوي 1921.

57) الإقامة العامة الإسبانية بالمغرب. قوات التدخل السريع، الأوامر العامة لـ 9 أكتوبر 1922 حول الحكم المنافي لمنح الوسام الشرفي للقائد إمليانو برناشرا مولفيدرو الذي توفي في الحادث، وكان الجواب بالنفي بعلة عدم توفر كل الدلائل.

58) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 1/364 في محادثة هاتفية بين لاثيريا وبرنكر بتاريخ 31/08/1921 على الساعة 21:00.

59) فرق *المتطوعين الإسبان، 50 عاما من التاريخ*. المصدر السابق نفسه، الجزء الأول، الصفحات 128 و134.

(60) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، م- 148 وأرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا المجموعة 1/364، محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا بتاريخ 31/08/1921.

61) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 20/10/1921، ص. 698.3

62) صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

63) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 13/09/1921.

64) "*الفكر السياسي لبرنكر*"، مقال كتبه طوماس بوراس في صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 06/09/1921.

65) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد ب-986، جرح بنيا على إثر انفجار عبوتين ناسفتين أطلقهما الريفيون بعيادة أعرويت، حينما كان بنيا يسهر على تقديم الإسعاف للمرضى.

66) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 17/08/1921.

67) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 111.

68) صحيفة *الصول*، نشرة السبت 01/10/1921.

69) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 27/09/1921.

70) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد1/364، بلاغ تلغرافي أعاد برنكر إرساله إلى لاثيريا يومه 23/09/1921 على الساعة 21:00.

71) صحيفة *الصول*. نشرة 01/10/1921.

72) *تاريخ الحملات*...، الجزء الثالث، الصفحات: 494-495.

73) صحيفة *ا-ب-سي*. نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

74) صحيفة *ا-ب-سي*، عمود في نشرة 17/08/1921.

75) "جزر الأموات". مقال في جريدة *الصول* نشرة 20/10/1921.

76) تلقت القوات العسكرية (وساما جماعيا) عبارة عن رباط العنق، سان فرناندو، في حين تلقى القائد الذي كان آنذاك كومُنْدان. نجمة شخصية.

77) حكاية كوروشانو لـ صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 02/10/1921.

78) *تاريخ الحملات*... المصدر السابق نفسه، ص. 504-502.

79) تلقى الجندي بيدرو غوتيرس دي دييغو الذي كان مايزال في فترة التدريب وسام الشرف، وكذلك لويس فوريو موريو (بعد وفاته) المعرض العسكري... الجزء السادس، نفس المصدر السابق، ص. 334-335.

80) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد: ا-2057.

81) صحيفة *الصول*، 16/09/1921.

82) صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

83) *إيرالدو دي مدريد*، الأربعاء 16/09/1925.

84) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محادثة هاتفية جمعت برنكر بلاثيريا يوم 20/08/1921 على الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة مساء.

85) المرجع نفسه، العدد 5/442، مذكرة من 7 صفحات، كتبها ماورا بنفس المصدر ورقنها سكرتيريه، بتاريخ 26/09/1921.

86) إرنانديث مير، ف، *من الكارثة*... نفس المصدر السابق. ص. 68.

87) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا بتاريخ 02/10/1921، على الساعة 22:15.

88) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 27/10/1921. ص. 3.835.

89) انغوليطي دي كاردناس، إغناثيو، *دوقة النصر*، دار النشر الطاميرا. مدريد 1958، وقد تم الاحتفال فيما بعد بكارمن انغوليطي، في حفل حضرته العديد من الشخصيات السياسية، من بينهم بابلو إغليسياس الذي صرح بهذه العبارات "رغم كوني من المعادين للحرب، فانا هنا لتكريم هذه السيدة التي ابانت عن عزة نفس عالية وتواضع عظيم".

90) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27/10/1921.

91) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محاضرة 02 اكتوبر 1921.

92) المصدر نفسه.

93) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364، محادثة تلغرافية جمعت الفونصو الثالث عشر بـ لاثيريا يوم 10/10/1921 على الساعة السابعة مساء.

94) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 12/10/1921.

95) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /364 محادثة تلغرافية 10 اكتوبر.

96) *تاريخ الحملات... الجزء الثالث*، ص. 512.

97) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 19/10/1921.

98) مارتينس دي كامبوس، ارسنيو، مليلية 1921. منشورات بلدة لامانشا، ثيوداد ريال، ص. 258.

99) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /364.

100) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 20 اكتوبر 1921، ص. 3677.

101) المصدر نفسه، ص. 3.680.

102) المصدر نفسه، ص. 3.685.

103) المصدر نفسه، ص. 3682 - 3686 - 3687، نظن أن هذه المداخلة كانت لميغيل فيانوفا غوميس (1852-1931)، إذ كان هناك نائب برلماني آخر في صفوف الديموقراطيين ويدعى البرطو فيانوفا لابايين. وتجدر الإشارة إلى أن ميغيل فيانوفا كان وزيرا عدة مرات - في حكومة كل من مونطيرو ريوس- كنالخاس- رومانونيس - غارسيا بريطو. وكان معارضا، يعارض بشدة ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا.

104) المصدر نفسه، 21/10/1921، ص. 3721-3723.

105) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 2/362 محادثة هاتفية جمعت بين برنكر ولاثيريا من تطوان. 25/10/1921.

106) نفس المصدر، 21/10/1921، ص. 3.697.

107) نفس المصدر، ص. 3.698 وفي صحيفة *الليبرال* في نشرة 10 شتنبر1921 تم التطرق كذلك إلى هذه الأحداث.

108) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9/442، حديث برنكر مع إيزا يوم 30/07/1921 على الساعة 13:05.

109) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 19/08/1921.

110) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، مسودة رسالة الجنرال بيكاسو إلى دوقة إرناشولوس، مليلية 04/11/1921.

111) محادثات مع دومينكز يوسا. يوليوز 1998.

112) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 26/10/1921 وصحيفة *الصول* يوم 25 اكتوبر1921.

113) صحيفة الصول في عددها ليوم الأحد 30/10/1921.

114) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 28/10/1921.

115) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 08/11/1921، ص. 4014.

116) فرنانديث أوكسيا، خوصي رامون، *مذكرات المغرب، بعد هزيمة انوال*، منشورات سوطيلو بلانكو. برشلونة 1985، ص. 23-62-64.

117) غونثالس كبايرون فراي البرطو، *الرهبان التابعون للطريقة الكابوشية في شبه الجزيرة الإيبيرية، 400 عام من التاريخ (1578-1978)*. منشورات، المحاضرة الإيبيرية للكبوشيين. إشبيلية. 1985، ص. 303.

118) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21 اكتوبر، ص. 3705-3706.

119) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 2/364 محادثة بين كبلكانتي ولاثيريا على الساعة التاسعة من يوم 25/10/1921.

120) المصدر نفسه، اتصال هاتفي بين برنكر ولاثيريا يوم 25/10/1921 على الساعة التاسعة وثمانية عشر دقيقة.

121) المصدر نفسه ، اتصال هاتفي بين لاثيريا والفونصو XIII يوم 29-12-1921 على الساعة السادسة وخمسين دقيقة.

122) نفس المصدر، ص. 3821. اكد بريطو ،ان المورو اقلعي كانت بحوزته تذكرة الإذن بالمرور التي خولها له الجنرال مارينا. وبأمر من سيلفستري لقي هذا الرجل حتفه عند احد المواقع الأمامية (كويستا كولورادا) التي كان يجتازها،.

123) بيان الترقيات الذي نقله برنكر إلى لاثيريا في اتصال هاتفي جمعهما يوم 24/10/1921 (أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا) العدد 4/362 وفي اليوم الموالي نشر هذا البلاغ في محاضرات البرلمان.

124) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27/10/1921 ص. 3823.

125) المصدر نفسه، ص. 3823.

126) بريث أورتيث إ، المصدر السابق نفسه، ص. 311.

127) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/360 رسالة من غونثاليث اونطوريا (وزير الدولة) إلى ماورا بتاريخ 30/10/1921.

128) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21/10/1921، ص. 3832.

129) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364.

130) (الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية) /(المصلحة التاريخية العسكرية)، القوات العسكرية في المغرب العدد 68.

131) مذكرة الجلسات البرلمانية، العدد 650.

132) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، رسالة من خوان كارلوس بيكاسو لوبيث إلى خوصي ماريا اريلسا بتاريخ 10 ماي 1981، مدريد. وتم التوسع في حكاية هذه الأحداث في غشت 1997.

133) محادثات مع خوان كارلوس لوبيث، اكتوبر 1997.

134) امر رئاسي مرسل إلى رئيس التجمع الوطني السيد (خوصي ماريا يانغوامس إي مسيا) مصدرها الهيئة العليا للسلطة التنفيذية لمجلس الوزراء بتاريخ 13 نونبر 1927 مدريد. وبتوقيع من ميغيل بريمو دي ريفيرا.

135) المصدر نفسه، الفقرة الثانية.

❖ ❖ ❖

خاتمة:

ما مصير كل أولئك الرجال؟

وفاة ماورا وشخصيات أخرى

عاش رؤساء الحكومة **أيندي سلاسار** Allende Salazar» و**ماورا** Maura» كوارث انوال واعرويت عن قرب، ووافتهم المنية قبل ان يشهدوا حل مشكل المغرب. وهكذا، توفي الأول سنة 1923، وبعد سنتين رحل الرجل الثاني.

بوصول **بريمو دي ريفيرا** إلى الحكم، عانى **ماورا** من عزلة شديدة، وابتعد كثيرا عن امور القصر. لكنه احتفظ بانتقاداته ومعارضاته، وإن جاءت منمقة وغير خالية من الصرامة. وبديلا لذلك، ولج عالم الرسم الذي افنى فيه بقية عمره. وذلك في منزل "البيكو"، الذي يعود لصاحبه الكونت دي لاس الميناس (خوصي ماريا دي بلاثيو إي اربوروا José María de Palacio y Arburúa)، في ضاحية طوريلونديس Torrelondres. فإلى هناك، توجه ماورا يوم الثالث عشر من دجنبر 1925، وكله استعداد للرسم، خاصة في ايام الآحاد. ومرة ترك أدواته في باحة القصر الصغير، وصعد إلى الطابق الأول ليجمع لوازمه، وبعد ذلك بقليل، اراد ان يستانف عمله في اللوحة المائية التي احضرها معه من مدريد، وكانت تحتاج إلى بعض التنقيحات، وبعض اللمسات الأخيرة. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف صباحا. حينما هم ماورا بالنزول من ادراج البيت رفقة الكونت، وفجاة امسك بذراع هذا الأخير بقوة. كان شاحب الوجه، فتمتم بكلمات «الميناس Almenas إنني لا ارى...»[1]. تقدم ماورا بخطوات، ثم هوى على الأرض بالقرب من مدخل الدار. فذهب ضحية نزيف في المخ.

اما الدوق إيزا، فقد انتهت حياته السياسية مع الدورة التشريعية لسنة 1922-1923. كانت حوادث انوال قد اثرت فيه بشكل كبير، وكان يظهر بقوة داخل البرلمان. كانت صورته اكثر من سيناتور بسيط او وزير دفاع مشدوه، او رجل ثقة بالنسبة للملكية. توفي عام 1945 بمدريد.

لم يكن "للاثيربا" مشاكل في الانتقال من النظام البرلماني إلى نظام الاستبداد والديكتاتورية، الذي ينهجه بريمو دي ريفيرا. فقد عاد إلى مهامه الحكومية في المجالس التنفيذية، وشغل منصبا داخل وزارة الدعم. وفي الساعة الحاسمة ليوم الثالث عشر والرابع عشر من ابريل 1931، دافع عن فكرة (كل شيء في سبيل كل شيء)، التي كانت تتناسب مع شخصيته. لكن الفونصو الثالث عشر، لم يعره اهتماما. وسنة 1938، وافته المنية بمدريد.

وفيما يخص الشخصيات الأخرى، كالبارس كامبو Álvarez Cambó، غارسيا بريطو García Prieto، رومانونس Romanones، وسانتيث غيرا، فقد كانت امامهم عند نهاية 1921 فرص سياسية هائلة ومأساوية في نفس الوقت (وتلك حالة السيد ميلكيادس Melquíades).

كان من جانب المسؤولين البرلمانيين الأكفاء -امثال الكلاثامورا Alcalá Zamora، بسطيرو Besteiro، كرسبو دي لارا Crespo de Lara، مارتينيث دي كامبوس Martínez de Campos بريطو، وسولانو- ان يتابعوا السير حتى نهاية النظام الذي افل نجمه سنة 1923، حتى وإن امتدت خسائره إلى الشعب إلى حدود 1936. كما كان بجوارهم كل من الفونصو الثالث عشر، بريمو دي ريفيرا، بورغيطي Burguete، فرانكو، وسان خورخو. وإليهم انضاف الإخوة عبد الكريم.

من برنكر وبيكاسو إلى خرافة بيغبيدر

باتت شمعة برنكر تنطفئ يوما بعد يوم، إلى ان اصبح حبيس عزلة تسببت فيها احداث 1930. ويوم الثامن والعشرين من يونيو 1923، رفعت ضده شكاية، وبعد شهرين، تعذرت امامه كل السبل واغلقت الأبواب. لكن برنكر لم يجب يوما على تحقيقات البرلمان، التي يعتبرها دوما هو واصدقاؤه الحميمين، مجرد تحقيقات تحضيرية لا تخلو من طابع سياسي.

وبإعلان الجمهورية الثانية، ولج برنكر سلك الاحتياط، وذلك في غشت 1931. كان عمره آنذاك ثمانية وخمسين عاما. وكان يتباهى برتبته كتليتني جنرال. وفيما بعد واجه

قضية ثالثة رُفعت ضده، بسبب الإجراءات التي كانت بـ جاكا Jaca. كان فرانكو واحدا من الشهود، وفي إحدى التصريحات التي أدلى بها يومي السابع عشر والثامن عشر من دجنبر 1931، ودون أن يتقدم لرئيس الحكومة السابق بكلمات مدح أو إطراء، أكد أن العدالة يجب أن تعطي الأولوية للجانب العسكري أكثر من الجانب المدني، خصوصا إذا كانت الجرائم تهم الطرف الأول. وذكر في جملة غريبة -ومتناقضة- أن العسكريين كانوا يتلقون السلاح من الشعب من "مخازن مقدسة"، فإذا أشهروا يوما السلاح في وجه هذه الأمة، وفي وجه الدولة التي زودتهم بالعدة والعتاد[2]، فإن تصرفهم سيكون جرما كبيرا. وسنة 1935، حكمت المحكمة العليا لصالح برنكر.

وسرعان ما نسيت البلاد برنكر، فوفاته جاءت في التاسع عشر من مايو 1953، ساعة الفجر. كانت العاصمة وقتها تعج بالاستقبالات الرسمية، التي نظمت على شرف رئيس جمهورية البرتغال، الجنرال كرفيرو لوبيث Craveiro Lopez، الذي كان يستعد للعودة إلى لشبونة في نفس اليوم الذي دفن فيه برنكر. من جهة أخرى، كان على رأس الموكب الجنائزي، فديريكو، أخ برنكر، وحضر نيابة عن فرانكو، وزيره لويس كررو بلانكو Luis Carrero Blanco. وحدث أن احتشد بالقرب من باب منزله -المتموقع بحي أطوتشا رقم 15- ما يناهز مائتي شخص، حضروا لتشييع الجنازة. ووصف هذا الحادث "بالبسيط والمؤثر"، وأوضح المؤرخ أن النعش كان بسيطا وجد متواضع[3]. ومساء الأربعاء التاسع عشر من مايو، تقدم الموكب الجنائزي واتجه صوب حي المنثاناريس، في طريقه إلى كنيسة سان لورينسو. وهناك عانق جثمان برنكر جثة بيكاسو.

رضي برنكر الذي تجند لأصعب مهمة عرفها تاريخ الجيش الإسباني، بتغير نظام الحكم، ولم يشأ بيكاسو أن يفعل مثل ما فعله أغيليرا Aguilera وويلر Weyler فيتآمر على الديكتاتور. ويوم الثالث والعشرين من غشت 1923، اتخذ مكانه بين صفوف جيش الاحتياط. كان عمره آنذاك، ستة وستين ربيعا، واستمر عضوا داخل المجلس الأعلى للحرب والبحرية، وأقحم نفسه في مرافعات برنكر ونفارو. كما أدلى بصوته الشخصي والمعارض لقضية إصدار العفو، الذي استفاد منه الكولونيل أراوخو. ويوم الثامن والعشرين من غشت 1925، انتقل إلى الفرق الاحتياطية الثانية برتبة تلينتي جنرال. كان التعب قد أنهكه، والمرارة قد اعتصرته.

لم يفاجئه خبر إعلان الجمهورية الثانية، بقدر ما افجعته نتائج الفوضى العارمة التي انتشرت في المجتمع الإسباني، بغض النظر عن المتمردين، سواء كانوا مدنيين او عسكريين. وعن انطباعات عائلته، فالشيء الوحيد الذي ظل عالقا بذهنه، هو صورة عودته ذات يوم إلى منزله بحي امنستيا، وقد بدت عليه علامات التعب والحزن والصمت، وهي اشياء غريبة عنه، وخصال لم تالفها العائلة. تاخر ذووه كثيرا، في معرفة سبب هذه الحالة. وكل ما في الأمر هو ان الجنرال، رأى في (لا بويرتا ديل صول) ضابطا شابا، يضرب بسوطه حذاءه وقبعته المائلة. كان رباط عنقه مفسوخا، وقميصه مفتوحا، وهندامه مهملا. وكان هذا الضابط يمشي الخيلاء وسط الناس[4]. واثرت هذه الصورة في نفسية بيكاسو، الذي بات ينظر بعين الأسى إلى الجيش المنحط، وإلى هذه الروح العسكرية التي باتت في الحضيض، كان واعيا من ان ثمة فاجعة اخرى ستحل بالبلاد.

لم يحمل النظام الجديد شيئا لصالح بيكاسو، ولم يفكر في طلب شيء. كان رجلا عادلا ومخلصا لمبادئه. ولكنه ظل نكرة وفريسة للنسيان. كان بيكاسو يعاني من مرض شل مناعته التي تدهورت منذ اعوام المستندات والتقارير (1921-1922). فقد كشف له الطب عن سرطان الحنجرة، الذي عجز عن مقاومته، وتوفي في مدريد يوم الجمعة الخامس من ابريل 1935. وجرت مراسيم الدفن في سرية تامة، لأن الجنرال سبق له وأن اعطى اوامر صارمة بعدم إخبار احد بوفاته، لكن الناس علموا بالنبأ، إثر نشر جريدة أ.ب.سي للنعي بعد يومين من الحادث[5]. وبعد مرور شهر، توفيت كذلك ماريا لوث فيثنط María Luz Vicent، التي ذهبت ضحية سرطان الثدي. واجتمع الزوجان في سان لورنسو، وهناك في فناء سان روكي رقد الاثنان للأبد. اما عن ايالا Ayala، الصديق الوفي لبيكاسو واغيليرا، فقد وافته المنية في الطافويا Altafulla بمنطقة كطالونيا، وذلك بعد إعلان الجمهورية بقليل في الثامن والعشرين من مايو 1931. كان عمره آنذاك ستة وستين عاما[6].

وبخصوص آنخيل روييث دي لافونتي Ángel Ruiz de la Fuente، الغرناطي الأصل، وسانتيث بويرطا Sánchez Puerta، الذي شغل سنة 1928 منصب مستشار القسم، فلا ندري شيئا عن ايامهما الأخيرة. فقط علمنا ان سانتيث وعمره آنذاك تسعة واربعين سنة[7]، كان واحدا من الضباط الذين يثق بهم كثيرا السيد خوردانا، زمن اشتغاله بالإقامة العامة بتطوان. علاوة على انه كان العنصر المهم في المرافعات الحقوقية للمجلس، والرجل الخبير بشؤون إفريقيا.

كان رومانونيس إي سانتا رومانا Romanones y Santa Romana، ينتمي إلى مدينة الباثيطي، ولد بها عام 1857. وفي سنة 1881، نال الجائزة الشرفية للإجازة من كلية الحقوق بثاراغوثا. واشتغل بكوبا خلال أيام الحرب الأخيرة (1895-1898). وفي سنة 1911، ترقى إلى أعلى الدرجات الممكنة، حيث وصل إلى درجة مستشار حقوقي للجيش، ومستشار للحربية والبحرية سنة 1921. كانت نظرياته حول الموارد المالية، المبنية على أسس صلبة ومثيرة كذلك، من أولويات ملفات بيكاسو، ووثيقة قضائية منقطعة النظير. خاصة، وأنها استندت إلى كل ما جاء في محاضر برنكر. وافت المنية رومانونيس في مدريد، وذلك يوم العاشر من ابريل 1923[8]. وعن مساعدين آخرين لبيكاسو كخوان مارتينيث دي لا فيكا Juan martínez de la Vega، فلم نعثر على معلومات ذات أهمية.

أما عن أغيليرا، فبعد دسائس واحتيالات متواصلة من أجل ملف برنكر، أعرب عن رغبة في الإطاحة بنظام بريمو دي ريفيرا، رغم أنف هذا الأخير. ففشلت كل محاولاته، وتنصل من كل شيء، فوافته المنية عام 1931.

توفي ويلر الذي ظل منسجما مع نفسه حتى النهاية -يدافع عن النظام الدستوري ويندد بالخروقات العسكرية- في مدريد سنة (1931)، عن سن تناهز الثانية والتسعين عاما.

ترقى خوان بيغبيدر أطينثا Juan Beigbeder Atienza، إلى درجة كولونيل، وتم تعيينه سنة 1937 بتاريخ الثالث عشر من مارس مقيما عاما، وفيما بعد، تم تعويضه بأسنسيو كبانياس Asensio Cabanillas، الذي كان واحدا من المراقبين في أنوال. وفي غشت 1939، تحول إلى أكبر شخصية تشارك في تجنيد الفرق -الريفية- الجبلية- التي ستوظف لصالح فرانكو. هكذا، قطع أحفاد طارق بن زياد المضيق من جديد، كانوا جنودا لا يشق لهم غبار. وصل عددهم إلى اثنين وستين ألف رجل، فخاضوا غمار الحرب فقاتلوا وقُتلوا. وعن عدد الجرحى الذين سقطوا في صفوفهم، تحدث سلاس لاراثبال Salas Larrazábal، عن خمس وثلاثين ألف رجل. أما فيما يخص القتلى، فالعدد كان هو سبعة آلاف[9]، وبعد أن أنهى بيغبيدر مهامه كوزير للشؤون الخارجية في أكتوبر 1940، ظل نظام فرانكو محط شكوك واتهامات، وذلك لما عُرف عنه من تضامن وإعجاب بالإنجليز. وفي سنة 1948، تم رد الاعتبار إليه، فتوفي في مدريد سنة 1957، عن سن تناهز التاسعة والستين عاما، مخلفا وراءه مقالات مذهلة عن زحداث أنوال.

جاء ذلك يوم الرابع والعشرين من غشت 1921، حينما بعث برنكر بأحسن مساعديه إلى مدريد، ليخبر الملك بمستجدات الأحداث. وما إن حل ببوابة القصر، حتى التفت حوله كوكبة من الصحفيين يريدون وجهة نظره. فعبر عن رأيه بهذه العبارات: «لقد انهارت الإقامة العامة بمليلية في ظرف ساعات، ولا أحد يستطيع أن يشرح كيف حصل ذلك. إنه منزل تصدعت كل دعائمه، فهوى على كل المتواجدين فيه. ولهذا، يصعب كثيرا الإشارة إلى شخص معين، ويصعب كذلك تحديد المسؤوليات»[10].

جنرالات الملك والجنرالات الحقيقيون

ترقى نفارو إلى رتبة جنرال على رأس فرقة عسكرية في يوليوز 1924، وكان على علاقة جيدة ببريمو دي ريفيرا، وكذلك بالفونصو الثالث عشر. وفي غشت 1926، وصل إلى درجة تلينتي جنرال. وما بين سنتي 1929-1931، أصبح قبطانا على الفرقة الأولى بمدريد. وبإعلان الجمهورية، تمت إحالته على الاحتياط.

سنة 1936، تم إلقاء القبض عليه، فسيق إلى سجن نموذجي بعد احتراق السجن الاعتيادي، وذلك يومه الثالث والعشرين من غشت 1936. ورغم كل الفوضى المتأججة، استطاع نفارو استعادة حريته.

وصل الجنرال إلى بيته وكله أمل في لقاء عائلته. بداية كان يرغب في الاغتسال، خصوصا بعد قضاء زهاء شهر من العذاب داخل زنزانته. وما أن خرج من الحمام، حتى ألقوا القبض عليه ثانية. وهذه المرة، أخذوه إلى براكوييوس ديل خراما Paracuellos del Jarama. وفي هذه الرحلة اصطحبه نجله، القبطان كارلوس نفارو مورينيس Carlos Navarro Morenés، الذي كان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين سنة. وبالقرب من براخاس Barajas، وعند إحدى المنحدرات قتلوه، في ساعة من ساعات الفجر المشؤوم ليوم السابع أو الثامن من نونبر 1936. وحضر هذه النهاية الفظيعة، إدواردو أراوخو سولر Eduardo Araújo Soler، الكومندان الشاب الذي تمكن من الهروب من فاجعة دار الكبداني[11]، وإن لم يسلم من كراهية الأعداء.

وبخصوص أغوستين لوكي إي كوكا Agustín Luque y Coca، الصديق الحميم لرومانونس، والخبير بأسرار نظام الفونصو، فقد توفي بهندايا Hendaya، التي كانت منتجعه المفضل، وذلك سنة 1937. كان عمره آنذاك، سبعة وثمانين سنة. ومنذ سنة 1898، كان يشغل منصب تلينتي جنرال.

اما مارينا Marina، صاحب المشادات الصحافية الصارخة مع **طوماس مايستري** Tomás Maestre، والعضو في مجلس الشيوخ، والكتدرائي البارز في الطب، فقد توفي سنة 1926، بعده بعشر سنوات، توفي مايستري عام 1936. وتعتبر مراسلات طوماس-رومانونس جد مهمة، إذ تساعد على فهم بعض الأخطاء، كما تسلط الضوء على جملة من الفرص التي ضيعتها إسبانيا الألفونصية عام 1913.

وبشكل متاخر، نال مارينا الوسام الشرفي -الذي كان يستحقه اكثر في كوبا- جاء ذلك بتزامن مع الذكرى الإجرامية لوفاة سيدي اقلعي. لكن الأيام شاءت ان يكتب هذا الوسام لشخصية شهيرة أخرى.

وبانتهاء شهر ابريل 1939، وقبل ان يتراس فرانكو العروض العسكرية لفرقته المظفرة، تم البحث في كل أرجاء العاصمة على نجمة شرفية، ليوشح بها صدر الجنرال، فلم يعثر لها على اثر ولا على اي صائغ يمكن ان يصوغها. وما إن علمت عائلة مارينا بالحادث، حتى وهبت النجمة الكبيرة التي كانت ملكا للجنرال المسن، والتي كان الملك الفونصو الثالث عشر يدفع نفقاتها. وبهذه النجمة، وشح فاريلا Varela، البذلة الرسمية لفرانكو الذي خرج في ذلك الموكب الصاخب في شوارع كسطيانا، في يوم ممطر[12].

سنة 1929، صعد فيدل دافيلا fidel Dávila، إلى رتبة بريغادير. كان رجلا وفيا للملك، وباعلان الجمهورية انضوى تحت لواء اثانيا Azaña، وانزوى في إقامته ببورغس. كان واحدا من المتآمرين النشطاء الذين احكموا قبضتهم على العاصمة، فور حدوث الانتفاضة الشعبية. وبعد وفاة مولا Mola، في حادثة جوية يوم الرابع من يوليوز 1937، خلفه دافيلا في رئاسة جيش الشمال. فكان الراس المدبر لمعركة الإبرو، التي وقعت في غشت ونونبر 1938، كما كان رئيسا لهيئة الأركان الحربية عام 1941، ووزيرا للجيش ما بين سنتي 1945-1949. وهكذا كافاه فرانكو بمنحه لقب مركيز. إلى كل ما ذكرناه آنفا، كان دافيلا مستشارا للحكومة. وفي سنة 1962، وافته المنية عن سن تناهز الرابعة والثمانين عاما.

كان ايثبورو وزيرا للحربية رفقة غارسيا بريطو، قبل الانقلاب العسكري لبريمو دي ريفيرا. بقي على هامش الأحداث، وحينما دعاه بريمو وكلفه بمهمة تسيير الإقامة العامة، وافق على الطلب وهو يدرك أن الاختيار كان نابعا من قناعته باحترافيته في العمل، لا بروابط الصداقة التي كانت تجمعه ببريمو. وفيما بعد، انسحب بصمت من كل المؤسسات الحكومية.

وباندلاع الحرب الأهلية عاش ايثبورو مواقف درامية وقف إزاءها مكتوف الأيدي. سنة 1936، كان عمره يناهز الثالثة والثمانين سنة، وقدرت له النجاة لوحده في الساعات الأولى من اندلاع الحرب، وذلك بفضل الصدى الطيب الذي خلفه حينما كان بالمغرب. وفور إلقاء القبض عليه، تعرف عليه واحد من جنود الميليشيا، فأخذه من ساعده بعطف وحنان، وقال له: «لا تنزعج سيدي الجنرال، فلن يصيبك مكروه»[13]. لكن المكروه طال من كان يعيش حوله، فتوفيت أخته كارمن ايثبورو موندخار جوعا، وذلك يوم التاسع والعشرين من يناير 1939 بمدريد. وبنفس السبب، توفيت إحدى بناته التي كانت تدعى **كارمن ايثبورو مارتين - بينيوس** Carmen Aizpuru Martín penillos، يوم التاسع من مارس. وبعد دخول قوات فرانكو إلى مدريد بثلاثة ايام، ويوم الواحد والثلاثين من مارس 1939، توفي ايثبورو بعد أن أصبح نحيفا لا يبالي البتة بما يدور حوله. فدفن في المودينا Almudena، تحت لوحة من الرخام رمادية اللون. هناك إذن، كان يرقد واحد من أذكى الجنرالات الإسبانية الذين كانوا بإفريقيا.

اما عن مورالس الساعد الأيمن لأيثبورو، وصاحب المواقف الساخنة التي جوبهت بتجاهل تام من طرف سيلفيستري. فقد ترك بصمة قوية في ذاكرة كل من عرفه. وفي يونيو 1923، اجريت محاكمته حيث انعقدت في حقه جلسات لاتخاذ القرار، وتدارس ما إذا كان يستحق وسام سان فرانثيسكو ام لا، وذلك لمواقفه الشجاعة بإيزومار. وبالطبع، كان يستحق هذا التوشيح، وإن كان من باب احترام مكانته ووضوحه. لكن النتائج الأخيرة التي عرضت يوم السابع من اكتوبر 1924، لم تكن في صالحه[14]. ورغم ذلك، ظلت ذاكرته حية. وبخصوص زوجته كارمن مورينو دي الكانطرا Carmen Moreno de Alcántara، فقد توفيت عام 1952. وبوفاة نجله غابريل -الذي كان جريئا وواضحا في كتاباته- بقيت عقيلته السيدة كارمن ارمايشي دي مورالس Carmen Ormaeche de Morales لوحدها تحافظ على الروح الأسطورية للكولونيل.

تمت ترقية ميغيل نونيوث دي برادو Míguel Nuñez de Prado -الذي كان يؤم فرق النظاميين في تلك المحاولة الفاشلة لتحرير إيغريبن- إلى درجة جنرال، ثم إلى مفتش الملاحة الجوية للجمهورية. ويوم السابع عشر من يوليوز 1936، لم يتردد في الطيران نحو ثاراغوثا، حيث كان زميله الإفريقي كبانياس، على رأس الفرقة الخامسة.

تمكن نيونيوث دي برادو، من النزول بأرض العاصمة الأرغونية والتحدث مع كبنياس. وبينما هو جالس بمكتب هذا الأخير، وصلته أنباء تفي بأن الثوار أتلفوا طائرته. وهكذا أصبح الرجوع إلى مدريد مستحيلا، وفي حضرة صديقه، ألقوا القبض عليه. وبعد اعتقاله بالسجن، لم نعرف عنه سوى النزر اليسير، إذ تم قَتْله رميا بالرصاص. وتجدر الإشارة إلى أن نيونيوث دي برادو، كان واحدا من المهتمين المثاليين بشؤون إفريقيا. وساعة وفاته، كان عمره يناهز الثالثة والخميس ربيعا. ويوم الثالث والعشرين من يوليوز، توجه كبانياس جوا نَحْو بورغوس ليتولى هناك رئاسة المجالس الحربية. كان يدرك أن سلطاته ستكون محدودة. لم تكن الاجتماعات والمجالس تستهوي كبانياس، الذي وُورِيَ الثرى سنة 1938.

ينحدر البرطو كاسترو خيرونا Alberto Castro Girona، بطل شفشاون لسنة 1920، من منطقة بونتا برينثيسا Punta princesa حيث ولد بالفيلبين عام 1875. كان يعاني من مشاكل عويصة في الوزارة والإقامة العامة أهمها: ما يتعلق بترقيته إلى جنرال، مع العلم أن مواقفه بالمغرب كانت تلقى صدى طيبا على مجال واسع، إذ عرف بـ"مورالس جبالة". وفيما بعد عرفنا أنه وصل إلى تلينتي جنرال عام 1930. وبخصوص سنة وفاته، لم نعثر لها على أثر في ملفاته الخاصة[15].

وصل خواكين فنخول Joaquín Fanjul، إلى جنرال قسم. وفي مدريد سنة 1936، انتفض ثائرا وهو يصيح بأعلى صوته: «فلتحيا إسبانيا، ولتحيا الجمهورية، وليحيا الجيش»[16]، فتحمل نتائج تصرفاته تلك. كان يرأس ألفي رجل، وما يقارب خمسمائة متطوع مقيم في الثكنات الجبلية. ولو أنه أمر بخروج هذه الحشود إلى الشارع في الساعات الأولى من الثامن عشر من يوليوز، لما آلت الأمور إلى ما آلت إليه. ومن يدر، فربما وقعت مجزرة كبيرة. وبما أنه كان عسكريا ومحاميا في نفس الوقت، فقد تولى مسؤولية الدفاع عن نفسه. فامتثل أمام هيئة المحكمة، وهو يرتدي جبته، لكن لجنة التحكيم لم تجد من خيار آخر. فالجريمة كانت واضحة، إنها محاولة لإشعال فتيل الفتنة العسكرية. فجاء الحكم بالإعدام رميا بالرصاص، وتلك كانت عقوبته التي سمعها ووقّع عليها يوم السادس عشر من غشت 1936، فشنق في الفجر الموالي في ساحة السجن، وكان رفقته الكولونيل فرنانديث كينطانا. وهكذا جاءت نهايته عن عمر يناهز السادسة والخمسين سنة.

أسماء أخرى ، ومواقف نهائية

كان مانويل المارشا غارسيا Manuel Almarcha García، من اكبر المدافعين الشجعان عن الناظور. يخرج لوحده للقتال ولمرات عديدة. وفي كل مرة، كان يواجه الريفيين وجها لوجه. ولأجل هذا، كان يستحق وسام الشرف، الذي حرم منه. فظل دائما في رتبة "حارس" متواضع. وجاءت حرب 1936، التي باغتته في مدريد، وهو يباشر عمله في معسكر الفنون الجميلة. فكانت مناسبة لترقيته إلى قائد عشرة، وذلك باختيار من أعضاء اللجنة المكونة للفريق الجمهوري. وكادت هذه الترقية أن تؤدي به إلى الموت، إذ حكم عليه في السابع من دجنبر 1939 باثنتي عشر سنة من السجن، وجاء القرار من داخل مجلس الحرب الذي انعقد باليكانطي. وهكذا، تم طرده من داخل المؤسسة، فأهدرت كل حقوقه. وحتى حدود سنة 1974، كان المارشا مايزال حيا، كان عمره آنذاك ثمانين عاما. وحدث أن طلب نجله سلفادور مراجعة المحاضر، وهذا من حقه، لكن طلبه جوبه بالرفض.

باندلاع ثورة فرانكو، كان ريكاردو فرنسو أورزايس Ricardo Fresno Urzaiz -هذا الضابط المغوار الذي أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن الناظور- متواجدا بالإقامة العامة للحرس المدني بمدينة بامبلونة Pamplona، ولمدة خمس عشرة سنة، لم يترق إلى درجة قبطان. وبما أنه كان وفيا للجمهورية، فقد تم اعتقاله، ليتمّ نقله إلى حصن سان كرستوبال، وهو المكان الذي لقي عنده العديد من النفاريين نهاية مهولة. ويوم السادس والعشرين من يوليوز 1936، ودون إصدار حكم مسبق في حقه، تم قتله وعمره خمسون سنة. هكذا، جاءت نهاية هذا البطل الشجاع من ليردا Lérida، وبالضبط كان ينحدر من مدينة طرومب Tremp. وبخصوص أرملته السيدة **خوصيفينا اليغريا ريزبال** Josefina Alegría Reizabal، فقد رضيت بالذل والهوان، وأعلنت مناصرتها للحركة الوطنية، بهدف حصولها سنة 1940 على معاش عقيلها المقتول[17]. وبالنسبة لباردو أغودين Pardo Agudín، فقد يئس من محاولاته الجنونية في سبيل الحصول على وسام كان يستحقه بعد دفاعه عن الناظور. هذا الدفاع الذي، استخف به برنكر كثيرا. فنال نجمة سان إرمينخيلدو San Hermenegildo، التي كان معاشها يقدر بستمائة بسيطة. وفي أكتوبر 1925، وافته المنية بمدريد[18].

تمت ترقية فرنانديث طماريت إلى رتبة كولونيل، وفي سنة 1922، كان بمايوركا على راس الجبهة المخصصة للتجنيد. وهناك علم من بيكاسو بتفاصيل المحاكمة التي اجريت في حق ارينثانا Arenzana، فتالم فرنانديث كثيرا لملابسات الموضوع، إذ إنه كان يراهن على الشرف، فعاودوا خداعه.

وفي رده على بيكاسو الذي بعثه إليه يوم الحادي عشر من يناير 1922، وبعد ان حذره، «انا لا اصنع الأبطال الذين يُعرضون هناك (اي بمليلية)»، وضمن خطابه رسالتين كانتا لأرينثانا، واوضح قائلا، «بالتفكير مليا في الموضوع، اردت معرفة ما إذا كان هذا التعس (ارينثانا) الذي يتصنع البطولة يريد الترقية». وبعد ان تطرق طماريت إلى صحته المنهوكة من جراء آلامه ومعاناته النفسية، انهى رسالته هكذا، «وبما ان كل شيء تشمئز منه نفسي، فسوف ارحل في اقرب وقت ممكن»[19]، والحالة اننا لم نعرف ماذا حل بهذا الرجل العظيم -الذي كانت مخططاته حول كيفية تطويق بني ورياغل هائلة- إذ لم نعثر بين مستنداته على ورقة خدماته ولا تاريخ وفاته[20].

وحسب رواية دومينكز يوسا فإن الكولونيل **سيلفريو اراوخو** Silverio Araújo، توفي عام 1931، وإن كان الأمر كذلك فعمره آنذاك كان خمسة وستين عاما. اما عن ملفه، فلم يعثر له على اثر في الأرشيفات العسكرية[21]. وعن **ساتوريو غارسيا إستيبان** Saturio García Esteban، فقد اقيمت دعوى ضده، وحكم عليه بالبراءة يوم الثالث عشر من اكتوبر 1924. فيما بعد، احيل على التقاعد سنة 1929. كانت له الجراة في طلب الترقية إلى درجة جنرال شرفي للفرقة، وهو منصب ناله في عهد الجمهورية الثانية التي لبت طلبه في دجنبر 1931، وعمره ستة وستون سنة[22]. آنذاك، كان يعيش بعيدا في منطقة **بورجسوط** Burjasot بفلنسيا.

بقي **ريكيلمي لوبيث إي باغو** Riquelme López Bago، بعيدا عن نظام بريمو دي ريفيرا، وخلال الحرب الأهلية الإسبانية ذاع صيته في البلاد، وهو يؤم العديد من الفرق العسكرية. في البداية كان يتصرف بحكمة، بيد ان تشابك المشاكل افقده صوابه. فتم نفيه إلى فرنسا. ويوم الثاني من شتنبر 1969[23]، منحه فرانكو درجة رئيس الجيش. توفي في باريس عام 1972، كان واحدا من خيرة الجيش الإسباني بإفريقيا.

اكد خوليو فورطيا غارسيا Julio Fortea García -القبطان الذي فقد الكلام من جراء الانفعالات والصدمة التي عاشها يوم الثاني والعشرين من يوليوز 1921- ان الخرس الذي أصابه، جاء نتيجة لحضوره ذلك المشهد الرهيب، ساعة تمزيق مورو بني ورياغل لجثة سيلفستري. وبعجزه عن الكلام، اهتدى فورطيا للكتابة. وبكلمات خطها بيده، روى المشهد المفجع الذي ذكرناه آنفا. وهذا ما جاء في نشرة صحيفة الليبرال[24]. لكن لم يرد في تصريحاته الرسمية سوى انه، وفور اقترابه من الفصائل العسكرية، حاول تفقد المواقع، وما إن رآها خاوية على عروشها، وان بعض منابرها سيطر عليها العدو، وهو يطلق الرصاص على الجنود المنسحبين، حتى أصيب بالانهيار العصبي الذي افقده الكلام بالمرة[25]. سنة 1952 توفي فورطيا عن سن تناهز الخامسة والستين سنة.

كاريو ومانثنيكي Carillo y Manzaneque، هذان الطياران الوفيان اللذان كانا يسهران على تموين أعرويت، كانت لهما نهاية تختلف الواحدة عن الأخرى. فكاريو مثلا، مكث في الخدمة لثلاث سنوات متتالية، وكانت نهايته في (جبالة) حيث سقط في دار شروط يوم الرابع والعشرين من شتنبر 1924 في محاولة حماسية لإنقاذ ذلك الموقع الإسباني المحاصر[26]. اما عن **لويس مانثنيكي فيلطرر** Luis Manzaneque Feltrer، فقد انسحب من الميدان بتاريخ 1952 برتبة قائد للجيش. وكانت وفاته في الرابع والعشرين من يوليوز 1971، عن سن تناهز التاسعة والسبعين سنة[27].

وصل **مانويل مارتينيث فيفانكو** Manuel Martinez Vivanco، الضابط الوحيد الذي بقي على قيد الحياة في مطار سلوان، إلى رتبة كولونيل عام 1952، ومن ثم، تم تعيينه حاكما على بالما دي مايوركا، حيث وافته المنية هناك سنة 1954 [28] عن سن تناهز الستين سنة.

وبخصوص **بريث أورتيث** Pérez Ortiz، الذي كان واحدا من خيرة القادة بانوال، والحاصل على ثمان نجمات كاستحقاقات حربية. كانت بدايته في الجيش سنة 1884 بواقا متطوعا، وكان صاحب دراسات عديدة حول فنون الرماية والمبارزة، الفها ما بين 1900-1903. وفي مارس 1922، جاءت ترقيته إلى رتبة كولونيل، وهو قابع في السجن. اعتزل الجيش سنة 1930، وحط رحاله بمدينة قادس. وفي ماي 1940، عاد إلى مليلية، ومن هناك قرر طلب تسوية وضعيته وذلك بالتماس منصب قائد الجيش. فجاء جواب الوزارة في اكتوبر 1941، تخبره أن قانون الرابع من نونبر 1931، المنظم لعمليات الترقية لم يدخل حيز التطبيق بعد[29]. وسنة 1941، كان عمره ستة وسبعين سنة.

وعن خمينس أرويو، فقد كان محط تهم عديدة، وحوكم بالسجن لمدة ستة أعوام ويوم واحد، وذلك لاقترافه جريمة التهاون والاستهتار في الحملات الحربية، فاعتقل في سجن الجزر الجعفرية. بيد أن زوجته السيدة **ماريا انطونيا اغيري اولوسغا** María Antonia Aguirro Olúzaga، أحسنت التصرف فور صدور المرسوم الملكي بالعفو ليوم الرابع من يوليوز 1924، فاستفاد أرويو يوم الثلاثين من غشت 1925 من عفو الفونصو الثالث عشر، لما تبقى له من سنوات السجن[30]. أما نحن فلا ندري تاريخ وفاته، وكل ما عرفناه أنه في زمن أنوال، كان عمره خمسة وخمسين سنة.

وبخصوص سانتيث مونخي، فقد تمت ترقيته إلى قائد جيش في يوليوز 1924. وبعد أربعة أعوام، انتقل إلى جيش الاحتياط. وما بين سنتي 1929-1930، تلألأ نجمه بسبب جملة من الخدمات التي قدمها لحزب الحمر[31]، بعد فراره من منطقة الجمهورية. ونحن لا نعرف أين ومتى وافته المنية.

وعن صديق أريناس في الدفاع عن تيزطوطن وهضبة أعرويت، القبطان المهندس **خسوس اغيري أورتيث** Jesús Aguirre y Ortiz، فقد علمنا أنه وصل إلى رتبة جنرال، وتوفي في الستينات. بعد إطلاق سراحه في أجدير سنة 1923 -حيث قام بأعمال مذهلة- كان عمره ثلاثا وثلاثين سنة.

تمكن **فاسكيث برنابو** Vásquez Bernabéu من نيل مكافأته، هذا الملازم الذي كان طبيبا لعبد الكريم، والمرشح لنيل الوسام مرتين. وذلك، اعتبارا لأعماله البطولية التي قدمها في السادس عشر من يونيو 1921، حيث دافع والمسدس بيده عنّ الجرحى عند لالوما دي لوس آربوليس. وسنة 1923، ترقى إلى درجة قبطان. ولد فاسكيث برنابو بالجزائر عام 1896، وترعرع في حضن عائلة من المعمرين الفرنسيين. وفور انتهاء حرب المغرب عام 1927، طلب اللجوء إلى مدينة فلنسية. وسنة 1934، تغلب عليه المرض وأصابه الاكتئاب من جراء وفاة زوجته ترينيداد فيدال Trinidad Vidal، وفاجأته الحرب الأهلية بمنتجع "باطيرنا"، حيث كان يقضي عطلته. وهناك، وبتاريخ قيد التحديد لصيف 1936، قتلته الميليشيات الجمهورية رميا بالرصاص.

كان **فيليب بنيا مارتينيث** Felipe Peña Martínez، المزداد ببونوس أيرس عام 1896، طبيبا مشهورا، اشتغل بابن طيب، وأعرب عن كفاءة جمة عند أسوار أعرويت. ورغم ذلك، لم يوشح صدره بالوسام الذي كان يستحقه، ولم يكن الحكم الذي تم النطق به في

فبراير 1927 لصالحه. وجاءت الحرب الأهلية، ففاجأته في منطقة الشمال حيث كان بصحبة الجيش الجمهوري. وفيما بعد، تم اعتقاله في ساطونيا. وسنة 1937، بدأت أولى المحاولات للنظر في وضعيته، لكن وأمام غياب المناصب أو انعدامها، انتقل إلى تقديم خدمات صحية في الصفوف الوطنية. كان يؤدي مهامه بإتقان إلى درجة أنه ترقى مرات عديدة، لكن انتماءه في الماضي لحزب الحمر، كان مصدر قلق دائم. وبعد انتهاء الحرب بأربعة عشرة سنة، أصدرت الأوامر بالبحث في قضية الملازم كولونيل بنيا. لم تكن النتائج سلبية. ففي إحدى البيانات التي أنجزتها رئاسة الكتائب يوم السادس والعشرين من شتنبر 1953، تم الاعتراف بسلوكاته الأخلاقية سواء مع العامة أو الخاصة. سلوكات كانت في غاية الكمال والنبل. كما أن الجيران أقرّوا بشخصيته الطيبة. أما عن علاقته بالسياسة فلم تكن مخيفة[32]. وسنة 1946، تزوج **بنيا** من **خوصيفا طيران بريدا** Josefa Terán Barreda، ولم يرزقا بأطفال. وفي أبريل 1954، شخصت له حالة شلل انضافت إليها صور واضحة من الجنون. فتم التعامل معه على أساس مَن أصيب بحادث عرضي، وصرفت له أجرة الكولونيل. عاش بنيا في كرسي متحرك، ونقلته عائلته إلى بلباو. وهناك وافته المنية في التاسع عشر من فبراير 1956.

وأغرب الحالات هي تلك التي سجلت مع إيميليو الزوغراي غويكوشيا Emilio Alzugaray Goicoechea النبري الأصل، إذ طالب المدعي العام بتطبيق عقوبة السجن المؤبد في حقه، وهكذا أصبح وجها لوجه أمام حُكمين. حكم أُصدر يوم الرابع عشر من أبريل 1923، وبموجبه حُكم بالسجن اثنا عشر عاما. أما العقوبة الثانية، فكانت حكما جاء يوم العشرين من أكتوبر الموالي، وتمثل في رفع مدة الحبس إلى عشرين عاما. فكانت هذه أقصى العقوبات التي أُصدرت بسبب أحداث أنوال. نتيجة لذلك، قرر الثوغراي الفرار.

أما محضره فقد تضمن العديد من التناقضات، إذ أكد ثلاثة من القضاة تعاقبوا على دراسة ملفه، أن الحل هو الإعدام، بالرغم من عدم تلمس جريمة معينة في سلوكاته. ولهذا طالب المدعي العام بتطبيق عقوبة الحبس بستة أشهر، ويوم واحد فقط. فانتفض الزوغراي لهذا القرار النهائي، وأشار بأصبع الاتهام إلى الإقامة العامة، التي اتهمها بالحقد عليه بسبب جملة من التحركات، التي كان يجريها لصالح المعتقلين من المهندسين المسلحين[33].

ويوم السابع من غشت 1923، انتهز الزوغراي فرصة زيارة زوجته بسجن ماريا كريستينا بمليلية، فارتدى ملابس مواطن عادي، واصطحبه بعض الأصدقاء، فخرج من الباب الرئيسية واختلط بزوار السجن[34]. اما زوجته فقد مكثت بالداخل، تتظاهر وكأنها في صحبة زوجها، وفور اكتشاف الحيلة كان الزوغراي يبحر في اتجاه وهران. ومن هناك، طالب بإعادة النظر في محاضره القضائية. لكن المحكمة العسكرية العليا اجابته يوم التاسع من دجنبر 1931 بالنفي.

سنة 1934، ومن موقعه دائما بوهران، التمس الزوغراي من السلطات المعنية طلب العفو بمقتضى الظهير الصادر في الرابع والعشرين من ابريل لنفس السنة. لكن دون جدوى، فقدم إلى الدار البيضاء عبر الطريق، مارا وبكل جراة من منطقة الحماية الإسبانية كما ذكر إمبرودا Imbroda [35]. وباندلاع الحرب الأهلية، عرض خدماته على الجمهورية، فنُصب على راس الفرقة العسكرية السابعة. وفي فبراير 1937، كان يتباهى برئاسة الفرقة الثانية للجيش، فاصبح يؤم ست عشرة فرقة، مجموع رجالها اربعة واربعون الفا ومائتان وتسعة عشر رجلا، وبرفقتهما كان يقطع الجبهة الدفاعية التي تمتد من منثاناريث Manzanares إلى خراما Jarama [36]، حيث سقط الزوغراي جريحا، فتم نقله إلى منطقة الوسط التابعة للجيش. وهناك، ضاعت كل السبل لمعرفة اخباره.

وكل ما عرفناه لاحقا، ان الزوغراي تمكن من اللجوء إلى فرنسا، وهناك انخرط في انشطة مذهلة ومثيرة للجدل. فحسب تقارير إمرودا اورتيث إي دومينكيز يوسا، انضم الزوغراي إلى حركة المقاومة. وفيما بعد، اشتغل بالمخابرات البريطانية. واثناء هذه المهمة الأخيرة، ابلى البلاء الحسن، إلا ان الألمان تمكنوا من نصب الشباك له، وإلقاء القبض عليه، ومن هناك نقلوه إلى باريس، حيث تعرض لألوان من التعذيب. وفي النهاية، صار جاسوسا للنازية. وفيما بعد ترقى إلى منصب قائد فرقة، تطارد الثوار. فتحول إلى الهدف الرئيسي الذي تسعى إليه المقاومة، فنُصب له كمين راح ضحيته إلى جانب العديد من الرفاق يوم الثاني من يناير 1944، بالقرب من نيزا[37].

واصل السيد **بيو فرنانديث موليرو** Pío Fernández Mulero، القائد الوحيد -الذي كان على راس فرقة الطيران في عهد سيلفستري- عملياته الجوية، واعرب عن شجاعة كبيرة. وحينما اوشكت الحرب على الانتهاء، اصابته رصاصة في ساقه لحظة قيادته مجموعة

القصف الجوي، التي كانت تحلق فوق جبل العلم. وفيما بعد، اخترق عيار ناري رأسه، فتوغلت الخرطوشة في جمجمته إلى أن خرجت من ثُقب احدثته في جبهته، وذلك يوم السابع عشر من يونيو1927. لكن فرنانديث موليرو، لم يسقط وقتها. بل استطاع رغم غيبوبته ضبط مقود الطائرة، إلى أن سلمها فيما بعد للمراقب وانهار داخل المقصورة. وبعد معاناة وأوجاع شديدة في رأسه، تمت ترقيته إلى تيلنتي كولونيل، ثم تعيينه عضوا شرفيا داخل الغرفة، ونُصب كذلك قائدا للقوات الجوية بالمغرب ما بين سنتي 1928-1930.

وبينما كان يصطاف بجسطي بمنطقة الباثيطي مسقط رأسه (1888)، باغتته الحرب الأهلية. فتم إلقاء القبض عليه. وأُفرج عنه يوم الثالث من اكتوبر 1936. كان الأمر خدعة ليس إلا، إذ في اليوم الموالي، أُخذ من الفندق الذي كان مقيما به، واحضر إلى مكان كان يعرف بالقنطرة القديمة على خط طريق الباثيطي، وهناك قتلوه، وتركوا جثته مرمية بالطريق. شاركت، في هذه الجريمة، عناصر عديدة من الطاقم الجوي للطيران[38]. فكان هناك الضباط وضباط الصف الذين كانوا على معرفة به خلال فترة قيادته الصعبة بسلوان.

وبخصوص التنينتي ثيفانطوس، فقد حوكم لارتكابه جريمة التهاون. إذ تم اعتبار قراره بالمجيء من الدريوش إلى مليلية[39]، عملا يتنافى مع مبادئه وروحه. وبعد هذه العقوبة التي استوفاها لسنتين (الثالث والعشرين من يوليوز 1923) في سجن ماريا كرسينا، تمكن من الترقية إلى درجة قبطان -وذلك اعتبارا لعامل الأقدمية- وتم ذلك قبل مغادرته الجيش. أما عن **مارتينيث فيفاس** Martínez Vivas، فقد تم التساهل معه واعتبروا أن تواجده بالطاقم التقني، كان عرضيا بموقع إيزومار[40]. وهكذا، ترقى إلى رتبة تيلنتي كولونيل. وبخصوص بيريث فالديفيا Pérez Valdivia، الذي كان ينظم عمليات المقاومة بإيزومار، فقد احتفظ بإطاره قبطانا سنة 1922. وانطلاقا من هذه السنة، اختفى اسمه من السجل العسكري السنوي.

وعن النائب **فرانثيسكو بسابو بيثيرا** Fransisco Basallo Becerra، هذه *الروح الطيبة* لأجدير، فقد توفي بثاراغوثا يوم التاسع عشر من ماي 1985، عن سن تناهز الثانية والتسعين سنة[41]. وهناك وُورِيَ جثمانه، وهو ابن قرطبة. كان هناك إجماع واتفاق

وطني عام فيما يخص أهليته وكفاءته. وبالرغم من استحقاقه الوسام عن جدارة، إلا انه حرمه. كان يعالج كلا من الإسبان والريفيين، وترك بصمة واضحة في كل أولئك الذين تعامل معهم.

اما عن التيلنتي **لويس كسادو إسكوديرو** Luís Casado Escuedero، هذا الشخص الذي بقي على قيد الحياة بعد أحداث إيغريبن، فقد ترقى بدوره إلى درجة قبطان بعد ان أطلق سراحه. وكان يحيى بمليلية حياة رتيبة، لكن يوم السابع عشر من يوليوز 1936، تم القبض عليه لميولاته وتعاطفه مع الجمهورية. وبعد مرور ستة أيام، أعدموه رميا بالرصاص عن سن تناهز التاسعة والثلاثين سنة.

وبخصوص **لويس رويداس ليديسما** Luís Ruedas Ledesma، فقد طلب العفو من سيلفستري بعد قتله لسيدي اقلعي، وانتقل إلى الخدمة الجوية برتبة كمندان. وهكذا، شارك في العديد من العمليات الحربية، والقي القبض عليه بإشبيلية، من لدن ميلشيات الجمهورية، وبعد نزاع ومشاداة قصيرة، أعدم على إثرها بتاريخ لا يزال قيد التحرير في يوليوز 1936، وعمره خمسة وأربعون سنة[42].

وعن الصحافيين الثلاثة الذين عاشوا زمن الحرب، **كروشانو** Corrochano، **لوبيرا** Lobera و**لويس ريندا** Luís Rienda، فتجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير، عاش مدة قصيرة، فهذا الغرناطي الوجيه والجريء على شاكلة سيلفستري، كان يكتب دائما في صحيفة الصول. وكان يدير جريدة العرائش المغربية، وبموازاة مع ذلك، كان يكتب الروايات والسيناريوهات السينمائية. وبعد تعرضه لحادثة سير بفلنسيا، انتقل إلى مدريد، بتوالي النكسات، لازم الفراش واحتضر لمدة خمسة أشهر، إلى أن وافته المنية يوم الخامس عشر من شتنبر 1928، عن سن تناهز الواحد والثلاثين سنة.

اما أسرته فقد عانت الكثير، خصوصا أيام الحرب الأهلية، حيث قامت عناصر من لافلانخي La Falange بمصادرة الصحيفة المغربية، مقابل كمية هزيلة من البسيطات. بالإضافة إلى ذلك، حرموا أرملة لويس من خمسمائة بسيطة كانت تتقاضاها كمعاش، تصرفه لها الإقامة العامة اعترافا بالاستحقاقات الكبيرة لزوجها[43]. فلويس ريندا كان ضابط صف في الجيوش النظامية[44] زمن سيلفستري بالعرائش. ومن هناك حصلنا على وثائقه التي تتحدث عن الريسوني وسيدي اقلعي، وثائق ثمينة لم يعلم أحد غيره بوجودها.

اما **غريغوريو كورشانو** Gregorio Corrochano، صاحب المقالات المذهلة حول الحرب، والقلم المتميز في جريدة أ-ب-سي، فقد توفي في مدريد يوم التاسع عشر من اكتوبر 1961. وتاريخ ميلاده هو 1882 بطلافرا دي لارينا.

وبخصوص كانديدو لوبيرا خيليرا Candido Lobero Gilera، مدير تلغراف الريف الشهير -وهي جريدة تم تأسيسها سنة 1902- وكمندان المدفعية، والشخصية المعروفة بمليلية. فقد توفي عام 1932، عن سن تناهز الستين عاما.

اصبحت **كارمن انغوليطي إي ميسا** Carmen angoleti y Mesa، دوقة فيكتوريا التي انقذت المئات من الرجال بغض النظر عن صفاتهم ومناصبهم، وانتشلتهم من براثن تلك الكارثة الصحية ايام الفونصو الثالث عشر، رئيسة لمنظمة الهلال الأحمر الإسباني. ويوم الرابع من نونبر سنة 1958، توفيت في مدريد عن سن تناهز اربعة وثمانين عاما. كانت بحق نموذجا مثاليا.

شخصيات، وروح المقاومة الريفية

ارسى إخوة عبد الكريم دعائم حكومة كان جل افرادها من المقاتلين، فخرجت للوجود الجمهورية الريفية التي صمدت لمدة خمس سنوات في وجه الاستعمار الألفونصي، الذي تكبد خسائر فادحة. ولم يسلم الطرف الريفي كذلك من كوارث دموية.

اثبتت الدراسات التي اجريت استنادا على بلاغات وسجلات العمليات الجوية منذ سنة 1922، والتي توجد ضمن المجموعة الوثائقية التي رتبها الكولونيل **إدواردو ألفاريث باريلا** Eduardo Álvarez Varela [45]، انه لولا تدخل القوات المتحالفة -تكتل القوتين الإسبانية من الشمال والفرنسية من الجنوب- لما تمكن النظام الألفونصي من تركيع الريف سنتي 1926-1927، او لربما تأخر هذا الانتصار بضع سنوات من الخسائر، راح ضحيتها مجموعة من ربابنة الطيران الإسباني، والعديد من الموتى الذين وصل عددهم إلى اربعة وثمانين ضابط صف، واربعين آخرين اصيبوا بجراح خطيرة. كما ضاعت مائة وواحد وثلاثين طائرة[46].

وفي إحدى عمليات حرب الاسترداد، تم إلقاء القبض على قدور نمار، فسيق إلى مليلية، وبالضبط إلى سجن رسطرو غوردو. ومن هناك، وردت انباء تفيد أن هذا

الريفي كان يتعامل بأنفة وازدراء مع السجانين، فلم يشأ الفرار مثلما فعل عبد الكريم، ورفض التفاوض على شاكلة أراوخو، واختار الموت جوعا. كان رجال الريف لا يرضون بأي نوع من أنواع الأسر، ولن يكون زعيم بني سعيد حالة خاصة. ويوم السابع عشر من غشت 1923، ووُرِيَ جثمانه الثرى في مقبرة سيدي ورياش[47].

توفي الحاج عبد القادر بن الطيب، الذي كانت تبجله مليلية، يوم الثامن من نونبر 1950 عن سن تناهز السادسة والثمانين عاما. فشيع جنازته ما يقارب ألفين من الجنود الإسبان. كما أن فرانكو أصدر أوامره بتكريم هذا الرجل الريفي العظيم، ومنحه شرف القائد العام[48]. وترأس هذا الاحتفال، الجنرال باريلا Varela، الذي كان مقيما عاما آنذاك.

ومن بين الألوف المحتشدة، كان هناك رجلان اثنان يرمزان لأحداث 1921-1926 زمن تعبئة المغرب لأبنائه، بهدف التصدي للمستعمر الإسباني. يتعلق الأمر بمحمد بن سعداوي، الذي أصبح لاحقا قائدا لفصيلة عسكرية، وعند نهاية الحرب، كانت تتلألأ على صدره الحبال الثلاثة الحمراء، رمزا لوصوله إلى درجة قائد. وفي الأحداث العصيبة بالحسيمة، فقد ثلاثة أفراد من عائلته، وسنة 1985، كان عمره يناهز الرابعة والثمانين سنة. ورغم ذلك، كان مايزال محتفظا بحيويته ورشاقته.

سنة 1921، كان الحاج ميمون القاسيمي، المنحدر من قبيلة بني أولشيك، يبلغ من العمر عشر سنوات، وكان يعمل رقاصا (ساعي البريد)، فيبلّغ الأوامر العسكرية، ويوزع الذخيرة والمؤن، ويعتني بالجرحى. وبحلول السلام، تسجل في لوائح خركة صديقة لإسبانيا. ومازال قدماء المحاربين الريفيين وجبالة يتذكرون أزيز الطائرات، وهي تحلق فوق خنادقهم وأسواقهم في محاولة لقصفهم. آنذاك، كانوا يشعرون بالخوف.

وبعد استقلال المغرب في السابع من أبريل 1956، وبعد مرور سنتين على الحدث، ثارت منطقة الريف وانتفضت. وجاءت هذه الثورة ردّ فعل عنيف ضد سلطة الاستقلال المستبدة، التي تواطأت مع العلويين. وبعد عمليات تمشيط واسعة ضد وحدات شرطة النظام، حط جيش قوامه خمسة آلاف رجل رحاله بالحسيمة في يناير 1959. وكان على رأسه كل من الكومندان محمد أوفقير، والأمير مولاي الحسن، ووصلت معهما أسراب من الطائرات محملة بالمفرقعات. وقليلة هي القبائل التي نجت من القصف الجوي. وبمعية قاذفة اللهب،

اخترقت القوات العلوية الدواوير والمنازل، وكانت عين امزورن بمثابة درس لن ينسى، وهذا ما جاء في التقارير المطولة التي رتبها **غارسيا فيغيراس** García Figueras [49].

والحقيقة أن الريف ثار ضد الظلم والمجاعة ولم يستسلم، فأحرقوه ودمروه، وبعد أن تآمر الجنرال أوفقير ضد الملك نصب له شباكا، فمات بالرباط عام 1972، أما الأمير مولاي الحسن، فقد أصبح الحسن الثاني فيما بعد، بعد وفاة والده (1961). ومنذ ذلك الحين، لم يعاود زيارة الريف ثانية.

جماجم أعرويت ومقبرة ظلت خاوية

لم تكن مقابر أعرويت تحوي فقط أشلاء جيش نفارو، بل كانت كذلك مستودعا لجثث جيوش الجنرال سيلفستري، وقبل استقلال المغرب بسبع سنوات، دمرت هذه المقابر عن آخرها ونقلت العظام إلى مليلية. وفي مارس 1949، وبأمر من الجنرال غوسطافو أورتيا غونثاليث Gustavo Urrutia Conzález، تمت الاستعدادات لهذا العمل، فحفرت في مليلية حفرتين كبيرتين للعظام، في حين تم إعداد ستة عشر صندوقا كبيرا من حجم 1,70 x 0,60 x 0,60 متر، لنقل أشلاء الموتى. وفي الخامس من غشت الموالي، حضر وفد من الجنود الحفارين، فشرعوا في نبش القبور.

لم تكن هناك أجساد ولا بذل رسمية، إذ تم جمع ثلاث عشرة قطعة صغيرة من القماش فقط، لكن الجماجم كانت موجودة وبوفرة، إذ وصل عددها إلى ألفين وتسعمائة وست وتسعين جمجمة. كان ضحايا أعرويت المقدر عددهم بثلاثة آلاف حقيقة مرعبة.

وتم العثور كذلك على اثني عشر كيسا يحوي أنيابا وأسنانا من ذهب، وثمانمائة وسبعة وتسعين صفيحة، وشارات لمختلف الوحدات العسكرية، وإحدى عشرة قطعة نقدية فضية، وست نحاسية، ومائة وسبعة عشر من الأزرار، وكذلك قلم الرصاص وأشياء أخرى شخصية (ساعة جيب فضية، وخاتمان من ذهب، وأزرار أكمام القميص)... وكل هذه الأغراض، تم انتشالها ووضعها في صندوق حديدي. ويوم الخامس عشر من غشت، انتهت عمليات نبش القبور. وبعد سبعة أيام بدأت عمليات الدفن، حيث عرفت مليلية كيف تستقبل كل ضحاياها.

ظلت المدينة تنتظر مجيء النعوش، وفي الثاني والعشرين من غشت 1949، قامت الحامية العسكرية بعرض السلاح، فأعرب سكان مليلية عن آلامهم. وحانت ساعة الاستعراض، فمرت الصناديق الستة عشر، التي اختزلت ضحايا أعرويت الثلاثة آلاف في هذه الكمية البسيطة، ومرت عبر شارع الفونصو الثالث عشر، في طريقها إلى مأمنها الأخير، وهي تتلقى عبارات الوداع وصلوات مشيعيها الذين أمطروهم بالورود[50]. وفي حفرة واحدة، كان المكان كافيا لثلاثة آلاف جثة. هكذا، بقيت الحفرة الأخرى خاوية على عروشها.

حكايات عن أقارب سيلفستري

ظلت وفاة سيلفستري هاجسا يراود نجله مانويل فرنانديث سيلفستري دوارطي Manuel Fernández Silvestre y Duarte، وبرجوعه إلى المعسكر يوم السادس والعشرين من ماي 1926، التقى مع جملة من الحقائق، لكن الصورة لم تتضح عنده أبدا. أما فيما يخص البحث عن الجثة، فالعملية كانت مضنية وغير مجدية. وبخصوص والدة الجنرال السيدة إلوطريا سيلفستري كيسادا Eleutería Silvestre y Quesada، فقد توفيت في الثاني عشر من يوليوز في منزلها بمدريد، الواقع بشارع فيلاثكيث 120، وتم دفنها بالمودينا[51].

بقي مانويل في الجيش، كان قبطانا حينما انضم إلى سان خورخو في محاولاته لبسط السيطرة يوم العاشر من غشت 1932، لكنه فقدَ عمله. وعلى ما يبدو، تم نفيه إلى مقاطعة ثيسنيروس[52]، وهناك التقى بنجل مانيا Manella المعروف باسم فرانثيسكو مانيا دي كسني Fransisco Manella de Quesne. كان صديقا حميما له. جال مانويل في الشوارع كلها دون هدف محدد، إلى أن حل صيف 1936. ويوم السبت ثامن عشر من يوليوز، حل بمدريد، وبالضبط في الثكنة العسكرية "ماريا كرستينا"، التي كانت مقرا لفرقة واد الراس، التي كان لوبيث رويث آنذاك كولونيلا عليها. وفي اللحظات التي تلت عمليات الدفاع والمقاومة، أجبر الكولونيل القبطان السابق على الفرار. فرفض مانويل، فتدخل طوليو Tulio. ووافق القبطان السابق هذه المرة. فتسلل من بين المهاجمين، لكن الكولونيل وقع في الأسر. ويوم الثالث عشر من شتنبر 1936[53]، سقط لوبيث رويث ميتا بعد قتله بالرصاص.

عاش فرنانديث سيلفستري مغامرات هائلة في عاصمة الجمهورية، كان ينتقل فيها من مخبئ إلى آخر، ونادرا ما كان يخرج لشراء ما يلزمه من المواد الغذائية. وهكذا، عاش لمدة قصيرة. وفي نهاية المطاف، استطاع الفرار إلى بلدة هادئة تقع في الجنوب الشرقي لمدريد، وتعرف باسم فيافيثيوسا دي أودون Villaviciosa de Odón، وذلك صحبة تيلنتي المدفعية، الذي كان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، ويدعى مانويل غورتيريث ميادو Manuel Gutiérrez Mellado، القائد العام مستقبلا، والذي أعلن تمرده داخل المعسكر. فالاثنان معا كانا ينتميان لحزب لافلانخي الإسباني. وانتهى المشوار بهما إلى منزل المحامي ميادو دي ثولويطا Mellado de Zulueta، الذي كان ابن عم التنينتي المنحدر من عائلة ثرية تملك ممتلكات كبيرة بفيافثيوسا.

وبالرغم من جميع الاحتياطات الأمنية المتخذة من لدن عائلة ميادو، إلا أن سكان البلدة علموا بوجود الضابطين. بيد أن عمدة المنطقة خوصي سانطنديـر José Santander، المنتمي إلى الحزب الاشتراكي، اجتث الشر من جذوره، وواد بكل شجاعة وجراة كل محاولة محلية تتعقب ليس فقط أولئك الزائرين، بل حتى المدنيين أو العسكريين الذين شاركوا في الثورة ،لقد أنقذ ذلك الرجل العديد من الناس، عبارة ذكرها نرثيسو إغيراس بابلوس Narciso Higueras Pablos [54]، سنة 1997 بصفته شاهد عيان عاصر الأحداث.

ويوم السابع من غشت 1936، انتقل غوتيريث ميادو إلى مدريد، حيث جرت مراسيم محاكمته، فتم العفو عنه بمقتضى مجلس الحرب[55]. أما فرنانديث سيلفستري، فقد مكث بفيافيثيوسا. وفي الوقت الذي تمكن فيه صديقه من اللجوء مؤقتا إلى سفارة بانما، تمكن هو من عبور الحدود والانخراط في صفوف الجيوش الوطنية.

ترقى نجل الجنرال سيلفستري إلى رتبة كومندان، فأصبح يؤم فيلقا عسكريا من مناصري لافلانخي، وبفيافيثيوسا دي أودون التقى بإيغراس Hegueras، الذي قال عنه: ،كان طويل القامة، نحيف البنية، قويها، وكان يرتدي قميص لافلانخي، بعنقه الأزرق الذي يطل من تحت البذلة الرسمية الكاكية اللون، كان مظهره متميزا، وفي معاملاته متحفظا. وفور تعرفك عليه تتلمس لطافته. كان دائما يتحدث بحماسة عن إسبانيا

والجيش، كان يثيرني حقا،[56]. ومرت الأيام وانتقل إغيراس إلى وحدة عسكرية اخرى (الفيلق الثاني)، ومنذ ذلك الحين، انقطعت عنا أخبار نجل سيلفستري. وما إن انتهت الحرب، حتى انتشر خبر وفاته في ساحة القتال، كان ذلك في ربيع 1937، بجبهة الطاخو، حيث تدخلت الأطراف المتنازعة بأعداد ضخمة من المشاة والمدفعية. وفي إحدى الاشتباكات، سقط نجل سيلفستري فحملوه إلى فيافيثيوسا. وهناك تعرفنا على قبره في الممر الرئيسي لمقبرة سنتياغو ابوسطول، في الصفوف الواقعة جهة اليسار. فبمحاذاة المدخل، وجدنا لوحة من الكلس تآكلت أطرافها بسبب عامل الزمن، وكتبت عليها هذه العبارات «هنا يرقد جثمان مانويل فرنانديث سيلفستري دوارطي كومندان الفرسان، وقائد علم قشتالة، توفي في جبهات طليطلة بكل بطولة يوم العاشر من مايو 1937، عن عمر يُناهز السادسة والثلاثين سنة».

وبعثورنا على نجل سيلفستري، نكون كما لو عثرنا على كل رجال الجيش الضائع. وفي نفس القبر، رقد كذلك جثمان سلفادور ميادو دي ثولويطا المتوفى سنة 1988. كان هو من اشترى القبر عام 1946، وأوصى بإعداد اللوحة الحجرية للتعريف به[57].

من سيلفستري إلى "سيلفستري العملاق"

جنرال الشوارب

بات المركز القيادي لسيلفستري بأنوال بمثابة مغناطيس يجذب إليه المشاعر والآراء والأساطير، فالعديد من الجنود الأسرى رأوا الجثة داخل الخيمة فور صعودهم إلى هناك، وهم يحملون المؤن والذخيرة[58]. وأقر أراوخو بعد الإفراج عنه في يناير 1923، أن المورو أكدوا أن سيلفستري انتحر[59]. أما ساينث Saínz، فقد علم بالخبر من أولئك الجنود، الذين عبروا فجاج إيزومار المرعبة في المرحلة الأولى.

ويبدو أن الريفيين وبالضبط بعد سقوط دار الدريوش في العاشر من يناير 1922، قد سمحوا للأسرى الإسبان بجمع رفات رفاقهم الهالكين بضواحي أنوال. إميليو باجي Emilio Paggi، التاجر الإيطالي الذي فر من سيدي بلعباس بالجزائر الفرنسية، وبعد مروره من أنوال في نونبر 1921 في اتجاه الحسيمة، ومن هناك استطاع العبور إلى مليلية.

كان باجي يحمل إذنا بالمرور حصل عليه من عبد الكريم، وما إن حل بانوال حتى التقى وجها لوجه بمشهد مرعب. اكد انه راى المئات من الجثث وقد تحولت إلى مومياء، على طول فجاج إيزومار، وفي أسفل الخنادق[60].

وانتهت كل هذه المشاهد المرعبة بفضل الحملات التطهيرية التي قام بها الأسرى، حفاري القبور الذين دفنوا الجثث. وذلك تحت إمرة النقيب بسايو Basallo، الذي كان ينتمي إلى حامية القندوسي، والذي بقي على قيد الحياة إثر المذابح التي كانت بدار الكبداني. واشتهر هذا النقيب بمساعدته القيمية لما يناهز خمسمائة وسبعة وثمانين إسبانيا -خمسمائة واربعة وثلاثون عسكريا، وثلاثة وخمسون مدنيا- (حسب إحصائياتنا غير النهائية) كانوا تحت نير الأسْر. وتعرف باجي على هذا النقيب في أنوال.

استدعى الريفيون بسايو، لعله يتعرف على جثة كان ينقصها الشارب، وكانت ممزقة شر تمزيق، فظنوا انها لسيلفستري. لكن بسايو لم يتمكن من معرفة الجسد، لكنه وضع إشارة في المكان الذي دفن فيه، وبعد ايام عاد إلى المكان، فإذا بالجثة قد اختفت من مكانها[61]. وقيل العكس كذلك، بمعنى ان بسايو تعرف على سيلفستري من خلال آثار الجروح التي كان يعرفها جيدا، فظن انها للجنرال[62].

ولنا رواية اخرى جاءت على لسان رقاص (ساعي البريد) يُدعى قدور نمار، الذي قال: «وبعد ثمانية ايام، عدت إلى انوال، فوجدت الجنرال ملقى على بطنه في الأرض، فحملته من شاربه لأتعرف اكثر على وجهه، فعلقت الشوارب في اصبعي»[63]. كان الريفيون يظنون ان شوارب سيلفستري الحادة الأطراف، هي السبب في عظمته وليس انتصاراته الباهرة. وبالنظر إلى ضخامة بنيته الجسدية، كون الريفيون في عقولهم صورة لسيلفستري الضخم العملاق، فحجبت صورة الإعجاب هاته كل اشكال الشعور بالضغينة تجاه العدو الميت.

وفي ظل غياب وثائق اخرى لبسايو[64]، امتزجت الأسطورة والحقيقة في قالب واحد. واختفى سيلفستري للأبد، لكن بعض جنوده لم يختفوا. وفي إحدى التلال عند مدخل إيزومار وجد ضريح، قال عنه السكان المحليون انه لخليفة شجاع وباسل لا نعرف عنه الشيء الكثير.

وبالقرب من هذا القبر، كان هناك حقل يزرع الناس فيه القمح إذا ما امطرت السماء في فصل الربيع. وحدث أن ظهرت بعد عمليات الحرث، شارات عسكرية برزت من خلال خطوط الأرض. وفي يوليوز 1998، اكد بعض سكان قبيلة بني اولشيك، ان تلك الشارات دليل على وجود جثث الإسبان بتلك الربوع.

مانيا وخمسة آخرون، الموتى الذين لم يتم قبولهم

وجد الأسرى حفاري القبور بزعامة بسايو، جثة رئيس فرقة الكانطرا، وقد اخترقتها خمس رصاصات[65]. كان مانيا رجلا شجاعا، ومات وهو كذلك. وعن وفائه ووفاء كل من سقطوا إلى جواره بانوال، اجابت الحكومة العسكرية الألفونصية بطريقة تعسفية وجبانة.

دفن بسايو ورجاله في منطقة انوال، ما يناهز ستمائة وسبعة وتسعين جثة مجهولة الهوية، لكن النقيب اوضح في تقاريره المفصلة، انه وبمكان قريب من الحفرة التي تأوي القبطان سلفرانكا Salafranca، تم التعرف على الأشخاص التالية أسماؤهم: الكولونيل مانيا، الكومندان بنيتيث، القبطان فيدريكو دي لاباث، والملازمون خوليو بوسطمانطي، إوخينيو نوغيس، والبرطو إسكريش[66]. وهذا ما حدث في الأسبوع الأول من فبراير 1922. وفيما بعد، بعث بسايو بهذه الرسالة المهمة جدا إلى الكولونيل ثيفانطوس بونانيو Civantos Buenaño، الذي كان بالحسيمة. وما إن تلقى هذا الأخير هذه البرقية، حتى حولها عبر التلغراف إلى سان خورخو، الذي كان آنذاك قائدا عاما بمليلية. وقام سان خورخو بدوره، بإرسال هذه الرسالة إلى كل من لاثيريا، وزير الحربية، وبرنكر المقيم العام، فصمتت كل هذه الهيئات العليا، ولم تتوصل العائلات بهذه الأنباء، ولم تعلم البلاد بشيء. وكان البرقية المصنفة تحت رقم اربعة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين، بتاريخ الرابع من فبراير 1922، لم يكن لها وجود في الأصل.

سنة 1997، اعربت كونثيبثيون مانيا Concepción Manella، حفيدة الكولونيل، عن استيائها وسخطها العارم تجاه هذا الحدث الفظيع، إذ إن والدتها ظلت ولمدة عشر سنوات تتقصى الأخبار. عشر سنوات قضتها في إزعاج الجنرالات والوزراء[67] لمعرفة ما

إذا كان ممكنا الحصول على جثة زوجها، لكن لم يتحدث أحد عن تلك البرقية رقم 4.33. كان الصمت يخيم على كل إسبانيا التي أعلنت الحداد بسبب أحداث أنوال. لم يكن النظام الألفونصي يسلم شهادات الوفاة أو شهادة المختفين، التي كانت بدورها تتطلب وقتا.

ويوم الرابع من مايو 1928، استلمت أرملة مانيا شهادة سحبتها من إدارة وزارة الدفاع، بعد أن وقعها مديرها أنطونيو لوسادا أورطيغا Antonio Losada Ortega، وتضمنت هذه الوثيقة تناقضات كبيرة، إذ إن السيدة ماريا استلمت شهادة الاختفاء لزوجها المتوفى، فكيف يكون الشخص ميتا ومختفيا في نفس الوقت. وفي سنة 1953، وافت المنية ماريا دي كسني منوطالبو María de Quesne Montalvo، التي ذهبت دون أن تعرف شيئا عن زوجها الذي ضاع في غيابات أنوال.

ويمكن تفسير هذه السلوكات الغريبة، بالهلع الكبير والرسمي الذي كان يخيم على مدريد ومليلية من جراء مطالبة عبد الكريم بمبالغ مالية لتحرير الأسرى. ويمكن الجزم أن تلك المخاوف لم تكن أسبابها اقتصادية، لأن المال كان موجودا.

ويوم السابع من يناير 1922، وبعد أن أخبر برنكر لاثيربا بشروط عبد الكريم الأخيرة -والتي تتمثل في دفع أربعة ملايين بسيطة، واسترجاع كل المعتقلين المورو المقدر عددهم بمائتين وثلاثة وأربعين- طالب المقيم العام بإحضار كل أولئك الأسرى إلى مليلية، وأصدر أوامره بإحضار بارجة لوبو أو مركب آخر مشابه، مزود بزوارق صغيرة للإبحار. وفي الأخير، ذكر برنكر للوزير ما يلي: «أرجو أن تخبرني بعجالة عن موقفكم من هذه الشروط، فإذا كان الجواب إيجابيا، أرسل إلى مليلية المليون المتبقي لإتمام الأربعة ملايين، وابعث إلينا كذلك بباخرة»[68].

وفيما بعد، حصل برنكر على الملايين الثلاثة الأولى، التي اعتبرها فيما مضى مبلغا خياليا، لكنه تقبل الفكرة في نهاية المطاف. كان برنكر شخصا منسجما مع نفسه، وكان دائما يؤيد فكرة المال مقابل العباد، دونما تبجيل كبير للحكومة الألفونصية كما أعرب عن ذلك ماورا.

وهكذا، تدفقت الأموال بالملايين على مليلية لتحرير الأسرى، كانت الكمبيالات تحال على مفوضية بنك إسبانيا، لكن ماورا كان يمتنع عن الدفع. وواظب لاثيربا على إرسال المال. ولم يتوقف برنكر عن الطلب، ومرت سنة بكاملها، ومازال الأسرى الإسبان في أجدير يموتون جوعا. ومن بين الفرق العسكرية المقدر عددها بخمسمائة

واربعة وثلاثين رجلا، سقط منهم مائة وتسعة وثلاثون، اثنا عشر منهم اعدموا بالرصاص. وإذا لم تُسجل حصيلة كبيرة من الضحايا، فبفضل المجهودات الجبارة التي بذلتها قوافل الصليب الأحمر الإسباني ما بين سنتي 1921-1922، مثلما فعلت عام 1898-1899 [69].

وتغيرت الحكومات، واعدت الحقائب الوزارية بحضور الليبراليين، انصار غارسيا بريطو، ومعهم سنتياغو البا Santiago Alba الذي شغل منصب وزير الحكومة، ولوبيث فيرير López Ferrer الذي أصبح مقيما عاما منتدبا بعد ان رفض فيانويفا Villanueva، هذا المنصب. وحضر كذلك واحد من أعيان الريفيين، وهو إدريس بن سعيد. واقنع الوزير البا، أوراثيو إشفريطا ماوري Horacio Echevarrieta Mauri -الذي كان شخصية تناصر الجمهورية، وبرلمانيا ببلباو ما بين سنتي 1910-1917، ورجل أعمال تربطه علاقات عديدة مع عبد الكريم، ومصالح ارتبطت بعمليات التنقيب في المناجم الحديدية- بأن يتعامل بالحسنى مع الزعماء الريفيين.

دفع إشفريطا الغرامة من المال الذي كان بمليلية، ووهب نفسه رهينا وضامنا ساعة انعطاف المحادثات نحو طريق الفشل، وكان ذلك يوم السابع والعشرين من يناير 1923. وهكذا، خرجت الأشباح الثلاثمائة وستة وعشرين من أجدير، وركبت باخرة انطونيو لوبيث، وابحرت في اتجاه الحرية. لكن الملك، لم يذهب لاستقبالهم في مليلية، لأنه كان بدونيانا Doñana، في رحلة قنص دعاه إليها دوق طريفة، السيد كارلوس فرنانديث من قرطبة[70].

وبعد شهر واحد، تم الإعلان عن قرار ملكي يقضي بوضع عدد من اللوائح للمختفين، وتسجيلهم في السجلات المدنية والعدلية، وذلك من أجل تسوية الوضعية القانونية للعديد من ضحايا الجيش، الذي حارب بشمال إفريقيا[71]. وهكذا انتهت كل فصول الحادث.

اما فيما يخص الجثث المجهولة الهوية، والتي دفنت بأنوال، فلم تشأ الحكومة الألفونصية فتح ملفاتها. وهكذا، ظل مجهولا مصير ما يقارب ثمانية أو عشرة آلاف من رجال سيلفستري.

مدريد يونيو 1996

شتنبر 1998

هوامش خاتمة الكتاب

1) محادثة بين الفونصو برنكر وبريث ماورا. اكتوبر 1997.

2) برسطون، باول، فرانكو "قائد إسبانيا"، ترجمة كل من تريزا كامبرودون وديانا فالكون، دار النشر، منشورات "كريخالبو"، برشلونة 1994، ص. 105-106-112-114.

3) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 20/05/1953.

4) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، يونيو 1997.

5) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأحد 07/04/1935.

6) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد ا - 1519.

7) المصدر نفسه، العدد، ر - 3373.

8) المصدر نفسه، العدد، ر - 2777.

9) سالاس لراسبال، رامون، *خسائر الحرب*، دار النشر، بلانيطا، برشلونة 1977، ص. 36. هذه الأرقام تحتاج إلى مراجعة دقيقة.

10) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الخميس 25/08/1921.

11) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد ا - 2077.

12) فرانكو سلغادو اراوخو، نفس المصدر السابق ص. 278. الكاتب الذي كان مساعدا للديكتاتور وابن عمه، لم يذكر أصل هذه الحكاية لعدم توفرنا على معلومات حولها.

13) محادثات مع حفيدات الجنرال، ايثبورو - امبارو- بيلار- وصوفيا- مايو 1997.

14) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م - 4104.

15) نتحدث هنا عن الملف رقم، خ 2.226 والموضوع في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه.

16) هكذا ينتهي بلاغ الجنرال والمؤلف من 10 مقالات، كان ينبغي تسريبها في شوارع مدريد، لكن لم يتم ذلك، بسبب الحظر المفروض. ذكر هذا فاليرو، خافيير وفائكيث، كاتيلدي في، *الحرب الأهلية في مدريد (1936-1939)*، طيباس. مدريد، ص. 60-62.

17) ثيربيرو كاريو،خوصي لويس،*"النهاية المشينة لأربع من الحرس المدني كانوا ابطال الحرب في إفريقيا"* في مجلة الأمن الوطني. يناير 1998 ص. 74-78.

18) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه المجموعة الأولى العدد، ب-440.

19) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، رسالة من فرنانديث طماريت إلى بيكاسو بتاريخ 11/01/1922 بالما دي مايوركا.

20) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، خ-1843.

21) بمعنى العدد ا - 1.993 الذي يوجد في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه.

22) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، خ-1843.

23) المصدر نفسه، العدد، ر-1319.

24) صحيفة *الليبرال*، نشرة الأربعاء 10/08/1921.

25) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ف-1670.

26) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، ملفات خاصة. العدد: 83.

27) المصدر نفسه، العدد: 99.871.

28) المصدر نفسه، العدد 71.481.

29) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد: ب- 1.346.

30) المصدر نفسه، العدد: خ-447.

31) المصدر نفسه، العدد: س-925.

32) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد: ب-986.

33) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد: أ-1.516.

34) *صحيفة الصول*، نشرة الأربعاء 08/08/1923.

35) محادثات مع بلاس خسوس إمبرودا أورتيث. يوليوز 1998.

36) مارتينيث باندي، خوصي مانويل، كولونيل، *صراعات حول مدريد في شتاء 1936-1937*. مدريد المصلحة التاريخية العسكرية 1968. ص. 120.

37) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا. يونيو 1998.

38) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، ملفات خاصة. العدد: 163.

39) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "وثائق قضايا تحديد المسؤوليات".

40) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "حكاية وظيفة، ملحق وثائقي أضيف إلى التحقيقات الجارية بشأن الأحداث التي وقعت عند ممر إيزومار. بتاريخ 10غشت، مليلية، والسنة لسنا متأكدين منها ربما 1922؟

41) محادثات مع فرانثيسكو بسايو رينا، نجل القائد الشهير، أكتوبر 1997.

42) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد: ر-3328.

43) محادثات مع خوصي ماركيز لوبيث وإينماكولادا لوبيث لوبيث حفيدة الصحافي المعروف. مايو-يونيو 1997.

44) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى،العدد: ل-1730.

45) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، انطلاقا من سنة 1989، تصدى الكولونيل الفاريث فاريلا لتحد هائل، يتجلى في نسخ ونقل كل الوثائق التي توجد في المصلحة التاريخية العسكرية والتي تتحدث عن الطيران العسكري الإسباني في المغرب، والتي يبلغ عددها 534 ملف، ووثائق أخرى. وتوج هذا المجهود الضخم بالنجاح لاستماتة الفاريس وموضوعيته.

46) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، الملف رقم 13.561 عن فلورس الونصو آنخيل في، *الحرب الجوية على المغرب الإسباني (1913-1927)*، مدريد 1990، ص. 66. نحن من جهتنا وفي حديثنا عن هذه الأرقام لم نتطرق فقط للطاقم الجوي الذي لقي حتفه جراء الحوادث، أو من جراء القصف، بل أدرجنا كذلك كل أولئك الضباط الذين غابوا عن الطيران العسكري وماتوا أثناء العمليات بصفتهم مراقبين جويين.

47) *صحيفة الصول*، نشرة السبت 18/08/1923.

48) دومنكيز سانتيث كونسطانثيو "*عبد القادر مخلص. من بين المخلصين*" في "*تلغراف مليلية*" 31/08/1977.

49) المكتبة الوطنية (م-و) إفريقيا، أرشيف غارسيا فيغيراس. وثائق سرية رقم 309، 314 لسنتي 1958-1959.

50) فرنانديث دي كاسترو إميسان فرانثيسكو "انتقال أبطال جبل اعرويت إلى مليلية، في مليلية اليوم، 10 نونبر 1996.

51) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 13 يوليوز 1926، اختى الجنرال تم دفنهما كذلك في مقبرة المودينا، بجوار قبر امهما. وهكذا دفنت مرثيدس فرنانديث سيلفستري يوم 03/02/1950، وُوري جثمان اختها كارمن يوم 31 مارس 1966.

52) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة إشبيلية، الثلاثاء 18/05/1937.

53) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ل - 1808.

54) محادثات مع نارسيسو إيغيراس بابلوس، أكتوبر 1997.

55) بول دي لافيا، فرناندو، كولونيل غوتيرس ميادو، *احد رجال الحرب في القرن 20* (1912-1995). المكتبة الجديدة مدريد 1997، ص. 94-96.

56) اصبح إيغيراس عضوا في ما يسمى بـ"علم مدريد" الذي تحول فيما بعد إلى "علم قشتالة الثاني" وإلى "العلم الأول" كان ينتسب لفرنانديث سيلفستري دوراطي.

57) الأرشيف البلدي لفيفثيوسا دي اودون.

58) صحيفة *الإمبرثيال*، نشرة الثلاثاء 19/10/1921. لم يذكر فيفرو أسماء أولئك الجنود.

59) صحيفة *الإمبرثيال* (المحايدة)، نشرة الثلاثاء 30/01/1923.

60) رواية خوصي كيبلس "وحشية الأسر. معسكر انوال" نشرت في صحيفة *الإمبرثيال*. نشرة الثلاثاء 6 دجنبر 1921.

61) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 31/01/1923.

62) صحيفة *لاليبرطاط والصول*. نشرة الثلاثاء 30/01/1923 وكذلك صحيفة لابوث في عددها ليوم الاثنين 29 يناير.

63) "لاكوريسبونديثيا دي إسبانيا، 01/12/1921.

64) محادثات مع سانتياغو بسايو ماركيز اكتوبر 1997. لم يتذكر سانتياغو بسايو ابن اخت القائد الشهير، ان عائلته كانت تحتفظ برسم تخطيطي لتلك المقابر ومواقعها.

65) صحيفة *الإمبرثيال*، نشرة الأربعاء 31/01/1923.

66) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد، 4/364 برقية سان خورخو المسجلة تحت رقم 4333 ليوم 4 فبراير 1922 والتي بعث بها إلى لاثيربا وزير الحرب.

67) محادثات مع كونثبثيون مانيا يوليوز 1998.

68) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 3/364. مكالمة هاتفية جمعت بين برنكر ولاثيربا يوم 07/01/1922 على الساعة العاشرة.

69) ارشيف منظمة الصليب الأحمر الإسباني العدد 113-119.

70) صحيفة *لاليبرطاط*. نشرة الخميس 25/01/1923 وصحيفة لابوث في عددها ليوم الثلاثاء 30 يناير 1923.

71) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 23 فبراير 1923.

❖ ❖ ❖

كرونولوجيا

1857

22 غشت. ولد في مالقا خوان بيكاسو غونثالث. زعيم الروح الحربية التي تعود جذورها لإسابيلا.

1871

16 دجنبر. ولد في كاني (سانتياغو دي كوبا) مانويل فرنانديث سيلفستري. أماديو الأول هو ملك إسبانيا.

1873

ولد الريسوني في قصبة الزينات بـ (طنجة)

4 اكتوبر. ولد دامسو برنكر فوسطي Damaso Berenguer y Fusté في منطقة رميدوس (لاهافانا). كان كاسطيلار Castelar رئيسا للجمهورية الأولى.

1874

27-31 دجنبر. انقلاب مارتينث كامبوس، الفونصو الثالث عشر ملك إسبانيا، الحكومة الأولى لكانوفاس.

1880

19 مايو - 3 يونيو. مؤتمر مدريد. الحكومة الثالثة لكانوفاس ودخول المغرب في أجندة التوسع الاستعماري الأوروبي.

1882

ولد في أجدير محمد عبد الكريم.

1886

17 مايو. ولد في مدريد الفونصو الثالث عشر. الحكومة الرابعة لسغاسطا.

1893

28 اكتوبر، نال القبطان بيكاسو الوسام الشرفي بمليلية، بعد جراته في مواجهة العدو.

1895

15 يوليوز، التنينتي سيلفستري ينزل بنويفيناس (كوبا) قادما من قادس. الحكومة الثامنة لكانوفاس.

1898

القوات العلوية بمساعدة من بني ورياغل تشن عمليات تاديب قوية ضد قبيلة بقيوة. الحكومة الثانية عشر لسغاسطا.

18 يناير، القبطان سيلفستري يعبئ قواته في بوتريرو دي كاريداد (كوبا)، ويتلقى ثلاثة عشر طعنة بالسكين، ويصاب بخمس رصاصات والكل يعتقد انه مات.

1 يونيو، كونت بنومار يقترح على الملكة الوصية بيع كوبا للولايات المتحدة الأمريكية وتوجيه السيطرة الاستعمارية الإسبانية نحو المغرب.

شتنبر، فرنسا تتلقى ضربة موجعة في فشودا (السودان)، وكتائب مارشاند انسحبت امام جيوش كيشنر.

1899

10 دجنبر، معاهدة فرنسا. إسبانيا تفقد مستعمراتها في امريكا وآسيا. طيوفيل دولكاسي، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية تنضج لديه الفكرة الاستعمارية، مناطق نهر النيل لدولة بريطانيا العظمى ودول شمال إفريقيا لفرنسا.

1902

17 مايو، تتويج الفونصو الثالث عشر الذي سيصبح ملكا نظرا لكونه الأكبر سنا يوم 2 يونيو الموالي.

شتنبر، فرنسا تقترح على إسبانيا بسط سيطرتها على فاس ووادي ورغة (الذي يحد الريف من الجنوب). سغاسطا يرفض الفكرة خوفا من بريطانيا.

1903

فبراير، تخفق كل من فرنسا وإسبانيا في توزيع المغرب. سيلفيلا يتنازل كي لا يتحدى بريطانيا العظمى. لكنه بذلك اغضب فرنسا.

1904

8 ابريل، معاهدة "التفاهم الودي Entente Cordiale" الفرنسية-البريطانية. القوتان تعلنان بموافقتهما مطالبة إسبانيا باحتلال الأراضي المغربية.

3 اكتوبر، إسبانيا وفرنسا توقعان معاهدة سرية لتوزيع المغرب وذلك بموافقة بريطانيا. وظلت فاس خارج نطاق السيطرة الإسبانية.

1906

16 يناير - 6 ابريل، مؤتمر الجزيرة الخضراء. حكومة "موريت" الثانية، المانيا لم تتمكن من جعل المغرب "بلدا محايدا". والسلطة المغربية بدات تقترب من النهاية.

1907

31 يوليوز - 7 غشت، القوات الفرنسية تقصف مدينة الدار البيضاء، ونهب السكان من طرف قوات اجنبية، والحصيلة كانت الفي قتيل. وماورا يبتعد عن هذه المشاكل.

شتنبر، الحركة الوطنية في المغرب، مولاي حفيظ يطيح بعبد العزيز.

1909

27 يوليوز، اندحار قوات بيتوس في معركة اللوبو. وبرشلونة تعيش اسبوعا مأساويا وداميا.

24 غشت، عرض الروكي في شوارع فاس داخل قفص من حديد. وفيما بعد تعذيبه وإعدامه.

1910

23 يوليوز، سيلفستري يعطي لقب "نبيل"، ومن هناك تبدا علاقته الحميمية مع الفونصو الثالث عشر.

1911

21 مايو، القوات الفرنسية تحتل مدينة فاس وفرنسا تحتجز مولاي حفيظ.

13 يونيو، سيلفستري ينزل بالعرائش. موجة الغزو السريع اتت اكلها بدون عنف، وذلك بفضل الاتفاق الأولي بين كل من سيلفستري والريسوني.

1-9 يوليوز، البارجة الألمانية بانطير ترسو باكادير. خطر حرب شاملة يخيم على اوروبا. عبد الكريم ينتقد سياسة فرنسا في المغرب.

4 نونبر، معاهدات فرنسية-المانية تهم توزيع الأراضي في الكونغو، وانعكاسات اقتصادية على المغرب.

1912

19 فبراير، برنكر يكسر شوكة قبيلة بني بويحيى اصحاب جبل اعرويت، وتتم ترقيته إلى رتبة كولونيل.

30 مارس، معاهدات ما قبل الحماية بشان المغرب الذي فقد وضعيته كبلد ذو سيادة.

17 - ابريل، تظاهرات في مدينة فاس، لقي فيها ضباط فرنسيون ومستعمرون اوربيون حتفهم.

مايو، سيلفستري يكتب للجنرال الفاو ولألفونصو الثالث عشر، ويقترح عليهم تنصيب الريسوني كخليفة.

13 غشت، مولاي حفيظ يتنازل عن العرش لصالح اخيه مولاي يوسف، ويختار المنفى، وتبقى سلطة البلاد في يد اشباح يتحركون تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي-الإسباني.

17 غشت، سيلفستري يحتل اصيلا قبل فرنسا. الاتفاقية الثانية بين سيلفستري والريسوني.

12 نونبر، مقتل كنالخاس بمدريد. ورومانونيس يشكل حكومة مع لوكي.

27 نونبر، توقيع معاهدة فرنسية-إسبانية تقضي بفرض نظام الحماية على المغرب.

1913

23 يناير، سيلفستري يعطي الإذن بتفتيش معقل الريسوني في اصيلا. وشريف جبالة يحتمي في تازروت ويختار الحرب.

19 فبراير، الفاو يحتل بشكل مفاجئ مدينة تطوان، ويخرق الوعود السلمية التي اعطاها لأعيان المدينة.

13 ابريل، الفاو ينصب كمقيم عام، وتصعيد حرب العصابات بمنطقة جبالة.

27 ابريل، مولاي المهدي، دمية إسبانيا، يدخل تطوان بحماية من قوات الفاو.

15 غشت، شروع مايستري الذي كان عضوا في مجلس الشيوخ ووكيل رومانونيس، في محادثات من اجل السلم في منطقة جبالة. فاصيب بالخيبة إثر اصطدامه بالروح القتالية للزعيم الليبرالي. مارينا يعين كمقيم عام. وعبد الكريم ينصب كقاضي القضاة.

4 نونبر، كامبو يحذر ويؤكد للحاضرين داخل البرلمان ان إسبانيا "تسلك في المغرب نفس الطريق الذي نهجته في كوبا".

1914

يوليوز - اكتوبر، الشروع في عمليات شراء اراضي الكارط واستغلالها. وصول المستعمرين الإسبان والفرنسيين القادمين من الجزائر.

1915

12 مايو، مقتل سيدي اقلعي بكوستا كولورادا في مؤامرة دبرها ضباط إسبان كانوا بالعرائش، وادريس الريفي الباشا الجديد لأصيلا.

9 يوليوز، مارينا وسيلفستري يقدمان استقالتهما بسبب موضوع اقلعي. غوميس خوردانا المقيم العام الجديد بتطوان. سيلفستري يعين كمساعد لألفونصو الثالث عشر.

15 غشت، محمد عبد الكريم يعرض على زعيم مكتب الشؤون الأهلية مخططه السلمي الذي يقضي بعدم تجاوز إسبانيا الخط الواقع بين إصحافن (بوادي كرط) والباطل (بالقرب من إغان).

6 شتنبر، اعتقال الابن الأكبر لعبد الكريم وحبسه في حصن كابريريساس.

23 دجنبر، ابن عبد الكريم يفر من معتقل كابريريساس، يسقط في حفرة، فتتكسر قدماه، فيلقى القبض عليه ثانية.

1916

20 مايو، حفل ودي في الفندق (بتطوان) واجتماع القوات الإسبانية بنظيرتها من جبالة. وخوردانا والريسوني يوقعان اتفاقية دفاع مشترك.

غشت، إطلاق سراح عبد الكريم الذي استانف من جديد محادثاته مع ايثبورو، املا في الوصول إلى تحالف قوي.

25 مارس، الجنرال ميفيل بريمو دي ريفيرا يقترح امام هياة الأكاديمية الإسبانية-الأمريكية لقادس، إمكانية التعامل مع (بريطانيا العظمى) وإعطائها سبتة مقابل جبل طارق.

1 يونيو، انتصار حركة بونابارت التي يتزعمها الكولونيل ماركيز، وتشكيل مجلس الدفاع داخل نظام حكم الفونصو.

1918

فبراير، عبد الكريم وريكيلمي يوقعان اتفاقية حول نزول القوات في أجدير في يوليوز المقبل. وخوردانا يلغي كل الوعود المشتركة.

5 يوليوز، ترقية برنكر وسيلفستري إلى رتبة جنرال في نفس اليوم.

9 نونبر، غارسيا بريطو يشكل جكومته الثالثة، وبرنكر يعين كوزير للحرب.

18 نونبر، وفاة الجنرال خوردانا داخل مكتبه بالإقامة العامة بتطوان.

11 دجنبر، باقتراح من برنكر وبظهير ملكي تم فصل مهام المقيم العام والقائد العام للجيش بإفريقيا.

1919

25 يناير، برنكر يعين مقيما عاما. وبيكاسو يرفض منصب وزير الدفاع.

محنة إسبانيا في بني صالح (عند مرتفعات غورغيس، قبالة تطوان).

11 - 12 يوليوز، تعثر دموي للقوات الإسبانية بكدية الروضة بقبيلة واد الرامس في الشمال الشرقي لتطوان.

9 غشت، الكومندان والنائب البرلماني خواكين فانخول يتحدث داخل البرلمان عن ضرورة فتح ملف تقصي الحقائق لمعاينة أحداث المغرب.

12 غشت: سيلفستري يحكم قبضته على الإقامة العامة بسبتة، وتنشط من جديد الحرب ضد الريسوني.

1920

30 يناير: سيلفستري يعين كقائد عام لمليلية، ويوم 13 فبراير الموالي يتقلد منصبه الجديد.

5 مايو: داتو يشكل حكومته الثالثة، التي دخل فيها الدوق إيزا كوزير للحربية.

9-20 يوليوز: زيارة تفقدية للوزير إيزا إلى المغرب الإسباني. الوزير ينقل شكوكه لـ"ليما" (Lema) دون إعطاء اي حل.

7 غشت: وفاة سيدي عبد الكريم، ربما مسموما. وقوات سيلفستري تسيطر على تافريست.

1 شتنبر: بمقتضى مرسوم ملكي وإصرار برنكر، تجتمع من جديد كل من وظيفة المقيم العام والقائد العام لجيش إفريقيا.

14 أكتوبر: احتلال شفشاون، المدينة المقدسة لجبالة، بتدبير كل من كاسترو وخيرونا ونبلاء المدينة. وبرنكر يتلقى لقب كونت شفشاون.

1921

15 يناير: سيلفستري يصل إلى انوال، ويقيم هناك قاعدة قواته الأمامية. ومورالس ودافيلا يعارضان إمكانية التقدم التكتلي نحو الحسيمة.

26 يناير: في رسالة بعث بها إلى برنكر، يحكي سيلفستري بالتفصيل عن الطرق المهجورة، ويخبر عن تعطيل السكة الحديدية التي تربط كل من الباطل والدريوش منذ خمسة سنوات.

4 فبراير: رسالة من برنكر إلى إيزا يحدثه فيها عن الحالة المزرية للجيش.

16 فبراير: مورالس ينصح سيلفستري بتأجيل أي محاولة للهجوم على الحسيمة، حتى حلول فصل الخريف وبيكاسو يُرقّى إلى رتبة جنرال فرقة.

28 فبراير: رسالة من سيلفستري إلى برنكر يشير فيها إلى "لا إنسانية" وسلبية حكومة داتو إزاء المجاعة التي اجتاحت الريف.

8 مارس: مقتل داتو بمدريد. وفي نفس اليوم شكل ايندي سلاسار حكومته الثانية. واعلن إيزا كعضو داخل وزارة الحرب.

10 مارس: سيلفستري ينهي مخططه الحربي، ويرسله إلى برنكر. وبعد تلاوته أعرب المقيم العام عن معارضته لبعض النقاط، لكنه أعرب عن موافقته على الهدف الأساسي: احتلال الحسيمة.

12 مارس: احتلال وتحصين سيدي ادريس. وهكذا يكون الخط الدفاعي الإسباني في الريف يمتد على طول 135 موقع.

28 مارس - 6 ابريل: برنكر يسافر إلى الحسيمة ويزور أنوال. سيلفستري يهنئ جيوشه في مليلية، ويذكر انه يأمل "معاودة التهنئة في الحسيمة".

22 مايو: مجالس الدفاع للمملكة تناقش - وتعارض - إمكانية الحصول على كميات كبيرة من العتاد الحربي الحديث الفرنسي والبريطاني الصنع، وذلك بأثمنة بخسة.

31 مايو: سيلفستري يضرب عرض الحائط بتحذيرات مورالس، ويعهد إلى الكومندان بيار احتلال أبران. وتبدأ عمليات الهجوم في فجر اليوم الموالي.

1 يونيو: اندحار الحامية الإسبانية بأبران. مقتل الضباط وفقدان الذخيرة والعتاد. وهو أمر لم يسبق له مثيل في المغرب الإسباني.

5 يونيو: محاورات بين كل من سيلفستري وبرنكر على متن سفينة "اميرة استورياس" قبالة سيدي ادريس، الحوار يحتدم. وكل طلبات الدعم التي التمسها سيلفستري جوبهت بالرفض.

6 يونيو: برنكر يهاجم الريسوني في منطقة جبالة، وينوي تطويقه في "عرينه" بتازورت.

15 - 17 يوليوز: سيلفستري يكتب إلى برنكر، ويقترح عليه إرساء قاعدة بحرية بمنطقة صالح وذلك لدعم أنوال، لكن هذه الفرصة الأخيرة للنجاة ذهبت مع الريح بسبب التماطل في تحريك الأسطول البحري.

18 - 21 يوليوز: فشل المحاولات الأخيرة لنجدة إيغريبن. وموت ضباط بنيتيث على الأسوار. ووصول بعض الأحياء إلى أنوال.

21-22 يوليوز: اجتماعات حربية متعددة ومتتالية داخل خيمة سيلفستري بأنوال. قرار الانسحاب من ابن طيب، وبرنكر في الركبة (بجبالة) لم يستوعب ملابسات الأحداث في الريف الإسباني.

22 يوليوز: نكبة أنوال، ودمار قوات سيلفستري بايزومار، حوالي الف قتيل. سيلفستري ينتحر ومقتل مساعديه، وسقوط جل الثكنات العسكرية.

23 يوليوز: مناوشات بريمو دي ريفيرا وقواته بإغان. ووصول برنكر إلى مليلية ليلا.

25 يوليوز: معاهدة الاستسلام المشينة والكارثية لأراوخو بدار الكبداني، وفاة 950 إسباني. وسقوط القبطان امادو بجوار منبع الماء امام قواته.

28 يوليوز: نفارو يبقى محاصرا باعرويت، في صفوف إنطرميديا أ، وفتور المقاومة عند وفاة آخر شخص.

2 غشت: باردو اغودين يستسلم بالناظور، وعبد الكريم يسلم جثة مورالس التي حملها طاقم بارجة "لايا" بسيدي ادريس.

3 غشت: كارسكو يستسلم بسلوان، وباستسلامه تفتح الأبواب من جديد على المجازر، 500 من القتلى الإسبان.

4 غشت: إيزا يعين بيكاسو كمحقق في قضية مذابح مليلية.

6 غشت: في مجلس للجنرالات عقد بمليلية، تم اتخاذ القرار بعدم إنقاذ المحاصرين باعرويت.

9 غشت: استسلام نفارو بجبل اعرويت، ومجازر بدار الكبداني، والحصيلة كانت ثلاث آلاف قتيل.

12 غشت: إيزا يربط اتصالا هاتفيا ببرنكر، والاتفاق على صنع واستعمال غازات سامة ضد الريفيين.

13 غشت: ماورا يشكل حكومته الخامسة والأخيرة، ولاثيريا يعوض إيزا في وزارة الحرب. برنكر يقدم طلبا بالاستقالة. لكن طلبه قوبل بالرفض.

15 - 20 غشت: ما يقارب 600 اسير إسباني كانوا محاصرين بأنوال واجدير، وعبد الكريم يطالب بأربعة ملايين بسيطة للإفراج عن المعتقلين.

24 غشت: أوامر عليا تحذر بيكاسو من توريط القيادات العليا في تحقيقاته.

1 شتنبر: أوامر اخرى - بطلب من برنكر - تعاود تحذير بيكاسو بالابتعاد عن المقيم العام.

6 شتنبر: برقية "شخصية وسرية" من لاثيريا إلى بيكاسو تحمل شكل "الأوامر الملكية السامية"

17 شتنبر: احتلال الناظور من جديد. ومشاهد مرعبة للتصفية الجسدية بـ"لا كاسا ديل ماطاديرو - المنزل المجزرة". واكتشاف بؤر واسعة للفساد بالعرائش.

29 شتنبر: معارك ضارية لتحرير معسكر تيزا. وكبلكانتي يكسب الرهان.

10 اكتوبر: مقاومة مستمرة بين الإسبان والريفيين حول جبل الكوروكو الذي تمت مداهمته من الخلف.

14 اكتوبر: احتلال سلوان من جديد. وموعد آخر مع الرعب في " منزل إنا Casa de la Ina" و500 جثة. وكبانياس يدون رسالة يندد فيها بقرارات مجلس الدفاع.

24 اكتوبر: الوصول إلى هضبة اعرويت. اخبار تاكيد المحارق هزت إسبانيا.

1921

23 يناير: بيكاسو ينهي تحقيقاته بمليلية ويعود أدراجه إلى مدريد.

7 يوليوز: المجلس الأعلى للحرب والبحرية يفتح تقارير تحضيرية لبرنكر.

10 يوليوز: تشكيل اللجنة التاسعة عشر (لتدارس قضية تحديد المسؤوليات).

1923

27 يناير: تحرير 326 أسير إسباني بقوا على قيد الحياة بعد 18 شهرا من الأسر.

10 يوليوز: تشكيل اللجنة الواحدة والعشرين من النواب البرلمانيين (لتدارس قضية تحديد المسؤوليات وتقصي الحقائق).

28 يوليوز: مجلس الشيوخ يطالب المحكمة العليا بالنظر في قضية برنكر.

13 شتنبر: انقلاب بريمو دي ريفيرا في برشلونة. وخرق لمواثيق الدستور المسطر سنة 1876.

1924

4 يوليوز: القرار الملكي لألفونصو الثالث عشر والذي يقضي بالعفو على كل المتهمين العسكريين والمدنيين.

1925

غشت: الهجوم الجوي بالغازات السامة التي قضت على القبائل الريفية. وعدد كبير من الضحايا.

8 شتنبر: القوات الإسبانية تشرع في النزول بميناء الحسيمة بمساعدة من الأسطول الإسباني-الفرنسي. وفرض العقوبات على جمهورية الريف.

1926

26 مايو: القوات الإسبانية، الجناح العسكري لبوثامس Pozas تعاود احتلال كل ما تبقى من معسكرات سيلفستري المحروقة.

1927

10 يوليوز: سان خورخو يعلن عن انتهاء الحرب في المغرب في ساحة باب تازة (شرق شفشاون).

22 نونبر: تشكيل اللجنة الحادية عشرة لتقصي الحقائق في مغرب ما بين 1909 - 1921 وذلك بأمر من بريمو دي ريفيرا.

1937

10 مايو: وفاة الكومندان مانويل فرنانديث سيلفستري إي دوارتي، في ساحة المعركة، قبالة الطاخو.

1956

7 أبريل: فرانكو يسلم لمحمد الخامس مفاتيح استقلال المغرب. وتبقى سبتة ومليلية تحت سيادة إسبانيا. الريف ينتظر ساعة تحريره.

1959

يناير - فبراير: انتفاضة الريف ضد سلطات الاستقلال المغربية. ونزول جيش علوي بالحسيمة قوامه خمسة عشر ألف رجل. المقاومة الريفية تنكمش على تقسمها بسبب القمع الذي نهجته القوات المسلحة الملكية.

◆ ◆ ◆

فهرس الوثائق

الملحق I

[illegible]

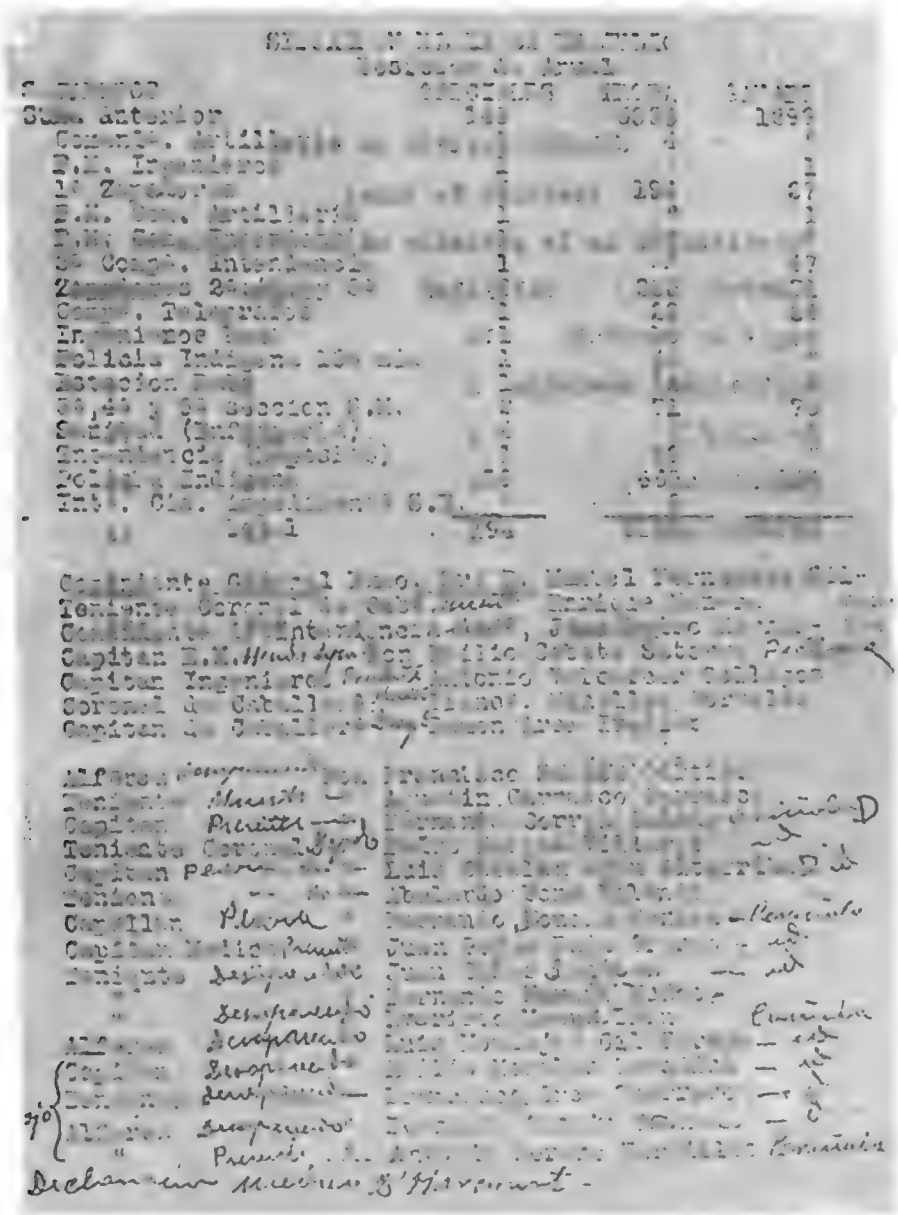

الصفحة الأولى والثانية من اصل ستة صفحات للوائح الخسائر البشرية التي سجلت بانوال، مع بعض الملاحظات التي ادرجها بيكاسو مبينا مصير اولئك الضباط. اما الموتى والمختفون فقد وصل عددهم إلى 44 (وهو رقم ارتفع إلى 79 من اصل 193 ضابط بانوال).

Posicion de Anual

Capitan	Desaparecido	Don [illegible]
Teniente	Herido	Enrique [illegible]
"	Desaparecido	Andres Lostan Sanchez
Alferez	Herido	Felipe Fernandez Caballero
Capitan	Desaparecido	Aristides [illegible]
Teniente	Desaparecido	[illegible]
Alferez	Desaparecido	Julio Moral Moral
"	Desaparecido	Modesto Martinez Taboada
Teniente	Desaparecido	Pedro Valle de la Torre
"	Desaparecido	Ignacio Vizcaino Aguero
Capitan	Herido	Rafael Valderrama Garcia
Teniente	Herido	Demetrio Fontan Dabrio
Comandante	Desaparecido	Andres Pita Rodriguez
Teniente	Desaparecido	Joaquin Lago de Lanzos
"	Desaparecido	Enrique Videgain
"	Herido	Francisco Muguruza
"	Herido	Luis Cardenas de Pinedo Almeida
"	Herido	Alfonso Lopez Negrin
Alferez	Desaparecido	Fernando Corringer
"	Herido	Francisco Aravello Minguez
Teniente	Desaparecido	Julio Alonso
"	Desaparecido	Jose Gracia Poniton
"	Desaparecido	Jose Lezaun de la Rosa
Capitan	Desaparecido	[illegible]
Teniente	Herido	Leoncio Carballo Penedas
Alferez	Desaparecido	Luis Galan Villar
"	Herido	Pedro Valdes Minguez
Capitan	Desaparecido	Mariano Gonzalez Tello
Teniente	Desaparecido	Manuel Fernandez Capellaje
Alferez	Desaparecido	Jose Diaz Benites
"	Herido	Vicente Lopez Gilabert
Teniente Coronel	Herido	Eduardo Perez Ortiz
Comandante	Desaparecido	Santiago Fernandez Nunez
Teniente	Herido	Miguel Cadenas Rubi
"	Desaparecido	Luis Andujar
Teniente	Desaparecido	Manuel Garcia Pallargas
Capitan	Desaparecido	Sebastian Sabater Camila
Teniente	Desaparecido	Jose Sanz Martinez
"	Desaparecido	Isidro Velasco Agudo
"	Desaparecido	Enrique Martin Martin
Capitan	Desaparecido	Angel Gil Cabrera
Teniente	Desaparecido	Ricardo Fernandez Tilve
Capitan	Desaparecido	Jesus Lopez Vicente

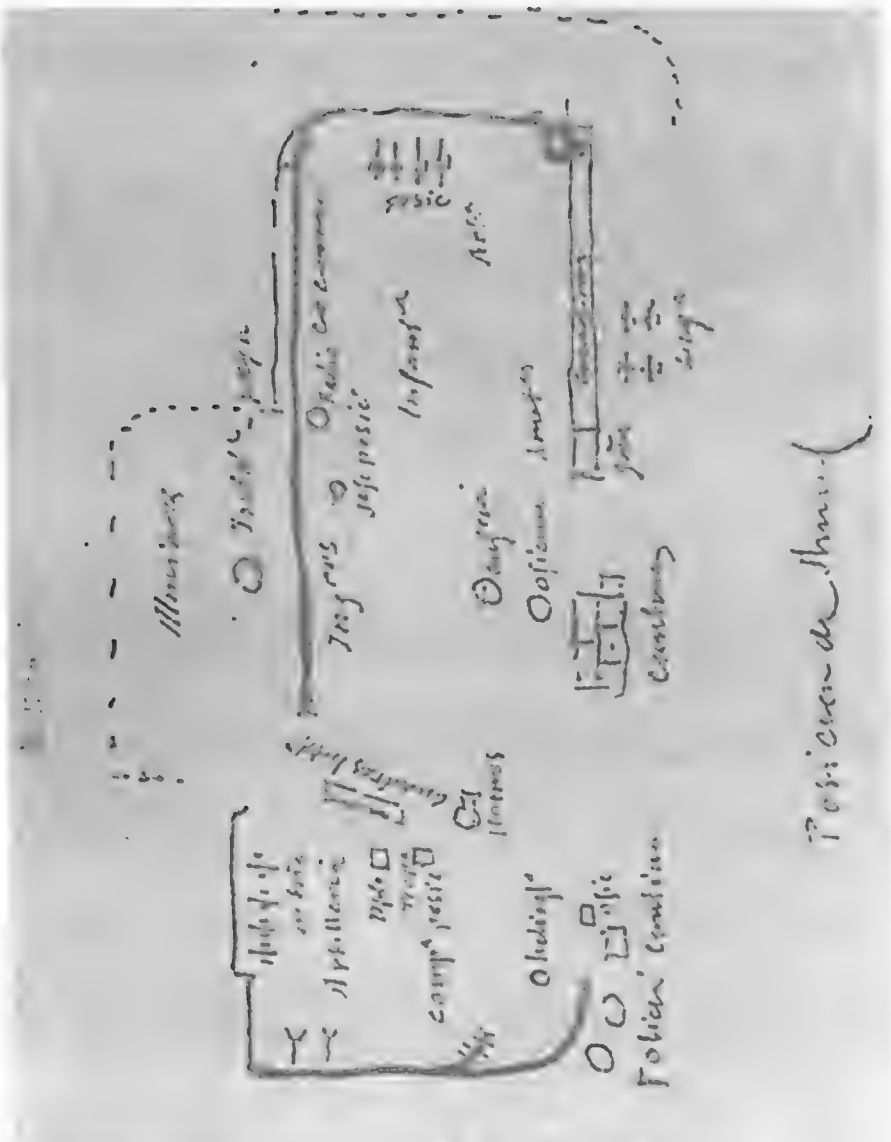

رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر انوال. ويبين مكان محطة الراديو -التي كانت على يمين خيمة سيلفستري- وكذا بطاريات المدفعية والأفران والحانات وأكوام التبن.

رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه حالة المناوشات الحربية بهضبة اعرويت. وتظهر هناك، بيوت المعمرين (التي احتلها الريفيون) المتاخمة لأسوار المعسكر. ويوضح البعد عن مورد الماء (بوادي كبايو). والقرب (بالف متر) من بطارية ريفية تمكنت بنيرانها من إخضاع كتائب نفارو.

رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر ابن طيب. قاعدة الدعم الأساسية لأنوال. تظهر على اليسار المدافع الأربعة التي تم (سحبها) من إيزومار. (وفي الوسط) تظهر المؤونة والذخيرة التي كانت ستوجه إلى انوال. سعة الطريق (عشرة امتار).

رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر دار الكبداني. وهو المكان الذي ابيدت فيه كتيبة اراوخو (المؤلفة من 988 جندي) وذلك بعد استسلام الكولونيل المسؤول عنها في 25 يوليوز. وهنا تظهر الثكنة العسكرية، وفي الأعلى. في الجهة الجنوبية الغربية يظهر مورد الماء الذي توفي عنده الكبطان أمادور الذي لم يستمع لأربع تحذيرات وجهها إليه رؤساؤه، فخرج بقوة عارمة ومات هناك مع رجاله.

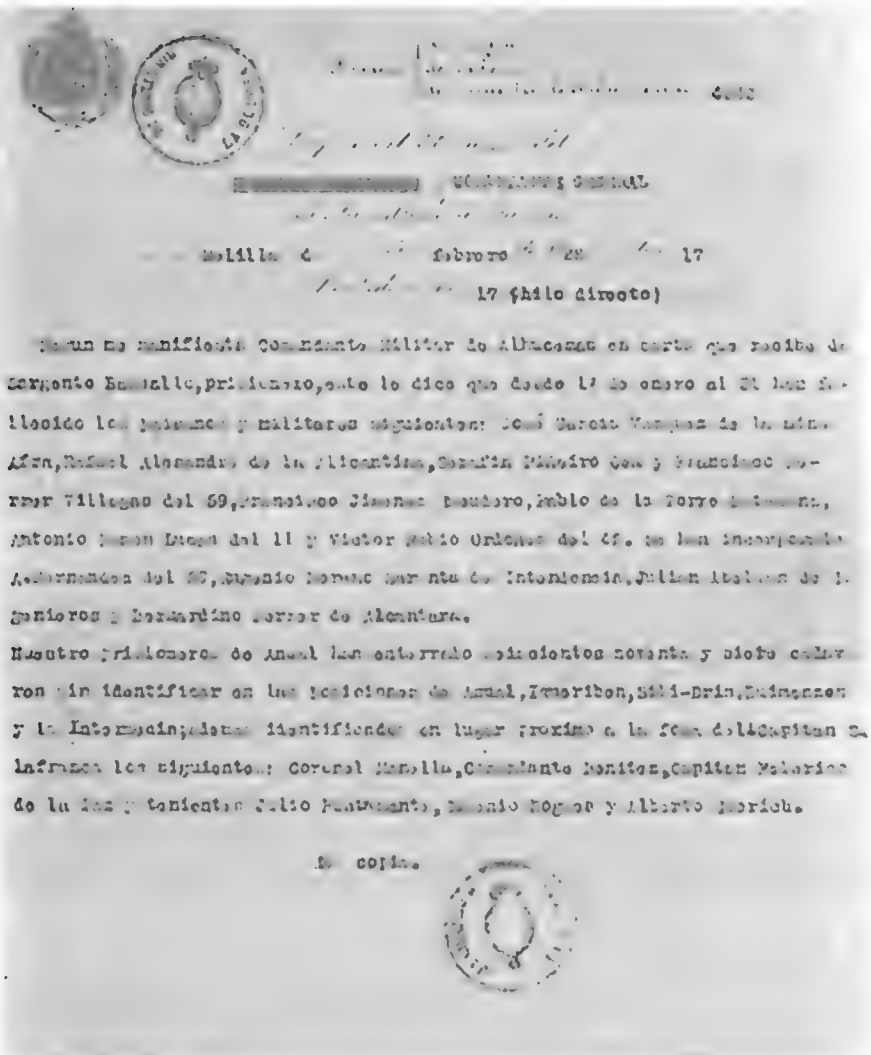

[redacted] COMANDANCIA GENERAL

Melilla 6 febrero 1922 17

17 (hilo directo)

Por un manifiesto Comandante Militar de Alhucemas en carta que recibe de Sargento Bandallo, prisionero, este le dice que desde 1º de enero al 31 han fallecido los jefaces y militares siguientes: José Garcia Vazquez de la Mina Africa, Rafael Alexandre de la Alicantina, Serafin Ramiro Gomez y Francisco Porrer Villegas del 59, Francisco Jimenez Ramiro, Pablo de la Torre Hernandez, Antonio Juan Lucas del 11 y Victor Julio Ordenes del 65. De los incorporados Aeronautas del 87, Eugenio Lopez Garrote de Intendencia, Julian Abalos de Ingenieros y Bernardino Porrer de Alcantara.

Nuestro prisioneros de Annual han enterrado setecientos noventa y siete cadaveres sin identificar en los poblados de Annual, Igueriben, Sidi-Brin, Dzimanzen y la Intermedia; dejando identificados en lugar proximo a la Zona del Capitan Sa. Informan los siguientes: Coronel Manella, Comandante Benitez, Capitan Valeriano de la Isa y tenientes Julio Fontanets, Eugenio Nogues y Alberto Jerich.

Es copia.

نفس البرقية التي بعث بها سان خورخو للاثيربا يوم 04 فبراير 1922 يخبره ان الأسرى الإسبان بقيادة بسايو الرقيب الأول قد دفنوا "697 جثة مجهولة الهوية " في ميادين أنوال. في حين استعادوا اجساد العديد من الضباط الذين تم التعرف عليهم: بنيتيث. بوسطمانطي. إسكريش. باث اوردونيا. نوكس ومانيلا. لكن عائلة هذا الأخير لم تعلم بالحدث.

El Director general
de Instrucción y Administración
del Ministerio de la Guerra,

R. E. P.

a la Sra Dª María, Viuda de Manolín, y tiene el gusto de remitirle el adjunto certificado de desaparecido de su difunto esposo el Coronel Manolín, único que puede extender la Sección en este Ministerio.

ANTONIO ROSADO ORTEGA

aprovecha con gusto esta oportunidad para ofrecer a dicha Señora sus seguridades de su más distinguida consideración.

Madrid 4 de Mayo de 1928

"شهادة الاختفاء" التي تسلمتها ماريا دو كسني ارملة الكولونيل مانيلا من وزارة الدفاع يوم 04 فبراير 1921 والتي تشير إلى "زوجها المتوفي" في 22 يوليوز 1921 عند مرتفعات إيزومار.

23 Octubre julio 1982 general nº

Andreu

Antonio

Modol

Artillero del regto mixto de artilleria de Iguerí ben

Pocos dias despues de establecida la posición de Igueriben los moros empezarón á hostilizarla y trataban de hacer trincheras y emplazar un cañon de Alhurran, á las cuales contestaba la posición. En las inmediaciones vivia un moro de confianza que llevaba viveres para los oficiales y antes de hacer la descubierta reconocia los alrededores de la posición y en la madrugada del 17 de julio les aviso que los moros estaban ocultos para sorprender la descubierta y servicio de aguada, y puesta la tropa en el parapeto empezo el tiroteo quedando todo el dia, del convoy solo entro parte, que permitio dar un vaso por plaza de agua, quedando el ganado del convoy entre el parapeto y la alambrada, que fue muerto por los moros aquella noche, logrando la guarnición matar las acemilas del convoy que se llevaban los moros

En los dias sucesivos no pudo llegar el convoy y dado lo desesperado de la situación el comandante jefe de la posición puso al mando un telegrama anunciandole su decisión de abandonar la posición y exhoorto a la tropa para defenderse energicamente para abrirse paso á viva fuerza. Durante el asedio tuvierón 10 ó 12 muertos y 16 ó 18 heridos. Aunque tenian viveres carecian de agua para condimentarlos no podian utilizarlos bebiendo orines y colonia y comian latas de conservas. Inutilizadas las piezas y ametralladoras, solio el comandante con la sección de vanguardia siendo recibidos con un fuego tan intenso que perecierón todos, escitando á los artilleros el capitan Paz á socorrer á los que habian salido ó perecer con ellos, pero acosados por los moros se produjo gran confusión, debiendo el testigo su salvación á la energia de un sargento de S.M. que se impuso á los moros de policia y regulares para que los protegiera. Llegarón á Anual 15 ó 16 hombres de los 400 españoles que aproximadamente defendian la posición, que conservarón el mejor espiritu no obstante estar agotados de consumo y estenuado por la sed

نسخة موجزة من التصريح الأصلي لأنطونيو اندرو مودول الذي بقي على قيد الحياة بعد احداث إيغريبن. وكان الجنرال بيكاسو قد طالب بنسخة مرقنة لجميع التصريحات التي ادلى بها الشهود في قضيته.

الملحق II

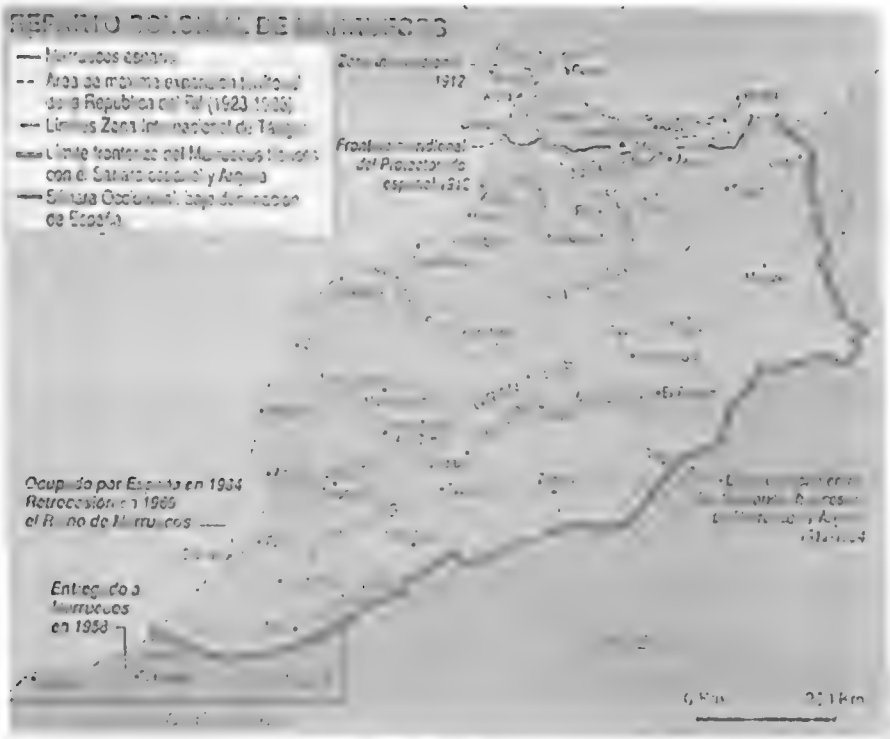
1912
Ocupado por España en 1934
Entregado a
Marruecos
en 1958

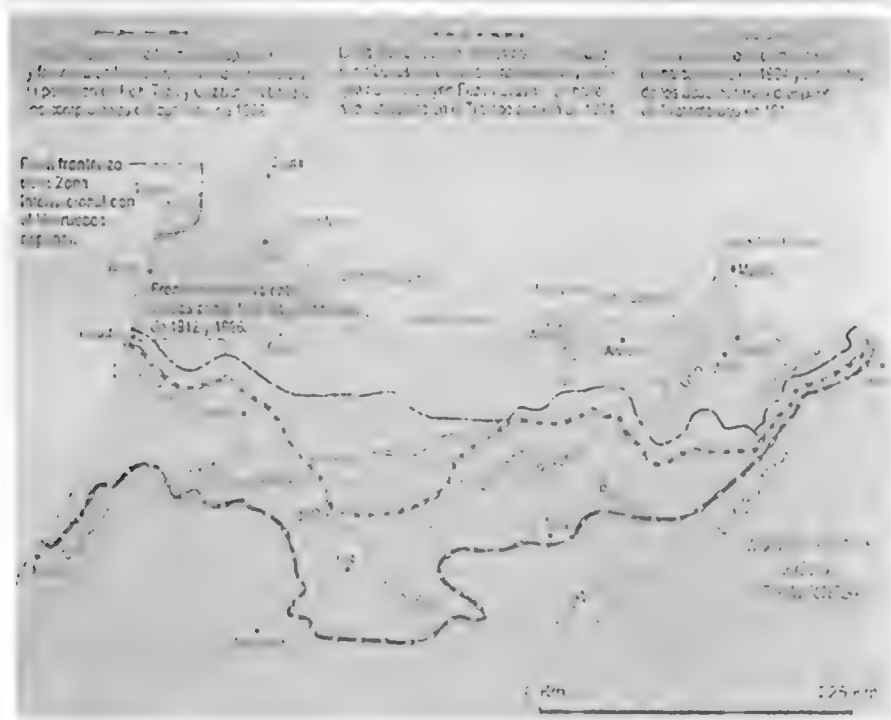

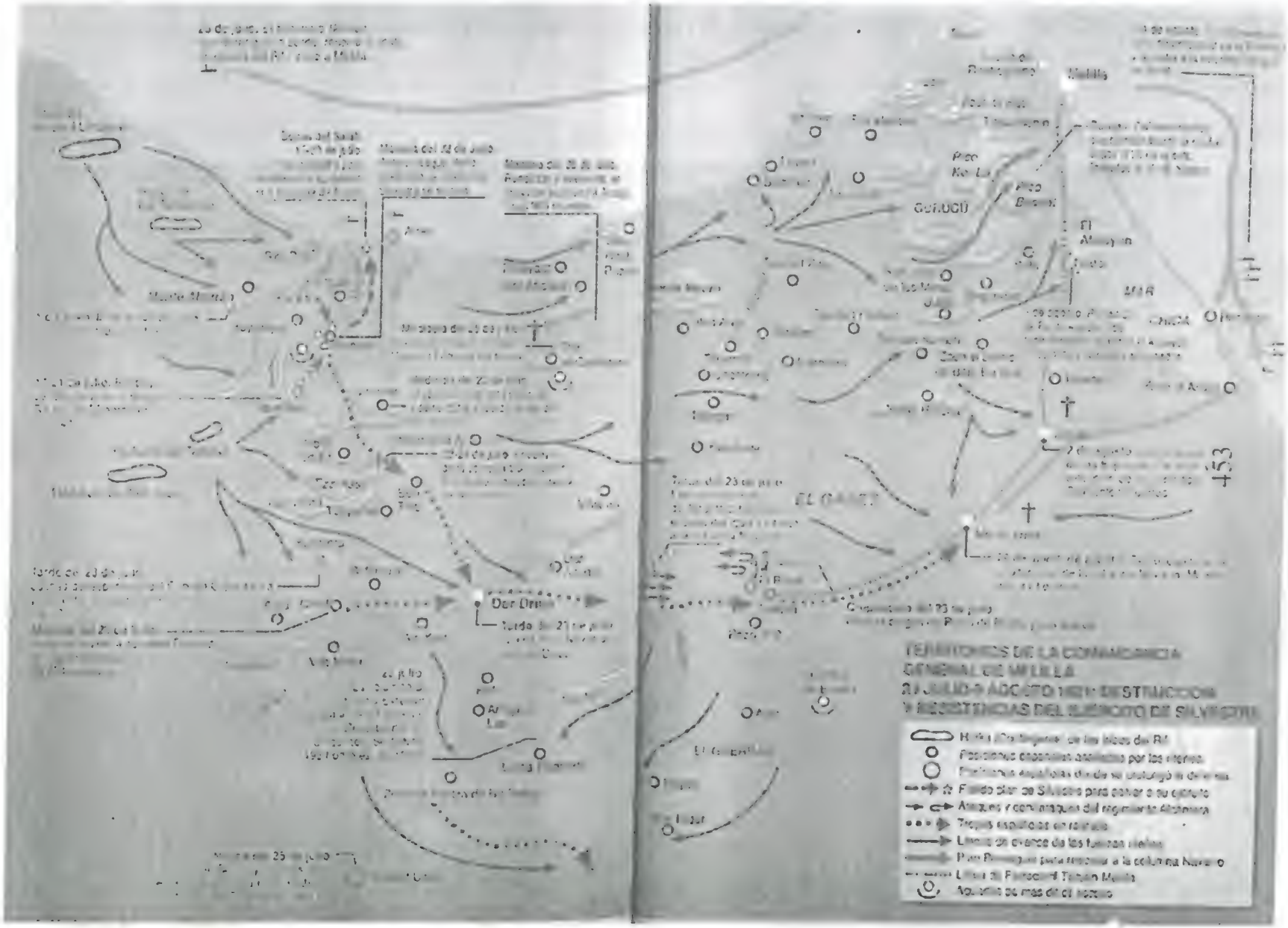
Melilla
Peñón de la Gomera
Peñón de Alhucemas
Islas Chafarinas
Dar Drius
Tarde del 23 de julio
Monte Mauro
Monte Zaio
Monte Tauriat
Monte Arruit
Monte Tamsamán
Monte Tamsamán

AREAS POLITICAS DEL MARRUECOS ESPAÑOL
DIVISIÓN POR CABILAS
YEBALA
GARB
GOMARA
RIF Occidental
RIF Central
RIF Oriental
Melilla
ZONA FRANCESA

مصادر وببليوغرافيا

- الأرشيفات التي جرى البحث فيها (مصادر غير منشورة)

1- الأرشيفات الرسمية

- أرشيف مجلس النواب.
- الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية.
- الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية.
- الأرشيف العام للقصر الملكي.
- أرشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ.
- المصلحة التاريخية العسكرية.
- المكتبة الوطنية أرشيف غارسيا فيغيراس.

2- أرشيفات ومصنفات شخصية، وأرشيفات المديريات الإقليمية.

- أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا.
- أرشيف منظمة الصليب الأحمر الإسباني.
- أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث.
- أرشيف سنتياغو دومينكز يوسا.
- جمعية دراسات مليلية.
- المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا.

- مصادر أخرى

- مذكرات الجلسات البرلمانية.
- الفصل التشريعي لسنتي 1912-1913 في 19 مجلد.
- الفصل التشريعي لسنتي 1919-1920 في 13 مجلد.
- الفصل التشريعي لسنتي 1921-1922 في 10 مجلدات.
- الفصل التشريعي لسنتي 1922-1923 في 17 مجلد.
- وثائق مرتبطة بالتحقيقات التي أنجزها الجنرال خوان بيكاسو بشأن تحديد مسؤوليات التدخل الإسباني في المغرب في يوليوز 1921. بالإضافة إلى ملخص مطبوع لنفس الملف التحقيقي (والمكون من 2.433 ورقة) والذي سيحمل فيما بعد الاسم العائلي للجنرال، الذي كان عضوا في المجلس الأعلى للحرب والبحرية. منشورات موراطا. (1922) في 616 صفحة (ويتضمن ملحقا للملف نفسه).
- *تحقيقات حكومية لمعرفة ملابسات وظروف الانسحاب من المواقع المحاذية للمفوضية السامية بمليلية في شهر يوليوز 1921*. وهذه التحقيقات شكلت دعامة وثائقية مهمة، بموجبها تحركت بعض الأوساط سنة 1922 بطلب من المجلس الأعلى للحرب والبحرية، بهدف تحريض مجلس شيوخ الدولة عل المطالبة بإجراء محاكمة للجنرال دامسو برنكر الذي كان آنذاك مقيما عاما.
- *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب (1859-1927)*. هيأة أركان الحرب الوسطى لقوات الجيش والمصلحة التاريخية العسكرية. مدريد، منشورات1951-1981. في أربع مجلدات وخرائط عديدة.
- *الرواق العسكري المعاصر. التشكيلة الملكية والعسكرية لسان فرناندو، الميدالية العسكرية*... دراسة كل القرارات التي تقضي بمنح تلك الامتيازات للعسكريين والمواطنين ما بين سنتي 1893 (حرب مليلية) و1958 (حيث الهجوم على إفني والصحراء المغربية) المصلحة التاريخية العسكرية. مدريد. منشورات 1973-1974-1981-1984، في سبع مجلدات.
- *السجل العسكري السنوي لإسبانيا*. نظام وحدات الجيش، مخازن المعدات، وأوراش الأسلحة التي (كانت توزع حسب درجة واقدمية الجيش) والوحدات العسكرية والعلاقات التي كانت تربط مختلف الهيئات العسكرية، وفهرس أسماء الضباط، بترتيب أبجدي. وزارة الحرب. الأرشيف الحربي. مدريد. منشورات -1923-1926-1928-1931 1921-1922.

جرائد ومجلات

- *ا-ب-سي*.
- *دياريو أونيبرسال*.
- *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا*.
- *لا إيبوكا*.
- *إلرالدو دي مدريد*.
- *الإمبرثيال*.

- *الليبرال.*
- *الصول.*
- *تلغراف الريف.*
- *لابوث.*
- *مليلية اووي.*
- *مجلة الدراسات المغربية.*

ببليوغرافيا مختارة

- الونصو، خوصي رامون، **التاريخ السياسي للجيش الإسباني**. دار النشر الوطنية. مدريد 1974. 567 صفحة.
- ايندي سلاسار، خوصي مانويل، **الديبلوماسية الإسبانية والمغرب 1907-1909**. منشورات ديسبوغراف. المكتبة الديبلوماسية الإسبانية. مدريد 1990. 274 صفحة.
- عياش جرمان، **أصول حرب الريف**. منشورات سمير. الرباط 1981. 374 صفحة.
- بيكر غونثالس. **خيرونيمو، تاريخ المغرب**. مطابع جيمس راطيس. مدريد. 1915. 590 صفحة.
- برنكر دامسو، **الحملات العسكرية على الريف وجبالة**. 1921 - 1922 ملاحظات ووثائق من مذكرتي حول العمليات العسكرية. مدريد. سوثيسوريس. فيلاسكو. 1923. 267 صفحة.
- بالنكو إزاغا، إميليو، حياة مكرسة لخدمة إسبانيا، الجنرال دون فيدل دافيلا أروندو(1878-1962) الصحافة الإسبانية، مدريد. 1978. 617 صفحة.
- إزا، فيكونت (لويس دي ماريشلار ومونريال)، **مسؤوليتي كوزير للحرب في كارثة مليلية**. منشورات غرافيكاس ريونيداس. مدريد. 1923. 521 صفحة.
- فرانكو سلغادو - أراوخو، **فرانثيسكو، حياتي بجوار فرانكو**. دار النشر بلانيطا. برشلونة. 1977. 404 صفحة.
- غارسيا فيغيراس، طوماس إي إرناندس دي إريرا كارلوس، **التدخل الإسباني في المغرب**، (1927-1492). مطبعة البلدية. مدريد 1929. 691 صفحة.
- لرشوندي، خوصي، **المفردات الإسبانية-العربية في العامية المغربية**. المطبعة الإسبانية-العربية للبعثة الكاثوليكية. طنجة 1932. 856 صفحة.
- لوبس ريندا رافائيل، **وجها لوجه مع الفشل، الريسوني، من سيلفستري إلى بورغيطي**. الشركة العامة للمكتبات. مدريد 1923. 274 صفحة.
- مونطغومري هارت، دافيد، **"اتنوغرافية الريفيين، قبيلة بني ورياغل"** في مجلة الدراسات المغربية، السنة الثانية، 1954 الصفحات، 51-86.
- بايني ستانلي خ، **العسكريون، والسياسة في إسبانيا المعاصرة**، دار النشر ساربي. مدريد 1986. 393 صفحة.
- بريث اورتيس، إدواردو، **من انوال إلى اعروبت وثمانية عشر شهرا من الأسر. حكاية شاهد عيان**. ارطيس كرافيكاس. بوسطال إكسبرس. مليلية. 1923. 318 صفحة.
- ساينث غوتيرث سيغفريدو، **مع الجنرال نفارو. في الحروب وفي الأسر** (مقدمة البارون دافاليوس - فيليب نفارو وثبايوس إسكاليرا). سوثيسورس ريفدينيرا. مدريد 1924. 668 صفحة.
- فيفيرو، اوغوستو، **الانهيار، رفائيل كارو راجيو**. الناشر. مدريد 192. 238 صفحة.
- ولمان دافيد، **عبد الكريم وحرب الريف** (الترجمة بالإسبانية لمارغريدا غراطكوس) اويكوس-طاو. برشلونة. 1971. 298 صفحة.

فهرس الأعلام

- إباروندو أوليفاريس، مانويل (تنيتي)
- اثانيا إي دياث، مانويل،
- اثكارغا إي بلميرو، مارثيلو (جنرال)
- اثنار، خوان باوتيستا (الميرال)
- إثيخا إي مورالس، غونثالو (كومندان)
- اثيطونو، فرخنيو (عسكري)
- احمد بورجيلة (واحد من أعيان بني حذيفة)
- اخماس (قبيلة بني غمارة)
- إدالغو (طيار تنيتي)
- إدالغو إدالغو، ماريو (خفير)
- إدريس I (اول ملك للمغرب)
- إدريس الريف (باشا اصيلا)
- ارا إثكيردو، جوليو (حارس)
- ارانغورن لانديرو، ماريانو (قبطان)
- اراوخو سولر، إدواردو (قبطان)
- اراوخو طورس، سيلفيريو (كولونيل)
- ارايث دي كونديبيرا اوغارطي دومينكو (جنرال)
- آرثي إرادير، رامون (قبطان)
- ارخونا مونسو، خوصي (تنيتي)
- ارغوييس دي لوس ريوس، خواكين (كولونيل)
- ارفارو مندوثا، فيليب (جنرال ومقيم عام)
- ارميخو غارسيا، إدواردو (كومندان)
- اريناس إسكولانو، فيليكس (قبطان)
- ارنزانزا لاندا، خسوس (خفير)
- اروندو، إيرني.
- ارويو مورينو، مانويل (تنيتي)
- ارويو، كاليكستو (جندي)
- أرياس باث، مانويل (تنيتي مسؤول على البرقيات)
- اريثا غومس، فرانثيسكو (قبطان حرب 1893-94)،
- اريثون (ضابط الطيران الجوي)
- اريفالو (ملازم ثان)
- اريناس غاسبار، فرانثيسكو (تنيتي)
- اريناس مولينس (اومولينا) اوريليو (تنيتي)
- ازغار (فخذ بقيوة)
- إزمورن (فخذ من قبيلة بقيوة)
- اسايسي دي لوكاس، مانويل (تنيتي)
- إسبينوسا سانتيث، الفونصو (جندي)
- إسبينوسا، خوصي (صحافي)
- إسكريبانو اغوادو، ريكاردو (تنيتي)
- إسكريبانو اونسوبي، انطونيو (قبطان)
- إسكيرش لوبو، البرطو (تنيتي)
- اسنسي رودريغس، فرانثيسكو (قبطان)
- اسنسيو كبانياس، كارلوس (قبطانين)
- إشاغوي، رامون (جنرال ووزير حرب)
- إشفريطا ماوري، اوراثيو (موظف بالبنك ورجل اعمال)
- اغري إي اولوزاغا، ماريا انطونيا
- إغليسياس (مساعد طيار)
- إغليسياس بوسي، بابلو (نائب برلماني وزعيم اشتراكي)
- اغويا خمينس كورونادو، إدواردو (تنيتي)
- آلاس بومارنيو طرونكوسو، نيكانور (نائب برلماني محافظ)
- البا بونيفاس، سنتياغو (وزير الدولة)
- الديرطي إرديا (ملازم ثان)
- الغريبا ريثبال، خوصيفينا
- الفارو غونثالس، اغوستين (تنيتي)
- آلفاريث دي كورال، فرناندو (تنيتي كولونيل)
- آلفاريث ديل مانسانو، برناردو (جنرال)
- الفاريث غرينون، فكتوريو (قبطان)

- آلفاريث غونثالس، ميلكيادس (زعيم الإصلاح)
- آلفاريث فاليرا، إدواردو (كولونيل ومؤرخ)
- الفونصو الثالث عشر
- المارشا غارسيا، مانويل (شرطة الأمن الوطني)
- المانسا دياث، فيليكس (قبطان)
- الونصو إسطرينغانا، فرانثيسكو (قبطان)
- امادور اسين، إنريكي (قبطان)
- اماديوا دي سابويا
- اماروشن (زعيم قبيلة بني سعيد)
- إمبرودا أورتيث، بلاس خسوس (مؤرخ ومحام)
- امبوديا، خوان (جنرال)،
- اموروس بيدرو، فيسنطي (مستوطن)
- آميوديا لوبيث، فرانثيسكو (جنرال)
- إنثا آلفارس، حرمان (نائب برلماني)
- انجرة (قبيلة من جبالة)
- اندرو مودول، انطونيو (جندي)
- إنريلي إي لوبث مورلا، انطونيو (تنيتي)
- انطون (نائب وربان طائرة)
- انطون بلاثيوس، انطونيو (تنيتي)
- اوبيلو، إنريكي (قبطان)
- اوثايطا غيبرا، خوان (قبطان)
- اوثيس اولايا، خوصي (تنيتي)
- اوخيدا بارونا، مانويل (كومندان)
- اودونيل، ليوبولدو
- اورا ميلغارس، إنريكي (تنيتي)
- اورتيغا غارسيا، رافائيل (ضابط2)
- اورتيغا غاسيط، إدواردو (نائب اليسار الليبرالي)
- اورغاث يولدي، لويس (كومندان)
- اوركيخو دي اوريول كاطالينا
- اورمايشي دي مورالس، كارمن
- اوروطيا غونثاليث، غوسطافو (جنرال)
- اوغارثا خورادو، ماريا لوريطو
- اوغارطي ساينث، لويس (تنيتي كولونيل)
- اوفقير محمد (كومندان وبعدها جنرال)
- اوقرقاس محمد (شخصية من تمسمان)
- اولاد ستوت (قبيلة في الريف الشرقي)
- اولاد سيدي بركة، سيدي محمد (زعيم انجرة)
- اوناموتو ميغيل
- اونثيطا، خوان (كومندان)
- اونطوريا مانويل (راهب "كابوشي")
- اويلفا بيياريس، رامون (قبطان)
- ايالا (تنيتي)
- ايالا لويث، اوطالفو (جنرال)
- ايت خطاب (دوار بجهة الحسيمة)
- ايت علي (عائلة ريفية في جهة الحسيمة)
- ايت ورياغل (بني ورياغل بالحسيمة)
- ايت يوسف (عائلة ريفية في جهة الحسيمة)
- ايثبورو مودخار، كارمن
- ايثبورو مودخار، لويس (جنرال ومقيم عام)
- ايثبورو، مارتين- بينيوس كارمن
- ايثبيطيا، انطونيو (صحافي)
- إيخو، قمن فيطوريا. 155.
- إيرامس مانويل (مسؤول البرقيات)
- إيرنانديث (تنيتي)
- إيرنانديث اولاغيبيل، خوان بيدرو (كومندان)
- إيرنانديث روميرو اونوارطو (تنيتي)
- إيريارطي، غييرمو (كولونيل)
- إيزا، فيكونت (لويس دي ماريشالار ومونريال، ووزير الحرب)
- إيغيراس بابلوس، نارثيسو
- ايمات ماريكا، خوصي (قائد الملاحة الجوية)
- ايندي سلاسار، مانويل (رئيس الحكومة)
- إينفر، باشا (زعيم الشباب الأتراك)
- ايوي سالفادور، ميغيل (عضو في المؤتمر او المجلس)
- ابن اسماني، إلغاتو (امين سر الريفيين)
- ابن دحاس (خفير الشرطة الأهلية)
- ابن شلال (زعيم بني بو إفرور)

- ابن لحسن ابراهيم (ضابط صف في الجيوش الأهلية)
- ابن مالك (عائلة من جبالة)
- ابن مالك احمد (زعيم من جبالة)
- ابن هلال (واحد من الأعيان الريفيين)
- ادريس بن سعيد، (واحد من الأعيان الريفيين)
- ادريس بوزين (واحد من اعيان بني ورياغل)
- امحند ابقوي(واحد من أعيان قبيلة بني ورياغل)
- باث اوردونيا، فيديريكو (قبطان)
- باث اوردونيا، ميغيل (قبطان)
- باثكيث برناهو، انطونيو (ملازم طبيب)
- الباثيطي إوسطاكيو (جندي)
- باحماد (وزير المولى عبد العزيز)
- بادورا سيغي، اومبيرتو (تنيتي)
- بادورا سيغي، اومبيرتو (تنيتي)
- بارا دي ريي سانث، خواكين (تنيتي)
- بارثيا طريس، اوغوستو (نائب برلماني)
- باردو اغودين، فرانثيسكو (تنيتي كولونيل)
- باردو بثان، إميليا، كونتيسة
- بارديناس سيراطو، مانويل (فوضوي)
- باريرا لوياندو، إميليو (جنرال)
- باريلا إغليسياس، خوصي إنريكي (جنرال)
- باسكونس إيدالغو، ماكاريو (قبطان)
- الباطيرا (مستعمر) معمّر او مستوطن
- باغي، إميلو (تاجر إيطالي)
- بالدري، ماركيز (مانويل بيدال وبرناردو دي كيروس)
- بالديس (ملازم الجوية)
- بالديس، إرنيستو (تنيتي)
- بالسيرو غومس، البرطو (ملازن ثان)
- بالكارثيل بلايا، إسيدورو (تنيتي كولونيل)
- بالكارثيل غايغوس انطونيو (قبطان)
- باندين ديلغادو، مانويل (قبطان)
- بايثا، إميليو (قس)
- بايخو بيلا، انطونيو (جنرال)
- براتيري، اورستيس (جنرال الحرب)
- براخاس، فاوستو (مصارع الثيران)
- برانكيز رويث ابوداكا، خوصي ماريا (وزير الحربية)
- برثيلو، روسا مارغاريتا
- برخيس كاستيل، بينيطو (جندي)
- برنال غونثاليث، إلياس (تنيتي)
- برنكر بونيميطي، دامسو (كولونيل)
- برنكر فوسطي، دامسو (كونت شفشاون، مقيم عام، ورئيش حكومة)
- برنكر فوسطي، فيدريكو (جنرال)
- برنكر، خوان (ملازم ثان وصحافي)
- بريثوسا، بيو (طبيب تنيتي كولونيل)
- بريرو ساندانيا، ابيلو (كومندان)
- بريطو طويرو، إينداليثو (نائب اشتراكي)
- بريمو إي براطس، خوان
- بريمو دي ريفيرا، اورباينخا، فرناندو (تنيتي كولونيل)
- بريمو دي ريفيرا، سوبر مونتي فرناندو (جنرال)
- بريمو دي ريفيرا، ميغيل (جنرال ورئيس الإدارة)
- بسايو بثييرا، فرنثيسكو (خفير)
- بسطيرو فرنانديث، خوليان (نائب برلماني من الحزب الاشتراكي)
- بقيوة (قبيلة الريف المتوسط)
- بكار (مولاي احمد تازية، قاطع طريق من جبالة)
- بلاثيو بالديس، إدواردو (عضو في مجلس)
- بلاثيوس (نائب في تيار الإصلاحيين)
- بلاس (خفير)
- بلانكو دييس دي يسلا، رامون (قبطان)
- بنومار، كونت (فرانثيسكو ميري كولوم دي غايلي)
- بني إثكي (فخذ من بني تويزت)
- بني اولشيك (قبيلة الريف الشرقي)
- بني اعروس (قبيلة من قبائل الغرب)
- بني بوغفار (قبيلة من الريف الشرقي)

- بني بوفارشا (فخذ من مطالزا)
- بني بويحيى (قبيلة من الريف الشرقي)
- بني بويدر (فخذ من تمسمان)
- بني توزين (قبيلة الريف المتوسط)
- بني حذيفة (فخذ من بني ورياغل)
- بني سعيد(قبيلة الريف الشرقي)
- بني سيكار (قبيلة الريف الشرقي)
- بني عبد الله (فخذ من بني ورياغل)
- بني ورياغل (قبيلة بالريف المتوسط)
- بني يسف (قبيلة من جبالة)
- بني يطف (قبيلة بالريف الغربي)
- بنيا رودريغس، اندريه (كومندان)
- بنيا مارتينيث، فيليبي (ملازم طبيب)
- بنيتيث، بنيتيث، خوليو (كومندان)
- بنيطو مارتينث، خسوس (تنيتي)
- بنيوش (كبير القساوسة)
- بوامانة (ضابط من الأهالي، فرّ من الجندية)
- بواس إلفيرا، فيكتوريانو (تنيتي)
- بواسيط (القنصل الفرنسي بالعرائش)
- بوانكاري، رايموند (رئيس الجمهورية الفرنسية)
- بوبكر الحاج حاشن (واحد من اعيان قبيلة بني ورياغل)
- بوبكر بلحاج حاشن، (واحد من اعيان بني ورياغل)
- بوحراي (زعيم ريفي)
- بورغيطي لانا، ريكاردو (جنرال ومقيم عام)
- بوريس مارتينث، فيدل (جندي)
- بوسلمان (واحد من اعيان قبيلة بني ورياغل)
- بوطالا (واحد من اعيان فارشا)
- بوغيال أراوخو، غابينو (وزير المالية)
- بولنيس، ارتورو (قبطان)
- بوميس دامونت، خوصي (قبطان)
- بونثي دي ليون غروندونا، ديونيسيو (قبطان)
- بونيلا (المشرف على عمليات الدفن ببوكسدا)
- بوورامس طوماس (صحافي)
- بوورون، غريغوريو (عضو في المجلس)
- بوين، اودون (عضو في المجلس)
- بيار البارادو، خسوس (قومندان)
- بياسيندا، ماركيز (لويس فاليرا إي ديلفاط)
- بياكامبا ديل كستيو، مانويل (جنرال)
- بيالبا ريكيلمي، خوصي (جنرال)
- بيانويبا غوميس ميغيل (نائب برلماني ومقيم عام)
- بيانويبا هوبر، رفائيل (خفير)
- بيبيرا اوغوستو (صحافي وكاتب)
- بيبيس إي فيش، بيدرو (كولونيل)
- بيتا، فيديركو (كاتب)
- بيدال ترينيداد
- بيرالطا، خوان لوبيث (عضو في مجلس)
- بيرديكارس، جون هانفورد (ملياردير امريكي)
- بيرني، هنري (مؤرخ)
- بيريث آنخيل (جندي)
- بيريث اورتيس، إدواردو (تنيتي كولونيل)
- بيريث أونداطيغي، فاليرو (تنيتي)
- بيريث بنيامريا، خوصي (قبطان)
- بيريث دي غوثمان، بيدرو (نائب)
- بيريث رينوثيو، ليبوريو (قبطان)
- بيريث طوريس، مانويل (قبطان طبيب)
- بيريث غارسيا، ميغيل (قبطان)
- بيريث فالدفيا، خواكين (قبطان)
- بيريث كبايرو، خوان (سياسي ليبرالي)
- بيسنط لاسو دي لافيغا ماريا لوث،
- بيطوريكا كاسوسو، خوان (نائب برلماني)
- بيغتيس اغيلار، ماريانو (قبطان)
- بيكاسو خوان بوتيستا
- بيكاسو غونثالث، خوان (جنرال)
- بيكاسو فرانثيسكو
- بيكاسو فيسنطي، ادالبرطو
- بيكاسو فيسنط، نسطور (كولونيل)
- بيكاسو لوبيث، خوان كارلوس

- بيكاسو، طوماسو
- بيكتوريا اوخنيا (ملكة إسبانيا)
- بيكتوريا، دوقة (كارمن انغوليطي إي ميسا)
- بيكيراس تريبيس (تنيتي كولونيل)
- بيلاثكيث إي خيل دي ارانا خوان (كومندان)
- بيمارتين إي سان خوان، خوصي (عضو في مجلس)
- بينو (نائب برلماني)
- بينياس رودولفو (صحافي)
- بيود كيبلير، ريكاردو (ملازم الملاحة الجوية)
- بيون روكا طوغورس، خواكين (تنيتي)
- تاغديست (فخذ من بقيوة)
- تافريست (قبيلة من الريف المتوسط)
- تافنسه (فخذ من بقيوة)
- تمسمان (قبيلة من الريف المتوسط)
- توغروت (فخذ من تمسمان)
- ثابينو إي ثابينو كارلوس (قبطان)
- ثاراطي دانييل (خفير)
- ثانكادا إي روادا براكسيديس (نائب ديمقراطي)
- ثراغوثا فرنانديث، مانويل (تنيتي)
- الثوغاراي غويغو. إشيا، إميليو (كومندان)
- ثوغاسطي ديكسون، خوان (القنصل الإسباني بطنجة)
- ثيبوط
- ثيبوط، ماريا روسا
- ثيبوينو بون ليندیمان، خواكين (قبطان)
- ثيبيرا (واحد من اعيان بقيوة)
- ثيربيرا، باسكوال (الميرال 1898)
- ثيرفا بنيافييل، خوان (وزير الحرب)
- ثيريط (تنيتي فرنسي)
- ثيفانطوس بونانيو، مانويل (كولونيل)
- ثيفانطوس كانيس، خوصي (تنيتي)
- ثيكري مارتينيث، انطونيو (تنيتي كولونيل)
- جريي. انجلو (مغامر إيطالي)
- جيلابرت اوزا، إستيبان (ملازم ثان)
- جيلالي مول عودو (نائب الروكي)
- جيو فراي (السفير الفرنسي بمدريد)
- الحاج القاسمي ميمون (شخصية من بني اولشيك)
- الحاج حادور بوشتى (واحد من اعيان تمسمان)
- الحاج عبد الله، (واحد من اعيان بني عبد الله)
- الحاج عبيد (واحد من الأعيان الريفيين)
- الحاج عمار، (واحد من الأعيان الريفيين)
- حامد (واحد من اعيان مطالسة)
- حامد اشحور احسوب (واحد من اعيان بني سعيد)
- حدو ابن عيسى، (ربما من قبيلة بني بويحيى)
- الحسن الثاني (العاهل العلوي الرابع عشر)
- حمو (واحد من الأعيان الريفيين) المنتسب ربما إلى قبيلة بني بويحيى)
- حمو بولخريف
- خمينس اورطونيدا، خسوس (قبطان)
- خمينس خيرون، إنريكي (استاذ)
- خمينس غاريدو، خوصي
- خمينس، ارويو فرانثيسكو (كولونيل)
- خوان (صاحب الزورق بالناظور)
- خوردان بيريث، مانويل (قبطان)
- خوردان ميرايس، إدواردو (جندي)
- خينسيريكو (زعيم متسلط)
- خييل يوسطي، جرمان (جنرال)
- خييلس دي خوردان، دورا
- دابالوس اندريه (الذي غزا منطقة الحسيمة)
- داتو إيرادير، إدواردو (رئيس الحكومة)
- دافيلا اروندو، فيدل (تنيتي كولونيل)
- دراغو إي ايلا فرانثيسكو
- دريفوس، كاسو
- دوارطي إي اوطيثا، إلفيرا
- دوكسني منطالبو، ماريا
- دولز ديل كاسطيار لوثانو خثينطو (قبطان)
- دومينكز يوسا، ستياغو (مؤرخ)
- دومينكو، مارثيلينو (نائب برلماني يساري قاطلونيا)

- دوينياس سانتيث، فرانثيسكو (خفير)
- ديسبوجول ساباطير، إيغناثيو (كولونيل)
- ديلغادو نوني، فرانثيسكو (تنيتي)
- ديلكاسي طيوفيل (وزير الخارجية الفرنسي)
- ديث دي ريبينغا بيثينطي إميليو (نائب برلماني
- دييث ليثانا، خوان (قبطان)
- روانو بنيا، لويس (قبطان)
- روانو دي لاسوطا، خوان خوصي (نائب برلماني محافظ)
- روبيو فرنانديث، إدواردو (صحافي)
- رودريغس ارانغو، رومان (تنيتي)
- رودريغس اوفيدو (تنيتي)
- رودريغس ايير، ماورو (قبطان)
- رودريغس باريرو، خواكين (خفير)
- رودريغس ديل باريو، آنخيل (كولونيل)
- رودريغس فالس، فيليب (نائب برلماني إقليمي)
- رودريغس فيغوري، لويس (نائب برلماني محافظ)
- رودس إي بالدريش، فيليب (نائب برلماني إقليمي)
- رودكين، وليام، ث (جنرال بريطاني)
- روديرو سرانو، رامون (تنيتي)
- روس دي اولانود، انطونيو (كاتب وجنرال حرب عام 1859 - 1860)
- روس سانتيث، مانويل (تنيتي كولونيل)
- روسفلط، تيودور
- روفر موطا، خوصي (طبيب تنيتي)
- الروكي (الجيلالي بن ادريس، عبد السلام اليوسف، الراغب في اعتلاء عرش المغرب)
- رومانونس سانتا رومانا، آنخيل (مستشار حقوقي)
- رومانونس، كونت (آلفارو دي فيغيروا طورس)
- روميرو اوريغو، خوصي (تنيتي كولونيل)
- روميرو لوبيث، خوان (كومنادن)
- روميو سانث، ليوبولدو (صحافي ونائب برلماني)
- رونو (القنصل الفرنسي لفاس)
- رويث اوسونا، إنريكي (ملازم ثان)
- رويث بلاسكو، خوصي
- رويث بيكاسو، بابلو
- رويث دي لافونتي، سانشيث بورطا آنخيل (مستشار حقوقي)
- رويث طبيادور غوادالوبي إديفونصو (ملازم ثان)
- رويدا (ضابط الملاحة الجوية)
- رويداس ليدسما، لوبيث (قبطان)
- ريبريسا إدواردو (جنرال)
- ريبويار مارتينث، طيوفيلو (طبيب تنيتي)
- ريبيا، إمليانو (كابوشي)
- ريدوندو، خوان (قبطان)
- ريكساي بوييغ، بيدرو (قبطان)
- ريكيلمي لوبيث، باغو، خوصي (كولونيل)
- ريليا كامبوس، سلفادور (تنيتي)
- ريوس اوروطي، فرناندو (نائب برلماني من الحزب الاشتراكي)
- ريوس غارسيا، إسماعيل (تنيتي)
- رييج (مطران فالنسيا)
- رييج فاليرنيو، انطونيو (تنيتي)
- رييس (تنيتي)
- رييس فيانوفا، فرانثيسكو (قبطان)
- رييو إريرا، إميليو (بلطجي)
- ساراديل فارامس، خوان (نائب من اليسار الليبرالي)
- سانطوس رودريغيس، لوبيث (قبطان)
- ساليكيط ثوميطا، اندريه (كولونيل)
- سان خورخي سكانيل، خوصي (جنرال)
- سان مارتين، فيكتور (تنيتي)
- سانتيث (تنيتي)
- سانتيث ابريثيو، نارثيسو (قبطان)
- سانتيث دي طوكا، خواكين (سياسي محافظ)
- سانتيث غيبرا، خوصي (رئيس البرلمان)
- سانتيث مونخي كروث، إنريكي (قبطان)
- سانتيث مونخي يانوس، خراردو (كولونيل)
- سانتيث، إليسيو (قبطان الملاحة البحرية)

- سانطاندر، خوصي (رئيس بلدية فيفسيوسا دي اودون)
- ساينث انديرو، ريكاردو (تنينتي)
- ساينث دي بورواغا بولانكو لأبولينار (قبطان الملاحة الجوية)
- ساينث غارسيا، رفائيل (كومندان)
- ساينث غوطيريث، سيغفريدو (قبطان)
- سباتي سوطورا، إميليو (قبطان)
- سطولزنبرغ (شركة كيماوية المانية)
- سغاسطا إشفريا، ماطيو برناردو (نائب برلماني ديمقراطي)
- سغاسطا، براكسدس ماطيو
- سلاس فرانكا باريو، خوان (قبطان)
- سلاس خافير (تنينتي الملاحة البحرية)
- سلاس لاراثبال، رامون (جنرال ومؤرخ)
- سلامة ميغيل، باسليو (تنينتي)
- سلثيدو مولينويبو، إنريكي (كولونيل)
- سلفادور (ممير نقابي)
- سماتة (قبيلة في ناحية الغرب)
- سنتياغو (مساعد كبلكانتي)
- سنتياغو اغيريبينغوا، لويس (جنرال ووزير)
- سواريث كانطون نيكولاس (تنينتي)
- سوتو كوندي، ماونيل (تنينتي)
- سوردو كوليو، رفاييل (جندي)
- سوريانو رودريغو (سياسي جمهوري)
- سوسانا طورنطس، فرانثيثكو (تنينتي كولونيل)
- سولانو مانسو دي ثونيغا، رامون (نائب برلماني محافظ)
- سي حمو (شخصية من بني سعيد)
- سي علال الورطي (تاجر واستاذ بمليلية)
- السيد (بواق)
- السيد المقاتل (رودريكو دياس دي فيفار)
- سيدة اورناشويلوس، (مرثيدس دي كوباس إي إركيخو)
- سيدي اقلعي ابن احمد (واحد من اعيان جبالة)
- سيدي او سي، عبد الكريم الخطابي. (واحد من اعيان اجدير)
- سيدي امحمد عمار (شخصية بارزة من بني ورياغل)
- سيدي امساند (شخصية من بني ورياغل)
- سيدي دادي (واحد من اعيان بقيوة)
- سيدي دادي امحمدي جينايس دا الله (واحد من اعيان بني ورياغل)
- سيدي علي ساحلي (ضابط اهلي)
- سيدي محمد امزيان (زعيم الريف سنة 1910 - 1912)
- سيست روبييو، فيثنتي (قبطان)
- سيطمينات إي فونتكو برتا، خوصي ماريا (مستشار حقوقي)
- سيغورا، فيليكس (راهب واحد من الرهبان التابعين للطريقة الكابوشية)
- سيلبيلا كسادو، لوبيث (مقيم عام)
- سيلفستري كسادا، إلوطيريا
- سيلفيريو كورشادو، مانويل (جندي)
- سيلفيلا، فرانسيسكو (رئيس الحكومة)
- سييرا سرانو، خوليان (تنينتي)
- سييرينت بيرغانثا، خوان (جنرال)
- شافتر، روفوس (جنرال امريكي 1898)
- شافول إدموندو (معمر فرنسي بزايو)
- شاكون إي فالدكانياس، بيدرو (قبطان)
- شرفاء مزيان (زعماء ذو سلط دينية)
- شلي سكوط، وينفليد (قائد اسطول امريكي لسنة 1898)
- شيكوتي اركوس، ريكاردو (قبطان)
- صادق عمار (شخصية من بني حذيفة)
- صادق موحند (شخصية من بني حذيفة)
- صالح بن منصور الحمياني (مغامر يميني)
- طابوادا طونديدور، انطونيو (نائب برلماني من

التيار المحافظ)
- طابيا كانطون، لويس (تنيتي)
- طارق بن زياد (فاتح الأندلس)
- طافيرا مورالس، انطونيو (جندي)
- طران باريدا، خوصيفا
- طريانا بلاسكو، خوليان (قبطان)
- طريرو، سوثيسو (واحد من المرتزقة)
- دوق طريفة (كارلوس فرنانديث دي كوردوبا إي وبيريث بارادامس)
- طريو، إيديلميرو (عضو في مجلس الشعب)
- طسينر إي طوماسيش، كارلوس فيديركو (مؤرخ)
- طورال إميليو (جنرال حرب لسنة 1898)
- طورطوسا لينارس، دومينكو (جندي)
- طوروطيشيا، فيسنتي (تنيتي)
- طوريس بيريث، آنخيل (جندي)
- طوريس، إميليو ماريا (ديبلوماسي)
- طوفار، انطونيو (جنرال ووزير الحرب)
- طويرو اودونيل، كارلوس (كولونيل)
- طيخيرو مانيرو، ماريانو (نائب برلماني جمهوري)
- طيريفينيو فالديفيا، فرانثيسكو (كولونيل)
- طيسشودي، بون (مدير الجوية الالمانية)
- طيمبرانو دومينغو، كلاوديو
- عبد السلام بورجيلة (نجل احمد)
- عبد القادر (زعيم قبيلة بني سيكار)
- عبد الكريم (الاخوة والعائلة)
- عبد المالك (زعيم جبالة)
- العربي (فقيه بني يطفت)
- عقبة بن نافع (فاتح المغرب)
- علي امزيان (شخصية بارزة من بني بويحيى)
- عمر (خليفة)
- عمر ابن محمد بن عبد الله، (واحد من الأعيان الريفيين)
- عياش، جرمان (مؤرخ)
- غارسيا أرغويا، خوصي (قبطان)
- غارسيا بريتو، مانويل (رئيس الحكومة)
- غارسيا دي لاسوطا، مانويل (تنيتي)
- غارسيا رسطريبادا، خوصي (كومندان)
- غارسيا غويينا، فرانثيسكو (عضو في المجلس)
- غارسيا فاسو، خوصي (نائب برلماني مع رومانونس)
- غارسيا فرانثيسكو (قبطان)
- غارسيا فيغيراس، طوماس (كومندان ومؤرخ)
- غارسيا كيخارو، لوبيث (نائب برلماني محافظ)
- غارسيا مارتين، ماريانو (جندي)
- غارسيا مارتينيث فيكتور (طبيب قبطان)
- غارسيا مارغايو، خوان (جنرال حرب 1893)
- غارسيا مارغايو، كوادرادو خوان (قبطان)
- غارسيا مورينو، خوصي (جنرال)
- غارسيا مونيوث، خوصي (قبطان طيار)
- غارسيا-إستيبان، ساتوريو (تنيتي كولونيل)
- غارسيا-اليكس (عائلة إسبانية)
- غارسيا-اندوخار، اغوستين (قبطان)
- غارسيا-بريمون، فرناندو (قبطان)
- غارنيرو إي غالفيس، خوصي (قبطان)
- غاريدو كورثيرو، فيسينتي (جندي)
- غاسو إي فيدال، خوصي (عضو في المجلس)
- غالبيس إي مورفي، خوان (قبطان)
- غامس اوريا، خوان (جندي)
- غلان اربال، الفونصو (تنيتي)
- غواردينيو ماريا
- غوال خوان (جندي)
- غوتييريس اورتاسون، بريميطيفو (طبيب قبطان)
- غوتييريس ميادو، مانويل (قبطان)
- غوط، انطونيو (رجل الأعمال والمناجم)
- غومس ثاراغوثا (نائب طيار)
- غومس خوردانا ، فرانثيسكو (جنرال ومقيم عام)
- غومس خوردانا، سوثا، فرانسيسكو (كولونيل)
- غومس دي إيغليثياس، انطونيو (قبطان)

- غومس دي غيفارا، إغناثيو (تنيتي)
- غومس لوبيث. فرناندو (تنيتي)
- غومس نفارو. مريانو (تنيتي كولونيل)
- غونثالث (ملازم ثان طيار)
- غونثالث سلفادور (نائب برلماني)
- غونثالث سوطو، دولوريس
- غونثالث سيموني، إلوي (قبطان)
- غونثالث طبلاس إي غارسيا-إريرو ستياغو (كومندان)
- غونثالث كبايرو، البرطو (راهب تابع للطريقة الكابوشية ومؤرخ)
- غونثالث موني، ستياغو (كومندان)
- غونسالس اونطوريا، مانويل (وزير الدولة)
- غويل (عائلة إسبانية)
- غيديا الفريدو (قبطان)
- غيديا ميان، خوصي (ملازم ثان)
- غيلابا (تجمعات قبلية بمليلية)
- غيي دي لاطوري، بيدرو (تنيتي)
- غييرا ديل ريو، رفائيل (نائب برلماني جمهوري)
- غييرمو الثاني
- فانخول غوني، خواكين (كومندان ونائب برلماني مناصر لماورا)
- الفحص (قبيلة جبالة)
- فراجانة (بطن من بطون مازوزا)
- فرانثيسكو اغيليرا إي إخيا (رئيس المجلس الأعلى للحرب والبحرية)
- فرانكو سالغادو - اراوخو، فرانثيسكو (قبطان)
- فرسيندا مينخيبر، ميغيل (جنرال)
- فرنانديث (ملازم)
- فرنانديث اوكسيا، خوصي رامون (جندي وكاتب)
- فرنانديث إي سانتيث بويرتا، ماريانو (عضو في المجلس)
- فرنانديث بانيطيغا (كولونيل)
- فرنانديث بريث، فرانسيسكو (تنيتي)
- فرنانديث بريدا، خواكين (وزير البحرية)
- فرنانديث بينيدو (ضابط في فرق الجيش الإفريقي)
- فرنانديث خمينس، خوصي (نائب برلماني من "الكلا"، ثمورا)
- فرنانديث دوارتي سيلفستري، إلفيرا
- فرنانديث دي كوردوبا إي كبايرو فرناندو (كولونيل)
- فرنانديث رايغادا، دارييو (تنيتي)
- فرنانديث سيلفستري إي بانطيغا، مانويل (جنرال).
- فرنانديث سيلفستري دوارتي، مانويل (ملازم ثان، وبعدها كومندان)
- فرنانديث طماريت، ريكاردو (تنيتي كولونيل)
- فرنانديث كاسترو إي بدريرا، رافائيل (محامي)
- فرنانديث كينطانا (كولونيل)
- فرنانديث مارتينيث، الفونصو (كومندان)
- فرنانديث مارطوس، بولينو (طبيب كومندان)
- فرنانديث موليرو، اندريه (كومندان)
- فرنانديث موليرو، بيو (قبطان)
- فرنكو بحاموند، فرانثيسكو (كومندان)
- فريسنو اورثايث، ريكاردو (تنيتي)
- فلوميستا مويا، دييغو (تنيتي)
- فورتيا غارسيا، خوليو (قبطان)
- فوسطي إي بيسطيروس، دولورس
- فونطان سانتا ماريا، فرناندو (كولونيل)
- فيرير خوصي (كومندان)
- فيغيروا (عائلة إسبانية)
- فيغيروا الونصو مارتينس خوصي (كونت جيبس)
- فيليبي الثاني
- قادور نمار (شخصية من بني سعيد)
- قايد حدو (واحد من أعيان الريف المنتسب ربما إلى تافريست)
- قايد علال، (قائد توغروت)
- قدور بولخريف
- كاراسكو إغانيا ريكاردو (قبطان)

- كاربيو (نائب في الملاحة الجوية)
- كارفخال (كومندان، مساعد نفارو)
- كارلوس الخامس
- كارمونا مير، مانويل (كومندان ومؤرخ)
- كاريرو بلانكو لويس، (وزير الرئاسة)
- كاريو دوران، خوصي (قبطان الطيران)
- كاسترو (تنينتي مكلف بالبرقيات)
- كاسترو خيرونا، البرطو (جنرال)
- كاسترو مونيوث، مانويل (تنينتي)
- كاستلنو، إدواردو (جنرال حرب فرنسي 1914-1918)
- كاسولا فرنانديث، مانويل (جنرال ووزير)
- كاسينيو لوبيث، فيليبي (تنينتي)
- الكالا ثامورا، نيثيطو (نائب برلماني ليبرالي)
- كالثادو بريث، خوصي (جندي)
- كالدرون مونطيرو، فيثنطي (تنينتي)
- كالفيط ساندوث، فرانثيسكو (قبطان)
- كامبس بويغريدون، لورينثو (جندي من الفيالق)
- كامبس غوردون، خايمي (تنينتي)
- كامبو إي باطيي، فرانثيسكو (وزير المالية)
- كامبو بيدرو (جندي)
- كامبو، موديستو
- كامبوس البويمي، ارتورو (قبطان)
- كامبوي إيريغويين، خوصي (قس)
- كامينو (تنينتي)
- كانو، روبرتو (كاتب بمليلية)
- كانوفاس ديل كاستيو، انطونيو
- كانيدو (ضابط مساعد لكفلكانتي)
- الكايدي ليناريس، انطونيو (ترجمان)
- كايو، جوزيف (رئيس الحكومة الفرنسية سنة 1911)
- كايويلا فريرا، خوصي (قبطان)
- كبابلانكا إي غاريغو، رفاييل (تنينتي كولونيل)
- كبابلانكا مورينو، رفاييل (قبطان)
- كباث مونطيس، اوسفالدو بنيطو
- كبالكانتي، ماركيز (خوصي كبالكانتي دي البوركيركي)
- كبانياس فيرير، ميغيل (جنرال)
- كبايرو بوفيدا، فرناندو (كومندان ومؤرخ)
- كبايرو فرانثيسكو (رجل الأعمال والمناجم)
- كبدانة (قبيلة من الريف الشرقي)
- كرابيرو لوبس (رئيس الجمهورية البرتغالية)
- كرسبو دي لارا، فيليب (كومندان ونائب برلماني محافظ)
- كروث اوبيدا، خوان (قس تابع للطريقة الكابوشية)
- كسادو إسكوديرو، لويس (تنينتي)
- كسانوفاس، اوسيبيو (جندي وسائق سيلفستري)
- كلاوسويدز، كارل فون (منظر عسكري بروسي)
- كماشو (تنينتي في الملاحة الجوية)
- كناليس دي لاس إيراس، لويسا
- غنثالس إي ميندیث، خوصي (رئيس الحكومة)
- كوادرادو خارابا لويس (قبطان)
- كوبيس (شخصية من بني ورياغل)
- كورا بخارس، ليون (تنينتي)
- كورتينا، ماركيز (خوصي غومس اثيبو)
- كورسان (جندي الشرطة الأهلية)
- كورطيس إرنان
- كوروشانو، غريغوريو (صحافي وروائي)
- كوريا كانيدو، فرناندو (قبطان)
- كومبانيز خوفر، لويس (نائب برلماني من قاطلونيا)
- كومياس (عائلة إسبانية)
- كونبوي (المبعوث والممون الريفي لدار الكبداني)
- كونت لاس الميناس (خوصي ماريا دي بلاثيو اربوروا)
- كيتشينر، هربرت، اوراطيو، لورد (جنرال بريطاني)
- كيرو مولينا، انطونيو (تنينتي)
- كيرول اولميديا، ارتورو (جنرال)
- كيريخيطا بابون،خوصي (قبطان)
- كينديلان إي دواني، الفريدو (تنينتي كولونيل)

- لا إغليسيا (عائلة إسبانية)
- لااندلوثي إسكوبيل، بوليكاربو (تاجر)
- لاثاغا بطيرو، خوان بوتيسطا (كولونيل الأسطول ونائب برلماني محافظ)
- لاثاغا رويث، خوصي ماريا (ملازم ثان للبحرية)
- لاثرو مونيوث، كارلوس (قبطان)
- لاثي دي اغيلار، لويس (قبطان)
- لاريا ليسو، فرانثيسكو (كولونيل وفيما بعد جنرال)
- لاما، خوصي (قبطان)
- لكريكا إركيثا، خوصي فيليكس (نائب برلماني ماورا)
- لكنال فيار، ريكاردو (كولونيل)
- لوبو ريسطوري، انطونيو (قبطان)
- لوبيث اغوستين (قبطان)
- لوبيث بوثاس، خوصي (كولونيل)
- لوبيث خورادو، خوان (جندي)
- لوبيث دومينكيز (جنرال ورئيس الحكومة)
- لوبيث دي لاميلا إديغوراس، كارلوس (ملازم كولونيل)
- لوبيث رودينياس (نائب)
- لوبيث رويث، طوليو (كومندان)
- لوبيث ريندا، رافائيل (صحافي)
- لوبيث فيثنطي، خسوس (قبطان)
- لوبيث فيرير، خواكين (مهندس)
- لوبيث فيرير، لوثيانو (مقيم عام)
- لوبيث كامينيا، إسيدورو (ملازم ثان)
- لوبيث، خوصي (جندي)
- لوبيرا خوان (كومندان)
- لوبيرا خيليرا، كانديدو (كومندان وصحافي)
- لوثون (ضابط الشرطة الأهلية)
- لودينداوروف، إريس (جنرال الماني)
- لوس اركوس، ميراندا، انطونيو (جنرال)
- لوسادا اورتيغا، انطونيو (موظف)
- لوكي إي كوكا، اغوستين (جنرال ووزير للحرب)
- ليما، ماركيز (سلفادور بريمو دي كاسترو اولاولور
- لينارس، ارسنيو (جنرال ووزير الحرب 1909)
- ليو، رفائيل (جندي)
- ليوطي، اوبرت (المقيم العام الفرنسي بالمغرب)
- ليومبارت ثيسار، خوليو (مساعد في إدارة التموين)
- ليون ليون، برطولومي (ملازم ثان)
- ماثوثا او مزوزة (قبيلة من الريف الشرقي)
- ماراغاي، خوان (شاعر)
- مارتين لوبث، ريكاردو (تنيتي)
- مارتينيث اندريه (جندي)
- مارتينيث انيدو، سيرفيانو (جنرال)
- مارتينيث دي كامبوس، ارسنيو (ماركيز دي لافيسكا، قبطان ونائب برلماني مستقل)
- مارتينيث دي لافيغا، خوان (مساعد بيكاسو)
- مارتينيث فيفاس، خسوالدو (كومندان)
- مارتينيث كانيادامس (ملازم ثان)
- مارتينيث لوبيث، خوانا (صاحبة حانة بباطل)
- مارتيينث طريو، خسوس (جندي)
- مارثو بلا غير، إنريكي (جنرال)
- مارشاند (كولونيل فرنسي في السودان)
- ماركو روكامورا، خوان (استاذ الفروسية)
- ماركو مير، خوان (تنيتي)
- ماركيث طيشيا، انطونيو (تنيتي)
- ماركيث مارينث، بنيطو (كولونيل)
- ماركيري رويث- ديلغادو، الفريدو (كومندان)
- ماروطو بيرث ديل بولغار، خوان (ملازم ثان)
- ماريا كرستينا دي ابسبورغو-لورينا، (ملكة إسبانيا)
- مارينا فيارس، بيدرو (تنيتي كولونيل)
- مارينا فيغا، خوصي (جنرال ومقيم عام)
- ماسيير الباريدا، فرانثيسكو (كولونيل)
- ماطيو لافنوتي، إنريكي (تنيتي طيار)
- مافيولي-روديس، رامون (ملازم ثان)
- مالدونادو مير، فرانثيسكو (تنيتي)
- مانثنيكي فيلطرو، لويس (ملازم طيار)

- مانجين (تنينتي كولونيل فرنسي)
- ماندلي راميرث، ارتورو (تنينتي)
- مانطيرولا إي راميرث دي كرطاخينه خوصي (تنينتي)
- مانيرا فالدس، إنريكي (ملازم ثان كولونيل)
- مانيلا دوكسني، فرانثيسكو دي اسيس (جنرال)
- مانيلا دوكسني، كونثبثيون
- مانيلا كورالس، فرانثيسكو خافير (كولونيل)
- ماورا مونطانير، انطونيو (رئيس الحكومة)
- مايثطو، راميرو (مفكر وكاتب مقالات)
- مايستري بيريث طوماس(طبيب وعضو في مجلس الشيوخ)
- المتوكي (جندي الشرطة الأهلية)
- محمد ازرقان، (رسول عبد الكريم)
- محمد ابن سداوي، (من قدماء المحاربين الريفيين)
- محمد ابن عبد الله، (رابع الملوك العلويين)
- محمد بولخريف
- محمد شدي (واحد من أعيان بني ورياغل)
- محمد عبد الكريم، (زعيم الثورة الريفية)
- محمد عبد الله (شخصية بارزة من بني ورياغل)
- محمد غارفاتي، (خادم سيدي اقلعي)
- محمد، نجل حدو (زعيم ريفي)
- مدينا دي كاسترو انطونيو (تنينتي)
- المرابطين (عائلة ريفية في ناحية الحسيمة)
- مطالسة (قبيلة من الريف الشرقي)
- موانني (جنرال فرنسي)
- موحوا. ف (المبعوث الإسباني إلى برلين)
- مورالس إي ميندويغوتيا، برطولومي (قبطان البحرية)
- مورالس رينوسو، آنخيل (كولونيل)
- مورالس طرافالينا، إميليو (قبطان)
- مورالس غابريل
- مورالس، رامون (تنينتي)
- مورالس، ميندويغوتيا، غابريل (كولونيل)
- موروطي إي غريوس، خوصي (نائب برلماني من شيعة رومانونس)
- مورينو دي الكانطرا، كارمن
- مورينو دي لاطيخيرا، خواكين (طبيب عسكري)
- مورينو مارتين (جندي)
- مورينو مونيوث، بيدرو (قبطان)
- مولا فيدال، إميليو (كومندان)
- مولاي احمد الريسوني (زعيم جبالة)
- مولاي الحسن (العاهل العلوي التاسع)
- مولاي المهدي (خليفة الحماية الإسبانية)
- مولاي عبد السلام بن مشيش، (الولي الصالح لجبالة وغمارة)
- مولاي بوبكر (جنرال علوي حوالي 1898)
- مولاي حفيظ (العاهل العلوي الحادي عشر)
- مولاي عباس، (القائد العسكري المغربي حرب 1859-1860)
- مولاي يوسف (العاهل العلوي الثاني عشر)
- مولاي، عبد العزيز (العاهل العلوي العاشر)
- مونطوخو، باطريثيو (الميرال 1898)
- مونطي فردي سدانو، فيديركو (جنرال)
- مونطياليغري دياث، دامون (ملازم ثان)
- مونطيرو ريوس، إوخنيو (رئيس مجلس الشيوخ)
- مونطيرو مونطيرو، خوصي (ضابط وطبيب بيطري)
- مونطيس ديل كاستيو، فرانثيسكو (قبطان)
- مونيوث بيرطيط، لويس (نائب)
- مونيوث كالشينيري، إميليو (كومندان)
- مونيوث كوبو سيرانو، ديغو (جنرال ووزير)
- مونيوث، إسماعيل (جندي)
- مونييرا، إميليو (جندي)
- ميادو دي ثولويطا، سلفادور (محام)
- ميان استراي، خوصي (تنينتي كولونيل)
- مير (شخصية من بني بويحيى)
- ميراندا فيدال، مانويل (تنينتي طبيب)
- ميرلو كاسترو، لويس (تنينتي)
- ميري ديل فال، الفونصو (سفير بلندن)

- مـيـريت، وسليي (جنرال الحـرب من الولايات المتحدة الأمريكية 1898)
- ميلون (نائب وسائق نفارو)
- ميمون (عامل في مناجم سوطولوثار)
- ميي فيبغا، رامون (تنيتي)
- نافاريطي إيدالغو، روخيلو (صيدلي)
- نفارو باديا، كارلوس (بريغاديي)
- نفـارو ثبـايوس إسكاليـرا، فـيليب (جنرال، وبارون كاسا دافاليو)
- نفارو مورينيس، كارلوس (قبطان)
- نوغيس باريرا، إرنيستو (تنيتي)
- نوغيس سوبيرا، خوليان (نائب برلماني جمهوري)
- نونيـوث دي برادو إي سوسبـيلاس ميـغيل (تنيتي كولونيل)
- نونيوث، فرناندو (تنيتي)
- نييلا دي ثيريا، فرانثيسكو (جنرال)
- هاركوط إي غوط، خواكين (طبيب تنيتي)
- هاريس والتر (صحافي بريطاني)
- هافياند جيوفري (طيار ومهندس طائرات)
- هوارد، سير إسمي (السفير البريطاني بمدريد)
- ولمان دافيدس (صحافي ومؤرخ)
- ويبلز نيكولو، باليريانو (قبطان جنرال)
- ياماس مارتين، مانويل(كومندان)
- يانوس (عضو في مجلس)
- يعقوب فراشي، (تاجر يهودي بافراو)
- يوسف بن تاشفين (سلطان مرابطي).

◆ ◆ ◆

فهرس المناطق الجغرافية

- ابران (مركز)
- ارانخويث (مدريد)
- إرميلا
- ازرو (معسكر وجبل)
- إسحافن (معسكر ومقاطعة)
- اصيلا
- اطاليون (معسكر)
- اطلاطن (في الكوروكو)
- إغان
- افرا (مناجم)
- افراوو (مركز)
- افصو (مركز)
- اكادير
- الطافويا (طراغونا)
- المادين (ثيوداد ريال)
- إمزورن (منحدرات النكور)
- إمعروفن (معسكر بمحاذاة الكرط)
- انجرة (اراضي تابعة لجبالة)
- إنطرميديا أ. (معسكر)
- إنطرميديا ب. (معسكر)
- إنطرميديا ث. (معسكر)
- انوال (معسكر ومقاطعة)
- اوراس (كوبا)
- اوكسان (بلدة منجمية)
- اويونيغو (استورياس)
- إيارموس (بلدة في الريف المتوسط)
- ايت عيشه (معسكر)
- إيزومار(معسكر ومنحدرات)
- إيسن لاسين (معسكر)
- إيغريبن(معسكرات)
- ابن حيدور (معسكر ومرتفع)
- ابن شلال (منازله المحاذية لعرويت)
- ابن طيب(معسكر)
- اعرويت (معسكر وجبل)
- اعزيب ميضار (معسكر)
- باب تازة (منطقة في شفشاون)
- باسبل (قمة جبلية بالكوروكو)
- الباطل (معسكر وبلدة)
- باطيرنا، بالنيياريو (فلنسية)
- براكوييوس ديل خراما (مدريد)
- برانكو دي إينفيرنو (بالكوروكو)
- برانكو دي اللوبو (معركة)
- بلاثيتاس (كوبا)
- بلدة (وجدة)
- بني اعروس (جبال)
- بني سيدل (منحدرات)
- بني صالح (معسكر)
- بني صالح (منحدرات)
- بني عوة (منحدر)
- بني بو افرور (مناجم وبلدة)
- بوإيرمانا (معسكر)
- بوبريس (جبل)
- بوثو 2 (معسكر)
- بوجماجن (معسكر)
- بوحفورة
- بورخسوط (فلنسية)
- بونتا برينثيسا (فيليبناس)
- بوياس (مرسيه)
- بيا ثسنيروس (وهي مدينة الداخلة حاليا في الصحراء المغربية)

- بيسكرا (الجزائر)
- بيفيثيوسا دي أودون (مدريد)
- بيكو (بونطيفيدرا)
- بيلشيطي (ثاراغوثا)
- بينار ديل ريو (كوبا)
- بيوطت (معسكر وميادين)
- تاجنيت (بلدة ومعسكر)
- تازاغين (واد)
- تازروت (معقل الريسوني)
- تازروت (ممر) إشباون
- تازروت اوزاي
- تاغلمانين (حصن الموت)
- تافريسات (بلدة)
- تافريست (بلدة ومعسكر)
- تاوريرت (بلدة وقاعدة عسكرية فرنسية)
- تجيديرت
- ترغة (بلدة بغمارة)
- تركيست
- تسينغارت (ربوة قريبة من بوجمجان).
-تطوان (عاصمة الحماية الإسبانية)
- تلاتزا (بلدة في بني سعيد)
- توريبات
- تيربيبين (معسكر)
- تيزا (معسكر)
- تيزطوطن (معسكر ومحطة للقطار)
- تيزي انزورن (معسكر)
- تيزي تاكاريست (ممر)
تيزي عزة (جبال)
- تيومة (بلدة ومعسكر)
- ثيباديا (شاطئ الحسيمة)
- جبالة (اراضي او بلاد)
- جبل اعروس (معسكر)
- جبل العلم (وهو جبل مقدس عند جبالة وغمارة)
- جبل القامة (القريب من ابران)
- جبل المصور
- جبل طارق (مستعمرة بريطانية)
- جبل كوديه و(هو معسكر)
- جبل ماورو في (الريف المتوسط)
- الجزر الجعفرية
- الجزيرة الخضراء (قادس)
- حاسدو (بالكوروكو)
- حاسي اوينزغا (معسكر فرنسي)
- حاسي بركان (بلدة ومعسكر)
- الحسيمة (خليج، ومنطقة وجبل)
- حمان (طليعة في دار الدريوش)
- خاكا (ويسكا)
- دات احمد (إيل مالو، حصن خشبي بالكوروكو)
- دار ازوغاي (معسكر)
- الدار البيضاء (المغرب)
- دار الحاج بزان (معسكر القصبة الحمراء)
- دار الدريوش (معسكر ومقاطعة)
- دار الكبداني (معسكر ومقاطعة)
- دار شروطة (في نواحي شفشاون)
- دوار أجدير الذي أصبح فيما بعد عاصمة لجمهورية الريف
- دونيانا (اويلفا)
- راس الماء (قبالة الجزر الجعفرية)
- ربوة الأشجار "لومادي لوس آربوليس" (القريبة من إيغريب)
- ربوة بوسفيمادين
- رحور (منطقة في المانيا)
- رستينغا (في ناحية الناظور)
- ركبة الغزال (معسكر)
- رمديوس (بلدة قريبة من لاهفانا)
- رملة (دوار)
- روضة (ربوة)
- الريف
- ريين دي غيراو (معسكر)

- الزاوية (وهي ربوة قريبة من بوجماجن)
- زايو (جبال وبلدة)
- الزغنغن (بلدة ومعسكر)
- سابنا دي مايث (كوبا)
- سالينياس دي إيل (الصحراء المغربية)
- سان خافير (مرسيه)
- سان خوان دي لاس ميناس (بلدة)
- سانطونيا (سانطاندير)
- سانكتي سبيريتوس (كوبا)
- السبت
- سلوان (بلدة ومطار)
- سمار (معسكر)
- سنتياغو دي كوبا
- سوري (إيطاليا)
- سوق إنوناتن (بلدة في ناحية أنوال)
- سوق الأحد (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق الأحد (بلدة في ناحية الحسيمة)
سوق الأحد (بلدة ومعسكر في مليلية)
- سوق الأربعاء (بلدة في الريف الشرقي)
- سوق الأربعاء (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق الثلاثاء (في الريف المتوسط)
- سوق الثلاثاء بوبكر (معسكر ومقاطعة)
- سوق الخميس (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق السبت (بلدة في الريف المتوسط)
- سياش1 ، سياش2 (معسكرات عسكرية)
- سيدي ابن العباس (قاعدة القوات الأجنبية بالجزائر)
- سيدي احمد الحاج (معسكر)
- سيدي ادريس (معسكر)
- سيدي الحسين (افراو)
- سيدي جفوت
- سيدي صالح (بلدة)
- سيدي علي (معسكر)
- سيدي محمد بن عبد الله (ضريح الولي الصالح)
- سيدي موسى (معسكر)
- سيدي ورياش (ضريح ومقبرة)
- سيردا (بلد الوليد)
- سيغوندا كاسيتا (معسكر بجوار مليلية)
- شاطئ الحرشة (بالحسيمة)
- شاطئ وجداين (بالحسيمة)
- شامبانيا (منطقة فرنسية)
- شفشاون (مدينة لها قدسيتها في الشمال المغربي)
- شيف (معسكر)
- صالح (واد)
- صنهاجة
- الصويرة (التي كانت سابقا موغادور)
- طابلادا (قرية ومطار بإشبيلية)
- طريس فوركاس (شبه الجزيرة)
- طريمب (ليريدا)
- طلفيرا دي لارينا (طليطلة)
- طمبلاديراس اروبو (في ناحية العرائش)
- طنجة (مدينة في شمال المغرب كانت منطقة دولية)
- طهواردة (جبال وصخور)
- طهودة (الجزائر)
طوري دي إستيبان امبران (طليطلة)
- طوريلو دونيس (مدريد)
- طيطاس دي الناظور (منحدرات محدبة)
- العرائش (المغرب)
- عقبة القلة (معسكر)
- عمار اولاد سعيد (تل قريب من ابران)
- عين زوراح (دوار ومعمر)
- عين زورن (بلدة)
- عين كرط (معسكر)
- الغرب (منطقة في شمال المغرب)
- غرنيكا (فسكايا)
- غمارة (اراضي وبلدة)
- غيراو (الأراضي الجرداء)

- فاس (مدينة مغربية)
- فاشودا (السودان)
- فندق عين الجديدة (بلدة ومعسكر)
قبيلية (منطقة في الشمال الجزائري)
- القرن (بلدة)
- القصر الكبير
- القلة (قمة جبلية بالكوروكو)
- قلعة هناريس (مدريد)
- القندوسي (بلدة ومقاطعة)
- كابيتي (فيليبثاس)
- كارا ميضار (معسكر)
- كاريداد (كوبا)
- كاسابوينا (معسكر)
- كالداس دي ريبس (بونتيبيدرا)
- كامب برطو (معسكر وبلدة فرنسية)
- كاني (كوبا)
- كبايو (واد ومنبع مائي في اعرويت)
- كتامة (معسكر ومنطقة)
- الكرط (واد)
- كمادو، كالادي (الحسيمة)
- كوديا الروضة (معسكر)
- الكوروكو (كتلة جبلية وميدان للقتال)
- كوسطيان (ويسكا)
- كويستا كولورادا (معسكر)
- كيلاتش (في ناحية الحسيمة)
- لادولوروسا (كوبا)
- لخماس (منطقة في جبالة)
- لغارط (اراضي جرداء)
- اللكوس (واد)
- لوثون (فيليبيناس)
- لوما دي لوس آربوليس (بالقرب من إغريبن)
- ليون (فرنسا)
- ماخيسار (واد)
- مارشيكا (شريط ساحلي بالناظور)
- مجرى الهرف (وادي)
- المدينة المنورة (في المملكة العربية السعودية)
- مدينة ديل كامبو (في بلد الوليد)
- مراكش (مدينة مغربية)
- مركز اعريين-لاو
- المضيق (تطوان)
- معسكر تاليليت
- معسكر حمودة
- ملوية
- منثانارث (واد)
- مورو بييخو(بالحسيمة)
- مورو نويبو (بالحسيمة)
- مورون (كوبا)
- ميامي (الولايات المتحدة الأمريكية)
- ميخايست (معسكر)
- ميضار (الحصن الخشبي)
- الناظور (بلدة ومقاطعة)
- النكور (منطقة، وواد)
- نواضير (بلدة)
- نويبيتاس (كوبا)
- نيس (مدينة فرنسية)
- هينداية (فرنسا)
- واد امقران
- واد الراس (جبالة)
- وادي إغان
- وجدة (مدينة مغربية)
ودراس(أبار)
- ورغة
- وزان (بلدة)
- وهران (الجزائر)
- يازانين (معسكر)
- ييرس (في بلجيكا)
- يسطي (الباثيطي)

محتويات الكتاب

مقدمة..... 05

الفصل الأول: في موطن الحرب..... 11

الفصل الثاني: عيون الملك على المغرب..... 45

الفصل الثالث: طريق أنوال..... 81

الفصل الرابع: أبران عند نهاية فصل الربيع..... 103

الفصل الخامس: جنرال التلال الثلاث..... 155

الفصل السادس: أزيد من ثلاثة آلاف قتيل في أعرويت،
وآخرون كثير..... 237

الفصل السابع: إسبانيا بيكاسو..... 335

خاتمة: ما مصير كل أولئك الرجال؟..... 403

كرونولوجيا:..... 433

فهرس الوثائق:..... 439

فهرس الأعلام:..... 457

ضفاف سلسلة

❖ العدد الأول / التحليل النفسي

تاليف: كاترين كليمان

ترجمة : محمد سبيلا وحسن أحجيج

❖ العدد الثاني / التحليل النصي

تاليف: رولان بارت

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي

❖ العدد الثالث / سقوط الأمبراطورية الحمراء

تاليف :د.ميخائيل فوسلينسكي

ترجمة : د.سناء المصطفى الموصل

تقديم: د. اسماعيل العلوي

❖ العدد الرابع / أسرار مهمتي بالمغرب

تاليف : جيلبير كرانفال

ترجمة : محمد بن الشيخ

تقديم: د. عبد الهادي بوطالب

❖ العدد الخامس / رسائل إلى شاعر ناشئ .. إلى روائي ناشئ

تاليف: ماريا ريلكه/فارغاس يوصا

ترجمة وتقديم : أحمد المديني

❖ العدد االسادس /أبي يرقص(مذكرات)

تاليف: نيكولاس باباندريو

ترجمة: مروان عكاوي

❖ العدد السابع /التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية

تاليف: أمبروسيو هويثي ميراندا

ترجمة: عبد الواحد أكمير

❖ العدد الثامن /التحليل النفسي (أسسه الفلسفية ومكتشفاته الكبرى)

تأليف: بول لوران أسون

ترجمة: محمد سبيلا

❖ العدد التاسع /السياسة الخارجية للمغرب

تأليف: ميغيل هيرناندو دي لارامندي

ترجمة: عبد العالي البروكي

❖ العدد العاشر /مغاربة في خدمة فرانكو

تأليف: ماريا روسا دي ماداريا غا

ترجمة: كنزة الغالي

❖ العدد الحادي عشر /الإسلام والمسلمون في إسبانيا

تأليف: خيما مارتين مونيوث

ترجمة: كنزة الغالي

❖ ❖ ❖

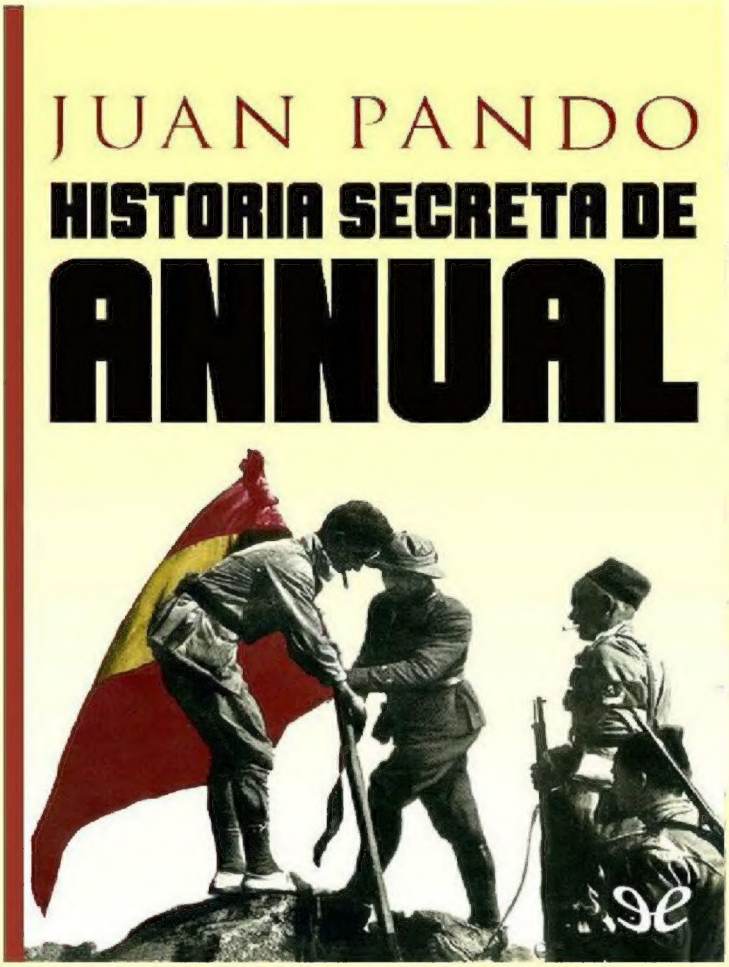

خوان باندو

- من مواليد سنة 1943 بمدريد.
- حاصل على الدكتوراه في التاريخ والجغرافية.
- خبير في العلاقات الدولية والتاريخ العسكري.
- ألقى العديد من المحاضرات على طلبة الماجستير في كلية علوم الإعلام وجامعة كومبلوتينسي والأكاديمية العامة بسرقسطة.
- سنة 1998 تم تكليفه بمعرض "حلم ما وراء البحر" الذي احتضنته المكتبة الوطنية بمدريد.
- يعدّ واحدا من أبرز الأفريقانيين، وعضو شرفي داخل مؤسسة نويسترا سينيورا دي أفريكا.
- من كبار المهتمين بقضايا المغرب، خاصة منطقة الريف وجبالة. جاءت زيارته الأولى لمنطقة أنوال سنة 1969. فيما بعد تكررت الزيارات، عام 1971، 1972، 1985، 1990 و1998، وذلك للاطلاع على أدق تفاصيل تراجيديا جيش الإسبان بقيادة الجنرال سيلفستري، بموازاة مع ذلك عزز مجهوداته العلمية ببحث وتنقيب دقيقين استغرقا منه ثماني سنوات في الأرشيف العدلي الإسباني.